كمال حسن على

مشاوير العمر

أسرار وخفايا ٧٠ عامًا من عمر مصر

فى الحرب والمخابرات والسياسة

دار الشروق

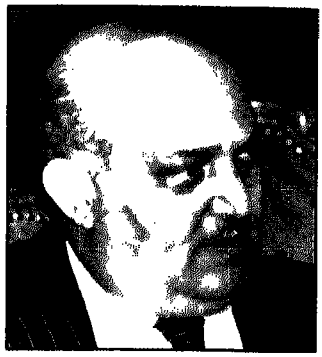
الإهـــــداء :

إلى الأبنـــاء والأحفـــاد

كلـمــة حــق ... وحـــتى لا تتـوه الأجيـــال

كمال حسن علي

الفريق أول
كمال حسن على



تاريخ الميلاد	:	١٨ سبتمبر عام ١٩٢١
تاريخ الالتحاق بالكلية الحربية	:	سبتمبر عام ١٩٤٠
تاريخ التخرج فى الكلية الحربية	:	سبتمبر عام ١٩٤٢
الحالة الاجتماعية	:	متزوج وله ولد وبنتان

الوظائف التى شغلها :

ـ رئيس مجلس وزراء مصر	٨٥/٨٤	
ـ نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية	٨٤/٨١	وعضو وفد مصر فى مفاوضات الحكم الذاتى للفلسطينيين
ـ وزير الدفاع والإنتاج الحربى والقائد العام للقوات المسلحة	٨٠/٧٨	ورئيس الوفد المصرى فى مفاوضات المعاهدة المصرية/الإسرائيلية بواشنطن
ـ رئيس المخابرات العامة المصرية	٧٨/٧٥	
ـ مساعد وزير الحربية	٧٥	أثناء حرب أكتوبر
ـ مدير سلاح المدرعات فى حرب أكتوبر	٧٥/٧١	
ـ رئيس العمليات / هيئة العمليات للقوات المسلحة	٧١/٧٠	

ـ قائد الفرقة ٢١ مدرعة	٧٠/٦٨	أثناء حرب الاستنزاف
ـ نائب مدير شئون الضباط	٦٨/٦٧	
ـ قائد اللواء الثانى المدرع	٦٧/٦٦	أثناء حرب ٦٧
ـ مدير مكتب قائد القوات البرية	٦٦/٦٥	
ـ رئيس العمليات للقوات المصرية	٦٥/٦٣	باليمن
ـ مدرس بكلية القادة والأركان بالقاهرة	٦٣/٦١	
ـ قائد اللواء ٧٠ مدرع السورى	٦١/٦٠	أثناء الوحدة المصرية السورية
ـ أركان حرب عمليات القيادة الشرقية بالإسماعيلية	٥٨/٥٧	أثناء الوحدة المصرية السورية
ـ كبير معلمى مدرسة المدرعات	٥٧/٤٢	أثناء الحرب العالمية الثانية
ـ قائد فصيلة دبابات ثم سرية دبابات		ثم حرب فلسطين ١٩٤٨

الثقافة العسكرية :

ـ بكالوريوس العلوم العسكرية عام	١٩٤٢
ـ دورة بمدرسة المدرعات بإنجلترا	١٩٥٠
ـ دورة كلية القادة والأركان	١٩٥٦
ـ دورة قادة ألوية وفرق بالاتحاد السوفييتى	٦٠/٥٩
ـ كلية الحرب ، أكاديمية ناصر	١٩٧٠

الرتب العسكرية :

آخرها رتبة الفريق أول ١٩٧٩/٤/٢٦

مشاوير العمر

مشاوير : الحروب السبع

مشوار : المخابرات العامة

مشوار : وزارة الدفاع

مشوار : بلير هاوس ـ المفاوضات مع إسرائيل

مشوار : وزارة الخارجية

مشوار : مجلس الوزراء

إن سبعين انقضت لم تكن غير ثوان
هى كاللحظة إن قيست إلى عمر الزمان

أحمد شوقى

فهرست الكتاب

مقدمة تمهيدية

فى ختام الدورة الثامنة للمجلس العالمى المشترك المعروف باسم Interaction Council[1] والذى كان منعقدًا فى عام ١٩٩٠ فى سيول فى كوريا الجنوبية ، وقف رئيس الجلسة « هيلموت شميت » مستشار ألمانيا السابق ليقول :

والآن أعتقد ياسادة أنه سيكون لدينا من موضوعات البحث ما يشغل وقت فراغنا على الأقل لمدة تسعين يومًا . .

وهنا ضجت القاعة بالضحك . .

كان هيلموت يعلم أن الشخصيات المجتمعة أمامه يعانون حاليا من فراغ كبير ، بعد أن كانت أوقاتهم تحتسب بالدقيقة والثانية ، فقد كانوا كلهم رؤساء دول وحكومات سابقين . والآن تجمعهم صفة واحدة هى : التقدم فى السن والخبرة غير المنتفع بها دوامًا ، لذلك كانوا يطلقون على مجموعتهم مجموعة الأولد بويز (Old Boys) أو الأولاد الكبار . .

كنت قد انضممت حديثًا إلى هؤلاء « الأولاد الكبار » بصفتى الشخصية وليس بصفتى ممثلاً رسميًا لدولة بعينها ، شأنى فى ذلك شأن كل أعضاء المجلس الذين يكونون ما يعرف بمجموعة التفكير أو مجموعة Brain Trust . . والذين يعكفون على بحث ما يعرض عليهم من قضايا العالم الهامة كقضايا الأمن والسلام والقضايا الاقتصادية وقضايا البيئة والتنمية والسكان لتقديمها إلى منظمات الأمم المتحدة المختصة والدول المعنية .

ولم أكن فى ذلك الوقت قد قدمت استقالتى بعد من رئاسة مجلس إدارة البنك المصرى الخليجى ، لذلك لم أشارك باقى « الأولد بويز » فى هذا الإحساس بالفراغ الذى أشار إليه المستشار هيلموت شميت فى تلك الجلسة .

---

(١) سيجىء ذكر هذا المجلس تفصيلاً بمهامه فى الفصل الختامى .

ولكن حدث بعد ذلك بعدة شهور أن اشتد على مرض الروماتويد الذى بدأ أولى مهاجماته لعظامى قبل ذلك ببضع سنين عندما كنت أعمل وزيرًا للدفاع ، مما اضطرنى فى النهاية إلى دخول مستشفى جورج واشنطن الجامعى بالولايات المتحدة فى مارس عام ١٩٩١ ، حيث أجريت لى هناك عدة عمليات معقدة بالعنق استغرقت ثمانى ساعات ونصف الساعة تحت التخدير ، قام الأطباء خلالها بإجراء عدة ترقيعات عظمية متشابكة استعانوا فيها بشرائح عظمية نقلوها إلى من بنك العظام !

بعد هذه العملية نصحنى الأطباء بضرورة الاستقالة من كافة أعمالى والخلود للراحة تجنبا لمسئوليات العمل اليومى . ولكن بعد حياة ملأها العمل الدءوب المستمر لأكثر من خمسين عاما ، كانت خشيتى من الخلود للراحة تفوق خشيتى من عدم الخلود إليها بكثير ! ولكن إزاء اشتداد الآلام المتواصل اضطررت للإذعان إلى نصيحة الأطباء ، فقدمت استقالتى من البنك بعد ثلاثة شهور فى يونيو من عام ١٩٩١ .

الحقيقة أن أحداث الحياة ومشاويرها التى تعاقبت على خلال السبعين عامًا الماضية لم تكن أبدًا بالمشاوير السهلة الهينة !

فمنذ أن تخرجت فى الكلية الحربية فى سبتمبر عام ١٩٤٢ إلى أن تركت وزارة الدفاع فى مايو ١٩٨١ ، أكون قد قضيت فى خدمة القوات المسلحة ما يربو على ٣٦ عامًا . . وإذا أضفت إليها فترة الخدمة فى المخابرات تصبح أربعين عامًا . . وربما كانت هذه أطول مدة خدمة عسكرية قضاها ضابط فى القوات المسلحة .

فى هذه الفترة المديدة اشتركنا فى أربع حروب مع إسرائيل وفى حرب اليمن ، ومع إضافة فترة حرب الاستنزاف والفترة التى شهدناها من الحرب العالمية الثانية والتى أسهمت فيها بمجرد تخرجى من الكلية الحربية ، يصبح مجموع هذه الحروب سبعًا . . تدرجت أثناءها فى مناصب القوات المسلحة بداية من منصب قائد فصيلة صغيرة برتبة الملازم الثانى حتى منصب قائد فرقة مدرعة برتبة اللواء ثم مديرًا لسلاح المدرعات فى حرب ٧٣ !

وبعد انتهاء هذه الحرب وتركى لهذا المنصب الأخير ، ظننت أنه سيكون آخر مشاوير نضالى فى القوات المسلحة . ولم يخطر على بالى أن القدر مازال يخفى لى فى جعبته عددًا آخر من المهام والأعمال الصعبة . . فقد كلفنى المرحوم الرئيس أنور السادات بثلاثة مناصب متتالية بعد ذلك هى : رئاسة المخابرات العامة ثم وزارة الحربية ثم وزارة الخارجية . ولقد اعتقدت فى نهاية كل عمل منها أنه سيكون آخر المشاوير والمناصب ، إلى أن أسند إلىّ الرئيس محمد حسنى

مبارك تولى رئاسة مجلس الوزراء فى ٥ يونيو ١٩٨٤ . فكان ذلك تتويجا لكل المناصب التى سبقته . ولكن ظروفى الصحية فى ذلك الحين لم تسمح لى بالاستمرار طويلاً فى هذا العمل فقدمت استقالتى فى سبتمبر ١٩٨٥ .

أذكر من المفارقات التاريخية لهذه الوزارة التى صدر قرار تكليفى بتشكيلها فى ١٦ يوليو ١٩٨٤ أن ترتيبها كان رقم (١٠٦) فى العصر الحديث ، بداية من أول وزارة [1] شكلها نوبار باشا (فى عهد الخديو إسماعيل) فى ٢ سبتمبر عام ١٨٧٨ . وباحتساب عدد السنين التى مرت بين الوزارتين نجدها أيضًا (١٠٦) أعوام أى بمتوسط وزارة لكل عام ! .

عزيزى القارئ . .

قبل أن أنتهى من هذا التقديم لأصطحبك معى فى رحلة مشاوير السبعين عاما التى انقضت كاللحظة إن قيست فى عمر الزمان ـ على حدّ قول شاعرنا الكبير شوقى ـ أريد أن أنبّه إلى أن **هذه الصفحات العديدة لم أقصد بها أن تكون مجرد سيرة ذاتية . أو مذكرات تحكى أحداث حياة شخصية أو سياسية ، بقدر ما قصدت بها أن تكون تسجيلاً تاريخيًا تحليليًا لحقبة من القرن العشرين أراد لنا القدر أن تكون حافلة بالحروب وبالأحداث الجسام لدرجة جعلت جمال عبد الناصر يردد عند كل أزمة صادفتنا منها أن جيلنا يبدو وكأنه على موعد مع القدر !**

إنى أومن تمامًا أننا لا نستطيع أن نفصل حياتنا العامة أو الخاصة أبدًا عن منعطفات التاريخ وأحداثه الجارفة . وإنى أتصور مثلاً لو أنى كنت عشت هذه السبعين عامًا فى القرن التاسع عشر بدلاً من القرن العشرين ، لكانت هذه الصفحات تحكى لك أسرار وخبايا العدوان الثلاثى الذى دمر أسطولنا المصرى فى نافارين باليونان عام ١٨٢٧ (والذى كانت أطرافه الثلاثة هى إنجلترا وفرنسا وروسيا) ، بدلا من العدوان الثلاثى لعام ١٩٥٦ ، والذى كانت أطرافه الثلاثة هى إنجلترا وفرنسا وإسرائيل !

ولذلك فإن هذه الصفحات سوف تحكى لك عنىّ . . كما ستحكى لك عن مصر !

ولقد رأيت لفائدة القارئ أن أرفق ثبتًا بالمراجع الأجنبية والعربية التى استعنت بها فى تعميق الخلفية التاريخية لمادة المذكرات وتحليلها ، والتى لا يخفى على القارئ أنى لم أظهر منها إلا القدر الذى لا يكون فى نشره حرج أو مساس بأمن الدولة وأسرارها مما يقتضيه الصالح العام .

---

(١) كانت تسمى « نظارة » فى ذلك العهد .

وفى الوقت نفسه يكون هدى ومرشدًا لأبنائنا من الأجيال الصاعدة التى نترك لهم مصرنا وديعة بين أيديهم ، مع دعوات إلى الله من قلوبنا أن تكون ظروفهم وأحوالهم خيرًا من ظروفنا وأحوالنا وأقل قساوة ومعاناة مما ذقناه وتجرعناه بسبب حساسية تجربة الاستقلال وسط عالم مادى متغير لا تسوده إلا نوازع الاستغلال !

وأخيرًا فى ختام هذه السطور علىّ أن أذكر أنى ظللت هيابا ، لسنوات طوال ، من إقدامى على كتابة هذه المذكرات لفرط أحداثها المتدافعة . . لولا تشجيع صديقى وزميل دفعتى الأديب المؤرخ **اللواء أركان الحرب عبد الرحيم عجاج** والذى عاوننى فى جمع وتبويب مادتها ، وفى مراجعة فصولها . كما شاركنى فى كثير من تقصياتها وتحليلاتها التاريخية . . .

فإليه أتوجه بالشكر والاعتزاز . .

كما أتوجه بنفس الشكر والتقدير إلى صديقى وزميل سلاحى **اللواء أركان الحرب الفنان عصمت الحبروك** الذى يعود إليه الفضل فى إخراج هذا الكتاب بالصورة التى جاء بها بين يديك عزيزى القارئ .

كمال حسن على

القاهرة فى يوم الجمعة
الموافق ١ يناير ١٩٩٣

الباب الأول

عيون الطفولة

الفصل الأول : الأسوار العالية

الفصل الثانى : هوايات جديدة

الفصل الثالث : أزمة فى العالم وفى بيتنا

الفصل الأول

الأسوار العالية

الحقيقة أنى لا أستطيع أن أستعيد شريط الذكريات للسنوات الأولى من طفولتى ، دون أن تموج أحاسيسى بأروع صور الجمال لحى عابدين الأنيق الهادئ حيث كانت تغترف رئتاى من شذا الأزهار المتفتحة وعبق الأشجار المزدهرة التى تنتشر داخل حدائق القصر الملكى الكبير والذى تحيط به الأسوار العالية لتقف حجابًا كثيفًا يخفى مرتادى حدائق القصر من أفراد العائلة المالكة ، فلا تقع عليهم عيون سكان الأدوار العليا من البيوت المحظوظة التى تحيط بالقصر . .

فى أحد هذه البيوت ولدت طفلاً محظوظًا يستمتع برؤية عربات « الفايتون » الملكية البراقة تجرها الخيول المطهمة ثم سيارات الرولزرويس الحمراء القانية تتهادى فوق إطارات بيضاء ناصعة وبداخلها أميرات ساحرات أو ملك مهيب المحيا تركى التقاطيع . وكل هذه الصور تبدو لى الآن كفيلم ملون التقط فى أرقى أنحاء أوربا .

ولكى تكتمل خلفية الصورة الأنيقة فى أغوار مخيلتى ، تترامى إلى ذهنى دقات الطبول القوية المنتظمة والتى كانت تستهوى وجدانى الصغير تصاحب أنغام المارشات العسكرية البديعة تصدح بها موسيقى الخيالة الملكية التى تنتظم فى طوابير منضبطة عليها فرسان يشرعون سيوفهم اللامعة ، وقد تصلبت وجوههم الجادة فوق سلاسل من الفضة تكسو مناكبهم العريضة فبدوا لى فى ثباتهم المهيب وكأنهم تماثيل نحتوا من صخر ، سوى أنهم كانوا يتحركون كآلات مسيّرة .

ولقد حفظت عن ظهر قلب ساعة خروج هذه الطوابير الصادحة أيام الخميس من «قشلاق » الخيالة الملكى ومن مبنى الموسيقات الواقع فى ميدان رجب أغا الذى كان يواجه بيتنا



الملك فؤاد والأمير فاروق



الملك فاروق والعائلة المالكة

تمامًا ، فأحرص على ألا تفوتنى بهجة هذه الساعة حتى أكون بين الأطفال الذين تمتلئ بهم الشرفات وهم يلوّحون بأيديهم الصغيرة ويهتفون بحناجرهم الحادة الدقيقة .

وإذا كانت هذه الساعات من أيام الخميس لا تفلت منى أبدًا ، فإن ساعات الصلاة فى يوم الجمعة كانت تشد اهتمامى بنفس الجذب الكبير .

ففى زاوية من السور الخلفى للقصر يقبع جامع « ملكى » صغير له باب داخلى خاص يدلف منه الملك ليؤدى الصلاة مجتمعًا مع أفراد من الشعب من الأسر القليلة التى تسكن حول القصر والتى خصص لها باب خارجى عام غير الباب الملكى . وكان سعيدًا منا من يلمح الملك من بعيد أو يصاحب كبار أهل الحى وهم يتجهون إلى الصلاة . . كان منهم الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر ومحمد بك جعفر رئيس محكمة النقض ومحمود بك صالح حكمدار الدقهلية ، وغيرهم وغيرهم . . .

ولكن الحياة ليست كلها موسيقى صادحة أو بهجة أبدية ، فما زلت أذكر كيف انبعث الصراخ مختلطًا بصياح الأسى من كل بيت من بيوت الحى . . كان ذلك فى يوم حزين أسيف من أيام عام ١٩٢٧ ـ وكنت قد أشرفت على السابعة من عمرى عندما اخترقت أذنى هذه الصرخات لأصحو مذعورًا من النوم وأشهد الدموع تنحدر من عيون خيم عليها الحزن والهلع ، بينما المظاهرات العارمة تجترف الشوارع والطرقات يصرخ رجالها بصوت واحد ، يدوى فى آن واحد ، وإن انطلق من آلاف الحناجر : . . « سعد حى لم يمت » ! . .

كان حولنا عدد من الكليات والمدارس ، مثل كلية الشريعة وكلية اللغة العربية والمدرسة الخديوية وغيرها ، سرعان ما اندفعت منها الجموع الحاشدة التى تتدفق كطوفان يهدر فى كمد زاحفًا نحو حى المنيرة حيث يربض بيت الأمة ـ بيت المرحوم سعد زغلول ـ ليس بعيدًا عن المكان الذى يرقد فيه الآن جسده المسجى داخل ضريح رخامى صلد ينطق بأقوى رموز مقاومة الاحتلال الظالم . . ويومها ناديت مرددًا ما ينادى به الطوفان ، وهتفت وراءهم ما يهتفون به « لم يمت الزعيم البطل ، وليسقط الاستعمار الغاشم » . .

وفى المساء سألت شقيقى الأكبر طلعت من هو هذا الزعيم البطل ؟ ومن هو هذا الاستعمار الغاشم ؟

وفى التو انطلق لسانه بكلمات كثيرة مبهمة عن دول كبيرة معتدية لا همّ لها إلا أن تبعث بشياطينها المسلحين لكى يسيطروا ويتسلطوا على مقدرات الدول الصغيرة ويستنزفوها !

والحقيقة أنى لم أفهم كثيرًا كل ما قال ! إلا أنى غضبت كثيرًا لكل ما فهمت . . وبعد



سعد زغلول

سنوات قلائل شاء القدر أن أدخل بمفردى فى مواجهة كريهة مفزعة مع شيطان غاشم من شياطين هذا الشيء المقيت المسمى بالاحتلال .

كنت أسير مع ابنتين جميلتين لأسرة صديقة مجاورة لنا ، وقد عهدت إلى ربة هذه الأسرة بدور « حامى حمى » الفتاتين الرشيدتين ، ولم لا ، وقد بلغت الحادية عشرة وصرت « رجلاً » يافعًا « ملء هدومى » كما أسمعهم يقولون عنى ؟! كنا ننشد الاستمتاع بنزهة قصيرة فوق كوبرى قصر النيل حيث الهواء نقى طاهر لم يلوثه بعد ملوث ، والحدائق تزدهر بالأشجار ولم ينبت فيها بعد عمود واحد خرسانى أو أساسات مبنى عشوائى ! وفى الطريق كان علينا أن نمر بحذاء سور حجرى ممتد « لقشلاق » كبير (أى ثكنة عسكرية) تشغلها وحدة عسكرية بريطانية كبيرة . كان القشلاق مقاما فوق المساحة التى تضم الآن مقر الجامعة العربية وفندق هيلتون النيل ومعظم أرض ميدان التحرير . وبينما كنا نقترب من السور الحجرى المحيط بالثكنة العسكرية انشقت الأرض عن مارد أحمر الوجه مدجّج بالسلاح ، ولم ألحظ كيف امتدت يده فى غمضة عين لتعبث بخصلات شعر الابنة الكبرى إلا عندما انطلقت من فمها صرخة

وجل مكتومة . . ولم أشعر وقتها إلا والدم يغلى فى عروق جسدى الصغير ، وفى لحظة خاطفة كنت أندفع مهتاجًا لأهجم على هذا المخلوق الضخم الجثة والذى كان باستطاعته أن يركلنى بعيدًا عنه فى رفسة قوية ، لولا أن تدخل فى اللحظة المناسبة جندى آخر زميل له أبعده عنى وعن الفتاتين . وفى ذلك اليوم أذكر أنه قد اكتمل فهمى تمامًا لكلمة « الاستعمار الغاشم » !

وفى ذلك اليوم أدركت ألا كرامة لوطنى فوق أرضه إذا دنسها قدم الاحتلال . وبعد هذا اليوم أدركت أن هذا الحادث ترك ندبًا غائرًا فوق نسيج أحاسيسى وكرامتى !

وعندما التحقت بالمدارس الثانوية أقسمت ألا أدع مظاهرة واحدة تفوتنى إلا وانضممت لها ضد هذا المحتل الغاصب .

ففى عام ١٩٣٥ عندما اندلعت المظاهرات العنيفة فى جامعة القاهرة (كان اسمها فى ذلك الوقت جامعة فؤاد الأول ولم يكن هناك جامعة غيرها) كنت طالبًا فى السنة الثالثة بمدرسة الحلمية الثانوية (وكان التعليم الثانوى خمس سنوات) .

وعزّ على نفسى ألا نشارك نحن الشبيبة بمدرستنا فى هذه الإضرابات الوطنية . وقبل أن يدق الجرس لطابور الصباح بدقائق قليلة كنت أقف خطيبًا « مفوّها » أندد بالاحتلال ، وأطالب بالاستقلال التام أو الموت الزؤام . هذه العبارة التى كان يحفظها عن ظهر قلب كل خطيب مفوّه أو غير مفوه داخل كل مدرسة أو كلية ! . . . وفى حماسة جياشة وجدتنى أردد أبياتا أحفظها لأمير الشعراء أحمد شوقى (وهى التى تغنى بها الموسيقار محمد عبد الوهاب فيما بعد) .

إلامَ الخُلفُ بينكُمُ إلامَ ... وهذه الضجة الكبرى علامَ ؟
وفيمَ يكيدُ بعضكمُ لبعض ... وتبدون العدواة والخصامَ ؟

وعندما وصلت إلى البيت الذى يقول :

وأين الفوزُ ؟ لا مصر استقلت ... على حال ولا السودان دامَ

وجدتنى محمولا فوق أعناق الطلبة وقد تفجرت حناجرهم بالصياح والهتاف . . . وكان المفروض أن تخرج هذه الجموع فى مظاهرة كبيرة من المدرسة إلى الشارع حيث تعبّر عن مشاعر عميقة فياضة ، ولكنا وجدنا أنفسنا بدلا من ذلك محاطين بعد دقائق بجنود الشرطة الذين أغلقوا علينا باب المدرسة ومنعونا من الخروج !

كان من الضرورى أن يعبر هذا الطوفان الحبيس عن مشاعره المكبوتة بأى سبيل حتى ولو كان سبيلا أهوج غشيما ، وهذا ما حدث بالضبط . إذ سرعان ما اعتدى هذا المارد على

ممتلكات المدرسة (أى ممتلكاته هو نفسه بمعنى أدق) فدمر المعامل والمطاعم والملاعب وغيرها . .

وفى نهاية اليوم بدلا من أن أجد نفسى فى عداد الأبطال المغاوير وجدت نفسى على قائمة المفصولين من المدرسة . وكان على أن أصطحب ولىّ أمرى لكى يكتب على نفسه تعهدًا بعدم تكرار مثل ذلك منى . وهكذا أصبحت الولد السيئ الخلق فى عين الناظر وليس البطل الذى كان ينادى بالأمس بالموت الزؤام أو الاستقلال التام !

وكان ولى أمرى بعد وفاة والدى (فى عام ١٩٣٣) هو خالى الأستاذ زكى المهندس (عميد كلية دار العلوم ونائب رئيس مجمع اللغة العربية) . . وكان يعمل فى ذلك الوقت كبيرًا لمفتشى اللغة العربية . . وكان بالطبع موقفًا مخزيًا . . أقصد مخزيًا له طبعًا وليس لى . . ولكن حمدًا لله . . فقد أعدت إلى المدرسة بعد يومين اثنين فقط بعد أن حذّرنى الناظر شخصيًا من المطالبة بالموت الزؤام !

وكانت نتيجة هذه المظاهرات أننا حرمنا من الأكل فى مطعم المدرسة التالف لمدة شهر بالكامل . ولكن كانت نتيجتها على مستوى الدولة أن تألفت وزارة جديدة هى وزارة على ماهر التى مهدّت لانتخابات جديدة أعادت حزب الوفد على أثرها ليشكّل وزارته الثالثة ، وإجراء المفاوضات مع إنجلترا ، وهى المفاوضات المشهورة التى انتهت بإبرام معاهدة ٣٦ التاريخية ، مما سأذكره فيما بعد .

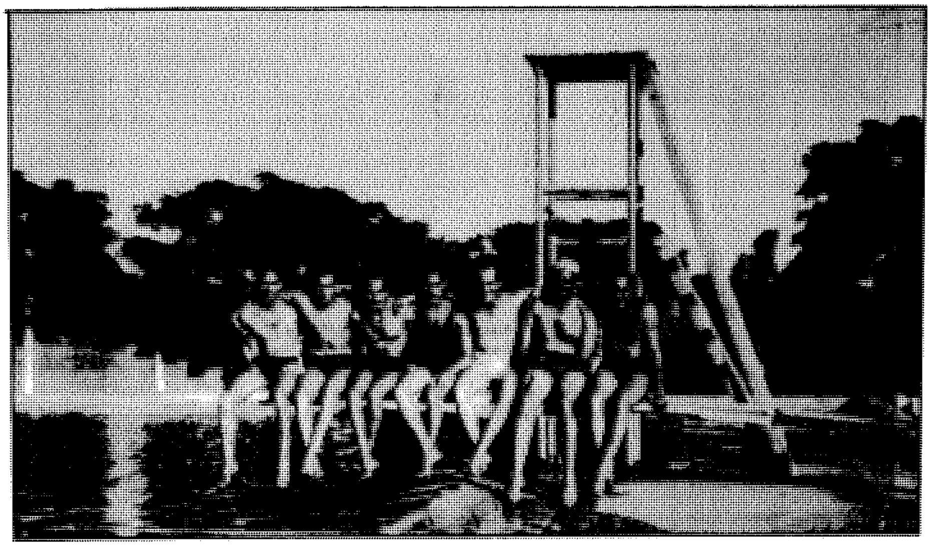
الفصل الثانى

هوايات جديدة

كان علىّ أن أشغل نفسى بهوايات أخرى نافعة غير المظاهرات . وسرعان ما تعلقت بأجمل هوايتين محببتين إلى نفسى . وهما القراءة والرياضة !

وفى الحقيقة ـ بالنسبة للقراءة ـ كان جيلنا محظوظًا مرتين ! فهناك الكُتّاب وهناك الكتب . . هناك جيل معاصر من الكتاب العباقرة الأفذاذ ، وهناك الكتب المجانية المتاحة أوالزهيدة الثمن التى تملأ مكتبات المدارس أو تباع فى كل مكان حتى على الأرصفة والأسوار . لقد انكببت وقتها أنهل من ينابيع الأدب العالمى التى يترجمها الأديب مصطفى لطفى المنفلوطى مثل البؤساء والفضيلة (أو بول وفرجينى) . . كما نهلت من أشعار أحمد شوقى وحافظ إبراهيم، ومطران خليل مطران ، وغيرهم من أساطين العصر الحديث. ولقد ترك كل هؤلاء بصماتهم فى تشكيل أحاسيسى وعواطفى . كما كان لهم الفضل فى إجادتى كثيرًا لأسلوب التعبير وفى تكوين اتجاهاتى وتطلعاتى العلمية . . ولقد اتجهت بعد ذلك مباشرة لأقرأ فى نهم لجيل العظماء من أمثال طه حسين وزكى مبارك وتوفيق الحكيم وعباس العقاد ومحمد حسين هيكل وجبران وعبد الحميد جودة السحار وعبد الرحمن الشرقاوى وزكى نجيب محمود وغيرهم . . وغيرهم . .

أما عن الرياضة فقد آثرت السباحة ، فكانت مسيرتى اليومية الآمنة من المنزل فى حى عابدين إلى حمام وزارة المعارف (التربية والتعليم) فى نهاية شارع الملكة نازلى (رمسيس الآن) . . ولقد استطعت بعد تدريب شاق أن أصل إلى بطولات السباحة على مستوى القطر ، كما التحقت بفريق كرة السلة فى نادى الشبان المسلمين الذى لا يبعد إلا خطوات معدودة عن حمام الوزارة .



مع الأخوة والأصدقاء فى حمام السباحة

ولم يكن دور النادى أو حمام السباحة دورًا رياضيًا فحسب ، بل كان أيضًا دورًا تربويًا تثقيفيًا ، فلقد كان النادى فرصة تتيح لنا الاستماع إلى أفضل المحاضرات العامة التى يلقيها كبار الكتاب والعلماء ، والذين كانوا يجيئون إلينا بدعوة من اللواء صالح حرب باشا رئيس نادى الشبان المسلمين .

وكما كان هناك ناد للشبان المسلمين ، كان هناك ناد آخر للشبان المسيحيين بل وناد ثالث للمكابى اليهود . . ولم يكن هذا الأمر يعنى تقسيما للأديان بقدر ما كان يعنى مجالا للتنافس الشريف فى كافة الألعاب والمباريات التى كانت تنتهى دائما بحفلات ترحيب وألفة للفريقين المتباريين .

ولم تكن هذه الألفة بالطبع إلا جزءًا من تاريخ وحضارة مصر التى تتسم دائمًا بالسماحة المعهودة لشعبها العريق الذى يؤمن بأن الدين هو دين الله ، وأن الوطن هو وطن الجميع .

وبعد تدريب شاق عظيم كل يوم ، كنت لا أنسى أن أكرم نفسى بالمرور على الحلوانى الشهير « جروبى » الذى يقع فى ميدان طلعت حرب حيث كنت ألتهم مع الزملاء وبنفس مفتوحة بعض قطع الساندوتش والجاتوه . . وبعد أن يتناول كل منا ما لذ وطاب كنا نتوجه إلى فتاة الخزينة (الكيس) لكى يذكر لها كل واحد منا فى أمانة وصدق مقدار ما أكل وما أخذ ـ ثم

يدفع الحساب الدقيق دون رقيب أو حسيب ! ولكن للأسف توقف العمل بهذا النظام عند نشوب الحرب العالمية الثانية (عام ١٩٣٩) نتيجة لانخراط جنسيات عديدة فى الخدمة العسكرية البريطانية ولابتلاء مصر بعدد من النازحين من كل أرجاء أوربا وقد لجئوا إليها فرارًا من بطش النازى وجبروته .

كانت القاهرة فى ذلك الوقت ـ أقصد قبل الحرب ـ مثالا للنظافة والجمال والهدوء . . . وكان كل تعدادها لا يزيد عن ١,٥ مليون نسمة [١] . أما السيارات [٢] فكانت قليلة لا تتجاوز بضعة آلاف سيارة . أما الشوارع فكانت خالية من الازدحام . . وحتى الحوارى الجانبية كانت تكنس وترش مرتين يوميًا بالمياه . . لذلك كانت المسيرة بالنسبة لى إلى الحمام ومنه متعة لا تعدلها متعة .

وكما كان جيلنا محظوظًا بالكتّاب والأدباء كان محظوظًا أيضًا بأفضل المطربين والمطربات ـ عبد الوهاب . . أم كلثوم . . ليلى مراد . . منيرة المهدية . . أسمهان . . إلخ . . إلخ . .

وفوق كل هؤلاء عدد من القارئين المشهورين ، وعلى قمتهم المرحوم الشيخ محمد رفعت الذى كان الموسيقار العظيم محمد عبد الوهاب يسميه « قيثارة السماء » !

---

(١) يزيد تعدادها الآن على عشرة أضعاف هذا العدد .

(٢) بلغت السيارات أكثر من مليونى سيارة الآن .

الفصل الثالث

أزمة فى العالم وفى بيتنا

غير أن الأيام ـ بحلوها ومرها ـ لا تسير أبدًا على وتيرة واحدة . . ففى أوائل الثلاثينيات أصيب العالم بأزمة اقتصادية رهيبة ! كادت آثارها تمتد إلى كل بيت فى مصر وبخاصة أصحاب الأراضى الزراعية وبالذات زراع القطن بعد أن انهارت أسعاره فى بورصة ليفربول . وكانت إنجلترا تكاد تكون المستورد الوحيد لهذا القطن . كما وقع الزراع تحت وطأة الديون والرهونات للبنوك وللمرابين الأجانب ، الأمر الذى هدد بضياع الملكية الزراعية لمعظم المصريين ، لولا أن اتفقت حكومة إسماعيل صدقى [1] مع البنوك العقارية على تجميد أقساط هذه الديون وفوائدها الباهظة ، مع إيقاف أى حكم بنزع ملكية للأراضى والعقارات . . كما اتخذ صدقى عدة إجراءات اقتصادية أخرى مشجعة فأصدر قانونًا بتخفيض إيجار الأراضى الزراعية (لسنة ١٩٢٩ ـ ٣٠) بمقدار خمس القيمة المتفق عليها ، وقانونًا آخر لسنة ١٩٣١ يخفضها بمقدار ثلاثة أعشار القيمة . . كما أمر بتأجيل تحصيل مبلغ ٨٥٠ ألف جنيه من قروض الحكومة لصغار الزراع . . (وبالمناسبة كان الجنيه المصرى فى ذلك الوقت يفوق قيمة الجنيه الإنجليزى بنحو بنسين ونصف البنس) .

وفى نفس العام أنشأ أيضًا بنك التسليف الزراعى الذى عهد إليه بالتدخل لدى الدائنين الأجانب لوقف إجراءات نزع الملكية لأراضى المدينين المصريين فى نظير سداد بعض ما عليهم من متأخرات . . كما أوعز إلى الشركة العقارية المصرية بشراء بعض الأراضى المعروضة للبيع الجبرى كى يردها إلى أصحابها ، وخصص لذلك ثلاثة ملايين من الجنيهات [2] .

---

(١) رئيس الوزراء فى ذلك الوقت (مستقل)

(٢) تقدر اليوم بنحو ٦٥٠ مليون جنيه بحساب نسبة التضخم .



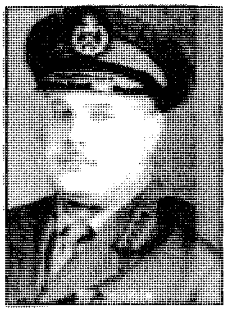
إسماعيل صدقى

وبذلك يكون إسماعيل صدقى قد منع انتقال ملكية مساحات كبيرة من أرض مصر إلى الأجانب والمرابين .

فى ذلك الوقت كان أبى ـ عليه رحمة الله ـ يعمل تاجرًا ومزارعًا فى آن واحد ، وكان واحدًا من المواطنين الذين أمسك لهيب الأزمة الاقتصادية بتلابيب أعمالهم وصحتهم ، فأصيب بارتفاع حاد فى نسبة السكر فى الدم . . فلم يحتمل قيظ يوم ١٢ يونيو عام ١٩٣٣ حيث دهمه نزيف فى المخ لم يتوقف أبدًا مع كل المحاولات التى بذلها الأطباء فتوفى فى نفس اليوم .

كنت فى ذلك الوقت لا أتجاوز الثانى عشر ربيعا . . ولم أشعر فى حياتى كلها بالألم يعتصر قلبى قدر ما اعتصرنى فى ذلك اليوم . لم يكن أبى يمثّل لى مجرد ينبوع من ينابيع العطف والأبوّة ، ولكنه كان أيضًا بالنسبة لى مظلة من قيم الإيمان وصلابة الحق . . . . هذه القيم القديمة التى أخذت تتراجع الآن وتنسحب أمام جحافل التيار المادى . .

كان صعيديًا من أسيوط من قلب الصعيد . ومع صلابته وجديته ، كان يحظى بشخصية باشّة . . وكان من مأثور قوله « إنى أودع كل هموم الحياة ومتاعبها فى حقيبة كبيرة أتركها عند عتبة البيت قبل ولوجى إلى داخله » . . لذلك كنا نشعر أنا وأخوتى الخمسة ـ الذين كانوا كلهم من الذكور ـ أنه رجل لا حدود لعطائه إلا حدود العمر . . وفى رأيى أنه إذا كان منّا من ظل يتمسك ببعض من قيم الجيل الماضى ، فإنما هى بقية من غرسه فينا . .



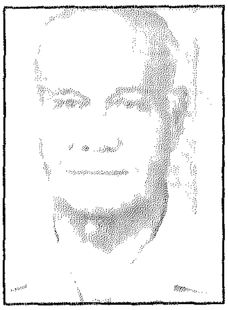
لواء طلعت حسن على



د . فكرى حسن على



مهندس أحمد حسن على



دكتور فؤاد حسن على

وكان كل يوم يمر بعد وفاته ، يشعرنى بمدى فداحة المسئولية التى خلفها فراغ افتقاده . . ولم تكن مشكلتنا مادية ، إذ ترك لنا ما يكفى لحياتنا وتعليمنا نحن الستة بداية من أكبرنا عزت وهو فى السابعة عشرة ، إلى أصغرنا فؤاد ابن الخامسة .

ومازلت أذكر كيف كنّا نجتمع فى غرفة مغلقة نتدارس معا فى خفية كيف نخفف أعباء الحياة عن أمنا التى تقرحت عيناها لسنوات طويلة . . ولم يسعدها شىء بعد ذلك إلا يوم أن حققت انتصارها الكبير باستكمال رسالة أبى بتخرج أولادها جميعا فى دراستهم الجامعية وشغلهم لأرفع المناصب .

لقد صار عزت مهندسًا ، وأصبح طلعت ضابطًا فى سلاح الفرسان وصار فكرى أستاذًا للتربية ، وأحمد مهندسًا آخر ، وفؤاد طبيبًا . ولقد أغفلت ذكر نفسى رغم أن ترتيبى كان الثالث بينهم لأن موضوع اختيار اتجاهى الجامعى قد استغرق منى تفكيرًا عميقًا وسيطرت عليه عدة عوامل متضاربة .

كنت أتمنى أن أصبح طبيبًا بشريًا خصوصًا أن مجموعى كان عاليا يتيح لى الالتحاق بكلية

الطب . ولكنى أعتقد أنى تأثرت وقتذاك بسلوك شقيقى طلعت الذى يكبرنى بثلاث سنوات عندما ترك دراسة إعدادى الطب والتحق بالكلية الحربية وتخرج منها بعد عامين فقط . . إن التحاقى بهذه الكلية إذن سوف يتيح لى فرصة المشاركة فى رعاية إخوتى الثلاثة الأصاغر ، مما يخفّف العبء عن هذه السيدة المصرية الصامدة التى هصرتها السنون فى مشوارها اللاهث حتى صرنا رجالاً . . ومن هنا كان قرارى بالالتحاق بالكلية الحربية خاصة بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ التى سمحت بزيادة حجم القوات المسلحة المصرية .

كانت بريطانيا تهدف من وراء هذه الزيادة إلى خدمة أهدافها فى منطقة الشرق الأوسط التى بدأت تتجه إليها أطماع دولتى المحور ألمانيا وإيطاليا ، أما مصر التى كانت تساير بريطانيا وهى مغلوبة على أمرها فربما كانت ترى على المدى البعيد أن هذه الزيادة قد تعمل على تكوين جيش وطنى يكون نواة الأمل فى تحرير الإرادة القومية وطرد قوات الاحتلال الغاصب . .

ومهما تحدثت فى هذه النقطة عن صراع الإرادات الذى كان يحكم طرفى المشكلة (المستعمر بفتح الميم والمستعمر بكسرها) فإنى أكون قد تجاوزت نطاق فكرى السياسى المحدود فى هذه السن وأكون ادعيت لنفسى حاسة لاستشفافات المستقبل ربما لم تكن براعمها قد نبتت بعد ! المهمّ أنى قدمت أوراقى للكلية الحربية وقبلت !

الباب الثانى

نقطة التحوّل

الفصل الرابع : الاستشعار من بعد

الفصل الخامس : أطول يوم فى التاريخ

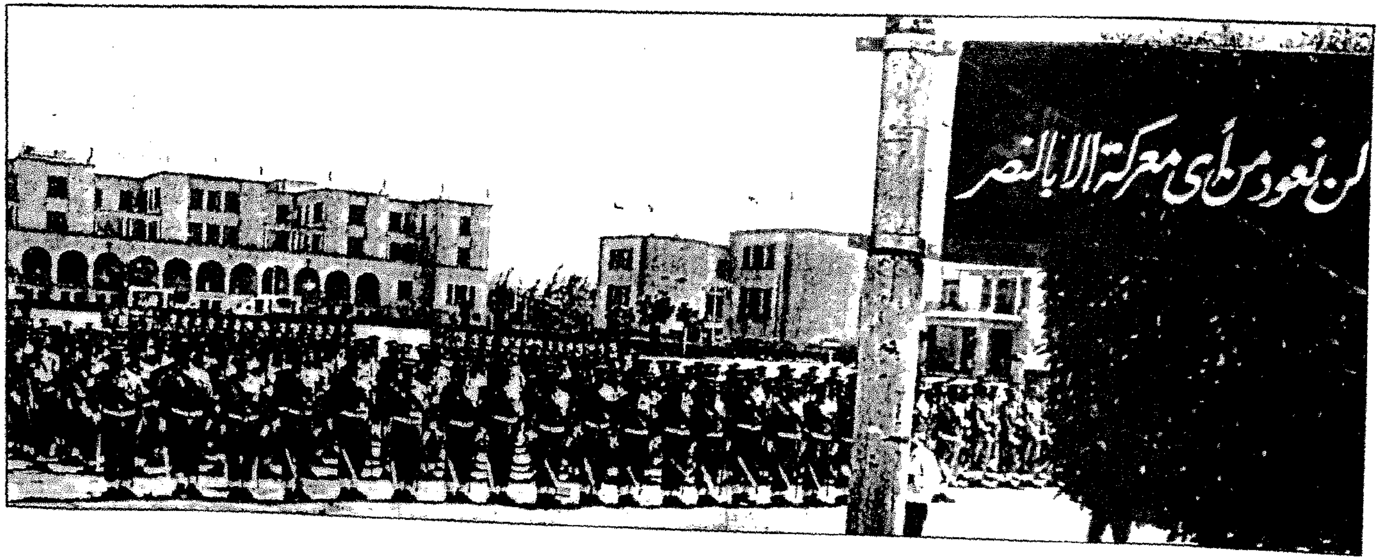
الفصل السادس : وراء الأسوار

الفصل السابع : كلمة حق

الفصل الرابع
الاستشعار من بُعد

لو أن واحدًا ممن وهبوا ملكة الاستشعار من بعد أو التنبوء بالمستقبل ، قال لى فى الثلاثينيات إن المظاهرات التى خرجت فى شوارع برلين بزعامة أدولف هتلر (للحزب الاشتراكى) هى التى ستكون بمثابة نقطة التحول التى ستشكل مجرى حياتى ومستقبلى بالكامل فى مصر ، لاتهمته وقتذاك بالجنون . ولو أنى صدقته لربما كنت أكثر منه جنونًا .

لقد حشد أدولف هتلر حشدًا كبيرًا من القوات المدرعة كانت سببا فى فزع كل أوربا التى لم تشهد مثيلاً لهذا الحشد منذ استخدام الدبابة البريطانية لأول مرة وبأعداد فردية قليلة فى معركتى إيبر وكامبراى بفرنسا عام ١٩١٧ فى الحرب العالمية الأولى . ولقد أدركت إنجلترا مغزى هذا التهديد الواضح ، فتغاضت عن احتلاله للنمسا عام ٣٨ ، ورضخت تماما بعد ذلك لمطالب هتلر فى بعض أراضى تشيكوسلوفاكيا (١٩٣٩). ولقد وضح تمامًا أن ألمانيا استعدت سرًا وفى الخفاء وكونت جيوشها الجرارة التى ضمنت بها التفوق العسكرى فى مسارح العمليات فى كل من أوربا والشرق الأوسط ، وزاد هذا التهديد بعد تكوين محور التحالف الألمانى الإيطالى الجديد . . وبعد غزو إيطاليا للحبشة بالفعل فى عام ١٩٣٦ . . ولذا كان من الضرورى أن تعمل بريطانيا على تهدئة الموقف فى مصر بعد اشتعال البلاد بهذه المظاهرات العارمة من أقصاها إلى أقصاها ، فشرعت فى إجراء مفاوضات جادة انتهت بمعاهدة ١٩٣٦ . . . وبمقتضى هذه المعاهدة تم الاتفاق على زيادة عدد القوات المسلحة فكان أن استوعبت الكلية الحربية دفعة جديدة فى سبتمبر ١٩٤٠ ، وأصبحت واحدًا من طلبتها الذين بلغوا ٢١٧ طالبًا ، وهو أكبر عدد شهدته الكلية حتى ذلك الوقت . . والحقيقة أن الكلية بدأت تعلن عن قبول دفعات جديدة بأعداد كبيرة وعلى فترات سريعة متلاحقة منذ عام



مبنى الكلية الحربية

١٩٣٧ على أثر الأحداث السابقة . ولقد عملت على تكثيف ساعات الدراسة ، بحيث تخرجت بعض الدفعات بعد عام واحد ونصف العام . وعندما أعلنت الكلية عن قبول ١٠٠ طالب مرة واحدة فى عام ١٩٣٩ ، كان ذلك أمرًا غير مألوف فى ذلك الوقت ، إلى أن جاء أمر دفعتنا بحجمها الكبير فى العام التالى فضربت كل الأرقام التى سبقتها . .

معاهدة ١٩٣٦ :

وما دامت معاهدة ١٩٣٦ لها كل هذه الأهمية الخاصة فى دفع حياتى نحو هذا المنعطف الأساسى الجديد ، فإنى أجد لزاما على أن أتوقف قليلا عند ملابسات هذه المعاهدة لأتناولها بشىء من الفحص والتحليل ، حتى يرى المرء كيف تتداخل أحداث الحياة العامة الكبيرة لتتشابك مع خيوط المنعطفات الشخصية المحدودة فتنْحت بأدواتها مستقبل الإنسان وقدره .

إن الثابت من التاريخ أن مصر كثيرًا ما وقعت ضحية الجغرافيا بسبب موقعها الإستراتيجى الفذ . وفى عام ١٨٨٢ وقعت ضحية لبريطانيا لنفس السبب . . إنه قدرها وقدر أبنائها منذ غزو الهكسوس لها فى نهاية الدولة الفرعونية الوسطى . . وعقب حفر قناة السويس فطنت بريطانيا أكثر وأكثر إلى هذا الموقع المميز الذى يتحكم فى طريق المواصلات الرئيسى بينها وبين ممتلكات التاج البريطانى فى الهند وجنوب وشرق آسيا وجنوب وشرق إفريقيا . وبعد أن زاد النفوذ الإيطالى فى الحبشة رغبت بريطانيا فى أن يكون لها حقوق قانونية خاصة فى هذه البقعة من العالم . لذا لم يكن غريبا أن يصدر الملك فاروق مرسومًا ملكيًا فى ١٣ فبراير ١٩٣٦ بتعيين هيئة المفاوضات المصرية ، وكانت تضم من الوفديين مصطفى النحاس باشا وواصف بطرس غالى باشا (عم الدكتور بطرس غالى الأمين العام الحالى للأمم المتحدة) . وكانت هيئة المفاوضات البريطانية مشكّلة من الأدميرال ويليام ميتشر قائد الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض ، ومارشال الجو روبيدن بروك قائد الأسطول الجوى فى الشرق الأوسط ، وغيرهم [1] .

---

(١) كان تشكيل وفد المفاوضات بالضبط كما يلى : من حزب الوفد : مصطفى النحاس باشا وواصف بطرس غالى باشا والدكتور أحمد ماهر وعثمان محرم ومكرم عبيد ومحمود فهمى النقراشى وحمدى سيف النصر ، ومن غير الوفد : محمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، وخمسة آخرون هم : إسماعيل صدقى باشا وبعض المستقلين مثل عبد الفتاح يحيى باشا وعلى الشمسى باشا ومحمد حلمى عيسى باشا وحافظ عفيفى باشا ، ولم يقبل الحزب الوطنى القديم برئاسة حافظ رمضان باشا الاشتراك حيث كانت مبادئه « لا مفاوضة إلاّ بعد الجلاء » . وكانت هيئة المفاوضات البريطانية مشكلة من (الأدميرال ويليام ميتشر) قائد الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض والأمير مارشال الجو روبيدن بروك قائد الأسطول الجوى فى الشرق الأوسط ، والمستر كيلى والمستشار ريدار المندوب السامى ومستر سمارت السكرتير الشرقى بالسفارة البريطانية .

وكان من الواضح من تشكيل وفد المفاوضات أن بريطانيا تركز على النواحى العسكرية وتعطيها الأهمية الأولى فى المفاوضات ، وإن تلاقت مع بعض المطالب المصرية من الناحية السياسية .

وبدأت المفاوضات فى يوم ٢ مارس ١٩٣٦ بقصر الزعفران واستمرت لبضعة أشهر حتى تم التوقيع عليها فى لندن فى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ . وتضمنت المعاهدة عدة موضوعات أهمها البند العسكرى الذى ينص على أن تشرع مصر فى الحال فى تقوية جيشها عددًا وعدة ليصل فى أقرب وقت مستطاع إلى المستوى المنشود وهو ٣٠ ألف ضابط وجندى .

وكان الجيش فى ذلك الوقت لا يتجاوز عدده عشرة آلاف مقاتل ، كما اشتملت المعاهدة على بند آخر سياسى يعتبر فى ذروة الأهمية ، وهو دخول مصر عضوا فى عصبة الأمم (التى حلت محلها الآن الأمم المتحدة) كدولة مستقلة ذات سيادة (١) .

---

(١) كانت بنود المعاهدة تتضمن موضوعات ثلاثة هى :
الجلاء - الامتيازات الأجنبية (والتى ألغيت بعد ذلك فى عام ١٩٣٦ فى مؤتمر مونترو) - السودان .
وتضمنت بنود المعاهدة عدة موضوعات أهمها :
١ - يسحب جميع الموظفين البريطانيين من الجيش المصرى ويكتفى بوظائف المفتش العام وباقى الموظفين .
٢ - تشرع مصر فى الحال فى تقوية جيشها عددًا وعدة ليصل فى أقرب وقت مستطاع إلى المستوى المنشود وهو ثلاثون ألف ضابط وجندى (كان فى ذلك الوقت لا يتجاوز عشرة آلاف) .
٣ - تلغى إدارة الأمن العام الأوربية .
٤ - يخرج العنصر الأوربى من البوليس فى مدى خمس سنوات .
٥ - تكون مصر حرة فى الاستغناء عن المستشارين المالى والقضائى .
٦ - يعود الجيش المصرى إلى السودان (وكان قد خرج منه عام ١٩٢٤ . بعد مقتل السردار سيرلى ستاك باشا) .
٧ - يعين الموظفون المصريون فى حكومة السودان .
٨ - تفتح للمصريين أبواب الهجرة والتجارة والملكية فى السودان .
٩ - تدخل مصر عصبة الأمم كدولة مستقلة ذات سيادة (دخلت عام ١٩٣٧) .
١٠ - تجلو القوات البريطانية عن الإسكندرية فى مدة لا تتجاوز ٨ سنوات .

الفصل الخامس
أطول يوم فى التاريخ

لو أنك سألت أى رجل عسكرى عن أطول يوم صادفه فى التاريخ ، ربما ذكر لك أيامًا محددة عاشها فى معارك قتال عنيفة ، ولكنه لا ينسى أبدًا أن اليوم الأول لدخول الكلية الحربية لاشك أنه من بين أطول هذه الأيام .

ظننت فى ذلك اليوم أنه لن تغرب له شمس أبدًا . . وأن الفراش الصغير الجديد الذى ظللت أتعلم طول اليوم كيفية تهيئته « وفرشه » بطريقة عجيبة معينة (والأونباشى يقوم كل مرة بهدم كل ما أديت من جهد وعرق) ظننت أنه لن تحين أبدًا ساعة النوم لكى أرتمى فى هذا الفراش !

وعندما صاح البروجى بنغمات « نوبة النوم » ، ودفنت نفسى داخل الأغطية البيضاء الناصعة بمجرد أن صاح الأونباشى صارخًا « اترك كل ما فى يدك ونم » . . لم أصدق عينى اللتين أمرنى نفس الأونباشى بإغماضهما فى الحال وعدم تركهما مفتوحتين طبقًا للأوامر !

فى هذا اليوم اعتقدت أن العسكرية شىء من الصعب تعلمه أو التدرب عليه ! ففرش السرير الصغير مشكلة عويصة ، ولف « القالشين » على الساق بحيث تظهر التوكة عند موضع معين عند نهاية اللف مشكلة أعوص . . وترتيب الدولاب بطريقة معينة ودقيقة مع تطبيق الغيارات الداخلية فوق بعضها (فى شكل منتظم كأنه رسم بالقلم والمسطرة) هو أمر يحتاج إلى مصمم هندسى !

أما عندما جاء دورى فى طابور قص الشعر وأزال الحلاق العسكرى كل ما نبت فوق رأسى فى نصف دقيقة شعرت فعلا أنى أصبحت رجلاً آخر . وبالفعل عندما هرعت إلى المرآة

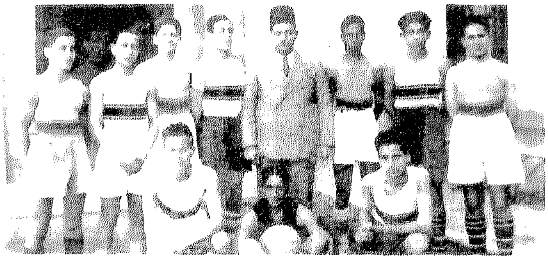
الصغيرة المثبتة داخل « دلفة » الدولاب شعرت أن هذا الرجل الحليق الكاكى الذى يطل علىّ من داخل المرآة لا يشبهنى فى شىء !

وفى الحقيقة أنى عندما ألقيت جسدى المكدود فوق الفراش بعد جهد هذا اليوم العصيب لم أكن محتاجا لأن يصرخ الأونباشى بكلمة « نم » فلم تمض ثوان معدودة حتى دهمنى سبات عميق لم أجرّبه من قبل !

لقد تعلمنا فى ذلك اليوم أن الحياة العسكرية يتم فيها كل شىء بالأمر . فأنت تنام بالأمر وتصحو فى اليوم التالى بالأمر . وتأكل بالأمر وتترك الطعام بالأمر ، بل عليك أن تكف عن مضغ اللقمة التى فى فمك مهما كبر حجمها لو نادى عليك شاويش الميس (صالة الطعام) بكف الحركة ولف الذراعين حول الوسط إذا سمعت نداءه « ثابت » أو « انتباه » . . وفى بداية الأمر بدا لى أن هذا النظام مبالغ فيه ، ولكن بعد مرور السنين والانخراط فى وغى المعارك والحروب فهمت معنى هذا الانضباط وأهمية الثوانى التى قد تطيح بعمر الإنسان كله إذا توانى فى حسابها و إطاعتها ! فالجندى إن لم ينبطح أرضًا مثلا فى الميدان لحظة سماعه لفظ « انبطح » فإن دانة مدفع مقبلة أو قنبلة طائرة مندفعة نحوه سوف تحيل جسده إلى أشلاء متناثرة فى التو .

واليوم الدراسىّ فى الكلية الحربية يبدأ من السابعة صباحًا وينتهى فى التاسعة والنصف مساء . لذا فهو يوم مشحون بمواد الدراسة المتعددة . والعام الدراسى يصل أحيانًا إلى أحد عشر شهرًا ونصف شهر ! . . وهذا يفسر معنى كلمة دراسة مكثفة لسنوات تخرّج مضغوطة لأسباب طارئة كظرف الحرب العالمية الثانية التى جعلتنا نتخرج بعد عامين وليس بعد ثلاثة كما كان مقررًا .

وفى الكلية ندرس مجموعتين من العلوم العسكرية والمدنية معا فى آن واحد . . فإلى جوار هندسة الميدان والتكتيك والتاريخ العسكرى والقوانين العسكرية وغيرها ، كان علينا أن ندرس الاقتصاد السياسى والطبيعة والكيمياء والرياضة والجغرافيا واللغتين الإنجليزية والفرنسية وميكانيكا السيارات . هذا بخلاف الطوابير العسكرية ودروس الرماية والأسلحة . . إلخ . وبالطبع كان للعلوم المدنية أساتذة مدنيون مختارون ولكن يبدو أنهم بحكم البيئة العسكرية التى تحيط بهم قد تأثروا بالصبغة العسكرية لدرجة أن بعضهم كان أشد عسكرية من العسكريين . . وإنى أذكر أن العقوبة الوحيدة التى تلقيتها فى الكلية طيلة سنتى الدراسة كانت من المرحوم الأستاذ محمد بنونه أستاذ الرياضة الذى كان رجلا قديرًا خفيف الظل يتميز بشخصية فريدة تلقى قبولا من كل من عرفه .



فى الصف الثانى الثانوى



طالب بالكلية الحربية



فى الثانوية العامة



رتبة الملازم ثان



رتبة النقيب



رتبة الرائد



رتبة المقدم



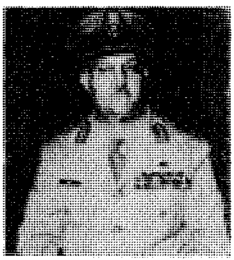
رتبة العقيد



رتبة اللواء



رتبة الفريق



رتبة الفريق أول

(٨) صور خلال مشاوير العمر

حدث ذلك فى آخر حصة فى نهاية الأسبوع ، أى يوم الخميس الذى كنا ننتظره بفارغ الصبر كأمل بعيد لا يأتى بسهولة لكى نغادر الكلية يومى الخميس والجمعة ، حيث نلتقى فيها بأهلنا وأحبائنا بعد أسبوع عمل من الجهد الشاق المتواصل . . كان الأستاذ بنونه يشرح لنا درسا فى الميكانيكا فى السرعة المنتظمة والسرعة المتغيرة . . ثم أعطانا مسألة لنحلها ، فحواها أن شابا يبعد عن محطة الأوتوبيس بمسافة ٢٠ مترًا ، أراد أن يلحق بالأوتوبيس الذى غادر المحطة بسرعة متزايدة مقدارها كذا مترًا فى الثانية . . والمطلوب أن نحسب السرعة المنتظمة التى يجرى بها الشاب ليلحق بالأوتوبيس . . وفى هذه اللحظة سمعت جرس انتهاء الحصة يدق ، فما كان منى إلا أن صحت بصوت مرح قائلاً « يبقى أحسن له أن يلحق بالأوتوبيس الذى بعده ! ». وهنا انفجر الزملاء بالضحك . . بل وحتى الأستاذ بنونه لم يتمالك هو نفسه من الضحك . . إلا أنه أردف ضحكته بتوقيع العقوبة التى وقعت على نفسى كالصاعقة «حبس خميس وجمعه بالكلية ياشاطر » وهكذا وجدت نفسى الوحيد الذى لم يضحك فى الفصل . . وعندما انصرفوا جميعهم سعداء إلى بيوتهم بعد ذلك وجدت نفسى وحيدًا بين جدران الكلية أدفع ثمن ضحكهم !

الفصل السادس

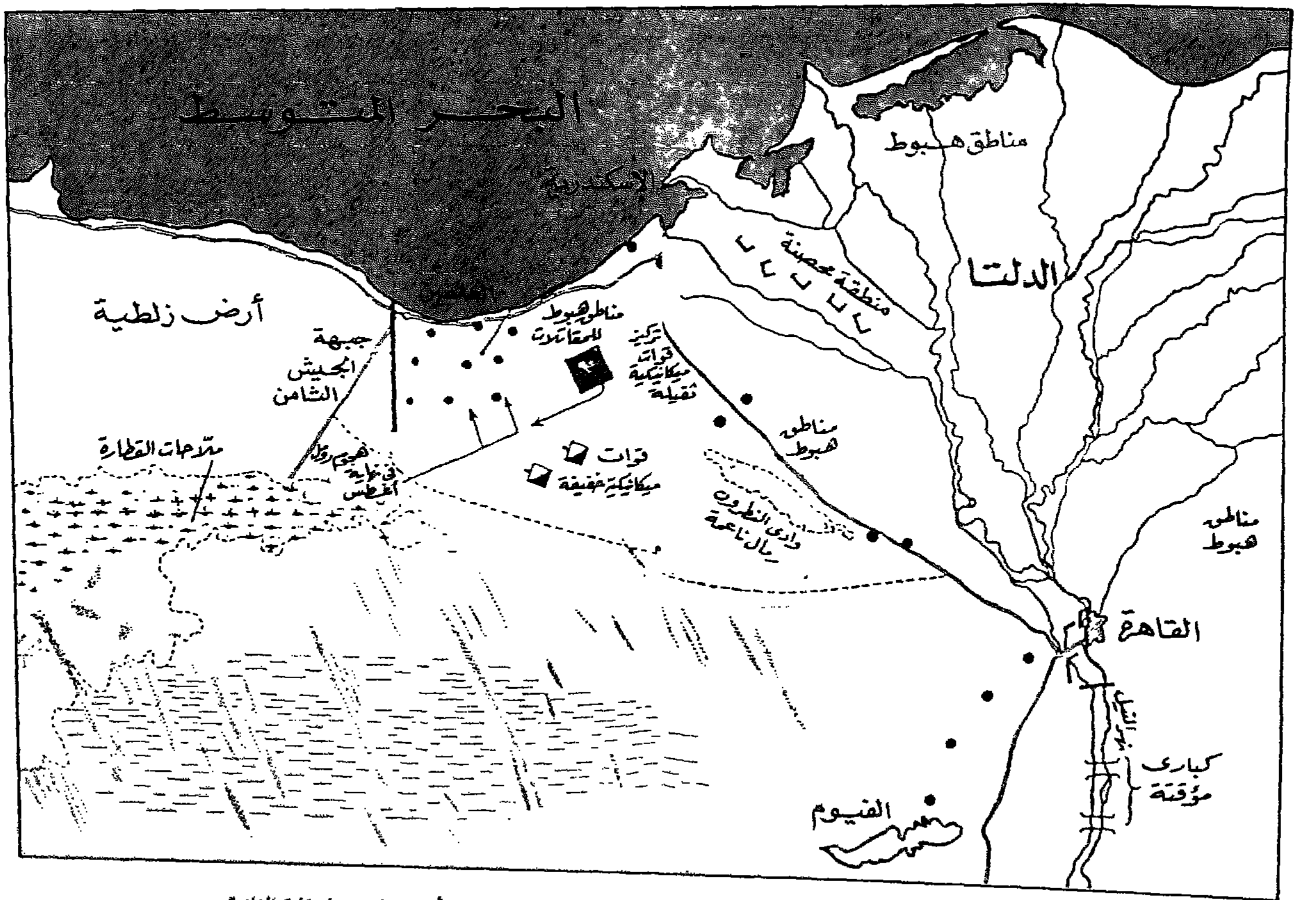
وراء الأسوار

لم نكن فى أثناء الدراسة بمعزل وراء الأسوار عن الأحداث التى تدور حولنا ، برغم أن طبيعة الدراسة كانت تستوعب طيلة نهارنا وشطرًا طويلاً من الليل فلا تترك لنا وقتًا أو مجالا لفكر سوى الإعداد لأعمال اليوم التالى .

كان الموقف العسكرى فى الشرق الأوسط قد بلغ ذروة تأزمه فى الصحراء الغربية بوصول فرق البانزر الألمانية إلى العلمين على بعد ٩٠ كيلو مترا غرب الإسكندرية

وكان بالقرب من الكلية الحربية مطاران ،أحدهما حربى به بعض القوات الجوية البريطانية والآخر هو مطار القاهرة القديم (والذى مكانه مطار ألماظة حاليا)، وكان من الطبيعى أن نلجأ إلى المخابئ الخاصة بالكلية عند انطلاق كل صفارة إنذار فندرك خطورة الموقف العسكرى .

ولقد انعكست أحداث الحرب على الحياة فى القاهرة خاصة أن مصر قد أبدت استعدادها التام منذ اللحظة الأولى لتوتر الموقف الدولى للتعاون مع بريطانيا فى نطاق معاهدة ١٩٣٦ ففرضت الأحكام العرفية وفرضت الرقابة على الصحف والبريد والمكالمات التليفونية والتلغراف . كما سمح للقوات البريطانية بتفتيش المنازل والأهالى ومنع الناس من الاقتراب من المرافق العامة والمنشآت الصناعية وخاصة تلك التى تخدم المجهود الحربى البريطانى ، وأصبح من حق السلطات الإنجليزية الاستيلاء على أى وسيلة من وسائل النقل أو المواد الغذائية وإصدار تكليف لأى فرد لأداء أى عمل تتطلبه الأعمال العسكرية . وقررت الحكومة تخصيص ٩٠٪ من المستشفيات لحالات الطوارئ وتجنيد أربعة آلاف طبيب مصرى للخدمة العسكرية ، كما سمحت للقوات البريطانية باستخدام الموانى والمطارات وطرق المواصلات بل ورصف



هجوم روميل على مواقع العلمين فى الصحراء الغربية . أغسطس ١٩٤٢ أثناء الحرب العالمية الثانية

بعض الطرق وإغلاق بعضها الآخر بين القاهرة والفيوم ودلتا النيل وطريق الإسكندرية العلمين ، واعتبرت إنجلترا قناة السويس مرفقا بريطانيا يعمل لحساب الإمبراطورية أثناء الحرب .

ديون إنجلترا لمصر

وكان لابد من حساب التكاليف لاستخدامات كافة المرافق المصرية فى خدمة إنجلترا وحلفائها زمن الحرب تطبيقا للمعاهدة . إلا أن إنجلترا كانت تدفع هذا الحساب فى صورة أذونات على الخزانة البريطانية إلى أن تراكم مبلغ ٤٠٠ مليون جنيه إسترليني دينا على إنجلترا مما أدى إلى تآكل السكك الحديدية والمرافق والطرق وإنشاء الطرق العسكرية التى لم تكن تخدم عملية التنمية الاقتصادية لمصر . ومن المؤسف أن بريطانيا استخدمت هذه الأرصدة فيما بعد كوسيلة للضغط على مصر عند إلغاء المعاهدة بواسطة حكومة الوفد عام ١٩٥١ ، فقامت بتجميدها فى ذلك الوقت .

والأمر الذى لا يقل أسفا أن بريطانيا عرضت على إسماعيل صدقى شراء ١٠٠ دبابة شيرمان حديثة أثناء مفاوضتها عام ١٩٤٦ لتسديد بعض من دينها ، إلا أن صدقى اعتذر عنها لعدم وجود ميزانية كافية ، وكان من الواضح أن ما يجرى فى فلسطين لم يجذب انتباه أو اهتمام حكومته أو شعبه بالمرة .

ومع تقدم المعارك فى الصحراء الغربية بدأت أولى الغارات الجوية الإيطالية فى ليلة من ليالى أغسطس عام ١٩٤٠ على الإسكندرية ، وكانت غارة عشوائية عرجاء أفرغت الطائرات قنابلها كيفما اتفق فدمرت منزلين فى حى من الأحياء الشعبية فأحدثت بعض الوفيات وجرحت عددًا قليلاً من أفراد الشعب السكندرى . أما الغارة الثانية على القاهرة فقد استهدفت قصر عابدين ، إلا أنها أسقطت قنابلها على أحد البيوت القريبة من منزلنا فى حى عابدين .

وكانت مشاعرى فى ذلك الوقت شأن مشاعر أى مصرى موزعة بين كراهية المحتل الذى استباح كل شىء فى مصر مظهرًا ومخبرًا . والرغبة فى الخلاص منه على يد أعدائه ، وبين كراهية الفاشية والنازية التى تتنافى مع ما نحمله فى أعماقنا من حب للديمقراطية والحرية .

وقد أزكى هذه المشاعر رؤية جنود الاحتلال مع تزايد أعدادهم لخوض المعارك ضد الإيطاليين والألمان فى الصحراء الغربية فى كل ركن من أركان مصر وفى كل شارع وميدان من ميادينها ، ثم تعقد الأمر مع تدخلهم فى صميم الإرادة الوطنية المصرية وسيطرتهم على العرش الملكى .

لقد امتدت يد الإنجليز إلى الكلية الحربية بصورة استفزت كل مشاعرنا ، فلقد حدث أن الطالب على عبد الدايم ، وكان ترتيبه الأول فى الدفعة التى سبقتنا ، بعث بخطاب إلى أبيه بالريف يزفّ إليه بشرى تخرج دفعته من الكلية فى أبريل ١٩٤٢ وجاء فى الخطاب عبارة تقول «إنه لاشك سينتهزها فرصة لبث الروح الوطنية بين الشباب الذى سيقوده ضابطًا » . وسلم عبد الدايم هذا الخطاب لزميله يوسف أدهم ليرسله بالبريد العادى عند خروجه من الكلية لقضاء إجازته الأسبوعية بينما بقى عبد الدايم نوبتجيا فى نهاية الأسبوع .

وبعد ثلاثة أيام أطلق البروجى نوبة جمع لطلبة الكلية وهو أمر لا يجرى إلا فى الملمات الطارئة ، حيث أعلن قائد الكلية قرارًا من بندين اثنين الأول : بفصل الطالب على عبد الدايم (باشجاويش الكلية) والثانى : بفصل الطالب يوسف أدهم ! وهكذا كان بث الروح الوطنية جريمة لا تغتفر فى نظر الإنجليز وكأنما قاد عبد الدايم ثورة لا تقل عن ثورة رشيد على الكيلانى فى العراق !

□ طـائرة عـزيز المصـرى

ثم حادث آخر ارتبط فى فصوله الأخيرة بالكلية الحربية . فقد عُين الفريق عزيز المصرى باشا مفتشا عامًا للجيش المصرى ـ وكان ضابطًا ثائرًا مثاليًا ومن أشهر الضباط الوطنيين القدامى ، بل يعتبره البعض الأب الروحى لبعض الحركات الوطنية مثل حركة مصر الفتاة . وباختصار كان قدوة لنا نحن الشباب كما كان محل تقديرنا وإعجابنا .

ووفقا للمبدأ الذى يعتبر عدو العدو صديقًا فكّر عزيز المصرى فى التوجه إلى بيروت بطائرة حربية يقودها كل من الضابطين الطيارين (عبد المنعم عبد الرءوف وحسين ذو الفقار صبرى) بغية الاتصال بالألمان ووضع خطة لتحرير مصر من الاحتلال البريطانى لتحقيق استقلالها المنشود . غير أن الطائرة عطبت فى الجو فور صعودها واضطرت للهبوط الاضطرارى بعد دقائق فى قليوب فتركوها فى حديقة موالح وعادوا بسيارة مأمور المركز ، ثم اختفى ثلاثتهم فى إمبابة بالقاهرة ، ولكن تم العثور عليهم بعد ٢١ يومًا مصادفة فى بيت أحد أصدقاء هارب رابع هو أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة الذى كان مطلوبًا للاعتقال .

وعندما قُدّم الفريق عزيز المصرى وزميلاه إلى المحاكمة أمام محكمة عقدت فى إحدى قاعات الكلية الحربية فى أكتوبر ١٩٤١ ، لفت نظرنا وجود حراسة مشددة وإجراءات أمن غير عادية لم تشهد الكلية مثيلاً لها إلا عند زيارة الملك فاروق للكلية الحربية فى مارس من نفس العام ، ولقد ظل المتهمون تحت التحفظ حتى جاءت وزارة النحاس باشا بعد أزمة ٤ فبراير ١٩٤٢ فأعلن الإفراج النهائى عنهم كسبا للرأى العام .



الفريق عزيز المصرى



الملك فاروق الأول



النحاس باشا

□ حادث ٤ فبراير ١٩٤٢

وهنا أجد أنه من المناسب أن أذكر تفاصيل هذا الحادث لما كان فيه من مساس بحياتنا داخل الأسوار .

فلقد حدث أن وجدت إنجلترا نفسها فى قمة الأزمة بعد أن اكتسح هتلر معظم أوربا وأوقع بالبريطانيين هزائم جسيمة فى دنكرك على الشاطئ الفرنسى ، فانسحبت جيوشهم عبر المانش « بملابسهم الداخلية » مذعورين (وهذا تعبير تاريخى مشهور عن هذه المعركة) أمام الهجوم الألمانى الكاسح ، بينما واصلت الطائرات الألمانية دك المدن البريطانية بالقنابل ، وبعدها استدار هتلر إلى مسرح الصحراء الغربية فأرسل بفرق البانزر القوية تحت قيادة ثعلب الصحراء روميل إلى شمال أفريقيا حيث زحفت إلى طبرق على حدود مصر فى ليبيا .

فى نفس الوقت كان الجو السياسى فى مصر مضطربا نتيجة للصراع بين حزب الوفد والملك الذى لم يكن يسند الوزارة للوفد بعد نجاحه فى أى انتخابات إلا ويقوم بعزلها وحل البرلمان بعد ذلك جريا على سياسة أبيه الملك فؤاد . وأرادت إنجلترا نتيجة للموقف الدولى أن تستقر الأوضاع السياسية فى مصر فلجأت إلى تدخل خطير فى شئون مصر الداخلية .

ففى يوم الخميس ٤ فبراير ١٩٤٢ حاصرت القوات البريطانية قصر عابدين وقام السفير البريطانى لورد كيلرن بتسليم إنذار إلى الملك فاروق بالعزل أو إسناد رئاسة الوزارة لمصطفى النحاس الذى كانت له شعبيته والأغلبية الساحقة فى البرلمان . وكان متوقعا منه بالطبع معاداة المحور الفاشى الألمانى .

ولقد رفض النحاس تولى الوزارة فى أول الأمر بهذا الأسلوب ، إلا أنه عاد ووافق بعد ذلك حرصا على العرش .

ودون الدخول فى تفاصيل الصراع بين الأحزاب أو بين الوفد والقصر كان هذا العمل إهانة شديدة للإرادة المصرية . ولم تتضح تفاصيل هذا الحادث لضباط الجيش إلا فى صباح يوم ٥ فبراير ، أما نحن الطلبة فلم نسمع به إلا عند خروجنا فى إجازة نهاية الأسبوع . وبرغم ما تملكنا من غضب وتوتر إلا أننا كطلبة فى الكلية الحربية لم نملك أى وسيلة من وسائل التعبير العملى عن الرفض .

ولكن كان هناك الكثير من الضباط الوطنيين من أمثال عبد الدايم فى كل وحدات الجيش أرادوا التعبير عن رفض الإهانة فاجتمعوا فى ناديهم بالزمالك يوم ٧ فبراير رغم الجهود التى بذلها وزير الحربية للحيلولة دون ذلك الاجتماع . وبعد أن ندد المجتمعون بتدخل بريطانيا توجه كبار الضباط منهم إلى قصر عابدين وقدّموا مذكرة للأمين الثالث (محمود السيوفى) بما حدث فى النادى لتبليغها للملك ، وفى اليوم التالى ٨ فبراير اجتمع مندوبو الوحدات ومنهم بعض مدرسى الكلية الحربية فى الرابعة مساء وتقرر فى هذا الاجتماع ما يلى :

١ ـ أن يتوجه جميع ضباط القوات المسلحة ممن هم أقل من رتبة بكباشى (مقدم) إلى القصر يوم ١١ فبراير الساعة الحادية عشرة (وهو موعد حضور السفير البريطانى والسفراء الأجانب لتحية الملك كنوع من التحدى) .

٢ ـ الامتناع عن التعامل مع ضباط البعثة العسكرية البريطانية أو قبول أى مجاملة منهم .

ولقد أصر الضباط على هذا المسلك رغم شكوى الضباط البريطانيين ورجاء رئيس الوزراء لهم ، وذلك ليظهروا أن الجيش بفئاته المختلفة لم يكن مقطوع الجذور عن مسار الحركة الوطنية فى مصر .

وفى داخل الأسوار عرفنا بهذا العمل فأثلج صدورنا ، وقد بلغنا همسا من بعض أساتذتنا المخلصين الذين كان من بينهم اليوزباشى زكريا محى الدين رئيس الوزراء الأسبق واليوزباشى مصطفى صادق أحمد (سفيرنا فيما بعد) ويوسف منصور صديق أحد مؤسسى ثورة ١٩٥٢ واليوزباشى أحمد عبد العزيز قائد متطوعى فلسطين وأشهر شهدائها عام ١٩٤٨ .

الفصل السابع

كلمة حق

وفى نهاية ذكر فترة الدراسة داخل أسوار الكلية الحربية ، علىّ أن أنطق بكلمة حق عن زملاء الدفعة (سبتمبر ١٩٤٢) .

فلقد تميزت هذه الدفعة بظاهرة التعدد فى المواهب والاجتهاد والعطاء ، فمنهم من استشهد فى أول حياته فى معارك ١٩٤٨ فى فلسطين كأروع ما تكون البطولة كالشهيد جمال خليفة (زميل السباحة) ولم تزد رتبته عن ملازم أول ، ومنهم من استشهد فى سبيل الواجب فى مكافحة مهربى المخدرات فى سيناء عبر قناة السويس كالملازم مصطفى كمال . ثم منهم من واصل دراسته الجامعية حتى درجة الدكتوراة فأصبح أستاذًا فى جامعات مصر أو فى الولايات المتحدة، ثم منهم من شغل بعد الثورة مناصب عامة فى الإعلام والصحافة لميوله أو قدراته الإدارية أو الأدبية .

ألم يتغن عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ ووردة وغيرهم بكلمات الشاعر عبد المنعم السباعى الذى رأس الإذاعة المصرية وعمل بالصحافة ! وألم يطربنا شعر مصطفى بهجت بدوى على صفحات الصحف اليومية وفى دواوينه وهو الذى رأس دار التحرير ثم دار الهلال ثم جريدة الجمهورية ؟

وتولّى بعضهم مناصب السفراء أو عملوا ضباط اتصال للأمم المتحدة عام ١٩٤٨ لتمكنهم من اللغات الأجنبية أو لاجتيازهم اختبارات وزارة الخارجية كالسفير مصطفى شكرى وهو ابن مدارس الجيزويت ، والسفير مصطفى مختار خريج مدرسة سان مارك بالإسكندرية .

□ الدفعــة التى أمسكت الجيـش

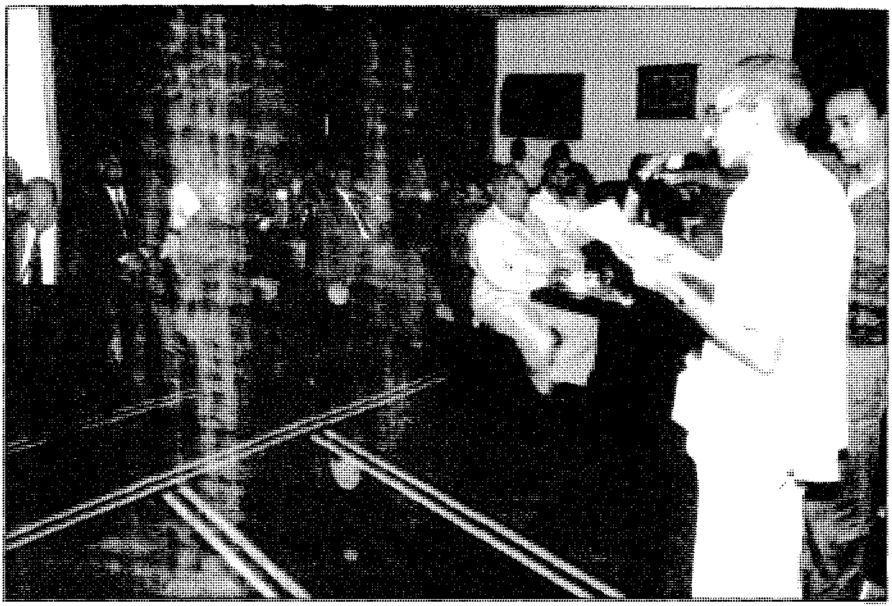
ولقد صدق جمال عبد الناصر عندما قال فى أوائل الستينيات « الظاهر أن دفعة سبتمبر ١٩٤٢ ماسكة الجيش » فقد وصلت أعلى نسبة من ضباطها إلى رتبة اللواء بعد مسيرة حافلة فى القوات المسلحة خاض فيها الكثيرون منهم بعض أو كل جولات مصر مع إسرائيل بالإضافة إلى معارك اليمن ، وشغل معظمهم مناصب قيادية فى القوات المسلحة وأفرعها المختلفة .

ولاشك أن ثورة يوليو ٥٢ قد أثرت إلى حد كبير فى مستقبل بعض ضباط هذه الدفعة ورفعت بعضهم ممّن هم من « أهل الثقة » ، إذ كان منهم بعض رجال الصف الثانى للثورة . ومنهم من كانوا من ذوى المواهب الخاصة فشغلوا مناصب عامة خارج القوات المسلحة ، أما هؤلاء الذين احترفوا الجندية فقد ظلوا ليكملوا مسيرتهم فى المناصب العسكرية ثم انتقلوا بعد ذلك إلى مناصب مدنية .

ومن الفئة الأولى تولى المرحوم كمال رفعت وزارة العمل فى عهد عبد الناصر وكان من أكثر الضباط جرأة واندفاعا فى العمل الوطنى . فلقد حارب الإنجليز وقاد حرب العصابات فى منطقة القناة بعد الثورة وجعل بقاءهم فى منطقة القناة ضربا من المستحيل مما ساعد على خروجهم من مصر عام ١٩٥٤ ، كما تولى عباس رضوان وزارة الداخلية بشخصيته الهادئة المتزنة التى تحمل كل قيم الريف المصرى ، ثم أمين شاكر وزير السياحة والذى كان أول دفعتنا وقد ترك كلية الطب بعد عدة سنوات من الدراسة وعمل مديرًا لمكتب عبد الناصر بعد قيام الثورة مباشرة .

ولى أن أذكر متواضعًا أنى كنت من الفئة الثانية . . أقصد المحترفين الذين شقوا طريقهم فى خدمة القوات المسلحة . وأذكر أن أحد الزملاء عرض على أن أرشح نفسى لعضوية البرلمان فى أول انتخابات بعد الثورة ، وأن أغير مسارى إلى العمل السياسى ، إلا أننى رفضت هذا العرض لجملة أسباب ، منها أننى كنت أومن دائما بأن العمل بالقوات المسلحة هو قمة العمل الوطنى ، فهناك التضحية وهناك العطاء بغير حدود .

ولم يحل استمرار أغلبية الدفعة فى الجيش دون المساهمة فى أعمال كثيرة أخرى كأفراد من بين هذا الشعب إلى جانب عملهم ، فمنهم كاتب القصة اللواء عبد الرحيم عجاج الذى فاز بجائزة قصة « فى سبيل الحرية » التى كتب فصولها الأولى جمال عبد الناصر عندما كان طالبا فى المدرسة الثانوية ، ولقد طرحها المجلس الأعلى للآداب والفنون فى مسابقة لاستكمال فصولها



دفعة الكلية الحربية سبتمبر ١٩٤٢ بعد ٥٠ سنة (١٩٩٢)

ففاز فيها عبد الرحيم عجاج بالمركز الأول رغم اشتراك الكثيرين من الكتاب المحترفين فى المسابقة . ولقد شغل بعضهم عضوية المجالس الشعبية أو رئاسة مجلس إدارة أحد البنوك مثل فتح الله رفعت ، غير أن هناك فئة ثالثة هى التى أوذيت فى عهد الثورة أو فى ظل الشرعية الثورية هم هؤلاء الذين حوكموا أو اعتقلوا مع غيرهم بدعوى محاولة قلب نظام الحكم أو عضوية الحزب الشيوعى العربى أو غير ذلك من الاتهامات .

وياليت الأمر اقتصر على ذلك فحسب بل أعقبه محاولات حثيثة لمحاربتهم فى لقمة عيشهم مثل محمد مصطفى داود الذى اضطر لفتح مقهى شعبى ، إلا أنه سرعان ما انتقل إلى جوار ربه من فرط القهر . ورغم تبرئة البعض منهم إلا أنهم أحيلوا للمعاش فكان أن وجدوا سبيلهم مرة أخرى لاستئناف الدراسة الجامعية ليتخرجوا منها محامين وحزبيين على جانب كبير من النشاط مثل محمد أبو الفضل الجيزاوى . وفى هذا المجال المحدود لا أستطيع أن أذكر هنا كل الأمثلة ، فالمواهب كثيرة والمناصب التى شغلوها أكثر .

الباب الثالث

بداية مشاوير العمر

الفصل الثامن : صفحة فى الحرب العالمية الثانية

الفصل التاسع : ما بعد الحرب العالمية الثانية

الفصل الثامن
صفحة فى الحرب العالمية الثانية

فى الوقت الذى كان فيه روميل ثعلب الصحراء الألمانى يحاول جاهدًا اختراق دفاعات العلمين ليزحف بقواته قُدما فى اتجاه الإسكندرية والدلتا ثم باقى أراضى الشرق الأوسط ، كانت الكلية الحربية تقيم لنا حفلاً صغيرًا متواضعًا لتخريج دفعتنا فى يوم ٢٥ أغسطس ١٩٤٢ .

وفى نفس الوقت كان هناك قائد بريطانى جديد يدعى مونتجمرى يحاول مستميتا إيقاف زحف روميل وصده بكل قواه عند العلمين . هذا القائد سيعرفه التاريخ ويلقبه فيما بعد بالكونت مونتجمرى أف علمين لانتصاره الكاسح فى هذه المعركة .

تخرجنا ١٩١ ضابطًا وزعنا على كافة أرجاء مصر بل والسودان أيضًا ، حيث كان لنا فيه كتيبتا مشاة فى ميناء بورسودان على البحر الأحمر . وجاء توزيعى فى بادئ الأمر على الكتيبة الأولى مدافع ماكينة مشاة ، وكانت متمركزة فى معسكرات منشية البكرى (بالقرب من منزل عبد الناصر فيما بعد) .

وقضيت فى مركز تدريب الكتيبة أربعة شهور ، انتقلت بعدها الكتيبة برمتها لتحتل أحد القطاعات بمنطقة قناة السويس ، كان يمتد من الإسماعيلية « نمرة ٦ » على مدخل بحيرة التمساح بالإسماعيلية إلى كوبرى الفردان . . ولقد كلفتُ بقيادة فصيلة تتمركز شرق وغرب بحيرة التمساح . لذلك أصبحت فى تنقل يومى دائم من شرق القناة إلى غربها وبالعكس لكى أمر طيلة اليوم على كل أفراد الفصيلة .

وكانت المهمة التى أسندت للكتيبة هى رصد الألغام البحرية التى تلقى بها الطائرات



مونتجمرى



رومـيــل

الألمانية فى القناة لإعاقة الملاحة فى قناة السويس هذا الممر الحيوى لبريطانيا ، مما كان يدخل ضمن أهداف معاهدة ١٩٣٦ ، التى ضاعفت من حجم الجيش المصرى ليقوم بحماية طرق المواصلات البريطانية أو أعمال الدوريات على جانب الجيش الثامن البريطانى فى الصحراء الغربية .

وهكذا وجدنا أنفسنا عند تخرجنا نحارب فى صفوف حليف لا نكن له حبا ، وضد عدو لا نضمر له عداوة .

فى عام ١٩٤٢ اتخذت مصر قرارًا «بتجنيب مصر ويلات الحرب» فسحبت القوات الخفيفة المصرية من الصحراء الغربية ، وكانت عبارة عن لواء مشاة مصرى فى مرسى مطروح وكتيبة حدود للحراسة بين السلوم وسيوه ، ولكنها أبقت على القوات التى تحمى القناة ضد الألغام والتخريب على طول المسافة من بورسعيد إلى السويس .

□ مكالمة تليفونية غير متوقعة

وفى يوم ١٢ أبريل ١٩٤٢ تلقيت مكالمة تليفونية ستظل محفورة فى ذاكرتى لبقية العمر . كان المتحدث هو رئيس أركان حرب المنطقة الشرقية العسكرية ليخطرنى بالتوجه فورًا إلى القاهرة لوقوع حادث لأخى الأكبر المهندس عزت . وأراد رئيس أركان حرب المنطقة أن يهوّن علىّ وقع الخبر فقال لى إن عزّت أصيب فى حادث ولكنه فى حالة خطرة . . ولما توجهت إلى منزلنا فى عابدين بالقاهرة رأيت هول المأساة على حقيقتها وبشاعة الحادث الذى وقع أثر انفجار داخل المنزل أدى إلى انهيار بعض غرفه تماما وأودى بحياة أخى عزت والطباخ ومراسلة أخى طلعت . كما أصيب شقيقى الأصغر فؤاد ببعض الجراح . .

كان عزت قد أكمل دراسته فى كلية الهندسة وتخرج مهندسًا مدنيًا ولكنه كان يهوى الكيمياء فأقام معملاً صغيرًا فى حجرة مكتبه المنعزلة ويبدو أنه كان يقوم بتحضير غاز الأسيتون لمشروع تجارى ، وعندما زاره أحد أصدقائه غادر الغرفة ونسى الجهاز فوق النار لزمن طويل حتى حان موعد صلاة العشاء فأدى الصلاة وودع صديقه إلى الباب ، وعندما تذكر الجهاز عاد إلى غرفته ليدير مفتاح النور الكهربائى فاشتعل الغاز المتصاعد وانفجر كل شىء . .

لاشك أن هذا الحادث قد هز الأسرة تمامًا بل والحىّ بأكمله ، كما امتد صداه بعد ذلك إلى المسئولين فى سلاح الفرسان ،وبلغ مسامع الأميرالاى إسماعيل داود مدير السلاح (وأحد أعضاء الأسرة المالكة) . فرأى أن ينقلنى على الفور من سلاح المشاة إلى سلاح الفرسان لأكون بالقرب من شقيقى طلعت الذى كان قد ترقى إلى رتبة اليوزباشى . وبرغم أننا أمضينا معا بعد ذلك حوالى ثلاثين عاما فى هذا السلاح ، والذى غيرت الثورة اسمه بعد ذلك إلى سلاح المدرعات ، إلا أنى حرصت على ألا تجمعنى به وحدة واحدة تحت قيادته . ولم يكن هذا المسلك نوعا من العزوف بقدر ما كان نوعا من الرغبة فى التصرف على فطرتى الخاصة .

والحقيقة أن هذا الاتجاه كان له فوائده بعد قيام الثورة . فلم يحسب تصرف واحد منا على الآخر كما حدث فى أزمة مارس عام ١٩٥٤ ، وهى الأزمة التى كادت تهدد بحرب أهلية وبانقسام عنيف بين ضباط سلاح المدرعات وضباط الأسلحة الأخرى ، مما سيرد ذكره فى حينه .

وكالة البلح والذرة وأشياء أخرى

عند بدء التحاقى فى سلاح الفرسان فى مايو ١٩٤٣ ، كان السلاح بأكمله لا يشتمل إلا على وحدتين هزيلتين : إحداهما كتيبة سيارات خفيفة (تعمل فى مجال الاستطلاع والدوريات) والأخرى آلاى دبابات خفيفة بالية . وكانت الحرب العالمية الثانية التى تدور معاركها فى شمال إفريقيا وأنحاء أوربا قد أثبتت أهمية الدبابة كسلاح أساسى فى المعركة الحديثة . . لذلك اخترت الالتحاق بآلاى الدبابات المتمركز فى ألماظة . .

كان الآلاى يضم أنواعًا مختلفة من الدبابات القديمة الطراز منها الدبابة الخفيفة M-6 البريطانية التى استخدمت فى المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الأولى ثم الدبابات الكروز A13 وهى دبابات أحدث منها قليلاً ! وكانت كلّها من مخلّفات الحرب العالمية وتحتاج فى إصلاحها إلى عزيمة الرجال ودأبهم . وقد لجأ بعض الضباط المتخصصين فى النواحى الفنية

إلى شراء قطع الغيار اللازمة لإصلاحها من السوق الشعبى المعروف « بوكالة البلح » حيث تباع مخلفات الجيش البريطانى بالوزن بغض النظر عن القيمة الحقيقية لها ، وكم تعجبت من أجهزة اتصال لاسلكى أصلحت ، وأجزاء مدافع تمّ تركيبها بهذه الوسيلة .

إلا أن الشيء الذى كان ينقصنا حقًا هو الذخيرة ، أما عن فن استخدام الدبابات فى الميدان فنحن فى الحقيقة لم نتقن تفاصيله إلا من خلال بعثاتنا إلى إنجلترا وأمريكا ثم الاتحاد السوفييتى بعد ذلك .

لقد كان التجنيد إجباريا فى ذلك الوقت لمدة ٥ سنوات يقضيها من لم يتمكن من دفع البدل وهو مبلغ ٢١ جنيهًا ، وكان هناك نظام لتجديد الخدمة لمن يرغب فى البقاء فى خدمة القوات المسلحة ، ولكن بشرط القراءة والكتابة . كذلك كان هناك نظام الحاصلين على شهادة الابتدائية أو الكفاءة أو راسبى الثانوية . ولقد صادفت وقتًا طويلاً من الفراغ لم أشأ أن أقضيه مع الجنود دون فائدة ، فرأيت أن أتولى التدريس لمحو أمية البعض وأن أشجع الباقين على استكمال دراستهم فى سبيل استبقائهم فى خدمة القوات المسلحة للاستفادة من الخبرة التى اكتسبوها .

ولقد أثمرت هذه التجربة بأكثر مما توقعت وظلت راسخة فى ذهنى طويلاً بعد أن لفت نظرى رغبة الجنود الجامحة فى التعليم . .

ولكن الشيء الذى لم يخطر على بالى فى ذلك الوقت، أنى بعد ٣٥ عامًا سوف تتاح لى فرصة تعميم هذا النظام فى كل القوات المسلحة ، بعد أن أصبحت وزيرًا للدفاع وقائدًا عامًا للقوات المسلحة ، فلقد كان اهتمامى فى أول اجتماع عقدته فى ٥ أكتوبر عام ١٩٧٨ مع قادة القوات المسلحة يتركز على محو الأمية كأحد الموضوعات الرئيسية . وأذكر أنى وقتها حثثت المجتمعين بالعبارة الآتية « **لا شك أنه من العار على القوات المسلحة أن يدخلها مواطن أمى يقضى فيها ثلاث سنوات ثم يخرج منها أميا مرة أخرى** » !

ولقد نفذت هذه السياسة على الفور وظلت مطبقة حتى يومنا هذا (١) .

قدر جيل

لا أدرى لماذا كان مقدرًا على جيلنا بالذات أن يبدأ كل شيء من أول خطوة على الطريق . .
لقد جاهدت وقتها إدارة السلاح مع هيئة أركان حرب القوات المسلحة فى تعليم الضباط وإلحاقهم فى دورات تدريبية بالقوات المسلحة المصرية وبالجيوش الأخرى فى تخصصاتهم

---

(١) مع نجاح هذه السياسة فى القوات المسلحة ، طبقت فى الأجهزة الأخرى كالشرطة .

المختلفة ، وكان من نصيبى التدريب فى القوات الجوية المصرية على أعمال الاتصال بين الجيش والطيران ثم ألحقت بعدها لمدة شهرين على الأسراب المقاتلة فى مرسى مطروح ، وكانت تقوم بالدوريات على حدودنا بعد انسحاب قوات المحور من منطقة العلمين ومرسى مطروح لحراسة طرق مواصلات الجيش البريطانى فى دلتا النيل .

وفى بداية عام ١٩٤٥ ألحقت مرة ثانية فى دورة معلم للإشارة والاتصالات فى معسكر للجيش البريطانى يطلقون عليه « دجلة » بصحراء المعادى جنوب القاهرة (مكانه الآن المعادى الجديدة) . . ولقد أمكننى بفضل هذه الدورة تعريب وصناعة جهاز لإرسال الإشارات الكودية يستخدم كوسيلة سرية للاتصالات ، وعندما علمت أن الجهات المسئولة أمرت بتعميم هذا الجهاز فى القوات المسلحة غمرنى شعور بالسرور يفوق كثيرًا الابتهاج الذى أحسست به عندما تلقيت خطابًا تشكرنى فيه هيئة الأركان .

الـذرة لا « لا » تتجـزأ

وأثناء هذه الدورة سقطت القنابل الذرية الأمريكية على هيروشيما وناجازاكى وأعلنت اليابان الاستسلام دون قيد ولا شرط . . ومن الغريب أنه منذ خمس أو ست سنوات خلت ، كنا ندرس أن الجزىء هو أصغر شىء فى المادة يمكن تجزئته . . وأن الذرة لا تتجزأ مطلقا . ومن كتب غير ذلك فى امتحان الفيزياء حكم عليه بالرسوب ! ولكن ها نحن أولاء نشهد بعد ذلك تطورًا علميًا جديدًا وخطيرًا . فالذرة لم تتجزأ وحسب بل خرج منها مارد عملاق بلغت قوة انفجاره ـ فى أدنى الصور ـ ٢٠ كيلو طن أو ما يعنى انفجار ٢٠ ألف طن من الديناميت تحصد فى ثوان آلاف الآدميين وتشوه من ينجو من الانفجار وتورثه من الأمراض والأورام ما يبقى لعدد من السنين .

كان وقع هذا الخبر على الضباط البريطانيين الذين يشاركوننا الدورة وقعًا مفرحًا عظيمًا . . لقد أدركوا الآن أن الحرب العالمية الثانية قد آذنت بالانتهاء خاصة بعد احتلال الحلفاء لإيطاليا ومساحات كثيرة من غرب أوربا وبعد ضرب برلين ومدن ألمانيا ضربًا متواصلاً ساحقًا بالقنابل .

ولقد حدث لبعض هؤلاء الضباط أن اضطروا للبقاء فى مصر لمدة طويلة دون أن يحصلوا على أية إجازات بسبب المخاطر التى كانت تتعرض لها السفن والطائرات البريطانية عبر البحر المتوسط . ومن أجمل الطرائف أنى التقيت ذات مرة بأحد المدرسين البريطانيين ووجدته على غير عادته متهلل الوجه يفيض بالبشر والسعادة ، وقد دعا أصدقاءه ليشربوا نخبًا على

حسابه الخاص . وبينما وقفت معهم أرتشف عصير البرتقال فهمت أن سبب المناسبة أنه تلقى خطابا من زوجته بإنجلترا تبشره فيه بأنها رزقت بمولود جديد . وهنا خطر لى أن أسأله عن تاريخ آخر أجازة سافر فيها إلى بلاده . . ولدهشتى أجابنى ببساطة وما زال فمه يتسع بالابتسام أن آخر أجازة له كانت منذ عامين ! وهنا كدت ألفظ عصير البرتقال من فمى من شدة الدهشة . . . وهممت أن أقول شيئًا ولكنى آثرت الصمت ولم أعلق بشىء !

الفصل التاسع

ما بعد الحرب العالمية الثانية

كان الموقف السياسى فى مصر منذ عام ١٩٤٤ مثيراً للارتباك . . وما كادت الحرب العالمية الثانية تنتهى حتى بدأ التحرك الشعبى من جديد للمطالبة بالاستقلال التام . .

فاندلعت المظاهرات مرة أخرى فى سبتمبر عام ١٩٤٦ وخاصة بعد معارضة حزب الوفد للاتفاق الذى وصل إليه صدقى مع بيفين وزير خارجية بريطانيا ، والذى كان يفضل معاهدة عام ١٩٣٦ بكثير ، وكانت بريطانيا قد أصدرت بيانا فى ٨ مايو ذكرت فيه لأول مرة عزمها على الانسحاب من مصر ، ولكن تعثرت المفاوضات لتمسك مصر بالجلاء الكامل والفورى وكذلك بالسودان .

ومما يذكر أنه فى أثناء وجود وفد التفاوض فى إنجلترا نصح الاتحاد السوفييتى مصر عن طريق سفيرها فى موسكو بعرض قضيتها على مجلس الأمن ووعد بمساندتها ومنع بريطانيا من استخدام حق الفيتو .

ولما تعثرت المفاوضات وعاد الوفد إلى مصر ، اشتعلت المظاهرات مرة أخرى فى شتى أنحاء البلاد بإيعاز من حزب الوفد .

فى هذه الأثناء خشيت الحكومة المصرية على أمن البلاد فطلبت من وزارة الحربية التدخل لحفظ الأمن على أن تترك لوزارة الداخلية مهمة مقاومة المظاهرات ولذلك كلفت القوات المسلحة بمهمة حراسة المنشآت العامة فى شتى أرجاء البلاد .

وكان من نصيب سلاح الفرسان فى تلك الفترة تأمين الأهداف الحيوية فى مدينة المنصورة ، مثل محطات المياه والصرف الصحى والكهرباء والكبارى وما شابهها . وأذكر أنه فى مرورنا على

قوات الحراسة كنا نستخدم الدراجات العادية الأمر الذى أتاح لنا فترة رياضية ممتعة ، خاصة وأن المرور كان يتم بعد منتصف الليل فى أغلب الأحيان وفى جو ساحر بديع قريبًا من ضفاف النيل .

يوسف وهبى يطاردنا فى المنصورة

وأذكر وأنا فى المنصورة أننا توجهنا ذات مرة فى فترات راحتنا إلى إحدى دور السينما حيث كان يعرض فيلم « يد الله » ليوسف وهبى ، وكان يوسف فى أوج مجده فى هذه الأيام . كانت قصة الفيلم تدور عن الثأر ، لذا بدأ الفيلم بصراخ على أحد الموتى فى المقابر وتلا ذلك عدة حوادث قتل لا تنتهى . كان الفيلم ممتعًا رغم كل شىء ولقد شدنا شدا إلى المقاعد . . ولكن تصادف عند وصول أحداث الفيلم إلى موقف مثير أن دخل علينا فى الصالة واحد من الجنود أرسله إلينا قائد قوة الحراسة ليستدعينا لأمر هام . فهمست على الفور فى أذن باقى الزملاء بضرورة مغادرة دار العرض توا والتوجه إلى مقر الرئاسة . وفى أثناء انسحابنا فى الظلام من بين الصفوف همس أحد الزملاء مداعبا « يبدو أن هذا الجندى جاء يستدعينا فى الوقت المناسب . لقد بدأت أخشى من الأستاذ يوسف وهبى ، وقد خلص تقريبًا على كل الممثلين ومعظم الكومبارس وأجهز عليهم قتلاً ، أن يستدير إلينا نحن المتفرجين ويخلص علينا بدورنا » ! .

واستطاعت هذه النكتة العابرة فى ذلك الوقت غير المناسب أن تنتزع من أفواهنا قهقهة عالية سرعان ما شعرنا بعدها بالخجل من باقى المتفرجين الذين كانوا يخرجون مناديلهم فى هذه اللحظة ليمسحوا بها دموعهم المنهمرة حيث بدأ يوسف وهبى يهجم على بطلة الفيلم الجميلة ويخنقها بيديه الاثنتين بلا هوادة !

الموت الزؤام

بنزول القوات المسلحة إلى الشارع السياسى فى مختلف أنحاء القطر هدأت الأحداث تمامًا . ولذلك لم نلبث عدة أسابيع قليلة فى أماكن تمركزنا الجديدة ، حتى صدرت إلينا التعليمات بالعودة إلى ثكناتنا فى القاهرة لكى نبدأ ممارسة مهمتنا الأصلية وهى التدريب وصيانة المعدات .

ولكن ما كدنا نضع خطتنا لممارسة هذا التدريب على مختلف المستويات ، حتى جاءت تعليمات أخرى جديدة تقضى بنزولنا إلى الشارع من جديد ! وفى هذه المرة لم يكن نزول الجيش

ليواجه جموع المظاهرات الغاضبة ورد فعلها الثائر ، وإنما كان عليه أن يواجه عدوًا غريبًا صغير الحجم بل متناهيا فى الصغر لدرجة استحالة رؤيته إلاّ بالمجهر !

إنه وباء الكوليرا الذى تسلل خفية من داخل منطقة قناة السويس وأخذ يوجه ضرباته المميتة فى مختلف أرجاء البلاد .

وعلى الفور كلّفت القوات المسلحة بمهمة عزل بعض أجزاء القطر عن بعضها الآخر حصرًا للوباء . . وكان من نصيب مدرسة المدرعات أن تقوم بعزل مداخل الصعيد عن القاهرة!

كنت فى ذلك الوقت أعمل أركان حرب لمدرسة المدرعات التى يقودها البكباشى سيد فهمى (سفير مصر بعد الثورة) فقمنا بوضع خطة لقفل مداخل الصعيد من غرب النيل حتى طريق الفيوم ، وبذلك يتم منع دخول أى خضراوات أو فواكه إلى القاهرة ومع حظر دخول وخروج الموتى منها وإليها . .

أذكر أنها كانت أيامًا حزينة بائسة ـ الوجوه تنطق حولنا بالوجوم والشقاء خاصة عندما يخرج الأهالى ليلاً ليودعوا موتاهم ويدفنوهم سرًا دون أية طقوس . وتعجبت، فمن فترة غير بعيدة كان أبناء هذا الشعب ثائرين ينادون بالاستقلال التام أو الموت الزؤام ، وإذا بهم قد صمتوا الآن تمامًا ولم يحققوا أى شىء من هذا الاستقلال . . . أما الموت الزؤام فقد جاءهم متطوعًا ليحصد الأرواح فى كل بيت شاء أن يمر ببابه !

وسرعان ما سرت إشاعات بين القوم بأن هذه الكوليرا هى تدبير مقصود من القوات الإنجليزية التى ترابط فى القناة لتشغل بها الشعب عن مطالبتهم بالجلاء ، فهذا نوع من الأحابيل التى يتقنها مهندسو الاستعمار البريطانى ، والتى يمتلئ بها ملفهم بدءًا من مذبحة الإسكندرية عام ١٨٨١ والتى نشبت على إثر مشادة مفتعلة بين مالطى وحمّار ، وبعدها مباشرة قدم الأسطول البريطانى إلى الإسكندرية وربض فى مياهها بحجة حماية الأجانب ، **وكان أن احتل مصر بعد ذلك ! ثم افتضح أمر المالطى فيما بعد واتضح أنه ابن شقيق الطبّاخ الذى يعمل فى بيت القنصل الإنجليزى !**

والحقيقة أنى لا أملك اليوم ما يؤيد أو يفند إشاعة مؤامرة الكوليرا ، ولكن الثابت المؤكد أن بريطانيا لم تلتزم بتنفيذ بنود المعاهدة منذ إبرامها تنفيذًا دقيقًا ، سواء فيما يتعلق بإجراءات الحجر الصحى أو بالإجراءات الجمركية السليمة . . خاصة وأنها كانت تضع يدها على بعض مطارات قناة السويس الأمر الذى أتاح لها إحضار بضائع وأشخاص من جنوب آسيا ، حيث

كانت تتوطن بها فى ذلك الوقت أمراض وبائية خطيرة كالحمى الصفراء والكوليرا . وكان الجيش البريطانى قد اتخذ من منطقة القناة محطة للحجر الصحى لكل الجنود الإنجليز وهم فى طريق عودتهم من الهند إلى بلادهم .

وكان وباء الكوليرا قد ظهر فى الهند وباكستان فى أواخر أغسطس سنة ١٩٤٦ ، فاقترحت الجامعة العربية (التى كان أعلن عن تكوينها عام ١٩٤٥) وضع جميع المسافرين القادمين من الهند إلى مصر تحت الرقابة الصحية إلا أن إنجلترا وفرنسا رفضتا هذا الاقتراح .

وكانت النتيجة أن ظهرت أول حالة كوليرا فى قرية القرين بالشرقية يوم ٢٢ سبتمبر ١٩٤٧ حيث قضت على عامل مصرى يعمل بمعسكر الجيش البريطانى فى التل الكبير (غرب الإسماعيلية) وسرعان ما سرى الوباء إلى قرى أخرى .

ولقد أدركت الحكومة المصرية خطورة الموقف خاصة بعد أن قضى الوباء على ٢٠٠ ألف باكستانى مات منهم ٥٠ ألف فى أيام قليلة .

وأيا كان سبب هذه المأساة ، سواء كان أمرًا مدبرًا أم إهمالاً جسيما من العدو المستعمر ، فإن مدرستنا قامت بمهمتها فى حصر الوباء وعزله خير قيام ، هى وعدد كبير آخر من وحدات القوات المماثلة كانت تقوم بنفس المهمة فى شمال وشرق القاهرة حيث نفذت التعليمات بحسم وصرامة ، فوقى الله القاهرة شر انتشار الوباء . . . وبالرغم من ذلك ، ومع كل هذه الإجراءات الوقائية الصارمة ، قضى الوباء على ما يقرب من ١٢٠٠٠ نسمة فنيت منهم عائلات بأسرها فى القرى التى اجتاحها الوباء !

الباب الرابع

عدوّ جديد يظهر في الأفق! (١٩٤٨)

الفصل العاشر
القرار المشبوه

مع انسحاب الهزيع الأخير من عام ١٩٤٧ أسدل الستار على مظاهرات ستانسجيت وبيفين وغيرها وزال خطر الكوليرا تماما عن مصر ، ولكن بدأت تتجمع فى الأفق سحب خطر جديد ظن الجميع وقتذاك أنه ليس فى خطورة الكوليرا أو فى شراسة المستعمر الذى يجثم على صدورنا منذ عام ١٨٨٢ ! لقد وصف هذا الخطر وقتذاك بأنه مجرد شراذم أو عصابات متفرقة تجمعت على حدودنا الشرقية بقصد التوطن فى فلسطين بغير حق أو سند . . وأن مهمة تأديبهم وإعادتهم إلى بلادهم الأصلية لن تتطلب إلا بعض العمل التطوعى من بعض الجماعات الوطنية القائمة (مثل جماعات الإخوان المسلمين) ، على أن تساندها وتنظمها عناصر أخرى متطوعة من داخل الوحدات العسكرية يقودها أفراد ذوو إرادة وعزيمة مثل البطل المرحوم أحمد عبد العزيز الذى عملنا معه بسلاح الفرسان ثم خرج متطوعا لهذا العمل الذى شاء القدر أن يصاب فيه أثناء الهدنة بطلقة طائشة ، فلم يتم رسالته .

كان ذلك هو التفكير المهيمن على جميع المسئولين فى ذلك الوقت . لذا راحوا يتكلمون عن مهمة يسيرة محدودة لا تتطلب إلا قوات فى أقل الحدود . . وحتى عندما تطور الأمر بعد ذلك وصدر قرار بإشراك الجيش فى المهمة وجاءت التعليمات بشحن وحدتى سلاح الفرسان المزيلتين[١] لتسفيرهما فى ١٣ مايو إلى فلسطين ، حضر اللواء عثمان باشا المهدى رئيس أركان حرب القوات المسلحة وقتذاك إلى محطة السكة الحديد داخل معسكرات العباسية (مدينة نصر حاليا) ليودع الضباط والجنود المتجهين إلى الميدان ، ووقف يلقى كلمة حماسية قصيرة على

---

(١) الآلاى الأول سيارات (الذى كان يتكون من عربات خفيفة مدرعة) والآلاى الأول دبابات خفيفة .

رصيف المحطة أكد فيها بساطة المهمة الملقاة على عاتق القوات . وأنه لا يخامره أدنى شك فى أنه سوف يلتقى بها ثانية سريعًا عند عودتها منتصرة بعد القضاء على العصابات الإرهابية الصهيونية ! وقطعا لم يخطر على باله فى ذلك اليوم بل ولا على بال أى إنسان غيره ، أن القوات التى وقف يودعها على رصيف المحطة لم تكن إلا الإرهاصات الأولى التى فتحت الباب على مصراعيه لأتون صراع مرير طويل متعاقب الأجيال ، لم يشأ التاريخ حتى الآن أن يخط بيده السطور الأخيرة لنهايته ، ولقد قارب الصراع أن يتم نصف قرن من الزمان !

القـرار المشـبوه

والحقيقة أنى عندما أستجمع أحداث ذلك التاريخ أتذكر تماما كيف كانت الروح المعنوية للقوات المسلحة مرتفعة حتى عنان السماء ، ولدرجة أن كثيرًا من الضباط والجنود كانوا يسعون سعيًا للانضمام إلى القوات المسافرة . . وبالفعل لم يتطلب الأمر أكثر من أسبوعين حتى وصلت طلائع الجيش المصرى إلى مشارف تل أبيب عند أشدود أى لمسافة لا تزيد على عشرين ميلاً منها ، ثم كانت بعد ذلك الضغوط الدولية ثم الهدنة الأولى التى قبلتها مصر وباقى الحكومات العربية ثم تتابعت الأخطاء التاريخية الكبيرة بعد ذلك فكان الانهيار التام الذى أصاب كل شىء !

ولكن قبل أن أندفع فى سرد مراحل هذه الحرب وقصة الأحداث التى شاركت فيها بملابساتها الشاذة ، أجد عوامل نفسية كثيرة تلح على أن أقوم بفحص وتحليل أولى هذه الملابسات ، وأقصد الكيفية التى اتخذ بها قرار الحرب ـ هذا القرار الذى ظل مثارًا لأقاويل كثيرة وقصص متضاربة طيلة الأربعين عامًا الماضية ، كانت كلها تدور حول سؤال واحد حائر ظل يتردد طويلاً على الألسنة وهو : هل هذا القرار قصد به صالح العرب أم كان قرارًا مشبوها أريد به إشعال النار فى المنطقة لقصد خفىّ لا يستفيد منه إلا من أشعلها ؟ .

من كان بيده القـرار ؟

وقبل الشروع فى الإجابة عن هذا السؤال ، أرى أنه من الضرورى أن أحدد القوى التى كان بيدها إصدار قرار الحرب فى ذلك الوقت ـ أقصد فى نهاية الأربعينيات . كانت مصر تتنازعها أكثر من جهة مسيطرة ! فهناك أولا السفير البريطانى الذى كان بيده الأمر والنهى الحقيقيان والذى وضح أن سيطرته ترسخت فوق سطوة الملك منذ حادث ٤ فبراير ٤٢ والذى لابد وأنه ترك بصمته على نفسية الملك فعلمه كيف يفكر مرتين (إن لم يكن ثلاثًا) قبل التردد فى إطاعة أى أمر بل أى تلميح يصدر عن الإنجليز سرًا أو علنًا !

ثم بعد الإنجليز يأتى الملك الذى كان غارقًا فى صراع عميق مع الوفد حزب الأغلبية فى البلاد والذى كان يرى فيه المناوئ الحقيقى لفرض سلطانه الشخصى على الحكم .

بعد ذلك يجىء دور الأحزاب التى كان يتطاحن بعضها مع بعض ، وبعضها مع الملك . فكانت فرصة للملك أن يلعب بمقدّراتهم جميعا . ولذلك كانت الوزارات تتغير وتتعاقب كل عام تقريبًا بين الوفد والسعديين وحزب الشعب والمستقلين والأحرار الدستوريين كلما أراد الملك .

وفى النهاية يقف الشعب مترقبًا متربصًا بدوره الإيجابى فى انتخابات ممثليه . ولكن كثيرًا ما كان الملك يضرب بنتائج الانتخابات عرض الحائط ، فيطيح بحكومة الأغلبية فى أى لحظة ليفسح السبيل إلى حكومة أخرى تحظى بعطفه ورضاه . ولذلك كثيرًا ما كان الشعب يثور ويهدد ويتظاهر ليعبر عن رفضه ، مما يجعل حكومات الأقليات تلجأ إلى كبته وقمعه بكافة أجهزة القمع القائمة .

حيرة رئيس الحكومة

وقبل أن يصدر فى مصر قرار بدخول الحرب فى ١٥ مايو ٤٨ (مع باقى الدول العربية) لإنقاذ فلسطين ، كان النقراشى (حزب أقلية سعدى) يرأس الوزارة ويعلم تماما بحقيقة الموقف[١] فى فلسطين فرأى أنه من الأنسب عدم الزج بمصر فى الحرب إذ كان يدرى تمامًا أن الجيش المصرى لم يكن مستعدا لا بالعدة ولا بالعدد لهذه الحرب ، كما أنه كان فى شك من نوايا الإنجليز الذين كانت ترابط قواتهم فى منطقة القناة ، الأمر الذى لا شك له تأثير مخيف على أمن وخطوط مواصلات الجيش . فباستطاعتهم فى أى لحظة قطع هذه المواصلات وإيقاف إرسال العتاد والمؤن إلى القوات التى تحارب فى فلسطين فتسقط عندئذ كشجرة هامدة قطعت عند جذورها ! وكان ذلك الأمر لا يكلفهم أكثر من غلق المعابر المقامة على القناة والتى تقع فى كنف الحراسة المشددة للقوات الإنجليزية التى تفوق الجيش المصرى عدة مرات فى كل شىء[٢] !

---

(١) كان النقراشى قد أوفد المهندس سيد مرعى إلى فلسطين ، فكتب تقريرًا مفصلاً عن المستوطنات الدفاعية الإسرائيلية .

(٢) كانت قوات الإنجليز التى ترابط فى منطقة القناة لا تقل عن ٨٠ ألف مقاتل أى قدر قوات الجيش المصرى عدة مرات . . وكانت المعابر المقامة على القناة هى كوبرى سكة حديد عند الفردان ومعديات عتيقة محدودة العدد عند السويس والإسماعيلية لا تسمح بعبور إلا عدد قليل جدا من المركبات فى كل مرة .



محمود فهمى النقراشى

ومهما قطع الإنجليز على أنفسهم عهدًا للمصريين بسلامة وأمن قواتهم ، فإن ذلك يعنى ببساطة شديدة أننا قد أسلمنا عنقنا ليكون تحت رحمة من يخنقه بقبضة يده ، فإن شاء قبضها و إن شاء بسطها (١) !

وحتى لو بدا جليا وقتذاك أن الإنجليز لن يعارضوا هذه الحرب وأنهم سوف يفتحون المعابر على مصراعيها ليسمحوا للقوات المصرية بالقيام بالعبور الآمن إلى فلسطين ، فلا شك أنه من مستغرب الأمر أن يسمح الإنجليز للعرب بتهديد كيان الدولة الربيبة التى منحوها هم أنفسهم ميثاق وجودها (بالوعد المشهور) ، والتى اعترفوا بها فى الساعات الأولى من قيامها بعد تعضيدها بالسلاح وبالهجرات والأراضى . . إلخ إلخ . . .

ألا يدعو هذا الموقف المتناقض حقًا إلى إثارة الشك المقلق فى عقل أدنى المسئولين ذكاء ؟

ولابد أن النقراشى كرئيس حكومة مسئول اعتمل فى قلبه مثل هذا الشك الرهيب ! فأحجم عن الزج بالبلاد فى هذه الحرب المشبوهة التى أدهشه أن يباركها الإنجليز لغير سبب واضح !

الملك فاروق يتحرك

ولكن حيرة النقراشى لم تدم طويلاً ، فقد فاجأه الملك فاروق فى ١١ مايو بدعوة الملوك والرؤساء العرب لاجتماع مغلق فى مزرعته بأنشاص . ولدهشته لم يدعه الملك إلى هذا الاجتماع ! بل لم يدع إليه أى مسئول بالحكومة المصرية (ولا غيرها) . وكل ما حدث بعد الاجتماع هو أن

---

(١) يجب أن نتذكر أن إنجلترا لم تستخدم قبضتها فى قطع مواصلاتنا فى حرب ٤٨ ، ولكن ذلك هو ما فعلته بالضبط فى عدوان ٥٦ .

الفـريق حيدر باشا وزير الحـربية قد تلقى أمرًا مباشـرًا من الملك بدخول الجيش المصرى الحرب !

ولم يكن هناك من سبيل أمام رئيس الحكومة الذى تجاهله الملك إلا أن يستخدم حكمته لتلافى وقوع أزمة دستورية ، لذا تمخض فكره عن دعوة البرلمان يوم ١٢ مايو إلى جلسة سرية ليطلب منه الموافقة على دخول الحرب !

وهكذا تجمعت القوات المسافرة فى محطة السكة الحديد فى اليوم التالى مباشرة (١٣ مايو) لكى تسافر مع معداتها الهزيلة إلى الميدان ومع جنود ينقصهم كل شىء إلا الروح المعنوية العالية .

فقد كان الشحن الدينى والقومى قد ملأ النفوس على الصعيد الشعبى ، وقد غذته كل وسائل الإعلام كعادة العرب دون أدنى مراجعة لوسيلة الوقوف ضد التيار الدولى القوى المؤيد لقرار التقسيم والمتعاطف مع الشعب اليهودى الذى ترسخت قضية اضطهاده وتعذيبه وتشريده فى الضمير الأوربى المسيحى [١] خاصة فى السنين الأخيرة التالية للحرب العالمية الثانية .

ولاشك أن كارثة هذا الاندفاع ضد التيار الجارف ورفض قرار التقسيم ، هى التى ظلت تلاحق العرب من ذلك التاريخ حتى يومنا هذا ، وتشوه صورتهم لتبدو على النحو السيئ الذى ظلت تبدو عليه حتى الآن ، وقد خسروا أمام العالم أشياء كثيرة كان على قمتها قرار التقسيم نفسه[٢] . . .

(١) استقبلت مصر عشرات الآلاف من اليهود الفارين من النازى من أوربا .

(٢) فى إبريل ١٩٤٧ طلبت الحكومة البريطانية من تريجفى لى سكرتير عام الأمم المتحدة عقد دورة غير عادية للجمعية .



قرار تقسيم الأمم المتحدة الفلسطينية
الصادر فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧

الفصل الحادى عشر
العملية نجحت ولكن مات المريض

وقبل أن أسترسل فى تحليل تلك الأحداث والملابسات ، تحضرنى هذه القصة الغريبة والتى لا أدرى بالضبط أين ومتى قرأتها أو سمعتها ! ولكن مع غرابتها واستحالة حدوثها أجد فيها شبها كبيرا بينها وبين ظروف حرب ٤٨ وقرار دخولها !

كان عدد من الزملاء قد اتفقوا فيما بينهم على القيام برحلة ترفيهية مرتجلة فى غياهب الصحراء . . فلما توغلوا فى شعابها ودهمهم الليل ضلّوا الطريق وتاهوا بداخلها . . وظلوا على هذا الحال الرهيب لعدة أيام حتى كاد الطعام والشراب ينفدان منهم . وفى هذه الأثناء تعرض واحد منهم إلى خطر الموت إذ داهمه التهاب حاد فى الزائدة الدودية يهدد بانفجار فى بطنه فى أى لحظة . وكان من بين الصحبة طالب أمضى سنتين فقط فى كلية الطب ، ولكنه سبق أن شاهد فيلما سينمائيا عن حالة حدثت فى ظروف مماثلة وأجريت فيها عملية بدائية أنقذت صاحبها . ولما كان المصاب ميتا لا محالة إذا مر الوقت ولم تجر له العملية ، فقد وافق الجميع على أن يقوم الطالب بإجراء جراحة عاجلة للمريض بعد أن أبدى استعداده للقيام بها برغم أن كل إمكانياته كانت مجرد مطواة مشحوذة جيدًا وكولونيا للحلاقة وخيوط من الكتان تستخدم فى لفق قماش الخيام ! وبعد أن وجهوا ضربة بالعصا إلى مؤخرة رأس المريض المنكود ليغيب عن الوعى تجنبًا للألم (كما فى الفيلم أيضًا) ، استطاع الطالب أن يصل إلى مكان « الأعور » المتورم واستئصاله فى اللحظة المناسبة قبل انفجاره بدقائق ، ولدهشتهم نجحت العملية ونجا المريض. ولكنه ظل غائبًا عن الوعى لساعات طويلة حتى فاضت روحه ، ليس بسبب الجراحة ولكن بسبب إصابته بنزيف حاد فى المخ نتيجة للضربة التى وجهوها إلى رأسه قبل العملية لتخديره . . فلقد اتضح أنها كانت أشد من اللازم .

أوجه شبه كثيرة بين هذه القصة وبين عمليات ٤٨ التى نجحت فى بداية الأمر بوصول القوات المصرية والعربية إلى مشارف تل أبيب ، ثم انتهت بانسحابها فى نهاية الحرب ، ولم تكتب الحياة لكلمة فلسطين ، لتبرز كدولة مستقلة أو على الأقل تتقاسم السيادة على الأرض مع إسرائيل حتى الآن .

ولقد رأينا كيف اتخذ قرار حرب ٤٨ فى ارتجال كامل ، وتم تنفيذه بإمكانيات هزيلة كتلك الدبابات والمعدات البالية التى رأينا فى فصول سابقة كيف تم إصلاحها من « خردة » وكالة البلح ، ولقد تعرضت بعدئذ لحوادث هزلية عديدة أثناء المعارك . فكثيرًا ما كانت محركات العربات تتوقف ثم يتعذر إعادة دورانها أثناء القتال بسبب ضعف بطارياتها القديمة . . فيضطر جنودنا للنزول منها ليدفعوها بمناكبهم أثناء انهمار الرصاص عليهم حتى ينجح السائق فى إدارة المحرك بطريقة التعشيق الساذجة فإذا ما دار المحرك العاصى عادوا للقفز فوقها مرة ثانية ليواصلوا تقدمهم لاقتحام المستعمرة أو الدشمة التى اعترضت سبيلهم بنيرانها!

هذا عن الإمكانيات . . أما عن خبرة الحرب ، فالمعروف أن جيشنا لم يدخل حربا أو يطلق رصاصة واحدة منذ حروب محمد على وفتوح السودان فى أواخر القرن الماضى ! ولقد تعمدت البعثة البريطانية (التى كانت تهيمن على تدريب الجيش وتسليحه بموجب معاهدة ٣٦) ، ألا تزود هذا الجيش بالعلوم أو المعلومات العسكرية المفيدة إلا بالقدر الشحيح الذى يمكّن وحداته من تقديم المعاونة العسكرية اللازمة للقيام بالمهام الثانوية المحدودة التى طلبت منهم فى الحرب العالمية الثانية ، مثل رصد الألغام التى كانت تلقيها طائرات المحور فى القناة أو المعاونة فى أعمال الدفاع الجوى عن الأهداف والمدن الهامة بالعمل على المدافع المضادة العادية ومصابيح الأنوار الكاشفة الليلية التى تصاحبها والتى تعمل فى خدمة أجهزة الرادار التى تمتلكها وتديرها القوات البريطانية فحسب ، أو بالقيام بأعمال الدوريات فى الصحراء الغربية .

هذا فى الوقت الذى كان قادة القوات الإسرائيلية يحظون فيه بالوقوف على أحدث الأساليب العلمية العسكرية وخبرات الحرب العالمية الثانية بعد أن اشتركوا فيها بلواء كامل عمل مع القوات البريطانية ، فأتيحت لهم الفرصة لدراسة أحدث نظريات الحرب وخاصة إستراتيجيات العمل غير المباشر كالمفاجأة والتطويق وقطع خطوط مواصلات الخصم والقتال الليلى وغير ذلك . .

قتال بغير استطلاع

أما القتال فوق أراضى فلسطين نفسها ، فكان يتم بغير سابق استطلاع للعدو ، بل وبدون أية خرائط مناسبة أو معرفة أو إلمام بطبوغرافية الأرض . . وكل ما كنّا نعرفه عن هذه الأماكن مجرد معلومات هزيلة كانت مستقاة من كتاب تاريخى قديم كتب بلغة مترجمة ركيكة عن الحملات الحربية التى قامت بها القوات الإنجليزية لغزو فلسطين والاستيلاء عليها من الجيش العثمانى ـ وكان ذلك بقيادة الجنرال أللنبى وفى المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الأولى (١٩١٧ـ١٩١٨) .

ولكى ندرك مدى عدم جدوى هذا الكتاب من ناحية التكتيكات العسكرية الحديثة ، يكفى أن أذكر أن كلمة دبابة أو طائرة لم تكن من بين المفردات الواردة فى أية صفحة من صفحاته والتى كانت تتحدث بإسهاب عن استخدام الخيالة والبغال . ومع ذلك كثيرًا ما كنا نستلهم بصيصًا من المعلومات والأفكار العسكرية القليلة من الهيئات الأرضية المحيطة بنا فى المعركة والتى سبق أن مرت بذاكرتى عندما كنا نحفظ ورقات هذا الكتاب عن ظهر قلب للامتحان فيه .

دور المخابرات والبعثة البريطانية

ولاشك أن المخابرات البريطانية وأفراد البعثة العسكرية المنتشرة فى الوحدات المصرية كانت تعلم بالفارق الكبير الذى يحكم القوتين المتحاربتين المضادتين ، ليس على مستوى القطر المصرى فحسب وإنما على باقى المستويات العربية أيضًا . . فلقد كان العراق والأردن شأنهما شأن مصر ـ يخضعان للاحتلال البريطانى ـ وإن كانت القوات الأردنية تحظى بتدريب وتنظيم أفضل ـ إلا أنها كانت تتبع مباشرة لقيادة الجنرال جلوب والذى يبدو أنه كان يدير معركة الأردن لحسابه الخاص وفى انفصالية تامة عن باقى القوات العربية ، خاصة بعد أن حقق الهدف المباشر له ـ أو قل لبريطانيا ـ بالاستيلاء على الضفة الغربية للأردن بما فيها القدس الشرقية ، بل واللد والرملة التى تخلت قواته عنهما بعد ذلك لسبب غير مفهوم مما يثير العديد من علامات الاستفهام حول الدور المشبوه الذى لعبته بريطانيا فى هذه الحرب ، والذى تشير أصابع الاتهام إلى أنها هى التى كانت وراء اتخاذ قرارها منذ اللحظات الأولى بحيث يصدر من الدول العربية وكأنه نابع من إرادتها !

ولذلك يتهم بعض المراقبين السياسين المستر إيدن ـ وزير خارجية بريطانيا فى ذلك الوقت بأنه كان يتنبأ ويخطط لذلك اليوم ، عندما تبنى فكرة إنشاء جامعة الدول العربية وظل وراء



أنتونى إيدن

تلك الفكرة حتى نفذها بالفعل عام ٤٥ وبحماسة تفوق حماسة أى عربى مسئول فى هذه الجامعة وقتذاك . ويشك هؤلاء المراقبون فى أن إيدن بدأ فى ذلك الوقت يستشعر خطر ازدياد القوى الصهيونية ونموها فى المنطقة بشكل يتجاوز حدود الدور الذى قصدته بريطانيا من غرس دولة يهودية فى وسط العرب ، مما دعاه إلى إنشاء هذه الجامعة بحيث إذا سيطرت إنجلترا على قواتها العسكرية وأمسكت بقيادها فإنها تستطيع أن توجهها لتصبح طرفا فى لعبة توازن قوى فى الصراع المحلى الجديد الذى خلقته وفقًا لمعتقداتها السياسية الإنجليزية العميقة الأغوار والتى تمرست فيها بخبراتها الاستعمارية التى وسعت العالم ولخصها حكيمها المشهور بنيامين دزرائيلى فى الكلمتين المشهورتين « فرق تسد » .

الكوليزيـوم الإنجـليزى

والحقيقة ـ وبعد مرور أكثر من أربعة عقود على حرب ٤٨ (أولى جولات الصراع العربى الإسرائيلى) أجد فكرة تشابه غريب تراود ذهنى بين دور إنجلترا فى هذه الحرب وبين الدور المفعم بالسادية الذى كان يدمنه قياصرة الرومان القدامى عندما كانوا يشهدون فى لذة بالغة مباراة دموية تطير فيها الرقاب والأطراف وتسحق فيها الرءوس ـ داخل حلبة سيرك الكوليزيوم المشهور ـ بين الأطراف المتصارعة من العبيد . . فى هذه اللعبة كان الجميع يدخلون الحلبة بلا سابق كراهية أو عداوة ، ولكن سرعان ما يحكمهم قانون واحد هو « إن لم تبادر إلى قتل خصمك الذى أمامك فإنه سيبادر هو نفسه إلى قتلك » !

لقد خلقت إنجلترا من فلسطين كوليزيوم كبير . . يتصارع فيه العرب واليهود حول أسطورة أرض الميعاد فيشغلهم لبنها وعسلها الموهوم عن احتلالها واستغلالها لأرض عربية

أخرى تفيض بشيء أحلى مذاقًا من العسل الأبيض هو البترول الأسود (أو الذهب الأسود كمسماهم) !

كم كانت فجيعة بريطانيا عندما انقلب عليهم اليهود داخل فلسطين ، وراحوا يلاحقون الضباط الإنجليز بالقتل والإرهاب وتعليق جثثهم فوق الأشجار ، ثم كانت الطامة الكبرى عند نسف مركز رئاستهم الرئيسى لمنطقة الشرق الأوسط عام ٤٦ فى فندق الملك داود بالقدس ! ولذلك لم يكن عجيبا أن يكون يوم رحيل آخر جندى بريطانى من فلسطين هو نفسه أول يوم لاشتعال النار فى المنطقة والتى ظل أوارها لا ينطفئ لأكثر من أربعة عقود حتى الآن ! ومن العجيب أن هناك الآن من الإنجليز من يقول بأن إنجلترا خسرت من وعد بلفور أضعاف ما خسره العرب منه !

حقيقة وعـد بلفـور

بل هناك من اليهود من يردد نفس القول ولكن بصيغة أخرى . . فهم يقولون إن اليهود هم الذين خسروا من هذا الوعد بأكثر مما خسر العرب والإنجليز معا ! ولكى نفهم وجهات النظر هذه الغريبة ، علينا أن نستعيد الظروف التى صدر فيها هذا الوعد ، ولكن من منظار آخر غير الذى درجنا على استيعابه .

لقد أصدر هذا الوعد السير آرثر جيمس بلفور ـ الملقب بالفيلسوف ـ عندما كان الرجل يتولى وزارة خارجية بريطانيا (١٩١٦ ـ ١٩١٩) أثناء الحرب العالمية الأولى . . وكان الهمّ الشاغل للإنجليز فى ذلك الوقت هو التغلب على خصمهم اللدود ألمانيا . كان بلفور يدرك الأثر السيكلوجى الرهيب الذى سيصيب ألمانيا فى مقتل إذا ما أصدر هذا التصريح فى ذلك التوقيت الذى أعلنه فيه . . لقد صرح الرجل بأن الإنجليز سيسمحون لليهود بإقامة وطن قومى فى فلسطين ، ومعنى ذلك أن الألمان اليهود لن تصبح ألمانيا هى وطنهم بعد الحرب بل فلسطين . . إذن فليس من صالحهم أن ينتصر الألمان على أعدائهم الإنجليز حتى يتمكنوا من تنفيذ وعدهم ! وهكذا دق الرجل إسفينا حادًا بين اليهود الألمان وبين وطنهم (أو وطنهم بالمولد) . ولقد كان هذا التصريح كافيا لأن يحول خمسة مليون يهودى أو أكثر فى ألمانيا إلى خمسة مليون طابور خامس مخرّب لعجلة الحرب . . أو على الأقل خمسة مليون مواطن ينظر إليهم بعين الشك والريبة ، فقد يعملون ضد صالح المجهود الحربى الألمانى فى مجالات المال والإنتاج والاقتصاد وفى ميادين القتال ، بل ومن يدرى كم منهم سيصبح جاسوسًا يمد الحلفاء بكل أنواع المعلومات !

من أجل ذلك كان العداء بينهم وبين هتلر الذى كان أونباشى قبل هذه الحرب ، ومن أجل ذلك لاحقهم بالاضطهاد والتنكيل وبمراكز الهولوكوست فى الحرب العالمية الثانية . . وهكذا لحقتهم كل هذه المصائب بسبب وعد بلفور ! . .

ومع ذلك عندما صدر وعد بلفور ليعطى اليهود الحق فى إقامة وطن قومى فى فلسطين ، لم يكن فى نية الإنجليز أبدًا أنهم سوف يتخلون يوما عن فلسطين ليقدّموها هدية سائغة فوق طبق من فضة « لأحبائهم » اليهود .

ففى عام ١٩١٧ أى العام الذى صدر فيه الوعد لم يكونوا قد « حرروا » بعد فلسطين من أيدى العثمانيين . . لقد فتحها أللنبى بحد السيف ـ كما يقولون ـ فهل كانوا يريقون دماء أبنائهم الزرقاء من أجل أن يهدوها لغيرهم من اليهود ؟ إن فلسطين وقد غزاها الإنجليز وأصبحت تحت انتدابهم يمكن أن تتسع لليهود والعرب معا (اتفقوا شأوا أو اختلفوا) ، المهم أن ينصاعوا جيمعا تحت الراية البريطانية لأوامر الحاكم العسكرى الإنجليزى !

ومع ذلك فعندما قرر الإنجليز الانسحاب من فلسطين فى يوم ١٤ مايو ٤٨ (أى اليوم السابق لدخول القوات العربية الحرب) ، كان مهندسو الاستعمار البريطانيين متأكدين تمامًا أن الصراع الذى أوجدوه فى المنطقة بين أهل المنطقة وبين الجسم الغريب الذى زرعوه بداخلها سوف يتيح لهم كل الفرص لاستنزاف واستغلال باقى مقدّرات المنطقة من خامات وأسواق وقناة وبترول وموقع إلخ بالإضافة إلى كل متوقعات مخطط بانرمان [١] ـ الذى أفصحت عنه الوثيقة المشهورة المذاعة والتى أقل ما فيها من شرور هو **فصل الجناح الشرقى الأسيوى عن الجناح الغربى الإفريقى للأمة العربية وإثارة كل ألوان النزاع والشقاق فى جسمها حتى لا يقوم للعرب قائمة تحمل من المفاجآت مالا يتحمّله التاريخ الغربى مرتين !**

---

(١) وثيقة بانرمان : كان بانرمان يرأس الحزب الليبرالى فى إنجلترا عندما حرر هذه الوثيقة السرية فى عام ١٩٠٧ ، وعندما أذيعت بعد خمسين عاما كشفت أسرارًا عجيبة اعتبرها المؤرخون أنها هى التى مهدت لتصريح بلفور ، وزرع إسرائيل فى المنطقة .

الفصل الثانى عشر

الحرب بالتقسيط المريح

يقولون عن اليهود إنهم هم الذين خلقوا فكرة السداد بالتقسيط المريح فى التجارة، ويقولون كذلك إنهم هم الذين كانوا وراء إدارة حرب ١٩٤٨ بالقتال المقسط المريح . فلقد شهدت هذه الحرب فى خلال بضعة أشهر قليلة ثلاث هدنات رسمية نشب القتال خلالها وتوقف عدة مرات بحيث إذا حسبت فى النهاية عدد أيام القتال تجدها تقل بكثير عن عدد أيام المهادنة .

وإذا كان « التاريخ » لا يذكر تحديدًا من الذى أوعز باقتراح هدنات ٤٨ ، إلا أننا عندما نعلم أنه خلال أسبوعين فقط من بدء القتال تقدمت القوات المصرية حتى وصلت إلى أشدود فى الشمال وإلى بير سبع ثم بيت لحم فى الشرق (وبذا تكون قد شطرت شمال إسرائيل عن جنوبها فى النقب) ، نستطيع أن نعرف من المستفيد الحقيقى من الهدنات ووقف القتال ، خاصة إذا علمنا أن باقى القوات العربية كادت تطبق بدورها بخناق تل أبيب . . وأن الأردن وحدها كانت قد استولت على الضفة الغربية بأكملها ، كما سقطت فى يدها اللد والرملة . .

الهدنات لم تكن للمهادنة !

ولم تكن هذه الهدنات بالنسبة لإسرائيل مجرد فترة لالتقاط الأنفاس أو لأعادة تنظيم قواتها واستيراد السلاح والمقاتلين المتطوعين من الخارج ، وإنما كانت فى الحقيقة جزءًا من مخطط قتالهم المخادع ـ فبمجرد أن تفرض الهدنة فى توقيت معيّن يلتزم العرب تمامًا بنصوص الهدنة ويحترمونها فيمسكون عن القتال منذ الساعة التى تحددت لبدء الهدنة . عندئذ ينتهز الإسرائيليون فرصة توقف القتال ويفاجئون العرب بالقيام بالهجوم من أجل استعادة موقع حيوى من أيدى المصريين ثم يتشبثون به قبل مجىء مندوبى الهدنة بساعات ليثبتوا هذا الوضع الجديد فى وثائقهم قبل قيام العرب بأى هجوم مضاد لاسترداد الموقع ثانية . بل وكثيرًا ما كانوا

يخرقون الهدنة بعد أيام طويلة يتوقف فيها القتال ويطمئن العرب خلالها إلى أن الميدان قد هدأ تمامًا ، وإذا بهم يفاجئون بمواجهة قتال مخطط مدروس مثل القيام بهجوم مضاد مفاجئ أو الإغارة على قوات التموين غير المسلحة فيذبحون رجالها ويخطفون المؤن والذخيرة ! وبهذا الأسلوب الماكر خسر العرب معظم انتصاراتهم فى القتال الذى كانوا يديرونه بأسلوب صلاح الدين العنترى ، بينما كان خصومهم لا يدينون أمامهم بأى أخلاقيات فى الحرب سوى أخلاقيات الحكمة الميكيافيلية المشهورة التى تقول بأنه « فى الحب والحرب كل شىء جائز»(١).

مراحل القتال الأربع

وعلى ضوء فهمنا الآن لحقيقة ودور هذه الهدنات ، يمكن أن ندرك كيف استرد اليهود بطريقة القتال المقسط المريح الذى يشنونه أثناء الهدنات ما سبق للعرب إنجازه من انتصار بالقتال المباشر ، ولقد شهدت هذه الحرب ثلاث هدنات فرضها مجلس الأمن كانت مجال احترام العرب ، ولكنها كانت مجال انتهاكات متعددة من اليهود ، كما سنرى من خلال مراحل القتال الأربع التالية :

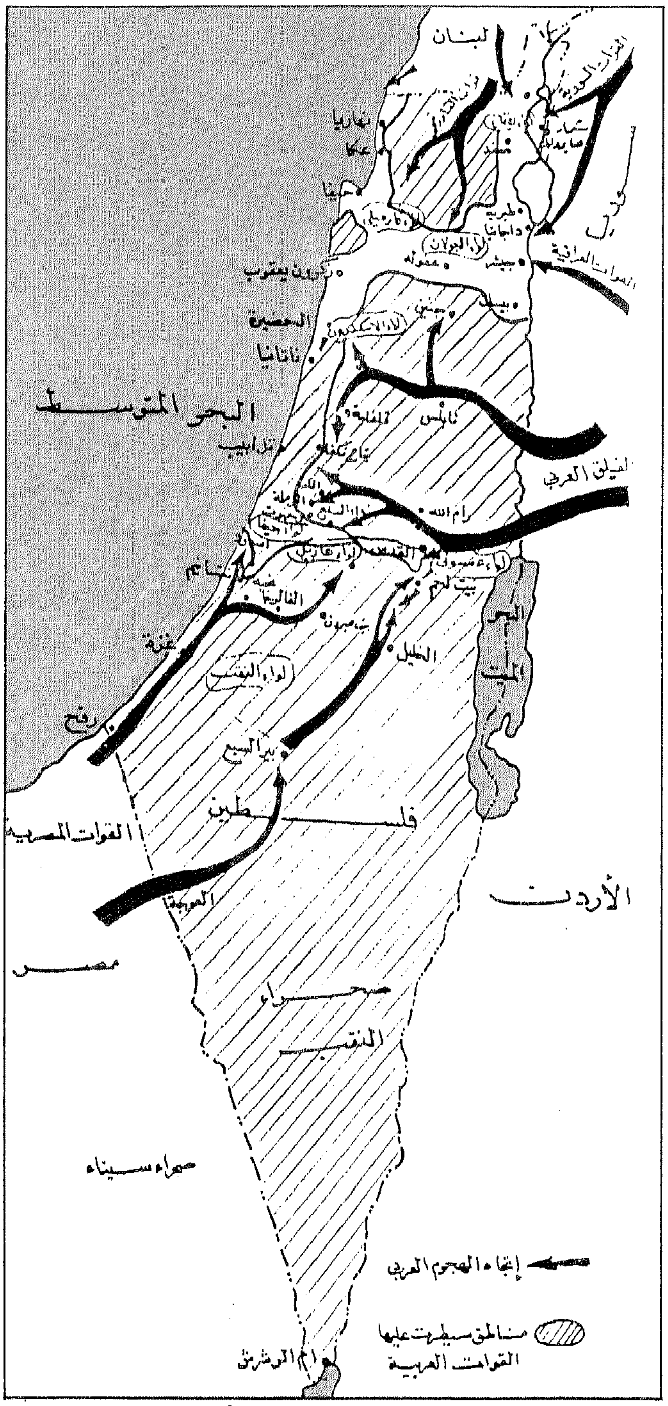
١ ـ المرحلة الأولى :

الفترة من ١٥ مايو إلى ٧ يوليو ٤٨ . هذه الفترة شهدت ذروة انتصارات العرب فى الأسابيع الأربعة الأولى إلى أن فرض مجلس الأمن هدنة حددها بأربعة أسابيع (من ١١ يونيو إلى ٧ يوليو) . وفى فترة القتال وصل المصريون بعد أسبوعين فقط إلى أشدود كما احتلت قواتهم خط المجدل ـ بيت جبرين مارا بالفالوجا ، بالإضافة إلى فتح المحور الشرقى العوجة ـ العسلوج ـ بير سبع ـ الخليل للاتصال بقوات المتطوعين فى بيت لحم .

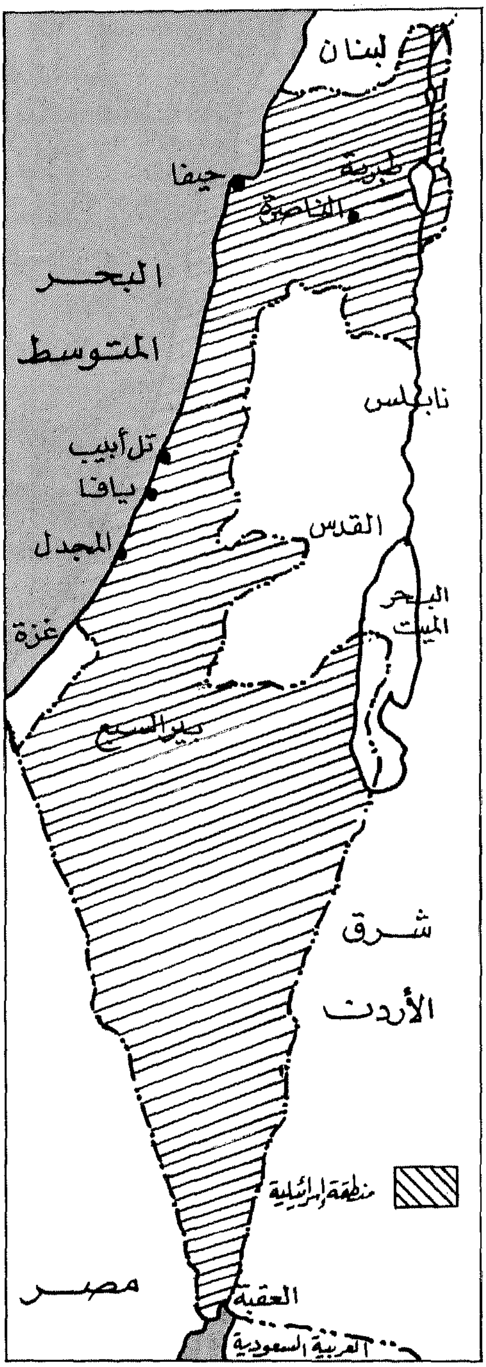
أما الأردن فاستولت على الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية واللد والرملة ، وأصبحت على بعد أميال قليلة من تل أبيب هى والقوات العراقية وباقى القوات العربية ! ولكن بمجرد إعلان الهدنة هاجم اليهود بلدة العسلوج يوم إعلان الهدنة نفسه (١١ يونيو) واحتلوها بالفعل واستغلوا أمر وقف القتال فبقوا بها ، كما احتلوا قرية العسير شمال الفالوجا ونظموا خطا دفاعيا مواجها للخط المصرى على محور المجدل بيت جبرين تمهيدًا لاستئناف العمليات لفتح محور شمالى جنوبى (جوليس ـ كوكبة ـ الحليقات) للاتصال بقواتهم المعزولة فى النقب . وفى خلال هذه الهدنة تدفقت على إسرائيل المساعدات الخارجية من عتاد وذخيرة ومتطوعين مدربين .

---

(١) ترجمة للمثل الإنجليزى الذى يقول : « In love and war every thing is fair »



الهجوم العربى فى الجولة الأولى
صيف ١٩٤٨



إسرائيل بعد نهاية الجولة الأولى
١٩٤٩

٢ ـ المرحلة الثانية :

فترة قتال عشرة أيام فقط من ٨ يوليو إلى ١٨ يوليو ، فرض بعدها مجلس الأمن هدنة غير محددة الأجل نظريًا حتى نهاية الحرب . وقبل هذه الهدنة وجه العدو جهوده إلى المنطقة التى يحتلها الجيش الأردنى فطوق اللد (بمطارها الكبير) والرملة بأسلحته الجديدة (يقال كان من بينها دبابات تشرشل وكروميل) ، فانسحب منهما الجيش الأردنى بدون قتال لسبب غير مفهوم ، عندئذ استولى العدو عليها وطرد عددًا كبيرًا من الأهالى فزادت مشكلة اللاجئين . ثم أوقف الجيش الأردنى جميع عملياته الهجومية اعتبارًا من ١٤ يوليو بحجة نقص الذخيرة واتخذ موقف الدفاع (مكتفيا بالاستيلاء على الضفة الغربية) ، مما أعطى العدو حرية العمل ضد الجبهة المصرية بعد أن انتقلت المبادأة إليه كلية من هذا التاريخ على كل الجبهات !

أما قواتنا المصرية فقد استطاعت استرداد بلدة العسلوج لفتح طريق المحور الشرقى وطرد العدو منها فى آخر لحظة قبل تنفيذ الهدنة الثانية اعتبارًا من الساعة ١٧٠٠ يوم ١٨ يوليو .

٣ ـ المرحلة الثالثة :

اعتبارًا من بدء الهدنة فى ١٨ يوليو حتى يوم ٢١ أكتوبر. تشير كتب التاريخ إلى وجود مؤامرة أمريكية إنجليزية فى مجلس الأمن لفرض الهدنة بالإكراه على العرب ، بينما يتغاضى الجميع عن عمليات خرق الهدنة من جانب إسرائيل التى كانت خطتها المبيتة هى محاصرة القرى العربية وإخراج سكانها بالقوة بعد تجريدهم من متاعهم وحليهم وملابسهم وكل شىء .

وفى أول يوم للهدنة حدث أن فجر العدو شريط السكة الحديد بين رفح والعريش ـ وبعد ثلاثة أيام من الهدنة هاجم العسلوج ثانية فاضطرت قواتنا للانسحاب بسبب التفوق العددى ـ ولكن أمكن لقواتنا فتح طريق شرق العسلوج لضمان الاتصال بقواتنا فى بير سبع والخليل ، ثم استمر العدو بعد ذلك فى مهاجمة قواتنا فى الفالوجا وعلى الطريق الجانبى الذى يربط المحورين الشرقى والساحلى مع استمرار توجيه هاوناته إلى جملة مواقع مختلفة ـ كما بدأ يحصن مواقعه القريبة من قواتنا فى هذا القطاع الفترة من ٦ إلى ١٥ أكتوبر تمهيدًا للقيام بما أسمته مراجعهم بعملية الضربات العشر لقطع خطوط المواصلات وعزل مختلف مراكز قواتنا عن بعضها البعض .

عملية الضربات العشر (من ١٥ أكتوبر إلى ٢١ أكتوبر)

كان الغرض من هذه العملية التى قام بها العدو أثناء الهدنة نفسها ، هو قطع طريق الفالوجا المجدل ـ وعزل كل موقع مصرى عن الآخر فى عراق المنشية والفالوجا وكوكبة . . إلخ .

وعندما انتهى من هذه العمليات صدر أمر بإيقاف إطلاق النار مباشرة فى ٢٢ أكتوبر ، الأمر الذى أدى إلى حصار الفالوجا واضطرار انسحاب القوة التى فى بيت جبرين إلى الخليل ـ وكان من المفروض أن تنسحب القوات المصرية إلى خط غزة بير سبع ـ ولكن بعد سقوط بير سبع أيضا انسحبت إلى خط غزة العوجة . .

ومما يذكر فى هذه المرحلة أن قوة يهودية قوامها ٥٠٠ جندى ومعهم مصفحات قاموا بمهاجمة عراق المنشية وتغلبوا على الكتيبة السودانية التى بها . ولكن سرعان ما قامت قوات الفالوجا (المحاصرة) بهجوم مضاد سريع مفاجئ عل القوة اليهودية التى كانت اطمأنت لنجاحها ودخلت بلدة عراق المنشية وأطبقت عليها وتمكنت من القضاء على معظمها كما أسرت خمسة جنود يهود . وكان الصاغ جمال عبد الناصر هو قائد هذه القوة التى قامت بالهجوم المضاد على القوة اليهودية المهاجمة والقضاء عليها وقفل الثغرة التى وصل منها العدو .

٤ ـ المرحلة الرابعة : (من ١١ نوفمبر ٤٨ إلى ٧ يناير ٤٩)

وهى فترة امتداد للهدنة الثانية أيضًا . كان الجيش الإسرائيلى قد ضمن أن الجيوش العربية قد وقفت موقفًا دفاعيًا سلبيًا ، وأنها لن تتضامن مع الجيش المصرى ، لذلك ركز كل قواته على الجبهة المصرية بغرض الوصول إلى حل سريع ونصر حاسم ينهى الأعمال العسكرية ، لأن إسرائيل لا يمكنها الاستمرار فى حرب لمدة طويلة ، ولذلك وضعت عدة مخططات لتطويق الجيش المصرى فى عدة جهات ـ وقد مهد العدو لهذه المحاولات بالاستيلاء على تبة الشيخ نوران (فى منتصف المسافة بين غزة ورفح) .

ثم قام بمحاولاته الأولى بالهجوم على التبة ٨٦ فى قطاع دير البلح ـ ثم المحاولة الثانية بالهجوم على العسلوج والعوجة وأبو عجيلة بقصد محاولة الوصول إلى العريش ثم محاولة ثالثة وأخيرة للهجوم على رفح لقطع طريق المواصلات للقوات المسلحة ـ ولكن الجيش المصرى قد أفسد هذه المحاولات الثلاث وأحبط خطط العدو وقلبها رأسا على عقب .

وفى هذه المرحلة اشتركت بدورى المتواضع فى معركتى تبة الشيخ نوران والتبة ٨٦ ، بعد أن استدعيت وحدتنا المدرعة من مصر كما سيأتى ذكره فيما بعد .

ثم انتهت العمليات الحربية بإعلان الهدنة الثالثة فى يوم ٧ يناير عام ١٩٤٩ . وهكذا يتضح تمامًا أن الهدنات لم تخطط أصلا بقصد المهادنة ، وإنما لكى تقوم إسرائيل فيها بمفاجأة قواتنا ومحاربتها بطريقة سهلة ميسرة وبطريقة غادرة ! وبأسلوب الاقتراب غير المباشر الذى ابتدعه المفكر الإستراتيجى ليدل هارت . ولنا فى ذلك عودة مفصلة فيما بعد !

الفصل الثالث عشر

أول تجربة في مواجهة النيران

كان اتصالى بفلسطين وثيقًا منذ عام ١٩٣٦ ، عندما كنت أتردد على مقر الإخوان المسلمين مع أخى عزت للاستماع إلى الشيخ حسن البنا فى درس (الثلاثاء الدينى) . وبقيت هذه العلاقة حتى التحاقى بالكلية الحربية عام ١٩٤٠ . وكانت تصلنا أصداء ما يحدث فى فلسطين ، وما كانت حركة الأخوان تقوم به من جمع التبرعات وتجنيد المتطوعين لمساندة الفلسطينيين ، إلا أن حجم المأساة لم يتضح تمامًا أمام عينى إلا عندما وقعت مذبحة دير ياسين .

ورغم استمرار المعارك بين العرب واليهود منذ عام ١٩٣٤ ، وقيام الجماعات اليهودية باعتداءات جسيمة على بعض التجمعات الفلسطينية ، إلا أن أبشع الجرائم التى ارتكبتها الفصائل الإرهابية اليهودية هى تلك المذبحة التى جرت فى ليلة ٩ و ١٠ أبريل ١٩٤٨ فى قرية دير ياسين[١] .

فقد اجتاحت جماعة شتيرن والأرجون قرية دير ياسين العربية على بعد خمسة كيلو مترات من القدس ، وذبحت ٢٥٠ عربيًا نصفهم من النساء والأطفال ومثلت بجثثهم ، فكان الرد الفلسطينى هو التعرض لإحدى القوافل اليهودية التى كانت فى طريقها إلى مستشفى هداسا والجامعة العبرية فقتلت ٧٧ شخصًا انتقامًا لدير ياسين .

---

(١) فى منطق بعيد عن كل أخلاقيات البشر ، برر مناحم بيجين مثل هذه المذابح بأنها كانت أشبه بجراحة مقصودة تهدف إلى إرهاب العرب فيفرون بدون قتال . وبذلك على حد قوله « يدخرون عليهم وعلينا الكثير من إراقة الدماء لو اتبعنا أسلوب الحرب العادى » .

وكأن من نتائج هذه المذابح المخططة أن خرج ٧٥٠,٠٠٠ فلسطينى من ديارهم منهم ٢٥٠ ألف تشتتوا فى باقى الدول العربية خارج حدود فلسطين .

وفى أبريل أعلنت بريطانيا عن رفضها القاطع لدخول أى قوات عربية أرض فلسطين قبل انتهاء الانتداب ، بل انسحبت وسلمت مقاطعة بأكملها للجماعات اليهودية قبل الموعد المحدد استكمالا للعبتها المزدوجة . وفى ١٥ مايو ١٩٤٨ وبعد انسحاب القوات البريطانية من فلسطين أعلنت إسرائيل قيام دولتها التى اعترفت بها فورًا الولايات المتحدة وتلاها الاتحاد السوفييتى بعد دقيقة واحدة . وفى اليوم نفسه دخلت الدول العربية فلسطين دون أدنى اعتراض من بريطانيا على نحو ما أوضحت .

لم يكن من حظى أن أصطحب وحدة الدبابات الخفيفة التى غادرت رصيف محطة العباسية يوم ١٣ مايو . وقد انتابتنى فى لحظة الوداع شتى الانفعالات المتضاربة . لقد كنت أودع زملاء لى ظللت أعمل معهم منذ اليوم الذى نقلت فيه إلى سلاح الفرسان حتى حانت هذه الساعة التى افترقنا فيها جميعا إلى مصير مجهول . .

لقد حدث أنى تركت الآلاى الخفيف الذى عملت به لكى أعمل ضابط مخابرات برئاسة السلاح قبل قيام الحرب بعدة شهور .

ومنذ سفر هؤلاء الزملاء انقطعت عنى أخبارهم التفصيلية وإن كانت قد وصلتنا . . فى بادئ الأمر أخبار انتصارات الأيام الأولى للمعركة فكنا نعانق بعضنا بعضا غير مصدقين .

إنهم يموتون بشجاعة فائقة

وفى أثناء الهدنة الأولى طلبت القيادة العامة من إدارة سلاح الفرسان أن نتصل شخصيا بالقائمقام أحمد عبد العزيز (قائد المتطوعين لإنقاذ فلسطين) لاستدعائه للقيادة العامة لتقديم تقريره عن العمليات .

وكان البطل أحمد عبد العزيز يقود مجموعة من المتطوعين أغلبهم من حركة الإخوان المسلمين وبعض ضباط القوات المسلحة المصرية .

وعندما توجهت إلى منزله بجزيرة الزمالك لتبليغه ، استقبلنى بشخصيته الجذابة المعروفة عنه ، وأدخلنى غرفة مكتبه التى ازدحمت بالكتب والمراجع من شتى اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية . . كان رحمه الله صاحب رأى جرىء لا يخفيه أبدًا . . وكان مقلاً فى حديثه ، فإذا أفصح فإنما فى اختصار غير مخل . . ولا أنسى عبارته التى خرقت أذنى وهو



البطل أحمد عبد العزيز

يضغط على كلماتها عندما سألته عن المتطوعين الذين يعملون معه فى بيت لحم وفى الضفة الغربية : فقال . . « **إنهم يموتون بشجاعة فائقة** » . . وبعد هذه المقابلة توجهت معه إلى اللواء سعد الدين صبور قائد السلاح ثم إلى رئيس الأركان حيث أدلى بآرائه وتوصياته . . ولكنه ظل طيلة الوقت يتحدث عن موقف الجيوش العربية وجرأة جنودها وكيف أن الجرأة وحدها لا تجدى فى حروب حديثة لا تغنى فيها الشجاعة عن المعدّات ! وبعد أن افترق عنا فى ذلك اليوم لم يشأ القدر أن أراه ثانية ، فللأسف جاءنى بعدها خبر استشهاده وسط جنوده الذين « مات مثلهم فى شجاعة فائقة » .

من الفرسان إلى المهندسين وبالعكس

حدثت لى بعد ذلك عدة مفاجآت غير متوقعة . . ففى صباح ذات يوم ـ وفى غيبة قائد السلاح ـ فوجئت بأمر نقلى إلى مخابرات سلاح المهندسين الذى كان فى حاجة إلى عدد من الضباط غير المهندسين والمتخصصين فى التدريب والأمن والمخابرات . إلا أننى لم ألبث أكثر من ثلاثة شهور عدت بعدها إلى سلاحى مرة ثانية لكى أنضم إلى وحدة جديدة ، شكلت حديثا من مجموعة من دبابات اللوكاس الخفيفة . . ولكن لفظة وحدة جديدة قد تترك انطباعًا خاطئًا فى ذهن القارئ . . ولذلك ألفت النظر إلى أن الوحدة هى التى كانت جديدة ، أما الدبابات اللوكاس فكانت من مخلفات الحرب العالمية الثانية التى استخدمت كدبابات استطلاع تحمل جوا بالطائرات إلى ميدان المعركة . وهى دبابات إنجليزية بالطبع . . أرسلت بها إنجلترا إلينا لحاجتنا إليها بعد ما رأت التسليح الهائل الذى أصبحت عليه « إسرائيل » أثناء الهدنتين .

وهنا يراود ذهنى من جديد دور بريطانيا المشابه لدور قياصرة الرومان الذين كانوا يسلحون الطرفين المتصارعين من العبيد لكى يستمتعوا بسخونة القتال فى الحلبة ! لقد سلحونا بهذه الدبابات لكى نقاتل بها الإسرائيليين فى الوقت الذى أصدروا فيه أوامرهم للجنرال جلوب لكى يتخلى لهم عن اللد والرملة !

المشـوار إلى فلسطين

وعندما عدت إلى السلاح والتحقت بالأورطة « الجديدة » التى ضمت ١٨ دبابة ، لم يمنحنى الزمن سوى أسبوع واحد لكى أتعرف فيه على الزملاء والمعدات ولكى أدرب عليها الجنود ، وإذا بالتعليمات تصدر بتحرك هذه الأورطة إلى معسكرات رفح (التى أنشأتها قوات الانتداب البريطانية) على الحدود المصرية مع قطاع غزة !

الـوداع الأول

لقد صدر إلينا أمر التحرك فى الصباح الباكر من يوم ٨ نوفمبر ١٩٤٨ وحدد لنا الأمر بضع ساعات نكون بعدها جاهزين بالأورطة على نفس رصيف محطة العباسية الذى سبق أن سافر منه زملاء السلاح من قبل والذى ودعهم عنده اللواء عثمان باشا المهدى بكلماته المتحمسة القليلة . .

وفى الموعد المحدد لنا للسفر كنا جاهزين بمعداتنا للتحرك . . وقبل تحرك القطار بدقائق ظهر اللواء المهدى كعادته يرافقه اللواء سعد الدين صبور قائد السلاح ليكون فى وداعنا بنفس كلماته المتحمسة القليلة . .

وفى الحقيقة كان اللواء المهدى يتمتع بشخصية قوية هادئة لدرجة أن كلماته المتئدة ما زالت تختلج بنبراتها النفاذة فى أذنى حتى اليوم ، وكأنى سمعتها منه بالأمس . وعندما بدأ القطار يتحرك إلى نفس المصير المجهول الذى يتحرك إليه دائمًا كل من يغادر وطنه فى رحلة الفداء والتضحية ، مددت يدى إلى جيبى وأخرجت منها مصحفًا صغيرًا ما زلت أحتفظ به لدى حتى اليوم عبر هذه السنين . كانت آمال خطيبتى قد أهدته إلىّ فى الصباح ، وهى تودعنى الوداع «الأول » الذى تكرر بنفس صورته الحارة بعد ذلك لعشرات المرات على مدى أكثر من أربعين عامًا ولعدد من الرحلات إلى نفس الميدان . . أو إلى مهام وأسفار طويلة لخارج البلاد. لقد صارت السيدة آمال زوجتى وشريكة « مشاوير العمر » الحافلة ، وأُمًّا لأبنائنا الثلاثة . وإلى يومنا هذا كلما فارقتها عند أى سفر أقرأ فى عينيها نفس الإيمان والاطمئنان الذى رأيته فى ذلك الوداع الأول .

أطول رحلة قطـار

كانت رحلتى الأولى بهذا القطار العديد العربات إلى فلسطين هى أطول رحلة زمنية قطعتها فى حياتى بالسكة الحديد . لقد بدأ القطار رحلته فى التاسعة مساء من العباسية وظل يتحرك ويناور الليل بطوله حتى وقفنا وقفة طويلة فى الصباح ، وعندما فتحت عينى وحانت منى التفاتة إلى خارج النافذة ضحكت أنا والزملاء ضحكة طويلة عندما اكتشفنا أننا بعد اثنتى عشرة ساعة بالتمام أمكننا أن نصل فقط إلى محطة قليوب . والحقيقة أنهم قصدوا بذلك أن يصل القطار إلى رفح فى المساء لإخفاء وصول الدبابات عن أعين العدو . .

ووسط تهريج الزملاء وضحكاتهم لم نشعر بأى ضيق أو ملل عبر هذا المشوار الطويل .

كنا ثمانية ضباط بقيادة النقيب المرح جمال ملش الذى كان ـ رحمه الله ـ له قوام وشخصية رعاة البقر الأمريكيين بقامته الطويلة الفارعة ، وكان قوامه الفارع هذا يمثل مشكلة عويصة له عند دخوله أو خروجه من فتحة برج الدبابة الصغيرة . . ولذلك عندما أصيبت دبابته بعد ذلك فى أول معركة تخوضها الأورطة ، حاول جاهدًا الخروج منها بسرعة قبل احتراق الدبابة ، إلا أن بندقية قناص إسرائيلى سارعت فى التو إلى إصابته فى الرأس وهو محشور بجسمه فى فتحة الخروج . . وما زالت صورته حتى يومنا هذا لا تفارقنى بوجهه الضاحك وصوته الجهورى القوى !

الشيخ نـوران

وعندما دخلْنا إلى الميدان كان ذلك أثناء الهدنة الثانية التى خرقتها إسرائيل وقامت فيها بإحدى الهجمات المضادة لكى تحتل إحدى الهيئات الأرضية الحاكمة شرق قطاع غزة . . وكان اسمها تبة الشيخ نوران . ونظرًا لارتفاعها فإنها كانت تشرف على السهول حولها لمسافة عشرة كيلومترات . . وكانت هذه التبة تحتلها وحدة من قوات الحدود المصرية ولكن فاجأتها القوات الإسرائيلية خلال الهدنة وانتزعتها منها . .

كانت خطة القائمقام على مقلد(١) قائد المعركة لاسترداد التبة ، أن تقوم أورطتنا بتطويق التبة لاقتحامها من الجانبين مع عدد من رجال سلاح الحدود . . ولقد قام النقيب جمال ملش بقيادة نصف الأورطة الأيمن ، ولكن تعطلت دبابته فى مواجهة التبة ثم قتل أثناء خروجه منها على النحو الذى ذكرت . . فقمت بقيادة الأورطة نيابة عنه .

---

(١) كان القائمقام أ.ح على مقلد أركان حرب عمليات قيادة القوات ومن سلاح الفرسان .

كادت المعركة توشك على التوقف بسبب بطء حركة رجال الحدود المشاة وحدوث فاصل كبير بينهم وبين الدبابات ـ ورغبة فى إنهاء المعركة وتشجيعا لرجال الحدود ركب القائمقام على مقلد ـ قائد المعركة ـ بنفسه وأركان حربه اليوزباشى عبد العزيز صادق (الصحفى حاليا بمجلة أكتوبر) دبابتين واقتحما التبة واستوليا عليها . . ولكن لم يتوقف الهجوم المضاد الإسرائيلى بعد ذلك ، ومع بطء قوات الحدود فى تقدمها اضطرت الأورطة للانسحاب مرة أخرى بعد أن أحدثت عددًا من الخسائر فى رجال العدو . .

ثم صدرت الأوامر لنا بعد ذلك بالتحرك فى مظاهرة عسكرية إلى غزة حيث تمركزت الأورطة فى حديقة منزل عائلة الشوا (إحدى الأسر الفلسطينية الكبيرة) وظللنا نتمركز هناك لمدة عشرة أيام ، استدعينا بعدها للقيام بمهمة مماثلة ولكن فى مكان آخر . .

التبـة ٨٦

كانت القوات الإسرائيلية قد استطاعت أن تسترد من قواتنا منطقة حيوية أخرى تعرف بالتبة ٨٦ وأن تحتلها ليلة ٦ ، ٧ ديسمبر ٤٨ أثناء الهدنة أيضًا !

ولقد كلفنا باستردادها مرة ثانية من القوات المعادية لأن الاستيلاء على هذه التبة ـ كما قيل لنا ـ هو مسألة حياة أو موت بالنسبة لقواتنا المصرية التى تتمركز فى قطاع غزة . فالتبة تسيطر تمامًا على طريق الإمداد الرئيسى رفح ـ غزة .

وفى صباح يوم ٨ ديسمبر بدأت الأورطة هجومها ومعها بعض عناصر من المشاة وكلفت بالهجوم على التبة من أحد جوانبها ، بينما كلفت أورطة دبابات أخرى خفيفة طراز M.6 بالهجوم من الاتجاه الآخر . .

وفى البداية بدأ تقدم الدبابات ناجحًا حتى كادت تصل إلى القمة بنحو ١٥ أو ٥٠ مترًا . . وفى هذه اللحظة هطلت الأمطار بغزارة فتسببت فى تفكك تربة التبة التى كان يزيد انحدارها عن مقدرة الدبابات فى الصعود العادى . ولذلك أصبحت الدبابات عرضة للنيران المضادة . ومع استمرار الاشتباكات تعطل بعضها وأصيب الملازم على سلام فى الرأس بفعل القناصة ـ وفى نفس اللحظة أصبت فى ذراعى اليسرى وأخليت إلى مستشفى رفح . . . .

وإنقاذًا للموقف اتخذ قائد المعركة قرارًا بدفع سرية قاذفات اللهب فقامت بإنهاء المعركة فى دقائق معدودة بمجرد وصولها إلى محاذاة بقية الدبابات وبهذه الكيفية تم استرداد هذه التبة الحيوية ، كما نجح جنودنا فى أسر عدد من القوات الإسرائيلية والاستيلاء على عدد من

المعدات منهم وقد لاحظنا أن الأسرى الإسرائيليين كان من بينهم عدد كبير من البولنديين . أما المعدات فكان بعضها صناعة أمريكية حديثة بل إن بعضها كان مطبوعا عليه تاريخ الصناعة ٨/ ٨/ ٤٨ أى قبل المعركة بثلاثة أشهر فقط .

ولقد استشهد منا فى هذه المعركة ثلاثة من الضباط فى شجاعة تامة . . ولم يتم إخلائى من ميدان القتال جريحًا إلا بعد إعلان الهدنة الثالثة والأخيرة فى ٧ يناير ٤٩ (بعد اتفاق رودس) ، وكان ذلك فى يوم ١٤ يناير ، ونظرًا لأن علاجى كان يحتاج إلى فترة أخرى بالمستشفى بسبب تهشم عظام اليد فقد رحّلت إلى مستشفى الجمعية الخيرية بالعجوزة والتى كانت ضمن خطة تعبئة القوات المسلحة . وفى الحقيقة كان المستشفى غاية فى النظام والاستعداد .

الفصل الرابع عشر

أمام النهر الهادئ

فى صباح اليوم التالى عندما حانت منى التفاته إلى مياه النهر الهادئ عبر نافذة المستشفى الذى يطل على النيل روعتنى الصورة الجميلة للقوارب الشراعية التى تتهادى فوق سطح الماء فى هدوء ودلال ، فأخذت أحدق بعينى فيها وكأن بصرى يقع عليها لأول مرة فى حياتى !

كم تبدو مناظر الحياة العادية البسيطة جميلة رائعة فى عينى الجندى عند عودته من ميدان القتال بعد مشوار الحرب الذى تبطئ فيه آلة الزمن أحيانًا حتى تكاد تكف عن الدوران . كان كل شىء خارج المستشفى لا يوحى أبدًا بأن صراعًا طويلاً مريرًا كان يدور حتى الأمس بين مجموعتين من بنى البشر آثرتا أن تقيما بينهما حوارًا ساخنًا كلماته قذائف من قنابل ورصاص ونار.

وللأسف وبرغم أن الإسرائيليين هم الذين بدءوا حوار النار هذا ، بينهم وبين الفلسطينيين، إلا أن العالم كله قد سجل على العرب بدء هذه الحرب ، لأنهم هم الذين أعلنوا الحرب ورفضوا قرار التقسيم . إنها لمأساة أن يصبح المعتدى الأصلى بريئًا ، ومن يرد الاعتداء ظالمًا ! إنه لاشك منطق غريب !

السؤال المحير

ولقد حاولت فى ذلك الوقت ، وقد وجدت نفسى فى خضم المشكلة الفلسطينية ، أن أعثر على إجابة السؤال المحير الذى ظل يتدافع فى رأسى طيلة الحرب . . لماذا يقف العالم الغربى

بأكمله فى صف الدخيل المغتصب مؤيدًا له بشتى أنواع التأييد . . من اعتراف سياسى إلى تدعيم بالسلاح وبالخبرات والهجرات والمقاتلين . . إلخ . إلخ ؟

هل هى كراهية دفينة فى قلب مسيحيى أوربا للإسلام والمسلمين ؟! وهل هذه الكراهية هى التى عبر عنها أللنبى بصيحته المشهورة أمام قبر صلاح الدين يوم أن سقطت القدس فى يده : اليوم فقط قد انتهت الحروب الصليبية ياصلاح الدين ؟!

رداء نـــوح

ولكن من قال إن مسيحيى الغرب لا تعمر قلوبهم بالعداوة لليهود بنفس القدر الذى تعمر به ضد العرب ؟ ! ألم يترسخ فى ضمير هؤلاء المسيحيين لزمن طويل وحتى النخاع فكرة أن اليهود هم الذين كانوا وراء صلب المسيح وأن دمه يقع فى عنقهم ؟!

غير أنى فى الواقع أرى أن تسطيح هذه المشكلة لكى تقتصر على بعد أوحد هو البعد الدينى هو تسطيح يخل بها فى النهاية خللا جسيما ويحط بها إلى درجة تمتهن عقلية حضارة القرن العشرين ، فيجعلها تتهاوى من علياء تربعها على عرش استغلال طاقة الذرة المفتتة أو التغلغل فى هندسة جينات الوراثة أو اختراق مجاهل الكون بأبعاده الأربعة لكى تعيش من جديد قصة نوح الذى دعا على ذرية ابنه الأصغر حام من الكنعانيين الفلسطينيين لصالح ذرية ابنه الأكبر سام من العبرانيين الإسرائيليين ، لا لسبب خطير سوى أن حاما رأى عورة أبيه عندما صنع خمرًا وشرب منها فسكر فتعرى داخل خيمته ، أما سام فقد ستر هذه العورة بالرداء دون أن يراها لأنه دخل الخيمة بظهره ! هذه القصة التى تحدثنا بها التوراة فى إصحاحها التاسع من سفر التكوين (١) .

وهناك أناس كثيرون يتحاربون اليوم ويتقاتلون ويموتون ، دون أن يدروا أن قصة هذه العورة هى التى وراء كل الحروب التى دارت ومازالت تدور فى أرجاء الشرق الأوسط ، ذلك أن

---

(١) جاءت هذه القصة بالتفصيل فى الإصحاح التاسع من سفر التكوين وفيما يلى نصها : « . . وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافث . وحام هو أبو كنعان . هؤلاء الثلاثة بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض .

وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا . فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء ، فلم يبصرا عورة أبيهما . فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير (حام) فقال ملعون كنعان (ابنه) عبد العبيد يكون لأخوته . وقال مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدا لهم (لذرية سام) وليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام وليكن كنعان (وذريته من الفلسطينيين) عبدا لهم ! » .

هذه القصة بداية هى التى أعطت الإسرائيليين ما يسمونه بالحق التاريخى فى فلسطين أو أرض الميعاد كما جاء فى الإصحاح الثانى عشر من نفس السفر [١] .

كان علىّ أن أقرأ وأبحث وأستقصى بعد هذه الحرب ، علِّى أجد إجابة للسؤال الذى حيرنى عن سبب وقوف العالم الغربى برمته إلى جانب اليهود فى صراعهم مع العرب ! لقد سبق لهؤلاء الغربيين أن استقبلوا فى بلادهم هجرة اليهود إليهم ، بعد الشتات الرومانى ، بكل أنواع الاضطهاد والتعذيب والتنكيل ، وذلك بعكس العالم العربى الذى فتح أذرعه لهم وقابلهم بالحفاوة والترحيب وآمنهم من كل جزع وخوف . لقد أقامت لهم معظم الدول الغربية المشانق والمحارق فى كل أرض نزلوا بها ، ومنها من طردهم فى البداية مثل أسبانيا وفرنسا و إنجلترا والبرتغال ولم يعودوا إليها إلا حديثًا حتى كان اضطهادهم الحديث المعروف فى روسيا وبولندة وألمانيا . .

وإزاء هذا التعذيب والاضطهاد المتكرر اعتقد اليهود فى جميع أنحاء العالم أن السبب الحقيقى وراء هذا الاضطهاد هو حياتهم كأقلية بين ظهرانى هذه الشعوب . لذلك رأوا أن العلاج الوحيد أو البلسم الشافى لكل آلامهم يتبلور فى كلمة واحدة هى الحياة فى « أكثرية » !

وكان أن أعمل الصحافى النمساوى المشهور « تيودور هرتزل » فكره ، ووجد أن تحقيق هذه «الأكثرية » لن يكون إلا فى فلسطين أرض الميعاد . . فراح يستغل قضية الضابط الفرنسى اليهودى ألفريد درايفوس [٢] الذى اتهم ظلما بالخيانة عند محاكمته فى عام ١٨٩٤ ، فأقام الدنيا

---

(١) جاءت قصة أرض الميعاد فى الإصحاح الثانى عشر من نفس سفر التكوين ، وكانت كما يلى بالنص :
«وخرجوا (أى إبراهيم وذريته الذين من نسل سام المبارك) إلى أرض كنعان . واجتاز إبرام فى الأرض . . . . وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض . وظهر الرب لإبرام (إبراهيم) وقال لنسلك أعطى هذه الأرض ! »
ثم تكرر هذا المعنى فى الإصحاح الخامس عشر : « فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقًا قائلاً لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » .
ثم عدد الجنسيات التى كانت تسكن فى هذه الأرض من الأوربيين والكنعانيين وغيرهم من أبناء حام التى وردت أسماؤهم صراحة فى الإصحاح العاشر من نفس السفر .

(٢) تتلخص قصة درايفوس فى أنه ضابط فرنسى يهودى يعمل بالجيش الفرنسى واتهم بالخيانة العظمى فى الحرب وحكم عليه بالسجن فى عام ١٨٩٤ ونفى إلى جزيرة الشيطان ثم أعفى عنه فى عام ١٨٩٩ وبرئت ذمته عام ١٩٠٦ نتيجة جهود الصحفى النمساوى تيودور هرتزل (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) بعد أن أدى هذا الحادث إلى انقسام سياسى واجتماعى خطير داخل فرنسا .
وفى أعقاب الحادث أسس هرتزل الحركة الصهيونية أى العودة إلى فلسطين التى رمز لها بجبل صهيون ورسخ فى ضمير يهود العالم أن الصهيونية هى الحل الوحيد لإنقاذهم من الاضطهاد الأوربى المسيحى .

كلها ليقعد معها اليهود فوق جبل صهيون محققا حلم العودة إليه فى الصهيونية العالمية التى كان وراء فكرة تكوينها !

واليوم عندما عاد اليهود بالفعل إلى فلسطين ، وجهوا كل صنوف التعذيب والاضطهاد ضد الفلسطينيين . راحوا يطردونهم من الوطن الذى عاشوا فيه من آلاف السنين لا لشىء إلا ليحققوا هذه « الأكثرية » التى تشفى جراحهم على حساب جراح الآخرين وشقائهم . وتنظر دول العالم الغربى إليهم مبتهجة ومؤيدة بينما تغمض أعينها عن خطاياهم وآثامهم الجديدة فى حق العرب . . وإنى أعتقد أنهم لا يفعلون ذلك لأى سبب إلا لأن دولة واحدة منهم لا تستطيع أن تبرئ ذمتها من الاضطهاد الشرس الذى قاساه اليهود على يديها .

شـاهد من أهلهـا

وفى النهاية لا أجد كلمات تعبر عن هذا الوضع المؤسى ، أفضل من الكلمات التى كتبها شاهد من أهلها هو المفكر الصهيونى « أحدها عام » عندما زار فلسطين فى عام ١٨٩١ وراعته الحالة المخيفة التى صدمته هناك ، ودون ذلك فى مقال نشرته مجلة « هامليتص » اليهودية فى يونيو ١٨٩٥ ، قال : **« لا أدرى ما الذى يفعله أخواننا (أحباء صهيون) فى فلسطين لقد كانوا عبيدًا فى الدياسبورا (المنفى) وفجأة وجدوا أنفسهم أحرارًا بلا حدود أو رادع . إن هذا التحول قد خلق فى نفوسهم حالة من الميل إلى الاستعباد كحالة العبد عندما يتحول إلى سيد . . فهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة ، ثم يتفاخرون بما يعملون ، وبرغم ذلك فليس بيننا من هو قادر على الوقوف فى وجه هذا الميل الخسيس والخطير فى آن واحد »** .

* * *

بعد أيام برئ جرح يدى وغادرت المستشفى ولكن مع جريان النيل والزمان تجددت جراح كثيرة فى المنطقة وفى نفسى ، أصبحت تتزايد ويتزايد غورها مع تقدم المشاوير العديدة التى يطوى بها العمر طيا .

واليوم وبعد أن جاوزت السبعين وعاشرت أخطاء بنى البشر سواء أكانت ممثلة فى الإسرائيليين الذين نكلوا بالفلسطينيين من أجل تحقيق حلم الأكثرية ، أم ممثلة فى البريطانيين الذين انساقوا مغمضى العينين وراء أثرتهم وأشعلوا النار فى المنطقة قبل أن يرحلوا عنها ، أم ممثلة فينا نحن العرب الذين انسقنا وراء عواطفنا وغواية الإنجليز فلم نستمع إلى الحكم الذى أصدرته الأمم المتحدة بالتقسيم ، أرانى بعد كل هذه السنين أقول ليتنا نحن والعالم أجمع نتعلم الدرس والعظة فيكون توجهنا المقبل أبدًا ودائمًا نحو السلام والتنمية والخير للجميع .

نعم أقولها بعد أن خط الشيب كل رأسى .

الفصل الخامس عشر

فى أعقاب حرب ١٩٤٨

بعد مرور السنين الطويلة التى تناوب فيها الخريف مع الربيع جفاف الأشجار ثم ازدهارها للعديد من المرات ، أستطيع أن أؤكد فى يقين أن مشوار حرب ٤٨ لم يكن من بين المشاوير العابرة أو العارضة التى يستطيع أن يحجبها النسيان داخل زوايا مظلمة من ذاكرة الشعوب بسبب دورها الضئيل أو آثارها المضمحلة .

فحرب ٤٨ هى التى منحت إسرائيل وجودها الواقعى الذى تأكد بعد عام واحد من يوم نشأتها ، عندما ضمتها الأمم المتحدة إلى عضويتها فى مايو ١٩٤٩ ، بينما ظل الفلسطينيون يلهثون وراء استقلالهم ولو فى شكل حكم ذاتى . وحتى عندما صدر الإعلان بتأليف حكومة عموم فلسطين فى القاهرة فى يوم ٢١ سبتمبر ١٩٤٨ خلال الهدنة الثانية على أن تكون غزة هى مركز هذه الحكومة ، قوبل هذا الإعلان بالرفض والهياج من الدول العربية كلها بل ومن بعض الفلسطينيين أنفسهم !

كعب أخيل

وحرب ٤٨ هى التى جعلت إسرائيل تهتدى إلى نقطة الضعف فى الكيان العسكرى للعرب ، فراحت تهاجمهم منها طيلة الجولات الأخرى التى تلت هذه الحرب ، بنفس الأسلوب الذى اهتدى به القائد الطروادى « ناريس » إلى نقطة الضعف المشهورة فى خصمه « أخيل » الإغريقى ، أقصد كعبه الذى لم تطله مناعة ماء النهر المقدس فصوب ناريس رمحه المسموم إلى هذا الكعب ليقضى به عليه بعد أن دوخه وأنهكه هو وبقية جيشه فى حروب طروادة [١] .

---

(١) أخيل أو أخيلوس Achillies القائد الإغريقى المشهور التى تقول الأسطورة إنه ابن الملك بيلوس وملكة البحر ثيتيس التى غطسته وهو صغير فى النهر المقدس حتى يصبح جسده منيعا ضد كل الشرور عدا =

وكانت خطوط مواصلاتنا الطويلة المكشوفة فى حرب ٤٨ بمثابة كعب أخيل الذى وجهت إليه إسرائيل ضرباتها المختلفة لتصيب قواتنا الرئيسية فى مقتل بأقل مجهود حربى ! ولقد تكرر ذلك ليس فحسب فى حرب ٤٨ ، وإنما أيضا فى الجولات الثلاث التالية ، جولة ٥٦ ، وجولة ٦٧ ، بل وجولة ٧٣ حيث كانت لعبة الثغرة التى قصد بها النيل من خطوط مواصلاتنا غرب القناة .

وحرب عام ١٩٤٨ هى التى حملت فى رحم الفالوجا طيلة أشهر الحصار جنين ثورة عام ١٩٥٢ التى قادها جمال عبد الناصر ووجهها بداية ضد الملك الذى أوقد نار هذه الحرب دون تشريع أو دستور فخلعه ، ثم وجه جهوده ضد الإنجليز الذين نصبوا شباكهم للعرب لتلهيهم مدى الحياة عن وجودهم غير الشرعى فى مصر وبقية العالم العربى ، فكان أن اقتلعهم أولا من مصر ثم من بقية الدول العربية (١) .

وحرب عام ١٩٤٨ كانت مفترق الطرق الذى استغلته إسرائيل فى ذكاء ودهاء لكى يتلألأ اسمها فى أروقة المحافل الدولية ويشار إليها بأنها الدولة ـ التى على قوتها ـ قبلت قرار التقسيم بينما العرب ـ على ضعفهم ـ لم يقبلوا به . .

وهنا تحضرنى القصة المشهورة للملك سليمان عندما اختصمت إليه المرأتان اللتان تنازعتا فيما بينهما على مولود واحد . كل واحدة منهما تدعى أنها أمه . . مما جعل سليمان يلجأ إلى الحيلة والحكمة . فنادى على السياف وتظاهر بأنه ينوى أن يقسم الطفل مناصفة بين المرأتين . وكانت النتيجة أن اعترضت الأم الأصلية صارخة ، بينما قبلت الأم المدعية قسمة الوليد فكشفت بذلك عن ادعائها وكذبها .

ولكن هل يعنى ذلك أنى أطالب الأمم المتحدة أن تكون فى حكمة سليمان ؟!

وحرب ٤٨ هى التى ظهرت بعدها قضية الأسلحة الفاسدة . هذه القضية التى سرعان ما تأججت واتسعت لتكشف أن الفساد لم يكن مقصورًا على السلاح أو الذخيرة وحدهما بقدر ما كان مستشريا فى نظام الحكم كله !

= كعب قدمه الذى أمسكته منه فأصبح هو نقطة الضعف الوحيدة فى هذا الجسد ، ولقد أصبح أخيلوس أعظم قادة الإغريق فى الإلياذة . فهو الذى قتل خصمه هكتور أثناء حصار طروادة ، ولكنه هو نفسه مات مقتولا عندما أصيب بسهم مسموم من خصمه الطروادى « ناريس » فى كعب قدمه غير الحصين .

(١) لست فى حاجة إلى أن أنوه هنا عن الجهد الخارق الذى بذل فى مكافحة الاستعمار العالمى ، والذى لم يسبق للتاريخ أن سجل لدولة واحدة (هى دولتنا) دورًا مماثلاً أشرس منه ، أو سجل لجيل واحد (هو جيلنا) رسالة أنهك من الرسالة التى تحملها هذا الجيل ، حتى رزح فى سبيل تحقيقها تحت أرزاء كافة الضغوط النفسية والاقتصادية والعسكرية مما يجعل أشد الجبال صلابة تنوء به .

ومن هنا كان الغضب الذى أخذت ثورته تنتقل من الفئات العسكرية (التى عانت من سوءات السلاح المعيوب والذخيرة التى تنطلق فى أصحابها وليس فى العدو) ، حتى شملت الشعب كله الذى أخذ يغلى ويموج ، حتى أصبحت البلاد كلها وكأنها تعيش فوق بركان ثائر ارتهن أمر تفجره بفجر يوم موعود ! (١) .

ولقد ظلت حرب ٤٨ تلقى بظلال كثيفة على كل شىء فى مصر ولسنوات طويلة سواء فى داخل القوات المسلحة التى احتفى الملك فاروق بعودة وحداتها من الحرب بطريقة مبالغ فيها ، (وخاصة وحدات الفالوجا وكأنها استشعر بغريزته الخطر الذى سينفجر ضده منها فى يوم من الأيام) أو فى داخل الحياة السياسية التى استعر الصراع بها إلى لحظة شهدت مقتل النقراشى على يد أحد أعضاء الإخوان المسلمين . وهو الحادث الذى جاء الرد المباشر عليه بعد ذلك بمقتل الشيخ حسن البنا مرشد الإخوان (٢)!

وبعد حرب ٤٨ حق لإسرائيل أن تستخدم كل أبواق دعايتها لتروج بها عن انتصارها فى

---

(١) كان أول خيط فى قضية الأسلحة الفاسدة هو استقالة محمود محمد محمود رئيس ديوان المحاسبة الذى كان يراجع حسابات وزارة الدفاع ولفت نظره وجود مبالغ صرفتها الوزارة لأسماء دون « مستندات صرف » ودون أن تذكر أسباب الصرف . ورفض رئيس ديوان المحاسبة اعتماد الميزانية فحاول البعض الضغط عليه ، ولكنه رفض وقدم استقالته وقدم مصطفى مرعى عضو مجلس الشيوخ استجوابا للمجلس بشأن هذه الاستقالة ، وكان هذا الاستجواب بمثابة مجد وفخار لضباط وجنود الجيش المصرى ، فقد ثبت أن هؤلاء الضباط والجنود لم تهزمهم قوة العدو وإنما هزمتهم خديعة موردى السلاح والذخيرة بأسلحتهم المغشوشة .

وقامت حملة صحفية قادها إحسان عبد القدوس مما أرغم وزير الحربية « مصطفى نصرت » على طلب التحقيق فى الوقائع والحملة بواسطة النائب العام .

وهكذا بدأت فضائح نظام الحكم تنكشف يوما بعد يوم ، ومن أخطر جوانبها كانت قضية الأسلحة الفاسدة مما عجل بقيام ثورة يوليو .

(٢) أذكر أثناء وجودى بالمستشفى فى العجوزة أننى استمعت إلى قصة مقتضاها أن زميلى الملازم أول عبد الكريم موسى كان مصابا بطلق نارى فى أعلى الذراع الأيسر قطع عصب اليد ، وتحدد للعملية يوم ما فى شهر ديسمبر ، وعندما أدخل إلى غرفة العمليات استعدادًا لحقنه بالبنج أخذ الدكتور كامل حسين جراح العظام المصرى والأديب المشهور يتأهب لإجرائها حين دخل عليه أحد الأطباء قائلاً « رياسة مجلس الوزراء تطلبك فورًا ـ فالنقراشى باشا رئيس الوزراء قد أصيب بطلق نارى فى مجلس الوزراء » . ويحكى لى عبد الكريم أنه نظر للطبيب نظرة رجاء ولم ينطق بشىء ، وهنا فوجئ بالدكتور كامل حسين يقول للطبيب أخطر رئاسة مجلس الوزراء أننى مشغول بإجراء عملية جراحية لأحد مصابى العمليات الحربية وأن هناك كثيرين من الأطباء الأكفاء يمكن استدعاؤهم » ، واستسلم عبد الكريم للعملية ثم أصبح سليما معافى بعد ذلك ، ولكنه طرد من الخدمة بالقوات المسلحة برتبة الرائد بعد قيام الثورة بدعوى العمل ضدها !

هذه الحرب التى أسمتها حرب الاستقلال (تشبها بحرب استقلال الولايات المتحدة ضد بريطانيا ١٧٧٥ ـ ١٧٨٣) مدعية بأن انتصارها ـ وهى الدولة الصغيرة الضعيفة الموجودة كان ضد المارد العربى الذى يتفوق عليها (بدوله السبع) فى العدد والعتاد ، وأنها أعادت بذلك ملحمة انتصار داود اليهودى على جوليات (جالوت) العملاق الفلسطينى وبعثتها من جديد! هذه القصة التى وردت فى التوراة وملخصها أن داود العبرانى الضئيل الجسم قد تفوق على خصمه المدجج بالدروع والسيف فى حين كان داود لا يحمل أى سلاح فى يده وبدا للجميع أنه سوف يلقى حتفه منذ اللحظة الأولى ، ولكن العكس هو الذى حدث إذ كان داوود يخفى فى جيبه مقلاعًا أظهره فى اللحظة المناسبة وقذف به جوليات (جالوت) فى جبهته فخر صريعًا أمام اندهاش الجميع الذين كانوا يمسكون بقلوبهم خوفا وهلعا على داود . . ومغزى القصة واضح . . فداود رمز إسرائيل يمثل الذكاء والحيلة والخداع وجوليات رمز العرب يمثل البطش والقوة الغاشمة . .

وفى النهاية ، فإن حرب ٤٨ هى التى جعلت إسرائيل تغير من نظام الدفاع الثابت المبنى على نظام المستعمرات السكنية الدفاعية [١] الذى نقلته عن نظام حصون الحدود الأمريكية ذات الأسوار والأبراج والتى كانت بمثابة مراكز أمامية أو رءوس حراب يشرعها الأمريكان النازحون الأوائل لغزو الأراضى وانتزاعها من أيدى سكان البلاد الأصليين بعد طردهم أو إبادتهم ، على نحو ما فعل الإسرائيليون فى مذبحة دير ياسين .

أقول إن حرب ٤٨ هى التى نقلت إسرائيل من نظام الدفاع الثابت هذا إلى أسلوب الهجوم التعرضى ، ولكن مع اتباع أسلوب اقتصادى خاص يوفر الكثير من الجهد والدماء هو

---

(١) كانت المستوطنات أو المستعمرات الزراعية تصمم لتكون بمثابة قلعة حصينة قادرة على الدفاع عن نفسها وعن غيرها من المستعمرات . وكانت هذه المستوطنات هى مهد منظمات الهاجاناه والكوماندوز التابعة لها والقوة الضاربة المسماة « بالبالماخ » بالإضافة إلى العصابات الإرهابية المختلفة أمثال شتيرن وأرجون زفاى ليومى مما ساعد على توسيع رقعة الأراضى التى سيطر عليها الصهيونيون إذ إن كل مستعمرة تضم جماعة يعيش أفرادها ويعملون معا وخاصة بالزراعة . وكانت المساحة المزروعة تتراوح بين ألفين وعشرين ألف دونم ، ويتراوح عدد أفراد كل مستوطنة بين ٣٠ ، ١٥٠٠ فرد كلهم مدربون على القتال . وهكذا ارتبط النظام الاقتصادى للمستوطنات من أول دقيقة بالنظام العسكرى خاصة وأن هذه المستوطنات كان يتم انتخاب مواقعها الحاكمة على أسس عسكرية .

وقد وصفه الكاتب الأمريكى الصهيونى نلداف صافران قائلاً « إن النشاط الاستعمارى الذى مارسته الصهيونية قد تطور فى إسرائيل إلى مستوى الفن الرفيع ، وتقوم إسرائيل بنقله الآن إلى بعض البلاد الصديقة التى تجابه مشكلات مشابهة فى آسيا وإفريقيا » . وصافران هذا أستاذ فى جامعة هارفارد الأمريكية وسبق له الاشتراك فى حرب ٤٨ ! .

الأسلوب الذى وجدته جاهزًا فى إستراتيجية الاقتراب غير المباشر التى وضع أسس نظريتها المؤرخ الإنجليزى ليدل هارت .

وربما لم يخطر على بال ليدل هارت أن الأسلوب الذى وضعه سوف ينطبق بحذافيره على إسرائيل والعرب تمام الانطباق ، لدرجة أنه أضاف ملحقا خاصا لخطط القادة الإسرائيليين فى حرب ٤٨ فى نهاية كتابه المشهور « الإستراتيجية » طبعة عام ١٩٥٤ بالولايات المتحدة ، واضعًا هذه الخطط جنبًا إلى جنب مع خطط الإسكندر ونابليون وهتلر وغيرهم مع خطط غزو ألمانيا لفرنسا فى الحربين العالميتين . . .

وبعد حرب ٤٨ ظل القادة الإسرائيليون يرددون فى أكثر من مناسبة بأن لديهم خطة واحدة لمحاربة المصريين سوف يكررونها هى هى لمئات المرات دون أن يدركها المصريون ! وعندما نستبق الأحداث معا حتى نصل إلى عام ٧٣ نجد أن قادتهم سيكفون عن هذا القول ! وسوف تتغير لهجتهم إلى شكل جديد مختلف تمامًا ، وسوف تظهر عبارات أخرى ، مثل تلك التى قالها ديان وهو يبدى أساه : « للأسف رأينا ولم نفهم » !

☐ نصر . . أم هزيمة

وأخيرا يبقى السؤال المحير هل حرب ٤٨ كانت انتصارًا أم انهزامًا لنا ؟

الحقيقة أن هذا السؤال الذى ثار فى أعقاب حرب ٤٨ أصبح سمة مميزة تنفرد بها حروب الشرق الأوسط عن غيرها من الحروب ، حيث يحدث عقب كل حرب جدل عنيف يختلط فيه الغالب بالمغلوب والمنتصر بالمهزوم ، لا لسبب يخص تكتيكات الحرب فى حد ذاتها ، وإنما لسبب آخر تتميز به هذه الحروب هو تدخل القوى الأجنبية بشكل يؤثر على سير المعارك ونتائجها بداية من التدخل فى إمداد أحد الطرفين أو كليهما بالإمكانات العسكرية والإدارية التى تؤثر فى كل مقدرات المعركة بحيث تنتهى فى صالح الطرف الذى تؤيده القوة ذات المصلحة فى انتصاره .

وفى حرب ٤٨ لم يقتصر تدخل الدول الكبرى على إمداد إسرائيل بالسلاح والذخيرة والمتطوعين ، بل امتد هذا التدخل ليشمل إمداد أو حرمان القوات المحاصرة من الطرفين بالطعام والشراب . وأفضل مثل أسوقه على ذلك أن فى الهدنة الأولى انشطر النقب الجنوبى عن شمال إسرائيل لتشبث القوات المصرية بالخط العرضى المجدل ـ جبرين . . وعندئذ تدخلت لجنة الهدنة لتضغط على مصر لكى توافق على السماح بقولات التموين الإسرائيلية أن

تستخدم الطريق الطولى فى ساعات معينة من النهار (والذى يقطعه الطريق العرضى ويتحكم فيه) على أن تستخدم القوات المصرية الطريق العرضى باقى ساعات اليوم .

وللأسف أو للعجب وافق المصريون بما عرف عنهم من سماحة .

ثم حدث فى الهدنة الثانية أن حوصرت الفالوجا وانقطع الطريق العرضى ورفضت إسرائيل أن تصل قولات التموين فى ساعات محددة إلى الفالوجا على النحو الذى اتبع فى الهدنة . وهنا لم تتدخل لجان الهدنة وهى المعروف أنها تأتمر بأوامر القوى الكبرى .

وكان من الواضح فى حرب ٤٨ أن بريطانيا كانت ترغب فى الحصول على نتائج شبه متعادلة للطرفين بحيث تظل الحرب معلقة لا تنتهى بحسم أو سلام [١] حتى يمكنها استثمار رحلة العداء الناشبة بين الطرفين إلى ما شاء الله .

أما فى حرب ٥٦ مثلا فسوف نرى إصرار كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى على حرمان المعتدين الثلاثة من إحراز أى نصر عسكرى . . ولذلك فمن أطرف التعليقات التى تروى عن نتائج الحروب الأربعة ، ما قاله معلق عسكرى عندما سئل من الذى انتصر فى حرب ٤٨ هل هم العرب أم إسرائيل ! فقال فى اعتقادى أن الذى انتصر فى ٤٨ هى بريطانيا . . أما فى ٥٦ فإن الذى انتصر هو الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، وفى ٦٧ قد يبدو لنا أن الولايات المتحدة هى التى انتصرت ولكن فى الحقيقة **أن الاتحاد السوفييتى كان هو المحظوظ الأول من هذه الحرب لأنه حقق الهدف الذى ظلت تتمناه طويلا روسيا القيصرية وهو الوصول إلى المياه الدافئة.** وعموما لنا مع هذه الجولات وهذه التحليلات حظ أوفى فيها بعد مع كل مشوار فى حينه . .

---

(١) جاء فى كتاب موشى ديان « قصة حياتى » أن الملك عبد الله كان قد قطع شوطًا طويلاً بنفسه فى مفاوضات السلام التى أعقبت الحرب لدرجة أنه قدم مشروعًا سماه تسوية إقليمية نهائية (هو فى الواقع معاهدة سلام) وإذا بإنجلترا تبلغه على لسان وزيرها المفوض البريطانى إليك كيرك رايد أنها لا توافق على هذا المشروع بحجة أن مصر وباقى الدول العربية لم يفعلا حتى الآن شيئًا مماثلاً !

الباب الخامس

مولد ثورة

الفصل السادس عشر : عبر البحر الأبيض

الفصل السابع عشر : أحداث في أثر المعاهدة

الفصل الثامن عشر : من الأحرار ومن غير الأحرار

الفصل السادس عشر
عبر البحر الأبيض

في صباح اليوم الأول من سبتمبر عام ١٩٤٩ كانت الباخرة أطنا التركية تطلق آخر صفير لها معلنة عن مغادرتها ميناء الإسكندرية وقد ولت ظهرها للساحل الإفريقى العريض لكى تمخر مياه البحر الأبيض متجهة إلى العالم الأوربى الذى كثيراً ما سمعت عنه دون أن أراه ، واليوم جاءتنى هذه الفرصة التى ظللت أتوق إليها طويلاً . .

كانت إدارة سلاح الفرسان قد أعلنت منذ بضعة أشهر عن امتحان مسابقة لبعثة دراسية لمعلمى الإشارة واللاسلكى للقوات الميكانيكية بالولايات المتحدة الأمريكية أو بإنجلترا . . . ولقد اجتزت الامتحان وتقرر أن تجرى الدراسة فى مدرسة المدرعات فى إنجلترا فى بوفنجتن بمقاطعة دورست فى جنوب الجزيرة البريطانية .

كانت السفن فى ذلك الوقت هى وسيلة المواصلات العادية فى التنقل بين أرجاء العالم ، ولم تكن الرحلة البحرية فوق السفينة تعتبر فترة ترفيهية ممتعة بقدر ما كانت جولة تثقيفية لمشاهدة معالم العالم الأثرية والسياحية من خلال جو بديع فوق ظهر السفينة التى يستمتع عليه المسافرون بأشعة الشمس الدافئة المسلطة على أجسادهم شبه العارية وهم يتمتعون على حافة حمام السباحة الصغير فوق سطح المركب .

وعندما ترسو بك السفينة لأول مرة عند ميناء بيريه اليونانى لا يمكنك أن تدع الفرصة تفلت منك لزيارة قلعة الأكروبول فى أثينا وتظل تسمع من الدليل اليونانى محاضرة عن عظمة وأمجاد هذا البناء القديم ، مما يجعلك كمصرى تشفق على هذا الرجل لو أنك اصطحبته يوما ما إلى هرم خوفو الذى سبق الأكروبول بنحو ثلاثين قرنا من المجد والقدم . . وعندما تصل إلى «جنوه» يصرحون لك بمغادرة السفينة لتتجول بهذه المدينة الإيطالية القديمة المليئة بالصيادين

لبضع ساعات ينصحونك فيها بزيارة أجمل مقابر رخامية فى العالم أقامها أشهر فنانى إيطاليا على آلاف الأفدنة من الحدائق الغناء الممتلئة بالزهور ومن مختلف الألوان والأحجام ! لا شك أن أرواح الموتى تسعد بالتجول اليومى فى هذه الحدائق العظيمة .

وعندما تستقل القطار من مرسيليا إلى أقصى شمال فرنسا لتعبر المانش إلى الجزيرة البريطانية، لابد وأن تتخلف نهارًا بباريس ، فتنتهز الفرصة لزيارة حدائق بولونيا الشهيرة وبرج إيفل [1] وقوس النصر الذى شيده نابليون ليخلد انتصاراته فإذا به يلاقى الهزيمة والنفى فى جزيرة سانت هيلانه فى أواخر أيام حياته ، ثم استخدم هذا الصرح من بعد وفاته ليكون مثوى لأول جندى مجهول من جنود الحرب العالمية الأولى يحج إليه الناس فى الميدان المتسع الشهير بميدان النجمة .

إن هذه الرحلة التى تستغرق نحو ستة أيام بالمركب والقطار ، تقطعها الطائرة اليوم فى أقل من خمس ساعات وأنت مقيد بالسيور فوق المقعد الضيق وعيناك لا تسعد بأى معالم تراها سوى ما يتسلل إلى بصرك على ارتفاع شاهق من خلال فرجات السحب التى تتلبد بها سماء أوربا فى معظم الأوقات ، علاوة على أن الرحلة المتعة فوق السفينة تسمح لك أيضًا بالتعرف على العديد من ركابها . . وفى الأيام المعدودة التى قضيتها فوق « أطنا » لفت نظرى أن هناك عددًا كبيرًا من الإسرائيليين المهاجرين إلى الولايات المتحدة فيما يعرف بالهجرة المضادة . . ولقد أدركت أن السفينة كانت قد مرت بميناء حيفا قبل مجيئها إلى الإسكندرية . . كما أدركت شيئًا آخر على ظهر هذه السفينة عن القضية الفلسطينية ، **هو أن هذه القضية ليست نزاعًا دينيًا بين يهود ومسلمين (عدا مشكلة القدس) وإنما هى نزاع قومى بين إسرائيليين وعرب عز عليهم أن يحل العالم مشكلة اضطهاد الغرب لليهود على حساب قطعة أرض تقتطع من الوطن العربى ويكتب على أهلها التشريد والضياع .**

وعندما وصلت إنجلترا كان قد مضى على انتهاء الحرب العالمية الثانية ما يقرب من أربع سنوات ونصف السنة، ومع ذلك كان علينا أن ندرج أسماءنا فى البطاقات التموينية للحصول على الكبريت والبيض والبن والسكر وقدر محدود من الحلوى ، وإن كانت إقامتنا فى مدرسة المدرعات قد أعفتنا من استخدام هذه البطاقة . ومع ذلك فما زلت أذكر كيف كان أول فنجان شاى شربته فى أحد المحلات بلندن خاليا تمامًا من السكر ، وهكذا كان علينا أن نصطحب دائمًا قطعتين من السكر فى جيوبنا لمثل هذه الطوارئ . وأذكر أثناء الدراسة كيف كانوا

---

(١) المهندس الذى بنى برج إيفل هو نفسه الذى بنى كوبرى أبو العلا .



فى إنجلترا عام ١٩٤٩



حفل كوكتيل أسبوع كامبرى (ميس مدرسة المدرعات فى بوفنجتن ، إنجلترا)

يحرصون على عدم حضور الأجانب من غير الحلفاء لنوع معين من المحاضرات مثل المحاضرات الخاصة بإجراء الوقاية من أسلحة التدمير الشامل كالقنابل الذرية والأسلحة البيولوجية والكيميائية إلخ . . .

ولم يخطر على بال أحد وقت ذلك ، أن العالم سيتغير وأن مناورات مشتركة سوف تجرى بين قواتنا والقوات الأمريكية بعد ثلاثين عامًا تقريبًا ، بل وأن تشترك القوات المسلحة لخمس وثلاثين دولة منها مصر وبريطانيا فى عمليات حربية مشتركة لرد العدوان العراقى عن الكويت فى نظام دولى جديد فى أول التسعينيات .

الفصل السابع عشر
أحداث فى أثر إلغاء المعاهدة

عندما عدت إلى مصر من هذه البعثة الممتعة فى أواخر يناير من عام ١٩٥٠ كانت ثمة أشياء خطيرة على وشك الحدوث ، وكنت قد نسيت تمامًا أنى قد تركت القاهرة وهى تكاد تعيش فوق بركان ثائر .

كان حزب الوفد قد شكل وزارته فى ذلك العام والتزم بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، بعد عدم توفيقه فى الحصول على ما سبق أن حصل عليه صدقى باشا فى مفاوضاته مع بيفين ، ولذا أعلن الوفد عن إلغائه للمعاهدة من جانب واحد فى يوم ٨ أكتوبر عام ١٩٥١ .

وفى الحال تحركت المشاعر الوطنية فى نفوس الشعب من جديد . وقاطع العمال المصريون العمل فى القواعد البريطانية بمنطقة القناة التى امتلأت بالعديد من الجماعات الفدائية (التى تنتمى لمختلف الأحزاب) وبدأت تشن غاراتها اليومية على المستودعات والمعسكرات .

غير أن هذا العمل كان يتطلب تنظيمًا وتنسيقًا معينًا من حكومة الوفد الأمر الذى أدى إلى قيام القوات البريطانية بإجراءات فعالة لمواجهته كالتفتيش الدقيق لقطارات السكك الحديدية والسيارات المتجهة برًا إلى مدن القناة ، ثم السيطرة الكاملة على المعابر والكبارى المؤدية إلى سيناء !

مجزرة الإسماعيلية

وعندما اشتدت أعمال التخريب والأنشطة الفدائية، فقد القائد البريطانى فى القناة أعصابه فأمر بتدمير بعض القرى حول الإسماعيلية لاعتقاده أنها تعمل كقواعد لاختباء الفدائيين . . ثم حاصر قسم شرطة الإسماعيلية لنفس الدعوى بعد أن أرسل إنذارًا لمأمور



كبار الضباط الإنجليز يشرفون على نقل الأسلحة من قسم الإسماعيلية

الشرطة بتسليم أسلحته والانسحاب إلى القاهرة ، غير أن ضباط وجنود الشرطة رفضوا هذا الإنذار فأطلق البريطانيون عليهم نيران دباباتهم ومدفعيتهم . . ولم تكن قوة الشرطة مسلحة بشيء سوى البنادق العادية القديمة ، ومع ذلك قاومت العدوان ببسالة وشجاعة فائقة ، ولم تتوقف هذه المجزرة إلا بعد بضع ساعات سقط خلالها خمسون شهيدًا وسبعون جريحًا هم كل القوة تقريبا التى كانت تتمركز فى قسم الشرطة ومبنى محافظة الإسماعيلية ، هذا بخلاف عدد آخر من المدنيين الذين قتلوا أو جرحوا أثناء عمليات تفتيش القوات البريطانية للقرى المسالمة . ومما يذكر فى هذا الصدد أن القوات البريطانية ارتكبت أثناء التفتيش ٤٨٨ حادثة سرقة ونهب .

وليمة من نار

وفى اليوم التالى (٢٦ يناير ٥٢) انفجر الشعب كالبركان ، وخرجت قوات الشرطة فى مظاهرة احتجاج بشوارع القاهرة متجهة إلى سراى عابدين ومجلس النواب ، وانضمت إليهم جموع من الشعب والطلبة احتجاجا وغضبًا على الإنجليز والحكومة معا . . وبينما هم فى وسط ميدان الأوبرا ، اندس نفر مجهولون يشعلون النيران بطريقة منظمة فى عدد من دور السينما والمحلات التجارية الكبرى ، وسرعان ما التفت القاهرة داخل سحابة سوداء من الدخان . ولقد عجز التاريخ تمامًا عن تحقيق مصدر هذه الشرذمة التى كانت تقوم بالحرائق وفق تخطيط معين ، ولا نستطيع أن نجزم حتى يومنا هذا إذا ما كانت أصبع السفارة البريطانية وراء هذا



حريق القاهرة

الحادث ، لأنه فى نهاية النهار سوف تفرض الأحكام العسكرية وينزل الجيش كالعادة ليعيد الهدوء إلى المدينة ثم يلف النسيان كل شيء بعد ذلك ويكون المستفيد هو المستعمر ، فقد تلهى الشعب عنه إلى أحداث جديدة . وملابسات هذا اليوم لا يستطيع المحقق التاريخى أن يقف أمامها ويشهد ببراءة الأحداث التى توالت بإحكام . فجموع المظاهرات تختلط مع محدثى الشغب ومفتعلى الحريق ، ويدور كل ذلك لساعات طويلة فى غيبة من قوات الشرطة المتظاهرة ، ومن ضباط الجيش الذين أصر الملك على دعوتهم لأول مرة داخل قصره فى عابدين لتناول الغداء فى ذلك اليوم احتفالا بعيد ميلاد ابنه أحمد ولى العهد الجديد ، الذى لا يتصور أى متنبئ كيف ستتطور الأحداث بسرعة بعد ذلك فى الأشهر القلائل القادمة بحيث إذا ما حان الصيف لن يكون هناك « عهد أو ولى جديد » يخلفه فوق أرض مصر .

كثبان قمبيز

فى هذه الأثناء كنت أجتاز الكثبان الرملية لبحر الرمال الأعظم بالصحراء الغربية ، هذا البحر الذى ابتلع جيش قمبيز عند غزو الفرس لمصر منذ خمسة وعشرين قرنا وهو فى طريقه إلى سيوة . .

كنت قد كلفت باختبار أنواع معينة من العربات الحديثة لمعرفة قدرتها وكفاءتها للسير فى الصحراء والرمال . وعندما استمعت إلى الإذاعة المصرية تذيع أخبار هذه الحرائق قبل عودتى بيومين ، لم أدرك حجم الكارثة التى قتل فيها عدد من المصريين والأجانب واحترقت فيها ودمّرت مئات المحلات التجارية والمسارح ودور السينما ، إلا بعد وصولى إلى شارع الهرم الذى بدا وكأن زلزالا قد أتى عليه .

وبمجرد أن وصلت برتل السيارات إلى مدرسة المدرعات تلقيت تعليمات فورية بالتوجه إلى حديقة الأزبكية حيث تمركزت قوة من سلاح الفرسان للحفاظ على الأمن . .

وعندما اجتازت السيارات وسط المدينة هالنى مقدار الخسائر والدمار الذى يلحق بمصر الوادعة من حين لآخر لغير ما ذنب ترتكبه سوى رغبتها فى أن يعيش أبناؤها فى هدوء وحرية كشأن باقى الدول التى يزخر بها العالم !

وكان من الممكن تلافى الأمر كله من البداية لو بادر حيدر باشا بإنزال القوات المسلحة إلى الشارع من اللحظات الأولى . . **لكن كان من الواضح أن وزير الدفاع لم يكن واثقًا من ولاء القوات المسلحة فى تلك الأيام وخشى أن تنضم القوات إلى المتظاهرين فتكون الطامة الكبرى التى قد تعجل بنهاية الجميع .**

الفصل الثامن عشر

من الأحرار ومن غير الأحرار

ومع شهر يناير ٥٢ تجمعت سحب أزمة جديدة بين الجيش والملك ، حملت معها نهاية حكم أسرة محمد على التى ظلت تحكم البلاد لمدة قرن ونصف القرن منذ تولى محمد على الحكم فى عام ١٨٠٥ برغبة الشعب وإرادته ، ثم سرعان ما تنكر هذا الجندى التركى للشعب الذى ولاه الحكم ، شأنه فى ذلك شأن كل حاكم أجنبى تولى حكم مصر .

لقد شهد هذا الشهر موعد انتخابات رئيس وأعضاء مجلس إدارة نوادى ضباط القوات المسلحة . وكان تنظيم الضباط الأحرار الذى بدأ تشكيله قبل عام ١٩٤٩ ، قد روج لترشيح اللواء محمد نجيب (الذى أصبح أول رئيس للجمهورية بعد ذلك) ليترأس مجلس إدارة النوادى رغم محاولة السراى فرض حسين سرى عامر ممثل سلاح الحدود .

وعندما اجتمع مجلس الإدارة الجديد بتشكيله المنتخب ديمقراطيًا ، لم يرض ذلك الملك فاروق فحل المجلس فى ١٦ يوليو عام ١٩٥٢ .

ووسط مناخ مملوء بالتذمر والغضب ، ظللنا طيلة الأشهر السابقة نتلقف فى لهفة عددًا من المنشورات السرية . كنا نفاجأ بوجودها فوق مكاتبنا فى صباح بعض الأيام ، وكانت تتكلم عن أهداف ستة هى التى حرصت الثورة بعد ذلك على تحقيق معظمها مثل القضاء على الاستعمار والإقطاع ، وإقامة جيش وطنى قوى .

لم أكـن من الأحـرار

لم أكن أنا أو أخى طلعت على دراية كاملة بوجود تنظيم الثورة ، ولا بأسماء الضباط القلائل المشرفين عليه (والذين لقبوا بعد ذلك بالضباط الأحرار) ، وكنا مثل العديد من

الضباط الآخرين لن نتردد ثانية واحدة فى الانضمام إلى هذا التنظيم لو أننا فوتحنا فى أمر الانضمام إليه. . ولم يكن مطلوبا من أى ضابط ليصبح عضوا « حرًا » سوى أن يحافظ على العهد والسرية وأن يكون جاهزًا فى وحدته للتحرك إذا ما طلب منه ذلك . والحقيقة أن معظم أفراد الوحدات تحركت فى ليلة الثورة والأيام التى بعدها بشعور تلقائى بمجرد أن علموا بالقصد من التحرك الثورى برغم أنهم لم يكونوا وقتها أحرارًا ، بل ولم يصبحوا « أحرارًا » بعد ذلك إذ حرص « الأحرار الأصليون » على أن ينسبوا الفضل كل الفضل لأنفسهم لكى يحتفظوا لأنفسهم بالتميز عند توزيع الأدوار . .

وعندما توجهت مع شقيقى طلعت فى سيارته صباح يوم ٢٣ يوليو إلى معسكر سلاح الفرسان ، فوجئنا ببعض الضباط الأصاغر (من رتبة الملازم) يطلبون منى الدخول إلى رئاسة السلاح وحدى بينما طلبوا من طلعت وكان برتبة المقدم أى البكباشى (وهو من نفس دفعة جمال عبد الناصر) أن يتوجه إلى مبنى الكلية الحربية المجاور لإدارة سلاح الفرسان مباشرة فى كوبرى القبة .

كان البيان الأول الذى أذيع عن قيام الثورة تعاد إذاعته بين الحين والآخر فتتردد أصداؤه فى نفوسنا جميعًا ، فقد كنا جميعًا ـ وبلا إستثناء ـ تواقين إلى الخلاص ، فهناك المحتل الغاصب الذى يعيث فى الأرض فسادًا بلا حسيب ، وهناك ملك لا يقل فسادًا عن المحتلين ويحشو جيوبه بالمال الحرام بلا رقيب .

وفى رئاسة السلاح أظهرنا تأييدنا الكامل للثورة لكل من البكباشى حسين الشافعى الذى أصبح مديرًا للسلاح وللصاغ ثروت عكاشة الأركان حرب الجديد للسلاح . وحدث نفس الشىء لطلعت وباقى الضباط فى الكلية الحربية حيث قابلهم جمال عبد الناصر بنفسه ومعه عبد اللطيف بغدادى وطلب منهم العودة إلى نفس قياداتهم ، وعلى الأثر توجه طلعت إلى مركز رئاسته فى مدخل طريق القاهرة / السويس حيث كان يقود الآلاى الثالث دبابات المتمركز هناك .

شرخ فى حائط الانضباط

غير أن ابتهاجنا بقيام الثورة لم يدم طويلاً ، إذ توالت علينا أنباء الصراع بين أعضاء مجلس قيادة الثورة من ناحية ، واللواء محمد نجيب من ناحية أخرى خاصة بعد أن انتخبه المجلس رئيسًا للجمهورية بعد خروج الملك فاروق من مصر فى ٢٦ يوليو .

ثم حدث أن انتهز الفرصة بعض الضباط الذين شاركوا فى الحركة ، فترددوا على مجلس

الثورة واطلعوا على كل ما يجرى فيه من مناقشات تتعلق بالخلافات فى الرأى أو بالانقسامات داخل المجلس ، فنصبوا أنفسهم حراسا على أمن الوحدات مما خلق لهم مركزًا متميزًا على الآخرين مهما علت رتبتهم عنهم ، **الأمر الذى أخل بالانضباط العسكرى داخل الجيش ، ومما جرف بعضهم إلى الشئون السياسية ناسين دورهم الأساسى فى التدريب وتحصيل العلم العسكرى الذى بغيره لا يكون لقوات مسلحة دور أو وجود !**

أهل الثقـة وأهل الخـبرة

وعندما فوجئت بنقلى للعمل كأركان حرب السلاح للتدريب فى سبتمبر ، أتاح لى ذلك الموقع التعرف على الفارق المتميز بين الطبقة الجديدة التى أطلقت على نفسها « أهل الثقة » وبين طبقة الكادحين الذين عرفوا «بأهل الخبرة» ، وهم الذين لم ينخرطوا فى أى عمل سياسى ، بل استمروا فى المثابرة على القيام بأعمالهم العادية من تدريب وكدح لرفع كفاءة وحداتهم . .

وهكذا لم تتميز طبقة أهل الثقة فى الأغلب بأى كفاءة خاصة ، سوى أنهم « متصلون » بالجهات العليا . . ويكفى أن يشار إلى أى واحد منهم بهذا اللقب حتى يعمل له ألف حساب ، فكانوا أشبه بقوموسيرات الاتحاد السوفييتى الذين كونوا طبقة أخرى متعالية داخل الجيش الروسى هى التى كانت تجنى كل ثمار الثورة . ولذلك تطلع الكثير منهم إلى تحقيق أمنيات شخصية ، وكان جواز مروره فى ذلك هو أنه يحمل لقب « الأحرار » [1] **وهى تسمية لا شك تحمل معنى جائرًا يشير إلى تصنيف غير مقبول بالمرة . فالمفروض أن كل من يخدم فى القوات المسلحة قد نال شرف الجندية الذى لا يناله إلا من هم أحرار بالفعل .** ناهيك عن القول الإسلامى المأثور بأن الناس ولدوا جميعهم أحرارًا ، فلم ولحساب من كانت هذه التفرقة التى كانت من ضمن الأسباب الرئيسية لكارثة ١٩٦٧ ؟ إذ ظل يحمل هذا الموقف الطبقى بين طياته كل أسباب الانهيار فى الانضباط العسكرى الذى يعتبر أساس العمل والنظام السليمين داخل أية قوات مسلحة فى أى دولة فى العالم لا ترى لنفسها دورًا مخلصا سوى الأمن والدفاع عن الوطن فحسب !

أزمـة مـارس ٥٤

ولقد أدى تصاعد الصراع بين محمد نجيب ومجلس الثورة إلى انتشار إشاعة عن استقالة محمد نجيب الذى كان يتمتع بشعبية كبيرة بين ضباط الجيش باعتباره أحد أبطال ٤٨ ،

---

(١) لم يزد عدد الضباط الملقبين بالأحرار عن ٩٠ ضابطا ، سرعان ما كونوا لهم أتباعا متميزين لم يشتركوا قط فى الثورة فى بدايتها !



اللواء محمد نجيب

وكذلك بين جموع الشعب الذين اعتبروه رمز الثورة من بدايتها . خاصة وأنه هو الذى ظهر أمام الشعب بأنه الذى أجبر الملك فاروق على التنازل عن العرش .

وفى يوم ٢٦ فبراير ٥٤ أصدر مجلس الثورة بيانا مقتضبا بقبول استقالة محمد نجيب وعودة مجلس الثورة إلى صفوف القوات المسلحة وتسليم السلطة للأحزاب .

هنا بدا القلق على الجميع نتيجة لهذا الموقف المتردى ! فطلب الضباط الأحرار الاجتماع بمدير السلاح . . وعندما التقى بهم فى الميس الأخضر بمبنى الفرسان بعد الظهر ، حضر جمال عبد الناصر مع حسين الشافعى ليوضحا أسباب قبول استقالة محمد نجيب . غير أن ضباط الفرسان طالبوا ببقاء محمد نجيب رئيسًا للجمهورية دون سلطات كرمز للثورة على أن تعاد الحياة النيابية فى أقرب وقت مستطاع . . وبدا للجميع أن عبد الناصر كان موافقًا على ذلك . . وعندما انصرف مع مدير السلاح بقيت فى الميس مجموعة من الضباط فى انتظار رد نهائى مع صباح اليوم التالى .

وعندما عدت إلى منزلنا فى المساء كنت موزع الفكر والخاطر إلى حد بعيد ! وفى صباح اليوم التالى عندما توجهت إلى السلاح لاحظت تحرشا يحدث من بعض الضباط « الأحرار » من



البكباشى جمال عبد الناصر

الأسلحة الأخرى بضباط السلاح . كما سمعنا أن السلاح محاصر فى كوبرى القبة وكذلك وحدات الدبابات على طريق السويس .

المعروف يقينا أنه لم يدر بخلد أحد من ضباط سلاح الفرسان احتمال استخدام القوة على الإطلاق . . غير أن بعض الضباط « الأحرار » فى الآلاى الثالث دبابات الذى يقوده طلعت قاموا بتجهيز دباباتهم للتحرك بالفعل عندما سمعوا بحصار إدارة سلاح الفرسان . وهنا وقف طلعت وسطهم واتخذ موقفًا حاسمًا قائلاً « لن أسمح بتحرك دبابة واحدة إلا فوق جثتى » !

والحمد لله بعد قليل انتهت الأزمة ، وقامت مظاهرات شعبية وطلابية كبيرة ابتهاجا بعودة محمد نجيب رئيسًا للجمهورية مرة أخرى ، غير أنه حدث أن اندست فى المظاهرات بعض جماعات الإخوان المسلمين فوقعت بعض حوادث العنف .

سداد الحساب

لم يكن ما حدث خلال هذه الأزمة ليمر ببساطة دون اتخاذ إجراء من مجلس الثورة . فترك للصاغ (المشير) عبد الحكيم عامر أن يتخذ التصرف اللازم حيال ضباط السلاح « أحرارا كانوا أم غير أحرار » ! وخاصة هؤلاء الذين دخلوا فى مناقشات ساخنة مع شخص جمال عبد الناصر يوم الاجتماع .

لذلك نادانى بعد بضعة أيام أركان حرب السلاح الذى تعين بعد ثروت عكاشة (وهو القائمقام أحمد صبرى كمال) وكلفنى بالتوجه إلى إدارة شئون الضباط (كاتم أسرار حربية فى ذلك الوقت) لإحضار بعض الخطابات السرية . ولدهشتى وجدتنى منقولاً إلى مصلحة السجون مع نقل ٣٤ ضابطًا آخرين خارج السلاح . اعتقل منهم ٢٦ بتهمة محاولة قلب نظام الحكم ، وكنت الوحيد الذى نقل إلى مصلحة السجون ، ثم من مصلحة السجون إلى معهد الضباط العظام ثم منها إلى إدارة الحرب البرية / الجوية . وتم كل ذلك فى فترة لا تتجاوز ثلاثة أشهر ، وظللت أعانى حالة من القلق وعدم الاستقرار إلى أن تقدمت لامتحان كلية أركان حرب ، وكنت من بين الناجحين .

وعند تركى لإدارة الحرب البرية الجوية بعد بضعة شهور عائدًا للسلاح كما تقضى التعليمات بذلك قبل دخول الكلية ، سلمنى مديرها (العميد أ.ح أمين سامى سفيرنا فى الخارجية فيما بعد) تقريرًا شاملاً كتب عن كافة نواحى نشاطى وعملى وخلقى وتصرفاتى خلال الشهور السابقة التى قضيتها بالإدارة ، الأمر الذى يعنى أنى كنت تحت رقابة شديدة طيلة هذه المدة . فلما استفسرت عن قصة هذا التقرير علمت أنى كنت متهمًا بالشيوعية نتيجة وشاية غير حقيقية عن اتصالى بالصحفى الشيوعى (سعد التائه)[1] . ولقد عرفت فيما بعد أن الذى وشى بى هو « زميل » سلاح من أهل الثقة ، كوفئ بعد ذلك على خدماته للثورة بتعيينه مساعدًا للملحق العسكرى فى إحدى الدول الكبرى ، سامحه الله وغفر له فقد توفى إلى رحمة مولاه !

وبقدر ما كان التقرير وملابساته وليد الصدفة ، وأريد من ورائه إلحاق الأذى بى ، بقدر ما أفادتنى هذه الواقعة فيما بعد . . فبعد أكثر من عشرين عاما كنت أجتاز لأول مرة باب المخابرات العامة وقد عينت رئيسًا لها بعد حرب ٧٣ ، فوقع بصرى على الآية الكريمة عند المدخل الرئيسى : **﴿ يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾** ، وتذكرت الواقعة القديمة **فآليت على نفسى ألا أرفع تقريرًا عن إنسان إلا أن يكون صادقًا . فلا آخذ بشبهة أو شائعة** ، إلا أن تكون الشائعة فيما يتعلق بتوجيهات الرأى العام ولا تدور عن أشخاص بعينهم . . وكان لهذا الأسلوب مصداقيته الخاصة لدى رئيس الدولة ولدى الشعب وأجهزة الدولة الأمر الذى لنا معه عودة !

---

(١) كان عدد من الصحفيين يتردد على رئاسة السلاح من بينهم سعد التائه لمقابلة ثروت عكاشة أركان حرب السلاح وكان من الطبيعى أن ينتظر فى مكتبى إذ تصادف أنه كان زميل دراسة .

اتفاقية جلاء البريطانيين

كان من أهم أهداف الثورة تحرير الوطن من الاستعمار . ولذلك دخل مجلس الثورة فى مفاوضات طويلة مع الجانب البريطانى إلى أن تم توقيع اتفاقية الجلاء فى ١٩ أكتوبر ٥٤ ، ولكن بعد نضال ومقاومة سرية طويلة ليست هذه المذكرات مجالها . ولقد أدت هذه الاتفاقية إلى رفع شأن جمال عبد الناصر أمام جماهير الشعب بعد أن هدأ الصراع بينه وبين محمد نجيب .

وهناك من يقول معلقا لو أن عبد الناصر لم يحفل تاريخ حياته كلها بعمل آخر غير هذا العمل ، أى إجلاء الإنجليز عن البلاد بعد أن حكموها لثمانية وسبعين عاما أذاقوا فيها شعبها المر والهوان ، لكان هذا العمل وحده كافيا لأن يجعل منه بطلاً يسجله التاريخ على رأس قائمة أبطال مصر ، ولكن عبد الناصر كان يبدو كما لو كانت لديه تطلعات قومية أخرى لا تتسع لها أرض مصر وحدها ، فأثار ذلك عليه العالمين العربى والغربى على حد سواء [1] .

---

(١) فى العامين ، بين تاريخ توقيع اتفاقية جلاء الإنجليز عن مصر فى أكتوبر ٥٤ وبين اشتراكهم فى العدوان الثلاثى فى أكتوبر ٥٦ ، حدثت أحداث كثيرة أرى استكمالا للناحية التاريخية أن أوجزها فيما يلى :
زاد من إعجاب الجماهير بعبد الناصر وتعاطفهم معه حادث محاولة قتله فى ميدان المنشية بالإسكندرية عندما أطلق محمود عبد اللطيف عضو الإخوان المسلمين عليه ٦ رصاصات لم تصبه ، ولكنه ظل يخطب متماسكا فى حشد الجماهير التى ذعرت بينما كانت الإذاعة تنقل أحداث الاجتماع على الهواء ، لذلك استقبلت جماهير القاهرة عبد الناصر عند عودته فى اليوم التالى استقبال الأبطال .
كان من نتيجة هذا الحادث اعتقال زعماء الأخوان المسلمين وعدد كبير من أعضائها وخاصة أعضاء التنظيم السرى ، وقد صودرت كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر وحوكموا أمام محكمة خاصة مشكلة من أعضاء مجلس الثورة سميت « محكمة الشعب » وحكم بالإعدام على سبعة ، وخفف الحكم على الهضيبى زعيمهم ليكون السجن مدى الحياة ، ونحى محمد نجيب من منصبه فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ ، واستمر جمال عبد الناصر فى رئاسة الوزارة إلى أن أجرى الاستفتاء على الدستور الدائم عام ١٩٥٦ ، ثم انتخبه مجلس الشعب رئيسًا للجمهورية فى ديسمبر ١٩٥٦ .
والواقع أن جمال عبد الناصر كان قد سيطر تماما على مسار الثورة قبل انتخابه ، بعد أن سيطر على كل أجهزة الإعلام والإذاعة ووزارة الخارجية والداخلية والقوات المسلحة والمخابرات العامة ، بل سيطر كذلك على العمال من خلال زميليه الطحاوى وأحمد طعيمة اللذين توليا هيئة التحرير التى شكلت بعد الثورة والتى كانت بمثابة حزب سياسى عام .

الباب السادس

ثلاث دول تتفق سرًا وتعتدي علينا! ١٩٥٦

الفصل التاسع عشر
المهرجان الدموى

الحقيقة أنه يجب أن أعترف بأن الاحساس الذى يغمرنى اليوم عندما أنقب فى تاريخ أحداث الخمسينيات التى جعلت مصر تستعيد قناتها المسلوبة وسط مهرجان دموى عالمى ، يكاد يكون هو نفسه شعور الباحث المنقب فى تاريخ الكائنات المنقرضة ، رغم أنى عندما أتذكر حقبة الخمسينيات أشعر وكأنها مرت من تحت بصرى بالأمس فقط !

وأبسط البراهين التى أدلل بها على هذا الشعور ، أن مؤرخ حقبة الخمسينيات الآن يجد نفسه يتعامل مع كائنات أو كيانات إن لم تكن قد انقرضت تماما فهى على الأقل فى طريقها إلى التغير والزوال . .

فى الخمسينيات نحن نتكلم مثلا عن دور الاتحاد السوفييتى فى منطقة الشرق الأوسط ، فى وقت لم ينته فيه دور الاتحاد السوفييتى فحسب بل انتهى كذلك كيانه الكلى !

ولا شك أن أمريكا « بوش » اليوم تختلف كثيرًا عن أمريكا « دالاس » فى تلك الفترة ، إن لم يكن فى الأهداف والمرامى فعلى الأقل فى الأسلوب والسياسة .

وبالطبع هذا ، الأمر ينطبق تمام الانطباق على بريطانيا « ميجور » والتى تختلف كل الاختلاف عن بريطانيا « إيدن » التى كانت تتشبث بمستعمراتها التى لا تغيب عنها الشمس . . وفرنسا « جى موليه » التى كانت تعتبر الجزائر قطعة لا تتجزأ من إقليم فرنسا لدرجة أنها اشتركت بهذا المفهوم فى العدوان الثلاثى فى عام ١٩٥٦ لتضرب ثورة الجزائر فى القاهرة على حد قولهم ، لاشك أنها قد تغيرت تماما فى عهد ديجول ثم فى عهد « ميتران » من بعده .

وبالطبع ، الشيء نفسه ينطبق علينا أيضًا فى مصر ! فمصر بعد المتغيرات الدولية الجديدة تختلف تمامًا عن مصر التى كان يتكلم عنها « مايلز كوبلان » فى كتابه الشهير « لعبة الأمم » ، هذا الكتاب الذى مازالت عبارة واحدة فيه عن أزمة السويس ، تستوقفنى كلما طافت بذهنى . . يقول مايلز : « حدث قبل أسبوع واحد من بدء أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦ ، أن استشارنى يومها نائب رئيس المخابرات المركزية فيما إذا كنت أتوقع أن يقوم ناصر بتأميم قناة السويس إذا أقدمت الولايات المتحدة على سحب عرض تمويلها لبناء السد العالى . . » ويستطرد ما يلز قائلا : « وأجبت يومها أننى قد قمت بتأميم قناة السويس منذ بضعة أشهر استنادًا إلى دور ناصر الذى كنت أمارسه فى جهاز اللعبة(١) » ! والمعنى واضح . فيريد مايلز كوبلاند أن يقول إن المخابرات الأمريكية كانت على يقين من أن رد فعل عبد الناصر سيكون تأميم القناة لا محالة (بل إنه تأخر فى تأميمها حتى ذلك الوقت) . **وإنى أتساءل اليوم : هل أمريكا « دالاس » كانت ترغب فى أن تتلاحق الأحداث الساخنة بمثل هذه السرعة الهائلة فى طريقها نحو الهوة العميقة التى تردت فيها إنجلترا إيدن وفرنسا جى موليه ، فيحدث بعد ذلك أن تتدخل أمريكا فى الوقت المناسب لترث منطقة الشرق الأوسط ومن عليها ؟ !**

ولكنى أعود فأتساءل : ولكن هل كانت الولايات المتحدة فى حاجة فى ذلك الوقت إلى افتعال كل هذه الأحداث الدرامية لكى تزيح إنجلترا عن هذا الميدان الملتهب فى الوقت الذى قامت فيه إنجلترا نفسها طواعية فى عام ١٩٤٧ بإرسال رسالة سرية إلى الولايات المتحدة عن طريق سفارتها فى واشنطن تدعوها فيها إلى سد الفراغ فى الشرق الأوسط ، ومقاومة المد الشيوعى فى كل من تركيا واليونان بعد أن اعتزمت بريطانيا إنهاء وصايتها (التى دامت ما لا يقل عن قرن من الزمان) على بعض أرجاء العالم ؟! والمعلومة هنا مازالت منقولة عن مايلز كوبلاند فى « لعبة الأمم » .

الضغـوط الجـديدة

ولقد كان من المفروض بعد إبرام اتفاقية الجلاء مع إنجلترا وخلاص البلاد من المستعمر الذى جثم على صدرها ثلاثة أرباع القرن ، أن تتفرغ الثورة للتنمية وترتيب البيت من الداخل .

---

(١) يقصد بلعبة الأمم ، بحوث العمليات أو المباريات التى تجريها بعض الأجهزة السياسية كالمخابرات والخارجية والقوات المسلحة فى المواقف والأحداث المختلفة لمعرفة ردود الأفعال أو الحلول للمشاكل قبل حدوثها ، وكان ميلز كوبلاند يمثل شخصية عبد الناصر فى هذه البحوث ويتصرف طبقًا لشخصية واتجاهات عبد الناصر .

ولكن يبدو أن الدور الذى كان يبحث عن ممثل فى شخص عبد الناصر كان دورًا ساخنًا عنيفًا مليئًا بكل أنواع الضغوط الخارجية والداخلية معًا .

وللأسف يبدو أن عبد الناصر كان سيئ الحظ ، لأنه بعث فى عهد الديناصورات العالمية غير المستأنسة . .

فبعد جلاء الإنجليز كان متوقعًا لمصر أن تصبح أشبه بمنطقة تخلخل داخل منخفض جوى متوقع أن تهب نحوه الرياح من مختلف الجهات لتملأ الفراغ الذى نشأ فيها ، **فالطبيعة لا تعرف الفراغ فى الجغرافيا أو فى السياسة** . . كانت فكرة انضمام مصر (والأردن) إلى حلف بغداد المكون من العراق وتركيا وباكستان تتسلط فى جنون على عقلية السياسيين الأمريكيين . . ولكن مصر التى تخلصت لتوها من الاستعمار البريطانى كانت تفضل ملء هذا الفراغ ذاتيًا ومن داخل المنطقة بواسطة ميثاق دفاع محلى كميثاق الجامعة العربية .

وفى الحقيقة ، لقد بذل عبد الناصر كل جهده للاحتفاظ بعلاقة صداقة مع الولايات المتحدة ، كما حاول لمدة عامين ونصف العام بعد الثورة أن يحصل منها على بعض الأسلحة ، إلا أن كل محاولاته ذهبت أدراج الرياح .

والغريب أن الولايات المتحدة وافقت وقتذاك على إرسال شحنة من الأسلحة فى حدود ٢٧ مليون دولار وتم شحنها بالفعل ، ثم كلفت لجنة استلام عسكرية مصرية برئاسة حسين الشافعى (كان من بينها شقيقى طلعت) ، إلا أن البعثة عندما وصلت واشنطن علمت بأن الشحنة قد أعيد إفراغها من السفن مرة أخرى ! هذا فى الوقت الذى كانت الأسلحة تتدفق فيه على إسرائيل من كل من إنجلترا وفرنسا برغم صدور تصريح ثلاثى بعدم توريد أى سلاح إلى منطقة الشرق الأوسط سواء للدول العربية أو لإسرائيل !

كانت إنجلترا قد ضايقها رفضنا ومقاومتنا لحلف بغداد . كما كانت فرنسا يؤرقها مساعدتنا للثوار فى الجزائر ، خاصة بعد أن أعلنت ساعة الصفر لثورة الجزائر فى أول نوفمبر ١٩٥٤ من إذاعة صوت العرب فى القاهرة !

عـورة ماكس بنـت !

والذى حدث فى هذه الأثناء أن بن جوريون خشى أن يحدث تقارب ناجح بين الولايات المتحدة ومصر ، فتفتق ذهنه عن إرسال مجموعة تخريبية إلى مصر تحت قيادة ضابط مخابرات إسرائيلى متخف تحت شخصية رجل أعمال بلجيكى ، وكان برتبة الصاغ (رائد) ويدعى ماكس بنت . ولقد نجح ماكس بنت فى تجنيد مجموعة من اليونانيين والأجانب للقيام بهذه

الأعمال التى هدفت إلى إظهار أن مصر ليست ذات استقرار داخلى وأن الثورة عاجزة عن فرض حمايتها على المصالح والمنشآت الأمريكية ، لذلك بدأت تحدث بعض الحرائق غير المعروف مصدرها داخل دور السينما وفى مكتب الاستعلامات الأمريكية وغيرها . . وقبل ذلك حدثت ظاهرة مساس بالأمن مقلقة للغاية ، إذ بدأت الصحف تتحدث عن مجنون يقتل كل بضعة أيام إحدى السيدات فى دور السينما المكشوفة بواسطة بندقية بعيدة المدى يصوبها من أحد المبانى القريبة المشرفة على دار العرض . .

ولكن قبل أن يختل الأمن وتنجح الخطة الإسرائيلية (التى يقال إنها كانت من تخطيط بن جوريون شخصيا . رغم أنه كان بعيدا عن الوزارة فى ذلك الوقت ، مما ألصق التهمة خطأ ببنحاس لافون وزير الدفاع ، وسميت الواقعة بفضيحة لافون) تم اكتشاف الشبكة المخربة بواسطة المباحث المصرية ، وتم القبض عليها هى وزعيمها ضابط المخابرات الإسرائيلى الذى حاول فى بادئ الأمر أن يتنصل من كل شىء ويحتمى بجواز سفره البلجيكى المزور ، لولا أن ضابط المباحث المصرى الذى دهمه فى شقته عاريًا تمامًا عند خروجه من الحمام إلا من فوطة وجه يستر بها عورته . . واكتشف عندما أسقط الفوطة وبانت عورته أنه يهودى الجنسية ، وهنا انتهى كل شىء واعترف ماكس . . ثم رحل إلى السجن ولكنه غافل الحراس وانتحر هناك ! وهكذا لعبت عورة هذا الضابط دورًا فى تاريخ العلاقات الإسرائيلية العربية ، يكمل دور عورة نوح التى بدأت بها هذه العلاقات منذ عدة قرون !

إغـارات إسـرائيليـة

وفى ٢٥ فبراير ١٩٥٥ تم توقيع الحلف بين تركيا والعراق . وفى ٢٨ فبراير ١٩٥٥ أغارت قوات الجيش الإسرائيلى على أحد المعسكرات المصرية بالقرب من مدينة غزة . وكان ذلك بعد تولى بن جوريون حكومة إسرائيل بثلاثة أيام فقط .

وتم الاتصال مرة أخرى بالولايات المتحدة الأمريكية للحصول على سلاح للدفاع دون جدوى ، مما زاد من تركيز الأعمال الفدائية والتخريبية داخل أراضى إسرائيل . وفى ٣١ أغسطس ٥٥ قام الجيش الإسرائيلى بمهاجمة مركز البوليس فى خان يونس بقطاع غزة ، ثم قامت إسرائيل فى ٢٠ سبتمبر ١٩٥٥ باحتلال المنطقة المحايدة بين مصر وإسرائيل وهى منطقة العوجة ، مما دعا مصر إلى توقيع أول صفقة سلاح بمبلغ ستين مليون دولار مع تشيكوسلوفاكيا على أسس تجارية لتصل فى أكتوبر من العام نفسه .

وبالرغم من اتجاه مصر إلى اتخاذ سياسة متوازنة بين الشرق والغرب ، إلا أن ذلك لم يقنع

الغرب على الإطلاق . . كذلك لم يكن موقف الغرب ليقنع مصر بالرضوخ لتهديدات «كيرمنت روزفلت » مبعوث الولايات المتحدة الأمريكية ، أو لوساطة « ألان » وكيل وزارة الخارجية الأمريكية عند زيارتها لمصر فى ذاك الوقت .

وهنا بدأت الحرب الباردة . . وبدأت مصر تستعد لتأمين الثورة داخليًا من القوى المضادة كالوفد والإخوان المسلمين وقدامى الإقطاعيين الذين نزعت ملكية معظم أراضيهم .

وتلا ذلك غارة أخرى من إسرائيل على سوريا فى ١١ ديسمبر ١٩٥٥ ، لإقناعها بأن أمنها لا يضمنه اتفاق الدفاع المشترك الذى وقعته مع مصر فى أكتوبر من العام نفسه .

دفع الدول العربية إلى أحضان السوفييت

كان موقف الغرب كما لو كان يدفع مصر وسوريا دفعًا إلى الشرق . بل وتمادت الولايات المتحدة فى استفزازها ، فسحبت تمويل السد العالى (١٥ مليون دولار) الذى كانت مصر قد قررت إقامته كمشروع اقتصادى هام . كما انسحبت إنجلترا أيضا معها ، فما كان من جمال عبد الناصر إلا أن أعلن تأميم قناة السويس لبناء السد العالى .

كان وصول الأسلحة الروسية إلى مصر إيذانا بسباق تسلح رهيب بين العرب وإسرائيل . فبمجرد وصول هذه الأسلحة ، أعيد تنظيم القوات المسلحة وتسلحت مجموعتان مدرعتان بالدبابات ت ـ ٣٤ ، كما تسلمت القوات الجوية طائرات ميج ١٧ و إليوشن ٢١ .

وفى المدرعات لم نكن سعداء تمامًا بالدبابات ت ـ ٣٤ ، إذ كانت دبابات مستعملة منذ الحرب العالمية الثانية ، كثيرة الأعطال ، وتطلبت جهودًا كبيرة فى الإصلاح والحفاظ على الصلاحية الفنية لها .

أما فى كلية أركان الحرب التى كنت أدرس بها فى ذلك الوقت ، فكان نتيجة ضغوط الغرب على مصر ، أن قررت القيادة العامة للقوات المسلحة ضغط برنامج الدراسة بالكلية من سنتين إلى سنة واحدة .

ورغم أنها كانت سنة شاقة ، إلا أنها كانت مثمرة للغاية ، وانتهت الدراسة فى نهاية أغسطس ١٩٥٦ . وعدت إلى إدارة سلاح الفرسان الذى كان قد تغير اسمه إلى سلاح المدرعات .

ولم ألبث أكثر من شهر واحد حتى كان الضغط الغربى نتيجة لتأميم قناة السويس قد وصل إلى منتهاه . فقد بدأت كل من إنجلترا وفرنسا فى التحرك عسكريًا ، كما انسحب

المرشدون البحريون الأجانب من شركة قناة السويس بعد تأميمها من أجل شل حركة الملاحة فى القناة لإيجاد ذريعة للتدخل للحفاظ على هذا الشريان الحيوى .

إلا أن المرشدين المصريين والإدارة المصرية الجديدة لم تدخر وسعا فى سبيل انتظام الملاحة على أكمل وجه رغم الزيادة المتعمدة فى عبور السفن خلال هذه الفترة .

وعلى المستوى الدولى حاول دالاس وزير خارجية أمريكا إضفاء الصفة الدولية على قناة السويس ، متناسيا الحق القانونى لمصر فى تأميم هذه المؤسسة ، رغم عرضها وقبولها مبدأ تعويض المساهمين وتشكيل مجلس استشارى للقناة من الدول المستخدمة لها للتشاور مع الهيئة المصرية فى كل ما يهم من تحديد رسوم العبور ومشروعات تحسين وتطوير القناة وضمان حرية الملاحة .

واقترحت إنجلترا على همرشولد (سكرتير عام الأمم المتحدة) مبادئ ستة ، منها احترام السيادة المصرية وأن يكون تشغيل القناة مستقلاً وبعيدًا عن سياسة أى دولة مع المساواة فى حرية المرور وأن يكون تحديد الرسوم بالتفاوض مع مستخدمى القناة وأن يخصص جزء من دخل القناة لتطويرها وتحسينها وأن تقبل مصر ومساهمو القناة التحكيم فى أى نقاط خلاف .

وبالرغم من موافقة مجلس الأمن على ذلك الاقتراح يوم ٥ أكتوبر ٥٦ وتصويت ١١ دولة بالموافقة عليه ، إلا أن إنجلترا تقدمت مرة أخرى باقتراح آخر سبق أن رفضته مصر .

وهنا استخدمت روسيا حق الفيتو ، ولم تكن هذه المناورة سوى الذريعة من وجهة نظر كل من إنجلترا وفرنسا أمام الرأى العام العالمى لاستخدام القوة العسكرية .

كانت القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية قد شكلت قيادة للاحتياطى الإستراتيجى فى منطقة غرب القاهرة بقيادة مدير سلاح المدرعات اللواء عبد العزيز مصطفى ، وتولى العقيد عبد المحسن أبو النور أركان حرب العمليات رقم١ . وتوليت أنا أركان حرب العمليات رقم٢ .

وكان من بين التقديرات احتمال أن تقوم إنجلترا (وكانت قد سحبت باقى قواتها من مصر نهائيًا طبقًا لاتفاقية الجلاء) بالهجوم من اتجاه الغرب . بل توافرت بعض المعلومات عن وصول ٢٠٠ ناقلة دبابات بريطانية إلى بنى غازى فى ليبيا .

ولم يكن ذلك أكثر من عملية خداع لتشتيت القوات المسلحة شرقًا وغربًا تخفيفًا للمقاومة التى تلقاها إسرائيل فى سيناء . وبقيت هذه القوات فى غرب القاهرة إلى أن أمرت بالتحرك فى اتجاه قناة السويس قبل بدء العمليات بعدة أيام ، عادت بعدها إدارة المدرعات بقائدها وضباطها مرة أخرى إلى مقرها فى كوبرى القبة . وكان كل ذلك يجرى بينما كانت المؤامرة تدبر فى الخفاء بين المعتدين الثلاثة !

الفصل العشرون

المؤامــرة

فى مساء يوم الاثنين الموافق ٢٩ أكتوبر كنت أجلس فى مكتبى بنادى ليتوريو الإيطالى بشارع الهرم أراجع بعض البرقيات والخطابات الرسمية ، وكانت موسيقى الفلامانكو الأسبانية التى أعشقها تصل إيقاعاتها الجميلة الواضحة إلى أذنى من نافذة الغرفة التى أستطيع أن ألمح من خلالها الراقص العالمى المشهور ألفريدو ألاريا وهو يؤدى إحدى رقصاته الثائرة السريعة داخل ملهى أوبرج الأهرام الشهير المجاور للنادى الذى كانت قوات الاحتياط الإستراتيجى قد احتلته ليصبح مركزًا لقيادة هذه القوات .

كان كل شىء يوحى فى هذا اليوم بأنه يوم لن يختلف فى هدوئه عن الأيام السابقة ، بل على العكس تمامًا ، كانت كل الظواهر تؤكد أن شبح الحرب قد وهن تمامًا وأنه فى طريقه إلى الاختفاء والزوال ، خاصة وأن هذا اليوم كان هو التاريخ المحدد للمباحثات السلمية بين وزراء خارجية الدول الثلاث مصر وفرنسا بريطانيا ، وكان الدكتور محمود فوزى قد توجه فى طريقه إلى مقر الاجتماع فى جنيف بسويسرا دون أن يعلم أن هذا اليوم هو الذى حدده المتآمرون الثلاثة لبدء العدوان على مصر .

الذريعــة

وفى تلك الليلة ووسط وجوم غريب ، جاءتنا الأنباء بأن إسرائيل أسقطت قوة من المظلات فى سدر الحيطان فى المدخل الشرقى لمر متلا . . إنها ليست غارة إسرائيلية كسابقاتها على حدود مصر فى سيناء ، ولكنها عملية فى عمق سيناء . على بعد أكثر من ١٠٠ كيلو متر من الحدود ! إذن فهى الحرب مرة أخرى بيننا وبين إسرائيل ! **ولكن كان من المستحيل أن يتبادر إلى**

ذهن أى إنسان عاقل أن هذه العملية المحدودة فى سيناء هى مجرد مقدمة لعدوان ثلاثى كبير ستشترك فيه بريطانيا وفرنسا بقوات جوية وبحرية وبرية ضخمة تبلغ قوة مدرعاتها وحدها نحو خمسمائة دبابة ، بخلاف القوات الإسرائيلية التى فتحت لها فرنسا مخازن الأسلحة على مصراعيها .

لقد مر منذ أن أعلن عبد الناصر صيحته بتأميم القناة يوم ٢٦ يوليو فى ميدان التحرير بالإسكندرية ما يزيد الآن على ثلاثة شهور دارت فيها القناة بالمرشدين المصريين والمتطوعين الأجانب على أفضل ما تكون الإدارة . . وكاد العالم أن ينسى كل الصخب والضجيج الذى افتعلته بريطانيا وفرنسا فى الأيام الأولى من الأزمة . .

ولذلك اعتقدت القيادة المصرية أن ما يجرى فى سيناء الآن ، سوف يقتصر على إسرائيل وحدها بسبب ما تدعيه من أنها حرب هدفها التخلص من قواعد الفدائيين فى سيناء ، ولم يدر بخلدها أن ما دفعته إسرائيل من قوة إلى سيناء كان مجرد الطعم الذى يلقى به الصياد ليغرر بالفريسة ، وهكذا أمر عبد الحكيم عامر بدفع القوات المدرعة والميكانيكية والمشاة (١) القوة تلو الأخرى إلى سيناء للقضاء بسرعة على قوة المظلات ولصد أى هجوم آخر ، دون أن يدرى ما تخبئه له الدولتان الكبيرتان من شر أعظم فى اليوم التالى مباشرة . . ودون أن تدرى هذه القوات نفسها أن أمرًا بالانسحاب سوف يصدر لها فى اليوم التالى لتندفع من سيناء إلى غرب القناة لكى تتعرض إلى وابل من القنابل والنابالم تقذف بها فوق رءوسهم مئات الطائرات الفرنسية والبريطانية والإسرائيلية ، وهى تعبر المضايق ثم القناة دون أية مظلة جوية تحميها ضد هذا الهجوم .

الخلاف حول الذريعة

وقد يعتقد البعض أن التخطيط للمؤامرة بين فرسانها الثلاثة سار بطريقة سهلة طبيعية ، ولكن من يطلع على عشرات المراجع التى تصدت لفضح هذه المؤامرة يجد أن كل مرحلة من مراحل التخطيط لها كانت محل خلاف كبير بين الشركاء وبالذات بين إنجلترا وإسرائيل .

ويقول موشى ديان فى هذا الصدد فى « قصة حياته » « كانت بريطانيا تريد منا أن نقوم بدور « الوغد » أو أن نكون كبش الفداء دون حتى أن نجتمع معهم لنناقش الأمر سويا » . .

---

(١) كانت القوات عبارة عن مجموعتين . المجموعة الأولى المدرعة بقيادة عقيد أ. ح طلعت حسن على ، والمجموعة الثانية المدرعة بقيادة العقيد إبراهيم الموجى . كما كان من بينها اللواء المشاة الأول بقيادة العقيد أحمد إسماعيل (وزير الدفاع فى حرب ٧٣) .

وعندما قبلت إنجلترا أن يجتمع وزير خارجيتها سلوين لويد مع بن جوريون وكريستيان بينو وزير خارجية فرنسا ، قال لهم فى صراحة واضحة إننا نرفض أن تقوم إسرائيل بدور المعتدى بينما تقوم إنجلترا وفرنسا بدور ملائكة السلام . ذلك لأن إنجلترا فى مرحلة مبكرة من المؤامرة حرصت أن يقتصر دورها على احتلال القناة وحمايتها « للدفاع عن مصر » وفقًا لبنود معاهدة الجلاء التى أبرمت فى عام ١٩٥٥ والتى شاء القدر ألا تخرج أبدًا إلى النور ! ومن بين الخلافات التى حدثت احتجاج إسرائيل على بدء العدوان وحدها فى الأيام الأولى ، مما قد يعرض مدنها للضرب بالقنابل من القاذفات المصرية ، وهو الأمر الذى عالجته فرنسا بقبولها إرسال عدد من طائراتها الميستير لتتمركز فى مطارات إسرائيل للتصدى لأى طائرات معادية مغيرة . ولما أصر الشركاء على ضرورة أن تقوم إسرائيل بدور الذريعة ، عالج ديان الموقف بقبوله أن يجعل العدوان الإسرائيلى يقتصر فى الساعات الأولى على مجرد القيام بمناوشات محدودة بالقرب من قناة السويس وعلى الحدود وتأخير الزج بالقوات الرئيسية حتى يصدر الإنذار البريطانى الفرنسى ويبدأ الضرب الفعلى للمطارات المصرية بالقنابل . .

وهكذا بدأ العدوان بإنزال قوات محدودة (كتيبة) فى سدر الحيطان شرق ممر متلا [1] كما أصدر ديان تعلیماته بعدم استخدام المدرعات والدخول فى معارك رئيسية قبل يوم ٣١/ ١٠ عندما يتأكد موقف بريطانيا وفرنسا وتظهر ردود الفعل لتدخلهما فى المعركة . .

الوســائل والأهــدف

أما ميثاق العمل (أقصد ميثاق التواطؤ) الذى اتفقت عليه الأطراف الثلاثة فى الاجتماع الذى ضم وزراء خارجيتهم قبل أسبوع واحد من بدء العدوان فى قرية سيفر بضواحى باريس وكما نشره ديان على الملأ بعد ذلك فى كتابه ، فكان يتضمن الآتى :

١ ـ فى مساء يوم ٢٩ أكتوبر ٥٦ تقوم القوات الإسرائيلية بشن هجوم واسع النطاق على القوات المصرية بهدف الوصول إلى منطقة قناة السويس فى اليوم التالى .

٢ ـ عندما تعرف الحكومتان البريطانية والفرنسية بهذه التطورات ، فإنهما سوف توجهان يوم ٣٠ أكتوبر نداء إلى الحكومتين المصرية والإسرائيلية بالتوازى ، يتضمن المعانى التالية :

---

(١) صدر بيان عسكرى من إسرائيل بهذه المناسبة يقول « يعلن المتحدث بلسان جيش الدفاع الإسرائيلى أن قوات جيش الدفاع الإسرائيلى دخلت وأصابت وحدات الفدائيين فى رأس النقب والكونتيلا واحتلت مواقع غرب مراكز تقاطع طرق نخل للداخل من قناة السويس » .

(أ) وقف إطلاق النار كاملاً وسحب كل القوات المسلحة إلى ١٠ أميال بعيدًا عن قناة السويس !

(ب) قبول احتلال المواقع الرئيسية على القناة (بصفة مؤقتة) بواسطة قوات بريطانية فرنسية ، وذلك لضمان حرية المرور فى القناة لكل البواخر من كل الدول .

(جـ) إذا لم تستجب الحكومة المصرية إلى شرط النداء فى الموعد ، فإن القوات البريطانية والفرنسية سوف تقوم بالهجوم على القوات المصرية فى الساعات الأولى من صباح يوم الأربعاء ٣١ أكتوبر .

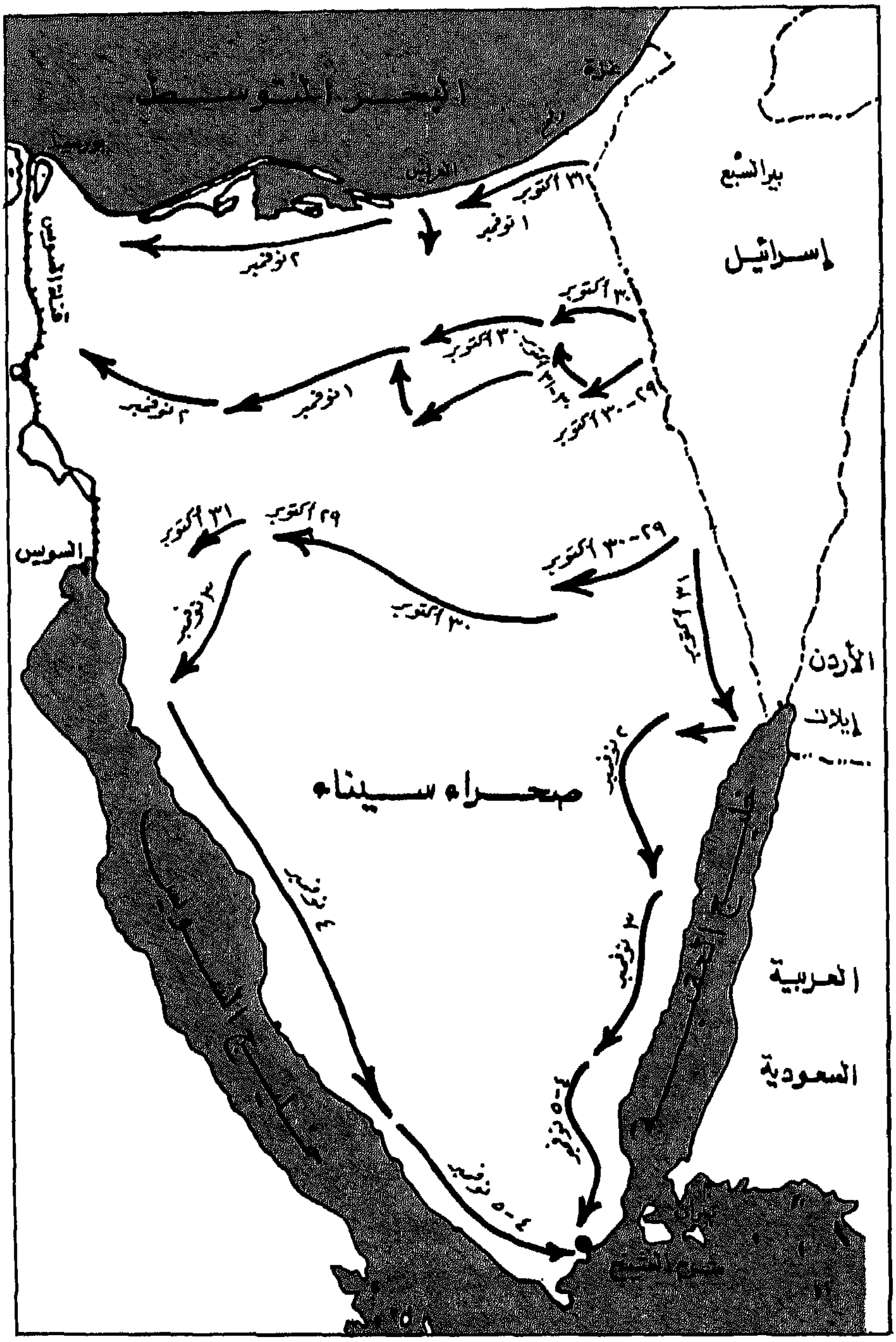
٣ ـ للحكومة الإسرائيلية أن تبعث بقواتها لاحتلال الشواطئ الغربية لخليج العقبة وجزيرة تيران وصنافير لكى تضمن حرية الملاحة فى الخليج .

وبالطبع سوف تقبل إسرائيل الإنذار وسوف ترفضه مصر ليعيد التاريخ مأساة نفارين (١) من جديد ، حيث قامت بريطانيا وفرنسا (ومعهما روسيا) بتحطيم الأسطول المصرى عام ١٨٢٧ . . ولكن فى هذه المرة سيهجم على مصر ثلاث دول تحشد معا أكثر من ١٠٠٠ طائرة و٧٠٠ دبابة وأسطولين كبيرين وقوات برية تتفوق فى العدد على القوات المصرية أربع مرات على الأقل . ويكفى أن أذكر هنا أن القوات البرية لإسرائيل وحدها التى هجمت بها على سيناء كانت أكثر من ٨ لواءات تحتوى على ٣١ كتيبة بين مشاة ومظلات ومدرعات (عدا كتائب المدفعية وأسلحة الدعم) . فى حين أن كل الكتائب المصرية التى كانت موجودة فى سيناء وواجهت هذا الهجوم وصمدت أمامه حتى جاءها أمر الانسحاب ، لم تزد عن ٨ كتائب فقط ظلت عارية تماما من الغطاء الجوى ، بعد أن نزع عنها طيرانها الذى ضربته الدولتان العظيمتان أول ما ضربت ، فأتاحت بذلك المجال لطيران إسرائيل أن يصول ويجول وحده فوق سماء سيناء !

ويقال إن خطة غزو مصر قد عرضت فى السر على أساطين الفكر العسكرى الذين كانوا أحياء فى ذلك الوقت (أمثال الفيلد مارشال مونتجمرى واللورد مونتباتن وغيرهما) ، والجميع توقعوا لمصر الاستسلام الفورى منذ الساعات الأولى ، ولاندهاش الجميع ، لم يحدث أن استسلمت مصر بل صمدت حتى آخر دقيقة من العدوان . وعندما تم الجلاء الكامل بعد

---

(١) المعركة البحرية التى دارت عام ١٨٢٧ ، ودمرت فيها الأساطيل البريطانية والفرنسية والروسية كلا من الأسطولين التركى والمصرى الذى بعث به محمد على لمعاونة الباب العالى فى حربه ضد اليونان . ونافارين تقع فى الجزء الجنوبى من اليونان المعروف بالبليبونيز .



الهجوم الإسرائيلي ـ الجولة العربية الإسرائيلية الثانية ـ خريف ١٩٥٦ م

المعركة استعادت مصر قناتها ، كما استعادت سيناء وقطاع غزة ! أى استعادت الأهداف الثلاثة التى كانت المطمع الأساسى للمعتدين .

الصمود على المستويين

وكان الصمود على المستويين الشعبى والعسكرى معا ، فالشعب الذى كان المعتدون يظنون أنه سوف ينقلب على عبد الناصر بمجرد ضرب مصر بالقنابل ، هاج وماج ضد المعتدين أنفسهم والتف حول عبد الناصر فى مزيد من التأييد العميق ، وضحت معالمه فى قوة عندما ذهب عبد الناصر ليؤدى صلاة الجمعة فى الأزهر الشريف فى يوم ٢ نوفمبر ، والمعتدون يدقون أبواب بورسعيد وقنابلهم تنهمر من كل جانب .

أما على المستوى العسكرى ، فإنى أكتفى بأن أذكر هنا مثالين لمعركتين دارتا فى سيناء ، يوضحان كيف كان نوع التعامل والهجوم الإسرائيلى على القوات المدافعة المصرية فى الساعات الأولى للمعركة قبل أن يصدر إليها أمر الانسحاب ، وكيف كان صمودها برغم ظروفها التكتيكية والنفسية الشاقة وهى تدافع فى أرض مكشوفة وتعرت من غطائها الجوى . . أما الذى يكتب وصف هاتين المعركتين فهو موسى ديان نفسه . .

قصة بطولة أبو عويجلة

لكى نستوعب حقيقة الدور البطولى للضابط وللجندى المصرى فى هذه المعركة ، على أن أذكر النقطتين التاليتين عن أسلوب القتال والتوجيهات التى أصدرها ديان عن كيفية التعامل مع القوات المصرية فى هذا العدوان .

١ ـ **النقطة الأولى** : افترض ديان أنه فى لحظة بداية الهجوم الأنجلو ـ فرنسى ، سيكف سلاح الطيران المصرى عن العمل ضد القوات الإسرائيلية ، وستؤمر وحدات الجيش المصرى بأن تنسحب من سيناء إلى داخل مصر ـ أما تلك القوات التى ستبقى فى مواقعها فإنه استنتج أنها ستفقد روحها المعنوية . لذلك فهو ينهى وحداته عن التعجل بالقيام بأى هجوم على القوات المصرية يمكن عمله بعد هجوم الإنجليز والفرنسيين ولايجوز عمله قبل ذلك (١) . وباختصار يطلب ديان من الوحدات المهاجمة ألا تهاجم القوات المصرية المدافعة إلا بعد أن تفقد دعمها الجوى وتصبح مكشوفة من السماء ، وكذلك بعد انهيار روحها المعنوية عندما

---

(١) راجع ص ٨٦ يوميات موسى ديان طبعة إدارة المطبوعات والنشر المترجمة ١٩٦٦ .

تعلم أنها انعزلت فى سيناء ، وأن دولتين كبيرتين تهاجمان سيناء من الخلف بينما يقع الهجوم الإسرائيلى فى الأمام .

فهل هناك حرب أسهل أو أنجح من هذه ظروفا ؟! ألا تنطبق عليها وصف « نزهة برية » التى أطلقها عليها أرسكين تشايلدز مؤلف كتاب الطريق إلى السويس ؟!

٢ ـ **النقطة الثانية** : هى إصرار ديان على استخدام أسلوب الاقتراب غير المباشر الذى خرجت به إسرائيل كثمرة ناضجة من حرب ٤٨ . فهو يكرر مرارًا وتكرارًا لجنوده ، أن هدف الحرب ليس الدخول فى معارك مواجهة مع العدو لقتله وتدميره ، وإنما يجب احتلال أهداف غير مدافع عنها فى الخلف بعمليات إبرار أو إسقاط جوى بجنود المظلات ، ثم على وحدات المشاة والمدرعات أن تندفع فى تقدم سريع إلى مؤخرته متجنبة مواقع العدو كلما أمكنها ذلك ثم تتركها فى جيوب معزولة وراء ظهرها ، ولا تلجأ إلى الهجوم بالمواجهة إلا عندما يصبح ذلك الهجوم أمرًا لا يمكن اجتنابه ! (١) .

التطبيـــق

يقول ديان فى يومياته يوم ٣١ أكتوبر « اصطدمت بالأمس صداما قاسيا مع قائد قيادة الجنوب الذى استخدم اللواء السابع المدرع قبل الموعد المحدد له ، بالرغم من الأوامر الصريحة التى تحدد أن المدرعات لن تبدأ فى العمل قبل يوم ٣١/ ١٠ (أى الموعد المحدد لتدخل القوات البريطانية الفرنسية وضرب السلاح الجوى المصرى) ، ولكن قائد قيادة الجنوب أصر على عدم إضاعة أى لحظة للانتفاع بالمفاجأة فور بداية العملية والتقدم لاحتلال كل ما يمكن احتلاله . لذلك قرر أن يستخدم فى اليوم الأول للمعركة كل ما فى يده ضاربا عرض الحائط بأوامر القيادة العامة والاعتبارات العسكرية السياسية (فهو غير متيقن من دخول الشريكين الأخيرين) ولا يجد مبررًا لعرقلة الهجوم لثمان وأربعين ساعة ، ولذلك بدلا من أن يقف مكتوف اليدين أمام مواقع « أم قطف » (فى أبو عويجلة) بعد وصوله إليها عن طريق القسيمة ، هاجم الموقع المصرى . . ولكن الهجوم صادف مقاومة شديدة ونيرانا دقيقة من المدافع المضادة للدبابات (كانت المدافع داخل مواقع محفورة فى الأرض) وهكذا فشل هذا اللواء فى احتلال موقع أم قطف . »

ويستطرد ديان قائلا : إن ما حدث لا يمكن التراجع عنه . لذلك ، سمح لقائد اللواء

---

(١) راجع ص ٢٣٩ « قصة حياتى » لموسى ديان ترجمة الهيئةالعامة للاستعلامات .

السابع أن يكرر هجومه ويهجم على المحور الأوسط ويقتحمه ويحتله . ولكن قائد اللواء كرر مرارًا أنه لا يستطيع احتلال « أم قطف » بقواته وحده دون أن يتكبد خسائر فادحة . عندئذ نصحه ديان أن يترك هذا الخط مؤقتا وأن يلتف حوله من الجنوب والغرب وأن يواصل التقدم إلى الغرب فى اتجاه السويس على المحورين الآخرين الموازيين (محور بير الحسنة ومحور جبل لبنى) إذ ليس من المحتمل أن كل المواقع المصرية سوف تقاومه ! وقال لقائد اللواء : لا تنس فى فجر الغد (٣١ أكتوبر) سوف تبدأ القوات الأنجلو الفرنسية فى قصف المطارات المصرية ! « ويجب أن نتوقع أن نحصل على هدفنا بأقل جهد بعد ذلك » .

ولكن الذى حدث بعد ذلك ، أن القوات المهاجمة الإسرائيلية فشلت ولم تنجح فى احتلال « أم قطف » إلا عندما انسحب الجنود وأخلوه بأمر قائدهم الذى أمرته قيادته بالانسحاب ، وعندما اقتحمته القوات الإسرائيلية المهاجمة وجدت الموقع خاليا !

بطولة ممر متلا

وما حدث فى أبو عويجلة تكرر فى ممر متلا . . إذ يقول ديان إنه أعطى أوامره أن يتشكل اللواء ٢٠٢ فى مكانه ولا يتقدم إلى الغرب لاحتلال ممر متلا . (يقصد أن يظل فى منطقة إسقاطه فى سدر الحيطان ولا يتقدم للقيام بأى هجوم قبل الموعد المحدد للهجوم البريطانى الفرنسى) . **ولكن حدث أن تأخرت الضربة الجوية البريطانية الفرنسية عن موعدها المحدد فى فجر يوم ٣١ ـ ولذلك عندما قابل ديان بن جوريون فى هذا اليوم وعلم بتأخر الهجوم الجوى «جزع بن جوريون جدا » لموقف القوات التى فى متلا ، وأراد أن يعيدها إلى إسرائيل أثناء الليل! (كذا!) (خشية أن يتراجع البريطانيون والفرنسيون عن تصميمهم)** .

ثم حدث بعد ذلك أن وصلت القوة الرئيسية للواء ٢٠٢ لتلحق بالكتيبة التى أسقطت وكانت قد تحركت بالمركبات من نخل . وأراد قائد اللواء أن يتقدم ويحتل المضيق ، ولكن أمرًا صريحًا من هيئة الأركان منعه من ذلك . ولكن استطاع قائد اللواء (وهو إيريل شارون) تحت حجة الاستطلاع أن يرسل قوة محدودة لاقتحام الممر ، ولكن فور دخولها إلى المضيق ، قابلتها نيران من التِّباب التى على جانبى الطريق . وحينما تعمقت الوحدة فى الدخول إلى الممر ازدادت عليها النيران وأصيبت العربات المدرعة نصف الجنزير وكذا الجالسون فيها . فأسرع قائد القوة لنجدتهم ولكن سقط هو الآخر فى المصيدة وأصبح غير قادر على التقدم أو الانسحاب . وقد نجح الجزء الأمامى من الوحدة فى التقدم ببطء إلى غربى المضيق ولكن سائر القوة ظلت مشلولة فى الوادى تحت النيران الثقيلة . بينما أخذت خسائرها فى الازدياد حتى بلغت ثمانية وثلاثين قتيلاً ومائة وعشرين جريحا ، أى نسبة تفوق خسائرها قبل ذلك بكثير !

والذى حدث بعد ذلك أن هذه القوة لم تحتل الممر إلا بعد أن صدر أمر الانسحاب إلى القوات المصرية المدافعة ، وعندما احتله الإسرائيليون وجدوه خاليا تمامًا !

ويعلق ديان على هذا الأمر قائلاً فى غيظ :

« إن هذا الاحتلال الدموى لمضيق حيطان فى ممر متلا ، كان من الممكن أن يكون له ما يبرره لو كانت مهمة اللواء هى الوصول إلى السويس . ولكن للأسف لم يأمرهم أحد بذلك لأن مهمتهم كانت الاتجاه إلى شرم الشيخ ! لقد هاجم هؤلاء الرجال المظليون ممر متلا على عكس أوامرى وكانت نتيجة عملياتهم هذه الخسائر الفادحة ! »

هذا ومن المعروف أن شارون [1] ظل مستقبله السياسى متأثرًا لفترة طويلة بهذه المأساة !

(١) وقد كرر شارون الخطأ نفسه وهو وزير دفاع إسرائيل عام ٨٢ باندفاعه فى عمق لبنان حتى حاصر بيروت .

الفصل الواحد والعشرون

فى أعقاب حرب السويس

بانتهاء حرب السويس تم انسحاب القوات الإنجليزية الفرنسية من منطقة بورسعيد يوم ٢٣ ديسمبر ، كما انسحبت القوات الإسرائيلية بعد ذلك بمدة قصيرة من سيناء إلى خطوط ما قبل العدوان الثلاثى .

ولقد تصادف أنى لم أقم بدور كبير فى هذه الحرب سوى أنى كلفت فى آخرها بعضوية إحدى اللجان لوضع تقرير عن الخسائر الناجمة عن الاحتلال والانسحاب الإسرائيلى من سيناء . ولقد بدأت اللجنة أعمالها بعد الانسحاب الإسرائيلى مباشرة ولم تكن مهمتها يسيرة . .

فبمجرد أن عبرنا القناة أمام منطقة الإسماعيلية هالنى حجم التخريب الهائل الذى لحق بسيناء . . فلقد دمروا الطرق الأسفلتية وحرثوها من أساسها بالبلدوزرات . . أما المبانى المختلفة سواء صغرت فى حجمها أو كبرت فقد دمرت بالكامل ، ويستوى فى ذلك التحصينات مع المنازل أو المستشفيات أو المطارات أو الآبار . . كما نزعوا الخط الحديدى واستولوا على فلنكاته الخشبية . ولقد عملوا على بث الألغام على الطرق والمبانى لإعاقة أعمال التعمير ـ ومع ذلك فقد أعيد تعمير سيناء بعد ذلك على أسس علمية وعسكرية جديدة . .
كما أعيد فتح القناة وعادت إلينا ملكيتها كاملة دون منازع وبكامل عوائدها بغير شريك . .

وانتظم العمل بها ، وأثبتت الإدارة المصرية نجاحها رغم ألسنة المتشككين . ومع الأيام ثبت أنه ليس هناك من هو أحرص من مصر على المحافظة على القناة وعلى انتظام الملاحة بها ، وأصدق دليل على ذلك هذا المشروع الذى قامت به مصر فيما بعد (بعد حرب ٧٣) لتوسيع وزيادة عمق القناة فى سبيل زيادة حمولة الناقلات ، وبخاصة ناقلات البترول العملاقة التى وصلت حمولتها إلى ٥٢٠ ألف طن .

القضايا التى فجرتها الأزمـة

وكالعادة بعد كل حرب أو أزمة ، تتفجر قضايا واستفسارات عديدة بعد أن تنقشع غيوم الحرب . . ولكنى فى الحقيقة عندما أتأمل هذه القضايا الآن بعد أن تراكمت الأحداث والسنون فوقها لتصبح أشبه بحفريات مدفونة تحت طيات النسيان ، أرى أن بعض هذه القضايا أصبح لا يستحق حتى جهد استعادته . . على سبيل المثال : هل كان الاتحاد السوفييتى صادقًا فى وعيده فيما أنذر به المعتدين الثلاثة لدرجة هزت العالم ووضعته على شفا حرب نووية ، أم كان ذلك مجرد حركة مخادعة ؟! إن إثارة مثل هذه القضية الآن بعد زوال الكيان السوفييتى ، لا يعادله حقا إلا طحن الهواء .

وهناك قضية أخرى دار حولها جدل طويل هى قضية عملية التأميم نفسها ، وهل كانت تستحق من عبد الناصر هذا الاندفاع الذى وصل إلى حد المقامرة بمصير الأمة وتعريضها لعدوان ثلاث دول لم يكن يملأ قلوبهم سوى البغض والكراهية خاصة وأن القناة التى افتتحت للملاحة فى عام ١٨٦٩ كان عقد امتياز شركتها الدولية سينتهى تلقائيًا بعد سنوات قلائل فى عام ١٩٦٨ ، فهل كانت هذه السنوات الاثنتى عشرة تستحق كل هذه المعاناة غير المأمونة العواقب ؟!

والحقيقة أنه لولا اندفاع عبد الناصر وإصراره وتصميمه على هذا التأميم . وفى ذلك الوقت بالذات ، ما كانت القناة ستعود إلينا حتى فى التاريخ المحدد لانتهاء الامتياز . فلقد كانت كل من بريطانيا وفرنسا تعض عليها بالنواجذ لأسباب سياسية واقتصادية واستغلالية . . ولقد أوضح هيكل فى كتابه « قصة السويس » كيف أن كريستيان بينو وزير خارجية فرنسا كان من بين الذين حدثوا الرئيس عبد الناصر صراحة عن مد امتياز الشركة وبأسلوب أقرب إلى التهديد ، وذلك عندما أبلغه عبد الناصر برفضه القاطع لفكرة المد ، فرد عليه بينو قائلاً « إن فرنسا سوف تأخذ من طريقة مصر فى معاملة شركة قناة السويس مقياسا لحسن النية فى العلاقات المصرية الفرنسية » ! ولقد دار هذا الحديث فى أوائل عام ١٩٥٦ . وفى الفترة نفسها يذكر هيكل أيضا كيف دار حديث بين سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا وبين جمال عبد الناصر أثناء لقائهما فى القاهرة عن الموضوع نفسه حيث ذكر سلوين لويد « أن الجلاء عن قاعدة قناة السويس سوف يتم فى مواعيده فى ١٨ يونيو ١٩٥٦ ، ولكن مصر عليها أن تدرك أهمية القناة بالنسبة إلى بريطانيا وكيف أنها جزء بالفعل من إستراتيجية البترول . »

وكان رد عبد الناصر عليه أنه ما دامت القناة جزءًا من إستراتيجية البترول ولها نفس أهمية منابعه ، فلماذا لا يكون لمصر نصيب من دخل القناة كما لأصحاب منابع البترول نصيب فى

قيمة بترولهم » ؟! والمعروف أن الدول المنتجة للبترول كانت تأخذ خمسين فى المائة من دخله ، أما مصر فكانت لا تأخذ من دخل القناة إلا حوالى مليون جنيه سنويا ، بينما كان دخل القناة ستة وثلاثين مليونا فى السنة !

وكان من ضمن نتائج حرب السويس ، أن مصر أصبحت صاحبة هذا الدخل كله وبلا شريك أو منازع !

القضـايا العســكرية

ومن بين القضايا التى فجرها العدوان ، قضية الأداء العسكرى وكيف انتقده البعض حتى أنهم وصفوا حرب ٥٦ بأنها كانت هزيمة عسكرية بقدر ما كانت انتصارًا سياسيًا . . وحجتهم فى ذلك أن الذى أجبر المعتدين الثلاثة على الانسحاب من بورسعيد ومن سيناء هى الضغوط السياسية وليست الضغوط العسكرية ، وأن هذه الضغوط السياسية التى سببها الإنذار السوفييتى بالاشتراك مع موقف الرفض الأمريكى لسلوك بريطانيا وفرنسا ، إنما هى ثمرة نجاح السياسة المصرية وليس ثمرة لنجاح الأداء العسكرى فى ذلك الوقت .

والحقيقة أن أمامى طريقين للرد ولتفنيد هذا الرأى الخاطئ . فهناك الطريق السهل وأقصد به طريق المهاجمة حيث فى إمكانى أن أرد قائلاً إن الذين يثيرون مثل هذه القضايا إنما يثيرونها وهم جالسون فى صالونات منازلهم أو شرفاتها يستمتعون بلذة الجدل والنقد وهم يتناولون المشروبات المثلجة . . هذا إذا كانوا بريئى القصد والطوية ، أما إذا كانوا غير ذلك فلا يدرى إلا الله ما فى نفوسهم من محاولة لإحداث شرخ بين الجهازين السياسى والعسكرى أو النيل من قدرات جيشهم الوطنى الذى يحتمى كل من يعيش تحت سماء هذا الوطن بدرعه . .

أما الطريق الثانى وهو الطريق الصعب فهو طريق الحجة والبرهان . وفى هذا أقول إن الأداء العسكرى لم يعبه شىء سواء على المستوى التخطيطى للقيادات أو على المستوى التنفيذى للوحدات والجنود .

فلقد بدأ انسحاب الوحدات من سيناء إلى الخلف بأمر انسحاب سليم مدروس ، أنقذ ٩٠٪ من القوات المسلحة من الشرك الذى نصبته لها الدول الثلاث ولو كانت هذه القوات قد بقيت فى مكانها فى مصيدة سيناء لانهارت القوات المسلحة فى الجبهتين معا : جبهة سيناء المواجهة لهجوم إسرائيل وجبهة القناة المواجهة لهجوم بريطانيا وفرنسا معا . .

ولقد سقت مثلى أبو عويجلة ومتلا فى الصفحات السابقة كما وصفها ديان ، لأثبت كيف

كانت القوات تصمد فى محلاتها الدفاعية فى سيناء وتقاتل لآخر طلقة ولآخر رجل ، وأنها لم تترك مواقعها بالمرة حتى جاءها الأمر الرسمى بالانسحاب . .

أما إذا كان قدحدث أحيانا أن اتخذ الانسحاب فى بعض اللحظات شكلا غير منتظم ، فإنى لا أجد ردًا أدافع به عن موقف هذه القوات المنسحبة فى ظروف مثل ظروف صحراء سيناء الجرداء المكشوفة للطيران المعادى ، إلا ما قاله أرسكين تشايلدرز مؤلف كتاب « الطريق إلى السويس » ردًا على الدعاية التى تباهت بها إسرائيل فى كتبها بقصد الحط من شأن الجندى المصرى فى تخطيط مدروس من حربها النفسية لدق إسفين بين المواطن المصرى وجيشه . يقول أرسكين : « إن الظروف الصعبة التى كان الجيش المصرى يعانيها أثناء انسحابه للخلف فوق طرق الصحراء المكشوفة ، وهو يتعرض لضرب متواصل من ثلاث دول تواطأت عليه ، هى ظروف بالغة القسوة ، لو وضع فيها أى جيش من أقوى جيوش العالم لما تصرف بشكل أفضل أو أشجع منه » !

وأنا لا أعرف كيف يكون موقف الجيش الإسرائيلى لو وجد نفسه فى موقف عكسى ، أقصد لو وجد نفسه يوما ما موضع هجوم من بريطانيا وفرنسا وقد تواطأتا مع مصر ضده ؟! ألا ينقلب الحال تماما رأسا على عقب وتنقلب معه الأوضاع والنتائج بالقدر نفسه ؟!

ثم لماذا أذهب بعيدًا أو أتحدث عن موقف افتراضى ؟ ألم يتعرض الإنجليز والفرنسيون بالفعل فى المدة من ٢٩ مايو إلى ٤ يونيو عام ١٩٤٠ للموقف نفسه بعد أن فاجأتهم قوات هتلر وساقتهم أمامها مذعورين إلى شاطئ البحر فى دنكرك ؟! ألم يلقوا بأنفسهم فى الماء عرايا فرارًا من الجحيم ؟! ومع ذلك فهم يمجدون هذا الانسحاب فى كل كتبهم ويطلقون عليه الانسحاب المجيد ! بل وصل الأمر إلى أن كثيرًا من المعاجم الموسوعية تطالعك تحت كلمة دنكرك بمعلومات تفيد بأنها بلدة صغيرة على ساحل البحر الشمالى بالقرب من بلجيكا تعدادها يبلغ ٢٨ ألف نسمة ولكنها شهدت « الانسحاب البطولى » لقوات بريطانية فرنسية بلغ تعدادها ٣٩٥٠٠٠ جندى فى مواجهة الألمان !

ولا أدرى متى سنتعلم من الغرب فن الدعاية السياسية . . إذ يجعلون من هزائمهم انتصارات بينما نقوم نحن بتحويل انتصاراتنا إلى هزائم ! .

نقطة أخيرة أحب أن أضيفها على هذا التعليق هى أننا لو كنا انهزمنا عسكريا فى ٥٦ ما كنا استطعنا أن ننتصر سياسيا ! وأفضل دليل مؤسف أسوقه للبرهنة على ذلك ما حدث فى ٦٧ ، فقد انهزمنا سياسيا فى ٦٧ لأننا أساسًا قد انهزمنا عسكريا . .

أما لماذا قد انهزمنا عسكريا فى ٦٧ فهذا مشوار آخر آت فى طريقه بإذن الله ضمن مشاوير هذا الكتاب .

آخر القضايا

أما آخر القضايا الشائكة التى مازال يفجرها عدوان ١٩٥٦ ، فهى القضية التى تدور حول سؤال يثير تهامسًا مستمرًا . . وهو لماذا أصلا اتخذت مصر طريق السوفييت الذى كلفها كل هذا العناء الذى أرهق اقتصادها وكيانها ؟! ألم يكن من الأفضل لها أن تنحاز إلى الولايات المتحدة من بادئ الأمر بدلا من الرهان على الجواد الخاسر الذى جاد بأنفاسه فى آخر السباق ؟!

لقد انحازت مصر إلى الجانب الأمريكى بالفعل منذ عهد السادات ، وآثرت أخيرًا طريق المصالحة مع إسرائيل ، ألم يكن هذا هو مطلب الولايات المتحدة الأساسى من الثورة ؟! ألم يكن من الأفضل أن نوفر على أنفسنا السير فى طريق الآلام الذى تعرضنا فيه إلى مآسى وجهود ٥٦، ٦٧ ، ٧٣ ؟!

وفى استطاعتى أن أرد على هذه الأسئلة وأكون صادقًا ـ لو ألقيت بالوزر على إسرائيل وحدها التى عملت كل ما فى وسعها لكى تتباعد مصر عن طريق أمريكا وفى الوقت نفسه تتباعد أمريكا عن مصر . . بدءًا بأحداث فضيحة لافون إلى الإغارة على الصبحة والكونتلا وغزة ، إلى آخر القصة التى شرحتها فى مكان آخر ، بل وألقت بنا فى نهاية المطاف فى أحضان السوفييت . إن اتهامى لإسرائيل بهذا العمل يعنى أن القادة الإسرائيليين قد نجحوا فيما فشلنا فيه .

والحقيقة أن المواقف والأحداث السياسية لا تكون على نحو واضح خال من التعقيد بحيث يكون المستقبل كتابًا مفتوحًا أمام المتنبئ السياسى . . ولو أننا وجهنا اللوم إلى أنفسنا لنقص فى القدرة على التنبؤ ، لكنا وجهنا اللوم كذلك إلى قادة الاتحاد السوفييتى أنفسهم الذين أخطئوا طريقهم من البداية ولم يتبعوا ما اتبعه جورباتشوف ويلتسين من تقارب فى النهاية مع الولايات المتحدة !

أو كنا وجهنا اللوم إلى إيدن وجى موليه أيضا اللذين اعتقدا أن بلادهما ستكسب الكثير من مهاجمة مصر ، فإذا بمغامرتهما تنتهى بسقوط إيدن وانهيار الجمهورية الرابعة الفرنسية . أو

كنا وجهنا اللوم إلى العالم كله الذى مازال يتبع طريق فض النزاع بالمذابح والحروب وليس بالسلام . .

أما لماذا يتبع الإنسان أحيانا هذا الطريق الدموى ويفضله على الطرق السلمية ، ففى رأيى أن إجابة هذا السؤال لن يجدها الباحث داخل مجال التاريخ السياسى أو العسكرى بقدر ما يجدها داخل مجال التاريخ الطبيعى عندما يعثر على الحلقة المفقودة التى تربط الإنسان بأجداده من بنى الحيوان ! ! !

الباب السّابع

بين روسيا وسوريا

الفصل الثانى والعشرون : عضة الشيوعية

الفصل الثالث والعشرون : سوريا الوحدة وسوريا الانفصال (١)

الفصل الرابع والعشرون : سوريا الوحدة وسوريا الانفصال (٢)

الفصل الثانى والعشرون

عضة الشيوعية

عقب انتهاء العدوان ورحيل جيوش المعتدين الثلاثة تجر أذيال الخيبة ، قامت مصر بتمصير كافة البنوك وشركات التأمين البريطانية والفرنسية ، وعدد من الشركات الأخرى ووضعتها تحت الإدارة المصرية .

وفى منطقة القناة استولت الحكومة المصرية على الأسلحة والمهمات والموجودات البريطانية التى خلفتها بريطانيا وراءها واعتبرت غنائم حرب ، كما انتهى ارتباط مصر بمعاهدة الجلاء التى وقعت فى عام ١٩٥٥ ، وكان من المفروض أن ينتهى مفعولها بعد سبع سنوات من تاريخ توقيعها فأصبحت لاغية اعتبارًا من أول يناير ١٩٥٧ .

ولقد أدى انتصار مصر البطولى إلى تشجيع كثير من الشعوب على الإقدام على التحركات التحررية ، ومنهم من مدت مصر إليه يد المساعدة بهدف القضاء على الاستعمار فى كل مكان وكل ركن من أركان العالم !

وكان على مصر بعد هذه التجربة المريرة أن تطور قواتها المسلحة سواء فى التنظيم أو فى التسليح فعقدت عدة صفقات مباشرة للأسلحة الروسية احتوت على الدبابات ت ـ ٥٤ ، ت ـ ٥٥ ، والعربات المدرعة والمدفعية والطائرات الميج ١٧ ، ١٩ والسوخوى وغيرها . وبعد أن كانت مصر تتلقى الأسلحة الروسية من تشيكوسلوفاكيا على استحياء ، أصبح الموقف بعد مؤامرة السويس لا يحتمل اللف والدوران . فكان أن استقدم الخبراء السوفييت لتدريب القوات المسلحة على الأسلحة الجديدة ، كما أوفدت البعثات على مختلف المستويات لحضور دورات تدريبية فى الاتحاد السوفييتى ، وكان من نصيبى أنى سافرت فى سبتمبر عام

١٩٥٨ لحضور دورة قادة ألوية استغرقت أربعة عشر شهرًا ، تلقينا فيها أحدث تدريبات وخبرة قتال الحرب العالمية الثانية .

ولقد أقبلنا على هذه التدريبات بابتهاج عظيم لا يوصف؛ فقد ظلّت قواتنا المسلحة تعانى من ضغوط استعمارية رهيبة فرضت نفسها منذ عام ١٨٨٢ (١) إلى عام ١٩٥٦ لحرمان مصر من إنشاء جيش وطنى قوى .

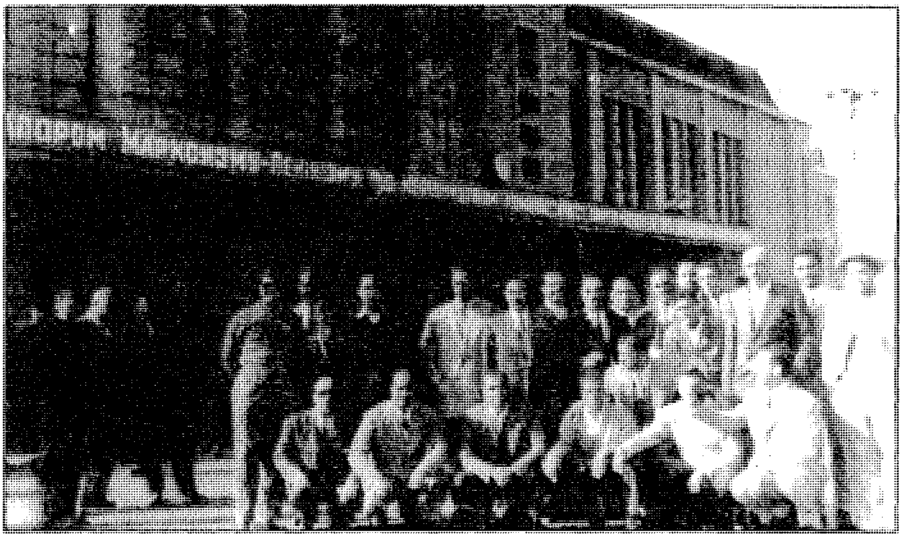
وكانت إقامتنا فى روسيا مفيدة ممتعة لم يتخللها أية أحداث ذات بال . . إلا عندما ثارت علينا ذات يوم ثائرة المدرسين فى الأكاديمية وامتنعوا عن تدريبنا لمدة أسبوع . . كان ذلك فى يناير عام ١٩٥٩ على أثر مهاجمة عبد الناصر للشيوعيين فى مصر واعتقال عدد كبير منهم . وفى ذلك الأسبوع لم يخف المدرسون الروس ضيقهم بنا ، فقد كانت نظرتهم حيالنا لا تزيد عن كوننا البرجوازيين الذين يديرون عجلة « ماركس » التاريخية إلى الوراء !

وفى مدة إقامتى فى روسيا فهمت المعنى الحقيقى لاصطلاح ديكتاتورية البروليتاريا بشكل ربما تجاوز كل معنى سياسى خطر على بال ماركس أو لينين . . فالطبقة العاملة فى روسيا أصبحت هى الطبقة المتحكمة فى كل شىء ، ومن حقها أن تمنع أو تمنح ما تشاء لمن تشاء ! فلو حدث أنك كنت واحدًا من محظوظى الطبقة ، فأنت لن تقف بالساعات فى طوابير الأسواق ليكون نصيبك آخر النهار قطعة من اللحم أو حفنة من الخضراوات كالطماطم التى كانوا يستوردونها شتاء من بلغاريا . ويحدث لك الشىء نفسه لو كنت أجنبيًا سخى البذل . . حيث سرعان ما تفتح لك الأبواب والثلاجات المقفلة . . أما فى داخل الوحدات العسكرية فلا يهم أن تكون ضابطا قديم الرتبة حتى يخشاك الجميع وإنما يكفى أن تكون قومسيرا أى ممثلا سياسيا للحزب ليرتجف الجميع منك ويعمل لك ألف حساب ! **ومن دواعى الأسف أن الثورة الروسية التى قامت من أجل القضاء على الطبقية ، أقامت هى نفسها أردأ وأعسف أنواع البيروقراطية التى امتدت عدواها إلينا فى مجتمعنا المصرى ، ولقد حدث ذلك فى كل دولة من دول العالم الثالث تحولت إلى الاشتراكية .**

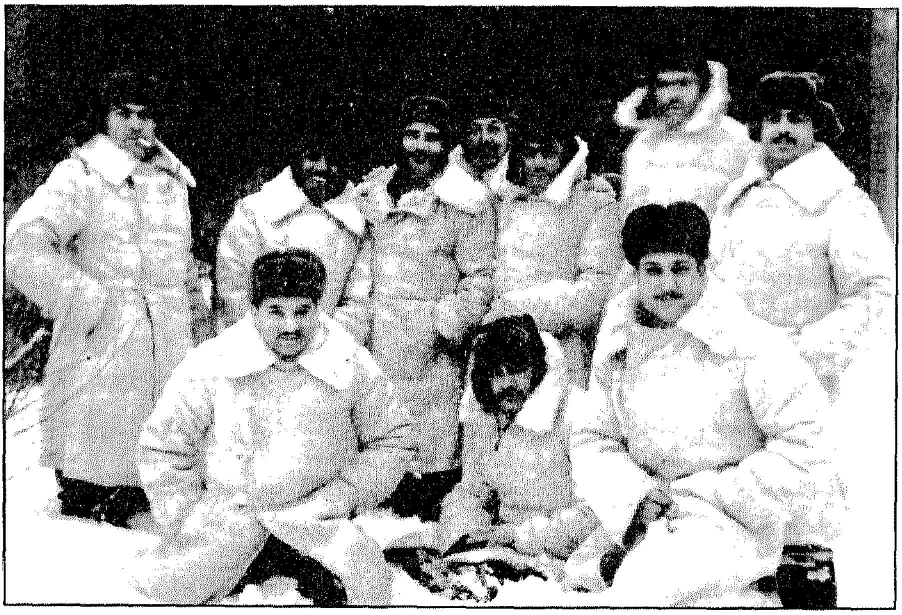
ومع ذلك رجعت إلى مصر فى ديسمبر ١٩٥٩ ، وذهنى محمل بخبرات علمية وعسكرية جديدة ، كما ظلت مشاعرى لفترة طويلة لا تفارقها متعة مشاهدة أجمل رقصات الباليه السوفييتى فى مسرح البالشوى الكبير الذى يحلم كثيرون فى أنحاء العالم بمشاهدته ، فى أعظم

---

(١) العام الذى غزت فيه إنجلترا مصر وبدء الاحتلال البريطانى .



في محطة كييف ـ الاتحاد السوفييتي



في شتاء روسيا

أداء تقوم به فرقة لبحيرة البجع فوق خشبة هذا المسرح ، أو يستمتعون بأعذب ألحان تشايكوفسكى وخاتشاتوريان وغيرهما وهى تنبعث من قاعة تشايكوفسكى الموسيقية ، أو وهم يتنقلون طيلة النهار والليل بين أوسع حدائق العالم وبين المتاحف وقصور القياصرة وداخل أروع مترو عالمى للأنفاق تزدان محطاته الواسعة بثريات الكريستال العظيمة الحجم وبجدرانها وأرضياتها ذات الرخام الأبيض الناصع . وقد يلهيك ذلك عن إحساسك الدائم ببرودة الصقيع التى قد تصل إلى ٢٥° تحت الصفر ، والتى لم يحتملها أحيانًا عدد من زملائنا فوجدوا أنفسهم طريحى الفراش فى اليوم التالى مباشرة ليعالجوا لأيام طويلة وقد أصابهم ما يعرف بعضّة الثلج ، أو كنا نسميها نحن مزاحًا بعضّة الشيوعية !

* * *

ومع عودتى إلى القوات المسلحة فى مصر كنت فى أوج حماستى لممارسة عملى الجديد فى فرع العمليات بالقيادة الشرقية بالإسماعيلية ، وهى القيادة المسئولة عن حدودنا الشرقية فى سيناء ومنطقة قناة السويس ، وكانت الفرصة سانحة لمزيد من التعرف الدقيق على كل شبر من أرض سيناء الحبيبة .

وفى هذه الآونة أيضا أتيحت لى فرصة السفر إلى سوريا ضمن وفد عسكرى من القيادة ، وذلك للتعرف على القيادات السورية وجبهة الجولان من أول جبل الشيخ ومنبع نهر بانياس شمالا حتى الحمة وينابيعها الطبيعية الدافئة جنوبًا . .

وفى هذا الوقت لم يخطر ببالى أبدًا أنى بعد عام واحد سأنتقل للعمل فى أغسطس ٦٠ إلى هذا القطر الشقيق لكى أقود إحدى وحداته المدرعة السورية ولكى أشهد الأيام الأخيرة من فترة الوحدة القصيرة التى قامت فى شهر فبراير من عام ١٩٥٨ ، وانتهت بمحنة الانفصال فى سبتمبر عام ١٩٦١ . أى لم يدم مداها من عمر الزمان سوى ثلاث سنوات ونصف السنة !

الفصل الثالث والعشرون

سوريا الوحدة وسوريا الانفصال (١)

عندما وطئت قدماى أرض دمشق قادمًا بالطائرة لأتسلم عملى فى أحد الألوية السورية المدرعة فى شهر أغسطس من عام ١٩٦٠ ، كان من السهل على أن ألمس ما فى الجو من فتور لم يسبق لى أن ألحظه من قبل فى زيارتى السابقة ، خاصة وأن الشعب السورى مشهور بالحماسة والعاطفة الفياضة . .

فى هذه المرة كان من الواضح أن هناك تباعدًا وجفوة وشبه انعزالية بين الضباط السوريين والمصريين ـ بل أحيانا يشتد الأمر ويتوتر لدرجة نشوب نزاع حاد بين ضابطين مصرى وسورى، لدرجة تتطلب التدخل من الجهات الأعلى لفض النزاع بينهما ، وللأسف لم يكن ذلك يحدث إلا على المستويات العليا [١] نفسها !

وفى الحقيقة لم تكن أسباب الانفصال سلوكا شخصيا غير مقبول من حفنة من الضباط المصريين أو السوريين ، وإنما أسباب الانفصال تبدو للمدقق أعمق وأغور من ذلك بكثير. . فمثل هذه النزاعات الفردية المحدودة كان من الممكن احتواؤها والتغلب عليها ، لو لم يكن هناك من يؤججها ويغذيها بصفة دائمة من عدة جهات مختلفة !

والحقيقة أن طريق الوحدة لم يكن مفروشًا بالورود والرياحين كما تصور فى بادئ الأمر المتفائلون من البلدين ، لقد كان طريقًا محفوفًا بالمخاطر تعرض لكل أنواع الضرب الخارجى والداخلى على حد سواء . فأعداء الوحدة المتربصون لها ، كانوا يحيطون بها على المستويين العالمى والمحلى . . وبرغم أن التاريخ يحفل بكثير من قصص الدول التى توحدت ، ولكن من

---

(١) كما حدث بين المشير عامر وعبد الحميد السراج الذى قدم استقالته فى نهاية الأمر من وزارة الداخلية .

النادر أن نرى وحدة ـ كوحدة الشعبين السورى والمصرى ـ قد تربص بها هذا العدد الزاخر من الأعداء . . بل من الأصدقاء الذين انقلبوا بسببها إلى أعداء . .

فعلى المستوى العالمى ، نجد أن الولايات المتحدة لم تسعدها هذه الوحدة بالمرة ، إذ رأت فيها تجاوزًا لدور عبد الناصر يفوق الحد المسموح به ، أما بريطانيا والتى كان دورها فى الشرق الأوسط آخذًا فى التقلص ، فلاشك كان الدور المتزايد لمصر يزعجها . . ثم هناك تركيا التى كانت تحتل سوريا أيام العثمانيين ، ولقد عبرت عن قلقها من الوحدة عندما قال رئيسها عدنان مندريس «بتنا وكان على حدودنا الجنوبية جار يبلغ حجمه خمسة ملايين ، وأصبحنا وإذا بهذا الجار خمسة وعشرون مليونًا » .

أما روسيا فهى أيضا لم تكن من بين السعداء بحدوث هذه الوحدة ، فبدلا من أن تكون الوحدة عونا وسندا للمد الشيوعى فى البحر الأبيض ، فوجئت روسيا بأن رجل الاشتراكية الأول فى المنطقة يقوم باعتقالات واسعة للشيوعيين ، ليس فى مصر وحدها وإنما امتدت اعتقالاته إلى سوريا بمجرد وقوع الوحدة !

و إذا كانت **الدول الغربية** لم تسعدها هذه الوحدة ، فإن بعض الدول العربية الشقيقة كانت فى موقف أشد مقتا وكرها ! ولاشك أن السعودية والأردن كانتا على رأس دول العرب الكارهة لهذه الوحدة . وقصة الملك سعود بهذا الصدد مشهورة إذ حاول منذ اليوم الأول أن يتآمر على الوحدة فقدم شيكين لعبد الحميد السراج بمبالغ كبيرة قبلها السراج بتكليف من القيادة السورية ليقدمها إلى عبد الناصر ليفضح بها الملك سعود . . أما الملك حسين فقد ثبت بعد الانفصال أنه كان على صلة وثيقة بحيدر الكزبرى الذى شارك فى الانقلاب، وقد أمده بالكثير من المال، وعندما انكشف ذلك الأمر، قام أعوان الكزبرى فى الانقلاب بسوقه إلى سجن المزة .

المضحك المبكى أن الملك سعود بعد أن طرد من السعودية بواسطة شقيقه فيصل وجاء لاجئا إلى مصر ، عاتبه عبد الناصر كالقصة المشهورة وسأله كيف تدفع من جيبك سبعة ملايين من الدولارات لإسقاط الوحدة ! فإذا بالملك يرد عليه قائلاً :

« لا والله يا أخ جمال ـ ما كانوا سبعة . . بل اثنى عشر » !

والعجيب أن حزب البعث الذى هلل مصفقا للوحدة فى بادئ الأمر ، أعطى ظهره وتألب عليها بعد فترة وجيزة ، ووصل إلى درجة إعلانه عن تأييد الانفصال فى النهاية وإن كان رجاله قد ندموا بعد ذلك [1] . وقد تجد اليوم من تسأله عمن نضع عليه اللوم ، وهل الخطأ فى حزب

---

(١) بالذات صلاح البيطار أحد مؤسسى حزب البعث مع ميشيل عفلق .



الملك سعود بن عبد العزيز

البعث المتعالى الذى يعتقد أنه الحزب الوحيد ، بين أحزاب سوريا كلها ، الأحق بتولى مقاليد الأمور بعد الوحدة ، مدعيًا بأنه الحزب الذى نادى بها وسعى إليها ؟ أم الخطأ عند عبد الناصر الذى ألغى كل الأحزاب جيدها ورديئها ، وعندما وقع الانفصال لم يجد حزبًا واحدًا أو رجلاً واحدًا مسئولا يبقى على الوحدة ويمد لها يد العون ؟!

أم الخطأ عند الضابط السورى عبد الكريم النحلاوى الذى كان ضابطا عاديًا ، وبعد اختلاف مع أحد الضباط المصريين المقربين ، وجد نفسه تحت تأثير الرأسماليين الدمشقيين الذين تأثروا من قرارات التأميم ، وقد كان فى منصب بالجيش (رئيس شئون الضباط) يستطيع منه أن يعين أعوانه فى مختلف المواقع الحساسة فى الوحدات التى قامت بالانقلاب عند أول إشارة منه . . وللأسف أن كل أعوانه الذين قاموا بهذا الانقلاب وفصموا أول وحدة عربية تحدث فى القرن العشرين ، لم يزد عددهم عن ٣٧ ضابطًا[١] . .

(١) من هذا العدد الصغير نتبين أن الوحدات كانت مهيأة لفكرة الانفصال عندما أمرت بذلك من القلة المنفذة، أو على الأقل اتخذت موقفًا سلبيا لمقاومة الانفصال . . ولكن هذا لا يمنع أن هناك وحدات عارضتها بكل قوة لدرجة التصادم الدموى .

بل يقال إن النحلاوى نفسه عندما قام بالانقلاب ، لم يكن يعلم أنه هو بنفسه مخلب ضمن مخطط أكبر من حدوده وتفكيره ، ولذلك كان هو نفسه الذى زج بالكزبرى فى السجن عندما علم أنه كان ضالعا فى مؤامرة خارجية مع الملك حسين . .

وعندما جاء دور تطبيق القوانين الاشتراكية التى فرضت على مصر عام ١٩٦١ ، جاءت الضربة القاضية التى وجهت إلى صميم اقتصاد الأسر السورية ، حيث كانت التجارة فى سوريا هى مصدر الرزق الأساسى للكثير من هذه الأسر الكبيرة ، خاصة بعد أن هاجرت رءوس أموال كثيرة من سوريا إلى مصر حيث السوق الاستهلاكى الأكبر والذى كان متوقعًا أن يكون مجال رواج لشركات ومصانع سورية تقوم فى مصر ، فلم يحدث شىء من ذلك على الإطلاق . . وهكذا بدا أن الجهاز السياسى والاقتصادى لعبد الناصر قد فاته التنبه إلى الخاصية الأساسية لهذا الشعب الذى اعترض وزير اقتصاده (أكرم ديرى) على تأميم شركاته الكبرى[1] مفضلا أى إجراء آخر يحقق العدالة الاجتماعية كنظام الضرائب التصاعدية المطبق فى دول أوربية كثيرة .

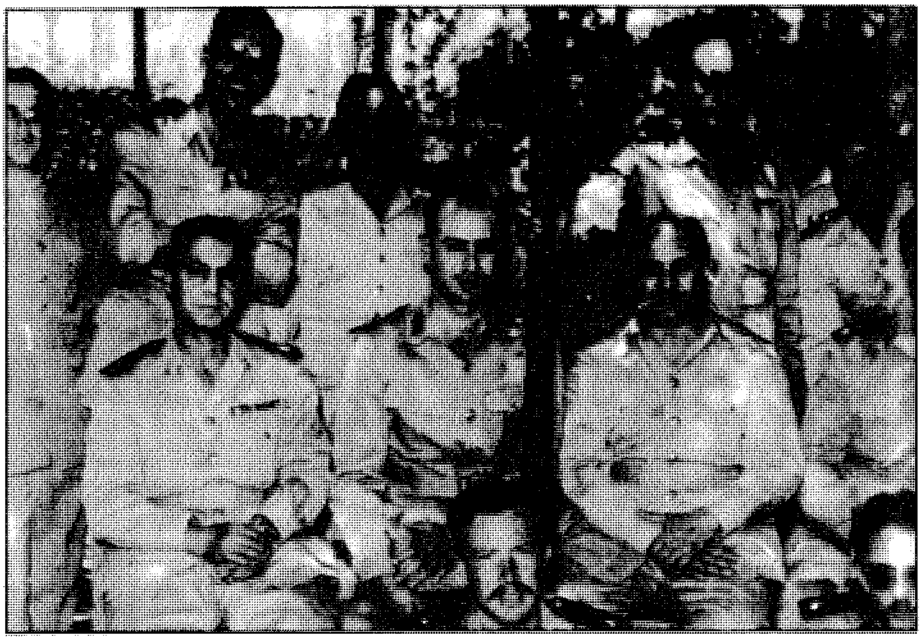
داخل اللواء ٧٠

وعندما توليت العمل فى اللواء ٧٠ المدرع كرئيس أركان اللواء فى البداية ـ ثم أصبحت قائدًا له خلفا لقائده السورى الذى سافر فى بعثة إلى الاتحاد السوفييتى ـ لم أكن أعلم بكل هذه القصص والمؤامرات ولم أدر أنى أقوم بعملى وأنا جالس فوق بركان يغلى تحتى ومقدر له أن ينفجر فى أى لحظة . . . وإن كنت قد استمعت وقتذاك إلى قصص كثيرة لابد أن بعضها كان مبالغًا فيه عن سلوك معيب لضباط أصاغر ، وسلوك أشد عيبا من ضباط كبار جلسوا فى مقاعد أهل الثقة ، وقد كانت بعض الأجهزة السورية تتصيد هذه الأخطاء وتعمل على إذاعتها بقصد الإثارة .

والحقيقة أنه يجب ألا نضع كل اللوم فى الانفصال على ضباطنا المصريين ، فيشهد الله بل ويشهد كثير من السوريين حتى اليوم ـ كم بذل هؤلاء الضباط من تفان وإخلاص وجهد كبير فى تدريب الوحدات السورية ، بل إن عددًا منهم شارك فى مهمة قتال على الجبهة الإسرائيلية ، ومنهم من استشهد فى معارك الجبهة مثل الضابط محمد الجيار ، الذى يطلقون اسمه حتى اليوم على المرتفع الذى استشهد فيه باسم تبة نزير والجيار ، لأن ضابطا سوريا آخر اسمه نزير سالم استشهد معه فى المعركة نفسها كما استشهد عدد كبير من الصف والجنود .

---

(١) كالشركة الخماسية التى كانت تسيطر على خمس الاقتصاد السورى .



في سوريا سنة ١٩٦٠ قائدًا للواء ٧٠ مدرع

وفى الفترة التى عشتها فى اللواء ٧٠ قبل الانفصال ، لم تكن الأمور قد وصلت بعد مداها من التردى الذى بلغته فى أوائل عام ١٩٦١ ولم أكن أنا الضابط المصرى الوحيد الذى يعمل باللواء ٧٠ المدرع السورى ، وإنما كان هناك ٣٥ ضابطا آخرون يمثلون نخبة ممتازة من مختلف الأسلحة التى يضمها عادة اللواء المدرع كالمدرعات والمدفعية والدفاع الجوى والمهندسين والحرب الكيميائية . . إلخ . . وأنا لا أبالغ إذا ذكرت أن عددًا كبيرًا من هؤلاء الضباط تولوا وظائف قيادية كبرى فى مصر بعد ذلك بسنوات .

ولقد ارتقى مستوى التدريب فى فترة وجيزة داخل اللواء على أساليب القتال ومهام العمليات مما جعل الضباط السوريين يعتزون بأنفسهم وبزملائهم الضباط المصريين ، وسرعان ما توثقت الروابط بيننا على المستوى الشخصى والعائلى ، وأذكر أن قائد اللواء (وكان يدعى العقيد محمود عودة) قد شد على يدى مهنئًا يوم خلفته فى منصبه [1] عندما أوفد فى بعثة إلى الخارج ، ثم اعتذر لى عن قصة صغيرة حدثت منه يوم أن جئت لتقديم نفسى إليه منذ عدة

---

(١) أذكر بفخر أنى كنت المصرى الوحيد الذى تولى قيادة وحدة سورية كاملة . كما أذكر أن علاقتى بالضباط السوريين المرءوسين بلغت من القوة بحيث جعلت بعضهم يجيئنى فى بيتى لفض نزاع عائلى يخصه .

شهور ، إذ بادرنى بسؤال أعترف أنه هز نفسيتى كضابط مصرى ، قال لى يومها : هل يمكننى أن أعرف إذا ما كنت من أهل الخبرة أو من أهل الثقة ؟

وتعمدت أن أرد على سؤاله متجاهلاً مقصده قائلاً : أنا لا أعرف ماذا تقصد ، ولكن الذى أعرفه عن نفسى أنى قد أوفدت فى بعثة ١٤ شهرًا إلى الاتحاد السوفييتى وعملت رئيس أركان القيادة الشرقية ثم كلفت بالحضور إلى هنا لمعاونتك !

ويومها ضحك وقال لى : إذن فأنت من أهل الخبرة . . وعندما غادر اللواء ـ ولم أره بعد ذلك ـ قال لى : والله يا أخى أنت تختلف عمن قبلك تمامًا . . وليتهم فى مصر يجعلون أهل الخبرة هم أهل الثقة بالفعل !

ولم أعلق بشىء . .

الفصل الرابع والعشرون

سوريا الوحدة وسوريا الانفصال (٢)

فى الوقت الذى كانت الأمور تجرى فيه على خير ما تكون داخل اللواء ٧٠ المدرع ، كانت هناك أمور أخرى تجرى على المستوى السياسى تحمل فى طياتها مخاطر الانفصال وفك عرى الوحدة . فكانت هناك شكوى دائمة فحواها أن القرارات تتخذ على أساس تقارير الأجهزة وليس من واقع الحال ـ وكان وزير الداخلية فى سوريا عبد الحميد السراج (هذا الضابط الشجاع الذى نسف مضخات أنابيب البترول من تلقاء نفسه فى عدوان ٥٦ تحالفًا مع مصر) قد بدأ يفتك بالشيوعيين ويعتقل البعثيين الذين استقال وزراؤهم من الحكومة . .

وفى الجيش أرسل الضباط البعثيون فى دورات تدريبية إلى مصر والاتحاد السوفييتى فُسّرت على أنها استبعاد [١] .

أما مجلس الشعب الذى كان مكونا من ٤٠٠ عضو مصرى و ٢٠٠ عضو سورى ، فلم يكن يمثل أى أحزاب ديمقراطية حقيقية كما اعتاد السوريون ، فالنواب جميعا مجرد أعضاء فى الاتحاد القومى الأمر الذى خلق فراغًا سياسيًا لم يعتده هذا الشعب .

وعندما جاء عبد الحكيم عامر إلى دمشق فى أواخر أغسطس ١٩٦١ ، تلقى تقارير مختلفة من كل الأجهزة والأفراد تفيد بقرب وقوع انقلاب عسكرى . كان الضباط المصريون الذين يعملون بالجيش السورى قد بلغ عددهم ٨٥٠ ضابطًا جاءوا ليسدوا عجزًا قائمًا وليحلوا محل عدد كبير من الضباط السوريين الذين خرجوا من الجيش عقب وقوع عدة انقلابات متكررة .

---

(١) لم تفطن القيادة المصرية إلى أن هؤلاء الضباط عند عودتهم مؤهلين سيكون لهم أحقيتهم فى تولى المناصب القيادية وبالتالى سيكون لهم دورهم المؤثر فى الانقلاب .

ولكن الدعايات المضادة وقوى الشحن الأخرى صورت وجود هذا العدد الكبير على أنه احتلال مدبر.

وكانت الانقلابات العسكرية المستمرة قد أصبحت إحدى السمات المميزة لفوضى الحكم في سوريا منذ أول انقلاب حدث في ٣٠ مارس عام ١٩٤٩ بقيادة حسنى الزعيم . ولقد اعترف نفس « الزميل » مايلز كوبلان بلسانه أنه كان انقلابا أمريكيا ، أى من تخطيط وإعداد المخابرات الأمريكية وأنها هى نفسها أطاحت بحسنى الزعيم عندما « نسى نفسه » وبدأ يخرج عن طوعهم ، وعندما بدأ يتعالى على مدبرى الانقلاب الأمريكيين ، فتنكروا له خاصة بعد أن بدأ يطالبهم بأن يقفوا له احتراما كلما وقف ، وأن ينادوه بكلمة صاحب الفخامة ، وأن يستخدموا فى الحديث العادى لفظ « أنتم » وليس لفظ أنت . (١) ولقد كلفه هذا الأسلوب رأسه عندما قامت مجموعة أخرى من أصدقائه الضباط بقيادة سامى الحناوى بانقلاب فى أغسطس ٤٩ (أى بعد انقلاب حسنى الزعيم بستة أشهر فقط) ، وكان الانقلاب بزعامة أديب الشيشكلى الذى قام بدوره باعتقال سامى الحناوى بعد أربعة شهور فقط . ولقد ظل أديب يحكم سوريا بيد قوية حتى فبراير عام ١٩٥٤ ، وبعد ذلك غادر البلاد هربا بعد أن واجه انقلابًا جديدًا ، وبعدها تعاقبت على سوريا الانقلابات العديدة « حتى أصبح من الصعب على المرء أن يبقى متابعا لها » على حد قول مسئول آخر بالمخابرات الأمريكية .

وفى الحقيقة ، كان هناك قول شائع يتردد فى سوريا هو : أن « من يصح مبكرًا ويستول على غرفة « المقسم العمومى » فإنه يحظى بالحكم قبل زميله الذى يتأخر فى النوم » . والمقصود من كلمة « المقسم العمومى » غرفة السنترال التليفونى الملحق بمبنى القيادة فى قطنة حيث يمكن إصدار التعليمات وأوامر التحركات إلى الوحدات من هذا المكان !

كان الموقف عند مجىء عبد الحكيم عامر لدمشق قد وصل إلى أعلى درجات التوتر ، لدرجة أن طلبت القيادة منا نحن قادة ألوية قطنة أن نبيت فى المعسكرات بالتناوب .

الانقــلاب

وفى ليلة ٢٧/٢٨ سبتمبر عام ١٩٦١ كنت أبيت فى مناوبتى بمعسكر اللواء عندما فوجئت بأربعة من الضباط السوريين يقتحمون مكتبى شاهرين الرشاشات فى وجهى وتكلم أقدمهم قائلاً : « سيدى المقدم . . أنت تعلم مدى تقديرنا الشخصى لك ، لكن صدرت

---

(١) كان الحديث يدور بينهم بالفرنسية فطالبهم باستخدام اللفظ vous بدلا من tu (« لعبة الأمم » ص ٧٦ طبعة إدارة الاستعلامات) .

الأوامر إلينا من قيادتنا السورية بهذا الانقلاب ، لذا قطعنا جميع الإتصالات بين اللواء والخارج . وأرجو أن تفهم عذرنا فأنت موقوف من الآن » !

عندئذ أدركت أن ما كان يخشاه الجميع قد وقع بالفعل ! ولشد ما أثر فى نفسى أن الضباط الأربعة الذين كانوا أمامى ، كانوا من أفضل ضباط اللواء السوريين الذين أعتز بهم ويعتزون بى . بل إنهم كانوا محل ثقة من الجميع لدرجة أن القيادة ـ لسخرية القدر ـ سبق أن انتخبتهم ضمن مجموعة الضباط السوريين لحراسة عبد الناصر عند زيارته لسوريا قبل ستة أشهر فقط .

وفى محاولة مستميتة صرخت فى الضباط فى أقصى انفعال قائلاً : **عليكم أن تفهموا أن هذه أول وحدة عربية ظلت شعوبنا العربية تتمناها للعديد من السنين ـ وأن ما تقدمون عليه الآن هو أول مسمار تدقونه فى نعشها . . ولن يسعد بهذا العمل الذى سيصيب الوطن العربى بالإحباط إلا أعداء هذا الوطن !**

والحقيقة كان الموقف شاذًا وغريبًا بيننا ـ فالضباط كانوا موزعى الخاطر بين تعليمات قيادتهم السرية وبين الولاء للوحدة وللصداقة الشخصية التى قامت بينى وبينهم ! وظللنا نتحدث فى أمور نظرية بحتة عن الوحدة التاريخية التى جمعت بين سوريا ومصر معا فى جانب واحد على مدى حقب التاريخ . من العجيب أن ما أصاب مصر من استعمار أو استقلال هو نفس ما أصاب سوريا ، بل كثيرًا ما كان المستعمر هنا هو المستعمر نفسه هناك ، بدءًا بغزو الإسكندر لسوريا ثم مصر واحتلال الرومان للقطرين فى آن واحد ، ثم التحرر الإسلامى للبلدين على يد عمرو بن العاص ومرورًا بالحقب الإسلامية المختلفة حتى الاحتلال العثمانى . ثم خضوع مصر للانتداب البريطانى وسوريا للانتداب الفرنسى بعد الحرب العالمية الأولى .

كانت البيانات العسكرية تتوالى على مسامعنا من جهاز الراديو الذى جلسنا جميعا فى التفاف من حوله . . وكانت إحدى كتائب المشاة السورية قد احتلت مبنى القيادة منذ الصباح وهى فى طريقها إلى ميادين الرماية للتدريب . وفجأة حدث تطور غريب !

فقد صدر البيان الذى يحمل رقم ٩ الذى يبشر بأن الأزمة قد انتهت وأن المشير عبد الحكيم عامر قد استجاب لمطالب الجيش السورى . وفى الحال هرع ضباط الانقلاب إلى احتضانى والاعتذار الشديد لى لما حدث منهم .

البيـان رقـم ١٠

ولكن بعد فترة قصيرة ، صدر البيان رقم ١٠ الذى حمل فى طياته أن الأزمة للأسف مازالت مستمرة !

وهنا تكهرب الجو مرة أخرى وعاد الوضع إلى ما كان عليه قبل ساعات . . وفى هذه اللحظة غادر الغرفة بعض الضباط السوريين وآثروا ألا أرى وجوههم إلى الأبد . وفى مساء اليوم التالى جاءنى بعضهم وطلب منى بمنتهى الحزن والأدب أن أتوجه معهم إلى أحد المعسكرات القريبة من دمشق (معسكر سلاح الإشارة بالقابون) !

كانت الجماهير السورية منقسمة على نفسها بين مؤيد للانفصال وبين معارض له . بل إن بعض القوات السورية فى حلب دخلت فى مقاومة ضد القوات الانفصالية . . وقامت مظاهرات شعبية كثيرة فى حلب ودير الزور واللاذقية وغيرها تنادى بشعارات الوحدة وتدين الانفصال .

وفى المساء وقع حادث إنسانى من سائق سيارتى السورى العريف عبد الله ، إذ توجه إلى منزلى وأنا محجوز بالمعسكر ليطمئن زوجتى وأولادى على سلامتى رغم الحظر الكامل على التحركات . ولقد حدث ذلك فى مساء اليوم نفسه ، إلا أنه جاء متأخرًا بعض الوقت ، فقد أصيبت زوجتى بصدمة نفسية أدت إلى ظهور أعراض مرض السكر عليها الذى لازمها بعد ذلك طيلة الحياة برغم المشاعر الطيبة لجيراننا السورين الذين لم يتركوها هى وأولادى لحظة واحدة . ولكنى فى الحقيقة أصبحت أستشعر مرارة الانفصال كل يوم مع كل جرعة أنسولين تتعاطاها حتى يومنا هذا .

فى معسكر الاعتقال وجدت هناك ما يقرب من خمسمائة ضابط مصرى . وبالطبع كانت هناك معسكرات اعتقال أخرى غير هذا المعتقل .

وعند منتصف الليل طلب منى ضابط سورى برتبة المقدم أن أصطحبه إلى خارج المعسكر حيث وجدت أتوبيسًا فى الانتظار كان به مجموعة أخرى من ضباط اللواء ٧٠ مع عائلاتهم . ولقد أسرَّ لى المقدم أننا سنتوجه إلى منزلى لكى أرحل مع عائلتى عند الفجر ولن يسمح لنا إلا بحقيبة واحدة لملابسنا .

وعند حوالى السادسة صباحًا توجهنا إلى مطار دمشق ، حيث كان فى انتظارنا طائرة أثيوبية مستأجرة خصيصًا لنقلنا ، وكانت تقل ضباط المدرعات المصريين الذين كانوا يعملون فى اللواء المدرع فى حمص فى شمال سوريا . لقد أصبح واضحا أن قادة الانقلاب كانوا يرغبون فى التخلص العاجل من وجود ضباط المدرعات المصريين فى أول الأمر لخشيتهم منهم .

ولقد خلفنا وراءنا معظم متاعنا ومستلزماتنا وشققنا ومفروشاتنا ، والتى اضطررنا لتركها أو

التخلص منها بأبخس الأثمان فى آخر اللحظات ، وبالطبع كانت هذه الخسائر المادية آخر ما كنا نأسف له أو نفكر فيه .

وهكذا بعد ٤٨ ساعة فقط من الانفصال كنا فى مصر . وقد حمدت الله على نجاتى وأولادى من محنة الحجز والاعتقال . . ولو أنى كنت أشعر بالأسى لعدد كبير من الضباط الزملاء الذين استبقوهم هناك كرهائن فى سوريا وظلوا بها لمدة تصل إلى حوالى الشهر ، لم يعاملوا فيها معاملة كريمة من عناصر الانفصاليين حتى كان سفرهم عن طريق لبنان حيث لقوا بها كل تعاون وود من الحكومة والشعب اللبنانى (١) .

وللأسف لم يقتصر ترحيل المصريين على مجرد ضباط الجيش ، بل امتد إلى ترحيل المعلمين والخبراء كافة من كل التخصصات ، ولقد تم تسفيرهم بالبحر عن طريق ميناء اللاذقية . . وكانت خسارة كبيرة لهم ولنا . . **وهكذا انتهت تجربة أول وحدة عربية فى العصر الحديث ، وتمزقت معها الجمهورية العربية المتحدة بسبب الحكم البيروقراطى العسكرى وبسبب الفراغ السياسى الذى لم يسده تنظيم سياسى مخلص تتوافر له الكوادر الحزبية الصالحة . .**

---

(١) ما زلت أذكر تعليقا بريئًا من ابنى شريف عن أحداث هذا اليوم ، وكان شريف وقتها يبلغ من العمر خمس سنوات تقريبًا ـ فى آخر ليلة لنا بسوريا أيقظناه عند الرحيل من سباته العميق لنغادر المكان قبل بزوغ الفجر تحت حراسة مقدم سورى وملازم أول مسلح فى صحبته . . سألنى شريف وعلامات التعجب ترتسم على وجهه من هذه الرحلة المفاجئة ـ « احنا رايحين على فين يابابا » ؟

وأجبته أننا عائدون إلى مصر . . فقال فى تلقائية الطفولة : « والله مصر أحسن من سوريا » ! ولم أعلق بشيء ولكن لدهشتى سمعت المقدم السورى يقول لشريف :

« والله يابنى الحق معك » !

ومن المضحك المبكى أننا عند وصولنا إلى مطار القاهرة الدولى وفى طريقنا إلى بيتنا حانت منى التفافة إلى شريف فوجدته وكأنه يفكر فى قلق عميق ، فسألته عما يشغل باله . . فقال لى فى سذاجة : « حنعمل إيه لو طردونا تانى من هنا كمان » ! ؟

والحقيقة كان شريف معذورًا فى هذا التفكير ، فلقد ظللنا طيلة العام الماضى نؤكد له فى حديثنا أن مصر وسوريا وطن واحد . . وها هو ذا الآن يخشى أننا كما طردنا من سوريا قد نطرد أيضًا من مصر . .

وظللت للحظة أبحث فى رأسى عن إجابة مبسطة توضح له الأمر فى كلمتين ، ولكن أنقذنى من حرجى صوت أخته الكبرى جيهان بنت التاسعة تقول له : « لا ياشريف لا تخف . فمصر هى البلد الذى ولدنا فيه . . ولا يستطيع أحد أن يطردنا منها أبدًا » ! والآن بعد مضى نحو ثلاثين عاما على هذا اليوم مازالت جيهان تذكر هذا الحادث بكل تفاصيله ، وعندما تتذكر حديثها مع أخيها شريف تقول لى : كنت أرغب فى طمأنته ولكن يعلم الله كم كنت أتألم فى داخلى رغم أنى كنت صغيرة !

والحقيقة أن مصر كلها قد تألمت فى ذلك اليوم . .

وأذكر أن عينى لم تقع على أى ضابط سورى بعد ذلك اليوم إلا بعد ذلك باثنى عشر عاما ـ كان ذلك فى شهر أكتوبر عام ١٩٧٣ ، وكنت وقتها أعمل مديرًا للمدرعات عندما اتصل بى تليفونيا أحد ضباط المخابرات الحربية المصرية عقب وقف إطلاق النار فى حرب أكتوبر ، وقال لى إنه يحدثنى من مطار القاهرة الدولى حيث كان مكلفًا باستقبال ضابطين سوريين فى مهمة رسمية ، ولدهشة ضابط المخابرات أنهما بمجرد نزولهما من الطائرة أخذا يوجهان إليه عشرات الأسئلة عنى وعما إذا كنت مازلت أعمل فى القوات المسلحة وما رتبتى الحالية وما المنصب الذى أشغله الآن . . إلى آخره !

وعندما أجابهما عن كل ما سألاه أقسم له الضابطان أن أكون أنا أول شخص يقابلانه فى مصر قبل أن يتوجها إلى الفندق .

كان هذان الضابطان يعملان معى فى اللواء المدرع السورى ٧٠ . وفى الحقيقة كانت سعادتى بهما لا توصف ! فقد أدركت فى ذلك اليوم أن مشاعر الشعوب لا تستطيع أن تغيرها السياسة . . فالسياسة عادة ما تتغير وتتبدل وتتلون بالمصالح ، أما مشاعر الشعوب فكثيرًا ما تبقى أصيلة راسخة !

فى أعقاب الانفصال

بعد الانفصال حضرت وفود مختلفة من الضباط السوريين لمقابلة عبد الناصر فى القاهرة ، وحرصوا على تأكيد إعادة إقامة الوحدة بشكل سليم وعلى أسس اشتراكية . وأذاع بشير العظمة رئيس وزراء سوريا تصريحات بهذا المعنى اتضح فيها بعد أنها جاءت نتيجة لضغوط شعبية ، إذ سرعان ما تراجعت الحكومة عن هذا الاتجاه وبدأت حملة اعتقالات لكل من كان من «الناصريين» ، ودخلت سوريا بعد ذلك فى صراع بين العسكريين والمدنيين على الحكم ، ثم تلاحقت الوزارات حتى بدأت مباحثات وحدة ثلاثية فى مارس ١٩٦٣ بين مصر وسوريا والعراق ، الذى كان قد قام بانقلاب ضد الحكم الملكى عام ١٩٥٨ ، ولكن اعترض عبد الناصر على تولى حزب البعث قيادة كل من سوريا والعراق . وبعد قليل تم الإعلان عن قيام الوحدة الثلاثية ، ولكن قامت الانقلابات المتتالية فى سوريا مما جعل تيار الوحدة بين البلدين ينحسر ، حتى تمخض الوضع عن انقلاب البعث الأخير الذى كان ترتيبه رقم ١٥ بعد الحرب العالمية الثانية ، ثم توقيع اتفاقية الدفاع المشترك مع مصر عام ١٩٦٦ .

أهل الثقة وأهل الخبرة مرة أخرى

وبعد عودتى المبكرة إلى مصر ، صدر أمر بإلحاقى بإدارة سلاح المدرعات بصفة مؤقتة .

وبعد أيام اتصل بى العميد محمد الليثى قائد الحرس الجمهورى وكان صديقًا لى ، وطلب أن أذهب لمقابلته فى مكتبه برئاسة الحرس . وهناك علمت منه أن الرئيس عبد الناصر أمر بتشكيل كتيبة دبابات حرس جمهورى وأنه قد وقع على الاختيار لقيادة هذه الكتيبة ، ولكنى اعتذرت عن قبول هذا المنصب موضحًا أن آخر عمل لى كان قائد لواء مدرع . عندئذ قال لى : تأكد أننا سنجد حلا لهذا الوضع .

وفى اليوم التالى اتصل بى وأخبرنى أن الرئيس قد وافق على أن أتولى منصب قائد ثانى الحرس الجمهورى وقيادة الكتيبة فى آن واحد .

ولكن بعد أيام قليلة ألغيت هذه الفكرة تمامًا . . فقد كان المشير عامر فى زيارة إلى أندونسيا على رأس وفد عسكرى ضم العميد طلعت حسن على والرائد شمس بدران بين أعضائه . وكان شمس بدران يعمل ضابط اتصال بين المشير عامر والرئيس عبد الناصر ، وقد أخذ الجفاء يدب بينهما بشكل واضح فى أعقاب الانفصال . وانزعج شمس لفكرة ترشيحى للحرس موضحا للرئيس ولمحمد الليثى كيف يغيب عن البال أن أعمل أنا قائدًا لدبابات الحرس بينما يتولى شقيقى طلعت قيادة الفرقة المدرعة الوحيدة !

وهكذا برزت على السطح مرة أخرى قضية أهل الثقة وأهل الخبرة ، ويبدو أن « الثقة » كانت لها موازين خاصة يصعب تحديدها إلا بواسطة أشخاص مثل شمس بدران الذى أصبح هو نفسه ومشيره ليسا محلا « لثقة » عبد الناصر فيما بعد . .

على أية حال حمدت الله تمامًا أنى انتدبت للعمل مدرسا فى كلية أركان الحرب ، حيث أتيحت لى فرصة القراءة والترجمة لكثير من الكتب العسكرية عن الحرب العالمية الثانية وغيرها . وعشت بكل استمتاع واستغراق مع فكر أفضل القادة والمحللين العسكريين أمثال ليدل هارت وجودريان وفولر وغيرهم . وقد قرأت كثيرًا عن الحرب الخاطفة وحرب المدرعات ومشاكل أوربا وألمانيا وعن فترة ما بين الحربين ، **وابتعدت فى سعادة كاملة عن المشاكل التى كانت تؤرق أهل الثقة فى ذلك الوقت والتى اضطرتهم أن يلعبوا على الحبلين ، بعد أن ازدوج الولاء فى السر وتوزعت همومهم حول كيفية الاحتفاظ بالولاءين معا للقيادتين السياسية والعسكرية فى آن واحد، دون أن يسقط لاعب منهم من فوق الحبل ليجد نفسه وقد فقد اتزانه فى الفضاء !**

الباب الثامن

التاريخ يتجمّد فوقَ قمم اليمنْ

الفصل الخامس والعشرون

حماية أم "موطئ قدم" !

للأسف لم تدم فترة استمتاعى بالعلم والتدريس طويلاً بكلية أركان الحرب ، إذ سرعان ما صدر أمر انتدابى بعد قرابة عام واحد ، إلى هيئة العمليات الحربية للقوات المسلحة ، لأكون مسئولا فى فرع العمليات عن مسرح العمليات باليمن ، ثم بعد شهر واحد فقط صدر أمر آخر بانتدابى إلى فرع العمليات للعملية ٩٠٠٠ نفسها ، وكان هذا هو الاسم الرمزى أو الكودى لحرب القوات المصرية فى اليمن . . فتوجهت إلى صنعاء لأتولى رئاسة فرع العمليات فى سبتمبر عام ١٩٦٣ .

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى « أحظى » فيها برؤية « اليمن السعيد » ، فلقد حدث منذ شهور قليلة فقط أنى ذهبت فى زيارة ميدانية قصيرة لليمن مع أعضاء هيئة تدريس الكلية ، مصطحبين طلبة الدورة التاسعة عشرة التى كنت أقوم بتدريس مادة تكتيك المدرعات لهم . كان من تقاليد الكلية أن تقوم كل دورة من الدورات بزيارة لدولة أجنبية ، وفى الدورات السابقة هناك من حظى بزيارة الولايات المتحدة ، كالدورة العاشرة التى كلفت باستلام صفقة السلاح الأمريكية التى لم تتم . . وحظيت الدورة السابقة بزيارة مجموعة من البلاد العربية .

ولم تستغرق زيارتنا لليمن مع الكلية سوى أسبوع واحد حيث وصلنا صنعاء فى ١٥ مايو فى أعقاب نجاح ما كان يعرف بحملة الربيع التى اشترك عبد الحكيم عامر بنفسه فى شنها ، ونجحت بعدها القوات المسلحة فى السيطرة على ثلثى أرض اليمن ضد قوات الملكيين التى كانت تتلقى المساعدة من قوى خارجية متعددة .

وهكذا كان على أن أركب الطائرة الأنتينوف مرة ثانية ، هذه الطائرة المشهورة التى كانت تحمل الأسلحة والبضائع بصفة مستمرة إلى اليمن ، ونظرًا لعدم وجود مقاعد كافية بداخلها

فغالبا ما كنّا نقضى الرحلة فى بطن الطائرة غير المكيف متدثرين بالبطاطين الثقيلة وعلى وجهنا قناع للأوكسجين لا يفارقنا طيلة الرحلة . .

سيدنا آدم واليمـن

وأذكر أنى أول مرة وقع بصرى فيها من نافذة الطائرة قبل هبوطها على أرض صنعاء ، قد أصبت بصدمة عنيفة لهول التخلف الذى كنا نطير فوقه حتى هبطنا فوق أرض المطار الترابية غير المرصوفة . .

وخلال أسبوع الزيارة الذى قضيناه بين ربوع صنعاء ، اتضحت لنا معالم الصورة الكاملة وأدركنا أسباب قيام العسكريين من أهل البلاد بهذا الانقلاب العسكرى الذى جاء متأخرًا عن موعده العديد من السنين ، لينفض اليمن عن كاهله غبار القرون الوسطى التى عاشها أهله فى تخلف تام وفى عزلة كاملة عن العالم تحت حكم الأئمة الذى امتد لنحو ألف ومائة عام . . قتل خلالها ١٨ إماما منهم !

لقد فهمت يومها فقط مغزى الدعابة المشهورة التى كنت أسمعها كثيرًا عن تخلف اليمن ، والتى كانت تقول إنه عندما بعث سيدنا آدم إلى الوجود مرة أخرى ، اصطحبه أحد الملائكة فى جولة سريعة ليريه ممالك العالم وما صارت عليه من تغير منذ العهود الأولى للأرض ـ وظل سيدنا آدم يتعجب من كل شىء يراه وظل يسأل الملاك عن اسم كل مملكة تصادفهما . . ويجيب الملاك هذه هى مصر ويتعجب آدم من تغير شكلها وينتقلان إلى الهند ، وإلى بلاد كثيرة . . حتى وصلا إلى اليمن فنظر آدم إلى الملاك وقال له لا داعى أن تذكر لى اسم هذا البلد إنه اليمن !

ومغزى النكتة واضح ، فهى تقول إن اليمن لم يتغير حاله منذ آدم ! وعندما زار رالف بانش (الأمين العام المساعد للأمم المتحدة) اليمن لأول مرة أكد هذا المعنى بطريقة أخرى قائلاً : **«عندما زرت الكونغو شاهدت جريمة الاستعمار . . ولكن عندما وصلت إلى اليمن آمنت بأن من سوء الحظ أنها لم تعرف ولو قدرًا ضئيلاً من الاستعمار ! »** .

ولقد كان الإمام أحمد آخر الأئمة الذين حكموا اليمن ، ذا شخصية أسطورية ، أحكم عزل بلاده تمامًا عن حضارات العالم الخارجى ، وعندما توفى فى يوم ١٩ سبتمبر ١٩٦٢ خلفه ابنه الإمام البدر ولى عهده الذى لم يمكث فى الحكم سوى أسبوع واحد ، ثم كانت الثورة التى حدثت فى ليلة ٢٥/ ٢٦ سبتمبر ، وظن الجميع أنه قتل وأذيع ذلك فى بيان رسمى ، فى صباح

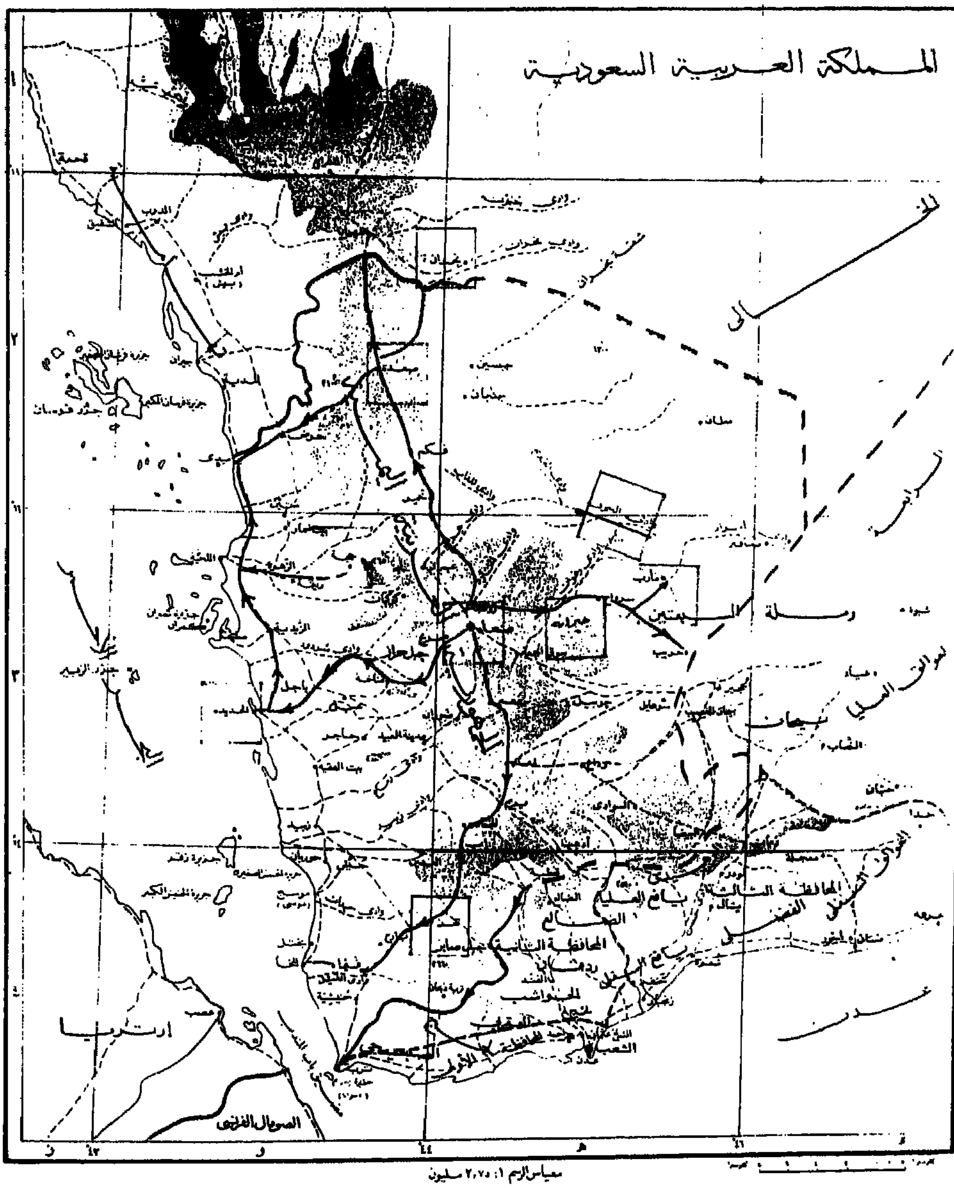
اليوم التالى أعلن سقوط الملكية ، وقيام الجمهورية العربية اليمنية ابتداء من الساعة الخامسة يوم ٢٦ سبتمبر ، ولكن سرعان ما ظهر ولى العهد الهارب فى بلدة فى شمال غرب اليمن .

كانت الأخطار تحيط بالثورة من جهات عديدة . فقد زحفت بعض القبائل إلى صنعاء تحت دعوى التهنئة ، ولكن كان يخشى من احتلالهم ونهبهم لصنعاء كما حدث منهم فى مرات سابقة . كما كان يخشى من قيام الطيران السعودى والبريطانى (من عدن) بتحركات مضادة للثورة . وكانت القاهرة قد أعدت طائرة داكوتا فى أسوان وبها محطة إرسال وصواريخ ، وكانت جاهزة للتحرك إلى اليمن ، ووصلتها بالفعل فى اليوم الثالث وعلى متنها محمد الزبيرى وعبد الرحمن البيضانى (من رجال الثورة الذين كانوا يقيمون وقتها بالقاهرة) ومعهم العميد على عبد الخبير من مكتب المشير وقائد الجناح الطيار أحمد نوح . ثم أصدرت مصر بيانا تحذر فيه من أى تدخل عسكرى خارجى . ولم تشارك البعثة السوفييتية (التى كانت موجودة بالفعل فى اليمن) فى أى عمل . . ومع مضى الأيام بدأ موقف الثورة يستقر ، وشعر الأهالى بالفرحة لإنهاء عهد أسرة حميد الدين .

ثم طلب قادة الثورة من مصر مساعدة عسكرية ، ووصل أنور السادات الذى كان قد عين مسئولا سياسيا عن اليمن فى الأسبوع الثانى من أكتوبر ، حيث وقع اتفاقية دفاع مشترك بين مصر واليمن . وكانت قد وصلت قبله ثلاث طائرات حربية وقوات من الصاعقة المصرية تحركت من السويس يوم ٥ أكتوبر ٦٢ ولم يكن حجمها وقتذاك يزيد عن سرية (مائة جندى) انتهى الأمر بها إلى هذا العدد الضخم الذى آلت إليه من الضباط والجنود ، وهو الأمر الذى وصفه يومًا جمال عبد الناصر بنفسه لأحد قادته (الفريق عبد المحسن مرتجى) قائلا :

« لقد أرسلت سرية فى أول الأمر إلى اليمن واضطرت إلى تعزيزها بسبعين ألف جندى » ! وهذا القول يوضح كيف أن عبد الناصر نفسه لم يكن فى نيته منذ البداية أن يأخذ الأمر شكل الغزو العام لجميع أرض اليمن ، هذا الأمر الذى فسره الملك سعود بأنه خطوة أولى على طريق غزو السعودية والسيطرة على منابع البترول بها ، وفسره الملك حسين بأنه تمهيد لطرده من العرش عن طريق تشجيع شعب الأردن بالقيام بخطوة مماثلة لما حدث فى اليمن . والحقيقة أن الشعور نفسه كان يستولى على كل الأمراء والسلاطين فى أنحاء شبه الجزيرة ، وغذّى هذا الشعور كل من الولايات المتحدة وبريطانيا التى كانت تخشى من زحف الثورة من اليمن فى الشمال إلى القواعد التى كانت تحتلها فى عدن والجنوب . .

وبرغم أن عبد الناصر كان يؤكد بصفة مستمرة أن ذهاب الجيش المصرى لم يكن إلا لهدف دفاعى هو حماية الثورة وتأمينها من أى اعتداء عليها من الإنجليز من عدن فى الجنوب أو من



المحاور الرئيسية لمسرح عمليات اليمن

السعوديين فى الشرق والشمال ، إلا أن الذى ترسخ فى أذهان الجميع أن أهداف عبد الناصر كانت هجومية توسعية مهما تغطت بمختلف الأسباب والمبررات . وجاء هذا المعنى واضحًا لا لبس فيه على لسان الكاتب الأمريكى إدجار أوبالانس فى كتابه عن الحرب فى اليمن قائلاً : «لقد اعتقد عبد الناصر أن القيام بحملة سريعة وقوية سوف يحطم كل أوجه المعارضة ، ثم ينقل الثورة خارج حدود اليمن إلى العربية السعودية » . ولذلك فهو يقول فى مقدمته للكتاب : « فى اليمن حاربت الجمهورية العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية كل منهما الأخرى من خلال وسيط » !

أما مايلز كوبلاند فكان أكثر اندفاعًا فى توضيح هذا المعنى ، حيث ذكره على غير استحياء قائلاً : « لو أن اليمن انزلق (بأرضه كلها) إلى البحر رويدًا رويدًا وغاص فيه شبرًا شبرًا حتى أصبح أثرًا بعد عين ، فما أظن أن الجنس البشرى سيفطن له ، وحتى إذا فطن فلن يعانى من ألم أو يشعر بوخزة ضمير ! لكن من جهة أخرى ، فقد أدرك ناصر أنه ما من امرئ يستطيع أن يجنى أية مكاسب فى منطقة ما عن طريق الانتفاضات المحلية أو حروب العصابات ما لم يكن له فيها موطئ قدم » !

« وعلى ذلك لم يكن ناصر باليمن من المهتمين ، بل كان إلى كل الجزيرة (العربية) من المتطلعين . فاليمن عنده موطئ قدم لا هدف ولا أمل » .

« وكذلك حكومتنا الأمريكية لم تكن حريصة على اليمن ، بل كان كل قلقها قد تركز على أمن عدن واستقرارها ! فكانت من انتشار موضة المستقبل [1] فى أرجاء الجزيرة خائفة ، ومن انتشار جرثومتها واجفة . . ولقد كان ناصر على يقين مما ينظره ويراه ، ولكنه لم يصدق أننا نحن الأمريكيين لا نرى ما يراه » . .

وعند بدء ثورة اليمن هرعت مصر وبقية الدول العربية (باستثناء الأردن والمملكة العربية السعودية) إلى الاعتراف بالجمهورية اليمنية الجديدة . وخطا الاتحاد السوفييتى والصين الشعبية وغيرهما من الدول الشيوعية الخطوة نفسها ، **الأمر الذى جعل الانقلاب يبدو فى عيون الأمريكيين وكأنه انقلاب شيوعى ، مما أدى إلى اعتباره خطرًا يهدد المصالح الغربية فى الجزيرة العربية الغنية بحقول البترول وآباره .**

ولقد حدث فى ديسمبر عام ١٩٦٢ (أى بعد الانقلاب بثلاثة أشهر) أن قام السفير

---

(١) يطلق مايلز تعبير « موضة المستقبل » على عبد الناصر وأنه مثال أصبح يتبعه كثيرون لمحاربة الاستعمار .

الأمريكى بمصر جون بادو بزيارة لعبد الناصر وطلب منه تأكيدات بأن اليمن لن تستخدم كقاعدة لشن حملات عسكرية على المملكة العربية السعودية أو على المراكز البريطانية فى جنوب الجزيرة العربية . ويقول كوبلاند إن ناصرا أصيب بالدهشة إزاء هذا الطلب ، ولم يتردد ألبتة فى إعطاء السفير ما شاء من تأكيدات وضمانات . وفى ١٩ ديسمبر عام ١٩٦٢ قامت الحكومة الأمريكية بالاعتراف بالنظام الجمهورى فى اليمن [١] .

الغريب فى الأمر بعد ذلك أن « ناصر » أوفى بجميع ما وعد ، إلا أن العكس هو الذى حدث . . فقد اكتشفت القيادة العسكرية فيما بعد فى اليمن أن الأمريكيين قد استغلوا معسكر النقطة الرابعة فى تعز لإطلاق صواريخ على معسكر كتيبة مظلات مصرية وفجرت به مخزنا للذخيرة . وعند تفتيش المعسكر قبض على ثلاثة أمريكيين أرشدت عنهم الكلاب البوليسية !

وقبل ذلك حدث قصف بنيران المدفعية البريطانية (فبراير ٦٣) على قوات جمهورية محدودة كانت قد توغلت فى الجنوب قرب قلعة حريب فى المناطق المتنازع عليها ، كما قام الجيش الخاضع للبريطانيين فى عدن بدخول اليمن من الجنوب واعتقل بعض الخبراء السوفييت ونقلهم إلى لندن .

إلا أن أهم الأحداث التى أثبتت تدخل القوى الأجنبية بشكل فاضح فى الحرب ، كان بعد مرور أسبوع واحد فقط على ثورة اليمن حيث هبطت فى مصر طائرات من المملكة العربية السعودية المحملة بالإمدادات الأمريكية ، كما التجأ قائد سلاح الطيران الأردنى بنفسه إلى مصر (١٠ نوفمبر) مصرحًا بأن قواته التى ترابط بالقرب من مدينة الطائف فى العربية السعودية قد صدرت إليها الأوامر بالقيام بشن غارات هجومية ضد القوات العسكرية الجمهورية المرابطة شمال اليمن . ثم التجأ فى اليومين التاليين إلى مصر أيضًا طياران أردنيان بطائرتيهما المحملتين بصناديق ذخيرة بريطانية ، ولقد تم إلحاق الطيارين الأردنيين الثلاثة فى سلاح طيران الجمهورية العربية المتحدة .

كل ذلك يؤكد كيف أن التحرك المصرى إلى أرض اليمن الذى كان يقصد تأمينها وحمايتها فقط دفاعيًا ، قد ألّب على مصر العديد من الدول الغربية والعربية وجمعها معا فى معسكر واحد ، **هذا المعسكر هو الذى سوف يخطط لمؤامرة عدوان ١٩٦٧ الذى لا أكون مغاليا إن**

---

(١) تبع اعتراف الولايات المتحدة اعتراف كل من كندا وأستراليا . أما بريطانيا فقد أغلقت مفوضيتها فى تعز فى عام ١٩٦٣ .



الأمير سيف الإسلام أحمد



فى اليمن أثناء استجواب أحد المخربين

قلت عنه إنه كان عدوانًا ثلاثيًا آخر تواطأت فيه أمريكا وإنجلترا مع إسرائيل وإن كانا قد استطاعا أن يخفيا بصماتهما بطريقة ماكرة حتى لا تتكرر مأساة وأخطاء إيدن وجى موليه ، الأمر الذى يؤيد بصدق قول المعلقين الذين يؤكدون أن عدوان ٦٧ إنما ابتدأ طريقه من صنعاء . وإن كان دور كل من السعودية والأردن كان أكثر دهاء ، ثأرًا وانتقامًا مما وجهه عبد الناصر من طعنة مهينة فى شرف العاهلين سعود وحسين فى الخطاب الذى ألقاه عبد الناصر يوم ٢٣ ديسمبر عام ١٩٦٢ عندما تحدث عن خسائرنا فى هذه الحرب فقال :

« بلغت خسائرنا حتى ذلك اليوم ٢١ ضابطًا و ١١٥ جنديا ، كل واحد منهم جزمته أشرف من تاج الملك سعود والملك حسين » !

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يقول حسن إبراهيم عضو مجلس قيادة الثورة [1] إن جمال عبد الناصر عندما عرض عليهم القضية (قضية إرسال قوات لمساندة ثورة اليمن) قال إن هناك خوفا من تدخل السعودية ضد هذا النظام الجديد ، وأنه إذا أرسلت مصر قوات رمزية فإن هذا سوف يجعلهم يفكرون مرتين قبل الإقدام على أى تحرك مضاد . وفى هذا الاجتماع وافق مجلس قيادة الثورة بالإجماع وبلا استثناء على مساندة الثورة اليمنية .

لقد كان الشعور السائد وقتذاك بين الجميع أن مساندة اليمن لتنجح فيها الثورة العربية ، سوف تعوض الانفصال عن سوريا . . وهكذا فإن الطريق أيضًا إلى صنعاء ـ كما يرى أيضا بعض المعلقين ـ قد بدأ هو نفسه من دمشق !

---

(١) أحمد حمروش ـ عبد الناصر والعرب ص ٢٢ الجزء الثالث الطبعة الثانية .

الفصل السادس والعشرون

أعطني عمراً والقني من السماء!

لم تزد معلوماتى عن اليمن كثيراً فى هيئة عمليات القوات المسلحة خلال فترة الصيف التى قضيتها بها ، اللهم إلا من ناحية أسلوب قتال أتباع الإمام البدر المخلوع والذى لم يخرج عن بث الألغام وحرب العصابات .

وفى أول سبتمبر عام ١٩٦٣ سافرت إلى صنعاء حيث قدمت نفسى إلى قائد القوات الفريق أنور القاضى ، وأخذت أستمع إلى أنواع المعاناة التى لاقتها القوات فى الفترة السابقة من النقص فى المعلومات والخرائط وعدم تدريب القوات على حرب الجبال ، وأهم من ذلك عدم وضوح الخطة الإستراتيجية للقيادة العسكرية فى مصر .

ولكن يتصدّر كل ذلك عدم وجود أى معرفة مسبقة باليمن وبأهلها ، فلم تكن المعاناة الرئيسية من المعركة فى حد ذاتها بقدر ما كانت فى معرفة العدو من الصديق . كانت بعض القبائل تظهر ولاءها فى النهار لتنقلب ضدنا بالليل ومع صباح اليوم التالى ترتد إلى ولائها من جديد ثم تنكص على عقبها ثانية وهكذا . . وكانت الإمامة ما زالت لها رهبة فى نفوس اليمنيين حيث تسود الأميّة والتخلف والخضوع الأعمى لبعض المظاهر الدينية التى تفترض طاعة الإمام وقدسيته بصفته أميراً للمؤمنين .

ويميل الفريق القاضى إلى تقسيم فترة المعارك السابقة تقسيماً نظرياً إلى مرحلتين رئيسيتين :

(أ) **المرحلة الأولى** من سبتمبر عام ١٩٦٢ إلى مايو عام ١٩٦٣ وهى تعتبر من أقسى المراحل التى انتهت فى آخر الأمر بوصول القوات المصرية إلى الحدود الشمالية والشرقية وسيطرتها على اليمن سيطرة شبه كاملة .

(ب) **المرحلة الثانية** من مايو عام ١٩٦٣ إلى نوفمبر عام ١٩٦٣ وشهدت تطهير الجيوب المعادية التى كانت تظهر وتختفى مع الارتزاق والابتزاز ، ثم حسمها فى النهاية هجوم الربيع الذى قضى على فلول الملكيين فى الشمال .

والمرحلة الأولى هى التى شهدت أصلاً تزايد حجم القوات بصفة مطردة نتيجة للكمائن التى نجح الملكيون فى نصبها للقوات الصغيرة الحجم التى كانت تصل بغير خبرة إلى اليمن : وهو الأمر الذى أوضحه عبد الناصر فى خطابه المشهور عندما قال إنه فى ٥ أكتوبر كان لنا مائة صف ضابط وعسكرى فقط . وفى يوم ٩ أصبحوا ٥٠٠ ثم ٢٠٠٠ فرد فى يوم ١٦ . وبعثنا أول قوة من سلاح الطيران يوم ١٠ أكتوبر ، طيارتين . . . ثم انتهى الأمر بوصول هذا العدد إلى سبعين ألفا .

وعندما تلاقيت مع العميد أ.ح محمد عبد المنعم خليل رئيس العمليات ، كنت قد وطدت نفسى على أن أطلع على الموقف بكل تفصيلاته وأن أزور أرض اليمن شبرًا شبرًا حتى ألمس بنفسى كل الصعاب والمشاكل التى تعايشها الوحدات سواء من ناحية حصولها على المعلومات أو من النواحى الإدارية والفنية .

كنت سأحل محل العميد عبد المنعم . لذا طلبت منه أن يعتبر وصولى قد تأخر شهرًا عن موعده وذلك حتى يتم تعرفى على طبيعة الأرض وعلى أوضاع قواتنا وزعماء القبائل وجندها وقادتها وتسليحها وولائها . . إلى آخره .

وعندما بدأت جولتى لزيارة المحاور [1] المختلفة ـ التى كانت تمتد أحيانًا لمدة أسبوع بأكمله ـ كنت قد استخدمت كل وسائل النقل المختلفة التى خلقها الله أو اخترعها الإنسان : الطائرة والعربة المدرعة والدبابة والدواب . . ثم قدمى عندما كنت أصعد إلى بعض قمم الجبال فى زمن يصل إلى خمس ساعات أو يزيد .

وبعد انتهاء الشهر كنت قد ألممت إلمامًا تفصيليًا بمسرح العمليات . وكان علىّ أن أبدأ مع الزملاء رحلة التخطيط فى اتجاهين مختلفين !

١ ـ **الاتجاه الأول** : إعادة تجميع القوات المسلحة بعد تشتت دام قرابة العام نتيجة وصول القوات إلى اليمن فى وحدات صغيرة تم دفعها للعمليات مباشرة فى اتجاهات متعددة ، مما ترتّب عليه صعوبة فى السيطرة وفى التدريب وفى النواحى الإدارية والفنية وغيرها .

---

(١) يقصد بالمحور الاتجاه الذى اتخذ لتمركز القوات فى قواعدها التى غالبًا ما يصل إليها طريق رئيسى يبدأ من القاعدة الرئيسية فى صنعاء .

ولقد تمكنا من تنفيذ هذا التخطيط بوصول وحدات جديدة من مصر لغيار القوات أو لدعمها .

٢ ـ **الاتجاه الثانى** : هو التدريب بقدر ما يسمح به موقف العمليات وطبيعة الأرض وإمكانية التجمع فى كل محور بما يسمح بلمّ شمل الوحدات المبعثرة . ومما لاشك فيه أن الظروف أصبحت مواتية لتجولى فى مختلف المحاور بعد هجوم الربيع ، وبالذات على محور صعدة فى الشمال وفى اتجاه حجّة ، حيث كانت هناك قلعة حصينة للملكيين يقودها الأمير عبد الله ويتخذونها مقرًا دائمًا لهم . وبعد مقتل الأمير واحتلال القوات المصرية لجميع المرتفعات المشرفة على الوديان بمعاونة الطيران ، كان لذلك أكبر الأثر فى طرد التجمعات الموالية[١] لهم من اليمن .

علبة كبريت فى قاع الوادى !

ومع ذلك لم تتوقف الإمدادات بصفة نهائية من السعودية ، سواء بالمال أو بالسلاح ، الأمر الذى أغرى بعض القبائل التى استمرأت الارتزاق من الطرفين بأن تقوم ببث الألغام وعمل الكمائن للقوات المصرية بين الحين والحين مع القيام ببعض التراشقات بالنيران ، وهو الأمر الذى حدث معى أثناء مرورى على منطقة رايدة شمال صنعاء حيث زرت قرية « ثلا » التى تقع على ارتفاع ٢٢٠٠ متر فوق سطح البحر ، وكذا قرية « كحلان » التى تقع على مسافة ١٤ كم منها فقط إلى الغرب ، ولكن نظرًا لتعرج الطريق ومروره بحافة الجبال الشاهقة فإن العربة كانت لا تستطيع أن تقطع هذه المسافة فى أقل من ثلاث ساعات . وهناك جزء من هذا الطريق يبلغ طوله أربعة كيلو مترات أخرى لا يتسع إلا لمرور لورى واحد ٣ طن فى اتجاه واحد فقط . والويل للسائق الذى يختل توازن بصره مع حركة عجلة القيادة والفرملة ، إذ سرعان ما يجد نفسه هو ومن معه وقد هوى بسيارته إلى أسفل القاع السحيق . ولقد حدث ذلك بالفعل لأول دبابة خاطرت بالوصول إلى قرية « ثلا » وما زالت هذه الدبابة قابعة هناك فى القاع تبدو فى حجم علبة الكبريت لمن يشاهدها وهو يسير على الطريق من أعلى الجبل الشاهق [٢] .

---

(١) كان الجمهوريون يطلقون على هذه القبائل اصطلاح « القبائل المفسّدة » أى التى أفسدت العهد بعد ارتدادها عن ولائها مرة أخرى .

(٢) عندما سألت عن أحداث هذه الدبابة ، لم أكن أتصور أنى سأسمع قصة بطولة مذهلة ، فقبل عبور الدبابة أمر قائدها بإخلائها من كل من فيها عدا السائق فقط . ثم ركب هو فى مكان القائد حيث يمكنه أن يرى الطريق أفضل مما يراه السائق وحتى يمكن توجيهه باللاسلكى داخل الدبابة ، ولكن المطر كان =

وعندما اجتزت هذا الطريق الرهيب ووصلت إلى قرية « كحلان » كان ذلك حوالى الساعة ١٢ ظهرًا . وهنا بدأ الاشتباك من أحد مناطق الملكيين ، ثم كان الرد عليهم باستخدام الرشاشات والبنادق وقنابل الهاون إلى أن صمتت مواقعهم كلها .

المـــرأة المعجـــزة

وتصادف أثناء الاشتباك أن أصيبت فلاحة يمنية أثناء عودتها إلى منزلها بنيران خاطئة من اليمنيين ، أصابتها فى الصدغ ، وفى الحال نقلها الجنود مباشرة إلى السرية الطبية وكانت الإصابة خطرة تتطلب جراحة مخ وأعصاب يجب أن يسبقها عدد من صور الأشعة مما لا يتوافر على هذا المستوى الطبى .

ولما كان نقلها إلى أى مستشفى فى الخلف يعد مخاطرة . لذلك رأى طبيب السرية أن يكتفى مؤقتا بتطهير الجرح وربطه مع إعطائها حقنة بنسلين . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يسمح فيها لطبيب « ذكر » أن يكشف على سيدة بالمناطق الريفية باليمن ، بل وربما كانت هذه أول حقنة بنسلين يستعملها أهل القرية طوال حياتهم .

ومن الغريب أنه بعد هدوء المعركة التى استمرت معظم ساعات الليل حتى أشرف الفجر، وبعد أن تدارست الموقف التكتيكى على الخريطة لمنطقتى حجة وكحلان ، تأهبت للعودة عند الظهر ، وإذا بى أفاجأ بسيدة تحمل على رأسها حملاً كبيرًا من الحطب يفوق حجمها ، وفى الحال تبينت أنها نفس فلاحة الأمس التى تشاورنا طويلاً بخصوص حالتها الطبية بعد أن ميزتها الضمادات التى لفها الطبيب حول رأسها ، لقد كانت هذه المرأة اليمنية أشبه بمعجزة تتحرك أمامى (١) .

أعطـــنى عمـــرًا

إلا أن معجزة أشد منها غرابة كانت فى انتظارى أنا شخصيًا بعد عدد من الرحلات المثيرة بالهليوكوبتر فوق سلاسل جبال اليمن الشاهقة . ففى إحدى هذه الجولات تحطمت بى الطائرة

= قد انهمر فى الليلة السابقة فأثر فى سطح الطريق الذى انهار تحت ثقل الدبابة ، وكان من الطبيعى أن يقفز القائد ويتركها ، إلا أن سقوط الدبابة كان أسرع منه فطوته تحتها ليموت فى الحال ، بينما لزم السائق مكانه بداخلها إلى أن استقرت فى القاع ونجا ! !

(١) فسر الطبيب لى هذه المعجزة بأن أهالى الجبال يحملون كمية قليلة فقط من الدم فى أجسادهم بسبب نقص الأوكسجين فوق قمم الجبال . وهذا يجعل كمية النزيف قليلة .

وتناثرت إلى قطع عديدة صغيرة ، وكدت أفقد حياتى ، ولكننى نجوت بأعجوبة لكى ينطبق على المثل الذى يقول « أعطنى عمرًا وألقنى من السماء » .

وكنت قد مكثت فى مسرح العمليات أكثر من أربعة شهور ونزلت إلى القاهرة فى إجازة لم أمض منها سوى أيام قلائل حتى تلقيت إشارة بالعودة فورًا إلى صنعاء .

وعندما مررت بهيئة عمليات القوات المسلحة بالقاهرة قبل عودتى ، عرفت من « الموقف » أن الملكيين قد قطعوا طريق صنعاء الحديدة فى منطقة تعرف ببوعان . واستشهد فى المعركة اللواء محمد المسيرى قائد منطقة صنعاء فى هجوم مضاد ناجح . لقد تمكن الملكيون من قطع هذا الطريق ومناطق أخرى حول صنعاء فى الشرق وفى منطقة أرحب بالقرب من مطار صنعاء الحديدة ، وكان القائد المصرى الطيب القلب قد أخلى منها القوات ليأذن للأهالى بزراعتها ـ رغم اعتراض إدارة العمليات على هذا التصرف ـ فكان هو نفسه أول ضحايا طيبة قلبه ، ولقد تمكننا بعد ذلك من اتخاذ تصرفات رادعة ضد القبائل المرتدة (المفسدة) .

وعندما أخذت بعض التحركات المضادة الأخرى فى الظهور على الطريق إلى صعدا (عند قلعة الصفرا) ، استلزم الأمر منى أن أجرى جولات جديدة بالهليوكوبتر طلبت على أثرها طلعات طيران مكثفة قضت على حشود الملكيين فى وادى نشور شمال صعدا . وعند عودتى بالطائرة للجرف فى منتصف الطريق كان من الضرورى التزود بوقود إضافى تعويضًا عن الجولة الطويلة .

غير أن الطيار أشار بعدم حاجته إلى أى كمية إضافية ، وقرر أن ما لديه من وقود يكفيه للعودة بأمان إلى صنعاء ، وقرر الانطلاق فى ثقة تامة بطائرته رافضًا أية اقتراحات بالانتظار لوصول أى وقود يجيئنا بالطائرات . . كما طلب عدد من الضباط العائدين إلى صنعاء الركوب معنا لأن ذلك سيعفيهم من رحلة يوم كامل برًا إلى صنعاء !

وبينما كنا فى عودتنا على بعد ما يقرب من ٣٠ كيلومترا شمال صنعاء (فوق منطقة أرحب بالذات التى كان أهلها قد أفسدوا) انقطع صوت المحركات وبدأت تتوقف تماما عن الحركة . ثم بدأت الطائرة فى الهبوط بمعدل سريع تهبط معه قلوب الركاب العشرة إلى أقدامهم . وفجأة أصدرت لهم أمرًا واحدًا حازمًا بأن يقفوا فى أماكنهم وأن يمسكوا بالماسورة العليا مع ثنى ركبهم. وقبل ارتطام الطائرة بالأرض بقليل لجأ الطيار بخبرته إلى تشغيل المارش ليحرك المراوح بإصرار وبذلك امتصت جزءًا كبيرًا من الصدمة ، لكن ذلك لم يمنع الطائرة من الاصطدام بالأرض فوق الانحناءات الخلفية لأحد التلال الزلطية التى كان يتمركز بها ـ لحسن الحظ ـ

سرية طبية فى « بيت مران » ! وظلت الطائرة تتقلب على سطح التل وتتطاير أجزاؤها ونحن بداخلها نتقلب معها تارة لأعلى وتارة لأسفل حتى استقرت الطائرة فى النهاية على أحد أجنابها . وهنا هرع جميع ركابها إلى الخروج من فتحة حدثت فى جانب الطائرة العلوى ، وكانوا يدوسون بأقدامهم اثنين من الزملاء ! كان أحدهما هو العميد سعد زغلول قائد قوات صعدا بينما كنت أنا نفسى الزميل « الآخر » ! لقد كان الجميع يتدافعون لخشيتهم من انفجار الطائرة الذى نسوا أنه لن يحدث بسبب نفاد الوقود !

ولدهشتنا أنه بدلاً من أن يحيط بنا الأعداء بنيرانهم كانت مفاجأة لنا أننا وجدنا سيارات الإسعاف وعربات الجيب المصرية تتقدم نحو مكان الطائرة من السرية الطبية . وخرج العميد سعد زغلول من هذا الحادث بإصابة فى عينه ، أما أنا فكان نصيبى خلع عنيف فى الكتف !

أوكازيـون المـوت

العجيب أن الأحداث فى ذلك اليوم لم تتوقف عند سقوط الطائرة وتحطمها ، بل لاحقتنا عند استكمال طريق العودة من « أرحب » إلى صنعاء ، الذى قطعناه داخل عربتين مدرعتين وفى حراسة قوية . ولكن قبل الوصول إلى صنعاء بحوالى خمسة كيلو مترات ، انقلبت عربتى المدرعة فوق منطقة زلطية كانت تمهد لرصفها ، وسقطت السيارة من فوق جسر بالطريق على ارتفاع أربعة أمتار من الأرض عند أحد المنحنيات .

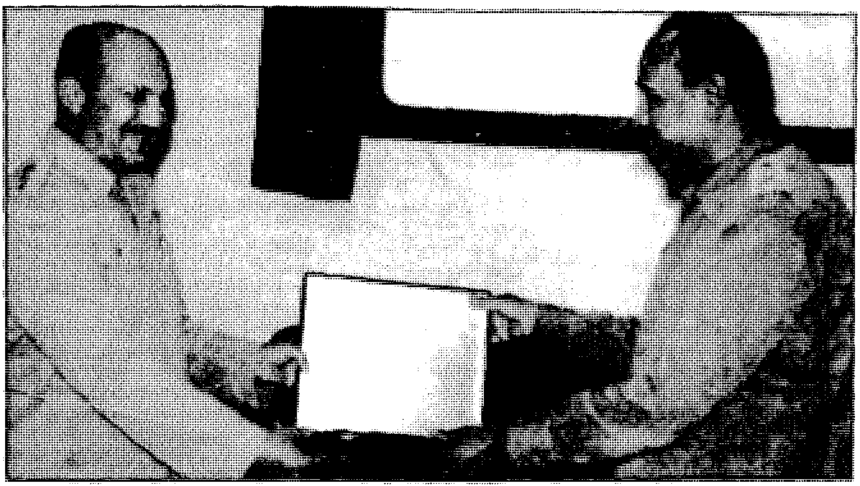
كان معى نفس الطيار الذى خرج من العربة معافى تمامًا للمرة الثانية فى نفس اليوم ، ليلعن هذا « الأوكازيون » الغريب الذى تعرض له فى غضون يوم واحد ، وأصر على مواصلة السير على قدميه حتى صنعاء ! لقد اتضح له أن القدمين اللتين يسير عليهما هما أفضل المطايا !

الفصل السابع والعشرون
محكمة التاريخ

لم يطل بى المقام لفترة طويلة فوق أرض اليمن . فقد نقلت فى مارس ١٩٦٥ إلى قيادة القوات البرية بالقاهرة مديرًا لمكتب الفريق أول عبد المحسن كامل مرتجى الذى تولى قيادة هذه القوات عقب تركه قيادة القوات باليمن ، وكان قد تولاها بدلا من الفريق أنور القاضى لفترة أستطيع أن أطلق عليها المرحلة الثالثة من تاريخ حرب اليمن ، حيث شهدت الكثير من استقرار الأوضاع العسكرية والسياسية بل وحتى الاقتصادية . ذلك لأن الفريق مرتجى شرع فى رحلة تعمير اليمن ، والتى بدأها بتوزيع ١٠٠ جهاز راديو ترانزستور على الأهالى وطلب من القاهرة معونات فنية لإنشاء ورصف الطرق وصيانتها ودعم المستشفيات بالأطباء والأجهزة والأدوية والمهندسين ، وطلب كذلك مجموعة من المهندسين الزراعيين بعد أن تدهورت الزراعات التى اشتهر بها اليمن لقرون طويلة كالبن والفواكه . ثم شرع فى تطوير الإدارة الحكومية مستعينا ببعض الخبراء المصريين فى الإدارة والاقتصاد لوضع أساس نظام حكومى عصرى لم يكن موجودًا أصلاً بأى صورة فى مجال من مجالات الدولة .

الحــل الســـياسى

ورغم أن أضخم عملية حربية فى اليمن ـ وهى ما عرفت بالاسم الرمزى « اكتساح » ـ قد نفذت فى عهد الفريق مرتجى وفى أثناء رئاستى لفرع العمليات ، وكانت اكتساحًا بحق لآخر معاقل الأمير بدر فى قلعته بمنطقة « جبل الغارة » فى الشمال ، إلا أن الرجل لم يكن يؤمن بأن العمل العسكرى هو الحل المطلوب لمشكلة اليمن ، بل كان يدرك أن **العمل السياسى هو الحل الوحيد لهذه المشكلة ، وكتب بذلك تقريرًا واضحًا بهذا المعنى يؤكد فيه أن مشكلة اليمن لن تحل عسكريًا .**



هدية انتهاء الخدمة فى اليمن عام ١٩٦٥

وعلى صفحات محدودة فى مثل هذا الكتاب الذى يتناول أحداث سبعين عامًا ، شكلت فيها قضية اليمن حقبة محدودة ، أرانى عازفًا عن سرد مختلف الأحداث السياسية والعسكرية وموقف القوى المعادية التقليدى ، التى استفزها وأهاج هواجسها وجود أول جندى مصرى وطئت قدمه أرض اليمن ، فراحت تحارب هذا الوجود المصرى فوق هذه المنطقة الحساسة التى تتحكم فى مدخل البحر الأحمر من الجنوب مع قربها المتوثب من مناطق البترول التى تشخص إليها أبصار العالم الغربى فى تحفز وحساسية شديدة لا تسمح لمغامر أن يمارس فيها « اللعب بالنار » .

ولقد اخترت عنوانًا لهذا الباب « التاريخ يتجمد فوق قمم اليمن » ، لا ليرمز فحسب إلى التخلف الذى ظل يلازم اليمن فى غيبة من التاريخ التى كانت تدور عجلته فى مختلف أنحاء العالم ولكنها تتوقف فوق جبال صنعاء ، بل أيضًا لاعتقادى بأن مصر قد تجمد بها التاريخ هى الأخرى طيلة فترة بقائها فوق أرض اليمن . **بل لا أغالى إذا قلت إن النكسة حاقت بنا فى عام ١٩٦٧ فى أعقاب الحرب اليمنية ، وكادت عجلة التقدم عندنا تدور للخلف مع وقوع هذه النكسة التى كانت حرب اليمن مدخلاً مباشرًا لها** .

دعــه ينــزف

للأسف أن الغرب الإمبريالى قد تنبه من أول لحظة إلى إمكانية استخدام اليمن كفخ يستنزف كل قوى مصر العسكرية والاقتصادية فى آن واحد ، ولقد جاء هذا المعنى واضحًا صريحًا وقتذاك فى مانشيت كبير لجريدة التايمز اللندنية بعنوان « دعه ينزف » ، وكان ذلك

عنوانًا لمقال طويل مسهب يلخص سخط إنجلترا وحلف الأطلنطى ودول الغرب كلها وعدم رضاها عن هذا المد الثورى الذى يجتاح المنطقة العربية وإفريقيا لمساندة الحركات الثورية المناهضة للاستعمار . **ولقد اعتبروا التحرك المصرى إلى اليمن ، علاوة على أنه تهديد لمناطق البترول وللمواصلات العالمية إليه ، نشرا للنفوذ السوفييتى بصورة أو بأخرى !**

ولذلك فإنى أعتقد أن كل المواقف السياسية المهادنة التى جاءت من قبل الغرب فى هذه الفترة الأخيرة إنما كانت ذرًا للرماد وتلهية عن المؤامرة الكبرى التى كانت تدبر فى الخفاء بين القوى الإمبريالية والصهيونية لضرب عبد الناصر فى أقصى الشمال عند سيناء بينما يركز ببصره وذهنه على ما يدور فى أقصى الجنوب عند باب المندب . وحتى عندما تنبهت القيادة السياسية فى الأيام الأخيرة إلى هذه اللعبة جاء ذلك الإدراك متأخرًا كثيرًا عن موعده [١] ، فعندما بدأنا فى تخفيف مسرح العمليات كانت القوات قد أنهكت والأموال قد استنزفت وبعثرت !

ولم يكتف الغرب بتوجيه مختلف الضربات العلنية والمستترة للقوات المصرية ، بل راحت الدعايات الغربية توجه سمومها ضد مصر فى حملة مسعورة مدبرة تتهم قواتها ظلمًا وافتئاتا بأنها تستخدم الغازات السامة ضد شعب مسالم برىء كل غايته هو التمسك بملكه الذى شرده جمال عبد الناصر فى كهوف الجبال مدافعًا عن عرشه السليب . . بل وصل افتئات غلاة المتحرشين لدرجة أن وصفوا عبد الناصر بأنه جنكيزخان الجديد . .

وعمدوا إلى تشويه صورته كبطل يساند الحركات الثورية التحررية ، ليعيدوا تصويره فى أعين العالم كمجرد مشاغب يهوى الوقوف إلى جانب كل ثورة مهما كانت ضآلة أهدافها ومقاصدها ، فكانت النكتة المشهورة التى كانت تروى أن عبد الناصر عندما رأى أمامه يومًا ملصقًا كبيرًا عليه عبارة « ثورة على السفينة بونتى » أمر مستشاريه بإرسال برقية تقول « نحن نؤيد هذه الثورة » من قبل أن يتبين أن هذه الكلمات كانت إعلانا عن فيلم سينمائى أمريكى لقصة قديمة !

والحقيقة أن ما أنفق فى اليمن ـ كثيرًا كان أم قليلاً ـ على مشايخ اليمن وعلى الأسلحة والمعدات وجميع أوجه الإنفاق الأخرى [٢] دون ميزانية معينة أو اعتماد محدد ، كانت مصر فى

---

(١) سيأتى ذكر ذلك تفصيلاً فى الباب القادم .

(٢) الحقيقة كان الإنفاق على اليمن يأخذ شكلا فوضويا ماليًا . فلقد كان هناك خمس جهات مختلفة وربما غيرهـا تقوم بهذا الإنفـاق وهى : ١ ـ رئاسة الجمهـورية ٢ ـ مكتب المشـير ٣ ـ جهاز المخابرات الحربية ٤ ـ القوات المسلحة ٥ ـ الجهات التنفيذية المدنية المختلفة التى تتولى عمليات النقل وإنشاء الطرق والمطارات والمدارس والمستشفيات إلخ . .

أمس الحاجة إليه لتنفق منه على أوجه تنميتها المختلفة ! وكم من مدارس ومستشفيات وشباب كان يعانى من البطالة ، وكان أحوج ما يكون إلى هذه الأموال الطائلة لعلاج مشاكله ومستقبله .

ولقد حاولت كثيرًا أن أتقصى عن غاية أو مقصد إستراتيجي يكون غائبًا عن ذهنى أو فطنة المفكر العادى ، ولكن أعترف أنى لم أصل حتى اليوم إلى الهدف الأسمى الذى كان يدفع مصر إلى تشتيت قواتها المسلحة والقذف بها إلى مسافة ٣٠٠٠ كيلومتر بعيدًا عن خط دفاعها وعدوها الأساسى الذى كان متحفزًا دائمًا ! والحقيقة أنه لم تحظ بقناعتى الشخصية أى حجة أو مبررات سياسية أو عسكرية أثيرت حول هذا الموضوع .

التطـور والتـورط

وحتى الحجة التى كانت تقول بأن مصر لم تهدف فى بادئ الأمر إلى الزج بكل هذه الأعداد الضخمة ، وإنما كان ذلك تطورًا أو تورطًا لم تتخيله أو تتوقعه القيادة السياسية ، أرى أنها حجة لا تحسب لصالح من يطلقها بل تحسب عليه . .

وإنى أذكر عندما ساء الموقف بين المشير عامر والرئيس عبد الناصر فى أعقاب نكسة عام ١٩٦٧ واشتد الخلاف بينهما ، راح عبد الحكيم عامر يلقى باللوم على كاهل الرئيس عبد الناصر فى مذكرته المؤرخة فى ٧ سبتمبر عام ١٩٦٧ والتى أعدها قبل انتحاره بأيام ، حيث ورد فيها أن حملة اليمن قد تمت دون أن « نجهد أنفسنا فى القيام بدراسة التعقيدات العربية والدولية للتدخل أو للمشاكل السياسية والعسكرية الناجمة . . فبعد سنوات من التجارب أدركنا أن حرب اليمن هى حرب بين القبائل وأننا قد دخلناها دون سابق معرفة لطبيعة أرض اليمن وتقاليد اليمنيين وأفكارهم » !

وإنى أرى أن هذه الكلمات ليست كافية بالمرة لكى تبرئ ضمير القيادة العسكرية وتجعلها تغسل يديها من دماء الشهداء التى أريقت فوق قمم اليمن فى غفلة من شهادة التاريخ ، خاصة وأن المشير عبد الحكيم عامر هو نفسه صاحب العبارة المشهورة التى تقول «سوف نبقى فى اليمن عشرين عامًا حتى لا يعود اليمن للوراء » ! ولقد جاءت هذه الكلمات فى خطبة ألقاها فى اليمن فى صحبة الملك سعود [1] وأنور السادات فى يوم ٢٤ إبريل عام ١٩٦٧ أى قبل وقوع النكسة بشهرين فقط . وهكذا وصل المشير مع نفسه إلى أوج قمة التناقض !

---

(١) كان الملك سعود قد تصالح مع النظام السياسى فى مصر ولجأ إليها بعد نزاعه مع شقيقه فيصل ، فاضطر إلى ترك المملكة والعرش له . ثم جاء ليعيش فى مصر وذهب فى رحلة مع المشير إلى اليمن ليؤيد الحكم الجمهورى بها ويعلن عن ندمه فى محاربة هذا الحكم طيلة الأعوام الماضية !

وقد يقال إن مصر لو لم تقف إلى جوار الثورة اليمنية لاتهمت بتقاعسها فى أداء رسالتها فى ذلك الوقت فى مساندة العالم العربى على التحرر من الرجعية والاستعمار ، إلا أن هذا القول مردود عليه هو الآخر بنفس كلمات عبد الناصر التى تقول « **إنه يمكن فرض انقلاب على شعب آخر من الخارج ، ولكن لا يمكن فرض الثورة لأنها طاقة داخلية تفجرها الشعوب فى أعماقها** » !

ولقد وردت كلماته هذه نصا فى أحد خطاباته الشهيرة التى كان يتبادلها مع الرئيس الأمريكى « جون كيندى » قبل اغتياله !

والحقيقة التى أشار إليها عبد الناصر هى ما وقع تماما داخل اليمن وعانت منه مصر أشد المعاناة طيلة وجود القوات المصرية على أرضه .

فما حدث بالفعل فى يوم ٢٦ سبتمبر فى صنعاء ، كان مجرد انقلاب بكافة المعايير وليس ثورة على المستوى الشعبى . والأدهى أن الجماهير اليمنية لم تؤمن أبدًا ذات يوم بهذا القتال الذى كان يدور فوق أرضها ، بل منهم من رأى فيه صورة صارخة من صور الدمار والخراب . ومن أول يوم للانقلاب وقف الشعب اليمنى القبلى متفرجا أو مرتزقًا مستغلاً أو محاربا ضد القوات المصرية فى شراسة وعناد ! لا يهم فى ذلك إذا كان موقفه المعادى ضد هذه القوات كان نابعا عن إيمان حقيقى بالملكية أو عن ابتزاز أو استغلال للموقف ، فالنتيجة كانت واحدة فى كلتا الحالتين . . أى الخسارة الفادحة لمصر .

وقد يقال إن الصراع ونزيف الدماء هى الضريبة الطبيعية التى تدفعها الشعوب ثمنًا على طريق توحدها . وأقرب مثال فى ذلك إلى الأذهان هو ما دفعته أمريكا نفسها من حرب أهلية كانت تدمر فى طريقها كل أخضر ويابس حتى فازت فى النهاية بثمرة الوحدة المجزية . وإذا كان التاريخ يشهد بأن معظم التوحدات السياسية الهامة فى أوربا وغيرها قد جاء مولودها بعد آلام مخاض دموى ، فيجب ألا يغيب عنا أن ذلك قد تم فى ظروف جغرافية وسياسية وفى أماكن لا تقع داخل أتون الصراعات العالمية الملتهبة التى تجذب العديد من الأطراف المعادية لتضرب هذا التوحد وتجهضه قبل مولده . ولعل هذه الوحدة المتأنية التى تأخذ طريقها اليوم فى تؤدة وتعقل بين دول أوربا دون ضجيج أو صخب ، هو سر نجاحها فى مواجهة قوى العمالقة الهائلة !

عداءات بالجملة

ولقد أثارت عملية التحرك المصرى إلى اليمن تكتلا هائلاً ضدنا من العديد من الخصوم الأقوياء قلما يضعنا التاريخ فى مثل ظروفها مرتين !

كانت هناك الولايات المتحدة بكل إمداداتها وثقلها لمساندة السعودية والملكيين . . وكانت هناك بريطانيا المتوجسة فى الجنوب اليمنى والتى كانت مازالت تثيرها لطمة ١٩٥٦ ، ثم فرنسا التى بعثت بمرتزقتها [1] من وراء ستار ! وحتى روسيا لم تكن سعيدة بالتدخل المصرى فى اليمن ، ومن هنا كان حماسها البارد فى عدوان ٦٧ إن جاز هذا التعبير ! هذا بخلاف عدد كبير من الأطراف العربية على قمتها السعودية والأردن . . والمدهش أن إيران وباكستان [2] قد انضمتا هما أيضا لمعسكر الخصوم !

وهكذا لم يكن الجو العام أو المسرح الخاص مهيأ بالمرة لميلاد وحدة آمنة وسط ينبوع من البراكين التى تقذف بحمم النيران .

إن حملة اليمن كلها لم تعد أن تكون لعبة أو مغامرة بهذه النيران . وهذا الاصطلاح ليس من قريحتى أو اجتهادى ، وإنما هو وصف صادق عنيف جاء على لسان أنور السادات عندما قال فى إحدى المناسبات « **إنه لا يجوز أبدًا اللعب بالقوات المسلحة ، ومن الواجب الابتعاد عن ممارسة هذه اللعبة** » . ولقد قال فى هذا المعنى أيضا ما قاله القدماء « إنك يمكن أن تبدأ الحرب ولكن لا يمكنك أن تحدد متى وكيف تنتهى » !

ولعل أسوأ ما انتهت به لعبة الحرب فى اليمن ، هو ذلك اليوم الأخير الذي شهدته القوات المصرية بعدما تقرر فى مؤتمر الخرطوم فى أغسطس ١٩٦٧ بعد النكسة ، انسحاب القوات المصرية وترك الأمور لأبناء اليمن يرسمون مستقبله . . حدث فى ذلك اليوم أن تجمعت القوات المصرية فى ٣ أكتوبر فى ميناء الحديدة تمهيدًا للرحيل ، فإذا بالمظاهرات تندلع بين الشباب اليمنى ، فيهاجمون القيادة المصرية ويقتلون ١٠٠ جندى قبل التمكن من تفريق المظاهرات واستتباب الهدوء !

كانت هذه المظاهرات موجهة ضد مصر من فريق ثائر تحت زعامة مجموعة قيادية مناهضة لحكم السلال ، **وهكذا وضح كذلك أن مصر كانت تلعب على الجواد الخاسر طيلة الوقت** .

ولقد برر نفر من الكتّاب أسباب هذه الأحداث المفجعة بغياب الكوادر السياسية الصالحة عن الساحة السياسية باليمن . ومنهم من استدرك الأمر قائلاً :

---

(١) مما يذكر عن المرتزقة فى اليمن أن الذى كان يدير حرب المرتزقة ويضع لهم خططهم هو روبرت كومر مساعد مستشار المجلس القومى الأمريكى وكان ينسق الخطط مع ممولى العملية العرب . ولقد وصلت درجة اهتمامه بحرب اليمن أن رجال البيت الأبيض الأمريكى كانوا يسمون هذه الحرب كلها باسم حرب كومر الخاصة (هيكل الانفجار ص ١١٨) .

(٢) عقب تصعيد الرئيس الأمريكى جونسون لحرب فيتنام ووقوف الكونجرس ضده وحرمانه من الدعم =



شاه إيران



الرئيس الأمريكى جونسون

ولكن كيف نطالب المسئولين فى مصر بتنظيم هذه الكوادر فى اليمن ، وهم أنفسهم لم ينظموها حتى تلك اللحظة فى مصر ؟! ويتساءل هؤلاء الكتاب : ومنذ متى يكون فاقد الشيء قادرًا على إعطائه ؟ !

اليمن وفيتنام

إنى أعزّى نفسى أحيانا عن محنة اليمن بما قاله الوزير البريطانى أنتونى ناتنج [1] فى كتابه (ناصر) وهو يعقد مقارنة بين وجود القوات الأمريكية فى فيتنام ووجود القوات المصرية فى اليمن فيقول :

.... « **إن هناك فرقا هائلاً بين الوجودين ، فبينما كانت القوات المصرية تساند ثورة ضد نظام متعفن ، كانت القوات الأمريكية تقهر ثورة شعب فيتنام ورغبته فى التحرر الوطنى واختيار طريقه لبناء مستقبله الاجتماعى** » !

= المالى لهذه العملية ، لجأت المخابرات الأمريكية لإيجاد شبه تحالف بينها وبين تجار السلاح ودول البترول لتمويل أى عمليات تتم فى الخفاء بواسطة المخابرات الأمريكية . وهكذا انضم شاه إيران لهذا الحلف الذى مول عمليات مقتل لومومبا فى الكنغو (لصالح اتحاد الماس) وعمليات الانقلابات فى كاتانجا وغيرها ثم عملية تمويل الحرب ضد مصر فى اليمن بآلاف المرتزقة من إنجلترا وفرنسا وألمانيا . وهكذا كان اشتراك إيران كنوع من الدفاع عن الأنظمة الملكية ـ ويقول هيكل فى كتابه الانفجار ولتصفية حسابات أخرى بين الشاه وعبد الناصر ، كما يذكر أن إسرائيل انضمت فيما بعد إلى هذا التحالف .

(١) وزير الدولة البريطانى المشهود له بمناصرة الحق والذى قدم استقالته فى عدوان عام ١٩٥٦ احتجاجًا على سياسة زميله أنتونى إيدن .



الرئيس اليمنى عبد الله السلال

والحقيقة أن مثل هذه الشهادات التاريخية الصادقة التى تجىء على لسان سياسيين محايدين مخلصين ، ستظل دائمًا تعبر عن ضمير الإنسان الذى يبدو أنه قد شاخ ومات منذ زمن بعيد ! ولكنى رغم هذه الكلمات الطيبة أرانى لا أقف فى صف من يؤيد الزج بالقوات المصرية لمساندة شعب فقير متخلف لا يزيد تعداده عن خمسة ملايين نسمة ، بينما شعبنا الذى كان يبلغ الثلاثين مليونًا فى ذلك الوقت كان أكثر عوزًا وحاجة لمن يأخذ بيده هو أيضا من قصوره وفقره!

إننى بكل المقاييس لا أجد سببًا واحدًا أو مبررًا يجعلنى راضيًا عن دورنا فى اليمن ، بغض النظر عن أن قواتنا المسلحة قد أدت دورها بكل ما تستطيع من تفان وتضحية وشجاعة وإخلاص . . هناك مثل يقول : ليس بيدق الشطرنج هو الذى يحرز النصر أو الفشل ، وإنما هو دور من يمسكه بيده ! وأخيرًا فقد يتهمنى البعض بأنى لم أفصح عن رأيى هذا وبصوت عال إلا بعد أن رحل المسئولون عن الدنيا وواراهم التراب . ولكن يعلم الله كم عملنا جاهدين بجهد أهل الخبرة عن التعبير عن آرائنا فى صراحة وقوة قد لا تجىء إلا همسًا . . ولعل قوة الهمس تجىء أحيانًا أقوى من صرخة الجهر !

ومع ذلك فأنا أتساءل لماذا لم نجهر ؟ ! هل كان ضعفًا منا أو تخاذلا أو فى أحسن الفروض تقية[1] ؟ **إنى فى هذه المذكرات لن أدافع عن نفسى أو عن غيرى ، إنى أفضل أن أترك ذلك إلى يوم سوف تحكم علينا إدانة أو إنصافًا محكمة تفوق فى قوتها كل قوى الرأى فى دنيانا التى حولنا ، إنها محكمة التاريخ !**

---

(١) تقية تعنى فى رأى الأئمة أن من لا يجاهر بالرأى خوفًا من بطش الحاكم الجائر فهو أمر مشروع فيه اتقاء للشر .

الباب التاسع

عدوان ثلاثى جديد (عام ١٩٦٧)

الفصل الثامن والعشرون

التمهيد لعدوان عام ١٩٦٧

عقب مجيئى إلى القاهرة وتعيينى مديرًا لمكتب الفريق مرتجى الذى تولى قيادة القوات البرية، كانت أحداث اليمن مازالت تسيطر على مساحة كبيرة من أذهاننا . .

كانت الأحوال فى مسرح اليمن قد أصبحت هادئة تمامًا إلا من بعض مناوشات محدودة . . فبعد العملية « اكتساح » الأخيرة التى نجحت فى طرد الأمير البدر من أرض اليمن ومغادرته البلاد نهائيًا ، يئس الملكيون تمامًا من فكرة العودة إلى الحكم ؛ فجميع العمليات العسكرية التى قاموا بها لإخراج الجيش المصرى من اليمن ، قد باءت بالفشل وبرغم كل المساعدات التى قدمت إليهم من مختلف الجهات المساندة الخارجية .

إلا أن أذهاننا ظلت مشغولة تبحث عن تفسير مقنع وراء سر التخطيط المتقن الذى كنا نجابهه فى اليمن ، وخصوصا أن عملية مثل عملية قطع صنعاء على كافة محاورها الأربعة (١) ومحاولة عزلها تماما عن باقى الأرض اليمنية ، جعلتنا ندرك أننا كنا نواجه قيادة منظمة ذات خبرة عالية تقوم بالتخطيط والتنسيق لكافة القوى المناهضة لوجودنا فى اليمن . هذه القيادة الشبحية التى اعتقدنا فى ذلك الوقت أنها مجرد لفيف من المرتزقة الأجانب من بريطانيين وفرنسيين وغيرهم ، لم يخطر على بالنا أبدًا أن هناك قيادة عضوية قائمة فى جهة ما تحت قيادة المخابرات المركزية الأمريكية ، حتى قرأت أخيرًا فى الكتب التى انتشرت هذه الأيام أن « روبرت كومر » بنفسه هو الذى كان يشرف عليها تخطيطًا وتمويلاً من التحالف الثلاثى الذى كان

---

(١) المحاور الأربعة هى :

١ ـ طريق الحديدة ـ صنعاء　　٢ ـ طريق السر شرق صنعاء

٣ ـ طريق تعز ـ صنعاء　　٤ ـ طريق صعدة ـ صنعاء

يجمع فى الخفاء بين المخابرات المركزية وتجار السلاح ورجال البترول ، وتعضدها غرفة عمليات فى لندن بها خرائط كاملة لقواتنا المسلحة ولمسرح العمليات . كان كومر هو مساعد مستشار الرئيس الأمريكى لشئون الأمن القومى ، وكان هو الذى يقوم بتنظيم وتنفيذ العمليات الخاصة فى فيتنام كالتصفية الجسدية للفيتناميين الجنوبيين المشتبه فى مقاومتهم مع الشيوعيين . وبعد فيتنام ظهر « كومر » على أحداث مسرح اليمن ليوجه كافة خطوط المرتزقة ضد الجيش المصرى ، لدرجة أن المسئولين فى البيت الأبيض الأمريكى كانوا يسمون حرب اليمن كلها «حرب كومر الخاصة » !

وكان روبرت كومر من أشد المتحمسين للتعاون مع إسرائيل ، ويبدو أنه بعد فقدان الأمل فى إلحاق ضربة قاضية بالجيش المصرى فى اليمن أخذ يحول تفكيره إلى سيناء ، ومن أجل ذلك راح يخطط لصفقة السلاح الألمانية الكبيرة المشهورة والتى اعترض عليها العرب فقرر جونسون تعويض إسرائيل عنها ، وبذلك انفتحت مخازن السلاح الأمريكية تمامًا للإسرائيليين لكى يرتبوا للمخطط الذى سينفذونه فى عام ٦٧ ، علاوة على أن إسرائيل كانت قد نجحت بالفعل فى تسلم نسبة كبيرة من الصفقة الألمانية . كان جونسون فى ذلك الوقت يمر بأشد معاناته من الصعوبات التى يلاقيها فى الحرب الفيتنامية . وفى الوقت نفسه أيضًا وصلت علاقاته بعبد الناصر أقصى ذروتها من التردى [1] عندما قرر وقف تصدير القمح فى أشد لحظات احتياج مصر إليه ، ولم يمكن تدارك موقف النقص المخيف فى مخزونه إلا بعد تدخل الاتحاد السوفييتى وتحويله لمسار عدد من السفن المتحركة فى البحر الأبيض لتفرغ حمولتها من القمح فى ميناء الإسكندرية بدلا من الاتجاه إلى ميناء « أوديسا » .

ولم يكن موقف مصر مع إنجلترا أقل سوءًا عن موقفها مع الولايات المتحدة ، فقد كانت الإمبراطورية البريطانية تلفظ الأنفاس الأخيرة فى ذلك الوقت وكانت نظرتها إلى عبد الناصر أنه الشبح الذى قلع جذورها من القناة ، فى شمال البحر الأحمر ، وراح يلاحقها ليطردها من باب المندب فى جنوبه . ولذلك يقال إنه فى هذه الأيام عرضت على جونسون خطة عدوان ٦٧ ، الذى سيقوم فيها الأسطولان الأمريكى والبريطانى بدور لم يشهد التاريخ مثيلاً له فى الدهاء السيكلوجى العميق برغم أنهما لم يطلقا طلقة واحدة مما سأذكره تفصيلاً بعد قليل . ولقد أحس عبد الناصر بالخطر فى ذلك الوقت ، فوجد من الضرورى تصفية الجو مع السعودية

---

(١) قبل موضوع صفقة القمح كان هناك حادثان أثرا فى العلاقة المصرية الأمريكية وهما حادث حرق السفارة الأمريكية فى القاهرة بواسطة طلبة الكونغو ، وحادث إسقاط طائرة جان ماكويان ملك البترول فى الإسكندرية المعروف بصداقته الشخصية لجونسون .

وسحب الجيش المصرى من اليمن ، فكانت زيارته المشهورة إلى جدة لمقابلة الملك فيصل فى أغسطس ٦٥ . ولكن كل الظواهر أكدت بعد ذلك أن اتفاق جدة لم يخرج عن كونه حبرا على الورق ، فقد كانت إنجلترا مصرة على احتجاز الجيش المصرى والإمساك به لأطول زمن ممكن داخل مصيدة اليمن . ولقد أيدت هذه الحقيقة إحدى وثائق الحلف المركزى (الذى قام بدلا من حلف بغداد) جاء فيها على لسان وزير خارجية إيران فى أحد اجتماعات الحلف أن إيران توافق حكومة بريطانيا على أنه ينبغى لدول الحلف ألا تسمح بانسحاب القوات المصريةسليمة من اليمن ، والأفضل أن تظل هناك « مغروزة » بدلاً من إعطائها الفرصة للعمل بحرية فى جهة أخرى ـ ولعل المظاهرة التى شيعت بها القوات المصرية فى آخر لحظاتها عند الانسحاب وقتل فيها ١٠٠ جندى كانت آخر خطوات هذا المخطط ليكون الدرس الأخير الذى تظل مصر تذكره من وجودها فى اليمن .

ديـان يظهر من جديد

وبقدوم عام ١٩٦٦ كان موشى ديان يتردد على واشنطن كثيرًا لزيارة مستشار الأمن القومى، وكان السبب الظاهر الذى يقدم للصحافة ولغيرها من وسائل الإعلام هو أنه جاء يقدم آراءه عن الحرب فى فيتنام بعد أن قام بنفسه بزيارة ميادين القتال هناك ، أما الأمر الباطن فكانت كل الدلائل تشير إلى أنه يبحث الكثير من اللمسات الأخيرة فى خطة عدوان ٦٧ مع المسئولين فى المخابرات الأمريكية المركزية .

ولقد توطدت العلاقة كثيرًا بين البلدين ،وكان أصدق مؤشر على ذلك زيادة معونة الولايات المتحدة لإسرائيل فى ذلك العام (١٩٦٦) إلى ١١٠٠ مليون دولار أى عشرة أمثال ما كانت عليه عام (١٩٦٥) ـ أما مساعدات السلاح ، فقد زادت زيادة كبيرة هى الأخرى فاقت كل توقع !

والملاحظ أنه اعتبارًا من هذه الفترة ، ستبدأ إسرائيل فى زيادة سخونة التوتر بالمنطقة تجاه سوريا والأردن ـ فكانت اشتباكاتها الجوية مع الطائرات السورية فى أغسطس ١٩٦٦ (١) ، وغاراتها على قرية السموع فى نوفمبر وغيرها من القرى الأردنية . وكان واضحًا أن المقصود من هذه الاشتباكات كلها هو إحراج مصر أو جذب قدمها إلى المعركة وهى غير مستعدة بينما ثلث قواتها موجود فى اليمن !

ولقد حضر إلى مصر بالفعل وفد سورى يطلب عملاً مشتركًا هجوميًا سريعًا لردع إسرائيل ،

---

(١) أسفرت هذه المعركة الجوية عن سقوط ١١ طائرة سورية نتيجة كمين نصب بعناية لها .

وكان رد عبد الناصر أنه يخشى أن يكون المقصود هو محاولة « توريطنا » فى عملية مع إسرائيل على أساس مخطط يشترك فيه الاستعمار والرجعية . وهكذا لمس عبد الناصر بأصبعه كبد الحقيقة ، ولكن مع ذلك انزلقت قدمه بعدئذ إلى قلب الشرك الجديد المنصوب له وغاص بداخله إلى أقصى أعماقه !

أول خيـوط الشـرك

فى الأسبوع الثانى من ديسمبر ٦٦ كان المشير عامر فى زيارة للباكستان ، ومن هذا المكان بدأت الخيوط الأولى للشرك .

فقد استمع هناك إلى عدة إذاعات عربية تتهم عبد الناصر بالجبن ، وأنه يختبئ بجيشه فى مصر خلف قوات الطوارئ الدولية التى تقف على الحدود بين مصر وإسرائيل منذ انسحاب القوات المعتدية فى عام ١٩٥٦ ، وأن أى قوات حشدتها مصر على جبهة سيناء لن يعنى وجودها أى مساعدة حقيقية للأردن أو لسوريا ما دامت قوات الطوارئ موجودة هناك وستمنع القوات المصرية من أداء دورها . والذى حدث أن المشير عامر عقب استماعه مباشرة إلى هذه الإذاعات الاستفزازية ، أرسل فى التو من الباكستان برقية بالشفرة تشير كيف أن هذه الإذاعات تشهر بمصر **وأنه يجب أن نبحث بسرعة ضرورة طلب سحب هذه القوات حتى لا يتهمنا أحد بالتخاذل فى نجدة العرب بسرعة وحرية !**

محاكاة عملية « اللوفت وافت » فى ألمانيا

وهكذا كان المشير عامر أول من ابتلع القضمات الأولى من الطعم ، إذ لم يفطن إلى أن كل ما يسمعه كان مخططا واعيا من صميم الأعمال الخداعية للحراب السيكولوجية المدبرة ! غير مدرك أنه أصبح مستهدفًا للخطوة الأولى للخطة التى تم تدبيجها فى مطبخ مخابرات ليندون جونسون الأمريكية ، وهى المخابرات التى كان لها قصب السبق فى مخططات حرب الدهاء التى اشتهرت بها خلال الحرب العالمية الثانية ، مثل مخطط العملية السيكولوجية المشهورة باسم عملية « **اللوفت وافت** » والتى رتب فيها الأمريكان توجيه دعاية استفزازية مماثلة ضد ألمانيا اتهموا فيها هتلر بالجبن وأنه يخفى طائرات السلاح الجوى الألمانى فى مخابئها لحمايته الشخصية غير عابئ بحماية المدن والمدنيين من القصف الجوى العنيف الذى تعمدت القوات الأمريكية تكثيفه فى الفترة الأخيرة قبل الإنزال الحاسم فى نورماندى ، وذلك لدفع هتلر وإجباره على إرسال طائراته لمواجهة الطائرات الأمريكية التى كانت تعدّ لها الكمائن المماثلة

للكمائن التى قامت بها طائرات إسرائيل ضد مطارات سوريا فى أغسطس ، وكانت الوسيلة التى اتبعتها أمريكا فى ذلك هى توجيه حملات إذاعية متكررة (وإسقاط منشورات على الأهالى) تتهم فيها هتلر بالجبن ، على غرار الحملات الإذاعية المشبوهة التى سمعها المشير عامر بعد ذلك فى باكستان . . **وللأسف كان أول من أطلق هذه الإذاعات هو راديو الأردن ،** وأخذت بقية إذاعات المنطقة كلها ترددها وراءه ، ومن الغريب أن محطة دمشق قد شاركت فى هذه الحملة ، أما الأغرب فهو أن محطة إسرائيل نفسها أخذت تلتقط هذه النغمات وتعيدها مرارًا وتكرارًا كل يوم ! والحقيقة كان كل ذلك يؤيد المخطط السيكلوجى ويعمق من آثاره .

رد الفعــل التلقــائى

وفى رد فعل تلقائى ، كلف جمال عبد الناصر مجموعة عمل محدودة بإعداد تصور لخطوة سياسية فى أواخر عام ١٩٦٦ يكون هدفها إنهاء وجود قوة الطوارئ الدولية على خطوط الهدنة بين مصر وإسرائيل ، وفى الوقت نفسه كلف عبد الحكيم عامر مجموعات أخرى عسكرية داخل القوات المسلحة بأن تدرس النتائج العسكرية المترتبة على قفل خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية فى البحر الأحمر عند شرم الشيخ (١) .

ويبدو أنه كان فى اعتقاد القيادتين السياسية والعسكرية أن مصر إذا أقدمت على هذا العمل فسوف تحرج إسرائيل وصديقتها الولايات المتحدة التى تمنعها ظروفها فى فيتنام من التورط فى مساندة إسرائيل علنا أو تواطؤا على النحو الذى قامت به بريطانيا وفرنسا عام ١٩٥٦ ، غير مدركين أن الغرب لا تنفد جعبته من دهاء وخطط جديدة . وبالطبع لم يدر **ببال القيادتين أبدًا أنهما بإبعاد قوة الطوارئ الدولية وقفل خليج العقبة سوف تقدمان بأيديهما الذريعة المنشودة التى ترغب فيها إسرائيل لشن عدوان ثلاثى جديد بطريقة مبتكرة خالية من أخطاء وعيوب حرب ٥٦ ،** التى أثارت على أطرافها المغامرة سخط العالم ، وقد تدارست الأطراف الجديدة كيف يبدو العدوان الجديد خاليا من رائحة أو بصمات التواطؤ .

---

(١) كان هناك نفر من أهل الخبرة بين هذه المجموعات التى كلفت بالدراسة ، وكتبت فى تقريرها أنه من الأنسب عدم الإقدام على هذا العمل فى الوقت الحاضر الذى لا يسمح به المناخ العالمى . والأفضل تأجيله إلى أن تسمح الظروف الدولية بذلك ، على غرار ما فعل بن جوريون عندما رغب فى فتح الخليج عام ١٩٥٥ ، فقدم له موشى ديان خطة باحتلال شرم الشيخ ، فرأى بن جوريون تأجيلها إلى أن يتاح الظرف المناسب ، ثم جاء هذا الظرف عندما قام جمال عبد الناصر بتأميم القناة فألب عليه بريطانيا وفرنسا ودول العالم ، والعجيب أن بعض الضباط الذين سجلوا رأيهم هذا كتابة قد كوفئوا بإحالتهم إلى المعاش !

الفصل التاسع والعشرون
دهاء خطة الاستدراج

□ القواعد الثلاث

عقب عدوان ١٩٥٦ قام المسئولون الإسرائيليون بدراسة تشريحية لمسرح هذا العدوان فى سيناء ، حتى إذا أتيحت فرصة لتكراره فى المستقبل يتم فيها تدارك الأخطاء والملابسات ، ولقد خرجوا من هذه الدراسة بالقواعة الثمينة الثلاث التالية :

أولا : فى الصحراء المكشوفة العارية التى مثل صحراء سيناء ، يكون الفشل المحقق من نصيب الطرف الذى يفقد طيرانه فى ضربة جوية مسبقة ويكون محكومًا على جيشه بالهزيمة ، (إن لم يكن بالدمار الكامل) وذلك حتى قبل أن تبدأ المعركة !

ثانيا : للجندى المصرى خصائص فريدة مميزة إذا وضع فى موقف الدفاع ، فهو يتشبث بالأرض بكل ثبات وصبر وجلد (كما حدث فى أم قطف ومتلا عام ٥٦) ، بل وهو على أتم استعداد للتمسك بالأرض لآماد طويلة (قد تستمر لأسابيع وأشهر عديدة كما حدث فى الفالوجا عام ٤٨) ، ومهما هوجم أو حوصر أو ازداد الهجوم عليه فإنه لا يزداد إلا تشبثًا بالأرض الأمر الذى يكبد المهاجم أفدح الخسائر . ولو حدث أن الجندى المصرى فقد طيرانه الذى يحمى سماءه وهو فى موقف الدفاع ، فإن ذلك لا يجرده من ميزة الاحتماء بالأرض والتشبث بها . ولذلك يجب الابتعاد تمامًا عن مهاجمة هذه المواقع الدفاعية المجهزة وتحاشى مهاجمته وهو محتم داخل هذه المواقع والتفكير فى كيفية اقتلاعه منها بوسائل أخرى .

ثالثا : إذا أمكن النجاح فى جعل الجندى المصرى يتخلى عن هذه المواقع وينسحب منها للخلف بالوسائل الأخرى ، فإنه يكون من السهل ضربه أثناء تحركه عاريًا فوق الأرض ، حيث

يسهل فى الصحراء اصطياد كل الأهداف المتحركة بالطيران العالى والمنخفض ، سواء أكانت هذه الأهداف عربات عادية أو مدرعة أو دبابات أو مدافع أو مشاة على أقدامهم حيث يسهل حصارهم بالقنابل والنابالم والرشاشات وكل ألوان النيران . ولقد أثبتت حرب ٥٦ (وقبلها حرب ٤٨) أن الخسائر التى لحقت بالجيش المصرى كان أفدحها ما أصيبت به القوات أثناء انسحابها وليس أثناء مواجهتها للعدو . وذلك عندما أصبحت المعركة معركة طيران ضد قوات برية عزلاء مجردة من كل حماية (حماية الأرض أو حماية الطيران) .

ونظرًا لأن سيناء تتميز بوجود العديد من المضايق فى عمقها الخلفى والتى تخنق القوات عند تقدمها أو انسحابها ، فإن أفضل وسيلة تكتيكية لضرب القوات المنسحبة هو تركها حتى تصل إلى منطقة المضايق وتنحشر عندها وتتكدس ، فتصبح صيدًا ثمينًا لنابالم الطائرات وقنابلها الحارقة .

هذه القواعد الثلاث هى التى أسفرت عنها دراسة عدوان ٥٦ ، وخلاصتها أن أفضل وضع تضرب فيه القوات المسلحة المصرية ، ليس أثناء وجودها فى أماكن تمركزها فى الأمام ، وإنما أثناء انسحابها للخلف وخاصة عند اجتيازها للمضايق . ومن هنا أصبح حجر الزاوية الذى تبنى عليه خطة العدوان ، يتلخص فى كيفية استدراج القيادة المصرية إلى إصدار مثل هذا الأمر بالانسحاب ! وهذا هو لب الدهاء الحقيقى فى خطة ٦٧ ، والسبب الرئيسى وراء استخدام الأسطولين الأمريكى والبريطانى ليشتركا كمجرد ديكور فى المعركة فيؤديان دورهما دون حاجة فعلية للمساهمة فى القتال . وبذلك لن يكون العدوان نظريًا أمام العالم إلا عدوانا إسرائيليا ، **أما فى حقيقته العملية فهو عدوان ثلاثى لم تكن إسرائيل قادرة على تنفيذه فى غياب الأسطولين .**

فكيف كان التطبيق ؟ وكيف أمكن لخطة العدوان أن تعالج المشاكل التفصيلية معالجة حاذقة لكل واحدة منها ؟ !

أولاً : مشكلة استدراج القوات المصرية إلى الانسحاب ـ كيف أمكن حلها ؟

فى عام ١٩٥٦ أصدرت القيادة المصرية أوامرها بالانسحاب عقب اكتشافها أن هناك تواطؤا من أطراف ثلاثة اجتمعت معا على ضرب القوات المصرية من الأمام ومن الخلف ، فكان الانسحاب للتخلص من الوقوع بين المطرقة والسندان ، حيث تقوم إسرائيل بدور المطرقة ، وتقوم القوات الإنجليزية والفرنسية بدور السندان . . ولكن فى عدوان ٦٧ لن يكون هناك أطراف ثلاثة تماثل أطراف ٥٦ التى اشتركت علنا فى الهجوم المتواطئ .

فما الذى يدفع القيادة المصرية إلى إصدار أمر بالانسحاب أمام القوات الإسرائيلية وهى وحدها ؟! والإجابة لهذه المشكلة كانت باصطناع إيهام **بحدوث عدوان ثلاثى جديد يتم تحقيقه بإشراك الأسطول السادس الأمريكى بحاملات طائراته ، ومعه الأسطول البريطانى بحيث يتواجدان فى مواقع قريبة من ساحة المعركة شرقى البحر المتوسط على غرار المواقع التى احتلها الأسطولان البريطانى والفرنسى عام ٥٦** . وعندما تقوم إسرائيل بأسطولها الجوى المتفوق فى العدد بالضربة الجوية المسبقة التى تفاجئ بها الطيران المصرى وهو جاثم فى مواقعه على الأرض، لن تصدق القيادة المصرية أن هذا المجهود الجوى الكبير الذى يضرب كل مطارات مصر وقواعدها البعيدة فى الخلف فى آن واحد هو عمل فردى تقوم به إسرائيل وحدها . عندئذ سيتداعى سيكلوجيا إلى أذهان المسئولين فى القيادة أن أمريكا وبريطانيا تشتركان مع إسرائيل فى عدوان ثلاثى ، فيكون أمر الانسحاب الذى تتلهف إليه إسرائيل بفروغ صبر ، حيث تبدأ القوات المصرية المسلحة فى ترك مواقعها الحصينة فى الأمام وتبدأ فى الانسحاب إلى الخلف حيث يتولى الطيران الإسرائيلى القضاء عليها وهى مكشوفة عارية وبالأخص عند اجتياز المضايق .

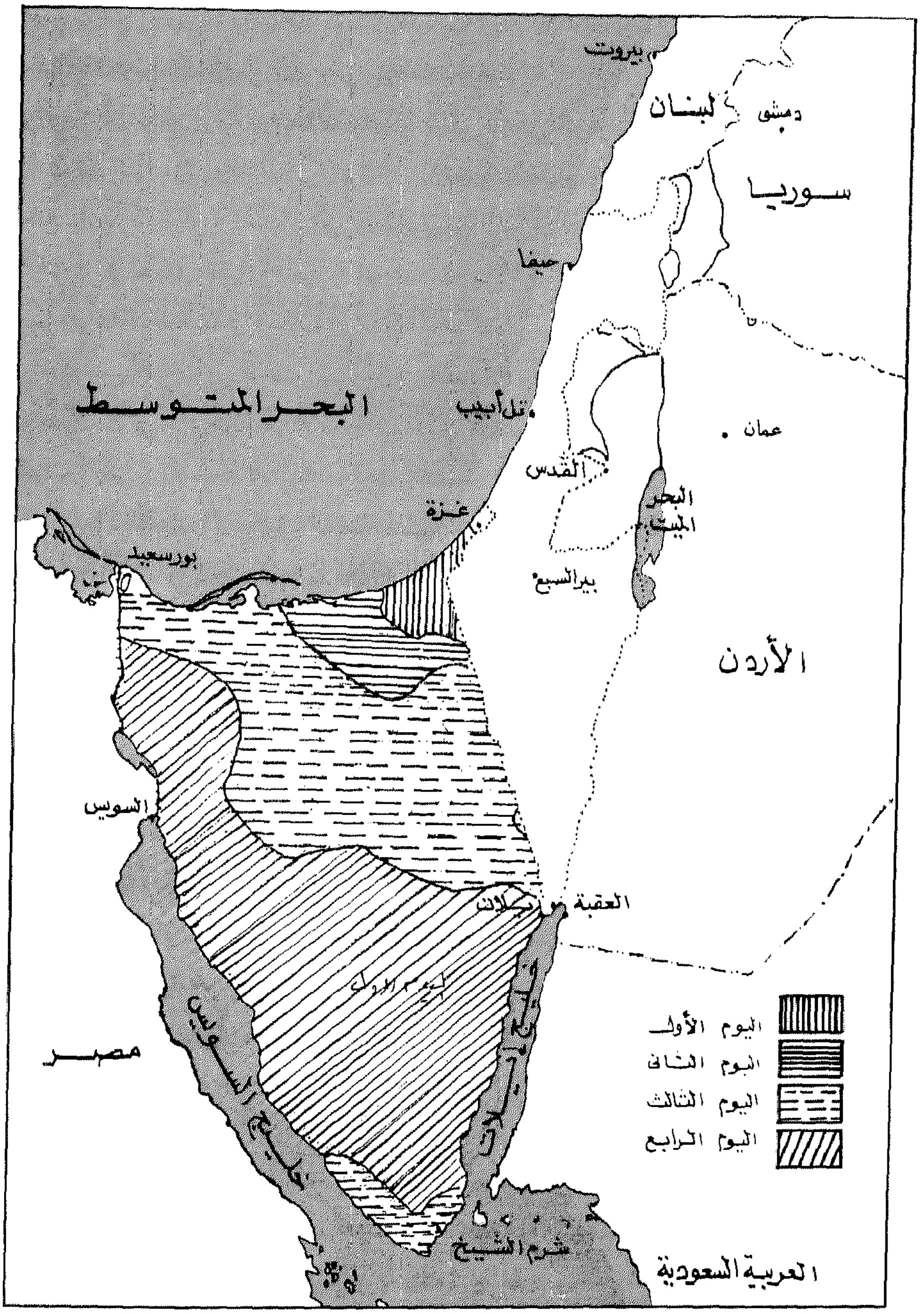
ثانيًا : الضــربة الأولـى المسـبقة

ولكن ماذا يضمن أن مصر لن تقوم بالضربة الأولى المسبقة ، وأن إسرائيل وحدها هى التى ستكون أمامها هذه الفرصة ؟!

يضمن ذلك إنذار يوجه بضبط النفس من جونسون شخصيا ، مع تحذير شخصى لمن يبدأ بالهجوم . وسوف تخاف مصر وبقية الدول العربية من خرق هذا الإنذار نتيجة وجود الأسطولين الأمريكى والبريطانى ! وهكذا فإن دور الأسطولين لا يقتصر على عملية الإيهام بأن هناك عدوانًا ثلاثيًا جديدًا ، وإنما يتعداه إلى « تكبيل » القوات المصرية ومنعها من القيام بالضربة الأولى بينما تتهيأ الفرصة لإسرائيل لتقوم هى بهذه الضربة القاتلة .

ثالثًا : الوظيفـة الثـالثـة

وبالإضافة إلى الوظيفتين السابقتين للأسطولين (وظيفة استدراج القيادة المصرية إلى فخ الانسحاب ، ووظيفة منعها من البدء بالهجوم) ، فإنه ما زالت هناك وظيفة ثالثة وقائية هامة ! **ففى حرب ٥٦ قامت الطائرات الإنجليزية والفرنسية بضرب المطارات المصرية وضرب القوات البرية المنسحبة فى سيناء ، بينما قامت الطائرات الإسرائيلية بحماية سماء إسرائيل من أى قوات جوية مصرية ، أو عربية تهاجم المدن الإسرائيلية . أما فى خطة عدوان ٦٧ فإن الذى سيقوم**



الهجوم الإسرائيلى : الجولة العربية الإسرائيلية الثالثة صيف ٦٧

بضرب المطارات المصرية هى الطائرات الإسرائيلية ، اعتمادًا على أن الذى يقوم بحماية سماء إسرائيل من احتمال هجوم أى طائرات مغيرة لطرف ثالث (كسوريا مثلاً) هى حاملات الطائرات الأمريكية والبريطانية (وهو احتمال بعيد ولكن وضع أيضا فى الحسبان) . وبقيام الأسطولين الأمريكى والبريطانى بهذه الوظيفة الأخيرة (وظيفة الحماية) ، تكون الفرصة قد أعطيت لإسرائيل لحشد قواتها الجوية بالكامل فى العمل الهجومى فوق أرض المعركة ، مما أعطاها ميزة التفوق العددى الهائل !

رابعًا : الـذريعـة

كانت هذه قواعد خطة لعبة التواطؤ الثلاثى الجديد (الإسرائيلى والأمريكى البريطانى) والتى كانت جاهزة منذ أواخر عام ١٩٦٦ . ولكى تخرج إلى حيز الوجود كانت مشكلة الذريعة مازالت باقية أمام المعتدين ! أى كيف تستدرج مصر لتدفع بقواتها إلى أقصى الأمام عند الحدود الإسرائيلية بحيث تبدو مصر وكأنها هى التى تسعى إلى الحرب ، فيكون التعاطف مع إسرائيل التى إذا بدأت بالحرب فسيكون لها العذر فى ذلك كل العذر !

إن خطة استدراج جمال عبد الناصر ليدفع بقواته إلى سيناء ويحشدها عند الحدود فى الأمام ثم يطلب بنفسه سحب قوات الطوارئ الدولية ، هى أمر يمكن أن يوكل إلى خبراء الحرب النفسية ليبثوا دعايتهم التى تتهم عبد الناصر بالجبن والاختباء خلف قوات الطوارئ الدولية . . فإذا ما استفزّ إلى تحريك قواته إلى سيناء ، وطلب هو سحب هذه القوات بنفسه ، فسيكون عندئذ فى نظر العالم الرجل الذى يسعى إلى الحرب والتحرش بإسرائيل الوديعة التى تسعى للسلام !

وهنا تتدخل أمريكا بأسطولها السادس متخذة دور الشرطى المحلى الذى ليس له أى مصلحة فى الحرب سوى تهدئة الطرفين ونصحهما فى براءة الأطفال بضبط النفس فيضبط عبد الناصر نفسه على مضض ، بينما لا تضبطها إسرائيل . .

وعندئذ يبدأ عدوان ثلاثى جديد من نوع مبتكر يتسم بالدهاء . . وكانت قمة الدهاء فيه أن وسائط الدعاية الإعلامية (الميديا) التى استخدمت فى استفزاز عبد الناصر واستدراجه إلى الشرك ، كانت وسائط عربية .

الفصل الثلاثون
الإرباك السياسى

فى الوقت الذى كانت القوات الإسرائيلية تتدرب فيه على التجارب الأخيرة لخطة العدوان الجديدة ، وتضيف قواتها الجوية خزانات وقود إضافية لطائراتها التى ستقصف مطاراتنا فى العمق، كانت قواتنا ما زالت مشغولة بمشكلة اليمن ، ووصلت هذه القوات إلى حالة مؤسفة من التردى والافتقار إلى التدريب والنقص فى المعدات وسوء صيانتها .

وهذا ما لمسته بالفعل فى زيارة تفتيشية مع الفريق مرتجى على بعض الوحدات ، منها اللواء الثانى المدرع الذى كلفت فى هذه الأثناء بتولى قيادته بعد انتهاء عملى برئاسة القوات البرية ، وكنت قد أمضيت بها فترة قصيرة « كالعادة » لم تزد كثيرًا عن عام واحد .

وعندما توليت قيادة اللواء ، أدركت مدى جسامة الأثر السيئ الذى خلفته حرب اليمن على هذا اللواء ، وبالطبع على العديد غيره من سائر الوحدات فى أرض الوطن . فلقد بلغ الأمر ذروته عندما تقرر ترك بعض الدبابات فى أماكنها المبعثرة على مرتفعات اليمن ، مع إجراء الغيار للأفراد دون المعدات الأمر الذى أدى إلى فقدان المعدات والأفراد لكثير من كفاءتهم القتالية وتدريبهم العالى نتيجة بقائهم فوق المرتفعات لشهور طويلة مضنية .

لم يكن اللواء الثانى المدرع غريبًا علىّ ، فقد كان ضمن وحدات المجموعة المدرعة التى توليت رئاسة أركانها لمدة عام تقريبًا ٥٧ ـ ١٩٥٨ قبل سفرى فى بعثة إلى الاتحاد السوفييتى . ولذا كان من السهل علىّ إجراء مقارنة سريعة بين الحال التى أصبح عليها اللواء والتى كان عليها من قبل .

ووضعت خطة لإعادة تسليح اللواء ، فتم تغيير الدبابات ت ـ ٥٤ بدبابات أحدث منها ت ـ ٥٥ ، كما تم تجهيزه بمركبات مدرعة جديدة للقيادة والسيطرة ومدافع مضادة للطائرات

٥٧ مم مزدوجة المواسير وتتحرك على جنزير لتواكب حركة دبابات اللواء . والحقيقة أصبح اللواء شيئًا يختلف تماما عما كان عليه من قبل ، وكان ذلك على أثر ورود أسلحة حديثة بسرعة من الاتحاد السوفييتى عقب زيارة المشير عامر لهم فى ٧ نوفمبر عام ١٩٦٦ وطلبه لهذه الأسلحة من القيادة السوفييتية الجديدة (كوسيجين ـ بودجورنى ـ بريجينيف) بعد سقوط خروشوف .

وبذلك استطعت فى مدة وجيزة نسبيًا أن أصل بهذا اللواء إلى أن يؤدى بيانًا عمليًا رائعًا عن رفع درجات الاستعداد المختلفة ، ولقد شهده رئيس أركان القوات المسلحة الفريق أول محمد فوزى وخمسمائة ضابط حضروا إجراء البيان ، وبذلك أصبح اللواء جاهزًا للتحرك فى أى مكان برغم أنه كان هنا ك تقشف فى التدريب بالذخيرة الحية والوقود (بسبب اليمن) مما يحول دون الوصول إلى المستوى القتالى المطلوب للواء .

كنا فى ذلك الوقت نقترب من شهر مايو ١٩٦٧ ، الذى حدثت فيه أحداث سياسية كثيرة متضاربة أود أن أعيد سردها من جديد حتى ندرك مدى الارتباك الذى كانت القيادتان السياسية والعسكرية تعيشانه فى ذلك الوقت . وكنت قد لمست أثناء وجودى فى مبنى القيادة العامة بكوبرى القبة كيف وصلت العلاقات بينهما إلى مرحلة فتور عالية ، لدرجة أن المشير عبد الحكيم عامر لم يكن يتردد كثيرًا على مكتبه فى مبنى القيادة ، وترك الأمر كله ليتحكم فيه شمس بدران بخبرته البسيطة وأفقه العلمى المحدود . وفيما يلى بيان بأحداث مايو المتناقضة .

تناقضات شهر مايو

فى أول مايو ذهب الفريق عبد المنعم رياض لمقابلة الملك حسين فى عمّان بناء على رسالة وصلت من جلالته إليه فى القاهرة . وكان الفريق عبد المنعم رياض يعمل رئيسًا لأركان القيادة الموحدة وصديقًا شخصيا للملك ، **وكان فحوى الرسالة تحذيرًا من « فخ » يدبر للقوات المصرية تدبره فئة معينة متآمرة فى سوريا سوف تشعل النار على الحدود مع إسرائيل فيجرى ضرب القوات المصرية** ، وأن الملك يريد إبلاغ هذه الرسالة إلى جمال عبد الناصر شخصيًا. ومن الطبيعى أن مثل هذه الرسالة سوف تزيد الموقف غموضًا لأن الملك حسين نفسه هو الذى بدأت إذاعته بهذه الإثارة النفسية للقيادة المصرية .

فى هذه الأثناء تصل أخبار مختلفة تؤكد وجود حشود حقيقية إسرائيلية على الحدود السورية ، وينفى **ليفى اشكول** (رئيس وزراء إسرائيل) هذه الأنباء لسفير الاتحاد السوفييتى فى إسرائيل .

بينما يؤكد هذه الحقيقة الرئيس السوفييتى بنفسه « **نيقولاى بودجورنى** » للسيد أنور السادات



الفريق عبد المنعم رياض

فى يوم ١٣ مايو بعد عودته إلى موسكو من رحلة فى كوريا الشمالية ، وكان قد حدثه بهذا المعنى « أليكسى كوسيجين » وأكد الاثنان له وقوفهما إلى جانب سوريا لو هجمت عليها إسرائيل !

وفى القاهرة اجتمع فى الوقت نفسه مندوب المخابرات السوفييتية مع مدير المخابرات العامة المصرية ليؤكد له فى رسالة من موسكو وجود ١١ لواء إسرائيليًا تتجمع أمام سوريا .

وفى الوقت نفسه انتقلت حاملتا الطائرات البريطانيتان (فيكتوريوس وهرمس) من منطقة الجنوب العربى عبر البحر الأحمر عائدة إلى البحر الأبيض (ولكن ستصدر لهما الأوامر بعد ذلك بالانضمام إلى الأسطول السادس عند بدء الحرب) .

وفى الأثناء نفسها صدرت تصريحات منسوبة إلى **الجنرال رابين** رئيس أركان إسرائيل بأن إسرائيل على استعداد للزحف واحتلال دمشق نفسها وإسقاط النظام ثم العودة إلى خطوط الهدنة ! ولقد صيغت العبارة لتعطى أكبر استفزاز وامتهان ممكنين .

زاد الموقف توترا أن **يوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة** أصدر تصريحًا ألقى فيه باللوم على منظمة فتح لأن عملياتها فى سوريا تؤدى إلى إشعال الموقف مع إسرائيل .

وعلى أثر هذا التوتر والارتباك والمعلومات المتناقضة التى تنبئ عامة عن حدوث شيء حيال سوريا ، ونظرًا لحساسية موضوع سوريا عند جمال عبد الناصر ، فقد رؤى إرسال رئيس الأركان الفريق أول محمد فوزى إلى دمشق ليؤكد لهم وقوف مصر إلى جانبهم ، ثم فى الوقت نفسه صدرت تعليمات من المشير عامر لرفع درجة الاستعداد للقوات المسلحة من الحالة العادية إلى الحالة الكاملة فى يوم ١٤ مايو ٧٦ اعتبارًا من الساعة ١٤٣٠ ظهرًا . وهكذا يبدو أن القيادتين السياسية والعسكرية ضربتا عرض الحائط بتحذير الملك حسين من الوقوع فى هذا الفخ .

غير أن هناك من يؤكد أن تحذير الملك حسين قد أدى تمامًا الهدف المطلوب منه ، إذ كان المطلوب هو جر رجل القيادة العسكرية لتدفع بحشودها إلى سيناء . وهذا ما فعلته الرسالة فى رد فعل معاكس متوقع من بادئ الأمر ، إذ كان معروفًا لهم أن الملك حسين لم تعد علاقته بعبد الناصر على مستوى الثقة .

وبالفعل أصدرت القيادة العسكرية أوامرها فى اليوم نفسه (١٤ مايو) بتعبئة القوات المقرر حشدها فى جبهة سيناء طبقًا للخطة « قاهر » ، على أن تتم التعبئة خلال ٤٨ ـ ٧٢ ساعة طبقًا للأولويات ، وبما لا يؤثر على كفاءة الإنتاج المدنى بدرجة كبيرة تحقيقًا لسياسة النفس الطويل(!) .

وبعد ذلك جاءتنى تعليمات الفرقة الرابعة المدرعة التى يتبعها لوائى المدرع ، وفى مقدمتها ديباجة سياسية طويلة عن أهداف إسرائيل التوسعية وقيامها بالحشد على حدود سوريا وتهديداتها المستمرة التى لا تسمح بها كرامتنا ، إلى أن انتهت بأن إسرائيل إذا اتخذت مخلبا للقط مرة أخرى كما حدث فى عدوان ٥٦ ، فإن المعسكر الشرقى لن يقف بمعزل عن الأحداث ولن يترك للقوى الغربية الاستعمارية التصرف بحرية فى المنطقة . وأن تحرك قواتنا المسلحة إلى سيناء سيجعل إسرائيل تفكر مرتين قبل أن تقدم على غزو سوريا .

وكانت التعليمات ينقصها تمامًا جانب المعلومات العسكرية التى تهمنا عن قوات إسرائيل وتحركاتها ونياتها مع مصر ، الأمر الذى ترك لدينا انطباعًا قويًا بأن الأمر كله لا يعدو شبه مظاهرة عسكرية لمنع إسرائيل من الاعتداء على سوريا ، خاصة وأن تحركاتنا كانت تتم على الملأ وفى وضح النهار وعلى مشهد من الجميع ، لدرجة أننا كنا نستمع نحن العسكريين إلى وسائل الإعلام ونشاهد التليفزيون لكى نلاحق أخبار هذه التحركات مصورة .

وفى ١٥ مايو نشرت أجهزة الإعلام احتمال انفجار الموقف فى أى وقت على خطوط الهدنة بين سوريا وإسرائيل .

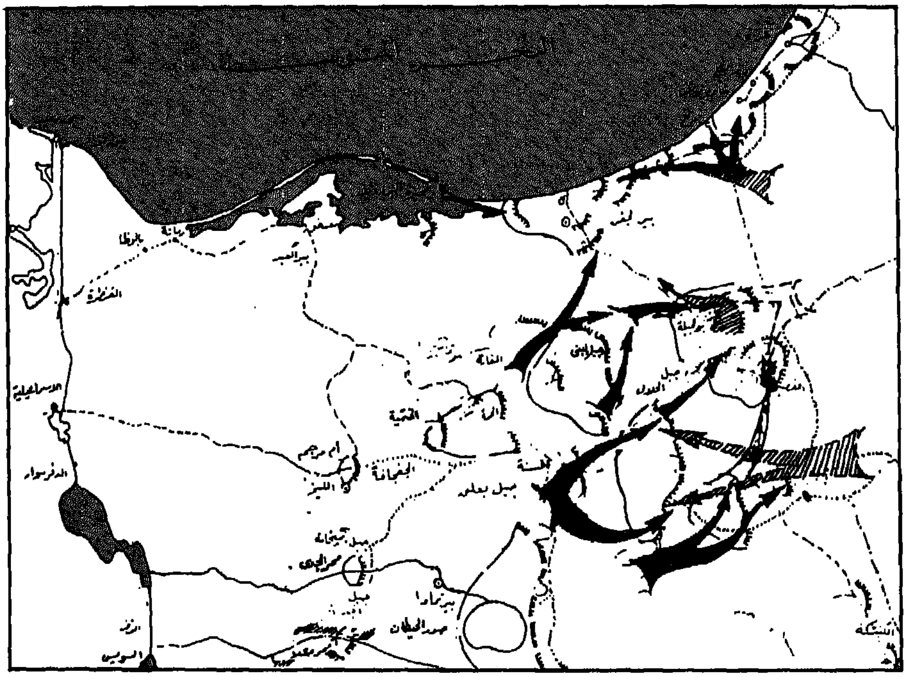
وفى ١٦ مايو سلم الفريق أول محمد فوزى رئيس أركان حرب القوات المسلحة خطابا إلى قائد قوة الطوارئ الدولية « الجنرال ريكى » ، يطلب فيه سحب قوات الطوارئ الدولية من خط الحدود بين مصر وإسرائيل . وهكذا وصلت اللعبة إلى الذروة المطلوبة .

لم تكن هذه القوات موزعة فحسب على طول خط الحدود ولكن أيضًا على طول قطاع غزة ، وكذلك فى مدخل خليج العقبة فى شرم الشيخ جنوب سيناء بمقتضى الاتفاق بين مصر والأمم المتحدة عقب العدوان الثلاثى على مصر وانسحاب إسرائيل من سيناء عام ١٩٥٦ .

وكان رد فعل يوثانت سكرتير عام الأمم المتحدة أن طلب من مصر الاختيار بين أن تبقى كل قوات الطوارئ الدولية فى مواقعها أو أن تسحب كلها من سيناء وقطاع غزة وشرم الشيخ .

وانزلقت القيادة السياسية إلى الشرك ، واضطرت إلى أن تعلن عن استجابتها للخيار الثانى ، وهو سحب قوة الطوارئ كاملة . وبالفعل تم سحبها مساء يوم ٢١ مايو ـ برغم أن مصر أعلنت مرارًا قبل ذلك أن وجود مثل هذه القوات لن يثنى مصر عن أن تهب لنجدة سوريا إذا هاجمتها إسرائيل . . ولكن يبدو أن رسالة الملك حسين بغموضها أدت إلى الارتباك المطلوب الذى جعل الجميع ينسون حذرهم الذى لازمهم طويلاً قبل ذلك .

وفى نفس يوم ١٤ مايو صباحا ، صدر أمر التحرك للواء الثانى المدرع ضمن الفرقة الرابعة



الخطة الدفاعية قاهر وخطط الهجوم الإسرائيلى

المدرعة ليحتل منطقة تجمع فى منطقة التمادا ووادى المليز وسط سيناء ، وذلك قبل أول ضوء يوم ١٥ مايو .

* * *

وعندما توجهت إلى منزلى بحى مصر الجديدة لتجهيز نفسى لسفر طويل ، وجدت آمال زوجتى تتنازعها أسئلة حائرة لم أرض أن أصارحها بأنها هى نفس الأسئلة التى تدور فى ذهنى . . قالت :

إنى أتساءل كيف يأخذ ذهابكم إلى سيناء شكل المظاهرة والتهديد بالحرب مع أنه من الواضح تماما لكل شخص عادى أن إسرائيل ستدخل الحرب منتهزة فرصة وجود جزء كبير من الجيش فى اليمن ؟!

لم أعقب على حديثها ، بل سلمت عليها وعلى أبنائى مودعا . . وعند باب المنزل ركزت عينيها على عينى قائلة وهى تعطينى مصحفها الصغير :

ـ بإذن الله تذهب وتعود بالسلامة و . . . وبشرف ! وضغطت على الكلمات الأخيرة كمن يقول كان الله فى عونكم أنتم مشرفون بكل تأكيد على حرب لستم على استعداد لها .

وكعادتها لم تستسلم للدموع . ولكن كما علمت من أطفالى فيما بعد أنها لا تفعل ذلك إلا عندما تختلى بنفسها فى غرفتها وحيدة ! .

الفصل الواحد والثلاثون
الإرباك العسكرى

فى الصفحات التالية لن أجهد القارئ معى بتفاصيل خطط الحرب المعادية التى وضعت منذ زمن طويل وكيف نفذت تفصيلاً ضدنا ، ولا بخطط الحرب الدفاعية أو الهجومية المرتجلة التى وضعت من جانبنا ولم ينفذ منها شىء بالمرة ، وإنما سأكتفى بأن أستميح القارئ العذر حين أرهقه معى بتفاصيل التحركات المرتبكة التى قام بها اللواء الثانى المدرع وفقًا للتعليمات العديدة المتناقضة التى صدرت إليه ، مع اعتباره نمطًا واقعيًا لباقى الوحدات السيئة الحظ التى ساقها قدرها فى ذلك اليوم إلى الاشتراك فى حرب ٦٧ والتى من الأفضل أن أسميها مجزرة ٦٧ !

بدء التحركات

فى آخر ضوء يوم ١٤ مايو تحرك اللواء على طريق السويس إلى منطقة الشط حيث عبرنا القناة وتحركنا نحو الشرق مجتازين مضيق متلا .

وبمجرد أن وصلنا إلى منطقة التمادا[١] ، تمركز اللواء فى منطقة تجمعه التى سبق استطلاعها فى العام التدريبى ٦٦/ ٦٧ وفقًا للخطة الدفاعية « قاهر » . وعلى الفور دخلت الدبابات والمعدات الحفر التى كان اللواء قد أعدها من قبل منذ عدة شهور . ثم تمت أعمال الإخفاء والتمويه لكافة المعدات . وكان من المفروض أن يتم إعداد وتجهيز عدد من الخطوط الدفاعية الأخرى[٢] أمام هذا الموقع منذ خمسة أو ستة شهور لتحتلها بقية فرق المشاة . ولكن يبدو أن هذا العمل قد توقف لأسباب مالية !

---

(١) التمادا منطقة صحراوية تقع على بعد ١٠٠ كيلو متر من الحدود تقريبًا .

(٢) المفروض تجهيز نطاقات دفاعية ومواقع للأسلحة لمساعدتها فى الحماية الجوية سواء فى الهجوم أو فى الدفاع .

وكان هذا القصور فى التجهيز أول كارثة محققة تلحق بأى قوات تحتشد فى سيناء فى هذه الصحراء المكشوفة التى تعتمد القوات فيها أساسًا فى وقايتها على الاستتار بالأرض حتى لا تتعرض للضرب الجوى المؤثر خاصة إذا لم يكن هناك غطاء جوى يحميها . وهو ما حدث بالفعل فى الدقائق الأولى يوم ٥ يونيو . فقد وجدت القوات نفسها عارية مكشوفة بعد أن فقدت كلا من وقاية الأرض والسماء فى آن واحد !

القيادة تغير رأيها

ويبدو أن القيادة العسكرية بعد أن أتمت الوحدات تحركاتها واتخاذها لمواقعها الدفاعية شعرت بخطورة البقاء فى حالة انتظار سلبى ، وقد أسلمت بذلك المبادرة تمامًا للعدو . لذا بدأت تفكر فى أعمال تعرضية (هجومية) مرتجلة لم يسبق التخطيط أو التفكير فيها من قبل [١].

عندئذ طرأ على فكر هذه القيادة أن توجه ضربة لإسرائيل لعزل إيلات والنقب الجنوبى للضغط عسكريًا على إسرائيل !

ولما كان اللواء الثانى المدرع قد وضع فى الاحتياط العام للجيش ، كان من الطبيعى أن يكلف بهذه المهمة الطارئة ! ولذلك فوجئت بأنهم يضعون تحت قيادتى لواء آخر (مشاة) للمشاركة فى هذه المهمة الجديدة !

عندما جاءنى قائد هذا اللواء العميد محيى الدين إبراهيم لمناقشة الموقف (وكان زميلى فى نفس دفعة الكلية الحربية) ، اكتشفنا منذ اللحظة الأولى مدى الصعوبات العديدة التى تكتنف قيامنا بهذه المهمة ـ فعلاوة على عدم وجود وسائل للقيادة والسيطرة تربط بين اللواءين[٢]، فإن القيادة العسكرية لم تخصص لنا مجهودًا جويا (أسرابا من الطائرات) للمعاونة فى مثل هذه المهمة وهو أمر يتحتم توفيره للقيام بأى عمل هجومى . وأخيرًا فإن هناك مشكلة كيفية قيامى بواجبين مختلفين فى آن واحد . فكيف يطلب منى أن أقود اللواءين معا فأدير أعمالها القتالية فى المعركة بينما أنا مسئول تمامًا عن إدارة أعمال قتال لوائى المدرع ؟! ثم هذا العدو الذى سنقوم بالهجوم عليه ـ أين المعلومات المتوفرة عنه ؟! ما هو حجمه الحقيقى؟ وما الذى لديه من أسلحة معاونة ؟ وما نوعيتها ؟ إلخ ! و . . وعشرات من الأسئلة كانت تدور فى ذهنى وفى ذهن زميلى محيى ولا نجد لها أى إجابة سوى علامات التعجب والاستفهام التى علت وجهينا !

---

(١) كان المشير عبد الحكيم عامر هو الذى وراء فكرة البدء بتوجيه هذا الهجوم ضد إسرائيل ولكن جونسون سيقوم بنفسه بالتحذير من القيام بهذا الهجوم ، كما سيجىء فيما بعد .

(٢) يقصد بوسائل القيادة والسيطرة الأجهزة السلكية واللاسلكية التى تربط بين قيادتى وقيادة اللواء المشاة .

وعندما اتصلت بالفريق صلاح محسن قائد الجيش الميدانى ، لم أجد لديه أية إجابة شافية لواحد من هذه الأسئلة ! ومع ذلك كان الأمر واجب التنفيذ .

ولذلك توجهنا فى اليوم التالى مباشرة لكى نقوم باستطلاع طرق الاقتراب عند الحدود المصرية الإسرائيلية فى المنطقة شرق الكونتيلا التى تقع شمال غرب إيلات ورأس النقب . **وعندما عدنا لكى نقدم تقرير استطلاعنا إلى قائد الجيش فوجئنا بأن العملية الهجومية التى كلفنا بها ضد النقب الجنوبى قد ألغيت !**

المهمـة الثـانية

وهكذا عاد الوضع مرة أخرى إلى العمل بالخطة الدفاعية ، ولكن ظهرت مشكلة جديدة ظلت مجال حيرة وتردد القيادة العسكرية ـ حتى ما بعد نشوب الحرب ، وهى مشكلة التعرف على المجهود الرئيسى للعدو ، أى تحديد المحور أو الاتجاه الذى سيحشد فيه العدو ويركز معظم قواته وجهوده ليضغط فيه بكل ثقله على قواتنا ليضمن نجاح الهجوم .

كانت الخطة قاهر قد قدرت أن العدو سوف يركز على المحور الجنوبى (الكونتيلا / العريش) ليكون هو اتجاه مجهوده الرئيسى وليس المحور الأوسط (الحسنة ـ الإسماعيلية) أو المحور الشمالى (الطريق الساحلى العريش ـ القنطرة) ، ولذلك حشدت عليه ٧٠٪ من قواتنا المدافعة فى سيناء .

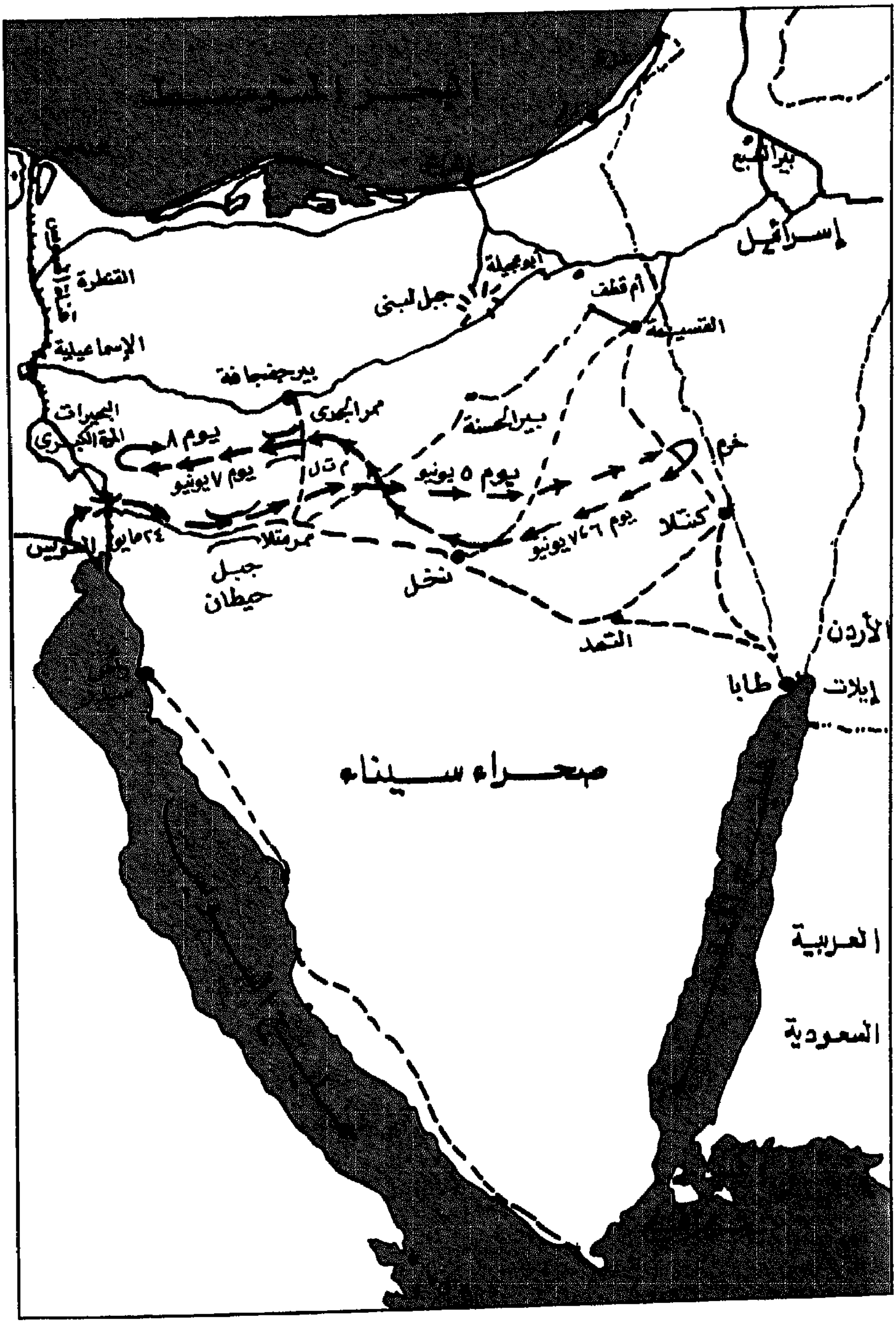
ولكن حدث أن تلقت قيادة الجيش الثانى معلومات مخادعة تفيد بأن إسرائيل سوف توجه ضربتها الرئيسية على المحور الأوسط (طريق الحسنة / سدر الحيطان) حتى لا تكرر أسلوبها الذى اتبعته فى عام ١٩٥٦ عندما جعلت مجهودها الرئيسى على ذلك الاتجاه . حدث ذلك بالرغم من أن كل تقارير المخابرات فى ذلك الوقت جاءت تؤكد اهتمام إسرائيل بمنطقة إيلات واتجاه الجنوب [١] .

وعلى هذا الأساس تم تكليف اللواء الثانى المدرع باستطلاع مواقع دفاعية فى أقصى الأمام عند الحدود لصد أى هجوم للعدو على هذا المحور .

ولذلك توجهت لاستطلاع أى طرق اقتراب تؤدى من داخل إسرائيل إلى هذا المحور توطئة

---

(١) ذكرت التقارير أن إسرائيل حشدت ثلاثة ألوية مدرعة وثلاثة ألوية مشاة ولواء ميكانيكى ولواء احتياطى فى هذا الاتجاه ـ ثم جاءت التقارير فى ٢٧ مايو تفيد بأن العدو أضاف لواءً جديدًا (لتعزيز هذه الخدعة) .



تحركات اللواء الثانى المدرع من ٥ يونيو حتى ٨ يونيو ٦٧

لانتقال لوائى المدرع ومعه لواء المشاة لكى يتخذا أوضاعًا دفاعية إضافية بخلاف المهام التى يكلفان بها كاحتياطى عام للجيش .

ومن دارستى لطبيعة الأرض فى هذا المكان اتضح لى استحالة أن تتخذ القوات الإسرائيلية هذا المحور لتوجه منه هجومها الرئيسى نظرًا لصعوبة الأرض وضيقها . ولكن حدث بعد ذلك أن جاءت التقارير تفيد عن وجود نشاط للعدو فى منطقة النقب الجنوبى ، فعاد إلى القيادة ارتباكها الذى وصل الذروة عندما أبلغ مكتب مخابرات العريش فى أول يونيو عزم العدو الوشيك على القيام بعملية هجومية ضد الاتجاه الجنوبى واحتمال سقوط مظلات على الكونتلا . **وبعد كل هذه الحيرة اتضح يوم الهجوم أن العدو اختار المحور الشمالى لمجهوده الرئيسى !**

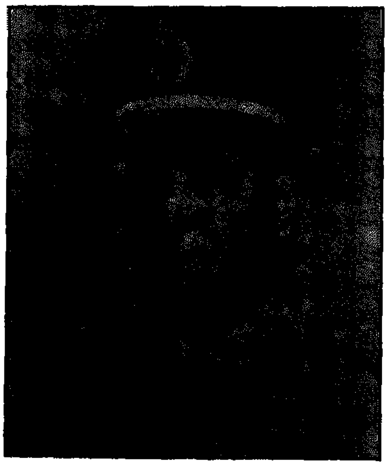
غير أن فكرة هجوم العدو من المحور الأوسط ظلت مسيطرة على ذهن القيادة ، فكان أن دفعت أحد اللواءات الاحتياطية (ل ١٢٥ احتياط) إلى منطقة « مطلة خرم » على الحدود جنوب المحور الأوسط . وللأسف كان هذا اللواء مثالاً لما عليه الوحدات الاحتياطية من نقص فى التدريب وعجز فى الأسلحة والحملة الميكانيكية بل فى ملابس الجنود وتعييناتهم الميدانية ، بل إن قائده [١] لم يكن يعرف شيئًا عن هذا اللواء وجنوده وضباطه ، فقد تولاه مصادفة منذ بضعة أيام فقط إذ كان يعمل ملحقا عسكريا فى باكستان وتصادف وجوده فى القاهرة فى إجازة قبل الحرب فاستدعته القيادة ليتولى قيادة اللواء ويندفع به إلى سيناء مباشرة !

١٤ مهمة يكلف بها اللـواء

وخلال الفترة من يوم ٢٥ مايو حتى ٥ يونيو لم يتوقف فيها اللواء المدرع عن استطلاع المهام والتحضير للعمليات العسكرية سواء ضمن الفرقة الرابعة أو كاحتياطى عام الجيش الميدانى بسيناء ، وبلغ عدد المهام الذى كلف بها هذا اللواء حوالى ١٤ مهمة حتى ٥ يونيو . وطوال هذه الفترة كان الملاحظ تدفق وحدات الاحتياط بغير حساب . حتى المعدات الهندسية التى فى الاحتياطى العام كان من بينها بلدوزرات أمريكية الصنع وأخرى روسية ضخمة دفعت من المستودعات الرئيسية بالقاهرة إلى سيناء بغير مهمة، لا لشىء إلا استكمالا لشكل المظاهرة العسكرية . ومما يؤسف له أنه تعذر سحب هذه المعدات بعد ذلك لما كانت ستسببه فى إغلاق الطرق أمام أمر انسحاب القوات فى ٢٤ ساعة من سيناء والذى سوف يصدر مساء يوم ٦ يونيو.

---

(١) العميد توفيق عبد النبى وقد مر على فى مركز رئاستى ليطلب منى أن أزوده ببعض التعيينات والملابس اللازمة لجنوده !



اللواء أحمد إسماعيل



الفريق أول عبد المحسن مرتجى

ذلك وقعت هذه المعدات فى أيدى إسرائيل لتشارك بعد ذلك فى بناء خط بارليف ! كان المشهد واضحًا على أنه مجرد حشد لأكبر قوة عددًا وليس من المهم نوعها أو استعدادها ، أما احتمالات هجوم العدو واتجاهات حركته فكلها أمور غير واضحة المعالم مع أنها الأساس الذى بنى عليه تنفيذ الخطة « قاهر » الدفاعية أو أى تخطيط آخر مكمل كالتجهيزات الهندسية للدفاعات(١) والتى لم يكن موجودًا منها أكثر من ٥٪ وفى المضايق فقط .

تعــدد القيــادات

من ضمن العناصر التى عملت على تفاقم الإرباك العسكرى ظاهرة تعدد القيادات ! وبخلاف القيادة العامة فى القاهرة كان هناك قيادة أخرى للجبهة بقيادة الفريق أول مرتجى وتضم اللواءات أحمد إسماعيل ومحمد الجمسى وعماد ثابت مدير المدرعات وغيرهم . وهى قيادة بدون جهاز سيطرة تقريبا . وكان من المفروض فيها أن تقود كل أفرع القوات المسلحة فى سيناء . ولم يكن ذلك من المستطاع إذ لم يكن لديها أى اتصال بفرق الجيش الميدانى أو بالقوات البرية التى يقودها الفريق أول مرتجى وقت السلم ، **الأمر الذى ترتب عليه أن الأوامر كانت تصل رأسا من القيادة العامة بالقاهرة إلى الجيش الميدانى والتشكيلات دون إخطار قيادة الجبهة .**

(١) يقصد بالتجهيزات الهندسية أعمال الحفر والتكسية للنطاقات الدفاعية ومواقع الأسلحة والمعدات ، للعمل على إخفائها مع إعداد مواقع تتخذ كقواعد لهجوم الوحدات .



اللواء محمد عبد الغنى الجمسى



المشير عبد الحكيم عامر

تناقض التصريحات والبيانات

إلا أن أكثر ما كان يقلق نفوسنا فى الميدان هو كثرة التصريحات والبيانات السياسية المتضاربة التى كنا نستمع إليها فى الميدان فتصيبنا بأقصى درجات القلق والتشتت .

أذكر فى يوم ٢٧ مايو أن الرئيس جمال عبد الناصر عقد مؤتمرا صحفيًا جاء بعد سفر وزير الحربية شمس بدران إلى موسكو وسفر يوثانت من القاهرة عائدًا إلى الأمم المتحدة بنيويورك .

وقد استمعنا إلى وقائع هذا المؤتمر الذى لم يكن مبعث طمأنينة لى ، بل ولا أريد أن أقول إنه كان مبعثا لانزعاجى خاصة عندما ذكر عبد الناصر فى كلمته عبارة « إننى لست خِرِع زى إيدن » .

وفى ٢٩ مايو نقلت نقلت إلينا الإذاعة خطاب عبد الناصر الذى قال فيه « قلت قبل الآن إننا سنقرر الوقت وسنقرر المكان ولن نتركهم ليقرروا الوقت والمكان . وقد تمت الاستعدادات ، ونحن على استعداد لمواجهة إسرائيل » وهو خطاب سياسى لا يمت لواقع الحال بصلة » ، فهل كان المقصود منه نوعا من التخويف السيكلوجى فقط ؟ !

غير أن المفاجأة الكبرى لكافة القوات كانت عند وصول تقرير فى ٢ يونيو وزع على كافة وحدات القوات المسلحة ذكر **أن إسرائيل لن تقدم على عمل عسكرى تعرضى (هجومى) وأن**

الصلابة العربية ستجبر العدو بلا شك على أن يقدر العواقب المختلفة المترتبة على اندلاع شرارة الحرب فى المنطقة[1] .

ثم كانت قمة التناقض بين القيادة السياسية والقيادة العامة للقوات المسلحة عندما اجتمع جمال عبد الناصر مع قادة القوات المسلحة حتى مستوى الفرق بالقاهرة فى اليوم نفسه ليخطرهم بأن إسرائيل سوف تهاجم مصر لا محالة فى ظرف ٧٢ ساعة (٣ أيام) ، وأن عليهم تلقى الضربة الأولى حيث لا قبل لمصر ببدء العدوان وأن عليهم اتخاذ الإجراءات الوقائية لذلك ومن بينها تخفيف حشد طائرات التعاون مع القوات البرية من مطارات سيناء .

ولقد أبدى الفريق صدقى محمود اعتراضه على تلقى الضربة الأولى لما سيترتب عليها من خسائر قد تصل إلى ٢٠٪ من حجم القوات المصرية أو أكثر . غير أن أشد ما كان يملؤنى بالإثارة أنا وبقية المقاتلين فى سيناء هو هذه الشحنة الإعلامية المكثفة التى كانت تصل إلينا فى الميدان كدقات طبول تصم الآذان عبر الإذاعة والصحف وكنّا لا نتبين منها إلا خليطا من التشنجات والمغالطات ، ونحن ندرك حقيقة ما يفصل الصورة عن الواقع حتى صباح يوم ٥ يونيو ! .

---

(١) أصدر هذا التقرير المشير عبد الحكيم عامر .

الفصل الثانى والثلاثون
قبل الخامس من يونيو

فى الوقت الذى كانت فيه الوحدات فى سيناء تدور وتلف حول نفسها لتنفيذ تحركات ومهام يكون من نصيبها التعديل والإلغاء المرة تلو المرة ، كانت الأحداث على الجانب الآخر للعبة تسير فى نهاية الأيام الأخيرة من مايو نحو أهدافها المرسومة المتفق عليها من قبل بوضوح .

فابتداء من ٢٠ مايو ، بدأت الأوامر تصدر إلى وحدات بحرية من خارج البحر الأبيض بالتوجه للانضمام إلى الأسطولين الأمريكى والبريطانى ، فانضمت حاملات أخرى إلى الأسطول الأمريكى هما « ساراتوجا وأمريكا » .

وعندما زار أبا إيبان ، وزير خارجية إسرائيل ، ليندون جونسون فى واشنطن يوم ٢٧ مايو ليستحثه على إصدار الإذن بالهجوم ، نوه جونسون عن الإمدادات الإضافية من الحاملات التى أمر بهاحتى يقوم الأسطول الأمريكى بمهامه الجدية التى « تعرفها إسرائيل ولابد من أن تقدرها» . . وهذه العبارة الأخيرة قالها جونسون وهو يضع عينيه فى عينى أبا ابيان بطريقة لها مغزاها مؤكدًا له فى وضوح : « أن الحاملتين ساراتوجا وأمريكا ليستا هناك فى البحر الأبيض فى نزهة بحرية !! »

أما بالنسبة للأسطول البريطانى فقد صدرت له الأوامر ، فى اللحظات الأخيرة ، بأن تلحق جميع وحداته التى فى البحر الأبيض المتوسط بقيادة الأسطول الأمريكى السادس ، وأن تنتقل إلى هذا الأسطول الأمريكى كل مسئوليات قيادة مالطة . « وكان من بينها حاملة الطائرات هرمس» .

الكتاليست أو العامل المساعد

ومن الغريب أن إشارة انضمام الأسطول البريطانى ، التقطتها مصر وحل المسئولون شفرتها بسهولة تؤكد أن الإنجليز والأمريكان ربما كانوا يقصدون أن تعرف مصر بهذا الانضمام حتى يقوى فى ذهن المسئولين المصريين فكرة « الإيهام » بقرب حدوث عدوان ثلاثى جديد (١) ! وهكذا يتضح لنا تماما أهمية الدور الإستراتيجى والسيكلوجى للأسطولين الأمريكى والبريطانى اللذين لم يطلقا طلقة واحدة بعد ذلك فى هذه المعركة . ولكن بغير هذين الأسطولين ما كان يمكن لإسرائيل أن تقوم أبدًا بالهجوم !

ولذلك يمكن القول إن دورهما فى المعركة كان أشبه بدور الوسيط أو دور العامل المساعد غير الفعال فى التفاعل الكيميائى ـ والذى لا يدخل فى صميم التفاعل ، ولكن لا يتم التفاعل بغيره أى دور « الكاتاليست » .

ومع ضمن هذه الأحداث أيضًا استلام إسرائيل لعدد جديد من طائرات سكاى هوك ليصبح لديها أكثر من ٨٠ طائرة من هذا الطراز الذى يعد أحدث مقاتلة قاذفة فى الترسانة الجوية الأمريكية فى ذلك الوقت . هذا بالإضافة إلى تجهيز ٧٢ طيارًا متطوعًا تم تدريبهم على المستوى اللازم للعمليات .

ومن أحداث مايو البارزة أيضًا ترحيل الرعايا الأمريكيين من القاهرة يوم ٢٥ مايو وبذلك تيقنت فكرة العدوان .

أما أهم أحداث مايو ، فربما تلك التى حدثت ليلة ٢٧/ ٢٨ مايو عندما زار **السفير السوفييتى ديمترى يوجدايف** الرئيس جمال عبد الناصر فى منزله فى منشية البكرى ، وأيقظه من النوم فى الساعة الثالثة صباحا ليبلغه برسالة رئيس الوزراء السوفييتى العاجلة والتى جاء فيها **أن الرئيس جونسون اتصل بالخط الساخن بالكرملين ليبلغ السوفييت أنه فى حل من تعهداته التى أعطاها للاتحاد السوفيتى بممارسة ضبط النفس لو أن القوات المصرية نفذت هجومها الوشيك الذى كانت تعده فى ذلك الوقت !**

وهكذا اكتملت خطة التواطؤ تمامًا ـ لقد استطاعت أمريكا أن تكتف مصر لكى توجه لها إسرائيل ضربتها الجوية المسبقة المدمرة .

وهكذا أيضًا صدرت الأوامر إلينا فى الميدان بإيقاف التحضير لأى عمل هجومى ، مما فسر

(١) لكى تصدر مصر أمرها بالانسحاب إلى القوّات المسلحة المصرية ليسهل ضربها أثناء الانسحاب فى صحراء سيناء ، كما سبق توضيحه فى فصل سابق .



المارشال جريتشكو وزير الدفاع السوفييتى

لى لماذا ألغت القيادة الميدانية أول مهمة كلفت بها عقب وصولى إلى مواقعى فى سيناء لعزل إيلات والنقب الجنوبى . . . !

شمس بدران فى موسكو

ومن بين الزيارات الهامة التى تمت فى الأيام الأخيرة من مايو ، زيارة شمس بدران (وزير الحربية فى ذلك الوقت) على رأس وفد إلى الاتحاد السوفييتى ثم عودته من هذه المهمة فرحًا مسرورًا لحصوله على وعود لم يفهم المعنى الحقيقى وراء مغزاها العميق . فعندما قام وزير الحربية السوفييتى المارشال جريتشكو بتوديعه على سلم الطائرة قال له وهو ينتحى به جانبًا :

إذا دخلت أمريكا الحرب فسوف ندخل بجانبكم !

ثم أضاف قائلا :

ـ هل فهمت ما أعنيه ؟

وامتلأ شمس بدران سعادة غامرة . فها هو ذا قد أخذ وعدًا صريحا قاطعا لا لبس فيه بأن الاتحاد السوفييتى سيدخل الحرب إذا دخلت أمريكا . وهكذا لن يتركوا مصر وحدها لتجابه الأساطيل الأمريكية ! .

وطبعًا لم يستطع شمس بدران بخبرته القليلة ومداركه المحدودة أن يتصور الدور الإستراتيجي والسيكلوجي للأسطولين الأمريكي والبريطاني - وأنه بعد تكتيف القوات المسلحة المصرية وتوجيه الضربة المفاجئة التي تفقد مصر قواتها الجوية ، وتجعل قواتها البرية مشلولة في سيناء ، لن تحتاج إسرائيل إلى دخول أمريكا الحرب بأكثر من هذا الدور الذي يمكّن إسرائيل من أن تدفع بكامل قواتها الجوية لضرب المطارات المصرية في القاعدة في الخلف وفي سيناء في الأمام مع تدمير القوات البرية في صحراء سيناء المكشوفة ، معتمدة على الحماية الوقائية التي يوفرها لها مجرد الوجود التهديدي لحاملات الطائرات الأمريكية ، التي تقف بجوار شواطئ إسرائيل !

هذا وسبق للصحف الأمريكية نفسها أن نشرت تصريحًا في أوائل يونيو منسوبًا إلى قائد الأسطول السادس الأمريكي في البحر الأبيض جاء فيه أنه « مستعد لحماية إسرائيل من أي هجوم عليها ، وهو منتظر في ذلك تعليمات مباشرة من الرئيس جونسون » . ولقد ورد هذا الخبر في برقية شفرية بعث بها إلى مصر الدكتور مصطفى كامل سفير مصر في الولايات المتحدة عقب مقابلة أجراها مع دين راسك وزير خارجية أمريكا الذي لم يعلق بشيء له معناه في هذه المقابلة !

وبالطبع ومن الواضح كان التصريح يهدف إلى التحذير الصريح الواضح من قائد الأسطول إلى كل من يهمه الأمر في الدول العربية ، وبذلك يضمن قائد الأسطول ويوفر على نفسه مشقة إطلاق طلقة واحدة في هذه الحرب التي سيؤدي فيها مهمته بنجاح كامل دون أدنى ضرورة إلى الاشتباك الفعلي بالنيران ، تمشيا مع دور العامل الوسيط أو الكاتالسيت .

الوعد الآخر

الوعد الآخر الذي ناله شمس بدران من الاتحاد السوفييتي وفرح به أيضًا فرحًا كبيرًا ، هو استجابة الكرملين لكل طلباته من السلاح والمعدات . وعندما تسلم عبد الناصر قائمة بالأسلحة والذخائر التي تقرر شحنها من السفير السوفييتي في مقابلة عاجلة بناء على طلبه يوم ٣١ مايو ، فهم عبد الناصر منه أن شحن هذه الأسلحة سيتم في المدة من ٩ يونيو إلى آخر شهر أغسطس . وكان تعليق عبد الناصر ما معناه بأنه لا داعي لإرسال هذه الأسلحة بالطائرات لأن في ذلك إسرافا ، ويمكن إرسالها بالسفن العادية لتوفير هذه النفقات . . !!

ولاشك أن عبد الناصر كان يتهكم بالطبع لأنه يعلم أن هذه الأسلحة لن تصله إلا بعد فوات الأوان ، والغريب أن السفير السوفييتي أخذ حديثه على محمل الجد (أو تظاهر بذلك) فأخرج من جيبه ورقة ليكتب عليها نصيحة الرئيس .

وبينما السفير السوفييتى يكتب نصيحة عبد الناصر كانت إسرائيل قد تسلمت بالفعل بقية أسلحتها والطائرات المقاتلة القاذفة الحديثة سكاى هوك ، كما كانت وحدات الأسطولين فى طريقها إلى المواقع النهائية للمعركة .

كما بدأت التعليمات السرية تصدر إلى باخرة التجسس « ليبرتى » بالتوجه إلى موقعها الجديد قرب العريش لتكون جاهزة عند بدء المعركة لتقوم بدورها فى التجسس على رسائل كل الأطراف المتحاربة وتسجيلها ، بما فى ذلك التجسس على إسرائيل لضمان عدم تجاوز دورها فى الحرب ، **الأمر الذى جعل ديان يصدر أوامره بإغراقها حتى لا تنقل إلى جونسون تحول القوات الإسرائيلية إلى جبهتى الأردن وسوريا اللتين لم تكونا فى مخطط جونسون** ـ وهى قصة مأساة عجيبة تبين إلى أى مدى يتطاول المسئولون الإسرائيليون لعض اليد التى امتدت لمساعدتهم «وفقًا للمعلومات التى نشرت فى كتاب مؤامرة الصمت Conspiracy of Silence الذى أعده الكاتب الأمريكى أنتونى بيرسون . . » وقد قتل فيها ٣٧ بحارًا وجرح أكثر من ١٢٠ رجلاً .

زيـارة المـلك حسـين

ولعل أغرب الأحداث الهامة التى حدثت فى مايو ، إن لم يكن أقواها ، هى زيارة الملك حسين يوم ٣٠ مايو لعبد الناصر الذى فتح له بيته وساعديه ، رغم أن عبد الناصر يعرف عن الملك حسين موقفه المعادى وكيف حاربه وضرب الوحدة فى سوريا ثم كيف حاربه وأيد الملكيين ليضرب الجيش المصرى فى اليمن قبل ذلك .

وبعد مقابلة لم تدم أكثر من ساعتين كان الود قد عاد إلى مجراه الطبيعى لدرجة أن عاد الملك حسين فى نفس اليوم وعلى متن طائرته كل من أحمد الشقيرى قائد حركة فتح (والذى كان ممنوعا من دخول الأردن نفسها) والفريق عبد المنعم رياض الذى طلبه الملك لكى يكون قائدًا للقوات الأردنية !

وهكذا فى زمن وجيز جدًا حقق الملك حسين أهدافه من الزيارة . . كان موقنا أن الحرب ستنشب فى أيام قلائل ، وبحكم اتصاله بالولايات المتحدة (عن طريق « روبرت كومر » صاحب فكرة صندوق الزيت الذى كان يمول لهذه الحرب عن طريق رجال الأسلحة والبترول ومن بينهم الملك سعود) كان موقنا أيضا بانتصار إسرائيل على العرب وأن الضفة الغربية ستحتلها إسرائيل لا محالة . . لذلك كان الملك يريد أن يضع اللوم على غيره بعد الحرب . إنه يريد أن يقول لشعبه الثائر ماذا كان يمكننى أن أفعل أكثر من ذلك !

هذا ويقول بعض الكتاب السياسيين [١] إن زيارة حسين كان لها هدف آخر غير ذلك . وهى الحصول على أكبر قدر معلومات ممكن من عبد الناصر عن نواياه فى هذه الحرب ، وبالذات عن الضربة الأولى ومدى تعاونه المباشر مع السوريين فى هذه الحرب ، وهل ستكون مصر وحدها فى الأيام الأولى من الحرب أم ستقوم سوريا بالهجوم على إسرائيل فى ذلك الوقت؟! والدليل على ذلك أنه كان يسأل عبد الناصر أسئلة مباشرة حول هذا الموضوع . . **وعمومًا فإن أفضل ما يثبت الدور المشبوه للملك حسين من وراء هذه الزيارة أنه اصطحب معه رئيس أركان حربه اللواء عامر عماش ، وبعد أيام قليلة جدًا من هذه الزيارة تمت مقابلة سرية بين اللواء عماش والسفير الأمريكى بالأردن (فى أول يونيو) طلب فيها سرعة نقل الطائرات النفاثة المقاتلة (ف١٠٤) وعددها ٢٥ طائرة والتى سبق أن أرسلتها أمريكا للأردن - طلب نقلها بصفة مؤقتة من الأردن حتى تنتهى الأزمة !**

وهكذا وفر الملك حسين على نفسه ضربة جوية مسبقة من إسرائيل ، وقد أخذ معه الفريق عبد المنعم رياض ليقود قيادة صورية جيشًا بريا استغنى عن طائراته قبل المعركة ! فأى جيش هذا الذى سيقوده عبد المنعم رياض ورئيس أركان حربه عامر عماش ؟!

خطـة الطـوارئ الأمريكيـة

ولكى أختتم الأحداث التى سبقت يوم ٥ يونيو . أرى من الضرورى أن أشير إلى الخطط الاحتياطية التى وضعتها أمريكا لتستخدم فيها الأسطول الأمريكى استخدامًا مباشرًا فى حالة الطوارئ لو حدث أن العمليات العسكرية سارت على غير ما يشتهى الجميع ، وكأنما كان الشك فى النجاح ما زال يراودهم بعد كل هذا التدبير المحكم .

وكان هناك خطتان للطوارئ :

الأولى : إنزال قوات مظلات أمريكية كبيرة معززة بمدفعية الأسطول السادس على سواحل سيناء . وهكذا يتضح لنا أن الأسطول السادس كان مكلفًا بمهمة رابعة هامة ، تخرجه من دور الوسيط غير التنفيذى أو الكاتالست إلى الدور المباشر فى القتال .

---

(١) يقال إنه فى سنة ١٩٦٥ عقد جيمس إنجلتون (مدير إدارة العمليات فى المخابرات المركزية الأمريكية) عددًا من اللقاءات السرية مع مسئولين فى الموساد بقصد التوصل إلى كيفية التخلص من ناصر بعد دوره فى سوريا واليمن - وتقرر فى هذه اللقاءات السعى لإثارة حرب محلية بين مصر وإسرائيل - وقد قام ضباط من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى عمان بشرح الخطة للملك حسين على أن يترك له ما سمى بحرية التحرك - أى هو الذى يرسم لنفسه ويقرر الدور الذى يقوم به فى حرية كاملة دون تدخل مرسوم من جهة معينة تحدد له كيف يحقق أغراضه الشخصية فى المحافظة على عرشه

الثانية : إرسال قوات برية أمريكية مباشرة إلى إسرائيل كحزام واق يمنع أى قوات معادية لها من الوصول إلى مراكز تجمعاتها السكانية !

إنها إذن المهمة الخامسة والأخيرة التى كانت وحدات مشاة الأسطول ستتكلف بها !

وبعد ذلك كله يذكر ديان فى كتابه « قصة حياتى » مغالطًا قائلاً إن إسرائيل كانت وحدها فى حرب ٦٧ ، وبعكس حرب ٥٦ كانت أمريكا ضدها ! وكذلك فرنسا وبريطانيا . . وأيضًا الاتحاد السوفييتى !

أما مصر فلم تكن وحدها . . كان معها الدول العربية ثم الاتحاد السوفييتى الذى كان فى نيته إرسال الأسلحة المطلوبة بعد انتهاء المعركة !

الخامس من يونيو

قصة الضربة المفاجئة وتحطيم الطائرات فى الساعات الأولى من يوم ٥ يونيو معروفة لكل صغير وكبير فى مصر . . .

ولذلك سأكتفى فى روايتى بالاقتصار على دور اللواء الثانى المدرع الذى قمت بقيادته فى هذه الحرب والذى تعرض لكل التحركات والحيرة العسكرية التى سردتها من قبل !

الفصل الثالث والثلاثون

الخامس من يونيو

عندما أشرقت شمس الخامس من يونيو وألقت بأولى أشعتها الحمراء على صحراء سيناء ، لم يكن يلوح فى الأفق أن هذا اليوم يختلف عن غيره من الأيام ، وأنه سوف يشهد معركة جديدة دامية من معارك التاريخ العديدة التى دارت رحاها فوق رمال هذه الصحراء أو عبر جبالها ووديانها .

منذ فجر التاريخ وجيوش مصر تروح وتجىء فوق هذه الصحراء بداية من عهد خوفو مشيد الهرم الأكبر والذى أصبحت فى عهده سيناء قطعة من أرض مصر ، ومرورًا بأحمس الذى طرد الهكسوس أوائل غزاة مصر ، ثم تعقب فلولهم فوق هذه الرمال حتى استأصل شأفتهم ليس خارج حدود مصر وحدها وإنما خارج حدود التاريخ كله .

فوق هذه الصحراء عبر الأشوريون الذى طردهم الفرعون بسماتيك ، وفوق هذه الصحراء عبر الفرس الذين طردهم آمون حر . وفوق هذه الصحراء عبر الإسكندر والبطالمة ، الذين دالت دولتهم بعد حين . ثم عبرت جيوش عمرو بن العاص ليطرد الرومان من مصر .

وفى الأزمنة الحديثة شهدت هذه الصحراء مجىء العثمانيين ورحيلهم - بينما رأت قبلهم جيوش محمد على وهى تخرج لغزو الشام وتهدد أبواب القسطنطينية .

وفى أيام الحرب العالمية الأولى شهدت هذه الصحراء مرور جنود الجيش البريطانى فوقها لطرد الأتراك من فلسطين وسوريا ، وبعد ذلك طردتهم مصر نفسها من فوق أرضها فى بورسعيد مع زملائهم الفرنسيين والإسرائيليين الذين يعودون اليوم على موعد مع رحلة مؤسية جديدة فوق هذه الصحراء !

فى هذا اليوم استيقظت مبكرًا على عادتى فى سائر الأيام بمنطقة تجمع اللواء بالتمادا . . وشرعت فى استكمال مرورى اليومى على وحدات اللواء مبتدئًا بكتيبة الدفاع الجوى !

كان ذلك بمحض الصدفة !

ففى الساعة التاسعة وخمس دقائق كنت بين مواقع المدافع ذاتية الحركة عندما لمحت طائرة إسرائيلية تعرفت عليها أطقم المراقبة الجوية وكذا أطقم المدافع .

كانت الطائرة فى طريقها مع طائرات أخرى إلى ضرب مطار « بير تمادا » الذى يبعد عن مكان تمركز اللواء حوالى خمسة كيلو مترات فقط . . !

كان على هذه الطائرات المعادية أن تطير طيرانًا منخفضًا لتضرب طائراتنا وهى واقفة على غرة فوق الأرض . ولتسقط أيضًا قنابل المرات . . وتطير بموازاة الممرات التى تتجه على طول وادى المليز . . . وهكذا تصبح صيدًا سهلاً لمدافع كتيبة الدفاع الجوى للواء .

ولكن فى هذا اليوم كانت الأوامر تقضى لدينا بتقييد النيران وعدم الاشتباك بأى طائرة فى السماء وذلك حتى وصول طائرة المشير عامر لمطار « التمادا » .

ولكنا سمعنا أصوات انفجار القنابل واضحة ! ورأينا الطائرات المعادية وهى ترتفع تدريجيا إلى السماء بعد ضربها الممرات وهكذا لم يكن هناك بد من الاشتباك برغم الأوامر التى تنص على غير ذلك !

وهكذا تمكنت مدافع الكتيبة المضادة من إصابة ثلاث طائرات للعدو . . وإسقاطها .

ولكن ما كادت الموجة الأولى للإغارة تنتهى ، حتى تلتها مباشرة الموجة الثانية .

وجاءت إحدى طائرات العدو مستترة من وراء الجبال الشمالية للوادى لتقوم بهجوم مكثف على كتيبة الدفاع الجوى ، فدمرت أحد المدافع واستشهد فردان أحدهما مدنى هو عامل التسليح .

ومع ذلك لم تكف الكتيبة عن الاشتباك واستمرت باقى المدافع توجه نيرانها فى ثبات وبسالة .

الحقيقة أنى لم أستطع بينى وبين نفسى أن أخفى إعجابى بهؤلاء الجنود . ولكنى كنت فى هذه اللحظة مشغول البال بطائرة المشير التى كان من المفروض أن تصل إلى المطار فى حوالى التاسعة . **وكان كل القادة الميدانيين حتى مستوى قادة الفرق فى انتظاره لسوء الحظ .**

ولكن وصلت المعلومات بعد ذلك بعدم وصول المشير ، وعودة كل قائد إلى قيادته . . لقد

فوجئ المشير وهو فى طائرته بنشوب الحرب فعاد إلى القاهرة دون أن يتم الرحلة التى كانت آخر رحلة له فى حياته فوق أرض سيناء . .

المهمـة الخـامسة عشـرة

استمرت الغارات فوق اللواء فى ذلك اليوم ، ولم تنقطع حتى الساعة الثانية عشرة ظهرًا . . **وعندئذ تلقيت أمرًا بتحرك اللواء للأمام بعد آخر ضوء ليحتل منطقة جنوب « مطلة خرم » قرب القسيمة لدعم اللواء ١٢٥ احتياط واللواء المشاة الآخر الذى كان قد وضع فى وقت ما قبل ذلك تحت قيادتى** . . كانت القيادة مازال مسيطرًا عليها فكرة أن العدو سيركز هجومه على هذا المحور برغم ما ذكرته فى تقريرى من عدم صلاحية الأرض .

وعلى الفور تركت مركز تجمع اللواء وتحركت للأمام مع مجموعات استطلاع اللواء ومعنا بعض عناصر من المهندسين اللازمين لتجهيز منطقة التجمع الجديدة والممرات المؤدية إليها ، والتى ثبت أن أرضها طفلية ، وناعمة كالبودرة ، لذا تطلب الأمر ضرورة الاستعانة بمهندسى الجيش بالإضافة إلى مهندسى اللواء ، حتى تتمكن الدبابات من السير فوقها ، وليتحمل السطح وطأة جنازير الدبابات التى ستثير ذرات التراب وتبطئ من حركتها مما يعرضها لضرب الطائرات المعادية .

وفى الساعة الثانية مساء تحرك اللواء من منطقة تمركزه إلى منطقة التجمع الجديدة . فوصلها فى الساعة الثالثة صباحًا من يوم ٦ يونيو ! لقد قطع المسافة التى تقرب من ١١٠ كيلو مترات فى الوقت المحدد له . . وابتدأت الوحدات الفرعية تأخذ محلاتها المخصصة لها فى المنطقة . . ودخلت الدبابات فى الحفر التى أعدت لها على وجه السرعة . . وبدأ قادة هذه الوحدات فى التعرف على مهامهم والقيام بالاستطلاع اعتبارًا من الساعة الخامسة مع أول ضوء فى الأفق !

فى هذا الوقت كانت طائرات العدو تقوم بإغارة جوية على منطقة الحسنة القريبة منا ـ وكان بها فوج مدرع ـ ولحسن الحظ لم تكتشف وجود دبابات اللواء ، فلقد بدأت إجراءات الإخفاء والتمويه من لحظة دخولها الحفر !

ولكن لم تكد وحدات اللواء تستقر فى أماكنها ساعات قلائل حتى صدر إلىّ فى الساعة العاشرة صباحًا أمر جديد من قيادة الفرقة بسحب اللواء وإعادته للخلف إلى منطقة تمركزه بالتمادا مرة أخرى على نفس الطريق الذى قطعه بالأمس طوال الليل !

كانت هذه هى التعليمات الجديدة التى صدرت من قيادة الجيش الميدانى للفرقة بعد أن

بدأت تدرك معالم الهجوم المعادى واتجاهاته الرئيسية التى لم يكن من بينها بالمرة هذا الاتجاه الذى سبق أن استبعدته فى تقرير استطلاعى وبينت فيه عدم احتمال استخدام العدو لهذا المحور كاتجاه رئيسى لعدم صلاحية الأرض . . .

وهكذا بدأت رحلة العودة فى الحادية عشرة صباحًا بعد أن قمت بإبلاغ قادة وحداتى الفرعية بهذا التحرك الجديد إلى منطقة « التمادا » مرة أخرى ! ومع كل التبريرات التى حاولت جاهدًا أن أجعلها تبدو لهم مقنعة ومنطقية ، قاموا بتنفيذ الأمر فى طاعة كاملة كالعادة وأنا أعلم أنهم كالعادة أيضًا يكظمون فى قلوبهم أى تبرم وأى استياء !

غارة جوية لمدة ثمانى ساعات وخمس دقائق

وفى حوالى الثانية عشرة ظهرًا لمحتنا إحدى الطائرات المعادية المروحية ونحن نتحرك للخلف مكشوفين فى العراء فى وضع لا يحظى العدو بالحصول على أفضل منه لتنفيذ خطته المفضلة والتى كرس نفسه لانتهازها كل السنين الطويلة . خطة معركة طائرات تهيمن فى سماء خالية ضد قوات تتحرك عارية فوق الأرض وقد تركت محلاتها الدفاعية التى كانت تحقق لها إحدى الحمايتين أقصد حماية الأرض بعد أن فقدت حماية السماء . . المعركة التى يكسبها العدو كدأبه دون أى قتال متلاحم !

وبالطبع لم تمض دقائق محدودة حتى بدأ الطيران الإسرائيلى فى الظهور .

كانت الدبابة الأولى من كتيبة المقدمة تكاد تصل إلى غرب الوادى ، ومن خلفها باقى دبابات الكتيبة تتحرك فى قلب الوادى عندما بدأت الطائرات المعادية تضربها بكثافة عنيفة (١).

إزاء هذا الموقف الواضح المخاطر ، اتخذت قرارًا آخر على مسئوليتى ، فأمرت باقى اللواء بالانحراف غربا فى اتجاه الحسنة ثم العودة بعد ذلك إلى الطريق الأصلى نحو الجنوب ، رغم أن هذا الانحراف يطيل من مسافة التحرك ٢٠ كيلو مترا إضافية ، ولكن فى هذه الحالة سوف تتاح الفرصة لدبابات اللواء أن تنتشر على جانبى الطريق بدلا من محاصرتها داخل الوادى الضيق ، مما يقلل الخسائر الناجمة عن الضرب الجوى .

ومع ذلك استمر الضرب الجوى المركز على اللواء لمدة حوالى ثمانى ساعات متصلة من الثانية عشرة ظهرًا حتى الثامنة وخمس دقائق مساء مع اختفاء آخر ضوء فى الأفق . .

---

(١) فى مقابلة بعد ذلك فى عام ١٩٧٨ مع عايزر فايتسمان وزير الدفاع الإسرائيلى الذى كان يشغل رئيسًا للعمليات فى هذه المعركة ، قال لى إنه بمجرد أن أخبرهم الطيار قائد الطائرة المروحية بخبر وجود لوائى المدرع فى هذا المكان حتى أعطى أوامره بأن تتجه لضربى كل طائرة من أى نوع تحمل قنبلة أو صاروخًا !



مانشيتات الصحف خلال العدوان عام ١٩٦٧

وبعد الغارة كان لابد من استعادة السيطرة على الوحدات . . . والقيام بالواجبات الإدارية اللازمة فى هذه الحالات ، مثل إخلاء الجرحى ودفن الموتى وإصلاح ما يمكن إصلاحه من الدبابات والمعدات ، مع إعادة توزيع الأفراد التى دمرت عرباتهم المدرعة على عربات أخرى بعد إفراغها من مواد التموين التى تحملها .

أمر جديد ومهمة جديدة بالانسحاب

واستمر اللواء فى السير ، ولكن ما إن وصلت إلى مركز قيادة اللواء حتى وجدت فى استقبالى مفاجأة جديدة ! كان فى انتظارى أمر جديد بمهمة جديدة ! استلمته كتابة من قائد كتيبة المقدمة [1] الذى كان قد وصل قبلنا إلى مركز قيادة اللواء فى السابعة .

لقد استدعاه قائد الفرقة لحظة وصوله ليذهب إلى قيادة الفرقة ليتسلم هذا الأمر الكتابى .

كان مؤدى الأمر أن يتحرك اللواء الثانى المدرع مرة ثالثة وفى أقل من ٢٤ ساعة من مكانه الحالى إلى ممر الجدى الذى يقع على بعد أربعين كيلومترًا جهة الشمال الغربى ليحتل المضيق وذلك لكى يستر انسحاب بقية وحدات الجيش الميدانى التى صدر لها الأمر بالانسحاب اليوم! . وكان على اللواء أن يبقى فى مكانه الجديد حتى الثانية عشرة من ظهر الغد (يوم ٧ يونيو) ثم ينسحب هو نفسه بعد ذلك إلى غرب القناة !

وما إن انتهيت من استيعاب هذا الأمر وأخذت فى إبلاغه من جديد إلى كافة القادة المرءوسين حتى تعالى صوت أحدهم بالاستياء من كلمة الانسحاب .

لماذا الانسحاب ؟! إننا لم نلتق بعد بأى جندى من جنود العدو ! ولكنى أسكته . . فالأمر أمر . . والواقع أننا منذ لحظة بدء المعركة ونحن نجرى بهذه الدبابات فوق الأرض لتطاردنا طائرات العدو فى وضع أشبه بالفريسة العزلاء التى يطاردها صيادها المسلح ، وليس أشبه بأى حرب تعلمناها أو قرأناها فى الكتب . . ونظرت إليهم وإلى ساعتى وعاد الصمت من جديد . ومع صدور تعليماتى عاد الانضباط . . . وراح كل إنسان يؤدى واجبه فى دأب وكأن شيئًا لم يحدث !

كان علينا أن نحصر الخسائر فى كل الوحدات بعد الضرب العنيف المستمر طيلة الثمانى الساعات !

لقد بقى باللواء ٥٣ دبابة من ٩٤ ، و ١٦ عربة مدرعة من ٣٨ . . ومدفع واحد ذاتى

---

(١) المقدم ممدوح عبد المجيد .

الأهرام

طيران الأمريكي والبريطاني يعمل ضدنا في المعركة

دلة قاطعة على أن الطيران الأمريكي والبريطاني يساعد العدو ومساعدة متواصلة في معركته ضد كل الجبهات العربية

بعد أن ثبتت أدلة التواطؤ الأمريكي قررت

العراق يوقف تدفق البترول وسوريا تسد خط الأنابيب

الجمهورية

قطع العلاقات مع أمريكا

بعد فضح مؤامرتها مع بريطانيا وإسرائيل واشتراكها في العدوان

الطبعة الثانية

إجراءات سريعة وحاسمة ضد دول العدوان الثلاثي الجديد

وقف الملاحة في قناة السويس

وقف إمداد أمريكا وبريطانيا بالبترول العربي

قرارات الدول العربية أثارت فزع وارتباك دول الغرب المتآمرة

ضرب المواقع الإسرائيلية على طول الجبهة

طائراتنا تقصف مطارات العدو [illegible]

الأهرام

قتال مستمر بعنف على الجبهة المصرية

طوال نهار وليل أمس

متصلة بين قواتنا وبين قوات العدو وتلحق بمجموعات العدو خسائر فادحة

جموع ... من جنود المظلات حاول العدو إسقاطهم على بعض مناطق خطوط

عدد في الطيران ... من التواطؤ الأمريكي البريطاني مع إسرائيل

طائرات بريطانية من طراز كانبيرا أغارت أمس على المواقع السورية المشتبكة في القتال مع العدو

ضرب مدرعات العدو بالصواريخ في العريش فجر اليوم

القتال مستمر بضراوة لصالحنا

معارك برية وجوية وبحرية بين قواتنا وقوات العدو المنهوك القوى تسفر عن تدمير ٢٥ طائرة وإبادة قوات المظلات المعادية

الجمهورية

الطبعة الثالثة

١٠ دول عربية تقطع البترول عن أمريكا وبريطانيا

قواتنا الجوية تدمر لواء إسرائيليا مدرعا في منطقة الخاتمية أثناء عملية تمويه بالذخائر

القوات السورية تستولى على تل الشونة وتترة سهل الحولة وتتجه إلى صفد والناصرة وعكا

الفدائيون الفلسطينيون يقومون بأعمال رائعة طوال أمس وينسفون مخازن التموين وأنابيب المياه والخطوط الحديدية

القوات الأردنية تضرب منزل رئيس إسرائيل وتدمر الخط الحديدي بين جاد وبئر سبع وبين تل أبيب وبئر سبع

اتصالات مستمرة طوال أمس بين عبد الناصر وعارف وحسين وفيصل وعبد الرحمن

مانشيتات الصحف المصرية والخداع الإعلامي الواضح للشعب المصري

الحركة مضاد للطائرات من المدافع الثمانية . أما باقى اللوارى والعربات فلم يتبق منها سوى نسبة تعادل ٣٠٪ من القوة المقاتلة للواء . . . . !

وفى العاشرة مساء عقدت اجتماعًا للقادة المرءوسين . كنت أعلم أن طريق تحركنا شمالاً إلى مضيق الجدى، مزدحم بالدبابات والعربات المنسحبة من الأمام من وحدات الجيش الأخرى .

ولذلك قررت الانتظار إلى ما بعد منتصف الليل حتى لا تتداخل الوحدات فى الظلام . كانت المسافة بيننا وبين مدخل المضيق لا تتجاوز ٤٠ كيلو مترًا أى يمكننا احتلال المضيق بسهولة قبل أول ضوء . . من مدخله . . إلى مخرجه .

الأمر بالانسحاب : أمر بالكارثة

كانت القيادة العامة للقوات المسلحة بالقاهرة قد أصدرت صباح هذا اليوم أمرًا إلى جميع القوات المسلحة المتواجدة فى سيناء بالانسحاب فى ظرف ٢٤ ساعة إلى غرب القناة . إنه الأمر الذى قابلته القوات الإسرائيلية بابتهاج عظيم ، فهو حجر الزاوية الذى بنيت عليه خطتها بالاشتراك مع الولايات المتحدة .

وكانت كل الحسابات البسيطة تقول باستحالة تنفيذ هذا الأمر ! ولو أن إنسانا ما كان باستطاعته أن يرص العربات والدبابات والمعدات التى تدفقت على سيناء (طيلة العشرين يومًا السابقة منذ يوم ١٤ مايو حتى ٥ يونيو) ويوزعها على المحاور الثلاثة (الشمالى المؤدى إلى القنطرة والأوسط المؤدى إلى الإسماعيلية والجنوبى المؤدى إلى السويس) لاحتاج الأمر ثلاثة أيام لتسير سيرًا عاديًا على الطرق الأسفلتية دون تدخل من العدو !

لقد تسلطت إذن فكرة الانسحاب التى طبقتها القيادة العامة عام ٥٦ ، وسيطرت على فكر القائد العام . . . نتيجة وجود الأسطولين الأمريكى والبريطانى فى البحر الأبيض وأفواج الطائرات المعادية الغزيرة التى أغارت على كل المطارات فى وقت واحد وحطمت بها معظم الطائرات . .

لقد نجحت إذن خطة « الإيهام » بوقوع عدوان ثلاثى جديد !

وظيفة الطائرتين الأمريكيتين

ومما زاد فى نجاح هذه الخطة وتقوية فكرة « الإيهام » بحدوث مثل هذا العدوان لدى القيادة العامة المصرية ، الحيلة التى لجأ إليها المعتدون بإرسال طائرتين تحملان العلامات الأمريكية بطريقة واضحة ، واخترقتا المجال الجوى للجمهورية فى وضح النهار يوم ٦ يونيو .

لقد راح جونسون يوضح فى اليوم التالى لرئيس الوزراء كوسيجين بأن هاتين الطائرتين ، ليستا فى مهمة تخص القتال الدائر بين مصر وإسرائيل . . وتم ذلك عن طريق الخط الساخن وطلب منه أن يبلغ ذلك التوضيح لناصر .

وقيل يومها إن هاتين الطائرتين قامتا من الأسطول السادس بهدف الاستطلاع ، قبل قيام أمريكا وبريطانيا بالهجوم على غرار ما حدث من بريطانيا وفرنسا فى عدوان ٥٦ .

وقيل كذلك إنهما طائرتان إسرائيليتان تحملان علامات أمريكية فى مهمة استطلاع شاملة !

ومهما قيل عن هدف هاتين الطائرتين وجنسيتهما ، فلقد قامتا بتأدية الهدف المطلوب منهما! وهو تقوية الإيهام باشتراك أمريكا وبريطانيا فى عدوان جديد ، بقطع طرق المواصلات على الجيش المصرى لتدميره فى مصيدة سيناء .

فيكون أمر الانسحاب . . إلى آخر الخطة الموضوعة . . وقد كان . . !

الجدى القاتل

فى الحادية عشرة مساء توجهت مع مجموعة الاستطلاع وقائد المدفعية إلى منطقة مضيق الجدى ، حيث تم توزيع المهام بالقطاعات وفقًا للتعليمات الجديدة .

وعند نقطة لقاء محددة التقينا بكتيبة المقدمة التى بدأت فى الوصول واحتلال المضيق .

وكما يحدث فى كل انسحاب عاجل غير منظم يتم دون تخطيط أو تنظيم مسبق ، تداخلت كتائب دبابات لواء مشاة تصادف سيرها على نفس طريق وادى المليز مع سرية من الكتيبة الثالثة من لوائى المدرع ، واستمرت فى السير معها متجهة إلى الطريق الأوسط فى اتجاه الإسماعيلية غربا بدلاً من أن تتجه شرقًا إلى ممر الجدى [1] وهكذا انفصلت تمامًا عن اللواء .

ثم وصلت كتائب اللواء للمضيق ، واتخذت مواقعها تمامًا وظلت فى أماكنها حتى الثانية عشرة ظهرًا . . وهو الموعد المحدد للبدء فى الانسحاب إلى منطقة القناة ، وحتى هذه اللحظة لم يظهر العدو ولم يحدث أى اشتباك برى معه .

فى ذلك الوقت تعذر تماما الاتصال اللاسلكى بقيادة الفرقة فقد كان التداخل اللاسلكى

(١) لم نتبين ما حدث لهذه الكتيبة الثالثة ، إلا بعد وصولنا بعد ذلك إلى شرق القناة حيث أمرت قائد الكتيبة الثالثة (الذى كان معى عند احتلال ممر الجدى) ليتوجه إلى الإسماعيلية ، وهناك اتضح له أن هذه السرية قد كلفت بعد وصولها إلى شرق الإسماعيلية بالتوجه إلى الطريق الساحلى لتشترك فى صد هجوم إسرائيلى . وقد أبلى النقيب أسعد قائد هذه السرية بلاء حسنًا وحارب ببسالة وشجاعة حتى استشهد .

على أشده . ولم نستطع أن نسمع إلا عددًا من التعليمات اللاسلكية المتناقضة لوحدات بعضها لم يكن معروفا لدينا بالمرة [1]!

كان الأمر بالانسحاب إلى غرب القناة المنصوص عليه فى أمر عمليات الفرقة الذى تسلمه قائد كتيبة المقدمة ، أمرًا يثير الاستغراب تمامًا . فنحن لم ندخل بعد فى أى اشتباك بالعدو الذى لم نره بالمرة . وتساءلت فى نفسى لماذا إذن العجلة بالانسحاب من الممرات ؟ ولم نكن تحت أى ضغط بالمرة . ومع ذلك كانت أوراق الأمر فى يدى أتحسسها بأصابعى دون أن تصدقها عيناى!

وعلى الطريق المؤدى من مضيق الجدى إلى كوبرى « جنوب البحيرات » ، تقابلت مصادفة مع اللواء محمد الجمسى رئيس عمليات الجبهة فى ذلك الوقت واللواء عماد ثابت مدير المدرعات ، كان ذلك حوالى العاشرة صباح يوم ٧ يونيو . .

ولقد سألانى عن موقف اللواء بعد الضرب الجوى المكثف الذى واجهه بالأمس أثناء انسحابه إلى وادى المليز . وكانا قد تمكنا من مشاهدته من مركز قيادة الجبهة بجوار مطار التمادا .

وعندما أخبرتهما بموقف كتائب اللواء ، ذكر اللواء عماد ثابت فى سياق الحديث أنه يعتقد أن الأوامر تقضى ببقاء وحدات الفرقة المدرعة (ومن بينها لوائى) فى منطقة المضايق دون تحديد وقت معين للانسحاب منها !

كان من الواضح إذن من الحديث أن قيادة الجبهة لم تكن على علم بأمر الانسحاب وتفاصيله حتى ذلك الوقت لانقطاع الاتصال بينها وبين قيادة الجيش الميدانى التى أصدرت أوامرها رأسا إلى وحدات الجيش بالانسحاب كالتعليمات الصادرة إليها من القاهرة .

وفى حوالى الساعة الثانية عشرة ظهرًا تقابلت مع اللواء صدقى الغول قائد الفرقة الرابعة . كان ذلك أول لقاء لى معه منذ تلقيت مهمة يوم ٥ يونيو بالتحرك إلى منطقة مطلة خرم (المهمة الخامسة عشرة) . . . . . فأخطرته بموقف وحدات اللواء ، وأكدت منه مهمة الانسحاب إلى غرب القناة التى تبدأ الساعة ١٢ ظهر يوم ٧ يونيو (اليوم) .

وفى حوارى معه ذكرت له الحديث الذى سمعته من اللواء عماد ثابت ، فأخذ يؤكد لى

---

(١) فى الكتب التى أصدرتها إسرائيل بعد الحرب ذكرت أن القوات الإسرائيلية عمدت أن تذيع هى الأخرى أوامر انسحاب مضللة باللاسلكى موجهة إلى وحدات مصرية حقيقية أو وهمية وكأنها صادرة من قيادة الجبهة المصرية وذلك بقصد دفع باقى الوحدات المدافعة إلى عملية انسحاب جماعية غير منظمة .

التعليمات الكتابية التى تسلمتها بالأمس من قائد كتيبة المقدمة ، وأنها هى آخر تعليمات للعمليات تلقاها بنفسه من قائد الجيش الميدانى (الفريق صلاح محسن) قبل انسحاب قيادة الجيش نفسها إلى الإسماعيلية . ثم أكد لى اللواء صدقى أن فكرة بقاء الفرقة المدرعة فى المضايق هى فكرة قديمة كانت مطروحة قبل صدور الأمر الأخير بالانسحاب .

عندئذ تسلمت نسخة ثانية مكتوبة من العميد صالح أمين رئيس عمليات الفرقة . وهكذا تأكد أمر الانسحاب وأصبح يقينا .

بعد الثانية عشرة ، بدأت وحدات اللواء فى الانسحاب من مضيق الجدى . واستطاعت الكتيبة الأولى منه أن تصل فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر إلى كوبرى جنوب البحيرات . . .

كانت جميع الكبارى والمعديات المقامة على القناة يسيطر عليها حتى هذه اللحظة أفراد الشرطة العسكرية التابعة للجيش الميدانى وكذا شرطة الرئاسة العامة . . وكانت كل نقطة شرطة يحمل أفرادها كشفًا بأسماء الوحدات وتوزيعها على المناطق التى تتجه إليها بعد عبورها القناة إلى الغرب (١) .

أمر بعودة اللواء الثانى المدرع

فيما يتعلق بلوائى الثانى المدرع ، حدث أن عبرت منه ثلاث دبابات بالفعل واجتازت كوبرى جنوب البحيرات إلى الضفة الغربية ، ولكن أوقفت هذه الدبابات على بعد ثلاثة كيلو مترات من الكوبرى وصدرت إليها الأوامر بالعودة مرة أخرى إلى شرق القناة حيث كانت بقية اللواء فى ذلك الوقت فى المنطقة شرق جنوب البحيرات . .

كان اللواء حتى هذه اللحظة منذ بدء القتال فى ٥ يونيو قد قطع ما يقرب من ٣٥٠ كيلو

---

(١) فمثلا عندما عبر اللواء السادس الميكانيكى من الفرقة الرابعة (وكان مكلفا بستر انسحاب القوات التى كانت تحتل مضيق متلا) ، وجهته نقطة الشرطة نحو طريق السويس ليعود إلى منطقة هاكستب شرق القاهرة .

أما جميع وحدات مدفعية الفرقة فقد كان توجيهها إلى منطقة التل الكبير .

فى الوقت نفسه كان اللواء الثالث المدرع من الفرقة ، يقوم بمهمة احتلال مضايق الطريق الأوسط المؤدى إلى الإسماعيلية (فى منطقة غرود المخازن وشرقها) . وعندما بدأ تنفيذ أمر الانسحاب تعطلت وحداته وتعذر انسحابها فى الوقت المحدد نظرًا لازدحام الطريق الأوسط هو الآخر بالوحدات المنسحبة ! .

وعندما بدأت وحدات هذا اللواء تصل إلى الإسماعيلية ، فوجئ بأمر جديد يقضى بعودته لاحتلال مضايق هذا الطريق مرة أخرى !

وكان ذلك قبل آخر ضوء يوم ٧ يونيو ! وهكذا وصل الارتباك إلى أقصى مداه ! وربما فاق كل توقع للعدو نفسه !

مترا فوق الجنازير دون إعادة ملء خزاناته بالوقود الأمر ، الذى أدى إلى توقف ١٢ دبابة منه فى ذلك اليوم على طريق العودة إلى القناة .

وبمجرد وصولى إلى منطقة التمركز شرق الكوبرى ، أجريت بعض الاتصالات للحصول على الوقود اللازم لإعادة الملء ، واستعواض بعض التعيينات (الأطعمة والمعلبات) والمياه ، وعند الكوبرى التقيت مرة أخرى باللواء صدقى الغول وكذا بالفريق صلاح محسن الذى أخذ يستعجل عودة اللواء إلى مضيق الجدى على الفور ! فطلبت منه سرعة إمدادى بالوقود بعد أن شرحت له موقف اللواء !

كان من الواضح أن الرجل واقع تحت تأثير ضغوط كثيرة مرهقة !

وكان همه الأوحد هو عودة الفرقة المدرعة إلى احتلال المضايق مرة أخرى ! وفى أسرع وقت ، وبأى صورة !

ولم يكن هناك بد من الانتظار حتى الساعة الواحدة صباحًا فى انتظار الوقود ! وفى هذه الفترة عاد إلينا الفريق صلاح محسن مرتين ليستعجل دفع الفرقة إلى المضايق ! جاءنا المرة الأولى فى الساعة الثامنة مساء ! والثانية بعد ساعتين فى العاشرة ! وعندما وصل إلينا الوقود وجدناه معبأ فى براميل وليس داخل فناطيس . وهى طريقة بدائية وبطيئة للغاية يتم فيها الملء باليد !

فى هذه الأثناء قمت بإبلاغ قادة الوحدات التابعة لى بمهمة العودة الجديدة !

وفى نحو الساعة الرابعة صباحًا بدأ تحركى باللواء متجها شرقا مرة أخرى إلى مضيق الجدى! بينما سبقتنا رئاسة الفرقة بقيادة اللواء صدقى الغول (١) لاحتلال منطقة غرب المضيق قبل تحركنا بساعتين !

وفى تحركنا فى اتجاه الشرق ، رأينا جنود المشاة الذين كلفوا بالانسحاب إلى الغرب وهم عائدون سيرا على الأقدام . لقد ضربت عرباتهم ودمرت ولم يكن أمامهم من سبيل إلا التخلص من بعض ما يحملونه من ماء وطعام حتى يتمكنوا من هذا السير الطويل تحت نيران العدو ونابالمه وحممه التى تتساقط عليهم من السماء !

وكان المشهد مأساويا بكل المعانى التى تزخر بها النفس الإنسانية !

---

(١) وهو ما يؤكد أن اللواء صدقى الغول لم يتخاذل ، إلا أن وحداته قد شتت بين هاكستيب والتل الكبير وغيرها ، مما احتاج بعض الوقت لإعادة تجميعها ودفعها للمضايق مرة أخرى كالتعليمات الجديدة التى صدرت إليه من قيادة الجيش الميدانى .

المعركة البريـة الوحيـدة

فى اليوم التالى صباح يوم ٨ يونيو كانت عناصر استطلاع اللواء قد وصلت فى الساعة السابعة تمامًا إلى شرق مضيق الجدى المطل على وادى المليز .

ولقد قامت هذه العناصر بالإبلاغ عن تقدم العدو فى هذا الاتجاه !

وهكذا لم تظهر وحدات العدو البرية إلا بعد ثلاثة أيام من بدء المعركة ، بعد أن تيقنت تمامًا أن طقوس الانسحاب لوحداتنا قد بلغت ذروتها من الإرهاق والارتباك والتعرض لنيران طيرانهم المعادى الذى ملك السيطرة الجوية الكاملة كالخطة الموضوعة مع المخابرات الأمريكية وفى احتضان كامل من أسطولها السادس !

أمرت قائد كتيبة المقدمة بالفتح استعدادًا للمعركة عند المدخل الغربى للمضيق ، وذلك حتى يسهل لدباباتنا أن تنتشر خارج المضيق تفاديًا للضرب الجوى إذا انحصرت بداخله .

أما باقى وحدات اللواء فقد اتخذت أوضاعها فى أنساق متتالية خلف كتيبة المقدمة .

ومع تقدم العدو بدأت عناصر الاستطلاع فى الانسحاب للخلف ، لاستدراج وحداته إلى الكمين المعد عند الطرف الغربى للمضيق . وفى هذه الأثناء استشهد رئيس استطلاع اللواء[1].

وعندما وصلت دبابات العدو بدأت كتيبة المقدمة بالاشتباك معها لأول مرة منذ بدء المعركة. وفى التو خسر العدو ٦ دبابات وعربة مدرعة ، بينما كان مجمل خسائر كتيبة المقدمة دبابتين فقط . وفى هذه الأثناء بدا أن العدو قد أوقف القتال . وكان رئيس أركان الفرقة قد حضر إلى وأوضحت له الموقف تفصيلاً .

كان من الضرورى إجراء استطلاع جديد للمضيق من داخله للتعرف على موقف العدو وهل انسحب من المضيق أم مازال باقيًا لمواصلة القتال .

وكان قرارى بدفع فصيلة دبابات فقط للقيام بهذه المهمة ،وتعمدت عدم دفع قوات أكثر من ذلك حتى لا يتم استدراجها إلى داخل المضيق . ثم قررت لجملة أسباب أن أقوم بنفسى بمهمة الاستطلاع مع قائد كتيبة المقدمة . وعلى الفور قفزت فى عربتى الجيب ومعى قائد المقدمة ، وتحركنا لتنفيذ مهمة الاستطلاع ، وعندما وصلنا إلى الدبابات الثلاث الأمامية أسقط

---

(١) النقيب حسام الخشاب .

العدو طلقة هاون ملونة (خضراء) أمام موقع هذه الدبابات ، وأدركت أن هذه الطلقة بغرض تحديد الحد الأمامى لقواته ولطائراته ، إنها إشارة تعارف وتمييز بينه وبين قواته البرية تعنى أن كل الأهداف التى يشاهدها أمام هذه الطلقات الملونة هى أهداف معادية .

أعقب سقوط الطلقة هجوم مركز من الطيران الإسرائيلى على الدبابات الثلاث ، وبالفعل انتهى منها وانتقل إلى الأنساق الخلفية من الدبابات والمدافع المضادة للطائرات التى لم تتوقف عن الضرب على مدى الأيام الثلاثة الماضية واليوم الرابع ، حتى استشهد رجالها فى استبسال رائع بعد أن دمرت عن آخرها !

استمر الطيران الإسرائيلى فى لعبته المشهورة ، فهو الطرف المقاتل الوحيد فى هذه المعركة . . كانت الطائرات تهاجم بالصواريخ والنابالم فى طيران منخفض تمامًا حتى كدنا نتبين وجه طياريها .

واستخدمت وحدات اللواء جميع أسلحتها فى محاولة لضرب الطائرات المغيرة حتى الطبنجات !

كل هذه المحاولات كانت بغير جدوى ! **ففى الصحراء من يملك السيادة الجوية يكسب المعركة قبل أن تبدأ . . .**

إصـابة فى البطـــن

إزاء هذا الموقف العصيب ، اضطررت للعودة إلى مركز قيادة اللواء ، إلا أن إحدى الطائرات ركزت صواريخها على العربة فى طريق العودة ، فانقلبت على جانبها نتيجة إصابة جاءت إلى جوارها دون أن تصيبها مباشرة !

وشعرت فى الحال بإصابة فى الجانب الأيمن من بطنى . . كما أصابت الشظايا السائق وعامل اللاسلكى .

وأذكر أنى بقيت ملقى على الطريق نحو عشرين دقيقة ، حتى وصلت سيارة قائد الكتيبة الميكانيكية باللواء ـ وحاول بعضهم فك الحزام ولكنى رفضت . . كنت قد قرأت كتابًا عن الإصابات الميدانية وتعلمت منه درسًا كان السبب فى بقائى حيًا .

كانت تعليمات الكتاب تقضى ببقاء الحزام مربوطًا تمامًا فى مثل هذه الحالة من الإصابات حتى لا يكون النزيف حادًا .

وحملتنى السيارة فى ذلك اليوم مع سائقى الجريح وزميله عامل اللاسلكى إلى مستشفى

الهلال بالسويس ـ وانتهت المعركة بالنسبة لى فى هذا اليوم ٨ يونيو ، وإن كانت المعركة قد انتهت حقًا قبل ذلك بأربعة أيام . فى صباح يوم الخامس الحزين !

كان عزائى وقتذاك أن المعركة إذا كانت قد توقفت فى ذلك اليوم ، فهى ليست أول المعارك التى توقفت ولن تكون آخرها !

ولابد أن رمال سيناء التى اعتادت رؤية العديد من المعارك سوف تشهد ذات يوم رحى حرب جديدة !

إنه مشهد متكرر منذ آلاف السنين .

ولابد أن يتكرر ، فالحرب لا تنهيها مواقف السلاح .

وإنما هى باقية ما بقيت إرادة الرجال .

الفصل الرابع والثلاثون
رحلة العذاب

بمجرد أن بلغت العربة التى تقلنا نحن الجرحى الثلاثة (أنا والسائق وعامل اللاسلكى) مشارف مدينة السويس ، حتى بدأت جموع الشعب تتدافع نحو العربة محاولين إيقافها للعديد من المرات وهم يدفعون إلينا دفعًا بالمياه والأطعمة . ولم يكونوا ليتركوا العربة إلا بعد أن يتبينوا أن بالعربة جرحى فى حاجة إلى الإسعاف السريع .

فى الحقيقة كان الأهالى فى منطقة القناة يشعرون بحقيقة معاناة الجنود العائدين ونكبتهم ، ويقدرون حقًا فداحة الكارثة ، **بعكس الشعب فى القاهرة الذى لم يعرف عن الحرب شيئًا إلا صراخ الإذاعات والبيانات الرسمية الجافة للصحف والتليفزيون !**

وفى المستشفى بدأ تحضيرى لإجراء عملية استكشاف جراحى لمدى الإصابة بالبطن ، بعد أن أوضحت الأشعة وجود ستة من الشظايا منتشرة فى جدار البطن .

كنت واعيًا تمامًا لما يدور من حولى ، وعندما هم طبيب التخدير بإدخال حقنة التخدير فى أحد أوردتى ، سمعت أحد الأطباء يذكر خطأ فصيلة دمى قائلاً إنها الفصيلة (أ) ، وكنت قد بدأت فى الدخول فى غيبوبة ومع ذلك سمعت نفسى أصيح مصححًا بأنها الفصيلة (ب) ثم استسلمت لغيبوبة التخدير بعد أن كنت من المحظوظين ، فالضغط على المستشفى كان يفوق التصور ، وعلمت فيما بعد أن العربة التى نقلتنى إلى المستشفى كانت آخر سيارة عبرت كوبرى جنوب البحيرات إلى غرب القناة .

بعدها مباشرة عبرت عربتان مدرعتان وثلاث دبابات صالحة للسير ، هى كل ما تبقى من اللواء المدرع بعد القصف المركز عليه طيلة الأيام الأربعة الماضية بسبب تحركات اللواء دون غطاء جوى !

ولاشك أن السبب المباشر فى الكارثة هو التسليم بقبول مبدأ خاطئ ، مبدأ الإذعان لتلقى الضربة الأولى . لقد كانت الأولى ، كما كانت الأخيرة كذلك ! وخاب التصور بإمكان توجيه ضربات ثانية لا حقة !

القنـاة تدافـع عن مصـر

ونسف مهندسو الجيش الميدانى كل الكبارى المقامة على قناة السويس لمنع العدو من العبور غربًا .

وجدت نفسى أردد عبارة قديمة كنت أحفظها عن ظهر قلب لكثرة ما قرأتها فى أحد كتب التاريخ العسكرى وأنا طالب بالكلية الحربية منذ عشرات السنين :

« وهكذا أصبحت القناة هى التى تدافع عن مصر ، وليست مصر هى التى تدافع عن القناة» .

وأذكر أن الذى قالها أحد النقاد الإنجليز متهكما على موقف القوات البريطانية التى قبعت خلف القناة لمحاربة الهجوم التركى الأول الذى وجه ضد القناة من سيناء عام ١٩١٥ .

وراح ذهنى إلى سيناء التى ظلت تشهد جميع ألوان هذه المعارك . كما راح ذهنى إلى المعركة الأخيرة التى لم ألتق فيها بالعدو التقاء مباشرًا فعليًا إلا لمدة ربع ساعة فقط فى مضيق الجدى حطمنا له فيها ست دبابات مقابل دبابتين فقط منا . أى أن خسائره كانت فى هذه المعركة ثلاثة أمثال خسائرنا ، وذلك عندما دخل معنا فى مواجهة فعلية . هذه هى النتيجة الحقيقية التى كانت متوقعة لو أن الحرب دارت وفقًا لما جاء فى الكتب العادية ـ وليس وفقًا لمخططات الحكومة الخفية والتحالف الغربى .

بعد إجراء الجراحة الأولى بقيت بالمستشفى يومين . ثم رؤى إخلائى من مدينة السويس التى كانت تموج بالعائدين على المحور الجنوبى .

لم يكن فى بالى أنى سأبدأ رحلة عذاب تفوق فى آلامها كل معاناة قاسيتها فى أيام المعارك السابقة . جاء أخى المرحوم الدكتور فؤاد أصغر أشقائى فى آخر قطار يصل السويس ليصحبنى إلى القاهرة فى عربة إسعاف يوم ١١ يونيو ـ وكانت أشق رحلة فى حياتى كلها . كنت أتألم مع كل اهتزازة للعربة ، إن لم يكن الألم من الشظايا فمن الجرح الجديد الذى شقه الأطباء بطول البطن .

وفى القاهرة سبقتنى معلومة خاطئة بلغت أسرتى أنى فقدت إحدى الساقين .

ولذلك عندما دخلت مستشفى المعادى حضر الأهل والأقارب كافة للاطمئنان على حالتى، وهم يتحسسون بأيديهم أى ساق فقدت .

ولشد ما أحسست بألمى النفسى إلى جوار آلام الجرح ، وبعد أسبوع أجريت لى الجراحة الثانية بنجاح واستطاعوا أن يخرجوا شظية واحدة وأن يطهروا الجرح من أنسجة الأقمشة التى اختلطت به . أما باقى الشظايا الخمس التى أصابتنى فقد بقيت فى أماكنها من البطن حتى يومنا هذا . . . . إنها تذكار إجبارى أحمله من هذه المعركة بداخل جسدى .

لقـــاء الســـادات

كانت السيدة جيهان السادات ترأس مجموعة من سيدات المجتمع والسلك الدبلوماسى العربى والأجنبى ، للمرور على الجرحى بالمستشفيات لتلبية حاجاتهم .

كنت من بين المرضى الذين زارتهم ونقلت خبر وجودى إلى السيد أنور السادات الذى كان يرأس المجلس النيابى فى ذلك الوقت .

كانت صلتى قد توثقت به بعض الشىء عندما كان يتردد علينا فى قيادة القوات المصرية باليمن .

وفى صباح يوم ٢٠ حضر الطبيب المعالج لإجراء أول غيار لى بعد العملية الثانية عندما تصادف دخول أنور السادات فى هذه اللحظة .

طلبت من الطبيب تغطيتى وتأجيل الغيار إلى ما بعد الزيارة .

وخرج الطبيب وتركنا وحدنا !

لم أكن أدرى أن هذا اللقاء سيؤثر يوما فى حركة التاريخ !

كان السادات فى لهفة لمعرفة حقيقة ما حدث فى سيناء . وحكيت له تفاصيل أحداث اللواء الثانى المدرع التى عشتها ، بل وتفاصيل قصص أخرى مشابهة أو أشد نكاية مما حدث للوائى ، استمعت إليها من العديد من الضباط الجرحى الذين جاءوا ليزورونى فى غرفتى من غرفهم المجاورة بحكم أنى كنت أقدم ضابط جريح فى مستشفى المعادى . شرحت للسادات كيف أنها لم تكن حربًا . لقد ساقونا فى الواقع إلى مجزرة ! فلقد وضعنا فى موقف الهزيمة من قبل أن تبدأ الحرب ! .

وأوضحت له كيف لم نعط الفرصة لمعركة شريفة متكافئة ، تتلاحم فيها عناصر القتال من الطرفين .



جيهان السادات



أنور السادات

وأدرك السادات أنه لم تكن هناك معارك جوية تقاتل فيها طائرة ضد طائرة . وإنما طائرات تنقض من الجو على قطع خرساء من الحديد قابعة على الأرض فى استسلام لمصيرها ، وقد قيّدت السياسة وضغوط الدول الغربية حركتها . وعرف السادات أنه لم تكن هناك أيضًا معارك برية مع جنود يحظون فى مواقعهم بحماية الأرض والسماء ، بل كان العدو يتربص بهم ليطاردهم فى ظهورهم بعد أن أمرتهم قيادتهم بالانسحاب . وياليته انسحاب منظم مدروس !

وشرحت للسادات . كيف فقدنا أسلحتنا . ولكننا لم نفقد روح القتال . فالحرب لا تنهيها مواقف الأسلحة ما دامت إرادة الرجال باقية .

وقلت للسادات : احصلوا لنا على السلاح لنحارب المعركة التى نستعيد فيها شرفنا الذى فقدناه فى حرب خاسرة لم نكن مسئولين عنها بل ولا أطرافا متكافئة فيها .

وقلت : **دعونا نحارب معركة جديدة يخطط لها من اليوم . . من الآن . وليس من الغد . وإلا لن يقوم لهذا البلد قائمة ، ولو بعد مائة سنة !** وهم السادات بالانصراف .

فاستوقفته وقلت له ، لى طلب أخير . واستمع الرجل منصتًا وهو يسألنى عنه . طلبت منه **أن يخطط للمعركة أهل الخبرة من العسكريين المتعلمين ، وليس أهل الثقة (والذين فقدنا نحن فيهم الثقة) من أنصاف الجاهلين المتعالين !**

قلت أشياء كثيرة للسادات ، وكنت أشعر أن فى قلبى كلمات لا تنفد ، عددها بعدد ثوانى ودقائق الغضب التى عشناها فى أيام الحرب التى انتهت حينما بدأت .

وأذكر أن السادات يومها لم يعلق بأكثر من كلمات معدودة : « إن شاء الله ياكمال »

وللمرة الثانية أقول إنى لم أحسب أن كلماتى سيكون لها أثر على السادات إلا عندما حدثت مناسبتان !

الأولـــى :

حدثت فى عام ١٩٧٣ ، وكنا عددًا كبيرًا من الضباط والقادة مجتمعين حول « تختة الرمل » عندما كنا نعد للعملية الهجومية لمعركة أكتوبر .

كانت الخطة على التختة تمثل عبور القناة وإنشاء رءوس كبارى بفرق المشاة شرق القناة والمواجهة للمضايق على غرار ما حدث تماما بعد ذلك فى أكتوبر .

وكان المشير أحمد إسماعيل هو الذى يتولى الشرح ، وإذا بالرئيس السادات يطلب منى القيام لأشرح بنفسى طبيعة أرض مضيق الجدى . . وسمعته يقول :

ـ أنت ياكمال حاربت عام ٦٧ فى هذا المضيق . وأدركت عندئذ أن كلماتى كانت قد حفرت فى ذاكرته !

والثـــانيـــة :

حدثت فى عام ١٩٧٥ عندما اختارنى الرئيس السادات لأتولى منصب رئيس المخابرات العامة .

كان على أن أتوجه إلى مقره بالمعمورة بالإسكندرية لحلف اليمين الدستورية بحضور محمد حسنى مبارك نائب الرئيس فى ذلك الوقت .

كان السادات كعادته يرتدى بذلة أنيقة وياقة مقواة مرتفعة .

ووقف منتصب القامة مرفوع الهامة !

وبعد أن حلفت اليمين طلب من نائبه ومنى الجلوس فى صدر القاعة المطلة على البحر المتوسط بمياهه الزرقاء !

نظر الرئيس السادات نحو السيد النائب وبادره بقوله :

ـ « أولا أشهدك الله يا حسنى أننى لم أدخل معركة ٧٣ إلا بسبب هذا الرجل . « لقد زرته

يومًا فى مستشفى المعادى فأوضح لى الموقف الذى وضعت فيه القوات المسلحة قبل المعركة ، وعرفت منه الأسباب الحقيقية لهزيمتنا عام ٦٧ » .

« الحقيقة أن الموقف الذى فهمته منه كان السبب وراء استعادتى الثقة فى قواتنا المسلحة ، ثم كان بعد ذلك السبب فى إقدامى على اتخاذ قرار الحرب فى عام ٧٣ » .

ولم أسمع فى حياتى كلمات أجمل وأعذب من هذه الكلمات . . . إذن ما حدث فى عام ٦٧ لم يكن هباء كله . أو ضياعًا كله !

ولا أذكر الآن من هو المشهور الذى قال : « إن الشعوب أحيانًا تتعلم من هزيمتها بأكثر مما تتعلمه من الانتصار » !

ووالله لقد تعلمنا !

إرادة أمـــة

والحقيقة أنى لم أكن وحدى الذى راح يطالب بسلاح جديد وبمعركة جديدة ، وإنما كان هذا مطلبًا عامًا نشده كل رجال القوات المسلحة .

بل كان مطلبا عاما على مستوى الشعب الذى خرجت جموعه الهادرة فى يومى ٩ و ١٠ تنادى باستمرار عبد الناصر فى مسئوليته ، لا لشىء إلا من أجل تحقيق هذه الغاية .

بل ولم يكن هذا المطلب غاية مصر وحدها ، وإنما كان غاية ومطلب الأمة العربية كلها ، التى خرجت كل شعوبها تستنكر العدوان وتتهدد الاستعمار فى كل ركن من أركان الوطن العربى .

ولاشك أن الزيارة الغاضبة للرئيس بومدين لموسكو فى يوم ١٢ يونيو ، كانت تجسيدًا لهذا المطلب المقدس الذى وضعه بنفسه موضع التنفيذ نيابة عن الأمة كلها وأخرج من جيبه على مائدة المباحثات فى الكرملين شيكًا بمبلغ مائة مليون دولار وضعه تحت حساب شراء أسلحة المعركة الجديدة .

بل واتسعت دائرة هذا المطلب لتشمل كل الحكومات والأحزاب الشيوعية فى أوربا الشرقية التى وجه الدعوة إلى زعمائها الرئيس اليوغوسلافى جوزيف تيتو فلبت الاجتماع بعد توقف المعارك فى الشرق الأوسط بساعات قليلة . .

ولعل أغرب ما حدث فى هذا الاجتماع ، كان الحديث الذى وجهه الرئيس تيتو إلى



الرئيس الجزائرى هوارى بومدين



الرئيس اليوغسلافى تيتو

المجتمعين قائلاً لهم : « إن ضرب حركة التحرر الوطنى فى الشرق الأوسط لن تكون إلا بداية الخطر الذى سوف يمتد غدا لدول أوربا الشرقية ، وبعد غد يصل الخطر إلى الاتحاد السوفييتى نفسه » .

ولقد مضى تيتو فى حديثه موضحًا كيف أن الاتحاد السوفييتى لم يتمكن حتى ذلك اليوم من حل مشكلة القومية فيه ، ثم نبه كيف أن هناك نشاطًا معاديًا يتحرك فى الجمهوريات الجنوبية كأذربيجان وكازاخستان وجورجيا وغيرها ، بل وأيضًا فى الجمهوريات الشمالية بالبلطيق كأستونيا ولاتفيا ولتوانيا .

وكأنها كان الرجل يقرأ المستقبل فى كتاب مفتوح !

والحقيقة أن المعنى الذى أوضحه تيتو فى ذلك الاجتماع ، سبقه عبد الناصر إلى استشفافه عندما قابله السفير السوفييتى يوم ٨ يونيو (اليوم الرابع للمعركة) فجابهه بقوله :

« إنها سوف تكون كارثة إذا لم يفهم قادة الاتحاد السوفييتى أنهم بهزيمة العرب قد هزموا هم الآخرون ! » .

ومن دواعى السخرية أن هذه المقابلة تمت بناء على طلب السفير السوفييتى ليحمل للرئيس جمال عبد الناصر رسالة طلب الرئيس جونسون تبليغها إليه ، مؤداها أنه يريد أن يحيط الرئيس ناصر علما بأن إسرائيل ضربت سفينة أمريكية صغيرة فى البحر الأبيض بنوع الخطأ . وكان يقصد الباخرة ليبرتى .

لاشك أن هذه الرسالة فى مثل هذه الظروف كانت مهزلة ! ولاشك أن مقابلة السفير السوفييتى لتبليغها لعبد الناصر كانت أشد هزلاً ! .

أما قمة الهزل فكانت فى الاسم الذى تحمله السفينة ، فكلمة ليبرتى تعنى بالإنجليزية كلمة الحرية .

هذه الحرية التى ظلت الولايات المتحدة تعشق لفظها ، وتتغنى به منذ نشأتها ، ثم تجسد معناه فى هذا التمثال العملاق الذى أهدته لها فرنسا ليقف حاملاً مشعلها كالحارس العملاق عند شاطئها الشرقى فى نيويورك .

والحقيقة أن جونسون قد أساء كثيرًا إلى سمعة الولايات المتحدة بعدوان ٦٧ . وإنى أتعجب كيف نسى هذا الرجل أن تاريخ بلده هو نفسه ، لم يبدأ إلا بمعركة التحرر من الاستعمار البريطانى ، هذه المعركة التى ظل أجداده يحاربونها لمدة ثمانى سنوات من عام ١٧٧٥ إلى ١٧٨٣ !

وإنى أتساءل لماذا إذن يستنكرون علينا حقنا فى التحرر مثلهم ومعاملتنا الند للند ؟ على أية حال إذا استنكروا هم علينا هذا الحق ، فلن نستنكره نحن يوما على أنفسنا !

الفصل الخامس والثلاثون

عبر الأحزان

فى يوم ٢٨ يونيو غادرت المستشفى لفترة نقاهة مؤقتة مع استمرار علاج الجروح بالأشعة السطحية .

وعندما عدت إلى بيتى فى مصر الجديدة أحسست بشعور طاغ يستبد بى فى اعتزال كل من حولى .

وظللت لعدة أيام ، عيناى لا تريان وأذناى لا تسمعان إلا شريطًا مدويًا من ذكريات مؤسية !

حاولت آمال زوجتى جاهدة فى هذه الفترة أن تخرجنى من هذه العزلة التى ضربتها لا إراديا على نفسى ولكن دون جدوى . وعندما ألحت على بترك البيت إلى الإسكندرية أو إلى أى مكان آخر ، أحسست بداخلى بالرفض لكل شىء . فقد كنت موقنا أن مشاعر الأسى التى كانت بداخلى سوف تسبقنى إلى أى مكان أقيم فيه .

لم يخرجنى من هذه العزلة ، إلا مكالمة تليفونية جاءتنى مع صباح أول يوليو . كان المتحدث هو اللواء أحمد منير عبد الرحيم مدير إدارة شئون الضباط أو كاتم أسرار حربية كما كانت تسمى فى ذلك الوقت .

عرض على أن أعمل نائبًا له . وقبلت على الفور . وفى اليوم التالى قطعت إجازتى المرضية وذهبت أتسلم عملى الجديد . وكان التقرير الطبى للمستشفى يوصى بعدم خدمتى بالتشكيلات أو الوحدات المقاتلة قبل ستة شهور !

كانت هذه الفترة من أقسى الفترات التى مر بها ضباط القوات المسلحة . فالحزن يملأ قلوبهم من الداخل للمأساة التى لم يكونوا سببًا فيها بقدر ما كانوا ضحايا لها .

وفى هذه الفترة سرح من القوات المسلحة ما لا يقل عن ألف ضابط لم يكن لهم حول ولا قوة فيما حدث !

كان الاتصال لا ينقطع يوميا بين الإدارة وبين وزير الحربية الفريق أول محمد فوزى لإعادة تنظيم القوات المسلحة واختيار أكفأ القيادات الجديدة لإعادة توازن القوات المسلحة واستعادة روحها المعنوية من خلال تدريب عنيف شاق وإنشاء وحدات جديدة .

وكانت فترة مليئة بالأحداث الجسام .

وفى يوم اتصل بى الفريق فوزى لاختيار اثنين من الضباط لحراسة شخصية عسكرية كبيرة . ولم يذكر لى أن المشير عبد الحكيم عامر هو المقصود .

فاخترت العميد عادل أحمد على والعميد محمد سعيد الماحى (الذى أصبح كبير الياوران بعد ذلك فى عهد الرئيس السادات) .

كان المشير عامر قد حددت إقامته فى الفيلا الخاصة به فى الجيزة ، وبعد أيام علمنا أنه تناول السم ونقل إلى مستشفى المعادى . وبذلك انفضت مجموعة الضباط التى كانت تلتف من حوله ، وكان مصيرهم بعد ذلك مصير الضباط الألف .

وبذلك أيضا انتهت حياة الرجل الذى ظل لمدة خمسة عشر عامًا ، هو الرجل الأول فى القوات المسلحة . .

وسوف يحكم عليه التاريخ أيضا ، أنه هو المسئول الأول عن كارثة ٦٧ ، على الأقل من جوانبها العسكرية ، فلقد قبل الضربة الأولى المسبقة دون بناء دشم وقائية حول الطائرات .

وساق القوات المسلحة إلى الحرب فى مظاهرة ودون تخطيط مسبق لهذه الحرب . وظن أن الوقت الذى اختاره للمعركة هو أنسب الأوقات لها دون أن يدرى أنه أسوأ الأوقات سياسيًا وعسكريا ، بل إنه استدرج للمعركة فى هذا الوقت الذى كان فى الحقيقة من اختيار العدو ، وظن هو خطأ أنه من اختياره ! .

وإذا كان للرجل أفضال أو حسنات فى بناء القوات المسلحة ، أو تطويرها من البلى الذى كانت عليه إلى قوات حديثة معاصرة ، فقد فاته أن قدر العسكريين إنما تكفيه عادة غلطة واحدة للقضاء عليه ، شأنهم فى ذلك شأن الطبيب الذى مهما شفى آلاف المرضى فإنه يفقد اسمه وسمعته إذا قتل بنوع الخطأ مريضًا واحدًا . . والتشبيه هنا يجاوز الحقيقة تمامًا لأن الطبيب إذا أخطأ مرة فإنه يقتل مريضًا واحدًا ، أما القائد العسكرى عندما يخطىء مرة ، فإنه يقتل أمة !

وحدث بعد ذلك أن وصلتنى فى شهر رمضان برقية من المدعى العسكرى يدعونى للشهادة فى إحدى القضايا ـ وعلمت بعد ذلك أن هناك اتجاها فى القوات المسلحة لتقديم عدد من الضباط إلى المحاكمة ، منهم اللواء صدقى الغول قائد الفرقة . . وكانت بعض أجهزة الإعلام قد بدأت تروج لهذا الأمر بعد أن أرسل المسئولون فى الاتحاد السوفييتى بما يوحى بضرورة محاكمة المسئولين عن الهزيمة فى الجيش ، وضربهم بالرصاص على غرار ما يحدث عندهم فى هذه الأحوال .

كنت أعلم يقينا بينى وبين نفسى ، أن اللواء صدقى الغول لم يرتكب أى خطأ يوجه إليه الاتهام بسببه . . فهو لم ينسحب أو يأمر بانسحاب وحداته بوحى من تفكيره ، وإنما لابد وأنه قام بذلك على أثر أوامر واضحة صدرت إليه من قيادة الجيش الميدانى . . أما الحديث العابر الذى دار بينى وبين اللواء عماد ثابت عندما قابلته عرضًا فى يوم ٧ يونيو ، فلم يأخذ شكل التعليمات الواضحة لأن قيادة الجبهة نفسها لم تكن قد وصلتها بعد هذه التعليمات المؤكدة بإلغاء أمر الانسحاب والبقاء فى المضايق . . ولذلك قام اللواء صدقى الغول باتباع التعليمات التى صدرت إلى شخصه من رئاسته مباشرة . .

وكان على أن أقول الحق بضمير خالص . . وعندما غادرت بيتى إلى مكان التحقيق قلت لزوجتى إن ما سأقوله لن يكون بالقطع محل رضا من المسئولين . وفى هذه الحالة قد أحال أنا نفسى إلى المعاش ، أو أتعرض للسجن ، خاصة وأنهم كانوا فى ذلك الوقت يبحثون عن كباش للفداء .

وكان رد زوجتى مؤيدًا لما فى نفسى : قل الحق ، وأجرك بعد ذلك عند الله !

وفى النيابة العسكرية استمر التحقيق لمدة سبع ساعات لم أزد فيها حرفًا واحدًا عما حدث بالفعل كما ذكرته سابقًا يوم ٧ يونيو . . . . **وللأسف أدان التحقيق اللواء صدقى الغول . .**

وعندما استدعيت مرة أخرى للشهادة أمام المحكمة العسكرية برئاسة الفريق الرمالى ، لم تخرج شهادتى عما سبق ذكره فى التحقيق . وأكدت لرئيس المحكمة فى حديثى أن لقائى باللواء عماد ثابت وحديثى معه كان أمرًا عابرًا ولم يتخذ شكل التعليمات المباشرة . ومع ذلك صدر الحكم ضده بالسجن لمدة عشر سنوات .

وهكذا تأكد لى بالفعل أن الأمر كان مجرد العثور على كباش للفداء .

ويعلم الله كم أثر هذا الوضع فى قلبى حتى يومنا هذا ، لأن الحكم اقترن باسمى فى تداع ـ

يجاوز الحقيقة ، مما ترك انطباعًا سيئًا خاطئًا لدى اللواء صدقى ظل حتى بعد الافراج عنه . فى الوقت الذى علق فيه وكيل نيابة أمن الدولة الذى يمثل الاتهام قائلاً : إن شهادتى كانت كفيلة بأن تخرجنى إلى المعاش أو تدخلنى السجن ، فقد كانت شهادة شجاعة لم تبتغ إلا وجه الحق . . . . إلا أنها لم تكن على المرام . .

وأعقبت تلك المحاكمة محاكمة أخرى للفريق محمد صدقى محمود قائد القوات الجوية الذى صارح عبد الناصر فى اجتماعه مع القادة قبل المعركة بأيام ، بأنه لا يمكننا تلقى الضربة الأولى لأن احتمال خسائرها فى القوات الجوية سوف تكون عشرين فى المائة على الأقل . . بل إنه طلب قبل المعركة بوقت طويل إنشاء دشم حصينة للطائرات ، غير أن ظروف اليمن لم تسمح بذلك ، وإن كان التحقيق قد كشف بعد ذلك عن أن وزارة الدفاع كان بها فائض للميزانية يسمح ببناء هذه الدشم .

وهكذا لم يكن مستغربًا من شعب ذى حس مرهف ، أن يهتف أبناؤه الطلبة فى مظاهرات يناير ١٩٦٨ مرددين « لا صدقى ولا الغول عبد الناصر هو المسئول » . لقد أدرك الجميع أن هذه المحاكمات لم تكن تقصد إظهار أخطاء المسئولين الحقيقيين بقدر ما كانت تقديماً لعدد من كباش الفداء من العسكريين لتبرئة القيادة السياسية من دماء ضحايا النكسة والهزيمة .

عـودة إلى الجبهـــة

لم أستمر فى عملى بإدارة شئون الضباط أكثر من عشرة شهور ، صدر قرار بعدها بعودتى إلى التشكيـلات الميدانية رئيسًا لأركان فرقة مدرعة تشكلت من الأسلحة الحديثة ، وهى الفرقة ٢١ المدرعة التى تمركزت فى منطقة «أبو صوير» غرب الإسماعيلية ضمن منطقة قطاع الجيش الثانى.

وكانت قيادة الفرقة تتمركز مع أحد لواءاتها المدرعة فى حدائق موالح الإصلاح الزراعى، وما زلت أذكر حتى اليوم كيف كان أريج زهور البرتقال والليمون(١) تبعث فى نفوسنا بالانتعاش(٢)

---

(١) أذكر بعد ورود الأسلحة وأعمال التدريب ، عادت إلى الضباط والجنود روح الدعابة التى اشتهر بها الإنسان المصرى ليجتاز بها الأزمات . فكان من الطريف أن يصفوا الوحدات فى أماكن تمركزها بنوع الفواكه المزروعة بمنطقتها . فقيادة الفرقة كانت فى الليمون ـ وقيادة اللواء المدرع فى « أبو صرة » بينما إحدى الكتائب فى « يوسف أفندى » .

(٢) من الملاحظات الجديرة بالذكر أن فصول الشتاء لم تشهد إصابة واحدة بالأنفلونزا فى الوحدات التى كانت تتمركز فى حدائق الموالح بأبو صوير غرب الإسماعيلية .

والحقيقة أن ورود الأسلحة الحديثة وأعمال التدريب عليها كانت هى المصدر الأساسى لهذا الانتعاش النفسى . فقد كانت الحماسة تطغى على الجميع ، لدرجة أن مستوى التدريب الذى كانت الوحدات تصل إليه فى زمن السلم فى مدة عامين ـ كمستوى الفرقة ـ كان يتم بلوغه فى ستة شهور . وفى الحقيقة لم تبخل الدولة على القوات المسلحة بأى كميات من الذخيرة والوقود لاستهلاكها فى أعمال التدريب ، بل كان هناك نسبة للاستهلاك مسموح بها فى الأسلحة والمركبات نفسها من أجل هذه الغاية .

ولاشك أن الخبراء السوفييت الموزعين على مختلف الوحدات قد لمسوا هذه الروح فى ذلك الوقت وأشادوا بها .

كان التخطيط والتدريب على أعمال عبور المانع عبر قناة السويس ، هو الشغل الشاغل للجميع ، خاصة وأنه يتطلب إعدادًا كاملاً معينًا للفرد وللوحدات على أعمال العبور ، كتجهيز المعديات والكبارى التى تتحمل الدبابات والعربات المدرعة وغيرها من المعدات والتجهيزات المبتكرة . وكان الفرد الواحد لا يتم تدريبه على القيام بواجباته هو وحده ، وإنما عليه أن يتدرب على واجبات آخرين من أفراد طاقم المركبة أو السلاح .

الدفـاع النشـــط

والحقيقة أن مصر لم تقف ساكنة بعد وصول القوات الإسرائيلية إلى الضفة الشرقية ، بل بدأت الـقوات المسلحة تنظم دفاعاتها على الفور على الضفة الغربية بالقوات العائدة من سيناء .

وفى أول يوليو حاولت إسرائيل بقوة من الدبابات والمشاة أن تتقدم لاحتلال بورفؤاد على الضفة الشرقية للقناة ، إلا أن قواتنا التى ظلت صامدة فى رأس العش كبدتها خسائر فادحة واضطرتها للانسحاب . وهكذا بدا واضحًا أن ما من معركة كانت تتم وجها لوجه وفى ظروف متكافئة (أو على الأقل شبه متكافئة كظروف بورفؤاد) ، إلا وكان النصر فى المعركة معقودًا للجانب المصرى .

ولقد قامت قواتنا الجوية فى الأيام الأولى التى تلت المعركة (فى يومى ١٤ و ١٥ يوليو) ، بإغارة ناجحة على قوات العدو فى الشرق واشتبكت فيها مع الطيران الإسرائيلى ، ثم عادت كلها إلى قواعدها سالمة .

أما يوم ٢١ أكتوبر عام ٦٧ ، فكان هو اليوم الذى شهد تدمير وغرق المدمرة الإسرائيلية

«إيلات» بكل الضباط والرتب التى كانت عليها . وكانت تقوم بإحدى مناوراتها أمام الشواطئ المصرية قرب بورسعيد معتقدة أنه ما من عارض سوف يعترض خط سيرها .

وكانت هيئة العمليات التى كان اللواء طلعت حسن على يرأسها قد أصدرت أوامرها بضرب المدمرة إذا دخلت مياهنا الإقليمية ، وبالفعل أصدر اللواء أحمد إسماعيل « قائد الجبهة الشرقية » تعليماته لقاعدة بورسعيد بالاشتباك بقوارب الصواريخ ، فقام قاربان يحملان صاروخ ستايسكى بضربها بإصابة مباشرة أدت إلى إغراقها وكل من عليها من طاقمها العسكرى وعدد ٣٠ طالبًا كانوا عليها فى رحلة تدريبية ومعهم عدد كبير من مختلف الرتب الأخرى .

وفى أعقاب إغراق المدمرة إيلات ، أرسلت إسرائيل غواصة جديدة حصلت عليها من بريطانيا ـ هى الغواصة داكار ـ فى مهمة سرية إلى الإسكندرية بهدف استكشاف قاعدة قوارب الصواريخ . ولقد استشعرت أجهزة استطلاع البحرية موقع الغواصة فبدأت محاصرتها بالمدمرات وقذائف الأعماق ، وفشلت الغواصة فى الهرب ، وبدا أنها أصيبت من بقعة الزيت التى طفت على السطح . ورفض المسئولون إذاعة أى إعلان رسمى عن هذا الحادث . بل منهم من اعتبره أمرًا غير مؤكد ، حتى طلبت إسرائيل فى عام ١٩٨٩ تصريحًا رسميًا بالبحث عن الغواصة لاستخراج جثث البحارة التى ظلت بداخلها لمدة تزيد عن عشرين عامًا .

كان ضرب إيلات بهذه الصواريخ سطح / سطح إيذانا ببدء دخول العالم فى تجربة جديدة لم يجرب العالم أسلوب عملها من قبل . لذا يقال إن هذه التجربة كانت بدء عصر الصواريخ البحرية[1] .

وإزاء فداحة الحادث وخسارة الرتب الكبيرة التى كانت عليها والعدد الهائل من الأفراد ، ردت إسرائيل بعدها بضرب معامل تكرير البترول وتفحيم المازوت بالزيتية ، جنوب السويس .

وفى هذا اليوم الذى اشتعلت سماؤه بالنيران ، راح التفكير إلى مرحلة أكثر عنفًا من حرب الدفاع هى التى عرفت بعدئذ بحرب الاستنزاف .

---

(١) بلغت خسائر البحرية الإسرائيلية فى هذا اليوم ٤٧ قتيلاً ومفقودًا بخلاف الجرحى . ومما يذكر أن المدمرة إيلات كانت سفينة مصرية فى الأسطول الملكى ، وتحولت إلى مدمرة حربية ، وأسرتها البحرية الفرنسية عام ٥٦ وسلمتها لإسرائيل .

الباب العاشر

حرب الاستنزاف

الفصل السادس والثلاثون : هل كان الاستنزاف ضروريًا ؟!

الفصل السابع والثلاثون : الحصيلة والثمن

الفصل السادس والثلاثون

هل كان الاستنزاف ضروريًا

قبل أن أخوض فى تفاصيل حرب الاستنزاف وأسترجع أحداثها الجسيمة ، أجدنى متعجلاً لأن أجيب مبكرًا عن سؤال كثيرًا ما ألح على أذهان الكتاب والمفكرين فى ذلك الوقت . هذا السؤال هو : هل كانت هناك ضرورة ملحة لهذه الحرب ؟! ألم يكن من الأجدى أن تحتفظ القوات المسلحة بكل قدراتها سليمة لحرب ثالثة بعد أن عوضت معظم ما فقدته من السلاح والمعدات والذخيرة من الاتحاد السوفييتى عبر جسر جوى وبحرى ضخم بدأ من يوم ٩ يونيو وعلى امتداد ٥٥٠ رحلة جوية و ١٥ رحلة بحرية نقل خلالها ما يزيد على ٥٠ ألف طن من الأسلحة والمعدات ؟!

ألم يكن من الأفضل أن تتحاشى مصر خسائر الضربات العنيفة التى يوجهها الطيران الإسرائيلى ، ليس فحسب إلى وحدات القوات المسلحة فى منطقة القناة ، وإنما امتدت ذراعاه ليطول بها المنشآت المدنية ومساكن الأهالى فى مدن محافظات القناة الثلاث التى كاد أن يدمر كل بيت فيها ثم انتقل منها إلى محافظات مصر الأخرى فى البحر الأحمر ثم فى شمالى الوادى وجنوبه ، هادفًا بذلك أن يوقف ضرباتنا الموجعة وإغاراتنا الجوية والبرية التى كانت تقصف وحداته وجنوده شرق القناة لدرجة أفزعتهم ، حتى أن الرياح كانت تنقل إلينا صرخاتهم الرهيبة فى أماكننا بالضفة الغربية من القناة ؟!

ثم ألم يكن الثمن فادحًا ، هذا الذى تكبدته مصر وقتذاك ؟! وربما أفدح من أى أهداف حققتها هذه الحرب ؟

وبداية أقولها واضحة وحاسمة وبكل يقين : لولا حرب الاستنزاف ما كانت حرب ٧٣ ، وما كان من الممكن عبور القناة واقتحام خط بارليف بهذه الجرأة والاقتدار الذى تحاكى عنه

العالم فى ذلك الوقت ، وستظل كتب التاريخ العسكرى تكتب عنه لسنوات وأجيال عديدة . والواضح أن حرب الاستنزاف كانت تجربة جسورة بقدر ما كانت مدرسة عظيمة .

فى هذه المدرسة عرف الجندى المصرى أشياء كثيرة عن الجندى الإسرائيلى ، وتعامل معه وجها لوجه . بل أمسك به لأول مرة بين يديه ! وراح يتحسس لحمه وعظامه ويتفرس ملامح وجهه عن قرب . رآه بشرًا عاديا فيه كل صفات بنى البشر وضعفهم ، وقد سقطت عن وجهه أقنعة الأسطورة التى نسجتها من حوله أبواق الدعاية البراقة .

كان معظم الجنود المصريين قد دخلوا الحربين السابقتين وخرجوا منها دون أن يروا جنود العدو عن كثب .

كل ما يذكرونه عن هذه الحروب أنهم كانوا يشحنون إلى ساحتها بليل ، فإذا ما طلع النهار جاءهم أمر بالانسحاب لسبب لا يدركونه . فإذا ما بدأ تحركهم إلى الخلف انهمرت عليهم حمم القنابل والنابالم ، تتساقط عليهم كالشهب من السماء أو تنفجر من تحت أقدامهم كأتون فوق الأرض . وقبل أن يتبينوا من أين جاءتهم الحمم أو كيف أدركتهم الشهب ، يجدون أنفسهم وقد أصبحوا صرعى أو جرحى أو مساقين إلى الخلف فى أقسى وأمر رحلة عذاب تنتهى فى نهاية الطريق إما بالهلاك أو بلوم اللائمين وعقاب العاتبين . حتى أن كلمة حرب أصبحت ترتبط فى عقولهم بكلمة « انسحاب » ، وكلمة الانسحاب أصبحت ترادف عندهم كلمة الهزيمة . لكن فى حرب الاستنزاف ـ أقصد فى مدرسة الاستنزاف ـ اختلف الأمر . **ذلك أن حرب الاستنزاف نفسها قد اختلفت فى وسائلها وطبيعتها تمامًا ، وربما عما ترسخ فى أذهان كتاب كثيرين كتبوا عنها وهم جالسون داخل مكاتبهم المكيفة .**

فهذه الحرب لم تكن مقصورة على حجم النيران التى تتقاذفها آلاف الفوهات من مدافع الجانبين عبر مياه القناة ، أو على آلاف الأطنان من القنابل التى تلقى بها الطائرات الإسرائيلية كل يوم فوق رءوس الصامدين من أبنائنا فى مواقعهم ، بل الحقيقة أن حرب الاستنزاف وإن كانت قد اختلفت عن ذلك كله ، إلا أنها اشتملت أيضًا على ذلك كله !

فلقد اشتملت هذه الحرب فيما اشتملت على العديد من الإغارات البرية المخططة ، والتى قام بها رجال مدربون من قوات الصاعقة ، ومن جنود المشاة الذين يدعمهم فى رحلتهم الجسورة أفراد من المهندسين ومن باقى العناصر المتخصصة . كانوا يعبرون القناة إلى مهامهم الانتحارية أحيانا تحت جنح الليل ، وأحيانا فى وضح النهار ، بقصد أن ينقضوا على نقط العدو القوية فيهدمون تحصيناته ويفاجئون دورياته المنتشرة فيقتلون منها ما يقتلون ، ثم

يأسرون الباقى منها ويصطحبونه معهم فى رحلة العودة إلى الضفة الغربية ، وهناك يقرأ باقى زملائهم فى عيون الأسرى نظرات الرعب عندما يسقطون من الإعياء فوق الأرض ، وتسقط معهم على الأرض نفسها أسطورة جيش الدفاع الإسرائيلى الذى لا يقهر : **عندئذ تتملك جنودنا رغبة جياشة فى ملاقاة هذا العدو الذى سمعوا عنه ولم يروه !**

واشتملت هذه الحرب أيضا فيما اشتملت على العديد من المهام والدوريات التى كان رجال الصاعقة والضفادع البحرية يرتبونها ليخرجوا فى رحلات بحرية بعيدة تمتد تحت الماء لمئات الأميال ، ثم يتسللون بعدها إلى موانى العدو ـ كما حدث فى ميناء إيلات ـ ليعملوا النسف والتخريب والتدمير فى العديد من قطعه البحرية التى لا يكاد جنودها يفيقون من صدمة المفاجأة حتى يجدوا أنفسهم غرقى تحت الماء . وبعدئذ يعود جنودنا لقواعدهم وقد مسحوا عن جبينهم ذكرى هزيمة لحقت بأقدارهم ، ولم يكن لهم دور فى صنعها وإنما كانوا ضحايا لها .

وما كان يحدث أيضا من القوات البرية والبحرية ، كان يحدث مثيله مع القوات الجوية التى كان طياروها يخرجون للإغارة على مواقع العدو ودك دفاعاته الأرضية أو للاشتباك مع مقاتلاته الجوية لينالوا من طائراته لأول مرة ما يجعلهم يذوقون حلاوة النصر بعد أن خاضوا تجربتين مريرتين متتاليتين لم يعطوا فيها الفرصة ليحققوا ذاتهم فى قتال يدور بين رحبات السماء .

حدث كل ذلك خلال سنتين متتاليتين من حرب الاستنزاف لم يكف فيها هدير المدافع من مختلف الأنواع والأعيرة عن ضرب تحصينات العدو المرئية فى الأمام ضربًا مباشرًا ، أو عن قصف مراكز رئاسته ونقط تموينه غير المرئية فى الخلف بالضرب غير المباشر فتحيلها المدافع بعيدة المدى إلى أكوام من رماد ودمار .

وبالطبع كانت كل هذه الأسلحة ومختلف الأعمال التى تقوم بها الدوريات العابرة ، لا تقصد إلا أن تنقل للعدو رسالة واحدة وإن كانت كلماتها حمما وسطورها جحيما . **كانت الرسالة تقول « عليكم أن تراجعوا نظرياتكم عن الحدود الآمنة ، فلا أمان لكم وراء مانع مائى أو جسر من تراب أو حاجز من أسلاك »** .

فالأمان أمان السلام العادل ، وليس أمان الحرب التى تدار خططها الملتوية فى الظلام ووراء كواليس المخابرات المغلقة .

إن ما تدفعونه الآن من خسائر فادحة لها حساسيتها بين أعدادكم القليلة ، هى الثمن الذى تفرضه حقائق المواجهة لحرب تدور فوق أرض لن يسكت أهلها عن استعادتها حتى ولو فنوا جميعًا فوقها !

ولو حسب بعض كتابنا المتشككين ما أسقط من قنابل فى منطقة القناة لمدة عامين من سبتمبر عام ٦٨ إلى أغسطس عام ١٩٧٠ ، لأدهشهم أن إجمالى وزن هذه القنابل بالأطنان ربما قارب ما أسقط خلال أى حرب من الحربين العالميتين . وإنى أتساءل أليس من حق جنودنا عليهم أن يراجعوا كل ما كتبوه عنهم وعن ضباطهم الذين راحوا يشيعون عنهم ما تردده أبواق المغرضين من أنهم بورجوازيون ومترفون ، اعتادوا ألا يحاربوا سوى عشرة أيام كل عشر سنوات؟! **بودى لو أن القوات المسلحة كانت ترتب الدعوة لبعضهم ليعيشوا عشر ساعات وليس عشرة أيام تحت قنابل الفانتوم وحمم المدفعية المنهمرة ، لعلهم يدققون فيما كتبوا عن حروبنا مع إسرائيل وليعرفوا من الذى كان يطلب إيقاف القتال بعد عشرة أيام ، وأى دافع كان وراء طلب وقف القتال لدول تتقاتل ولا تصنع السلاح بيديها وإنما عليها أن تستجديه من الدول الكبرى ـ التى لا تعطيها إلا لو كان لها صالح أو قصد فى الاستجابة لهذا الاستجداء .**

وعمومًا كانت حرب الاستنزاف تجربة لازمة لكل الأطراف ! فهى لازمة لإسرائيل لتفيق من صدمة النصر السهل . ولازمة لجنودنا الذين فقدوا الثقة فى قياداتهم وأسلحتهم وبالتالى فى أنفسهم . . ولازمة لأصدقائنا الروس أول من روجوا الاتهام لضباطنا بالرفاهية وبالبورجوازية . **وللأسف وقعت بعض قياداتنا فريسة لهذه التهم الباطلة دون أن يحللوها التحليل الكافى ليتعرفوا على مقصدهم الذى يهدف إلى أن يستبدل بضباطنا الحاليين رجال حزبيون عقائديون . . أى رجال شيوعيون . . فالعقائدية عند الروس لم تكن تعنى سوى الشيوعية فى ذلك الوقت .**

أذكر أن زارنا فى الجبهة مرة الرئيس جمال عبد الناصر فى قيادة الفرقة ٢١ . كان واضحا من أحاديثه أن مثل هذه الأفكار قد سممت على الرجل تفكيره ونغصت عليه حياته ، وقد هاله حجم كارثة النكسة غير المتوقع .

وقد رافقه فى زيارته الفريق محمد فوزى وزير الحربية وعبد المنعم رياض رئيس الأركان .

وفى مكتبى قدمت له تقريرًا عن موقف الفرقة ، لم يكد يستمع إليه حتى سألنى فى نبرة ذات مغزى :

ـ أين كنت ياكمال أثناء حرب ٦٧ ؟!

وأجبته إجابة مباشرة :

ـ كنت أقود اللواء الثانى المدرع من الفرقة الرابعة . عندئذ سألنى سؤالا كمن تذكر شيئًا سمعه قبل ذلك : لماذا لم تستخدم الدخان الذى تولده الدبابات ذاتيا وقت الغارات الجوية



مع جمال عبد الناصر نهاية عام ١٩٦٨ قائدًا للفرقة ٢١ المدرعة

لتخفى دباباتك وتقلل خسائرك ؟! وبحكم أنى ضابط يعرف حدود لياقة مخاطبة رئيس الدولة، عزفت عن أن أقول له : وهل تعتقد ياسيادة الرئيس أن ضابطا برتبة العميد وخريج أكاديميات الاتحاد السوفييتى وأوكلت له القوات المسلحة قيادة لواء مدرع ، هو من السذاجة بحيث تغيب عنه مثل هذه البديهية ؟! لذا أجبته بطريقة مباشرة للمرة الثانية :

ـ « ياسيادة الرئيس لم تكن غارات يوم ٦ يونيو بالغارات العادية . . لقد استمرت فى ذلك اليوم ثمانى ساعات وخمس دقائق . . وكان اتجاه الريح شماليا بينما كنا نتحرك من الشرق إلى الغرب . . فلن يتمكن الدخان من إخفاء هذه الأهداف المتحركة . هذا فى الوقت الذى كان ما معنا من الوقود لا يكفى لكل هذه التحركات العرضية الزائدة وبالتالى لم يكن يكفيها لإنتاج الدخان الذاتى المطلوب » .

ولما سكت الرجل أردفت قائلاً :

ـ لقد دونت كل هذه التفاصيل فى تقريرى الذى رفعته إلى القيادة العامة وأنا مازلت جريحا فى مستشفى المعادى .

وهنا رد على بكلمات أعترف بأنها أصابتنى وقتها بصدمة عنيفة : قال ما معناه إنه لم يقرأ تقاريرنا وإنما اكتفى بقراءة تقارير الجانب الإسرائيلى .

إذن فقد استقى الرجل معلوماته وملاحظاته من العدو الذى يعرف كيف يحشو كل سطر يكتبه عن المعركة بلغم مدمر من ألغام الحرب النفسية ، ليحطم معنويات القوات المسلحة وضباطها الذين يعلم عنهم تمامًا أنهم لن يسكتوا عن الانتقام لاسترداد أرضهم واعتبارهم معًا. وطبعًا أفضل أسلوب كان العدو يتبعه فى حربه النفسية هو إحداث الوقيعة بين هؤلاء الضباط وقياداتهم .

وانصرف عبد الناصر دون أن أعلق بشىء على كلماته وإنما كان مائة استفسار واستفسار تعتمل فى نفسى ،كنت تواقا لتوجيهها إليه أو على الأقل نحو المسئولين عن كارثة الانسحاب .

كان بودى أن أسأله هو بشخصه وقد عانى بنفسه أثناء حصار الفالوجا من الانفصالية بين القيادات العسكرية والسياسية ـ أسأله مثلاً لماذا قبلتم أن تدخلونا الحرب وأنتم تعلمون بكل المقاييس أنها سوف تنقلب إلى مجزرة فى صحراء سيناء إذا ما فقدنا الغطاء الجوى ؟!

وكان بودى أن أسأله لماذا أصدر المشير هذا الأمر الخاطئ بالانسحاب دون أن يكون فى ظهر القوات ما يخشاه من الانسحاب ؟! فالموقف يختلف تماما عنه سنة ٥٦ حين كان يخشى فيه من دمار القوات فى سيناء إذا قطعتها القوات البريطانية والفرنسية عند القناة !

كان بودى أن أسأله لماذا لم يصدر الأمر من البداية بالانسحاب إلى المضايق والتمسك بها بفرق المشاة التى هى أجدر بالتمسك بالأرض فى غياب الغطاء الجوى من الدبابات المكشوفة والمعرضة للدمار من الجو ؟ لقد حدث أن أمسكت هذه المشاة من قبل بالأرض فى عام ٥٦ فى أماكن كثيرة منها مضيق متلا وكبدت العدو فيه خسائر فادحة خرجت عن تحمله ـ وقبل ذلك تشبثت أنت بنفسك « ياسيادة الرئيس » بالفالوجا ! فما الذى حدث إذن ؟!

كان بودى أن أسأل عبد الناصر كل ذلك وأكثر من ذلك ، ولكن للأسف كان فى ذلك الوقت قد وصل هو نفسه إلى الوضع الذى عانى منه ذات يوم وثار من أجله ، فقد صار فى وضع المسئول الكبير الذى يسأل ولا يُسأل !

وأعترف اليوم أن هذه لم تكن خطيئة عبد الناصر وحده وإنما كانت خطيئتنا جميعًا كبارًا وصغارًا . . وكبارنا بالطبع قبل الصغار . . إذ لم يجرؤ واحد منهم على أن يبلغ عن موقفنا المحزن عندما صدر أمر الانسحاب الخاطئ . بل إن كثيرًا منا بلغ به الأمر أن خشى أن يصحح زلة لسان صدرت منه عندما قال للمشير فى مكالمة تليفونية إن لواءات الفرقة الرابعة مازالت متمسكة بالمضايق بينما كانت بضع دبابات من هذه الفرقة قد عبرت إلى الضفة الغربية

من القناة ، بل إن اللواء الميكانيكى للفرقة قد وجه إلى هاكستيب بشرق القاهرة وبأوامر منه هو شخصيا .

ومن عجيب الصدف أن الموقف فى يوم ٦ يونيو ١٩٦٧ كان يشبه تمامًا الموقف يوم ٦ يونيو من عام ١٩٤٤ عندما بدأ هجوم الحلفاء الكبير على نورماندى فى الحرب العالمية الثانية وخشى قادة هتلر أن يوقظوه من النوم ليبلغوه بهذا الخبر لأن الخبر سوف يضايقه !

وأذكر مع حرب الاستنزاف موقفًا آخر لعبد الناصر فى زيارة أخرى ميدانية للفرقة ٢١ مدرعة ، يوضح كيف فقد عبد الناصر الثقة حتى فى قياداته وأخلص معاونيه !

كان يوم الزيارة هو يوم ٩ سبتمبر من عام ١٩٦٩ . وهو اليوم نفسه الذى تصادف فيه حدوث إغارة القوات الإسرائيلية على منطقة الزعفرانة على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر بعد أن فشلت كل محاولاتها فى إيقاف حرب الاستنزاف . ولقد تعمدت إسرائيل أن تحيط هذه الإغارة بمظاهرة دعائية ضخمة لدرجة أن أسموها عملية غزو مصر ، مما جعل الغيظ يستبد بعبد الناصر فى ذلك اليوم ، فكلف الفريق أحمد إسماعيل الذى كان يرافقه فى هذه الزيارة بالتوجه مباشرة إلى منطقة البحر الأحمر. ونظرًا لأن أحمد إسماعيل لم يكن قد تلقى أى معلومات بعد عن هذه الإغارة ، فإنه توجه فى بادئ الأمر إلى مكتبه بالقاهرة ليطلع على كل المعلومات المتوافرة فى القيادة العامة من خلال وسائل الاتصال وللتعرف على الموقف قبل التحرك إلى مكان الإغارة .

ولما علم الرئيس عبد الناصر بأنه لم يتوجه فورًا إلى هناك ، عزله من منصبه فى الحال وأحاله إلى المعاش ، وعين بدلا منه الفريق محمد أحمد صادق !

ومن المعروف أن الفريق أحمد إسماعيل هو الذى أصبح وزيرًا للحربية بعد ذلك لحرب ٧٣ ، وهو الذى قاد القوات المسلحة فيها إلى النصر فى عهد الرئيس أنور السادات بعد أن أعاده من المعاش ليتولى المخابرات العامة ثم وزارة الحربية !

مثال آخر أضربه عن الثقة التى كان على حرب الاستنزاف أن تعيدها إلى مختلف الأطراف المعنية . كان بعض أعضاء الاتحاد الاشتراكى يقومون بزيارة الفرقة ٢١ المدرعة ، وكان على رأس الوفد المرحوم جمال العطيفى والمرحوم الدكتور عبد الحميد لاشين نقيب الصيادلة (وكان زميلى فى الدراسة الابتدائية والثانوية) .

ورحبت بالوفد قائلاً لهم كم يشرفنى زيارتكم لنا فى إحدى الفرق المدرعة . ولم أذكر أنها الفرقة ٢١ ، ولشدة دهشتى وضيقى قال أحد الأعضاء فى نبرة أشبه بالتهكم « مش الفرقة الرابعة » !

كان الأستاذ هيكل قد كتب فى الأهرام مقالاً بعيدًا كل البعد عن حقائق دور الفرقة الرابعة فى حرب ٦٧ ، وكاد المقال يتهم الفرقة بالتخاذل ، بالرغم من أن هذه الفرقة هى التشكيل الوحيد الذى ظل متماسكا طوال المهام التى كلفت بها فى ظروف أمر الانسحاب الخاطئ .

كان من الواضح أن مقال الأستاذ هيكل قصد به التخفيف من مسئولية القيادة السياسية ، وفى الوقت نفسه كان يمهد لمحاكمات صدقى الغول وصدقى محمود ، للحصول على كباش للفداء .

وكان وقع هذا المقال أسوأ ما يكون أثرًا على أفراد الفرقة كافة بل وكل أفراد القوات المسلحة .

ولا أدرى حتى اليوم إذا ما كان عبد الناصر هو الذى استقى آراءه عن الفرقة الرابعة المدرعة من الأستاذ هيكل ، أو العكس هو الذى حدث ، فلقد كان حديثه عنها فى الزيارة الأولى بعد المقال .

المهم أنى انفعلت معلقًا على ملاحظة السيد العضو ، فذكرت للسادة الزائرين كيف كان يشرفنى أكثر لو أنى استقبلتهم فى قيادة الفرقة الرابعة ، وهى الفرقة التى كان لى شرف قيادة واحد من لواءاتها فى حرب ٦٧ .

وأخذت أشرح لهم باختصار ما فعلته هذه الفرقة وقتذاك فى المعركة ، وكيف أنى لا أذكر أن فردًا واحدًا منها قد تخاذل . ثم التمست لهم العذر فى أن يكونوا قد تأثروا بمقالات سياسية لا أدرى القصد من ورائها إلا أن تكون إمعانًا فى خفض الروح المعنوية للقوات المسلحة التى نريد إعدادها لمعركة نسترد بها الأرض والشرف معًا !

وهنا أخذ الدكتور جمال العطيفى الكلمة ، وراح يشيد بدور الفرقة الرابعة وكيف أنها أمل الأمة ورجاؤها فى القوات المسلحة ، ثم أخذ يؤكد لى أن عضو الوفد الزائر لم يكن بالقطع يقصد أية إساءة !

بعد هذا التقديم قام الوفد بالمرور على الوحدات ، وانتحى بى الدكتور لاشين جانبًا وطلب منى عدم إثارة أى مشاكل لى !

وأثارتنى كلمة « مشاكل لى » بدلا من أن تهدئنى ، فالتفت إليه وقلت :

« يا دكتور لاشين ، إذا كنا نحن الضباط لا نعرف كيف نحافظ على كرامتنا وكرامة قواتنا المسلحة ، فلن تكون هناك كرامة لوطننا أو أمل يرتجى فينا . . وليكن ما يكون » !

وأذكر أيضًا فى حرب الاستنزاف أنى كنت أتناول الحديث مع واحد من الخبراء السوفييت ، فتطرق الحديث بنا إلى هزيمة ٦٧ . . وأصر الخبير فى حديثه على أن السبب الأساسى للهزيمة فى رأيه هو الروح البرجوازية للضباط المصريين ! ودلل على رأيه بأن بعض الطيارين حتى فى المرحلة الحالية من حرب الاستنزاف يتركون طائراتهم ويستخدمون الباراشوت عند الاشتباك بالطيران الإسرائيلى .

حاولت أن أرد عليه بأن مرجع ذلك إلى التفوق الأمريكى فى الأسلحة وخاصة فى الطيران بالنسبة للسلاح السوفييتى ، وبالطبع لم يقتنع برغم أن المعروف فى ذلك الوقت عن الميج ١٧ أنها كانت بدائية الصنع وليس لديها ما يوازى الميراج مثلاً فى سرعتها أو فى قدرتها على المناورة [١].

ومن الصدف الغريبة أن تأتى المعلومات فى الليلة نفسها عن إسقاط الطيران الإسرائيلى لست طائرات سوفييتية فى كمين فوق خليج السويس وأن طياريها قد قفزوا بالمظلات . . ثم تبين أن هؤلاء الطيارين كانوا من الطيارين الروس الذين جاءوا إلى مصر على إثر الاتفاقية التى تمت بين عبد الناصر والسوفييت فى زيارته السرية التى قام بها فى يوم ٢٢ يناير عام ١٩٧٠ .

وفى صباح اليوم التالى لهذا الاشتباك تقابلت مع الخبير نفسه وكان كسيف البال ، ولم يفتنى فى هذا اليوم أن أقدم له واجب العزاء فيما حدث .

وأذكر أنه بعد ذلك اليوم قضى تماما على قصة اتهام الضباط المصريين بالترف والبرجوازية ، ولم يعد هناك من يذكرها على لسانه أو على قلمه إلا إذا كان الأمر من باب مراجعة التاريخ !

(١) كان بعض الطيارين يشبهون الميج ١٧ بالنسبة للطائرات الفرنسية أو الأمريكية برجل يقود سيارة لورى ويريد أن يدخل فى سباق مع سيارة مرسيدس حديثة .

الفصل السابع والثلاثون
الحصيلة والثمن

كان من الطبيعي أن تتطور حرب الاستنزاف وتتصاعد إلى درجة عالية لم تخطر على بال الطرفين عندما بدأتها مصر فى سبتمبر عام ١٩٦٨ .

وعندما يئست إسرائيل من إيقاف هذه الحرب بأى ثمن على خطوط وقف القتال ،عمدت إلى الزج بقواتها الجوية فى المعركة بعد أن ظلت فترة طويلة تخشى عليها من التآكل بعد يونيو ١٩٦٧ باعتبارها أقوى أداة تملكها من أدوات الحسم . خاصة أنها كانت تعانى من الحظر الذى فرضه ديجول فى أعقاب العدوان على إعطاء إسرائيل أى طائرات جديدة أو قطع غيار للطائرات التى سبق أن تسلمتها من ميراج وسوبر ميستير . ولكن بعد أن حصلت إسرائيل على موافقة أمريكا على صفقة جديدة من الطائرات المقاتلة القاذفة من طرازى سكاى هوك وفانتوم بلغ عددها ١٠٥ طائرات [1] فإنها مضت فى توسيع سياستها العدوانية التى أسمتها «بالردع الجسيم » مستخدمة فى ذلك أسلوب غارات الكوماندوز المحمولة فى طائرات هليوكبتر بالإضافة إلى الضربات الجوية المتتالية .

ولكن لم يثن ذلك عزم مصر عن مواصلة شن عملياتها الخاصة والمتنوعة ضد الأهداف العسكرية الإسرائيلية شرق القناة وإنزال الخسائر بها ـ مثل عمليات لسان بورتوفيق والشط ـ ثم امتد نطاق عملياتها إلى أماكن أخرى على الساحل الشمالى لسيناء ـ مثل مصفق وبالوظة ـ ورأس مسلة على الضفة الشرقية لخليج السويس ، كما ضربت معسكرات القيادة الإسرائيلية فى العريش ثم مطار الطور . ولقد اشتركت طائرات الهليوكبتر المصرية فى بعض هذه الأعمال

---

(١) أضيف إلى الصفقة بعد ذلك ١٣٥ طائرة هليوكبتر من طراز سيكورسكى ٥٣ .

كما قامت مدفعية الأسطول بضرب أهداف برية من البحر (منها معسكرات رمانة وبالوظة) وكانت عملية إيلات التى نفذت فى ١٦ نوفمبر ١٩٦٩ هى قمة هذه الأعمال التى اشتركت فيها قوات خاصة من البحرية المصرية « ضفادع بشرية » ووجهت عدة ضربات ناجحة ضد السفن الإسرائيلية الراسية فى الميناء .

كانت هذه الأعمال الهجومية الناجحة المتنوعة هى أكبر فشل أصاب مشاعر إسرائيل فى الصميم ، فلقد استعادت مصر بهذه الأعمال خاصية المبادأة التى ظلت إسرائيل منذ نشأتها تستميت فى احتكارها لنفسها ، كما اتسمت العمليات بخاصية أخرى هى المفاجأة التى جعلت إسرائيل فى حيرة دائمة من الزمان والمكان الذى ستحدث فيه الضربة التالية .

ويمكننى أن أقول إن المبادأة أو المفاجأة الكبرى التى وقعت فى السادس من أكتوبر فى عام ١٩٧٣ إنما استمدت جذورها من مبادآت ومفاجآت حرب الاستنزاف التى كانت بمثابة المشعل المضىء لذلك اليوم .

لم يكن مستغربًا بعد ذلك أن تقوم إسرائيل فى نهاية عام ٦٩ بإعفاء ألوف جافيتش قائد الجبهة الجنوبية من منصبه (برغم أنه هو الذى قاد هذه الجبهة فى حرب عام ١٩٦٧) وتعيين بدلا منه « أريل شارون » رجل المهام الصعبة خلفا له لتنفيذ سياسة عنيفة جديدة تعمل على تخفيض الخسائر البشرية التى منيت بها القوات الإسرائيلية إلى أدنى حد ممكن ، كما يعمل بكل قواه على ردع حرب الاستنزاف المصرية وكسر شوكتها . **واعتمدت خطته فى ذلك على عناصر ثلاثة :**

١ ـ شل فاعلية القوات الجوية المصرية فوق الجبهة .

٢ ـ تدمير شبكة الدفاع الجوى الموجودة فى ذلك الوقت .

٣ ـ شن غارات جوية مكثفة ضد عمق مصر فى مختلف أنحاء الوادى وحول العاصمة لكى يثور شعب مصر على حكامه .

وهكذا بدأت أعمال استدراج طائراتنا إلى كمائن جوية ، كما ركز الطيران الإسرائيلى على ضرب مواقع الدفاع الجوى القديمة والجديدة التى كان إنشاؤها يجرى فى منطقة القناة والخاصة بكتائب الصواريخ ، وذلك بهدف كشف سماء مصر وفتح الطريق نحو ضرب العمق . وقد بلغ تدمير المواقع حدًا مبالغًا فيه من العنف لدرجة أن أحد المواقع الذى لا تزيد مساحته عن ٣٠٠ × ٢٠٠ متر قد أسقطت عليه ٥٠ قنبلة يتراوح وزن كل منها بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ رطل ، أى ما يقرب من ٢٠ طنًا من المتفجرات !

وبالطبع لم يكن شارون قادرًا على اتباع هذا الأسلوب ، لولا إمداد أمريكا لإسرائيل بصفقة

الطائرات الجديدة التى جعلته يوسع نطاق الحرب ويمد هجماته ليضرب المراكز العسكرية فى منطقة التل الكبير وأنشاص ودهشور بالقرب من القاهرة ، واستمر فى ضرب مناطق أخرى من وادى النيل وشمال الدلتا . . الأمر الذى اضطر مصر إلى نقل الكلية الحربية من القاهرة إلى منطقة جبل الأولياء فى السودان ، والكلية البحرية إلى طبرق ، والكلية الجوية إلى مطار العضم فى ليبيا . كما وزعت القطع البحرية غير المطلوبة على موانى بنى غازى وسرت فى ليبيا وبورسودان ، وغير ذلك من عمليات إعادة التوزيع الضرورية . وكان هذا التوزيع أمرًا لابد منه بعد أن اتضح أن شارون ينفذ سياسة متهورة لا هم له منها إلا إجبار مصر على إيقاف نزيف الخسائر الذى يدمى إسرائيل يوميًا ، مما اضطره إلى ارتكاب جريمتى ضرب مصنع أبى زعبل المدنى وضرب مدرسة بحر البقر (1) ، وهما جريمتان أثارتا عليه استنكار كل دول العالم ، وإلى درجة أن الولايات المتحدة نفسها صرحت على لسان رئيسها نيكسون أنها سوف تؤجل البت فى صفقة الطائرات الضخمة .

ولكن كل ذلك لم يزد مصر إلا تصميماً على مواصلة الإغارات ، فزادت من نشاطها الجوى حتى بلغ عدد الغارات الجوية يوم ٢٤ إبريل وحده ١١ غارة . وبدلا من أن تحدث ثورة فى مصر ، ازداد الشعب التفافا حول زعامته .

والحقيقة أن مصر لم تكن لتستطيع أن تواصل هذا الإصرار والتصميم إلا بعد الزيارة السرية التى قام بها جمال عبد الناصر إلى موسكو فى ٢٢ يناير عام ١٩٧٠ ، وتم فيها الاتفاق على تزويد مصر بنظام متكامل ومتطور للدفاع الجوى بما فيه أجهزة رادار حديثة للإنذار المبكر على الارتفاعات العالية والمنخفضة ، ومع وجود طائرات مقاتلة اعتراضية حديثة قادرة على اعتراض الطائرات الإسرائيلية الأمريكية الطراز . ويخدم ذلك كله نظام إليكترونى قادر على الكشف المبكر لاقتراب الطائرات المعادية .

وتحقيقًا لذلك طلبت مصر توفير وحدات كاملة من الصواريخ أرض / جو من أحدث طراز وهو سام ٣ ، بالإضافة إلى أسراب كاملة من الطائرات المقاتلة الاعتراضية من طراز ميج ٢١ المعدلة .

ولما كان عامل الوقت له أهمية كبرى ، كان من الضرورى أن يصل فى بادئ الأمر وحدات دفاع جوى كاملة بأطقمها السوفييتية حتى يتم تدريب القوات المصرية فى الاتحاد السوفييتى وفى مصر عليها .

---

(١) أسفر ضرب مصنع أبى زعبل عن مصرع ٧٠ عاملا وإصابة ٧٠ آخرين بجراح فى ١٢ فبراير عام ٧٠ ، وأسفر ضرب مدرسة بحر البقر فى ٨ إبريل عن مصرع ٣١ طفلاً وإصابة ٢٦ آخرين .

وفى الوقت الذى بدأت فيه غارات العمق ،عملت مصر على استكمال شبكة الدفاع الجوى على عدة مراحل متعاقبة وفى شكل وثبات بدأت من أقصى العمق وتدرجت نحو منطقة القناة لبناء ما عرف بحائط الصواريخ ، الأمر الذى جعل إسرائيل تثير ضجة هائلة فى أوائل عام ١٩٧٠ حول خطورة الصواريخ سام ٣ التى حصلت عليها مصر ، مما جعل إيجال ألون يدلى لمجلة تايم بحديث صوّر فيه أن هذه الصواريخ قد أعطت مصر قوة هجومية سوف تخلق لديها شعورًا بالحرية لفعل ما تريد . وبالفعل حدث ما تنبأ به آلوان عام ١٩٧٣ .

وهكذا بدأت إسرائيل تشعر باليأس التام من إيقاف حرب الاستنزاف ، وقد أعيتها كل الحيل حتى حيل شارون ، وأعرب موشى ديان عن أساه عندما أعلن أن خسائر إسرائيل بلغت فى شهر أبريل عام ١٩٧٠ وحده ٩٠ رجلاً وهو ضعف حجم الخسائر فى شهر مارس .

وكانت مجلة « هاعولام هازيه » قد صورت هذا اليأس فى أوضح صوره فى مقال نشر فى ١٠ سبتمبر عام ١٩٦٩ قالت فيه : « **لو وجدت آلة تصوير نفسية تستطيع طبع الحالة النفسية لشعب إسرائيل بأكمله لخرجت بالصورة التالية : إن الإنسان الإسرائيلى يائس من السلام - يائس من الحرب . لم يعد يؤمن بأى حل لا بالطرق السلمية ولا بالوسائل الحربية** » .

ذروة حـرب الاســتنزاف

أما ذروة حرب الاستنزاف من الجانب المصرى ، فقد حدثت فى وضح نهار يوم ٣٠ مايو عام ١٩٧٠ ، حيث قامت عناصر من المشاة والقوات الخاصة المصرية بعبور القناة فى المنطقة الواقعة بين القنطرة ورأس العش ،حيث قامت بنصب كمين مزدوج لدوريتين إسرائيليتين على الضفة الشرقية للقناة ، وتمكنت قوات الكمين من مباغتة الدوريتين المدرعتين وكانت كل واحدة منهما تضم عددًا من العربات المدرعة - فهاجمتهما ونسفت مدرعاتهما وقضت على قواتهما وأسرت من بقى حيا من أفرادهما ، وعادت القوة سالمة إلى مواقعها فى الضفة الغربية .

وبالطبع أحدث هذا الهجوم الناجح والخسائر الفادحة فى صفوف الإسرائيليين رد فعل عنيفا عبرت عنه صحيفة جويش كرونيكل بقولها :

« إن السبب فى انتصار المصريين يرجع إلى الجرأة والتخطيط الممتاز والظروف الطبوغرافية التى وقفت إلى جانبهم » . وبالطبع مثل هذه الأحاديث عن انتصار المصريين كانت شيئًا لم تعهده الصحافة الإسرائيلية التى اعتادت ألا تكتب إلا عن انسحاب المصريين وتقهقرهم أمام الشجاعة والبسالة الموقوفة على جيش الدفاع وحده !

أما فى الذكرى الثالثة لحرب يونيو عام ٦٧ (أى فى يونيو ١٩٧٠) ، فقد نشرت مجلة التايمز

الأمريكية بمناسبة هذه الذكرى مقالاً تحت عنوان « الكآبة تتزايد فى إسرائيل » جاء فيه : **« . .فى الذكرى الثالثة لحرب يونيو عام ٦٧ اتسمت حالة الإسرائيليين بالكآبة والضياع ، وبدءوا يتساءلون عما إذا كانوا قد كسبوا حربًا بالفعل أم أنها مجرد الجولة الأولى منها »** .

أما صحيفة التايمز البريطانية فكانت قد سبقت زميلتها الأمريكية إلى هذه النتيجة ، عندما وصفت فى نهاية عام ١٩٦٩ الموقف فى إسرائيل بقولها « إن الواقع أصبح مفهومًا تماما . فهو بعيد جدا عن تلك الأيام المليئة بالزهو والخيلاء عقب حرب الأيام الستة مباشرة . حيث قال الجنرال ديان ببساطة واستعلاء إنه ينتظر فى الضفة الشرقية للقناة اتصالا تليفونيا لعقد الصلح ، ولكن هذا الاتصال لم يحدث أبدًا » .

حائط الصواريخ

ولقد تمكنت مصر برغم القصف الشرس المتواصل الذى أمر به شارون من أن تقيم حائط الصواريخ متجاوزة كل الأخطار والصعاب . هذا الحائط الذى أقيم ممتزجا بدماء وأرواح مئات الشهداء الذين سقطوا من العمال والجنود المصريين . وتم ذلك فى المدة المحددة له قبل يوليو عام ١٩٧٠ تحت وابل من النيران والقنابل الشديدة الانفجار ، حتى وصل معدل الحمولات التى تلقيها الطائرات الإسرائيلية فى بعض الأيام إلى ١٠٠٠ طن فى اليوم الواحد .

وعندما اكتمل بناء الحائط فوجئت القيادة الإسرائيلية عندما دفعت بطائراتها الفانتوم والسكاى هوك لتوجيه ضرباتها الجوية المعتادة ضد المواقع المصرية فى منطقة القناة بتساقط هذه الطائرات فوق المواقع المصرية بفعل الصواريخ الجديدة وأسر عدد من طياريها .

لقد حدث ذلك فى الأسبوع الأول من شهر يوليو عام ١٩٧٠ ، وهو الأسبوع الذى سمى بعد ذلك « **بأسبوع تساقط الطائرات** » . . أمكن فيه إسقاط ١٥ طائرة فانتوم وسكاى هوك وأسر خمسة طيارين أحياء ، سقط أحدهم وأسر داخل وحدات الفرقة ٢١ مدرعة . وفشلت إسرائيل فى تعبئة الرأى العام العالمى بالكيفية التى حدثت فى أعقاب عدوان عام ٦٧ . فمع غارات العمق برزت انتقادات الحركة اليهودية العالمية لموقف الحكومة الإسرائيلية خلال الحملة التى قادها الزعيم الصهيونى ناحوم جولدمان .

وتكشفت أبعاد هذه الخلافات فى أوائل إبريل عام ١٩٧٠ ، وكتبت صحيفة لوموند الفرنسية تقول : « لقد بدأ الرأى العام الإسرائيلى يمل حربًا لا نهاية لها ، ويتساءل عن سياسة لم تثمر شيئًا منذ عشرين عامًا » .



الجنرال إيريل شارون



وليم روجرز وزير الخارجية الأمريكى

ووصل الأمر أن اتهم جولد مان حكومة إسرائيل بأنها غير واقعية وأنها متزمتة وعنيدة فى موقفها تجاه العرب .

ومن الأسف أنه بينما كان ذلك يتم على الجانب الصحفى الإسرائيلى ، كان بعض الكتاب المصريين يتعرضون بالنقد الشديد لعملية ٣٠ مايو عام ١٩٧٠ التى زلزلت الرأى العام الإسرائيلى متهمين هذه العملية بأن هدفها كان دعائيا أمام الجماهير المصرية ، والحقيقة أن كل ما قيل كان بعيدًا عن التحليل الموضوعى وأن قائليه غير مدركين أن الجانب الذى سينجح فى هذا الصراع هو الجانب الأكثر تحملا وصمودًا !

وفى الوقت الذى نجحت فيه مصر فى إقامة حائط الصواريخ استكملت إسرائيل كذلك تحصينات خط بارليف (التى انهارت بعد ذلك فى عام ٧٣) . **وكانت هذه أول مرة فى تاريخ إسرائيل تضطر فيها إلى إقامة الدشم وبناء الحصون .**

مبادرة روجرز

وفى هذه الأثناء أيضًا اقتنعت الولايات المتحدة بضرورة تقديم مبادرة لوقف إطلاق النار ، وكان ذلك فى ١٩ يونيو عام ١٩٧٠ وقد ارتكزت المبادرة على وقف إطلاق النار لمدة تسعين يومًا مع العودة إلى قرار مجلس الأمن الصادر فى نوفمبر عام ١٩٦٧ بإحياء مهمة السفير جونار يارينج ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة . وعلق أبا ايبان على هذه المبادرة قائلاً : « لولا

وقف إطلاق النار لواجهت إسرائيل تصاعدًا فى الحرب مع مصر وبالتالى زيادة القتلى والجرحى وتآكل التفوق الجوى الإسرائيلى . ورفض وقف إطلاق النار كان سيضع إسرائيل فى موقف أخطر وأشد صعوبة مما هو الآن » .

أما مصر فقد قبلت هى الأخرى هذه المبادرة لأنها كانت فى حاجة إلى فترة هدوء تستكمل فيها المرحلة الأخيرة من بناء شبكة الدفاع الجوى ولتدريب القوات . وبالفعل تمكنت بفضل الجهود والروح العالية لرجالها أن تستكمل هذه الشبكة والوصول بحائط الصواريخ إلى وضعه النهائى فى الليلة الأخيرة قبل تنفيذ شروط المبادرة وإيقاف النيران اعتبارًا من الساعة الواحدة صباح ٨ أغسطس عام ١٩٧٠ . وكان هذا الحائط مكسبا أساسيًا آخر من مكاسب حرب الاستنزاف ، فتحت غطاء هذا الحائط كان الزحف الذى شهدته مصر عبر القناة فى ٦ أكتوبر.

وفاة عبد الناصر

ترتب على مبادرة روجرز مضاعفات سياسية عديدة فى العالم العربى ، وهاجمتها كل من سوريا والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية والعراق هجومًا عنيفًا ، وادعى بعضها أنها بيع للقضية الفلسطينية ، **هذا فى الوقت الذى كانت فيه مذبحة أيلول الأسود تجرى فى الأردن حيث قصفت المدفعية الأردنية المعسكرات الفلسطينية بالمدافع ، وكان ذلك عقب صراع طويل بينهم وبين الملك حسين** .

وحاول عبد الناصر إيقاف المذبحة فدعا إلى عقد مؤتمر قمة طارئ يحضره الملوك والرؤساء العرب فى القاهرة لحل هذا النزاع خصوصا بعد أن هددت سوريا بالتدخل العسكرى لصالح الفلسطينيين . كما هددت إسرائيل بالتدخل العسكرى ضد الفلسطينيين .

وعقد المؤتمر فى ٢٦ سبتمبر ، وبعد انتهائه قام الرئيس جمال عبد الناصر بتوديع كل الملوك والرؤساء . وعند توديع آخرهم وكان أمير دولة الكويت شعر بهبوط ، وعرق غزير فتوجه إلى منزله حيث وافته المنية بعد أزمة قلبية شديدة .

وعندما أعلن أن الجنازة ستكون بعد ثلاثة أيام ، كان لابد من الخروج عن مشاعر الحزن إلى أرض الواقع ، وكان لابد أن يدرك الجميع داخل الفرقة المدرعة أن أهدافنا لن تتغير بوفاة القائد . ولذلك بادرت على الفور إلى رفع درجة الاستعداد لكل قيادات الفرقة حتى مستوى اللواء والكتائب ، وسرعان ما انشغل الجميع فى مشروع تدريبى خارجى أقبلوا عليه بنفس الروح والحماسة التى شاركوا بها من قبل فى إقامة قواعد الصواريخ المؤقتة ، لتتمركز فيها

وحدات من سام ٣ لحماية عمليات إنشاء قواعد الصواريخ المحصنة بالخرسانة المسلحة [1] وكنا فى سباق مع الزمن تحت ضرب العدو الذى لا ينقطع .

أما فى القاهرة ـ وبعد انفضاض جموع المشيعين الذين احتشدوا فى موكب هادر تداخلت فيه كتل الجماهير فى مشهد لم يحدث من قبل فى أى جنازة فى العالم ـ كان الموضوع الرئيسى الذى فرض نفسه على الاجتماع الذى دار بين الرئيس السادات وقادة الاتحاد السوفييتى الذين حضروا لتقديم واجب العزاء ، هو قوائم الأسلحة الجديدة التى تحتاجها مصر لاستكمال المشوار الذى بدأه جمال عبد الناصر .

وهكذا تحققت النبوءة التى نطق بها الرجل يوم محاولة اغتياله فى حادث المنشية بالإسكندرية، عندما صرخ « إذا مات جمال فكلكم جمال » .

---

(١) عمل بإنشاء القواعد المؤقتة من شكاير الرمل ١٨٠٠ فرد من الفرقة ، يعملون فى اليوم ٣ نوبات (٦٠٠ فرد كل ٨ ساعات) .

الباب الحادى عشر

الحرب
بين صوم رمضان ويوم كيبور

الفصل الثامن والثلاثون

الطريق إلى الغفران

فى ٢٤ أكتوبر عام ١٩٧٢ عقد الرئيس السادات فى منزله بالجيزة الذى يطل على النيل اجتماعًا خاصًا للمجلس الأعلى للقوات المسلحة ، أعلن فيه أن القوات المسلحة أصبح محتمًا عليها أن تقاتل من أجل تحرير سيناء بما لديها من أسلحة محدودة ، وإلا سوف تنتهى قضيتنا إلى السكوت أو الموت !

وبعد عام واحد وفى مساء أول يوم من أكتوبر عام ١٩٧٣ ، كان الرئيس السادات يجتمع للمرة الثانية بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة ، ولكن فى مركز العمليات تحت الأرض ليصدر قراره بالحرب ، والذى أكد فيه أن الهدف الإستراتيجى الذى يتحمل فيه المسئولية السياسية ، هو تحدى نظرية الأمن الإسرائيلى عن طريق عمل عسكرى على قدر إمكانات القوات المسلحة، ويكون هدفه إلحاق أكبر قدر من الخسائر بالعدو وإقناعه بأن مواصلة احتلاله لأراضينا تفرض عليه ثمنا لا يستطيع دفعه .

وبعد خمسة أيام بدأت حرب أكتوبر فى الساعة الثانية من ظهر يوم السبت الموافق ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ .

كان السادات قد تولى أمر البلاد بعد وفاة عبد الناصر وتشييع الجماهير لجنازته إلى مثواه الأخير فى أول يوم من أكتوبر عام ١٩٧٠ .

وفى السنوات الثلاث التى وقعت بين أول أكتوبر عام ١٩٧٠ وأول أكتوبر عام ١٩٧٣ ، تحدد الطريق إلى الحرب التى عرفها العالم بحرب أكتوبر ٧٣ . وعرفناها نحن العرب باسم حرب العاشر من رمضان ، بينما أطلقت عليها إسرائيل حرب عيد الغفران . العيد الذى وصفه

ديان بقوله : إنه اليوم الوحيد فى العام الذى تتوقف فيه كل الأعمال وتخلو فيه الشوارع من الناس والعربات ، فهو يوم الحساب الكبير (كيبور) والذى يحاسب فيه كل يهودى نفسه وهو يتعبد فى أوائل العام الجديد ، وهو أقدس الأعياد . ومنذ ذلك التاريخ ستجعله هذه الحرب يزداد مهابة وجلالاً .

والحقيقة أننا نحن أيضا أصبحنا نشعر بعد عام ٧٣ أن ذلك اليوم بالفعل له مهابته وجلاله!

المحاور الثلاثة

ولقد أدرك السادات منذ الوهلة الأولى ، أن عليه أن يعمل فى ثلاثة محاور بالتوازى وفى وقت واحد نحو تحقيق هدفه لتحرير الأرض !

المحور الأول : محور الاتحاد السوفييتى محافظًا على علاقته به باعتباره المصدر الوحيد للسلاح !

المحور الثانى : محور الولايات المتحدة . . بقصد التقارب منها ، ليس أملاً فى حل سلمى تفرضه على إسرائيل بقدر ما هو تحييد لدورها إذا ما نشبت المعركة .

المحور الثالث : المضى على طريق الحرب إعدادًا وتدريبًا وتسليحًا وتخطيطًا ، فهى الأمل الوحيد المرتقب فى نهاية الطريق .

والحقيقة أن كل محور من المحاور الثلاثة كان يعتمد على الآخر تماما . فبغير سلاح لن تكون هناك معركة لتحرير الأرض ، وبغير الاتحاد السوفييتى لن يكون هناك سلاح ، وبغير الولايات المتحدة لن يظل الاتحاد السوفييتى مبقيا على علاقته الخاصة بمصر دون تدنٍّ أو تجاوز.

محور الاتحاد السوفييتى

لم تكن المحافظة على علاقة الاتحاد السوفييتى بمصر للحصول منه على الأسلحة الحديثة اللازمة للمعركة بالشىء الهين . فالحصول على السلاح بالقدر الكافى للمعركة كان هو فى حد ذاته معركة أخرى . بل إنها معركة لا تقل شأنا عن المعركة الحربية التى سيستخدم فيها هذا السلاح بعد ذلك .

ذلك أن الاتحاد السوفييتى لم يكن مجرد تاجر سلاح يورده بالقدر المطلوب منه فيقبض الثمن ، وإن كان ذلك واردًا أيضًا فى حسبانه ، وإنما كان الاتحاد السوفييتى قوة سياسية عالمية



أنور السادات فى زيه العسكرى

لها مطامعها واشتراطاتها وتعلاتها التى تتحكم فى عملية توريد هذا السلاح بعناصرها الثلاثة المترابطة والتى إذا اختل عنصر واحد منها اختل به ميزان المعركة كلها وبالتالى النتيجة المترتبة عليها إن هزيمة أو انتصارًا . هذه العناصر الثلاثة هى نوعية السلاح ثم كميته ثم موعد تسليمه . وواضح أنه بدون استكمال هذه العناصر الثلاثة معا ، لن يتخذ قرار سليم بدخول المعركة فى الوقت المناسب ضد عدو يرتكز على حليف قوى يغدق عليه من الأسلحة ما يشاء وأنى يشاء بل ودون أن يتقاضى منه ثمنًا يذكر !

مطالب السوفييت

ولاشك أن المطلب الأول الذى يتطلع إليه السوفييت ويشتهونه منذ عهد كاترين العظيمة (فى نهاية القرن الثامن عشر) هو الحصول على ممر إلى المياه الدافئة . والآن وبعد أن وجدت مصر نفسها فى المأزق الذى وضعتها فيه نتائج حرب ٦٧ ـ وهى الحرب التى كان الاتحاد السوفييتى نفسه واحدًا من أسباب نشوبها ودفع المنطقة إليها ـ كان من الطبيعى أن يستغل السوفييت الموقف فيطالبون بتسهيلات على البحرين الدافئين ، الأبيض والأحمر . وإذا كان عبد الناصر لم يستجب لهذا المطلب وبالتالى لم يحصل على القدر الكافى من السلاح لتحرير الأرض ، فإن خلفه ربما يستجيب لهذا المطلب تحت ضغط الزمن وضغط الجيش أو الشعب الذى سئم هذا الموقف الذى لا هو بالسلم ولا هو بالحرب .

وهكذا بدأ السوفييت يطالبون صراحة بتسهيلات فى مرسى مطروح على البحر الأبيض أو برنيس على البحر الأحمر ، وكان من الطبيعى أن يواصل السادات الرفض خاصة بعد التجربة المريرة لمطار غرب القاهرة الذى كانت طائرات الميج ٢٥ الروسية تتمركز فيه والذى تحول إلى دولة داخل الدولة بلغت الدرجة بجنوده الروس أن يمنعوا وزير الحربية المصرى من دخول المطار.

أما المطلب الثانى الذى لم يجرؤ السوفييت على أن يفصحوا عنه علانية ، وإن كانت تصرفاتهم تنم عنه ، فهو ضرورة أن يكون الرجل القائم على رأس الدولة واحدًا من أتباعهم . فإذا لم يكن هذا الرجل شيوعيًا بالفكر أو المبدأ ، وهو الأفضل طبعًا ، فيكفى أن يتمتع بقدر كبير من الكراهية والعداء والتعصب للفلك الغربى الرأسمالى الذى تترأسه الولايات المتحدة ، وذلك لضمان ألا ينزلق الرجل ذات يوم عن مسار الفلك السوفييتى إلى الفلك الآخر المضاد . وهو الضمان الذى كان متوافرًا تمامًا فى عبد الناصر ودون أن يتوافر مائة بالمائة فى السادات ، وهو الرجل ذو العلاقات المتشعبة . من أجل ذلك كانت المماطلة وكان التسويف المتلاحق فى

توريد الأسلحة والذى جربه السادات فى بادئ عهده برغم الزيارات المتتابعة التى قام بها الرجل منذ اللحظات الأولى . ومن أجل ذلك كانت معاهدة الصداقة التى وقع عليها يوم ٢٧ مايو عام ٧١ ، وكان بودجورنى قد اصطحبها فى جيبه فى زيارته لمصر قبل ذلك بيومين فقط فى يوم ٢٥ مايو ، على أثر ما قام به السادات من تصفية منافسيه الذين أطلق عليهم اصطلاح «مراكز القوى » قبل مجىء بودجورنى بعشرة أيام فقط . وهم مجموعة كانوا يشيعون عن أنفسهم أنهم ذوو صلات خاصة بالسوفييت .

وهكذا كان التوقيع على المعاهدة بمثابة طمأنة الطرفين ليحظى كل طرف منهما بقدر من الثقة المفقودة فى الطرف الآخر ويحقق كلاهما قدرًا من مصالحة مع الزمن . فالسادات من ناحية يحظى بالسلاح الذى يرغب فيه بإلحاح كبير خاصة بعد أن أعلن عن عام ٧١ أنه عام الحسم (لتحرير الأرض سلما أو حربًا) . والسوفييت من الناحية الأخرى تترسخ أقدامهم على أرض مصر وبحارها الدافئة ، ثم يزداد هذا الترسخ ويتعمق مع الأيام .

وهكذا بدا أن هناك إتفاقًا كبيرًا بين مصالح الطرفين على السطح . أما فى الأغوار العميقة فكانت هناك فجوة ضخمة تفصل بينهما بقدر غور هذه الأعماق هى فجوة الزمن . فالسادات يريد السلاح لتحرير الأرض اليوم قبل الغد ، والسوفييت يعتقدون أن مصالحهم وثبات وجودهم لن يتحقق إلا الغد وليس اليوم .

ومع مرور الزمن كانت الشقة بين الطرفين تتباعد بدلا من أن تتقارب . فالسادات يشجب الانقلاب الشيوعى الذى حدث فى السودان ، والموقف عند قناة السويس وفى مجلس الأمن يتعرض للتآكل ، والأسلحة التى يرسل بها السوفييت إلى مصر لا تحقق تحرير الأرض وإنما تبقى على حالة اللاسلم واللاحرب إلى أجل غير واضح فى الأفق غير المتناهى . والجبهة فى القناة تغلى سأمًا ومن وجود مئات الخبراء الروس الذين تضاءلت مهمتهم واقتصرت على كتابة التقارير ، مما أعاد إلى أذهان ضباطنا الوضع المتردى الذى كان عليه الخبراء العسكريون الإنجليز فى عهد الاستعمار البريطانى ، بل إن السفير السوفييتى ، على حد رواية الرئيس السادات بذاته ، بدأ يأخذ لنفسه وضعا فى مصر أقرب ما يكون إلى وضع المندوب السامى البريطانى أيام الاحتلال .

ومن الطبيعى بعد ذلك أن يصدر القرار بالاستغناء عن الخبراء الروس .

ومن الغريب أن الأسلحة التى تدفقت على مصر بعد طرد الخبراء الروس ، فاقت فى نوعيتها كل ما تورد إلى مصر قبل الاستغناء عنهم !

فمنذ بداية عام ٧٣ طرأ تحسن ملحوظ على الأسلحة الهجومية التى بدأت ترد إلى مصر كالدبابات ت ٦٢ من عيار ١١٥ مم والصواريخ سام المتحركة على جنازير ، والصاروخ ب . آر. دى . ام المضاد للدبابات والمركب على عربات مجنزرة ، والمدافع ٢٣ مم المضادة للطائرات (وهى مدافع رباعية مركبة على جنازير) ـ بالإضافة إلى ٢٤ صاروخا أرض أرض من طراز سكود عليها أطقم سوفييتية كان المقصود منها ردع إسرائيل عن توجيه أى ضربات للمدن فى العمق المصرى .

وهكذا شاركت هذه الأسلحة فى التخطيط لحرب أكتوبر . ويقول السادات كانت هذه أكبر اتفاقية عقدت بيننا وبينهم ، وبدأ توريد بعض أجزاء هذه الصفقة فى زمن قياسى على غير عادتهم ـ ومع ذلك ، فبدون هذه الصفقة كنا قد عقدنا العزم على قرار المعركة الذى كان مبنيا على ما كان لدينا من أسلحة قبل الصفقة .

محور الولايات المتحدة

كان السادات يعلن دائمًا أن ٩٩٪ من أوراق اللعب فى يد أمريكا . وهذه الحقيقة أثبتتها حرب ٦٧ التى سلحت فيها أمريكا إسرائيل حتى الأسنان ، ثمَّ كان دورها السيكلوجى الذكى الذى لعبته بأسطولها السادس لجعل مصر تتلقى الضربة الأولى القاتلة ، بينما تعمل على حماية وتحريض إسرائيل على العدوان فى عهد رئيسها جونسون .

وفى حرب عام ١٩٥٦ كانت الحقيقة نفسها قد ثبتت ، ولكن بشكل آخر عندما ضغطت على إسرائيل وحليفيها لينسحبوا بقواتهم من مصر .

أما فى حرب الاستنزاف ، فكانت الولايات المتحدة هى التى أمدت إسرائيل بطائرات الفانتوم وغيرها من الأسلحة المتفوقة التى ضمنت أن ينتهى الموقف دائمًا لصالح إسرائيل ، فلما تأكد لها مقدار الخسائر التى لحقت بإسرائيل ، تقدمت بمبادرة روجرز لإيقاف القتال ولكى تعطى القوات الإسرائيلية فترة لالتقاط أنفاسها حتى تستكمل بناء حائطها واستحكاماتها الدفاعية .

وما دامت الولايات المتحدة بمثابة حبل الوريد لإسرائيل ، فإنها لاشك إذن قادرة على الحل أو على الأقل على الضغط ليكون الحل . أو هذا ما كان السادات يرجوه .

فى ديسمبر عام ١٩٧٠ كان السادات قد تلقى أول رسالة من الرئيس نيكسون ، ورد عليه السادات على الفور مبديا أن كل فعل أمريكى سيكون له رد فعل أقوى من جانب مصر . وأن مصر لا حيلة لها فى لعبة القوى الكبرى . وأنها مستعدة لحل سلمى مشرف . وأنها وإن كانت خسرت معركة فهى لم تخسر الحرب .

ولقد شجعت رسالة نيكسون الرئيس السادات على إعلان مبادرة جديدة فى ٤ فبراير تقضى بأنه فى حالة انسحاب إسرائيل للمضايق وعبور القوات المصرية لشرق القناة ، فإن مصر ستقوم بمد إيقاف إطلاق النار لمدة ٦ شهور ، ثم تفتح بعدها الملاحة فى قناة السويس وتعيد العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة .

لم تقابل المبادرة من جانب الولايات المتحدة سوى بالبرود ، كما وضعت إسرائيل شروطًا غير مقبولة . وقد بذل جونار يارينج سكرتير عام الأمم المتحدة جهودا كبيرة فى سبيل تنفيذ قرار ٢٤٢ للأمم المتحدة بالانسحاب من الأراضى المحتلة ، وأخذ تعهدًا على مصر وقبلته ، ولكن إسرائيل رفضت كتابة هذا التعهد ، فأوقف السكرتير العام مساعيه وأعلن أسباب هذا التوقف .

ورأى السادات إيجاد وسائل اتصال أخرى مع الولايات المتحدة ، فأوفد السيد أحمد حافظ إسماعيل للولايات المتحدة حيث قابل نيكسون الذى أبدى رغبته فى أن يلعب دوره فى إقامة سلام دائم ، ولكنه لا يستطيع أن يحدد الشكل النهائى للاتفاق كما لا يمكنه فرض رأى على أى من الأطراف . والتقى حافظ إسماعيل بكيسينجر الذى كانت خلاصة حديثه ، « **إنكم مهزومون فلا تطلبوا ما يطلبه المنتصر ويجب أن تكون هناك بعض التنازلات ، ولابد أن تغيروا الواقع الذى تعيشونه ، ولست أدعو السادات إلى تغيير الوضع العسكرى . فلو حاول ذلك فسوف تنتصر إسرائيل مرة أخرى بأشد مما انتصرت فى يونيو عام ٦٧** » .

وبعد زيارة حافظ إسماعيل بانطباعاتها الطيبة مع نيكسون ، قامت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل بزيارة لواشنطن تم الاتفاق فيها على صفقات ضخمة من السلاح وأعداد ضخمة من الطائرات الفانتوم وسكاى هوك ، وكان من الواضح أن هذه السياسة هى امتداد لسياسة جونسون تمامًا .

محـور المعـركة

أدرك السادات فى النهاية أنه قد استنفد كل بارقة أمل فى الحل السلمى ، وأن المحور الوحيد الذى فرض نفسه فرضًا هو المعركة واتخاذ قرار الحرب .

وكان لابد من وضع خطة محكمة لذلك ، قد لا تكون خطة عريضة الآمال تستعيد أرض سيناء كلها فى مرحلة واحدة ، وإنما خطة ، وإن كانت محدودة المهمة ، فإنها تكون كافية لأن تعمل « كشرارة » تنطلق من بعدها كل الطاقات السياسية التى تحرك الجمود الذى فرضه العملاقان الكبيران على الشرق الأوسط فيما سمياه بسياسة « الاسترخاء العسكرى » .

المحـور الرابـع

ومع إقدام السادات على اتخاذ قرار الحرب ، كان من الضرورى أن ينفتح أمامه محور رابع وهو العمل على المستوى العربى ، الذى لحسن الحظ كانت معظم دوله يرتبط ملوكها ورؤساؤها بعلاقة طيبة مع شخص الرئيس السادات . فكان موقفهم المتحفز لمعاونة مصر فى معركتها المقبلة مثل السعودية والكويت والجزائر وتونس والمغرب . بل عمل السادات على توسيع هذا المحور ليتعداه إلى دول أفريقيا التى حضر مؤتمرها فى أديس أبابا فى مايو عام ١٩٧٣ ، ثم امتدت دائرة هذا المحور إلى مؤتمر دول عدم الانحياز الذى قام السادات بتهيئته للمعركة حيث وقف فى المؤتمر الذى انعقد قبل الحرب بشهر واحد فى سبتمبر عام ١٩٧٣ فى الجزائر ، وقال فى خطابه : « لا مفر من المعركة فإسرائيل هى التى تريد لنا ذلك » .

وهكذا كان مع السادات على حد قوله أكثر من مائة دولة قبل المعركة بثلاثة أسابيع . ويقول فى ذلك : « خلال الفترة ما بين يناير إلى سبتمبر عام ٧٣ كنت قد جهزت الساحة العالمية كلها للمعركة » .

قـرار بـرج العـرب

أما أبريل عام ١٩٧٣ فقد شهد نشاطًا من نوع خاص ، انفردت به مع مصر دولة عربية دون غيرها من الدول العربية . إذ حضر رئيسها فى زيارة سرية إلى مصر ليطلع بنفسه على الخطط السرية التى أعدتها هيئة عمليات القوات المسلحة ومن بينها المذكرة الخاصة التى دون فيها اللواء الجمسى رئيس هيئة العمليات بخط يده المواعيد المناسبة للعمليات الحربية على مدار السنة . وكان بها ثلاثة مجموعات من الأيام . المجموعة الأولى فى شهر مايو عام ١٩٧٣ ، والثانية فى شهرى أغسطس وسبتمبر ، أما الثالثة ففى شهر أكتوبر من السنة نفسها . .

وفى الاجتماع السرى فى برج العرب الذى لم يحضره أحد سوى الرئيس السادات ورئيس هذه الدولة تم اختيار أنسب مجموعة للدولتين . . وهى مجموعة أكتوبر . .

وواضح أن هذه الدولة العربية التى رأت أن تشارك مصر هجومها فى ذلك اليوم ، هى دولة سوريا ، أما رئيسها الذى حضر الاجتماع السرى فهو الرئيس حافظ الأسد .

الاجتمـاع الأخـير لمجلس الحـرب

وفى الاجتماع الذى ضم أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى مساء أول أكتوبر ، كنت بين الأعضاء الذين قرءوا الفاتحة وقد اتجهت قلوبهم للسماء تدعو الله أن يوفقنا فى مهمتنا وأن يكتب لنا النصر . فى هذا الاجتماع أعلن الرئيس السادات مسئوليته عن الحرب ، ورد

عليه الفريق أول أحمد إسماعيل باعتباره وزيرًا للحربية وقائدًا عامًا للقوات المسلحة باسم القادة، أنه يعد ببذل أقصى جهد يتحمله البشر لتحقيق النصر لبلدنا ، وأننا جميعا نشاركه فى المسئولية .

كان الاجتماع مهيبا فى شهر رمضان المعظم ، وعندما حضرت هذا الاجتماع كنت أعمل مديرًا للمدرعات . وبهذه الصفة حضرت حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ وأديت دورى فيها .

كنت لغاية يناير عام ١٩٧١ أعمل بالفرقة ٢١ بالجبهة . ولقد ظللت بها لفترة تزيد عن عامين ونصف العام ، قضيتها فى وظيفة رئيس أركان الفرقة فى بادئ الأمر ثم عينت قائدًا لها بعد ذلك .

وفى ذلك الشهر صدرت التعليمات بنقلى إلى فرع العمليات بهيئة عمليات القوات المسلحة .

وكان وداعًا مؤثرًا وحافلاً من ضباط وجنود الفرقة الذين كانت تربطنى بهم أقوى صلة تربط القائد بجنوده ، إنها صلة الدم والفداء .

لقد شاركنا معا فى ظروف حرب الاستنزاف العنيفة ، وساهمنا معا فى هذا التحدى الرائع سواء فى عمليات العبور المحدودة أو فى مقاومة الغارات الجوية الهائلة أو فى تحدى إقامة قواعد الصواريخ المؤقتة ، مع العمل معا فى المشروعات التدريبية الشاقة التى لا تنتهى ، كل ذلك دفع بهذه العلاقة إلى عرى لا تنفصم !

وفى عملى الجديد فى هيئة العمليات ، أتيحت لى فرصة نادرة للتعرف الشامل على موقف القوات المسلحة بشتى أفرعها ومواقعها ، بل أتاح لى ذلك أمرين على جانب كبير من الأهمية فى مستقبل عملى بالقوات المسلحة ، فقد عينت رئيسًا لبعض لجان التفتيش على الاستعداد القتالى لبعض المناطق والجيوش ، كما أتاح لى الاشتراك فى المشروعات الإستراتيجية على مستوى القيادة العامة للقوات المسلحة والتعبوية على مستوى الجيوش الميدانية . وكان أن كلفت بعد ذلك ، بعد انتقالى من هيئة العمليات إلى إدارة سلاح المدرعات ، بمهام التفتيش نفسها والاشتراك فى إدارة المشروعات .

إلى إدارة المدرعـات

وهكذا لم ألبث فى هيئة العمليات سوى بضعة شهور حتى ١٥ مايو حين تلقيت مكالمة تليفونية من الفريق صادق بترك هيئة العمليات والتوجه فورًا إلى إدارة المدرعات فى ظرف ساعة لتولى منصب رئيس أركان المدرعات بدلا من اللواء عمر خطاب (ابن خالة الفريق أول محمد فوزى) .

وعندما بدأت عملى لاحظت أن الأمور عادية فى إدارة المدرعات ، وكان اللواء صلاح شريف هو الذى يشغل منصب مدير سلاح المدرعات (وهو شقيق البطل المرحوم أحمد عبد العزيز) وظللت عدة شهور يطلعنى على كل ما يدور فى اجتماعات المجلس الأعلى للقوات المسلحة وفى لقاءات القادة مع السادات . وكان من الواضح أن القادة يتلهفون على المعركة الهجومية ولكن ليس قبل الاستعداد لها بالسلاح اللازم . وكانت هذه نقطة خلاف بينهم وبين السادات خاصة بعد أن أعلن أن عام ٧١ هو عام الحسم .

كما كانت بعد ذلك سببًا فى إقالة الفريق محمد أحمد صادق وتعيين الفريق أول أحمد إسماعيل وزيرًا للحربية .

على أن المرض لم يمهل اللواء صلاح شريف طويلاً ، فتوفى فى أوائل عام ١٩٧٢ بعد صراع طويل مع المرض ، وتوليت بعده منصب مدير المدرعات .

طرد الخبراء السوفييت

وعندما قرر السادات طرد الخبراء السوفييت فى ظرف ٧ أيام ، قدرت أنه يجب أن نزن الأمور بميزانين ، الميزان الشخصى الذى يستوجب الحفاظ على علاقات شخصية وإنسانية مع أشخاص أدوا واجبهم بقدر استطاعتهم نحو مصر ، ثم ميزان السياسة الواجبة التنفيذ .

وكان لدينا نوعان من الخبراء ، المستشارون لإدارة السلاح والوحدات ، وخبراء التسليح الوافدون مع الأسلحة الحديثة التى كان تدريب الضباط والجنود يجرى عليها للمرة الأولى .

وعلى الفور كلفت وحدات السلاح بإقامة حفل تكريم صباح اليوم التالى لخبراء المدرعات كافة فى الإدارة ، ثم ألقيت فيهم خطابا أشدت فيه بمساعدات الاتحاد السوفييتى لدعم القوات المسلحة المصرية ودور الخبراء فى إعادة تنظيم وتدريب القوات المدرعة ، وتنظيم الشئون الفنية وورش المدرعات مما رفع الكفاءة القتالية لها ، كما وزعت عليهم هدايا تذكارية .

وعلم الفريق أول صادق بهذه اللفتة ، فأصدر تعليماته بتكريم القوات لخبرائها .

لقد أسهم الخبراء السوفييت بحق فى إعادة تنظيم وتسليح وتدريب القوات المسلحة المصرية برغم تفاوت خبراتهم وكفاءاتهم ، **إلا أنه كان من المستحيل بقاؤهم حتى يوم العبور . لقد كان التخطيط للمعركة الهجومية يتم بالضرورة دون إطلاعهم على الخطط أو مشاركتهم فيها لدواعى السرية والأمن . كما لم يكن من المطلوب بقاؤهم أثناء العمليات ليشاركوا فى القتال أو ليصبح وجودهم وسيلة للتشهير بأنهم يحاربون معركتنا .**

لذلك كان صدى الاستغناء عنهم فى القوات المسلحة عظيماً وموضع الترحيب الكامل من كل ضابط وجندى .

ولا أدعى أن اللفتة الإنسانية التى بادرت إليها ، كانت سببًا فى تغير العلاقات مع الاتحاد السوفييتى فدفعتهم إلى توريد الأسلحة فى عام ١٩٧٣ ، ذلك أن هدفى كان مجرد مبادرة من روح طيبة اشتهرت بها مصر ، مما يضاف إلى رصيد أصالتها وحضارة شعبها العريقة يتذكره هؤلاء الذين عملوا وعاشوا فوق أرضها لفترة من الزمن ولو قصرت !

العـرق يوفـر الـدم

من المعروف أن إدارة المدرعات تختص فنيا بجميع المركبات ذات الجنزير فى كل وحدات القوات المسلحة ، فى داخل المدرعات نفسها أو فى الأسلحة الأخرى . كما أنها هى المسئولة عن توفير احتياجات القوات المسلحة من الدبابات والمركبات ذات الجنزير وورش إصلاحها وصيانتها . كذلك هى المسئولة عن التدريب الفنى لأطقم هذه المعدات ، التدريب التكتيكى للمدرعات حتى مستوى الكتيبة ، وبالتالى فهى المسئولة عن المراجعة الفنية والاختبار لكل أفراد ومعدات المدرعات على مستوى القوات المسلحة ، متعاونة فى ذلك مع الهيئات الأخرى كهيئات التدريب والتفتيش والبحوث والتنظيم والإدارة .

وقد اقتضى منى الإعداد لحرب أكتوبر ، المرور على كل الوحدات المدرعة ، وهى تمثل كتائب الدبابات فى ألوية وفرق المشاة أو فى الألوية والفرق المدرعة والألوية المدرعة المستقلة أو جميع المركبات ذات الجنزير على مستوى القوات المسلحة ، للوقوف على مستواها ومطالبها الفنية والتدريبية .

وكان لابد من سرعة النهوض بالوحدات التعليمية الخاصة بإعداد أفراد المدرعات من ضباط وضباط صف وجنود [١] .

---

(١) كان وراء شعورى بأهمية هذه السرعة حادث بسيط . فقد اقتضت تجارب الإعداد للحرب إجراء مناورة غرب الإسكندرية فى سبتمبر ٧١ ، تقوم بها كتيبة دبابات برمائية تبحر من ميناء الإسكندرية لتقوم بالإبرار البحرى فى شاطئ منطقة سيدى كرير .
وفى نقطة المشاهدة على الشاطئ كان السادات يجلس بملابس الأدميرال البحرى كعادته فى ارتداء الزى الذى يناسب كل فرع من الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة ، وحول السادات كان رؤساء الهيئات والإدارات يجلسون ، وكنت بينهم فى مشاهدة هذا البيان العملى عندما جاء أحد المصورين لالتقاط بعض الصور للسادات وللحاضرين فى اللحظة التى أشرفت فيها الوحدة البرمائية على الوصول للشاطئ ، فما كان من السادات إلا أن اتجه للمصور صائحًا بأعلى صوته « وجه صورك إلى المناورة وليس لى لتعلم إسرائيل أننا نستعد فعلا للحرب » .

ولقد شمل الإعداد لحرب أكتوبر سلسلة من التجارب على الكفاءة القتالية للمدرعات ، وتم رفع مستواها القتالى عن طريق إضافة صواريخ الدخان وأجهزة الرؤية الليلية وآلات تقدير المسافة بالليزر التى استوردت كلها من دول غربية كإنجلترا وفرنسا ، مما جعل الدبابات الشرقية الموجودة فى مصر تفوق مثيلاتها المستخدمة فى الاتحاد السوفييتى نفسه . وقد استطعنا الحصول على أنواع من طلقات الدبابات لم يكن الاتحاد السوفييتى قد أحاطنا علما بوجودها لديه ، واضطر لتوريدها بعد الإلحاح فى طلبها منه مثل طلقات السابو والحشوة الجوفاء ، وهى طلقات خارقة للدروع تستخدم فى قتال المدرعات . ومما أذكره أن التجارب التى أجريت على هذه الطلقات بعد وصولها قبل المعركة بأشهر أثبتت كفاءة هذه الطلقات، مما دفع فرع البحوث بإدارة المدرعات لتصوير آثارها التدميرية فى كتيبات أعدت لإرسالها للوحدات لرفع ثقتها فى أسلحتها .

وعلى المستوى الفنى قام مهندسو المدرعات بجهد خارق من أجل رفع المستوى الفنى والصلاحية القتالية ، وبخطة دقيقة شملت كافة المركبات ذات الجنزير فى القوات المسلحة .

وأذكر أن مستوى الاستعداد القتالى فى كل الوحدات المدرعة ، قد وصل يوم ٥ أكتوبر عام ١٩٧٣ إلى ٩٩,٨٪ وهو رقم كنت أعتز به كل الاعتزاز وأنا أقدم تقاريرى لوزير الدفاع [(١)] .

وبالنسبة للأفراد شكلت إدارة المدرعات ما يقرب من ٣ لواءات احتياطى ، جرى تدريبها قبل وأثناء المعركة ، بحيث كان فى الاستطاعة تعويض الخسائر بوحدات كاملة وبسرعة فائقة كلما اقتضى الأمر . وقد قام القادة المكلفون بتشكيل وتدريب هذا الاحتياطى الكبير بجهد فوق الطاقة ، لدرجة أن قائد هذه المجموعة العميد عادل حسنى فاجأته أزمة قلبية من فرط الإجهاد ، وتوفى إلى رحمة الله بعد ساعات من بدء الأزمة .

ولاشك أن ما بذلته القوات المسلحة من عرق للإعداد لحرب أكتوبر ، قد وفر الكثير من الدم .

---

(١) وأذكر هنا أيضًا أنه بعد المعركة ورغم الخسائر التى حدثت فى المعدات ، أننا استعدنا هذا الرقم ٩٨,٢٪ عقب وصول إمدادات من الجزائر ويوغوسلافيا وليبيا . وكانت بعض هذه المعدات الواردة يتطلب تجهيزها جهدًا كبيرًا على وجه السرعة لتعويض الخسائر .

الفصل التاسع والثلاثون
اليوم الكبير

كان على القوات المسلحة فى الجبهة أن تقوم باقتحام قناة السويس بما عليها من تحصينات خط بارليف المنيعة ، وأن تهزم تجمعات العدو الموجودة شرق القناة ، ثم تصل إلى خط المضايق وتؤمنه استعدادًا لتنفيذ أى مهام أخرى . .

وتحدد لذلك يوم ٦ أكتوبر (يوم كيبور أو اليوم الكبير) بعد جملة دراسات وأبحاث علمية مستفيضة قامت بها هيئة العمليات بقيادة اللواء الجمسى الذى أورد هذه الدراسة الممتعة مفصلة فى كتابه الأخير « يوميات حرب أكتوبر » والذى أنصح لكل عسكرى أن يقتنيه ولكل مدنى أن يطلع عليه ليعرف كيف استطاعت قواته المسلحة أن تقوم باقتحام هذا الخط المنيع وأن تهزم القوات الإسرائيلية ، بما لديها من إمكانات محدودة وفقًا لتخطيط أبدعته العقول المصرية وإرادة أبنائهم الجنود ، بعد أن أتيحت لهم لأول مرة فرصة مقاتلة الجيش الإسرائيلى وجها لوجه وتحت سماء يظهر فيها لأول مرة الطيران المصرى فوق رءوسهم لحمايتهم بعد أن كانت هذه السماء حكرًا على الطائرات التى تحمل الشارة المعادية فى كل الحروب السابقة .

وكان على القوات السورية فى الوقت نفسه أن تقوم بالهجوم لاختراق دفاعات العدو فى الجولان وأن تدمر قواته لتصل إلى خط نهر الأردن والشاطئ الشرقى لبحيرة طبرية ، وكان مقدرًا أن تقوم القوات السورية بتحرير الجولان فى أربعة أو خمسة أيام وتستمر فى تأمينها حتى تصل القوات المصرية إلى الأهداف المحددة لها فى سيناء .

الضربة الجوية

وكانت الخطة تقضى بأن تقوم القوات الجوية فى الدولتين بتوجيه ضربة جوية فى وقت واحد ضد الأهداف العسكرية المعادية المحددة فى سيناء والجولان ، مثل القواعد والمطارات

ومواقع الصواريخ المضادة للطائرات ومحطات الرادار ومرابض المدفعية ومراكز القيادة والسيطرة ومراكز الإعاقة . قامت على جبهتنا بهذا العمل ٢٢٢ طائرة فى تمام الساعة الثانية ظهرًا و ١٠٠ طائرة على الجبهة السورية .

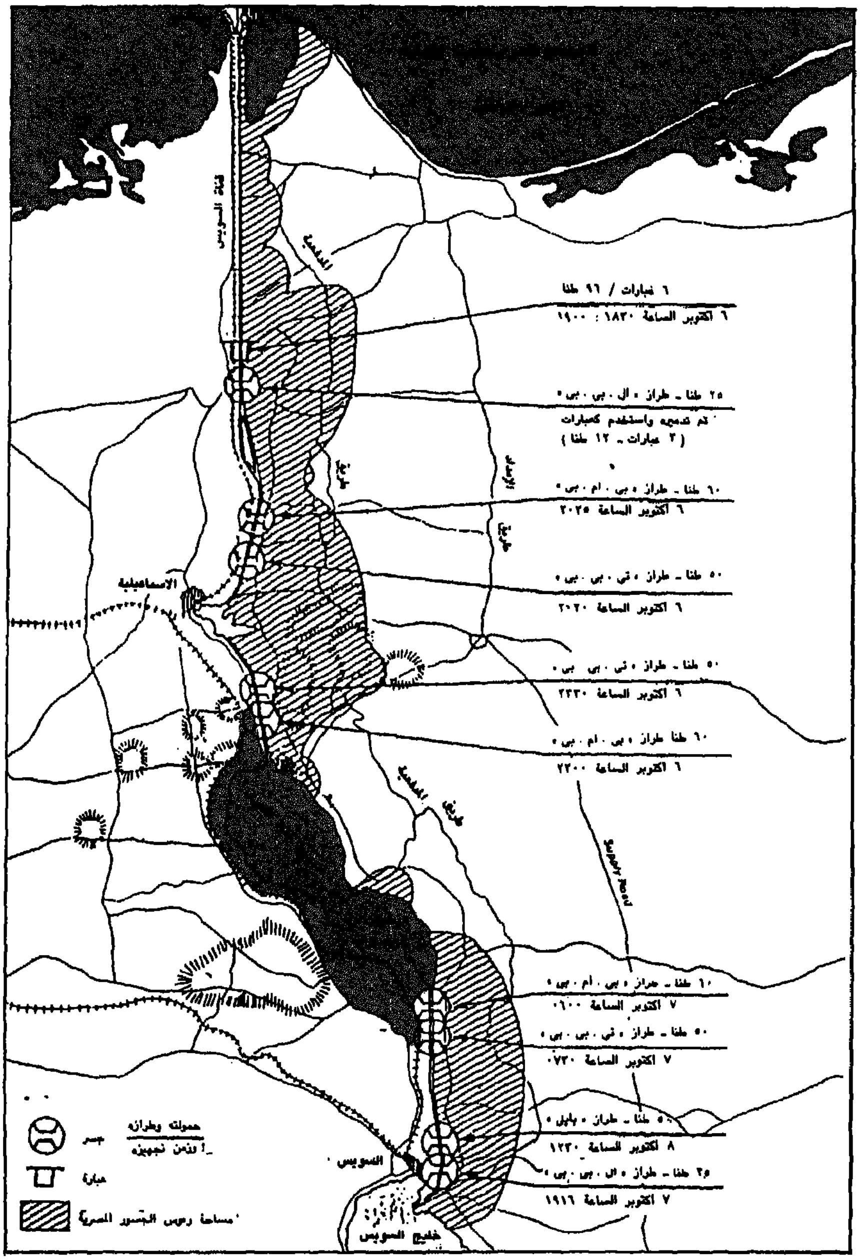
ويروى السادات أن ظهور هذه الطائرات على ارتفاع منخفض يكاد يلمس رءوس جنودنا خلف القناة فى وقت واحد ، كان كافيا لإلهاب حماسهم ومشاعرهم المكبوتة من وقت طويل . فأخذوا يسحبون زوارقهم إلى مياه القناة من خلف الساتر ، وفى حالة هستيرية اندفعوا يعبرون القناة وهم يصرخون « الله أكبر » .

ولم ينتظر هؤلاء الجنود ، كما تقضى الخطة ، أن يتم التمهيد النيرانى بأكبر تركيز شهده العالم فى ضرب المدفعية بعد معركة العلمين فى الحرب العالمية الثانية حيث انطلقت قذائف أكثر من ألفى مدفع لتضرب بدقة رائعة أهدافها . وبدأت ملحمة ٦ أكتوبر .

اليـوم الأول للقتـال

فى الدقائق الأولى للعبور أصبح لنا على الضفة الشرقية للقناة حوالى ٨٠٠٠ مقاتل استخدموا القوارب المصنوعة من المطاط والخشب . واستمر تدفقهم مستخدمين سلالم حبال بدائية لتسلق الساتر الترابى (بارتفاع ١٧ مترا) على الضفة الشرقية ، **ولم ينته اليوم حتى كان لنا أكثر من ٥٠٠٠٠ مقاتل فى الشرق . وكان المهندسون قد أتموا فى خلال ثمانى ساعات فقط إنشاء ثمانية كبارى ثقيلة وأربعة كبارى خفيفة ، وقاموا ببناء وتشغيل ٣٠ معدية ، وفتحوا ٦٠ فتحة لتكون بمثابة ممرات فى الساتر الترابى ، وقد تهيَّل منها ٩٠ ألف متر مكعب من الرمال** بفضل استخدامهم لمضخات مياه عادية كانت تستخدم فكرتها فى تجريف الرمال فى السد العالى ، فكانت من أهم الأسلحة التى فوجئ بها العدو ، وقد ظن أن أتربة هذا الساتر ستوفر لهم الحماية وتحجز المصريين خلفها لمدة طويلة كافية لوصول دباباتهم إلى الخط وسحق قوات المشاة الضعيفة التى قد تنجح فى التسلل عبر تلاله .

وفى صباح اليوم التالى ٧ أكتوبر ، كانت قواتنا قد نجحت فى الهجوم وعبور واقتحام أعقد مانع مائى ، وحطمت خطا دفاعيا محصنا خلال ١٨ ساعة ، كان أليعازار رئيس الأركان الإسرائيلى يصفه لجولدا مائير فى مساء الأمس بأنه من أصعب الموانع المائية فى العالم (وأنه لا يوجد مثيل فى العالم لمناعته سوى قناة بنما) وأن المصريين إذا عبروه سيكون مقبرة لهم نتيجة للمواقع الحصينة فى خط بارليف بالإضافة إلى القنوات البترولية التى ستعمل فى خلال دقائق فيتحول كل شبر فى خط المواجهة على القناة إلى كتلة حريق قاتلة .



الاختراق المصرى للضفة الشرقية لقناة السويس

الكبارى التى أقيمت على قناة السويس ورؤس الكبارى للطرق المصرية

ولم يكن أليعازار يدرى فى هذه اللحظة أن مجموعة من رجال المهندسين كانت قد تسللت تحت الماء فى نفس ليلة ٥/ ٦ أكتوبر وأبطلت مفعول هذه القنوات ، وكانت المخابرات المصرية قد أمدتهم بكل شىء عن أجهزة هذه القنوات ومنافذها ومواقعها .

وقبل آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر بينما كان عبور واقتحام القناة يتم كانت قوات الصاعقة التى هبطت بالهليوكبتر فى عمق سيناء تبث الذعر فى المواقع الخلفية للعدو وتقوم بتعطيل تحرك قواته الاحتياطية فى عمل جرىء جسور كبد القوات الإسرائيلية المتحركة من الخلف للأمام خسائر فادحة ، ولقد تعددت أعمالها ومهامها فى أماكن متعددة حتى أنها قامت بإشعال النار فى آبار البترول على طول الساحل الشرقى للبحر الأحمر . هذا بينما كانت قواتنا البحرية تقوم بتنفيذ مهامها لضرب مواقع العدو الساحلية ، وتعمل ضد ناقلات البترول الإسرائيلية عند باب المندب ، بل واستطاعت إغراق إحدى هذه الناقلات حمولة ٤٦ ألف طن عندما فوجئت بحقول الألغام التى بثتها البحرية .

خسائرنا وخسائر العدو

لقد استطاعت قواتنا فى أقل من ٢٤ ساعة أن يكون لها خمسة رءوس كبارى (١) أنشأتها خمس فرق مشاة على امتداد قناة السويس وبعمق ٦ ـ ٨ كيلو مترًا رفعت الأعلام المصرية فوقها .

وقد تحقق هذا العمل بأقل خسائر ممكنة : ٥ طائرات ، ٢٠ دبابة ، ٢٠٠ شهيد ، وفى الوقت نفسه خسر العدو ٢٥ طائرة ، ١٢٠ دبابة وعدة مئات من القتلى (أكثر من ١٠٠٠ كما يذكر إدجار أوبالانس) . وسقط خط بارليف الذى كان يمثل نظرية الأمن والدفاع على حدود إسرائيل فوق الموانع الطبيعية ، وبعد أن ثبت للمؤسسة الإسرائيلية أن المبادرة والمفاجأة ليست حكرًا عليهم ، لدرجة أن ديان صرخ فى وجه إلياهو زعيرا مدير المخابرات العسكرية فى ذلك اليوم قائلا « إنى أحملك مسئولية ما يحدث » عقب المعلومات التى بلغته بسقوط أحد الحصون المنيعة . ولذلك عندما بلغ ديان سقوط باقى الخط نفسه ،حدث له الانهيار الذى لامته

---

(١) المقصود بكلمة رأس كوبرى هو الاستيلاء على مساحة من الأرض شرق القناة تكفل القدرة على الدفاع عنها وعن الكبارى المقامة المؤدية إليها باستخدام المناورة بكافة الأسلحة والنيران . ولقد استطاعت كل فرقة مشاة أن تنشئ رأس كوبرى خاصا بها . وزيادة فى التوضيح أذكر أن قواتنا على جبهة القناة كانت تتكون من جيشين (الثانى والثالث) . ويتكون الجيش الثانى من الفرقة ١٨ والفرقة ٢ والفرقة ١٦ ، الفرقة ٢١ المدرعة ويقع قطاع هجومه بين شمال البحيرات المرة الكبرى وبين بورفؤاد ، بينما يتكون الجيش الثالث من الفرقة ١٩ والفرقة ٦ والفرقة الرابعة المدرعة ويقع قطاع هجومه بين شرق السويس وجنوب البحيرات المرة الكبرى . هذا وكل فرقة تضم عددًا من الألوية المشاة المدرعة والمدفعية وغيرها .

عليه جولدا مائير أثناء الحرب ، وقد طالب لأول مرة فى تاريخه بضرورة انسحاب القوات الإسرائيلية إلى خط آخر فى الخلف عند المضايق . وهكذا دارت الدائرة على ديان وأصبح هو الذى يطالب بالانسحاب لقواته بعد أن كانت كل مناوراته العسكرية مبنية على انسحاب القوات المصرية من سيناء فيما مضى .

تفصيلات القتال

لقد استطاعت قوات المشاة التى عبرت فى الموجات الأولى أن تعمل بخطة ذكية ، إذ اندفعت إلى النقط القوية فى عمق خط بارليف ، بينما عزلت النقط القريبة من القناة ، وبذا استطاعت أن تضع يدها على جميع النقط فى وقت واحد . فراحت تتهاوى الواحدة بعد الأخرى ، حيث استسلم بعضها بلا مقاومة ، وقاتل بعضها بكل ما تبقى من حب للحياة ، وصمدت الأقلية منها حتى مرحلة متأخرة من العمليات .

ويقول تقرير معهد الدراسات الإستراتيجية الدولى بلندن فى ذلك « تم اكتساح دفاعات خط بارليف فى القطاع الشمالى من الجبهة خلال بضع ساعات ، بينما تم عزلها ومحاصرتها فى القطاع الجنوبى . وقد استخدمت الدبابات البرمائية ٧٦ مم للعمل على الأجناب وخلال الثغرات ، ثم أقيمت الكبارى والمعديات التى بلغ عددها ١٠ كبارى بعرض ٧٠ مترًا عند نقط العبور بالإضافة إلى معدية تدفقت عليها القوات والمعدات إلى الضفة الشرقية للقناة ، وفى خلال ٢٤ ساعة من بدء الهجوم تمكنت قوات تقدر بثلاث فرق مشاة مصرية من العبور ومعها نحو ٥٠٠ دبابة وبدأت فى توسيع رأس الكوبرى بها .

ومما هو جدير بالذكر أن قوات المشاة فى القطاع الجنوبى ، استطاعت أن تكيل للمدرعات الإسرائيلية أكبر اللطمات العسكرية ، إذ ظلت بلا مدرعات فى بعض القطاعات لأكثر من ٢٤ ساعة ودون أن تفلح المدرعات الإسرائيلية بهجماتها الشرسة فى زحزحتها عن مواقعها . وكان قد حدث تأخير فى إنشاء كبارى الجيش الثالث نتيجة لعدة عوامل مثل طبيعة شاطئ القناة وسرعة التيار فى هذا القطاع نتيجة المد والجزر الأمر الذى أدى بدوره إلى تأخير عبور المدرعات حتى مساء يوم ٧ وصباح يوم ٨ أكتوبر .

أما فى القطاع الشمالى عندما بدأت دبابات العدو فى التحرك إلى مواقعها بعد ٣٠ دقيقة فقط حسب التخطيط ، كانت جماعات اصطيادها قد احتلت هذه المرابض وبدأت فى التعامل معها . وقد اتسمت الهجمات الأولى لهذه الدبابات بسمتين أساسيتين : الأولى أنها كانت بأعداد قليلة متفرقة لا تزيد عن فصيلة . والثانية أنها كانت تتقدم برعونة وباندفاع

غاشم خال من الحذر لتسارع باحتلال مرابضها التى لم يقدر لها أن تصل إليها ، إذ تساقطت تحت وطأة الأسلحة الفردية المضادة لها والتى يحملها أفراد المشاة . وكان من الأخطاء التى وقعت فيها فى هذه الساعات الأولى ، أن ذخيرة هذه الدبابات (أو ما يعرف بالشَّدة فى عرف المدرعات) كانت خالية تقريبًا من الطلقات شديدة الانفجار المخصصة لقتال الأفراد والمبانى والدشم ، وكانت فى أغلبها طلقات مضادة للدبابات ، وبذلك تعذر عليها التعامل مع مواقع الصواريخ المضادة للدبابات ، حتى لو اكتشفت محلاتها . وعادة يكون بشدة الدبابة (أنواع الذخيرة المشونة بالدبابة) خليط من أنواع تحدده طبيعة المهمة التى ستكلف بها هذه الدبابات . ولما كانت المهمة الأساسية للدبابات القريبة من خط بارليف هى التعامل بسرعة مع أفراد المشاة الذين يتمكنون من العبور قبل إنشاء الكبارى اللازمة لعبور المركبات والدبابات، لذا كان من الواجب أن تكون الغالبية العظمى من الذخيرة من النوع شديد الانفجار ، خاصة وأن القيادة الإسرائيلية كانت تقدر أن أول عبور للدبابات المصرية لن يتم قبل ٢٤ ساعة على الأقل . ويبدو أن المخططين الإسرائيليين لعمليات صد الهجوم المرتقب ، كانوا يتصورون إمكانية التعامل مع المشاة بواسطة رشاشات الدبابات ذات الكفاءة العالية ، إلا أن مداها المحدد جعلها عاجزة عن التعامل مع أفراد جماعات الصواريخ التى يصل مداها إلى ٣٠٠٠ متر . بينما لا يتجاوز المدى المؤثر للرشاش من ١٠٠٠ إلى ١٢٠٠ مترًا .

واستطاعت أول وحدة فرعية للدبابات المصرية أن تعبر القناة فى الساعة التاسعة وعشر دقائق مساء ، وكان ذلك فى قطاع الجيش الثانى وبقيادة الملازم مصطفى البحيرى ، ومنذ لحظة نزولها بدأت التعامل مع بعض الدبابات الإسرائيلية التى استطاعت أن تصل إلى قرب الشاطئ بقصد التسرب خلف قوات المشاة بعد أن يحل الظلام وينعدم تأثير الصواريخ المصرية المضادة للدبابات . وبذلك تم عبور الدبابات المصرية بعد أقل من ٨ ساعات من بداية القتال ، وكان هذا العبور السريع غير المتوقع هو المفاجأة التى كلفت إسرائيل عددًا ضخمًا من الدبابات التى دمرت فى اليومين الأول والثانى من القتال ، **فقد عبر من الدبابات المصرية أكثر من ٥٠٠ دبابة خلال ليلة ٦ ـ ٧ وصباح يوم ٧ .**

وقد التهب حماس قوات المشاة العابرة بمجرد أن سمعت أصوات جنازير الدبابات المصرية تهدر على الضفة الشرقية ، وارتفعت الروح المعنوية لدى الجنود إلى عنان السماء . واشتركت الدبابات العابرة فى القتال حتى الفجر ، وظلت تتدفق بأعداد هائلة لتأخذ محلاتها المحددة فى مواقع التشكيلات التى تربض فى رءوس الكبارى . وراحت كل محطات الإذاعة فى العالم تذيع أن الضفة الشرقية للقناة سقطت فى قبضة مصر .

ويمكن تلخيص نتائج القتال فى اليوم الأول بأنه عند منتصف ليلة ٦ ، ٧ أكتوبر نجحت القوات المصرية فى اختراق خط بارليف والاستيلاء على ١٤ نقطة من نقطه الحصينة . ونصبت الجسور والجسور الخداعية ، وعبر الجزء الأكبر من فرق المشاة الخمس . ولم تتجاوز الخسائر المصرية خلال ذلك كله ٢٠٠ قتيل . وقد أثبت القتال فى ذلك اليوم أن التخطيط الجيد والتدريب الشاق الذى سبق الحرب كان له أكبر الأثر فى تحقيق النجاح حيث كان كل فرد فى القوات العابرة يعلم مهمته وقد تم تدريبه عليها مرارًا وتكرارًا .

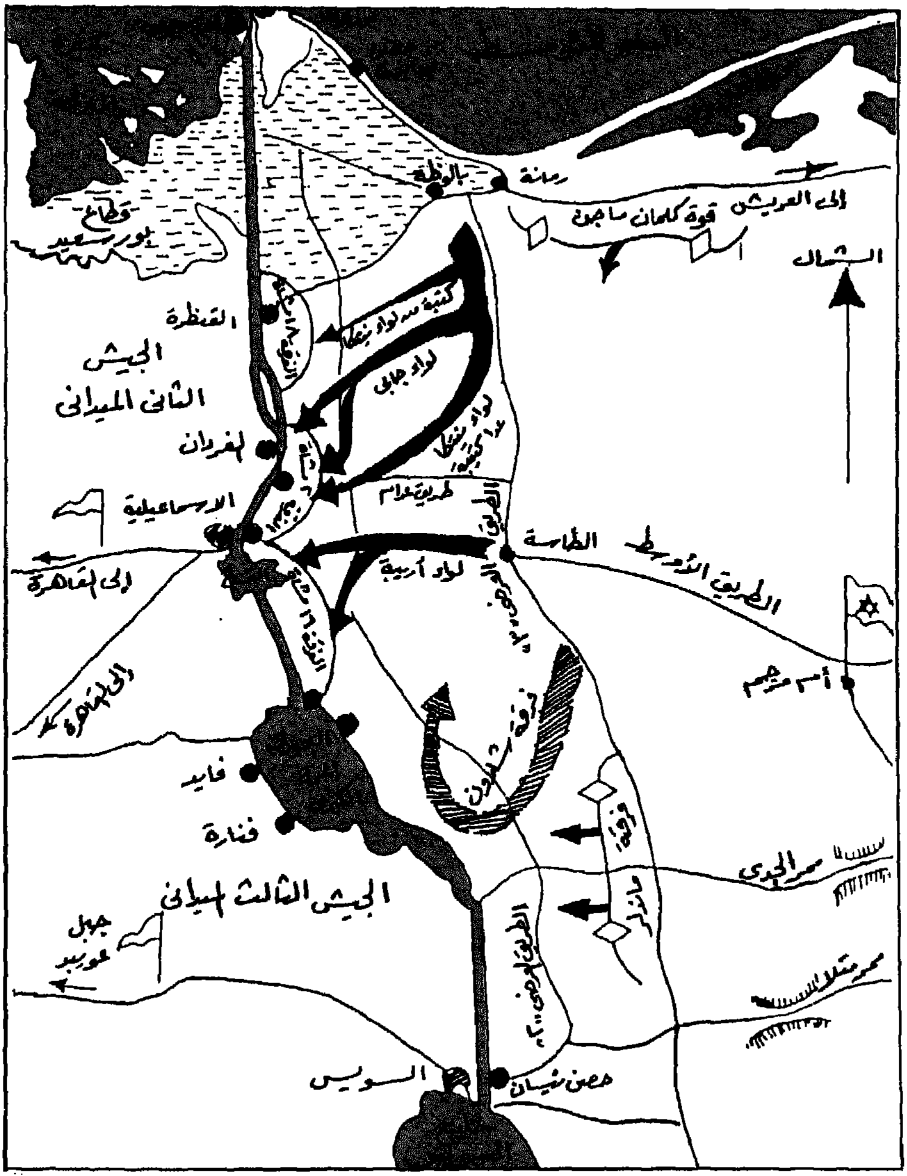
يوم ٧ أكتوبر

وتوالت الهجمات المضادة الإسرائيلية بالمدرعات على رءوس الكبارى المصرية طوال اليوم التالى للعبور ، فى محاولة لاختراقها عند أماكن الاتصال على أجناب الوحدات ، أملاً فى الوصول إلى النقط الحصينة التى لم تسقط بعد لنجدة جنودها ، ولكن تكسرت كل هذه الهجمات أمام المقاومة الصلبة للمدرعات المصرية والصواريخ المضادة للدبابات ، المتحرك منها والمحمول .

أما الخسائر الإسرائيلية فى المدرعات ، فقد بلغت درجة من الجسامة حتى ظهر ٧ أكتوبر ، بحيث لم يبق لإسرائيل أكثر من ١١٠ دبابات على الجبهة المصرية باعتراف كتبهم . وعندما قام موشى ديان بزيارة لجبهة السويس ظهر يوم ٧ أكتوبر ونزل فى مركز قيادة أم خشيب ، كانت القوات الخاصة المصرية موجودة على التلال المحيطة بالمركز مما أثر كثيرًا فى معنويات الرجل ودفعه إلى التفكير **فى سحب القوات الإسرائيلية إلى المرتفعات وترك التحصينات وإقامة خط دفاع جديد على سلسلة الجبال عن طريق المدفعية والتخلى عن خليج السويس** . وقد نقل هذه الأفكار إلى جولدا مائير عند عودته لتل أبيب . ولكن رئيس الأركان عارض هذا الاتجاه واستطاع فى مساء اليوم نفسه بعد زيارته للجبهة أن يحصل على تصديق رئيسة الوزراء باستئناف الهجوم المضاد فى اليوم التالى ٨ أكتوبر .

يوم ٨ أكتوبر

وفى صباح يوم ٨ كان من الواضح أن الهجوم المضاد الإسرائيلى قد باء بالفشل بعد أن تكبدت إسرائيل خسائر فادحة فى المدرعات . ثم توالى سقوط النقط الحصينة فى أيدينا . وترك العدو بعض دباباته لحماية انسحاب قواته المشتتة التى فشلت فى الهجمات المضادة . عندئذ بدأت قوات الجيشين الثانى والثالث فى استغلال النجاح وتطوير الهجوم شرقًا . لاحتلال الخطوط المحددة للمهمة التالية على أعماق تتراوح بين ٨ ـ ١٢ كم شرقًا وخلال تحقيق هذه المهام استطاعت فرق المشاة أن تحتل معظم النقط الحصينة الباقية مثل حصن متسميد ،



الهجوم الإسرائيلى المضاد يوم ٨ أكتوبر ١٩٧٣

والنقطة ٧٥ فى قطاع الفرقة ١٦ مشاة وحصن مفزيه فى قطاع الفرقة ١٩ وقد تم الاستيلاء عليه مساء يوم ٨ بعد ثلاث محاولات ضارية وكذا حصن تونزر شرق كبريت فى قطاع الفرقة السابعة. ولقد أمكن كذلك الاستيلاء على بعض مراكز القيادة الإسرائيلية الهامة مثل مركز القيادة الأمامى فى تبة الشجرة والذى تم الاستيلاء على كل وثائقه وأسلحته فى قطاع الفرقة الثانية المشاة .

وبحول ظلام يوم ٨ حققت معظم ألوية الفرق الخمس مهمتها النهائية وبدأت فى تعزيز أوضاعها الجديدة فى رءوس الكبارى . كما بدأت الأرتال الإدارية فى عبور القناة لتعويض الذخيرة والوقود والتعيينات ، وعادت قبل فجر يوم ٩ تحمل الجرحى والأسرى .

يعتبر يوم ٨ أكتوبر من أنجح أيام القتال ، حيث كان التقدم لاحتلال خطوط المهام يتم تحت ضغط كبير من العدو ومدفعيته الثقيلة وطيرانه . ولقد حاولت ثلاث فرق مدرعة إسرائيلية أن توقف التقدم على المحاور الثلاثة ، كما حاول شارون متفائلا أن يصل بفرقته إلى خط المياه والاستيلاء على كبارى مصرية للعبور فوقها إلى الشاطئ الغربى ، ولكن جميع الهجمات المضادة على رءوس الكبارى قد فشلت تمامًا ، مما أجبر إسرائيل على مراجعة كل موقفها وخططها من جديد ، خاصة وأن القوات المصرية التى قامت بصد هذه الهجمات لم تكن قد استكملت بعد كل وسائلها الدفاعية ولم تتخذ الأوضاع المثالية المطلوبة على الشاطئ الشرقى . ولقد أرجع المحللون العسكريون فشل الهجمات المضادة الإسرائيلية إلى عدم التركيز فى الهجوم بالدبابات واستخدامها متفرقة ، علاوة على عجز الطيران الإسرائيلى عن تقديم المساعدة المطلوبة للمدرعات لوقوعه داخل دائرة الصواريخ المضادة المصرية ، وكذا عجز المدفعية الإسرائيلية عن تقديم المعاونة الفعالة لوقوعها تحت تأثير القصف المصرى المضاد وغارات الطيران على مواقع المدفعية الثقيلة فى العمق . كذلك لم تشترك قوات المشاة الميكانيكية الإسرائيلية فى هذه الهجمات اكتفاء بالمدرعات ، وذلك على غرار حربى ٥٦ ، ٦٧ ، كما أن إسرائيل كانت تدفع بمعظم احتياطيها إلى الجبهة السورية فى اليومين الأولين نظرًا لخطورة الموقف هناك وقرب الجبهة من مناطق التجمع السكانية التى تؤدى إصابتها إلى كوارث وفزع لهذا الشعب الذى ظن أنه أصبح فى مأمن بعد حرب ٦٧ .

* * *

الملاحظ فى هذه الفترة أن التعبئة الإسرائيلية قد تمت على عجل ، كما اتسمت بالفوضى وعدم التنسيق ، وكان الارتجال هو أحد مظاهرها الرئيسية برغم أن نظام التعبئة الإسرائيلى مشهود له بالكفاءة العالية . ولكن يبدو أن المفاجأة قد قلبت كل الحسابات الإسرائيلية رأسا على عقب ، ففشلت خطة التعبئة الإسرائيلية جزئيًا خلال الـ ٤٨ ساعة الأولى . وقد عانت

إسرائيل من النقص فى ناقلات الدبابات مما اضطرها إلى دفع الدبابات على جنازيرها بعد تجميعها على عجل وتسليمها للأطقم التى كانت تصل إلى خطوط قتالها مجهدة وغير قادرة بالفعل على القتال ، وبالإضافة إلى ذلك كله فإن القوات الخاصة المصرية استطاعت أن تنصب الكمائن المؤثرة على طرق اقتراب الاحتياطيات الإسرائيلية ، علاوة على المجموعات التى أسقطتها طائرات الهليوكيبتر فى العمق للعمل خلف خطوط العدو وضد مراكز قيادته فى بالوظة وبير جفجافة وتل الصبحة . وقد اخترقت القوات الخاصة ممر متلا والجدى وتمكنت من إشعال النيران فى بعض حقول البترول فى أبو زنيم وسدر وفيران . كما تمكنت القوات الخاصة فى القطاع الأوسط من نصب كمين فاجأ إحدى الوحدات الإسرائيلية أثناء إنزال دباباتها من فوق الشاحنات فأحدث بها خسائر كبيرة جدًا أدت إلى توقف تدفق الإمدادات فى هذا القطاع . كما تمكنت القوات الخاصة من إغلاق الطريق الجنوبى لممر سدر منذ بداية الحرب وحتى نهايتها .

زيـارة للجبهـة يوم ٨ أكتوبر ٧٣

فى الخامسة من صباح ٨ أكتوبر اتصل بى الفريق سعد الشاذلى وطلب منى مصاحبته للمرور على الجيش الثانى الميدانى الذى يمتد نطاقه من شمال البحيرات المرة وحتى بورسعيد .
وكانت كل المعلومات تؤكد لنا أن المعركة تسير كما كان مخططًا لها تمامًا ، وكأن القوات تمارس مشروعًا من مشاريعها التدريبية ، ولقد توجهنا إلى معبر الفردان شمال الإسماعيلية وهو الذى استطاعت وحدات الكبارى فى سلاح المهندسين أن تقيمه فى ست ساعات ، ومكن الدبابات المصرية من العبور إلى الضفة الشرقية لمشاركة المشاة فى صد الهجمات المضادة للدبابات الإسرائيلية .

كان المعبر فى ذلك الوقت مزدحمًا بعبور أرتال العربات المحملة بالذخيرة إلى الضفة الشرقية ، وكان علينا أن ننتظر عودة أحد اللنشات من الشاطئ الشرقى ليتولى نقلنا . ولقد استغرقت فترة الانتظار ما يقرب من عشرين دقيقة كانت عامرة بالمشاعر الفياضة التى أعجز عن وصفها . كان الشاطئ الشرقى أمامنا ترتفع عليه الأعلام المصرية بعد ست سنوات من الانتظار وكان يعج بالحركة الدءوبة للجنود المصريين . لقد عبرت قواتنا القناة إذن وها هى ذى أرتال الذخيرة أمامى تعبر الكوبرى بانتظام مذهل تحت إشراف الشرطة العسكرية ، وكأنها تعبر أحد الكبارى إلى ميدان التحرير فى العاصمة . وكانت المدفعية المعادية طويلة المدى من عيار ١٧٥ مم تحاول إصابة الكوبرى لمنع تدفق القوات والإمدادات إلى سيناء . كانت القنابل تتساقط من حوله ولكنها تعجز عن إصابته ، وتتوالى الانفجارات عند منطقة دخوله ولكن

سائقى اللوريات مستمرون فى قيادة عرباتهم دون أن تطرف لهم عين رغم ما يحملونه فى شاحناتهم من ذخيرة تكفى لفنائهم فى غمضة عين . قلت فى نفسى إذا كانت هذه الأرتال هى مجرد أرتال إدارية وبهذا المستوى من الانضباط والثبات والإصرار فما بال المقاتلين فى الأمام ؟!

وأخيرًا عبرنا القناة وتوجهنا إلى قيادة الفرقة الثانية المشاهة . كانت إحدى كتائب مدفعية هذه الفرقة تربض خلفنا بنحو كيلو مترين وتتعرض لقصف مدفعى مكثف من العدو ، ورغم حدوث خسائر بها فإنها لم تكف لحظة عن الاشتباك إلا عندما صدر لها الأمر بالانتقال إلى موقع تبادلى .

كمائن أبو سعدة وأسر عساف

وفى قيادة الفرقة الثانية كان العميد أ.ح حسن أبو سعدة يدير معركته ، بينما كان الجنرال آدن على الناحية الأخرى يعد هجومًا مضادًا بفرقته المدرعة . وتوالى سقوط القوات المهاجمة فى الكمائن التى نصبتها لها الفرقة الثانية التى تمكنت فى خلال نصف ساعة من أن تدمر سرية دبابات بالكامل ، وأن تشتت باقى الهجمات وأن تفقدها فاعليتها . وفى حوالى الساعة العاشرة أصدر الجنرال آدن أوامره بالاستيلاء على ثلاثة من الجسور المصرية شمال البلاح وعند الفردان وأمام الإسماعيلية ، فأمر اللواء ١٤ المدرع بالهجوم فى اتجاه الفردان ، وكانت إحدى كتائبه يقودها العقيد عساف ياجورى وهى الكتيبة المدرعة المدعمة ١٩٠ . وقد استطاعت أن تحدد مواقع الحدود الأمامية للفرقة الثانية فاندفعت لمواجهتها .

ووقفنا فى قيادة الفرقة نراقب وصول المعلومات إلى قائدها من عناصره الأمامية ، وهى تتوقع هجومًا مضادًا من أحد الألوية المدرعة الإسرائيلية . ولقدتعرفنا منه على الموقف فى مواجهة الفرقة ، ثم استمعنا إلى قراره لصد الهجوم المضاد الذى تقوم به كتيبة مدرعة إسرائيلية اندفعت من خلال ثغرة قدرها ٥٠٠ متر هى والمدفعية المجنزرة المصاحبة لها ، على جنوب الطريق المرصوف ، بهدف تدمير القوات المواجهة والوصول إلى النقطة الحصينة من خط بارليف عند الفردان . كانت هذه النقطة الحصينة لم تسقط بعد حتى وقت الهجوم ، وكانوا يأملون فى الاستعانة بها بعد تدعيمها فى تدمير المعابر التى فى مواجهتها .

إلا أن الفرقة الثانية أقامت كمينًا من الصواريخ والدبابات فى الاتجاه المنتظر لتقدم الكتيبة ١٩٠ إلى نقطة الفردان .

وصدرت الأوامر للكمين بألا يفتح النيران إلا بعد دخول كل القوة الإسرائيلية إلى العمق ،



مع اللواء أبو سعدة قائد الفرقة الثانية مشاة أثناء اتخاذ قرار بصد هجمات
كتيبة عساف ياجورى بحضور الفريق سعد الدين الشاذلى

فسمحت قوات الكمين لسرية معادية من ١١ ـ ١٢ دبابة بالمرور دون مقاومة ، حتى وصلت هذه السرية إلى قرب القناة ، بينما كان باقى قوة الكتيبة ١٩٠ قد دخل إلى عمق احتوائه . ويجدر التنويه هنا بأن عدد الدبابات ومدافع الاقتحام المجنزرة المصاحبة للكتيبة ، كان يشكل مجموعة لا تقل عن ١٠٠ ـ ١١٠ دبابة ومدفع اقتحام ، وهو حجم أراه عذرًا فى تسمية هذه المجموعة باللواء ١٩٠ المدرع عند إذاعة خبر تدميرها فيما بعد .

وبدخول الكتيبة إلى الخط الذى حدده قرار قائد الفرقة ، فتحت عليها نيران الدبابات والصواريخ المضادة للدبابات من وحدات التعاون الوثيق بالفرقة وكذا من دبابات اللواء ٢٤ المدرع الذى كان فى معاونتها . **ولقد بدأ الأمر بإطلاق النيران فجأة ، واستمر نحو عشر دقائق فقط ، بعدها كانت هناك أشلاء ٨٥ دبابة ومجنزرة مدمرة وسط ساحة القتال** ، وحاولت باقى الدبابات الانسحاب من هذا الجحيم فتمكنت النيران من إصابتها فى مؤخرتها .

وسقط عساف ياجورى فى الأسر ، عندما استطاعت سرية الدبابات التى يقودها النقيب عادل القرش أن تدمر دبابته فاضطر عساف إلى النزول منها ليقع فى أسر أفراد المشاة . وقد تم أسر الكثير من أطقم دبابات هذه المجموعة وكذا الكثير من الدبابات الصالحة للقتال بعد أن فر منها الجنود الإسرائيليون بمجرد تعطيلها أو تعثرها عن الحركة .

واتجهت بعد ذلك مع الفريق الشاذلى إلى قطاع الفرقة ١٦ مشاة وكان العميد أ. ح عبد رب النبى حافظ يقودها ، حيث كانت تدور هناك أشرس المعارك عند تل الشجرة وغيره من المواقع شرقى الإسماعيلية وذلك بالتعاون مع الفرقة الثانية المشاة . وكان موقع مركز قيادة العدو عند تل الشجرة (تبة الشجرة) يتميز بارتفاعه وتحكمه فى الطريق الأوسط بين الإسماعيلية وأبو عجيلة . ولذلك تكررت محاولات العدو دون جدوى لاستعادة هذا الموقع بهجمات مضادة شرسة تعاونت فى صدها الفرقتان ، وباءت كل المحاولات بالفشل كذلك فى غيره من المواقع الأخرى فى رءوس الكبارى ، ولم يتمكن بالمرة من الوصول إلى قيادة الفرقة ١٦ .

واقتصرت زيارتنا فى ذلك اليوم على المرور على بعض الوحدات فى هذا القطاع الذى يعتبر هو وقطاع الفرقة الثانية المشاة ، قطاع المجهود الرئيسى للجيش الثانى الميدانى . غير أننى أذكر أنى فى زيارة أخرى لهذا القطاع يوم ٢٢ أكتوبر عند إيقاف إطلاق النار ، رأيت حول تل الشجرة ما يقرب من ١٩ دبابة إسرائيلية مدمرة وكان بعضها على بعد بضعة أمتار من الدفاعات المصرية ، حيث تبين بوضوح إصرار إسرائيل على استرداد الموقع ، واستبسال المصريين فى الاحتفاظ به .

وفى مساء يوم ٨ أكتوبر كانت الفرقة الثانية المشاة ، قد تمكنت من استغلال النجاح والاستيلاء على خط المهمة التالية بعمق حوالى ٨ ـ ١٠ كيلو مترات . كما تمكنت من الاستيلاء على نقطة العدو الحصينة عند الفردان . وفى خلال الليل قامت بتصفية النقطة الحصينة عند نمرة ٦ الإسماعيلية شرق . أما الفرقة ١٦ المشاة فقد طورت هجومها شرقًا لتحقيق المهمة التالية قبل الغروب ، حيث اكتشفت إحدى النقط الحصينة جنوب غرب الطالية . وفى خلال الليل قامت بتدمير هذه النقطة واستولت على وثائقها التى كانت تحتوى على معلومات هامة عن اتجاهات الهجمات الإسرائيلية . كما استولت على عدد كبير من الأسلحة والمعدات . وبالمثل تمكنت الفرقة من الاستيلاء ليلاً على النقطة الحصينة فى الدفرسوار ، وكانت نقطة منيعة التحصين وتقع عند التقاء البحيرات المرة مع قناة السويس . وأسرت الفرقة العديد من الضباط والجنود فى هذه النقط التى كان بداخلها أيضًا أكثر من ٢٠ جثة علاوة على عدد من أفراد هيئة الرقابة الدولية . وفى الوقت نفسه كانت الفرقة ١٨ مشاة بقيادة العميد أ. ح فؤاد عزيز غالى قد استطاعت فى القطاع الشمالى من الجيش نفسه أن تحقق المهمة التالية دون أن تصطدم أثناء تقدمها بمقاومة تذكر . فقد كان التركيز الأساسى للعدو قاصرًا على مواجهة الهجوم الرئيسى للجيش الثانى باتجاه الفرقة ٢ ، ١٦ . ومما يذكر أنه فى هذا القطاع الشمالى بالذات ، استولت قواتنا بعد ذلك على عدد كبير من دبابات العدو وهى فى حالة سليمة تمامًا ومن طراز م ٦٠ أ ٣

الأمريكية الصنع . وقد لوحظ أن بعضها جديد تمامًا ولم يقطع مسافة تزيد عن ١٥٠ ميلا ، وكانت لا تزال تحمل علامات الجيش الأمريكى . وبتحليل بسيط لهذه المسافة تجد أنها هى المسافة المقطوعة بين مستودعات الجيش فى أوربا ومطارات الإقلاع فيها بالإضافة إلى المسافة بين مطار الجورة برفح والعريش وبين القنطرة وجبهة القتال . وكانت الولايات المتحدة قد أقامت جسرًا جويًا هائلاً بين كل من أوربا والولايات المتحدة وإسرائيل لنقل المعدات العسكرية . ويعتبر هذا الجسر أكبر جسر جوى فى التاريخ . وقد أخليت هذه الدبابات سليمة إلى القاهرة حيث عرضت بعد الحرب فى معرض الغنائم بالجزيرة . وهى معروضة الآن فى بانوراما حرب أكتوبر بطريق صلاح سالم .

قتال الجيش الثالث

وفى نفس هذا اليوم قام الجيش الثالث بقيادة اللواء أ. ح عبد المنعم واصل بتطوير هجوم فرقتيه المشاة ١٩ ، ٧ واحتلال خوط مهامها التالية وذلك رغم كافة محاولات العدو لعرقلة هذا التقدم بما شنه من هجمات متفرقة بالدبابات وبقصف مركز من المدفعية . واستطاعت الفرقة ١٩ مشاة بقيادة العميد أ.ح يوسف عفيفى وبمساعدة المدفعية والطيران المصرى من تحقيق المهمة التالية بعد قيام أحد ألويتها باقتحام نقطة ملاحظة تتبع لقوات المراقبة الدولية ، وكان بداخلها ضابط إسرائيلى يقوم بتوجيه نيران المدفعية ضد القوات المصرية التى تهاجم النقطة الحصينة المسماة « مافزيه » ، وكانت هذه القوات المصرية تحاصر هذه النقطة منذ العبور . وبعد اقتحام هذه النقطة وتطوير الهجوم ، تم الاستيلاء على الخط بين جبل أبو غلام وجبل المر بعمق ٨ ـ ٩ كم شرق القناة . كما استطاعت الفرقة السابعة بقيادة العميد أ.ح أحمد بدوى من تطوير هجومها ، ولكنها لم تحقق المهمة التالية إلا فى مساء اليوم التالى بعد أن استعانت باللواء ٢٥ المدرع المستقل الملحق عليها ، إذ كان العدو يتخذ من مواقعه عند تقاطع طريق الشط مضيق الجدى قاعدة لانطلاق قواته لشن الهجمات المضادة لوقف تقدم الفرقة . ولقد تحققت المهمة بمعاونة الكتيبة ٦٠٣ من اللواء ١٣٠ المشاة الميكانيكى البرمائى ، وكانت هذه الكتيبة قد عبرت منذ اللحظات الأولى للحرب عن طريق البحيرات المرة ، ولكنها توقفت ولم تتمكن من تنفيذ مهمة الاستيلاء على المدخل الغربى لمضيق متلا .

وكانت خطة القيادة الإسرائيلية بعد فشل الهجوم يوم ٨ ، أن تتخذ القوات الإسرائيلية أوضاع الدفاع على الجبهة المصرية إلى حين تسوية الموقف فى الجولان على الجبهة السورية، على أن تقوم القوات الإسرائيلية بوقف تطوير القوات المصرية لهجماتها شرقًا . وقد استخدمت

القوات الإسرائيلية فى ذلك المدفعية والطيران علاوة على إقامة ستائر من الصواريخ المضادة للدبابات. وأسندت مهمة مشاغلة وتثبيت القوات المصرية إلى بعض كتائب وسرايا الدبابات.

وقامت القوات الإسرائيلية بتركيز هجماتها التى وصلت إلى الهجوم بلواء مدرع على قطاع الفرقة ١٦ المشاة ، وخاصة الجزء الجنوبى منه فى اتجاه الطالية واتجاه النقطة ٥٧ التى سقطت فى أيدى الفرقة ١٦ فى اليوم السابق . وكان التركيز الإسرائيلى فى هجماته المدرعة يوم ٩ أكتوبر على القطاع الجنوبى للفرقة ١٦ ،حيث نقطة الاتصال بين الجيشين الثانى والثالث ، والقطاع الشمالى للفرقة حيث نقطة الاتصال بين الفرقة ١٦ والفرقة ٢ مشاة .

واستطاعت الفرقة ١٦ أن تصد الهجمات المضادة للعدو فى ذلك اليوم بمعاونة فعالة من مدفعية واحتياطى الجيش الثانى وكبدت العدو خسائر جسيمة فى مدرعاته . وبرغم استطاعة العدو إعادة احتلال النقطة ٥٧ إلا أنه طرد منها للمرة الثانية ليلة ٩ ـ ١٠ وقد أبلت الدبابات المصرية بلاء حسنًا فى هذه المعارك سواء الدبابات العضوية فى الفرقة أو دبابات اللواء ١٤ المدرع الملحق من الفرقة ٢١ المدرعة أو العربات من طراز ب.م.ب المسلحة بالصواريخ المالوتكا المضادة للدبابات فى كتائب المشاة الميكانيكية .

والمتتبع للمعارك فى هذا القطاع ، يمكنه أن يدرك أن هذا القطاع نفسه هو الذى وقع فيه العبور الإسرائيلى إلى الضفة الغربية عند حدوث الثغرة بعد ذلك بأيام فى الفاصل بين الجيشين الثانى والثالث أى فى الطرف الجنوبى من هذا القطاع .

ولقد قام الجنرال شارون فى هذا اليوم بعدة هجمات ، قيل بعد الحرب إنه قام بها بغير أوامر، وكان ذلك فى اتجاه النقط الحصينة أمام الإسماعيلية ، ورغم أنه قد منى بخسائر جسيمة فى دباباته ، إلا أن وحدة الاستطلاع التابعة لفرقته استطاعت أن تصل إلى شاطئ البحيرات المرة أثناء قيامها بعملها حول المزرعة الصينية [1] عند قرية الجلاء ، وتم ذلك خلال ساعات الليل لتثبت بشكل ما أن هناك ثغرة ما بين الجيشين الثانى والثالث فى هذا القطاع .

---

(١) هذه المزرعة فى الحقيقة هى مزرعة نموذجية تابعة لوزارة الزراعة المصرية ، وقد استخدمت فيها معدات يابانية ومضخات لنقل المياه . وقد سميت خطأ بالمزرعة الصينية إمعانًا من إسرائيل فى الدعاية ضد مصر وتعاونها مع الدول الشيوعية .

الفصل الأربعـــون
التدخل الأمريكى

بعد أن نشر كيسنجر مذكراته فى البيت الأبيض وأفصح فيها صراحة عن دور الولايات المتحدة فى حرب عام ٧٣ ، وبعد أن نشر أيضًا دافيد أليعازار رئيس أركان حرب القوات الإسرائيلية مذكراته التى أوضح فيها خبايا هذا الدور، ثم تبعه عدد آخر من القادة الإسرائيليين والكتاب الغربيين ، أعتقد أن أى باحث تاريخى يرغب الآن فى وضع تاريخ مفصل لهذه الحرب سوف يجد نفسه مسوقًا إلى أن يقسم تاريخ أحداث هذه الحرب إلى مرحلتين منفصلتين :

المرحلة الأولى : أيام الحرب التى سبقت التدخل العسكرى الأمريكى .

المرحلة الثانية : الأيام التى لحقت هذا التدخل .

المقصود بالتدخل العسكرى الأمريكى

وقد يعتقد الكثيرون أن التدخل العسكرى الأمريكى ، هو مجرد تدخل اقتصر على إمداد إسرائيل بالأسلحة خلال جسر جوى أثناء المعركة ، وإنما الحقيقة أن التدخل العسكرى الأمريكى كان له عدد من الأشكال التى لولاها لتحققت الصورة الكئيبة التى تراءت أمام رئيسة وزراء إسرائيل ، عندما أرسلت نداءها المشهور إلى كيسنجر « أنقذوا إسرائيل Save Israel » ، بعد أن لاح أمامها وأمام ديان شبح الهزيمة مرددين أن الطريق أصبح مفتوحًا أمام العرب إلى تل أبيب . كان ذلك فى اليوم الرابع للحرب عندما طلبت جولدا مائير أن تسافر إلى الولايات المتحدة لتقابل نيكسون بنفسها لتضع أمامه حقيقة الموقف العسكرى المنهار ، وحتى يستجيب إلى طلبها بإمداد إسرائيل بالطائرات الفانتوم والدبابات التى كانت قد فقدت منها حتى ذلك اليوم أكثر من ٥٠٠ دبابة على الجبهتين . **وعندما علم نيكسون فى ذلك اليوم بحقيقة**

موقف إسرائيل أمر بإقامة الجسر الجوى وإرسال السلاح المطلوب إلى إسرائيل على الفور .

والحقيقة أن مساعدة الولايات المتحدة لإسرائيل للتأثير على مسار الحرب لم تبدأ منذ اليوم الرابع (٩ أكتوبر) ، وإنما بدأت منذ اليوم الأول بوسائل مختلفة يمكن حصرها فى العناصر السبعة التالية :

١ ـ التشاور العسكرى بالخطط مع البنتاجون الأمريكى (تليفونيا)

يقول أليعازار فى ذلك إن الاتصال كان مفتوحًا دائمًا بين القيادة الإسرائيلية ووزارة الدفاع الأمريكية للتشاور فى الموقف العسكرى أولاً بأول .

وعندما حدث اجتياح القوات المصرية لخط بارليف ، طلبت إسرائيل يوم ٦ أكتوبر من أمريكا إبداء الرأى العاجل فيما حدث وتزويدهم بالخطط التى يراها البنتاجون صحيحة ومناسبة لمواجهة هذا الموقف . وردت الولايات المتحدة بضرورة الانتظار قليلاً حتى يتم للخبراء الأمريكيين تقييم الموقف بعد عبور المصريين للقناة . وبعد أن انتهت العقول الأمريكية من تدارس الموقف نصحت إسرائيل ببذل كل جهدها لتحطيم رءوس الكبارى المصرية خلال ساعات النهار من صباح اليوم التالى (٧ أكتوبر) مع توجيه ضربة قوية لشبكة الصواريخ سام ٦ ، ولكن مع تجنب القتال المباشر فى المعارك ، وهذا ما فعلته إسرائيل بالضبط فى يوم ٧ أكتوبر ولكنها فشلت فيه ، وبذا لم تتحقق خطة العسكريين الأمريكيين التى كانت تأمل فى إعادة القوات المسلحة المصرية إلى مواقعها الأولى فى غرب القناة .

٢ ـ المشاركة المباشرة فى خطط إسرائيل المضادة

عندما اتضح للعسكريين الأمريكيين عجز القوات الإسرائيلية عن صد القوات المصرية وإعادتها للوراء ، دفع البنتاجون بواحد من مسئوليه العسكريين الأمريكيين ليصل إلى إسرائيل فجر يوم ٨ أكتوبر (اليوم الثالث للحرب) على طائرة خاصة للاشتراك فى التخطيط لمواجهة الموقف الإسرائيلى المتدهور على الجبهتين .

ولقد ذكر أليعازار فى مذكراته أن هذا المسئول جاء إليهم يحمل خطة عسكرية عرضها على رئاسة الأركان فور وصوله ـ وكان المسئول يحمل كذلك مجموعة من التقارير والصور الخاصة بالمعارك التقطها القمر الصناعى الأمريكى ، وكانت الخطة تقضى بتوجيه ضربة مكثفة على إحدى الجبهتين فقط ، وأن تركز جهودها واحتياطياتها على هذه الجبهة . واقترحت الخطة أن تتم كالآتى :

(أ) توجيه ضربة لسلاح المدرعات وكل الدبابات الموجودة على الضفة الشرقية لشل فعاليتها، ثم عمل اختراق بعد ذلك لضرب رءوس الكبارى وعزل هذه القوات .

(ب) محاولة جذب القوات الجوية المصرية لمعارك بعيدة عن أرض المعركة (أى العمل ضد العمق المصرى باتجاه الكثافة السكانية مثل بورسعيد والمنزلة والمنصورة . . إلخ) حيث يكون عمل الصواريخ سام ٦ مقيدًا ومحدودًا .

ومما يذكر أن اليوم الذى وصل فيه المسئول الأمريكى ، كان أسوأ يوم شهدته إسرائيل فى القتال، فلقد سقطت فيه مدينة القنطرة شرق فى أيدينا بعد أسر حاميتها والاستيلاء على أسلحتها .

كما تم تحطيم جميع الضربات المضادة الإسرائيلية . وهو الأمر الذى جعل هذا المسئول يعود محبطًا إلى واشنطن للبحث عن أوجه تدخل جديدة للتأثير فى المعركة .

٣ ـ المعاونة بالاستطلاع عن طريق القمر الصناعى

ولقد وضح صراحة فى مذكرات أليعازار كيف حضر المسئول العسكرى الأمريكى وهو يحمل معه صورًا خاصة بالمعارك التقطها القمر الصناعى الأمريكى ومجموعة من التقارير الخاصة بهذا الاستطلاع ، وكان القمر الصناعى يداوم على متابعة المعركة ساعة بساعة مع إرسال التقارير بعد تحليلها فورًا إلى إسرائيل .

٤ ـ إرسال قطع غيار ومعدات ألكترونية وأسلحة متطورة بواسطة طائرات العال المدنية

يحكى كيسنجر أن السفير الإسرائيلى دينتز أيقظه من نومه مرتين بعد منتصف الليل يوم ٩ أكتوبر ليسأله عما تستطيع أمريكا عمله لإمداد إسرائيل بالأسلحة والمعدات .

ويقول كيسنجر إنه حتى ذلك اليوم كانت إسرائيل قد حصلت على جميع طلباتها العاجلة من الذخيرة والمعدات الألكترونية المتطورة .

ولقد اشتملت هذه المعدات على أحدث الأسلحة التى كانت ما زالت فى دور التجريب **مثل الصواريخ المضادة للدبابات من طراز تاو Tow ، والقنبلة التلفزيونية** ـ وهى صاروخ تم تطويره فى اليابان لحساب أمريكا ـ وقنبلة المافريك وصواريخ سيدوند . وكان نقل كل هذه المعدات يتم بالطائرات الجامبو الثمانى التابعة لشركة العال المدنية .

وبدخول القنبلة التلفزيونية المعركة حدث تطور خطير ضد وحدات دفاعنا الجوى . فلقد

استطاع صاروخان أمريكيان أن يعطلا بطاريتين مصريتين تعطيلاً كاملاً بعد يوم ١٣ ، فى حين كانت طائرات الفانتوم قبل ذلك تعجز تمامًا عن إصابة وحداتنا بأى خسارة تذكر ، وهى التى أسقطت ثلث السلاح الجوى الإسرائيلى فى الأيام الأولى للمعركة ، الأمر الذى دعا القيادة الإسرائيلية إلى أن تصدر أمرًا للطائرات الإسرائيلية فى اليوم الثالث للحرب بعدم الاقتراب من جبهة القتال فى سيناء .

٥ ـ تعويض إسرائيل عن كل ما تفقده من طائرات الفانتوم ودبابات م ـ ٦٠ باستخدام طائرات أمريكية تهبط فى العريش وإسرائيل

ولقد بدأ هذا الجسر الجوى عمله بالفعل اعتبارًا من يوم ٩ أكتوبر وبدأت بعض الإمدادات العسكرية الأمريكية تصل ليتم تفريغها فى مطار العريش رأسًا ، وهو إجراء عسكرى مباشر لا يمكن اعتباره من وجهة نظر القانون الدولى إلا عملاً من أعمال الحرب التى لا تقدم عليه الدول إلا فى حالة الحرب المعلنة !

ومما يذكر أن أمريكا فى حالات تواطئها مع إسرائيل فى عهد جونسون ، لم تجرؤ على القيام بمثل هذا العمل العدائى المباشر . ومنذ الأيام الأولى للقتال لم تكتف إسرائيل بطائرات الجامبو المدنية لشركة العال ، ولكنها حاولت استئجار طائرات نقل مدنية أمريكية ، غير أن شركات الطيران رفضت التعاون مع إسرائيل خوفًا من المقاطعة العربية .

ولذلك اتجه التفكير الأمريكى إلى استخدام طائرات النقل العسكرية الأمريكية لنقل الأسلحة والمعدات إلى جزر الأزور فى المحيط الأطلنطى (التابعة للبرتغال) ، ومنها تنقلها طائرات العال وأى طائرات مدنية أخرى إلى إسرائيل . وبذلك تستفيد إسرائيل من قصر المسافة وتعدد رحلات النقل . ولكن اتضح أن هذا الأسلوب لن يحقق السرعة المطلوبة لنقل كميات أسلحة بهذه الضخامة . ولذلك اتخذ الرئيس نيكسون بنفسه فى صباح يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر قرار إنشاء الجسر الجوى الأمريكى (بعد نداء جولدا مائير ، أنقذوا إسرائيل) الذى تزايدت كثافته بعد يوم ١٣ أكتوبر ، حيث كانت إسرائيل قد استنفدت مخزونها الإستراتيجى من السلاح .

والملاحظ أنه بمجرد حصول إسرائيل على وعد بتعويض المستهلك من السلاح (وبالذات من الطائرات والدبابات) ، بدأت تشن هجماتها الشرسة فى الجو بالطائرات وعلى الأرض بالمدرعات فى كلا الجبهتين بأعداد وكثافات ضخمة لتضمن التفوق الكامل المحلى على جبهة سوريا ثم بعد ذلك على الجبهة المصرية وفى العمق ، وقد أيقنت أن ما تفقده من دبابات أو

طائرات فإنها ستقوم باستعواضه فى الحال من مخازن حلف الأطلنطى فى أوربا أو فى الولايات المتحدة(١) .

٦ ـ إمداد إسرائيل بطيارين أمريكيين مزدوجى الجنسية

وذلك لتعويض الطيارين الإسرائيليين الذين سقطت طائراتهم فى المعارك الجوية على الجبهتين ، وللعمل على الطائرات الجديدة الإضافية التى ترد عبر الجسر الجوى ، وبالذات طائرات الفانتوم التى تساقطت منها أعداد رهيبة . ولقد لوحظ على بعض هؤلاء الطيارين الجدد عندما وقعوا فى الأسر أنهم لم يكونوا قد أقاموا فى إسرائيل إلا بضع ساعات فقط !

٧ ـ الاستطلاع بطائرة ـ أمريكية من طراز س ر ـ ٧١

وكانت تطير على ارتفاع أعلى من ٢٥ كيلو مترًا ، وبسرعة تصل إلى ثلاثة أمثال سرعة الصوت ، ولقد قامت هذه الطائرة باختراق مجالنا الجوى يوم ١٣ أكتوبر بادئة خط طيرانها من البحر الأبيض لتطير فوق جبهة القناة كلها من بورسعيد إلى العريش ومنها إلى منطقة البحر الأحمر لاستطلاع موانى الغردقة وسفاجة وكل مطاراتنا ووسائل الدفاع الجوى بالمنطقة ثم التفت غربًا إلى الوجه القبلى فوق مدينة قنا ثم شمالاً إلى الدلتا لاستطلاع باقى مطاراتنا ووسائل الدفاع الجوى والاحتياطيات . وبعد أن استكملت رحلتها عادت إلى البحر المتوسط لتهبط فى

---

(١) جاء فى تقرير مراقب عام الدولة الأمريكى بخصوص الجسر الجوى لإسرائيل عام ٧٣ أن أمريكا استخدمت ٢٢٨ طائرة نقل نفذت ٥٦٩ طلعة وصلت إلى إسرائيل تحمل ٢٢,٥ ألف طن من الاحتياجات بمعدل ٢٣ طائرة فى اليوم الواحد كحد أقصى لاعتبارات سياسية قدرها وزير الدفاع الأمريكى .

واستمر الجسر الجوى ٣٣ يوما من ١٣ أكتوبر إلى ١٤ نوفمبر عام ٧٣ . (ولقد تم نقل حوالى ٤٠٪ من هذه المعدات فى فترة الأيام العشرة التى حدثت فيها الثغرة بين يوم ١٣ إلى ٢٤ أكتوبر) .

كما أنشأت أمريكا جسرًا بحريًا لنقل المعدات الكبيرة الحجم حيث وصلت أول سفينة إلى إسرائيل فى يوم ٢ نوفمبر عام ١٩٧٣ بحمولة قدرها ٣٣٢١٠ طنا من الدبابات والمدافع والعربات ـ ولقد تكلفت عملية الجسر الجوى الأمريكى لإسرائيل ٨٨,٥ مليون دولار .

وكان أبرز أنواع الأسلحة والمعدات والذخائر التى شحنت لإسرائيل :محركات الطائرات الفانتوم وأجنحتها ومستودعات قنابل جو / أرض ـ ومجموعة أجزاء طائرات سكاى هوك ومعدات نظام دفاع جوى من أطرزة مختلفة وصواريخ جو / أرض وعبوات إعاقة ومعدات فنية لصيانة محركات الطائرات .

هذا بخلاف الدبابات نفسها والمدفعية ومواسير المدافع وذخيرة الدبابات . . إلخ . ويقول السادات إنه بعد استخدام الأمريكان لمطار العريش لاحظ أثناء متابعته الحرب فى غرفة العمليات ، أنه كلما أصيبت لإسرائيل عشر دبابات يرى المزيد من الدبابات بين صفوفهم برغم ما أفنيناه من الدبابات التى كان يقودها قائد الدبابات الإسرائيلى ماندلر الذى قتل بعد أن أرسل باستغاثته .

قاعدتها بأوربا . ولم تستطع بالطبع وسائل دفاعنا الجوى أن تعترض هذه الطائرة أو تسقطها لأنها كانت تطير خارج مدى صواريخ الدفاع الجوى كما أن مقاتلاتنا لم تكن تستطيع اللحاق بها لفارق السرعة .

ويقول المشير الجمسي : وهكذا أصبحت أوضاع وحجم قواتنا بالجبهة وفى عمق الدولة كتابًا مفتوحًا أمام إسرائيل . وكان ذلك أول تدخل عسكرى أمريكى يتم بطريقة مباشرة سافرة لصالح إسرائيل ، بالإضافة إلى عملية الجسر الجوى الذى استخدم مطار العريش .

هذا وقد قامت طائرة الاستطلاع الأمريكية نفسها باستطلاع منطقة القناة للمرة الثانية يوم ١٥ أكتوبر ، وبعدها مباشرة دارت معركة الدفرسوار على الشاطئ الغربى للقناة والتى عرفت باسم الثغرة .

التدخل الأمريكى السياسى

ولم تكتف الولايات المتحدة بأعمال التدخل العسكرى المباشر وغير المباشر السابقة والتى قامت بها للتأثير على سير المعارك ، وإنما لجأت أيضًا إلى مجموعة من الأعمال والإجراءات السياسية التى تخدم معركة إسرائيل . فمنذ اليوم الأول للحرب كون كيسنجر فريق عمل يقوم بالتخطيط السياسى للمعركة ، واتجه هو بنفسه إلى السعودية والأردن ليمنع توسيع قاعدة العمليات العسكرية على المستوى العربى . وطلب من الملك فيصل عدم اشتراكه فى الحرب الدائرة ، بل طلب إليه يوم ٦ أكتوبر أن يتدخل بشخصه لدى مصر وسوريا بغرض وقف القتال .

وللحق لقد رفض الملك فيصل المبادرة الأمريكية ، وبعث برسالة إلى الرئيس السادات يؤكد فيها له وقوفه بجانب مصر بكل إمكانياته .

أما بالنسبة للملك حسين فقد اتصل به كيسنجر فى وقت لاحق من الحرب (يوم ١٢) وناشده عدم دخول الحرب وعدم فتح جبهة جديدة يهاجم منها إسرائيل على طول شواطئ الأردن ، وكان قد علم أن الملك حسين[١] يدرس إمكانية إرسال قوة مدرعة إلى الجبهة السورية لدعمها .

---

(١) مما يذكر فى هذا الصدد أن عيزر فايتسمان وزير الدفاع الإسرائيلى كان دائمًا يردد لى بعد توقيع اتفاقية السلام أن الملك حسين أخطأ مرتين : الأولى عندما اشترك فى حرب عام ٦٧ ففقد الضفة الغربية ، والثانية حين لم يشترك فى حرب عام ٧٣ لاستردادها .



هنرى كيسنجر



أليكسى كوسيجين

ع لم ينس كيسنجر الضغط على مصر مباشرة لوقف القتال من أول لحظة حيث طلب ر الزيات سفيرنا فى الولايات المتحدة يوم ٦ أكتوبر وقف العمليات الحربية وعودة فين إلى خطوطها الأولى ! إلا أن الدكتور الزيات رفض المنطق الأمريكى إلا إذا كان ة إلى خطوط ٥ يونيو عام ١٩٦٧ .

اولة أخيرة للضغط على مصر ، طلب السفير البريطانى بالقاهرة مقابلة عاجلة مع سادات فى فجر يوم ١٣ أكتوبر حيث أبلغه أن كيسنجر طلب من مستر هيث رئيس انيا التأكد من موافقة السادات على وقف إطلاق النار ـ وكان الاتحاد السوفييتى قد الموافقة إلى أمريكا دون الرجوع إلى الرئيس السادات الذى اعترض على هذه المبادرة يات المتحدة أنه لن يوافق على وقف إطلاق النار إلا بعد إتمام المهمة التى تتضمنها

ظ أن هذه المقابلة تمت فى اليوم الذى بدأت فيه الولايات المتحدة تكثيف جسرها وكأنما كانت تريد أن تستعيد لعبة وقف إطلاق النار وهدنات عام ١٩٤٨ التى إسرائيل لحسابها ريثما تلتقط أنفاسها ويتم إمدادها بالسلاح ، أى لعبة الحرب لمريح .

كان الرئيس السادات محقًا عندما قال ليلة ١٩/ ٢٠ : « لقد مضت عشرة أيام كنت ارب فيها أمريكا بأسلحتها الحديثة التى لم تستخدم من قبل ، ولهذا السبب قبلت ق النار فى هذه الليلة فقط ، وتم إبلاغ كيسنجر فى موسكو بهذه الموافقة » .

وكان كيسنجر قد سافر إليها لترتب الدولتان العظيمتان قرار وقف إطلاق النار فى مجلس الأمن الذى صدر بالفعل يوم ٢٢ أكتوبر، ولم تحترمه إسرائيل « كالعادة » حتى يوم ٢٨ أكتوبر.

التدخـل السـوفييتى

وفى الوقت الذى كانت الولايات المتحدة تقوم فيه بمد يد المساعدة العسكرية والسياسية لإسرائيل لتضمن عدم هزيمتها بل ولتحول هزيمتها إلى أى قدر ولو محدود من الانتصار على إحدى الجبهتين (مثل تجاوز خط وقف القتال القديم فى سوريا أو اختراق رءوس الكبارى لتهديد مدن القناة على الجبهة المصرية) ، فى ذلك الوقت كان يحدث تدخل من نوع آخر على سير القتال من الاتحاد السوفييتى يهدف إلى إيقاف القتال من أول لحظة والعودة إلى موقف اللاسلم واللاحرب على الجبهتين .

يقول السادات إنه بعد أقل من ست ساعات من نشوب القتال وعبور قواتنا خط بارليف يوم ٦ أكتوبر ، طلب السفير السوفييتى مقابلته ليبلغه أن **حافظ الأسد طلب منهم يوم ٤ أكتوبر العمل على وقف إطلاق النار بعد ٤٨ ساعة على الأكثر من بدء العمليات** . ولذلك يطلب منه القادة السوفييت الموافقة على هذا الطلب . ولما شك الرئيس السادات فى الأمر ، اتصل بالرئيس الأسد الذى جاء منه الرد فى عصر اليوم التالى بأن هذا الذى يدعيه الاتحاد السوفييتى لم يحدث .

ويقول السادات فى ذلك إنه ظن فى بادئ الأمر أن السفير الروسى قد جاءه لكى يبلغه بموقف الاتحاد السوفييتى من دخولنا المعركة والذى أبلغهم به السادات قبل المعركة بيومين فى ٨ رمضان (٤ أكتوبر) ـ ثم جاء السفير يوم ٧ أكتوبر ليؤكد طلب الموافقة على وقف إطلاق النار فغضب السادات وطلب منه قفل هذا الموضوع ، وأنه لن يوافق على وقف إطلاق النار قبل أن تتحقق أهداف المعركة ، ثم ألح على السفير السوفييتى أن يبلغ قيادته فى موسكو أن يرسلوا إلينا دبابات على الفور « لأن هذه المعركة ستكون أكبر معركة دبابات فى التاريخ » . . خاصة وأن القتال كان شرسا فى يومى ٦ و ٧ وأن معركة الدبابات كانت قد بدأت بالفعل .

ثم يحكى السادات أن السفير السوفييتى كان يزوره يوميا فى مقره فى قصر الطاهرة لتبادل المعلومات ، ولكنه لم يكف عن الإلحاح على وقف إطلاق النار ، ويجيب عليه السادات مرددًا أن ذلك لن يتم قبل أن يحقق هدفه « **وهو ضرب نظرية الأمن الإسرائيلى** » .

وفى هذه الأثناء اتصل بريجنيف بالرئيس تيتو وطلب منه أن يتوسط عند السادات لكى يقبـل وقـف إطلاق النـار الذى طلبته سـوريا ثلاث مـرات حتى ذلك الوقـت ـ على زعمه ـ

وأضاف بريجينيف ـ والحديث للسادات ـ أن الرئيس السادات بإصراره على مواصلة القتال سوف يكون السبب فى كارثة تودى بالعالم العربى وبالنظم التقدمية وبالعالم أجمعه (١) .

وفى ١٣ أكتوبر وصل كوسيجين رئيس الوزراء بنفسه إلى مصر وقابل السادات ، وكان ذلك عقب مقابلة مباشرة للسفير البريطانى وإبلاغه بقراره برفض وقف إطلاق النار ، وكان المطلب الأساسى لكوسيجين هو وقف إطلاق النار كذلك .

ورفض السادات هذا الأمر كعادته حتى هذه الحظة . وراح ينتقد موقف الاتحاد السوفييتى بأكمله وسلوكهم معه فى هذه الحرب . فهم لم يوردوا إليه حتى الآن أى معدات وذخائر ذات قيمة وأن ما يوردونه حاليًا من ذخيرة هى الذخيرة التى سبق أن امتنعوا عن تعويض عبد الناصر بها فى حرب الاستنزاف عندما رفض مطالبهم من التسهيلات ، وحتى الكبارى التى بعثوا بها ، كان الكوبرى الواحد منها يحتاج إلى خمس ساعات تركيب ، فهى من عهد الحرب العالمية الثانية ـ بينما لديهم كبارى B M P يتم تركيبها فى نصف ساعة .

ويستمر السادات فى حديثه المتألم عن موقف كوسيجين قائلاً ، إنه لما حدثت الثغرة بعد ذلك أثناء وجوده فى مصر ذهب إلى زيارته وعلى وجهه علامات التشفى وقال له إن القاهرة أصبحت مهددة . فرد عليه السادات نافيًا أى تهديد للقاهرة . وأردف يسأله عن الدبابات التى طلبها منهم ! وهنا أجاب كوسيجين بأنهم ركزوا على توريدها إلى سوريا التى فقدت ١٢٠٠ دبابة فى يوم واحد .

وبينما كان القمر الصناعى الأمريكى يوصل المعلومات لإسرائيل ساعة بعد ساعة امتنعت « روسيا » كما يقول السادات عن تبليغنا بأى شىء تلتقطه بأقمارها الصناعية التى كانت تتابع المعركة منذ لحظة حدوثها ، رغم ادعائها بأنها تقف مع الحق العربى .

ولقد تم عرض تسجيل كامل للمعركة فى اللجنة المركزية السوفييتية ، وطلب السادات صورة منه ، لكنه لم يتلق منهم أى رد حتى يوم وفاته .

ويختم السادات حديثه عن موقف الاتحاد السوفييتى بقوله : « كان الموقف على غير ما يتصوره العالم . كان فى اعتقاد الجميع أن الاتحاد السوفييتى يقف إلى جانبنا وأنه أقام جسرًا

---

(١) يضيف السادات هنا فى كتابه البحث عن الذات : إن تيتو بناء على طلب السادات أرسل إلينا ١٤٠ دبابة وهى محملة بالذخيرة والوقود لكى تدخل المعركة مباشرة ـ وكان السادات قد طلبها منه على وجه السرعة لخبرته بأسلوب السوفييت معه ! وقد وصلت هذه الدبابات واستلمتها الأطقم المصرية واشتركت فى حصار الثغرة .

جويًا لنجدتنا ـ ولكن الموقف كان غير ذلك فى الواقع ـ فأمريكا وإسرائيل فى مواجهتى والاتحاد السوفييتى فى يده الخنجر ويقبع وراء ظهرى ليطعننى فى أية لحظة إذا فقدت ٨٥٪ أو ٩٠٪ من سلاحى كما حدث فى عام ١٩٦٧ » .

ويقول : عندما طار بومدين فى زيارة سرية لشراء سلاح نقدًا لصالحنا من الاتحاد السوفييتى صارحه بقوله :

إذا كان الأمريكان وإسرائيل يرغبون فى هزيمة أنور السادات قيراطًا واحدًا فإن الاتحاد السوفييتى يرغب فى هزيمته ٢٤ قيراطًا !

أثر التدخل الأمريكى والروسى على قرارات المعركة

يروى إدجار أوبالانس الكاتب البريطانى المشهور باعتداله فى كتابه « حرب يوم كيبور » أن موشى ديان ، وفقًا لرواية هرتزوج ، قال لجولدا مائير فى السابع من أكتوبر (أى فى اليوم الثانى للحرب) : اسمعى ياجولدا ـ لقد كنت مخطئًا فى كل شىء . إننا نتجه إلى كارثة ـ وسيتحتم علينا أن ننسحب من مرتفعات الجولان إلى حافة الجرف المطل على وادى الأردن ، كما علينا أن ننسحب فى الجنوب فى سيناء حتى الممرات ، ثم نقاتل حتى آخر رصاصة .

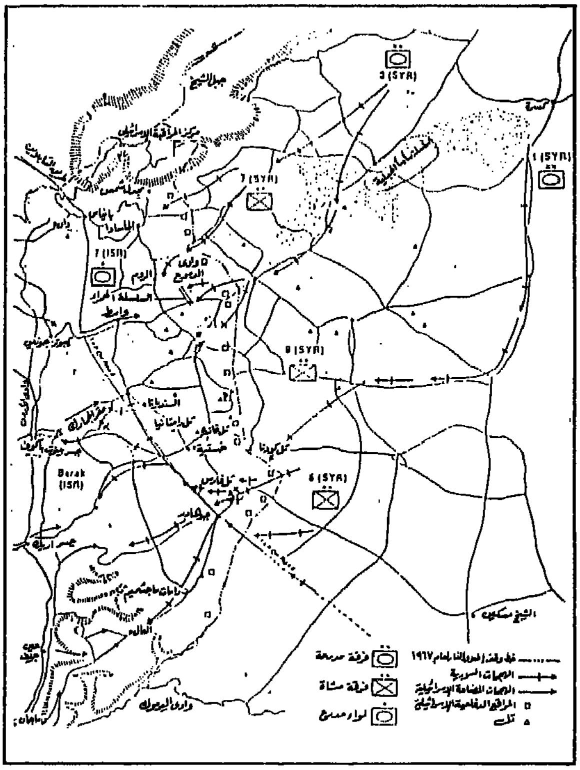
وواضح أنه حتى مساء هذا اليوم لم يكن مسئول البنتاجون الأمريكى قد وصل بعد ، ولم تكن العقول الأمريكية قد شحذت بعد قريحتها بالخطط ، ولم يكن نيكسون قد اتخذ بعد قراره بإقامة الجسر الجوى .

وقفة غريبة فى سوريا

ومع اشتداد القتال فى سوريا ونجاح الهجوم السورى فى اليومين الأولين للقتال واجتياحه لمعظم هضبة الجولان ، تقرر فجأة إيقاف القوات السورية التى نجحت فى الجزء الجنوبى من الهضبة . ويصف « أوبالانس » (١) هذا القرار بأنه واحد من أكثر القرارات إثارة للاهتمام والدهشة خلال الحرب ، فبهذا التوقف غير الضرورى ضاعت قوة دفع الهجوم ، وكان من الصعب استعادتها من جديد ـ **وعندما صدر أمر التوقف لهذه القوات فى الساعة ١٧٠٠ (الخامسة مساءً) يوم ٧ أكتوبر كان لا يزال هناك ساعة باقية من النهار ، وكان بمقدورها أن تصل إلى حافة الجرف للهضبة ، بل وربما إلى نهر الأردن نفسه** . ثم استمر التوقف السورى طوال الليل . وخلال ذلك الوقت وصل المزيد من الدبابات والمدافع والقوات الإسرائيلية .

---

(١) جعل أوبالانس عنوانًا رئيسيًا لكتابه عبارة No victor no vanqus hee وترجمتها الحرفية الحرب التى ليس فيها صيحات بالنصر أو الهزيمة . أو الحرب التى ليس فيها غالب ولا مغلوب .



هضبة الجولان والتقدم السورى

وكان الإسرائيليون يعانون من نقص الذخيرة والدبابات والمدافع ، كما كانوا قد خسروا أكثر من ٢٥٠ قتيلاً .

ثم قرر السوريون أن يتقدموا مرة أخرى فى اليوم التالى ، ولكنهم كانوا قد أضاعوا فرصتهم الأولية .

ويستمر أوبالانس فى سرده قائلاً لقد اعترف لى الفريق طلاس (رئيس الأركان السورى) أن هذا الأمر بالتوقف قد صدر بالفعل ولكنه لم يوضح ملابساته ـ واكتفى بأن قال : « إن الوقت ليس مناسبًا بعد لمناقشة أسباب هذا القرار » . وينفى أوبالانس أن يكون الأمر مرجعه إلى فقدان السيطرة أو ارتفاع الخسائر أو نقص الوقود أو تداعى الروح المعنوية كما يدعى الإسرائيليون ، وإنما يعزوه إلى روح التردد فى المستويات العليا السورية .

وفى يوم ١١ أكتوبر قام السوريون بانسحاب منظم منضبط إلى خط « سعسع » (خلف خط وقف القتال بنحو ١٥ كيلو مترًا) . وكان ذلك بناء على نصيحة الخبراء الروس وكانت حجتهم فى ذلك ضرورة إنقاذ الجيش على حساب الأرض والعتاد . ولقد تم هذا الانسحاب برغم معارضة الجناح العسكرى السورى بشدة للنصيحة السوفييتية بالتقهقر .

ويقول أوبالانس فى معرض حديثه ، لم يكن السوريون يفتقرون إلى التصميم ، وبصرف النظر عن أى أخطاء قيادية كان الجندى السورى يتمتع بشجاعة رفيعة المقام . كذلك يستحق الثناء بوجه خاص أولئك الذين هاجموا مواقع العدو الحصينة فى تلال السلسلة الحمراء مرارًا . وهنا ينتهى كلام أوبالانس .

وقبل أن أعلق على هذه الوقفة الغريبة التى أحبطت القوة الدافعة للهجوم فى سوريا يوم ٧ أكتوبر قبل فرصة إحراز النصر الكامل بساعة واحدة ، وقبل استعراض الأسباب التى كانت وراء اتخاذ قرار هذه الوقفة السورية التى أثارت اهتمام أوبالانس ، أود أن أنتقل إلى وقفة أشد غرابة على جبهتنا المصرية كانت لا تقل إثارة لاهتمام أوبالانس إن لم تكن تزيد .

الوقفة التعبوية على الجبهة المصرية

يقول أوبالانس فى وصفه للوقفة التى تلت خمسة الأيام الأولى للحرب بأنها تعبير غريب عن المصطلحات العسكرية لم يسمع به من قبل ، وفى ذلك يقول بالحرف الواحد : « كانت الأيام الخمسة الأولى من حرب أكتوبر أيامًا من الإنجازات الهائلة للمصريين ، ولكن تلتها خمسة أيام أخرى من الحذر والتردد ، وبدأ الأمر كما لو كانت قوة الدفع المصرية قد نفدت ، ووقف جنودهم بأقدام مثقلة على الضفة الشرقية عاجزين عن التقدم للأمام أكثر من ذلك ـ وأصبحت هذه الوقفة العسكرية ـ هى تعبير جديد دخل المصطلحات العسكرية ـ محرجة بصورة متزايدة للمصريين بعد نجاحهم الأولى ، وبحلول العاشر من أكتوبر كان لدى المصريين حوالى ٨٠,٠٠٠ جندى ، ٧٠٠ دبابة على الضفة الشرقية .

وحاول أوبالانس جاهدًا أن يعرف سبب هذه الوقفة فيقول : « لم يكن الموقف الإدارى فى (الإمداد والتموين) مربكا ، **وكان الفريق أول أحمد إسماعيل الذى يتسم بالحذر ـ مترددًا فى التحرك إلى الصحراء المفتوحة خارج غطاء حائط دفاعه الجوى حيث ستصبح دباباته ورجاله تحت رحمة الطائرات الإسرائيلية** . وكان قد تم احتجاز سلاح الطيران المصرى فى الخلف بشكل متعمد ، مع عدم اشتراكه فى المعركة للاحتفاظ به سليمًا بقدر المستطاع . كذلك كان الاعتقاد السائد عند العرب أنه لم يعد باقيًا لدى الإسرائيليين سوى ذخيرة يومين فقط ـ وكان الفريق أحمد إسماعيل يأمل أن تنفد سريعًا وعندئذ تصبح مدافعهم عاجزة » . .

ويبدو أنه لم يخطر على بال الفريق أحمد إسماعيل أن أمريكا سوف تقيم جسرًا جويا لإمدادها بكل شىء وليس بالذخيرة فقط .

ففى يوم ١١ أكتوبر وصل المزيد من الدبابات والتعزيزات الإسرائيلية ثم أعيد تنظيمها على وجه السرعة (١) .

رأى العسكريين المصريين فى الوقفة التعبوية

وفى يوم ١٢ أكتوبر كان الصاروخ « تاو tow » قد وصل وتم توزيعه على الجنود بعد تدريبهم عليه لمدة ٤ ساعات ، كاعتراف شارون ـ وكان كل ذلك سببًا فى الخسائر التى ستحدث فى الدبابات المصرية يوم ١٤ أكتوبر ، وهو اليوم الذى تقرر لتطوير الهجوم شرقًا إلى المضايق .

يذكر المشير الجمسى فى كتابه « يوميات حرب أكتوبر » أن ترك العدو الإسرائيلى (بعد يوم ٩ أكتوبر) ، بدون ضغط مستمر عليه معناه انتقال المبادأة إليه . ولذلك كان من رأيه ضرورة استغلال الموقف لتطوير الهجوم شرقًا طبقًا للخطة التى تقضى بضرورة الوصول إلى المضايق .

ولكن عندما ناقش هذا الموضوع فى يوم ٩ أكتوبر مع الفريق أول أحمد إسماعيل خلال مقابلتين داخل مركز العمليات ، وجده يخشى فى حذر شديد من سرعة التقدم شرقًا . وهو نفس الحذر الذى يحكى عنه أوبالانس بسبب تخوفه من تعرض القوات البرية القائمة بالهجوم للطيران الإسرائيلى فى وقت قد لا تتمكن فيه مقاتلاتنا وصواريخ دفاعنا الجوى من توفير الحماية لها . وبرغم الحجج والأسانيد التى برر بها المشير الجمسى مزايا تطوير الهجوم واستغلال النجاح السريع للوصول إلى المضايق موضحًا أن خسائرنا ستكون فى حدود المقبول ، إلا أنه وجد أن قرار الوقفة التعبوية كان يستولى على تفكير الفريق أول أحمد إسماعيل وأصبح لا يحيد عنه .

ويلخص المشير الجمسى الأمر كله فى أن الوقفة التعبوية قد أضاعت علينا فرصة استغلال النجاح بسرعة لتحقيق الهدف الإستراتيجى نتيجة للحذر الزائد للقائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل .

أحمد إسماعيل ليس السبب

ولكن فى رأيى ـ وقد تجلت أمامنا الآن كل الظروف والملابسات العامة التى أحاطت بالمعركة

---

(١) يقول أوبالانس « أعيد تشكيل مجموعة آدان بأربعة ألوية مدرعة حديثة من الألوية الأولى التى كانت قد أبيدت بالفعل . وتم تعزيز مجموعة شارون لتصبح خمسة ألوية ومجموعة ماندلر لتصبح أربعة ألوية ـ ومجموعة آدان مجموعة العمليات ١٣١ ـ ومجموعة شارون مجموعة العمليات ، ومجموعة ماندلر مجموعة العمليات ٢٥٢ » .

ـ أن الفريق أول أحمد إسماعيل لم يكن وراء قرار الوقفة التعبوية وتأخير تطوير الهجوم حتى يوم ١٤ أكتوبر ، حيث جاء قرار مواصلة الهجوم متأخرًا جدًا عن موعده بعد أن حصلت إسرائيل على كل ما استهلكته فى المعركة من ذخائر ودبابات وطائرات . . إلخ ، بل وحصلت على أسلحة حديثة جدًا على النحو الذى ذكرته من قبل .

لقد أصبح واضحًا أن الرئيس السادات هو الذى كان يمسك بدفة الأمور بين يديه ، بدليل أنه بمجرد أن أعطى أوامره باستئناف الهجوم لتخفيف الضغط عن الجبهة السورية ، قام الفريق أول أحمد إسماعيل بالاستجابة للأمر مباشرة ، مما أفرغ الضفة الغربية للقناة من معظم المدرعات والتشكيلات التى كانت ترتكز عليها الجيوش الميدانية فى الشرق (وهو الأمر الذى استغلته إسرائيل بمعاونة النصائح الأمريكية لعمل الثغرة) . وهكذا تناسى الفريق أول أحمد إسماعيل كل مخاوفه عن خروج القوات المهاجمة عن مظلة حماية الصواريخ المضادة للطائرات . وبدا جليا أن حذر أحمد إسماعيل لم يكن السبب الكامل وراء الوقفة التعبوية . . ففى ذلك الوقت كان السادات هو الذى كان يخضع ليل نهار لتهديدات كيسنجر التى تصله عن طريق الزيات أو عن طريق الاتحاد السوفييتى ، كما كان يخضع فى نفس الوقت للضغوط التشاؤمية التى لم يكف القادة السوفييت يومًا واحدًا عن توصيلها فى إصرار إلى الرجل وتخويفه بصفة مستمرة من المحاذير التى تتهدده وتتهدد الموقف العالمى من استمراره فى القتال .

وأعتقد أنه مما يؤيدنى فى هذا الرأى ، ذلك التردد المماثل الذى حدث فى الجبهة السورية وما ذكره الفريق طلاس عن وقفة يوم ٧ أكتوبر لإدجار أوبالانس مصرحًا أن الأمر قد صدر بالفعل بالتوقف ولكنه لم يوضح له ملابساته معتذرًا بأن الوقت لم يحن بعد لكشف هذه الملابسات ـ **وأعتقد أن حافظ الأسد قد تعرض فى سوريا لنفس الضغوط السوفييتية التى تعرض لها السادات فى مصر ، مما جعل الرجلين يكتفيان فى بادئ الأمر بنجاح قواتهما فى التغلب السريع على القوات الإسرائيلية وطردها من خط بارليف فى مصر وهضبة الجولان فى سوريا ،** معتقدين أن ما أحرزاه من نصر عسكرى ميدانى يكفى لتحريك القضية سياسيًا . ولقد فاتهما هما الاثنان أن أمريكا لن تسمح لهما بمداومة الإمساك بهذا النصر حتى لا تنعكس آثاره على الموقف السياسى عندما تنتقل القضية إلى أيدى المفاوضين السياسيين .

ولذلك ففى رأيى أن كل الجدل الذى دار حول الوقفة التعبوية لم يكن ليقدم أو يؤخر فى نتيجة المعركة التى كان قد تحدد مصيرها بالتدخل الأمريكى الذى ألقى بكل ثقله لترجيح كفة إسرائيل ، حيث أعلن كيسنجر فى صراحة ووضوح بعد الحرب « أننا ما كنا لنسمح للسلاح السوفييتى بالمرة أن يهزم إسرائيل صديقنا التقليدى » !

ويعنى ذلك أننا حتى لو كنا واصلنا الحرب بدون وقفة تعبوية أو حرصنا على عدم السماح بحدوث الثغرة ، فإن الولايات المتحدة كان فى جعبتها إحداث الكثير من الثغرات ومن وسائل إجهاض أى انتصار نحرزه ضد إسرائيل ، خاصة بعد أن أيقنت كيف كان الاتحاد السوفييتى يعالج الأزمة كلها فى تراخ وسلبية لعلها كانت بداية طريقه إلى الانهيار الشامل الذى أصاب كل أوصاله فيما بعد !

الفصل الواحد والأربعون
مرحلة ما بعد التدخل الأمريكى

عندما قمت بزيارتى الثانية للجبهة فى يوم ١٢ لتفقد أحوال الفرقة ٢١ المدرعة التى سبق لى قيادتها ذات يوم ، كانت الأوامر قد صدرت لقائدها الجديد العميد أ.ح إبراهيم العرابى بتوزيع لواءاتها المدرعة على كل من الفرقة ١٦ مشاة والفرقة الثانية المشاة لدعم رءوس الكبارى فى شرق القناة بينما ألحقت مدفعيتها على مدفعية الجيش الثانى لدعم وحداته الأمامية بالنيران .

وكان من المزمع دفع هذه الفرقة المدرعة من خلال فرق المشاة لتطوير الهجوم كالقرار السياسى الذى صدر لتخفيف الضغط عن الجبهة السورية . وكانت القوات الإسرائيلية قد ركزت كل مجهوداتها ضدها كنصيحة مسئول البنتاجون السياسية ورغبة فى إنهاء الوضع فيها قبل وصول الدعم العراقى الذى بدأت طلائعه فى الوصول بالفعل .

وكان الموقف على الجبهة السورية قد وصل إلى أسوأ أحواله بعدما بدأ الطيران الإسرائيلى غاراته على الأهداف الحيوية داخل العاصمة وفى العمق السورى مثل مبانى قيادات الدفاع ومحطة الإذاعة وبعض الأحياء السكنية ، وكانت كلها من ضمن المخطط الذى نصح به البنتاجون الأمريكى **لإخراج إحدى الجبهتين من المعركة حتى تتفرغ إسرائيل بعد ذلك إلى الجبهة الأخرى** ـ ولذلك اكتفت إسرائيل فى هذه الفترة باتخاذ قواتها لخطوط دفاعية مجهزة على الجبهة المصرية كانت هذه القوات تحتلها قبل إنشاء خط بارليف حتى تكون فى مأمن من تطوير الهجوم الذى تتوقعه من قواتنا فى اتجاه الشرق للاستيلاء على المضايق . وكانوا يتوقعون أن يبدأ تطويرنا للهجوم فى يوم ١٢ أكتوبر .

وكان أكثر ما يقلق إسرائيل أن رءوس كبارى الجيشين بفرقها الخمس المشاة قد بدأت تستقر

فى مواقع دفاعية محفورة ومجهزة على الخط الذى وصلت إليه شرق القناة ، وهو الأمر الذى يجعل احتمال زحزحتها للخلف تتضاءل مع كل يوم يمر وكل ساعة تمضى .

كانت الخطة الإسرائيلية فى ذلك الوقت ، ترمى إلى محاولة اختراق رءوس الكبارى والعبور إلى الضفة الغربية بهدف الوصول إلى مؤخرة الجيشين لزعزعة استقرارها واستعادة المبادأة التى فقدتها إسرائيل منذ السادس من أكتوبر .

لقد أصبح من الواضح أن إسرائيل قد أرجأت القيام بتنفيذ هذه الخطة حتى تنتهى من الموقف على الجبهة السورية ، وحتى تعوض كل ما فقدته من الطائرات والمدرعات التى منيت بخسائر شديدة فيها فى محاولات الهجوم السابقة ، وكذلك حتى تنتهى من صد الهجمات المدرعة المتوقعة وتمنعها من الوصول شرقًا إلى المضايق .

هذا ، وكانت إسرائيل تدرك أن أى عمليات سوف تقوم بها فى غرب القناة سوف تصطدم بالقوات المصرية المدرعة الموجودة فى الغرب والتى قدروها فى ذلك الوقت بأكثر من ٨٠٠ دبابة . ولذلك كان من الضرورى أن تتربص القوات الإسرائيلية بقواتنا حتى تعبر الوحدات المدرعة من الغرب إلى الشرق ، وبالفعل أفادت تقارير استطلاعهم فى يوم ١٢ عن بدء عبور المدرعات المصرية من الفرقتين المدرعتين ٤ ، ٢١ إلى شرق القناة مما أكد لهم أن قرار تطوير الهجوم قد اتخذ .

عدم مناسبة القرار

لا أريد أن أدخل فى زحام الجدل الذى دار حول تأخير قرار تطوير الهجوم وعدم جدوى الوقفة التعبوية التى لا شك أنها أضاعت استغلال النجاح الفورى للتغلب على القوات الإسرائيلية التى أصيبت بالارتباك والانهيار فى الأيام الأولى للقتال ، **فمما لاشك فيه أن القرار جاء من وجهة النظر التكتيكية متأخرًا للغاية ، ولم يستغل فرصة انشغال المجهود الجوى الإسرائيلى فى العمل على جبهة الجولان .**

وهكذا ضاعت فرصة تطوير الهجوم يوم ٩ أكتوبر ، وحتى عندما تقرر الهجوم يوم ١٢ أكتوبر ظهرت عدة عوامل أبرزها قائدا الجيشين فجعلت الهجوم يتأجل إلى يوم ١٤ أكتوبر[1].

---

(١) كان من أبرز العوامل صعوبة ضبط توقيت عبور أرتال النسق الثانى المدرعة من الغرب للشرق لانشغال بعض لواءاتها (التى عبرت من قبل لتدعيم رءوس الكبارى) فى صد الهجمات المضادة المستمرة للعدو يوم ١٠ و ١١ أكتوبر ، وخصوصًا فرقة شارون المدرعة التى كانت تحاول جاهدة نجدة بعض النقط الحصينة التى لم تسقط بعد ، بهدف الوصول عن طريقها إلى معبر للضفة الغربية .

وفى رأيى أن القرار جانبه التوفيق، ليس فى التوقيت فحسب وإنما فى استخدام الاحتياطيات المدرعة فى القيام بهذا الهجوم الجديد (وهو ما يطلق عليه تطوير الهجوم) .

فالمعروف من المبادئ الأولية لاستخدام المدرعات ، أن الدبابات ليست أنسب الأسلحة لمهاجمة النقط المحصنة ، إذ إنها بهذه الطريقة سوف تفقد أهم خاصية فى استخدام المدرعات وأقصد بها استغلال خفة حركتها وقدرتها على الاندفاع والاختراق للوصول إلى عمق دفاعات العدو لإرباكه بعمليات التطويق والالتفاف حول مؤخرة خطوطه الدفاعية . ولذلك يجب دفع الدبابات لمهاجمة مناطق ضعيفة وليس مناطق محصنة مما يعرضها لنيران كثيفة تكبدها خسائر فادحة .

وبالمصادفة كان قائدا الجيشين الثانى والثالث من ضباط المدرعات ، ففطنا إلى هذه النقطة ونبها قيادتهما إليها ولكن كان من الواضح أن قرار الهجوم كان قد تقرر سياسيا للتخفيف عن الجبهة السورية . وبدلا من أن يتم تطوير الهجوم بكل وحدات الفرق المشاة الرئيسية كالخطة الأصلية ، **اكتفى بدفع الاحتياطيات المدرعة نحو الشرق . الأمر الذى يؤدى إلى كشف المنطقة خلف الجيوش الميدانية فى غرب القناة مما يعرض هذه الجيوش لاختراق المدرعات الإسرائيلية للغرب وتهديد مؤخرة هذه الجيوش** . . وهذا ما حدث بالفعل بعد التطوير .

تطوير الهجوم فى ١٤ أكتوبر وتوقفه

شهد هذا التطوير الذى قامت به القوات المدرعة فى ١٤ أكتوبر تجاه الشرق أفدح خسائر وقعت بقواتنا منذ بداية الحرب . لقد فقدت فيه بعض اللواءات المدرعة معظم مركباتها ، كما استشهد أكثر من قائد لواء ـ وكان من بينهم **العقيد أ.ح نور عبد العزيز قائد اللواء الثالث المدرع** حيث أصيب مركز قيادته بقنبلة فسفورية أثناء قيامه بالهجوم على محور متلا ، ولعله كان أقرب من وصل من القوات المسلحة إلى هدف الهجوم .

واستشهد **العقيد أ.ح توفيق أبو شادى قائد اللواء الأول من الفرقة ٢١** ، كما استشهد معه قائد كتيبة المدفعية فى بداية التحرك باللواء الذى دفع للاشتباك تحت تأثير الضرب المباشر لصواريخ العدو المضادة للدبابات والمدفعية ١٧٥ مم بعيدة المدى . كما أصيب **العقيد محمود خليل رئيس أركان اللواء** وفقد بصره .

المحاور الأربعة

ولقد اندفعت القوات القائمة بالهجوم على أربعة محاور : اثنان منها فى مواجهة الجيش الثالث هما محورا متلا والجدى ، واثنان منها فى مواجهة الجيش الثانى هما محورا الطاسة

وبالوظه، وكانت المحاور الأربعة تؤدى كلها فى النهاية إلى الاستيلاء على الطريق العرضى رقم٣ الذى كانت تدافع عنه القوات الإسرائيلية المخصصة للدفاع عن الممرات الرئيسية فى سيناء . وكان الهدف من الهجوم هو الاستيلاء على المداخل الغربية لهذه الممرات التى تعد خط الدفاع الطبيعى عن سيناء .

ولما كان الهجوم المصرى يعتمد أساسًا على القوات المدرعة ، فكان المتوقع أن يشهد هذا الهجوم أكبر معركة دبابات فى التاريخ قد تفوق فى حجمها كل معارك الحرب العالمية الثانية .

ولكن الذى حدث أن المعركة بدلا من أن تدور بين الدبابة والدبابة فإنها دارت بين الدبابة والصاروخ .

فلقد سبق تجهيز المواقع الإسرائيلية بدفاع قوى مضاد للدبابات لا يحتوى على الصواريخ إس . إس ١٠ وإس . إس ١١ فحسب ، بل احتوى كذلك على الصاروخ تاو tow الأمريكى الجديد الذى تزودت به الفرق فى اليوم السابق فقط للمعركة (١) .

ولقد كان تطوير الهجوم محكومًا عليه بالفشل منذ البداية نتيجة لأكثر من اعتبار ، كان أولها تجاهل القاعدة الرئيسية فى استخدام المدرعات والتى تقضى بتركيز الدبابات فى اتجاه المناطق الضعيفة من دفاعات العدو ، أما الاعتبار الثانى فهو دفع بعض اللواءات المدرعة دون اصطحابها لوحدات الدعم الخاصة بها نظرًا لضيق الوقت وعدم وصول هذه الوحدات فى الوقت المناسب لإجراء التنسيق وتنظيم التعاون للمعركة نظرًا لأنها كانت موزعة على فرق المشاة الخمس فى رءوس الكبارى لدعمها ، بالإضافة إلى حرمان اللواءات والكتائب من توافر الزمن اللازم لإجراء استطلاع للعدو أمامهم . والحقيقة أن أوضاع العدو المتغيرة منذ بداية القتال فى يوم ٦ كانت غير واضحة ، حتى على مستوى المخابرات الحربية والاستطلاع . وبذلك تحرك قادة الكتائب لمهاجمة عدو لا يعرفون شيئًا عن أوضاعه أو مواقعه . علاوة على أن بعض هذه اللواءات كانت ملحقة لدعم رءوس الكبارى وبذلك أجبرت على التخلى عن مهمتها للانتقال إلى مهمة جديدة فى اتجاه جديد دون أى تحضير . أما البعض الآخر فقد عبر القناة على عجل من الغرب إلى الشرق ليدفع إلى خطوط لم يتم استطلاعها من قبل . وكان على القادة أن يبحثوا عن وحدات الدعم التى كانت قد انتزعت منهم لتقوم بمهام أخرى فى رءوس

---

(١) تأكد هذا الأمر بعد أن قمت بإيفاد لجنة إلى الأردن بعد توقف القتال لمعاينة هذا الصاروخ حيث كانت الأردن تمتلك عددًا منه . وقامت اللجنة بتصوير تأثير الإصابة لهذا الصاروخ على دروع الدبابات فتطابقت الصور مع أكثر من ٨٠٪ من الإصابات .

الكبارى . ولذا اضطروا لدفع لواءاتهم دون إجراء أى تنسيق معها . هذا مع ملاحظة أن المعابر لم تكن تتسع لعبور القوات المتحركة من الغرب مما أخل بتوقيت وصولها إلى خطوط استعدادها للدفع للاشتباك . أما عن المدفعيات التى قامت بالمعاونة (سواء مدفعيات الفرق أو الجيوش) فكانت تفتقر إلى المعلومات الدقيقة عن الأغراض المراد قصفها ، ولذا اعتمدت على الضرب الحسابى ، وهذا النوع من الضرب إذا استخدام ضد المواقع المجهزة يعتبر ضربًا عشوائيًا لا يأتى بتأثيراته المطلوبة فى معاونة القوات المتقدمة خاصة ضد مواقع الصواريخ المضادة للدبابات الموجودة فى خنادق مجهزة ،وفى غيبة من وحدات المشاة تعمل مع المدرعات المهاجمة، الأمر الذى يجعل الاشتباك مع مواقع هذه الصواريخ غير مؤثر بالمرة ، وفوق ذلك كله كاد دعم الطيران أن يكون مفقودًا . **وهكذا كان قرار التطوير قرارًا ارتجاليًا ، وبالتالى جاء كل ما ترتب عليه عشوائيًا يفتقر إلى كل سبب للنجاح** . ويمكننا أن نتخيل نفسية القائد الذى كان يدفع للاشتباك بدون أى تحضير أو استطلاع مما يجعله يفقد الثقة فى النجاح .

ولقد بلغت خسائر الدبابات فى ذلك اليوم أكثر من ٢٥٠ دبابة ، واضطرت القوات المهاجمة إلى التقهقر دون أن تتمكن حتى من إخلاء قتلاها وجرحاها أو إخلاء أى شىء يذكر من المعدات المعطوبة والمصابة من المدرعات .

المدرعات واليوم الحزين

كان يوم ١٤ أكتوبر يومًا حزينًا بالنسبة لى . فعلى الجانب الشخصى فقدت فى ذلك اليوم زملاء سلاح كنت أعتز بهم كل اعتزاز ، وكانوا مثلاً فى الشجاعة والتضحية (مثل العقيد أ.ح توفيق أبو شادى والعقيد أ.ح نور عبد العزيز قائدى اللواءين الأول والثالث المدرعين) . . . وعلى الجانب العملى زادت هموم المدرعات إلى حد كبير بسبب الخسائر التى وقعت بين صفوفها سواء من ناحية الأفراد أو المعدات ، وبدت إدارة المدرعات فى ذلك اليوم والأيام التالية كخلية نحل . . فمن ناحية كان علينا أن نسرع بنجدة وإخلاء المركبات المعطلة والمصابة فى ميدان القتال . . ومن ناحية أخرى كان علينا فى الوقت نفسه أن نعمل على إمداد التشكيلات المدرعة لتعويض هذه الخسائر سواء فى المعدات أو الأفراد .

وتوالت التقارير من جبهة القتال حيث أرسلت لجانًا من كل أفرع الإدارة لموافاتى بتقارير على الطبيعة من مسرح الأحداث . **وكان أهم التقارير لفتًا للنظر أن معظم الدبابات المصابة والمدمرة ،كانت إصابتها نتيجة قصف صاروخى على مدى لا يمكن أن تحققه الصواريخ الفرنسية إس . إس ١٠ ، ١١ التى تستخدمها إسرائيل . كان الصاروخ الأمريكى تاو** tow



الشهيد العقيد توفيق أبو شادى
قائد اللواء الأول المدرع



الشهيد العقيد نور الدين عبد العزيز
قائد اللواء الثالث المدرع



الشهيد العقيد مصطفى حسن
قائد اللواء ٢٢ المدرع

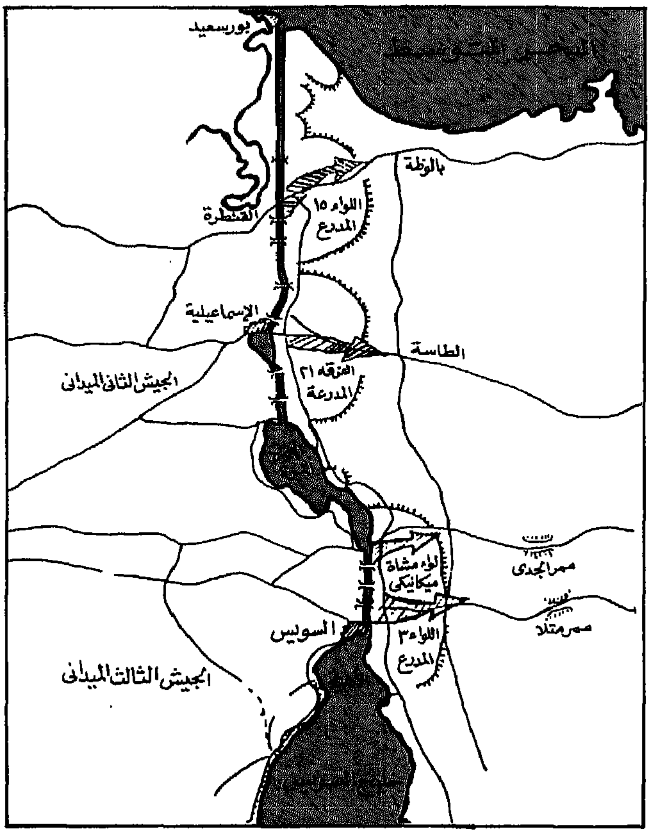
وراء هذه الإصابات بعد أن زودت به الفرق الإسرائيلية ، حيث أصبحت تستطيع الاشتباك مع المدرعات المصرية على مسافة ٣٠٠٠ متر . وهو مدى تعجز عنه مدافع الدبابات الإسرائيلية (والمصرية) بطلقاتها المضادة للدبابات .

وكان علينا أن نبحث بسرعة عن الإجراءات المضادة . وأذكر فى هذه الأيام كيف كان حديثنا عن هذا الصاروخ لا يقابل بالتصديق ، لأن معلومات المخابرات المصرية كانت تشير إلى عدم وصوله إلى إسرائيل . ولذلك أرسلت أحد ضباط فرع البحوث(١) لاستجواب العقيد عساف ياجورى ضابط المدرعات الإسرائيلى الأسير . وخلال المناقشة طلب منه الضابط المصرى أن يرسم له كروكيا سريعا يوضح موقعا دفاعيا إسرائيليا للمدرعات . وعلى الرسم حدد المسافة لصد المدرعات المهاجمة ٣٠٠٠ متر . وعند سؤاله عن السلاح الذى بحوزته والذى يصد به المدرعات على هذه المسافة أجاب **بأنهم قد وعدوا بوصول سلاح صاروخى (لم يشأ أن يذكر نوعه) ولكنه أضاف أنه كان يستخدم فى فيتنام . وأنه مؤثر على هذه المسافة .**

ويعتبر الصاروخ تاو tow من الناحية الفنية خطوة تقدمية كبيرة فى عالم الصواريخ المضادة للدبابات . . ففى مؤخرة قذيفة الصاروخ مصدر ضوئى يتلقاه تلسكوب الرامى فيوجهه إلى الهدف دون أى مجهود من الرامى ويقوم كمبيوتر الجهاز بتصحيح المسار بين نظر الرامى والقذيفة وبذلك يختصر الكثير من الوقت والجهد عند تدريب الرامى إذ لا يتطلب منه أى مهارة يدوية أو ذهنية عند التوجيه . بخلاف أجيال الصواريخ السابقة التى كانت تتطلب

---

(١) عقيد أ. ح محمد عصمت الحبروك .



الخطة العامة لتطوير الهجوم يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٣

من الرامى شهورًا عديدة لإتقان التوجيه . أما تدريب رامى الصاروخ تاو tow فلا يتطلب سوى نصف ساعة أحيانًا . ويزن الصاروخ وجهاز إطلاقه حوالى ٨٧ كجم مقسمة إلى أربعة أجزاء يمكن حملها بسهولة ولا يزيد وزن أى جزء منها عن ٢٥ كجم . ووضح لنا أن الإجراء الوحيد المضاد لهذا الصاروخ (بخلاف تدميره بالطلقات الشديدة الانفجار والمدفعية على مسافات بعيدة) ـ هو قطع خط البصر بين القاذف والهدف بواسطة شىء كالدخان مثلا . وعلى الفور أرسلت الإدارة إلى كافة وحدات المدرعات بطلقات الدخان ولكنها كانت بأعداد قليلة ، لذلك تم تصنيعها محليًا فى المصانع الحربية وكانت وقتها لا تزال فى مرحلة التجارب . ولم يكن الاتحاد السوفييتى يرسلها إلينا ضمن « شدة » الدبابات الشرقية لسبب أو لآخر . . .

بذلت وحدات النجدة فى المدرعات وورش المدرعات فى هذه الفترة جهودًا تشبه المعجزات فى سبيل إحصاء وتنفيذ عمليات النجدة والإصلاح حفاظًا على القوة الدافعة للمدرعات على الجبهة . وفى هذه الفترة أيضًا وعندما انتقلت المعارك إلى غرب القناة استطاعت ورش المدرعات إعادة أعداد كبيرة من الدبابات للعمل بعد إجراء الإصلاحات المتوسطة والرئيسية لها

بسرعة قياسية فاقت كل المعدلات المعمول بها حتى فى الجيش السوفييتى نفسه . وكانت العقبة الرئيسية هى أن الأصابة الناتجة عن الأسلحة الصاروخية كثيراً ما تؤدى إلى تدمير شامل لا يسمح بإعادة إصلاح المركبات خاصة وأن أطقمها كانت تعجز عن مغادرة الدبابة بعد أن تصاب بأكثر من إصابة فتشتعل ، وتتفجر والأطقم محتجزة بها . والملاحظ أن تأثير الأسلحة الصاروخية المضادة للدبابات على جانبى المعركة أدت إلى تغير معدلات الخسائر عن المعدلات السابق تقديرها وفقًا لخبرة الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، والتى كانت تحدد بمقتضاها الخسائر القابلة للإصلاح أو المدمرة تمامًا . . ولا يغيب عن البال هنا أن هذه المعدلات هى التى تحكم التقدير المسبق للاحتياجات من المعدات وقطع الغيار اللازمة للمعركة ، ومن هنا تكون العبرة بسرعة الإمداد من المصادر الخارجية للسلاح حتى أرض المعركة . . . . .

ومن هنا برزت أهمية الجسر الجوى الأمريكى لترجيح كفة إسرائيل .

الفصل الثانى والأربعون

ثغرة أم مصيدة (١)

مع سقوط خط بارليف فى أيدى القوات المصرية فى الأيام الأولى للحرب . بل فى الساعات الأولى منها ـ سقط مع هذا الخط أشياء كثيرة داخل إسرائيل . . سقطت نظرية الأمن الإسرائيلى المبنية على فكرة الحدود الآمنة والتى ظلت المؤسسة العسكرية الإسرائيلية تتبناها لزمن طويل منذ نشأة إسرائيل . بل سقطت هيبة هذه المؤسسة العسكرية نفسها داخل إسرائيل وانتهى الأمر بها إلى انهيار كامل بلغ حد المهانة التى عبر عنها رئيس الدولة فى لقائه بهم داخل غرفة العمليات عندما قال لهم ـ « عليكم أن تدفعوا الآن ثمن غروركم ـ ولا أعرف كيف ستواجهون شعب إسرائيل بعد ما حدث » .

وهو نفس ما عبرت عنه جولدا مائير وهى تستميت فى طلب الأسلحة والمعدات من نيكسون فى ندائها لإنقاذ إسرائيل فى اليوم الرابع للقتال قائلة ـ « لا أعرف كيف سأواجه عائلات القتلى الكثيرين فى هذه الحرب » .

من أجل ذلك راحت هذه المؤسسة العسكرية تبحث عن مغامرة عسكرية تستعيد بها سمعتها وتوازنها أولا أمام شعب إسرائيل نفسه ، ثم أمام الولايات المتحدة التى أبوا إلا أن يلقوا فى روعها أن إسرائيل هى الحارس الأمين على مصالحها ، وإذا بالأمر ينقلب فى هذه الحرب ويصبح الحارس نفسه فى حاجة إلى من يحرسه . ومن نافلة القول أن أعيد هنا أن عملية الثغرة كلها لم تكن إلا صناعة أمريكية من إخراج وتشجيع الولايات المتحدة ، ذلك لأن هزيمة إسرائيل تعنى هزيمة السلاح الأمريكى ، كما أن الولايات المتحدة نفسها كانت محتاجة لورقة تساوم بها سياسيًا بعد توقف القتال .

من أجل ذلك كانت عملية الاستطلاع الواسعة التى غطت فى يوم ١٣ أكتوبر كل سماء

جمهورية مصر بطائرة الاستطلاع إس آر ٧١ أ الأمريكية ومسحت كل أرضها فى ٢٥ دقيقة على ارتفاع ٢٥ كيلو متر وبسرعة لا تدانيها أى طائرة أخرى فى العالم . وعندما تبين لها أن مصر حركت قوات إضافية من المدرعات إلى الضفة الشرقية استعدادًا لهجوم يوم ١٤ وأصبحت المنطقة غرب القناة عند الدفرسوار شبه خالية من القوات المدافعة، تشجعت القوات الإسرائيلية على القيام بمغامرة العبور للغرب فى هذه المنطقة التى عرفت بعد ذلك بالثغرة .

نهاية أحلام المؤسسة العسكرية

فى ذلك اليوم ظنت المؤسسة العسكرية أن هذه المغامرة هى التى ستحقق وتعيد كل أحلامها وأمجادها التى فقدت مع الأيام الأولى للحرب . واعتقد القادة العسكريون بأنها ستتيح الفرصة أمامهم لإعادة استخدام أسلوب الاقتراب غير المباشر أو لعبة إسرائيل المفضلة التى حققت بها انتصاراتها فى كل الحروب السابقة ، وذلك بإحداث اختراق عميق بالدبابات إلى مؤخرة الجيشين الثانى والثالث وضرب قواعد الصواريخ فى الخلف لفتح ثغرة فى السماء ينفذ منها الطيران الإسرائيلى ليوجه ضرباته المعهودة إلى قوات الجيشين لتدميرهما عندما ينهاران وينسحبان للخلف أمام الضغوط العسكرية والنفسية المتوقعة كما كان يحدث فى كل الجولات السابقة .

إن الثقة الزائدة أدخلت فى روع هؤلاء القادة أن انسحاب القوات المصرية الأمامية سيكون هو رد الفعل الطبيعى التلقائى لهذه العملية ، متناسين أنه فى كل الجولات السابقة لم ينسحب الجندى المصرى تلقائيًا أمام أى ضغط قتالى أو نفسى بل كان يتم الانسحاب بأوامر من القيادة العليا التى حسبت للأمر حسابه فى هذه المرة . . وعاهدت نفسها على ألاّ يصدر مثل هذا الأمر لأى سبب من الأسباب .

لذلك صمدت هذه الجيوش لآخر لحظة فى مواقعها حتى نهاية المعركة التى انتهت بانسحاب قوات إسرائيل نفسها من الثغرة فى بادئ الأمر ثم من أرض سيناء كلها بعد ذلك .

لقد فشلت كل محاولات القوات الإسرائيلية فى زحزحة قوات الجيشين الثانى والثالث من مواقعها ، كما باءت كل محاولاتها لغزو الإسماعيلية أو السويس بالفشل الكامل . بل إن القوات الإسرائيلية هى التى منيت بالمزيد من الخسائر فى القتلى والجرحى والأسرى .

وادى المـــوت

ولدرجة أن انتهى الأمر بمفاوضات الكيلو ١٠١ إلى عملية مساومة لحصول القوات الإسرائيلية على قوائم أسراهم وجثث قتلاهم التى كانوا حريصين على استردادها لأسباب دينية



فى نقطة حصينة من خط بارليف بعد تدميرها يوم ٨ أكتوبر ١٩٧٣



المرور على القوات أثناء معارك يوم ٩ أكتوبر ١٩٧٣

تتعلق بدفن هذه الجثث ، وهو الأمر الذى علق عليه الرئيسى السادات بقوله :

ـ نحن لا نساوم على الجثث ولا نتقاضى عليها ثمنا . . تعالوا خذوا قتلاكم ثم أمر بتسليمهم هذه الجثث على الفور . .

وبعد سنتين من حرب أكتوبر ، أعطاهم ٣٩ جثة أخرى وجد بعضها مدفونًا فى أرض الثغرة ، ثم فى عام ١٩٧٧ سلمهم ١٩ جثة أخرى ظهرت أثناء عملية تعميق مجرى القناة .

ولذلك لم يكن فى الأمر مغالاة عندما وصف الإسرائيليون أنفسهم هذه الثغرة التى على الضفة الغربية بأنها كانت « وادى الموت » ، وهو وصف إسرائيلى كما يقول السادات وليس وصفا من كلماتنا .

ثغـرة أم مصـــيدة

وبقدر ما كانت الثغرة واديًا للموتى ، كانت مصيدة للأحياء . وأذكر أنه فى أيام قليلة بعد وقف القتال ، قامت إدارة المدرعات بدفع أعداد كبيرة من الدبابات إلى الثغرة بعد أن قامت بإصلاحها وتجهيزها ، بالإضافة إلى أعداد أخرى وصلتنا من الجزائر (١٤٠ دبابة) علاوة على كمية وصلتنا من يوغوسلافيا (١٥٠ دبابة) وكمية ثالثة جاءت متأخرة من روسيا (٢٥٠ دبابة) وبذلك أصبح لدينا فى وقت من الأوقات نحو ٨٠٠ دبابة حاصرت القوات الإسرائيلية التى فى الثغرة والتى اشتملت على ٤٠٠ دبابة عبرت إليها ـ كعادة إسرائيل ـ بعد وقف القتال فى يوم ٢٢ أكتوبر .

ولقد كانت هذه القوات المصرية المحيطة بالثغرة مستعدة لتدمير القوات الإسرائيلية التى أضحت محاصرة (بفتح الصاد) . بعد أن كانت محاصرة (بكسرها) .

وهكذا انقلبت هذه الثغرة إلى مصيدة لهذه القوات الإسرائيلية . . حتى أنه مع مجىء كيسنجر إلى مصر فى أول زيارة له فى نوفمبر عام ٧٣ لخص له السادات الموقف وهو يطالبه بعودة إسرائيل إلى خطوط وقف القتال التى انتهكتها بعد يوم ٢٢ أكتوبر قائلاً :

ـ أنا عندى الآن ٨٠٠ دبابة وإسرائيل لها فى الثغرة ٤٠٠ دبابة ، وأنا عندى صاروخ ونصف لكل دبابة والإسرائيليون محصورون ومدخلهم (إلى الغرب) ٦,٥ كم فقط فى شرق القناة و إذا أغلقناه فهم مقضى عليهم بلا جدال .

ويؤكد السادات الموقف نفسه عند زيارة كيسنجر الثانية قائلا :

« وفى ديسمبر عام ٧٣ كنا مستعدين لتصفية جيب الثغرة ، وكانت قواتنا قد بدأت حرب

الاستنزاف (الثانية) . وكل يوم كنا نكسب أرضًا جديدة بالأمتار تارة وبالكيلومترات تارة أخرى .

وكانت الفرصة مهيأة جدًا ، فليس أمام قواتنا مانع مائى أو خط دفاعى كخط بارليف . .

وجاء رد كيسنجر مؤكدًا له أنه يعلم تمامًا أن السادات جاهز لتصفية الثغرة ، بل إنه طلب صورة الموقف من البنتاجون قبل مجيئه ، فأعطوه صورة كاملة عن حائط صواريخنا الذى استكمل وعن الـ ٨٠٠ دبابة المحيطة بالثغرة وعدد المدافع . . إلخ .

ثم أضاف كيسنجر عندما سأله السادات عن موقف أمريكا ، فقال للسادات : **«سيضربك البنتاجون . . . لسبب واحد ـ إذا كان السلاح الروسى قد انتصر على السلاح الأمريكى مرة . . فلن يسمح له أن ينتصر فى إستراتيجيتنا العالمية مرة ثانية » . . .**

ثغرة فى العلاقات . الأمريكية الإسرائيلية

ومن هنا جاء الاتفاق على فض الاشتباك . . وفى الحقيقة كانت هذه الثغرة بمثابة الخطوة الأولى التى بدأ منها التحول على طريق التقارب الأمريكى المصرى . هذا الطريق الذى ظل مقطوعًا لأكثر من ١٨ عامًا وكان مشحونًا بالعداوة والبغضاء بين الجانبين . هذه العداوة التى كانت إحدى ركائز الأمن للإستراتيجية الإسرائيلية ؛ فقد حققت إسرائيل بصفة دائمة احتكار صداقة الولايات المتحدة لنفسها وقصرها عليها ، باذلة كل الوسائل والجهود لتسوىء العلاقات بينها وبين مصر بل وإحداث الوقيعة بينهما . . وكان بن جوريون هو أول من أسس جذور هذه الإستراتيجية بداية من عام ١٩٥٤ عندما لجأ إلى الأعمال التى عرفت باسم فضيحة لافون والتى سبق أن نوهت عنها فى موقع سابق من هذا الكتاب .

والحقيقة إذا كانت الثغرة هى أول الطريق لإعادة التقارب الأمريكى المصرى ، فإنها أيضًا كانت الشرخ الأول فى العلاقة الوطيدة بين أمريكا وإسرائيل ، بل يمكن القول إنها كانت بمثابة ثغرة مقابلة على المستوى السياسى بينهما ، وأقوى دليل على ذلك ما كشفه ديان بنفسه فى محاضرة ألقاها فى إحدى جامعات تل أبيب فى ١٩ ديسمبر ، حيث ذكر كيف أن الولايات المتحدة قد هددت إسرائيل بأن تقوم هى بنفسها بإمداد الجيش المصرى الثالث بطائراتها الهليوكوبتر الأمريكية إذا ما واصل الإسرائيليون حصارهم لقوات هذا الجيش .

ويقول أوبالانس : ـ « كانت هذه صدمة أخرى للإسرائيليين الذين كانوا يعتقدون أن الولايات المتحدة هى صديقهم الثابت والصامد ، برغم أن العالم بأسره كان يبدو ضدهم فى تلك اللحظة » !

أما القصة الحقيقية التى كانت وراء هذا الشرخ فى العلاقات الوطيدة ، فترجع إلى أن الرئيس السادات عقب خرق إسرائيل لوقف إطلاق النار ، كان قد اتصل بالقوتين العظميين وطلب منهما التدخل بقوات أمريكية وروسية لإعادة إسرائيل إلى خط ٢٢ أكتوبر . ولقد استجاب السوفييت لذلك بحشد قوات للإنزال فى البحر الأبيض . وكان رد الأمريكان على ذلك هو إعلان حالة التأهب الذرية (حالة التأهب رقم ٣ المعروفة عندهم بحالة التأهب الأحمر) بعد أن تسلم نيكسون مذكرة شديدة اللهجة من الاتحاد السوفييتى تدعو إما للعمل معا أو منفردًا لإعادة إسرائيل إلى هذا الخط . ويقول هرتزوج فى كتاب حرب الاستنزاف إن الحكومة الأمريكية أقنعت مجلس الوزراء الإسرائيلى بضرورة السماح بمرور الإمدادات إلى الجيش الثالث بعد أن قال له كيسنجر : « **إذا لم تفعلوا ذلك فلن يكون هناك ما يحول دون أن يقوم الروس بتوصيل الإمدادات بأنفسهم إلى هناك** . وبعد ذلك تدفقت الإمدادات على الجيش الثالث ، بل بعد ذلك أيضًا كانت بداية فض الاشتباك فجأة ثم انسحاب القوات الإسرائيلية بالكامل من جيب الثغرة فى غرب القناة إلى الضفة الشرقية دون أى ضغط أو قتال جديد . .

الثغـرة ومعركـة البـترول

وكانت الثغرة أيضًا بمثابة الضارة النافعة . . أو بمثابة الشدائد التى يعرف عندها الإخوان . . ففى هذه الأثناء ظهر التضامن العربى على حقيقته .

فإلى جانب القوات التى وصلت إلينا (وإلى سوريا) من البلاد العربية سواء على سبيل التضامن الرمزى أو الواقعى ، كالقوات التى أرسلت بها الجزائر والمغرب والسعودية والسودان والكويت وغيرها ، كان للبترول العربى دور مؤثر فى هذه الحرب حيث استخدم بطريقة ناجحة تفوق استخدامه فى كل الجولات السابقة ـ فلقد نبذ العرب كل خلافاتهم التى استمرت أثناء حرب عام ٦٧ ، وبدأت الدول المنتجة للبترول تخفض من إنتاجها بنسبة تتراوح بين ٥٪ إلى ١٠٪ تزاد بعد ذلك بنسبة ٥٪ كل شهر تال أثناء القتال ، ولقد صنف المستهلكون حسب مواقفهم من القضية العربية ومن إسرائيل .

ولكن حدث فى يوم ٢٠ أكتوبر بعد حدوث الثغرة ، أن قامت السعودية بحظر كل صادرات بترولها إلى الولايات المتحدة .

ويقول أوبالانس : ربما كانت هذه القنبلة الأخيرة هى التى جعلت الرئيس نيكسون يضغط على الحكومة الإسرائيلية لقبول وقف إطلاق النار . فعندما أعلنت السعودية خفضًا

جديدًا فى اليوم التالى بنسبة ٢٠٪ على كل الإمدادات للغرب ، راحت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى تدعوان علنا إلى وقف إطلاق النار فى الشرق الأوسط ، وأقر مجلس الأمن القرار رقم ٣٣٨ الذى يدعو إلى سريان وقف إطلاق النار فى موعد لا يتجاوز ١٢ ساعة من لحظة صدور القرار .

ولاشك أن هذا الإجراء من قبل السعودية أوضح للعالم كله وبالأخص لأمريكا وإسرائيل أن ما حدث من تباعد وتفرقة عربية فى عام ١٩٦٧ ، كان شرخًا أمكن للعرب تجاوزه وعبوره فى عام ١٩٧٣ .

الثغرة على الجانب الآخر

وإذا كانت الثغرة لم تنل كثيرًا من قدر انتصاراتنا فى مراحل الحرب الأولى ، فإنها على الجانب الإسرائيلى لم ترفع من شأن المؤسسة العسكرية الإسرائيلية التى فقدت هيبتها وسمعتها فى بداية الحرب . وعلى سبيل المثال فقد ديان شعبيته الكبيرة التى كان يتمتع بها طيلة حياته الماضية ، وأخذ يواجه الكثير من الهجمات ومن المظاهرات التى ترأس إحداها الكابتن موتى أشكينازى الذى كان يقود إحدى النقط الحصينة على البحر المتوسط (يعرفها الإسرائيليون بنقطة بودابست عند بورفؤاد) ، حيث أخذ يدعو إلى إقالة ديان من منصبه كوزير للدفاع . ولعبت حدة المشاعر ضد ديان فى نهاية الأمر دورًا فى إجبار رئيسة الوزراء جولدا مائير على الاستقالة ثم انهيار حكومتها معها عندما تركت منصبها فى الرابع من يونيو عام ١٩٧٤ .

ولقد استمر انهيار شعبية ديان حتى يوم ١٩ ديسمبر ، عندما منعه المتظاهرون من آباء وأقارب الضحايا من إلقاء خطاب عام فى الجامعة ـ واضطر لأن يقنع بالتحدث إلى أعضاء الجامعة فحسب ، واشتكى إليهم فى هذا العام من موقف الولايات المتحدة من الثغرة ومن إمداد الجيش الثالث !

وكانت لجنة إجرانات قد أصدرت تقريرها الثانى الذى أوصت فيه بعزل رئيس الأركان الجنرال أليعازار . أما الجنرال جونين قائد الجبهة الجنوبية فسبق للجنة أن أوصت بوقفه عن الخدمة الفعلية فى تقريرها الأول .

ولقد حدث كل ذلك رغم أضواء الدعاية التى ركزتها المؤسسة العسكرية على الثغرة أثناء الحرب لتبدو وكأنها عمل بطولى فذ لدرجة جعلتهم يهللون لزيارة جولدا مائير للثغرة معلنين على العالم أنها زيارة للقوات الإسرائيلية الواقفة على أرض أفريقيا .

كانوا يقصدون من وراء كل هذه الأعمال الدعائية ، أن يغيروا من نظرة شعبهم لهم ومن

نظرة العالم لموقفهم فى هذه الحرب ، كما كانوا يأملون فى التأثير على معنويات الجيشين الثانى والثالث التى لم تنخفض قيد أنملة ، بل ظلت قوات الجيشين على صلابتها وصمودها . ولعل أفضل رمز على هذه الصلابة ما حدث من إحدى النقط الحصينة (نقطة كبريت) التى احتلتها قوة مصرية صغيرة بعد أن استسلمت حاميتها الإسرائيلية وتخلت عنها فى أول الحرب. **فقد صمدت هذه القوة المصرية فى داخل النقطة رغم تعرضها لنيران المدفعية الإسرائيلية والقصف المستمر طيلة أيام الثغرة (ما يزيد عن ٤ شهور)** ، بل استولى أفرادها على زورق بخارى عائم استخدموه فى نقل الإمدادات عبر المانع المائى برغم أنها لم تكن تبعد عن الثغرة فى الضفة الغربية إلا مئات الأمتار !

المعركة التلفزيونية

لاشك أن أفضل وصف أطلق على الثغرة وعلى النواحى الدعائية والمظهرية التى أحاطت بها ، هو ما جاء على لسان الجنرال بوفر رئيس معهد الدراسات الإستراتيجية الفرنسى عندما جاء لزيارة السادات بعد المعركة وقال له :

« إن هذه الثغرة لا قيمة لها ، لأنها ليست إلا معركة تلفزيونية » .

أما أفضل وصف للحرب كلها فهو الوصف الذى جاء على لسان الكاتبة الصحفية ياثيل ديان (ابنة موشى ديان) فى قصتها التى استمدت وقائعها من أحداث هذه الحرب ، وكانت القصة بعنوان « ثلاثة أسابيع من أكتوبر » والتى نشرتها بعد الحرب بعدة سنوات ، وجاء فى مقدمتها .

« لقد كانت هذه الحرب أشبه بزلزال أصاب البلاد كلها بهزة عاصفة . إن الأحوال لن تصبح أبدًا هى الأحوال نفسها بعد أيام هذه الحرب . لقد أعلن عنها المحللون أنها لم تكن مجرد هزة جماعية أثرت على الدولة ومؤسساتها الحاكمة ، وإنما كانت هزة أثرت بطريقة مساوية على كل فرد من أفرادها . . إن الرجال والنساء والأطفال الذين عاشوا فى هذه الحرب لن يكونوا هم أنفسهم أبدًا بعد هذه الحرب ! » . . .

الفصل الثالث والأربعـون
ثغرة أم مصيدة (٢)

تفاصيل المعركة العسكرية

بعد هذا التقديم السابق للظروف والملابسات التى أحاطت بمعركة الثغرة ، أستطيع أن أسرد التفصيلات العسكرية لهذه المعركة متوخيًا الحقائق الموضوعية وتتبعها فى أمانة كاملة بكل ما بذل فيها من جهود تفوق طاقة البشر . إن ما وقع فيها من أخطاء تعود أولا وأخيرًا إلى نقص فى الإمكانات أو التقدير وليس إلى ذرة واحدة من التوانى أو القصور .

ففى مساء يوم ١٤ أكتوبر بعد أن توقف الهجوم المصرى فى اتجاه الشرق ،عادت مدرعاتنا إلى اتخاذ مواقع دفاعية داخل رءوس كبارى الجيشين لصد الهجمات المضادة المرتقبة ـ وهنا بدأت فكرة العبور إلى الضفة الغربية تعاود فرض نفسها على أذهان القادة الإسرائيليين ، وقد أصبح الوقت مناسبًا لها . .

ولم تكن فكرة العبور إلى الغرب بالفكرة الجديدة ، بل سبق التخطيط لها فى إسرائيل حتى من قبل حرب أكتوبر . ففى عام ٦٩/ ٧٠ فكرت إسرائيل فى العبور بقواتها لضرب حائط الصواريخ المصرى وإحداث ثغرة فى السماء يندفع من خلالها الطيران الإسرائيلى ، ولقد جهزت أماكن للعبور فى هذه الفترة ،فقللوا سمك الساتر الترابى فيها وأنشئوا خلفها أماكن لتجميع معدات العبور ، بل ووضعوا فى بعضها علامات إرشادية تشير إلى اتجاه القناة . كما حددوا نحو ثلاث نقط للعبور ، منها النقطة التى تم منها العبور الفعلى عند الدفرسوار . وهذه النقطة بالذات كان يتواجد قبالتها على الضفة الغربية أحد ألوية الفرقة ٢١ المدرعة حتى يوم ١٢ أكتـوبر إلى أن صدرت الأوامـر له بالتحرك إلى الضفة الشرقية للاشتراك فى تطوير الهجوم يوم ١٤ أكتوبر .

عندئذ أخذ شارون الضوء الأخضر لتنفيذ عملية العبور التى كان يلح فى تنفيذها منذ بداية القتال وظلت القيادة الإسرائيلية تؤجلها خشية عدم نجاحها فى ظل وجود احتياطى مصرى إستراتيجى من المدرعات فى الضفة الغربية يصل إلى ٤٠٠ دبابة حسب تقدير الإسرائيليين ، ولكن تغير الأمر مع عبور هذا الاحتياطى إلى الضفة الشرقية . وقد تعمدوا أحيانًا عدم تعريض هذا الاحتياطى إلى أية مقاومة تذكر من قواتهم الجوية ومدفعيتهم أثناء عبوره ، أملاً فى استدراجه لتدميره على الضفة الشرقية بعد إخلاء الضفة الغربية منه .

وكانت الخطة التى وضعت لعبور القوات الإسرائيلية إلى الضفة الغربية تتلخص فى فتح طريق إلى القناة شمال البحيرات المرة بواسطة قوات فرقة شارون ، وإنشاء رأس كوبرى فى منطقة العبور شرق القناة . . تقوم من خلاله قوات المهندسين بإنشاء جسر لعبور القوات الإسرائيلية إلى غرب القناة بواسطة الكبارى التى بدأ تجميعها من مناطق مختلفة فى سيناء عند منطقة الطاسة ، ثم ينشأ رأس كوبرى آخر مقابل على الضفة الغربية تشترك فى إنشائه قوات من المظلات تعبر على قوارب مطاطية ومعها عدد من الدبابات يعبر بواسطة معديات أو أطواف متحركة . ومن خلال هذا الطريق المؤدى للقناة تتحرك الفرقة المدرعة بقيادة الجنرال آدان لتعبر إلى الغرب . .

وكان الهدف من العملية هو الإسراع باحتلال قطعة من الأرض على الضفة الغربية للقناة قبل وقف إطلاق النار المرتقب . وإذا كانت الظروف مواتية للعملية تجرى محاولة التقدم فى اتجاه السويس لقطع الطريق على الجيش الثالث . وكانت القوات المخصصة لهذه العملية هى قوة احتياطى القيادة الموجودة فى الطاسة بالإضافة إلى مفرزة مختلطة من المظلات والمدرعات والمهندسين تحت قيادة الجنرال آدان . ولقد تشكلت فى ثلاث مجموعات مدرعة ، تتكون كل منها من كتيبتى دبابات مدعمة بالمشاة وفى كل مجموعة حوالى ٩٠ ـ ١٠٠ دبابة ثقيلة . وقد عاون هذه القوة لواء مدفعية يتشكل من بطاريات ذاتية الحركة من عيار ١٥٥ ـ ١٧٥ مم .

وفى الساعة ١٧٠٠ يوم ١٥ أكتوبر (الخامسة عصرًا) فتحت المدفعية الإسرائيلية نيرانها على طول الجبهة وقام أحد ألوية فرقة الجنرال شارون بهجوم نهارى مخادع لمشاغلة الفرقة ١٦ المشاة والفرقة ٢١ المدرعة ، بينما بدأ لواء آخر بعد آخر ضوء يصاحبه شارون ومجموعة قيادته بالالتفاف إلى الجنوب عن طريق الطاسة الدفرسوار ليصل إلى البحيرات المرة فى الساعة الأولى من صباح ١٦ أكتوبر .

ونتيجة للمقاومة الشديدة التى لاقتها قوات شارون فى الضغط على قوات الجيش الثانى فى

الجانب القريب من قطاع العبور ، حدثت معارك ليلية بالمدرعات خسرت فيها المدرعات الإسرائيلية الكثير من أعدادها رغم أنها من طراز إم ٦٠ أ ٣ المزودة بأجهزة الرؤية الليلية .

ولقد استطاعت المدرعات والمدفعية المصرية أن تعرقل تقدم المدرعات الإسرائيلية فى اتجاه نقطة العبور ، وأن تفصل هذه المدرعات عن قوات المهندسين المصاحبة لها والتى كانت تنقل أجزاء كبارى العبور . كما أصيب الكثير من العربات التى كانت تحمل هذه الكبارى نتيجة القصف المدفعى من جانبنا ، ولكن استطاعت قوة المظلات المصاحبة للمدرعات أن تصل إلى شاطئ البحيرات المرة الكبرى حيث سبقها شارون ومركز قيادته . ثم بدأ عبور قوة المظلات فى قوارب مطاطية إلى الضفة الغربية وانضمت إليها حوالى ٧ ـ ١٠ دبابات عبرت على الأطواف المتحركة . . . أما القوات المدرعة بقيادة آدان فقد تعرضت لنيران المدفعية والدبابات المصرية التى كانت قد بدأت فى قصف طريق الطاسة اعتبارًا من الثامنة مساء ١٥ أكتوبر بعد أن تأكدت التحركات على هذا الطريق ، مما عرقل تقدم آدان وقواته ومعدات عبوره فاختلت التوقيتات المحددة سابقًا فى الخطة ، وتعذر بناء الجسور والعبور فى هذه الليلة وكان مقررًا له أن يبدأ عند منتصف الليل .

وأحس شارون بحرج موقفه أمام القيادة الإسرائيلية التى كانت تنتظر منه الإفادة بإتمام العمليات التى سبق أن بالغ فى وصفها بالسهولة ، فاضطر إزاء ذلك أن يعبر بنفسه فى الساعة الواحدة من صباح يوم ١٦ فى قارب مطاطى خلف مجموعة من مركز قيادته سبقته إلى العبور إلى الضفة الغربية وعلى رأسها العميد إبراهام تامير [١].

وعندما بزغ فجر يوم ١٦ أكتوبر دون وصول معدات الكبارى ، فقد شارون أى أمل فى إقامة الجسر ، فبذلت محاولات لسرعة تعدية بعض الدبابات على معديات بلغ عددها حتى الساعة التاسعة من صباح ١٦ أكتوبر سبع دبابات فقط . ومع نهاية اليوم بلغت نحو ٣٠ دبابة وفى صحبتها عدد من المدافع ذاتية الحركة . وقام شارون بتقسيمها إلى مجموعات صغيرة تتكون كل مجموعة من ٢ ـ ٣ دبابات مع عربة صواريخ مضادة للدبابات وجعلها تتسلل خلال الأشجار بالمنطقة الزراعية المحيطة لتأمينها ولمحاولة الوصول إلى بعض مواقع الصواريخ المضادة للطائرات فى المرتفعات المقابلة . . . وورد فى بعض المصادر أن شارون فكر فى الاستيلاء على أقرب معبر مصرى . فأرسل قوة من رجال مظلاته فى اتجاه الشمال ليستولوا على

---

(١) عين بعد ذلك سكرتيرًا عامًا لوزارة الدفاع مع الجنرال عيزر فايتسمان وزير الدفاع ، وكان له دور مشهود معه فى مفاوضات السلام مع مصر .

جسر قائم على مسافة ٦ ـ ٨ كيلو مترات ولكن صادفت القوة بعض المقاومة المصرية فى منتصف المسافة. فلما خشيت من افتضاح أمرها أسرت بعض الفلاحين وعادت إلى مقر القيادة.

وعندما حلقت الطائرات المصرية فى الواحدة ظهرًا لم تتبين آثار قوات شارون على الضفة الغربية. وكانت قوة من القوات الخاصة المصرية قد هاجمت موقع العبور ودمرت بعض الدبابات الإسرائيلية وأجبرت الباقى على الانسحاب. وظنت القوة المصرية أنها قد تغلبت على مجرد مجموعة استطلاع إسرائيلية عبرت بواسطة دبابات برمائية.

وعند الفجر بدأت مدفعية شارون فى قصف الرادارات الموجودة بمواقع الصواريخ فى هذا القطاع، وذلك أثناء قصف المنطقة بواسطة المدفعية الإسرائيلية بعيدة المدى من الضفة الشرقية. وبذلك استطاعت قوة شارون تعطيل أكبر قدر من مواقع صواريخ سام ٣. واضطرت بعض المواقع الأخرى إلى الانتقال إلى مواقع تبادلية وترك محلاتها الأصلية.

وطوال اليوم استمرت القوات الإسرائيلية فى العبور بواسطة القواب والمعديات بينما كلفت مجموعات من الدبابات بمهاجمة بعض الهيئات الحاكمة فى المنطقة بهدف الحصول على مواقع ملاحظة أو مواقع ضرب نار تتحكم فى الطرق المؤدية إلى مكان العبور.

ولعبت الصواريخ تاو tow دورًا غاية فى الأهمية فى هذه المرحلة، إذ اعتلى القائمون بالرمى الأشجار ومآذن الجوامع وأسطح المنازل القروية بعد أسر من فيها وراحوا يتعاملون مع القوات التى تقترب من الموقع مستغلين قدرة هذه الصواريخ على التعامل مع أى نوع من المركبات.

وعلى الضفة الشرقية أغلقت القوات المصرية تماما طريق الطاسة الدفرسوار بعد أن تنبهت إلى حجم العملية. وعملت قوة الجنرال آدان على فتح الطريق حول قرية الجلاء حيث دارت أعنف المعارك بين لواء مصرى مدرع من الفرقة ٢١ معه كتيبة من المشاة وبين قوات آدان التى استماتت لتوصيل المعدات اللازمة لعبور قواته.

مذبحة الدبابات

وأصبح فى رأى القيادة الإسرائيلية أنه إذا لم تصل هذه المعدات إلى مكان العبور ليلة ١٦/١٧، فسوف يتحتم سحب القوة التى سبق عبورها إلى الغرب قبل أن يتم ذبحها على حد تعبير ديان. واستمرت المعركة حول قرية الجلاء (أو المزرعة الصينية كما سماها الإسرائيليون) طوال يوم ١٦ واشتركت فيها الفرقة ٢١ المدرعة مع العناصر الموجودة على جانب الفرقة ١٦ المشاة ولم يتمكن الإسرائيليون حتى صباح يوم ١٧ من إحراز أى نجاح يذكر.

وظلت قوات من الفرقة ٢١ المدرعة على اتصال بالعدو على الضفة الشرقية لمنعه من أى

تقدم بعد أن حاصرت قوة من المظلات الإسرائيلية كانت فى طريقها لتعزيز القوات المهاجمة . . ولقد دارت المعارك فى هذا القطاع بين الدبابات التى تداخل بعضها فى بعض حتى أصبحت لا تبعد إحداها عن الأخرى أكثر من عشرات الأمتار حتى سميت هذه المعركة بمذبحة الدبابات ، فقد شهدت خسائر كبيرة وقعت بين دبابات الطرفين . وكان القتال يدور أساسًا حول محور الطاسة لمنع الجسر الإسرائيلى من الوصول إلى القناة . ونجحت القوات المصرية بالفعل فى تدمير معدات هذا الجسر بدرجة لا تسمح بإعادة استخدامها . واضطرت إسرائيل إلى دفع معدات عبور جديدة كانت هى كل ما تبقى لديهم . لذا دارت المعركة حول الطريق بالدبابات ، بينما قامت المدفعية المصرية بالتركيز على طريق التقدم .

وقامت القيادة المصرية بدفع اللواء ٢٥ المدرع المستقل من الجنوب من قطاع الجيش الثالث إلى اتجاه الشمال على الضفة الشرقية لإغلاق مدخل العبور . وكان قرار دفع هذا اللواء على الضفة الشرقية بدلا من الغربية قرارًا غير واقعى مما عرضه لهجوم الدبابات الإسرائيلية التى كانت تتحرك فى موازاته خلف التلال فاستطاعت أن تحدث فيه بعض الخسائر إلى أن وصل إلى مسافة ٣ كيلو مترات من هدفه ، فاعترضته قنوات الرى جنوب قرية الجلاء ، وتعرض لكمين أعده العدو بأعداد هائلة من الصواريخ تاو ، استطاعت أن تعطب أكثر من ٣٠٪ من قوته مما اضطره إلى الانسحاب للخلف حتى وصلت فلوله إلى موقع كبريت تحت ضغط من دبابات العدو التى استمرت فى مهاجمته أثناء الانسحاب .

وللحقيقة كان دفع اللواء ٢٥ المدرع إلى الضفة الشرقية فكرة غير صائبة ، فقد كان طريق اللواء بمحاذاة البحيرات المرة ضيقًا ومعرضًا فى كل أجزائه من ناحية التلال الموازية شرقه ، وكانت مسافة التحرك (وهى حوالى ٣٠ كم) فرصة للطيران الإسرائيلى لضرب دباباته نهارًا ، فى الوقت الذى حرم فيه اللواء من معاونة مدفعيات الجيش الثالث لخروجه عن مداها . ونظرًا لضيق الوقت ، لم يتمكن قائد اللواء المدرع من استطلاع طريق التقدم ، ولم يحصل على أى معلومات عن العدو على جانبه الأيمن الذى كانت قواته تبلغ ٣ ألوية مدرعة . كما لم يجر أى تنظيم للتعاون بينه وبين الفرقة ٢١ المدرعة التى كان من المفروض أن يتصل بها عند وصوله ليشترك معها فى تدمير العدو الموجود حول قرية الجلاء فى الدفرسوار . **وتسجيلا للحق فإن اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث الذى كان يتبعه هذا اللواء المستقل ، قد عارض بشدة فكرة دفع اللواء من الشرق ولكنه اضطر لتنفيذ التعليمات بعد أن قطعت عليه القيادة كل سبل المعارضة .**

ولقد تحمل هذا اللواء المدرع خسائر فادحة ، إذ تدمر أكثر من ٨٠٪ من دباباته التى بدأ

بها الهجوم . ولقد حدث كل ذلك نتيجة للحساسية التى كانت تواجه فكرة عبور أى قوات من الشرق إلى الغرب .

كان الرئيس السادات شخصيًا هو الذى يعارض هذه الفكرة بكل قوة . فعندما رجعوا إليه لأخذ رأيه فى موقف هذا اللواء بالذات ، كان قراره ألا يعبر إلى الغرب وأن يهاجم من الشرق . . وبرغم أن هذا اللواء (الذى كان يقوده العميد أ.ح أحمد بدوى) قد دفع خطأ إلى حتفه ، إلا أنه استطاع بمدافع دباباته (ت ٦٢ عيار ١١٥ مم) أن يحدث خسائر كبيرة فى الدبابات الإسرائيلية . ولكن كانت الغلبة فى النهاية للصواريخ المضادة للدبابات التى دفعت بأعداد كبيرة جدًا إلى قلب المعركة بواسطة الطائرات الهليوكيبتر مما اضطر اللواء للانسحاب بعد أو وصلت دباباته الأمامية إلى مسافة ٣ كم من رأس الجسر الذى تمكن الإسرائيليون من إنقاذه . ونجحت قوة الجنرال آدان يوم ١٧ بعد قتالها ضد الفرقة ٢١ المدرعة والفرقة ١٦ المشاة فى الوصول إلى رأس الجسر بعد فتح ممر الطاسة وصد اللواء ٢٥ المدرع . وأصبح الجسر جاهزًا لعبور القوات المعادية منذ الساعة ١٦٠٠ يوم ١٧ . ومع ذلك فقد تعرض الجسر طوال فترة إقامته لهجمات مدفعية الجيش الثانى والثالث وكذا لهجمات الطيران المصرى . ولقد تم إعطاب الجسر خلال يوم ١٧ ، كما تعرض للضرب مركز قيادة لواء مظلات إسرائيلى كان يتهيأ للعبور وأصيب قائد اللواء ورئيس أركانه . وفى خلال يوم ١٧ قامت الفرقة ٢١ المدرعة بلواءاتها المتيسرة (هى اللواء الأول المدرع واللواء ١٤ المدرع واللواء ١٨ مشاة ميكانيكى) متعاونة مع لواء الجنب من الفرقة ١٦ مشاة ، بمحاولات مستميتة لتصفية قوة العدو جنوب شرق قرية الجلاء ، وذلك فى ظل هجمات مدرعة إسرائيلية متصلة ضد رأس كوبرى الفرقة ١٦ مشاة (والذى يضم الفرقة ٢١ أيضًا) ، وأصبح القتال ضاريًا فى أكثر من اتجاه لمنع أى اختراقات جديدة لرأس كوبرى الفرقة . وبلغ الأمر أن ما تبقى من دبابات الفرقة ٢١ المدرعة بعد عملية التطوير يوم ١٤ كان يتجاوز ٥٠٪ من إجمالى عددها . ومما ساعد العدو على التشبث بقرية الجلاء طبيعة الأرض بها ووجود المبانى التى سمحت بالاستتار ، وفى الوقت نفسه تسببت هجمات الطيران الإسرائيلى وقصف المدفعية لموقع اللواء ١٦ المشاة على جنب الفرقة ١٦ ، مع هجمات المدرعات ، فى تدمير معظم قوات اللواء الأمر الذى دعا الفرقة إلى ضمه إلى موقع اللواء ١٨ المشاة المجاور له .

الموقف على الضفة الغربية

كان الموقف على الضفة الغربية غير واضح للقيادة المصرية التى تصورت طبقًا للبلاغات الواردة من القادة المحليين ، أن قوات استطلاع إسرائيلية قد عبرت إلى الضفة الغربية وجارى

التعامل معها . هذا فى الوقت الذى بدأت فيه أعداد هذه القوات تتزايد حتى بلغت فجر يوم ١٨ أكتوبر أكثر من لواءين من الدبابات من فرقة الجنرال آدان . . وأقامت شبكة هائلة من الصواريخ المضادة للدبابات فى مطار الدفرسوار وحوله على المرتفعات المحيطة . وكانت إسرائيل قد تلقت حتى ذلك التاريخ أكثر من ٢٠٠٠ صاروخ تاو .

واستطاعت كتائب الدبابات الإسرائيلية على الضفة الغربية أن تدمر عددًا من قواعد الصواريخ سام ٢ ، ٣ مما فتح ثغرة أمام القوات الجوية الإسرائيلية للقيام بمعاونة نشطة لقواتها غرب القناة . كما تعرضت الجسور المصرية عبر القناة لضرب مركز من الطيران مما اضطر إلى إيقاف العبور عليها والاكتفاء بجسر العبور الخاص بالفرقة الثانية المشاة .

بعد فشل هجمات القوات الخاصة والمظلات المصرية على العدو الذى يحتل مطار الدفرسوار على الضفة الغربية ، تم دفع اللواء ٢٣ مدرع من القاهرة فى الليلة السابقة ، لمهاجمة منطقة الدفرسوار صباح يوم ١٨ . ولكن فشل هذا أيضًا فى تنفيذ مهمته ومنى بخسائر فادحة نتيجة لعبور أعداد كبيرة من الدبابات الإسرائيلية ليلتى ١٧ ، ١٨ فوق الجسر الذى أنشىء عبر القناة ، واتخاذها لمواقع حاكمة لصده فى منطقة تكثر فيها المبانى والأشجار التى كانت أكثر صلاحية لإيواء الصواريخ المضادة للدبابات على طريق تقدمه .

وفى صباح يوم ١٨ أيضًا تم إنشاء الجسر الإسرائيلى الثانى عبر القناة وبدأت الوحدات المدرعة فى فرقة شارون وآدان المرور إلى الضفة الغربية حتى أصبح عددها أكبر مما تخيلت القيادة المصرية .

وفى الواقع بلغت القوات الإسرائيلية على الضفة الغربية نحو ثلاث ألوية مدرعة ولواء مظلات ، أى أصبح للإسرائيليين على الضفة الغربية ٣٠٠ ـ ٤٠٠ دبابة ومركبة مدرعة فى تشكيل فرقتين مدرعتين ، الأولى بقيادة شارون وتتكون من لواء مظلات ولواء مدرع ، والثانية بقيادة آدان وتتكون من لواءين مدرعين . وكانت القوات الإسرائيلية قد احتلت قرية الجلاء بالكامل على الضفة الشرقية وأصبح الطريق إلى المعابر الإسرائيلية آمنا بعد أن استغلت إسرائيل المواقع الدفاعية المصرية السابقة فى عمليات دفاعها . وبذلك فشلت محاولات تصفية رأسى الكوبرى الإسرائيليين على الضفتين الشرقية والغربية ولم يكن يزعج الإسرائيليين فى هذا اليوم وما بعده سوى قصفات المدفعية التى كانت تشكل إزعاجًا مستمرًا ، وتسببت فى بعض الخسائر التى كان تأثيرها ضعيفًا على سير العمليات .

وفى يوم ١٩ أيضًا تمكنت بقية فرقة شارون (وهى لواء مدرع) من العبور إلى الغرب تاركة

كتيبة خلفها ، ولقد تحرك هذا اللواء إلى معسكر أبو سلطان ، بينما واصلت قوة شارون في الغرب دفع القوات المصرية من المظلات والصاعقة شمالاً حتى أصبحت على مسافة حوالى ٨ كم من الإسماعيلية . وقد تمكن الطيران الإسرائيلى من فتح الثغرات فى حائط الدفاع الجوى المصرى من صواريخ سام ٢ ، ٣ وأن يقدم معاونة مباشرة وفعالة للقوات الأرضية التى تصل إلى الضفة الغربية . وكانت هذه القوات تستعين بطلقات الدخان الملون لتحديد مواقع المدرعات المصرية للطيران ليقوم بمهاجمتها وليتولى وحده عملية تدميرها بالكامل كالأسلوب الإسرائيلى المعهود .

وسمحت إسرائيل يوم ١٩ للمراسلين ولممثلى الصحافة بزيارة رأس الجسر بالضفة الغربية ، كما قام ديان بزيارة ثانية للضفة الغربية أو لإفريقيا على النحو الذى كان يحلو له تسميتها بعد أن استعاد كثيراً من توازنه النفسى .

وفى يوم ١٩ أكتوبر أيضًا أرسل الفريق الشاذلى مرة أخرى إلى منطقة الثغرة ، فعاد يحمل أخباراً سيئة عن الموقف ، ويوحى بسحب القوات المدرعة المصرية من شرق القناة لغربها للدفاع عن مصر . ولكن السادات عارض الفكرة وقرر استبعاد الفريق الشاذلى خوفًا على معنويات القوات المسلحة ، وأمر بتعيين الفريق الجمسى بدلاً منه لرئاسة الأركان . . . . . .

وفى نفس اليوم ١٩ أكتوبر قمت بزيارة الفرقة ١٨ بقيادة اللواء أ.ح فؤاد عزيز ، وكانت قواته قد استولت على مدينة القنطرة شرق ودمرت دفاعاتها الإسرائيلية ، وناقشت مع قائد الفرقة الأسلوب الذى تم به إنجاز مهام المدرعات فى مواجهة الفرقة ، وتعرفت على الطبيعة على مدى الخسائر التى وقعت فى المدرعات وأفرادها ، وعرفت القدر المطلوب من العون الفنى لمدرعات الفرقة . كما استمعت إلى الكثير من الخبرات الميدانية الخاصة بالمدرعات ، وكنت قد بدأت فى إدارة المدرعات بتسجيل خبرات القتال يومًا بيوم ، وكذلك تسجيل أسلوب قتال العدو والأسلحة الجديدة التى تظهر فى المعركة ، وقررت إصدار كتيب بعنوان دليل القادة الأصاغر يضم كل المعلومات التى توافرت عن مدرعات العدو وأساليب قتالها والأساليب المضادة المقترحة . .

وعند زيارتى للواء ١٥ المدرع بقيادة العميد أ.ح تحسين شنن استمعت منه إلى تفاصيل معركة التطوير يوم ١٤ التى خاضها اللواء والدروس المستفادة منها . . ولم يكن حظه بالطبع أفضل من سائر اللواءات المدرعة التى دفعت فى ذلك اليوم فى تجاهل للكثير من قواعد استخدام المدرعات فى الصحراء . . .

كانت كل معركة تعبر عن ملحمة تشهد للضابط وللجندى المصرى بالبسالة والشرف . لقد

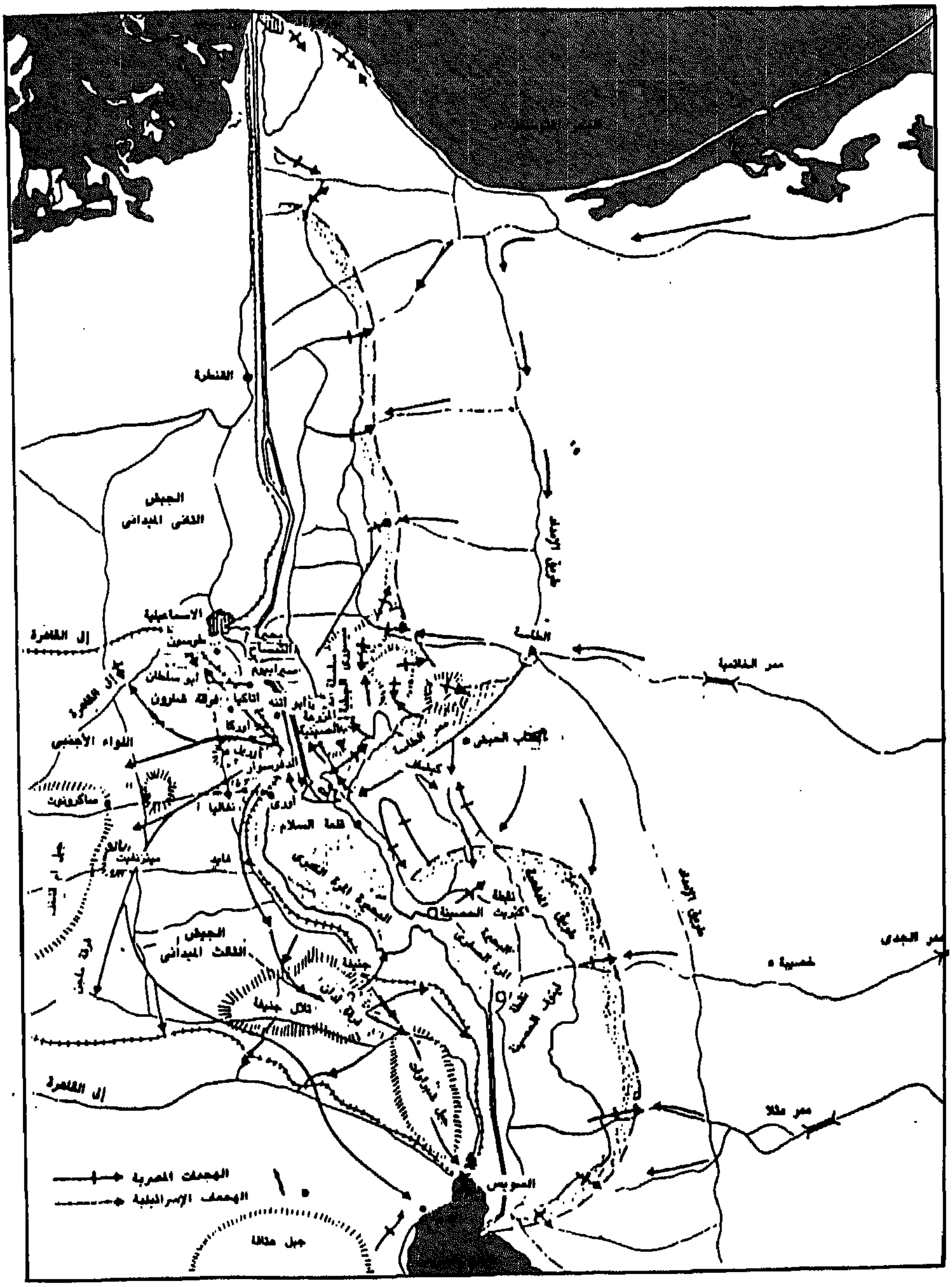
تمسك الجنود بدباباتهم إلى آخر لحظة . . ولم يتركوها حتى بعد إصابتها ، بل إن كثيرًا من الدبابات قد أصيبت مرتين وثلاثًا حتى انفجرت بمن فيها .

وفى أثناء عودتى من هذه الزيارة للجبهة ، مررت على مستشفى الزقازيق واستمعت إلى جرحى المدرعات وظروف إصابتهم والمهام التى كانت منوطة بهم فى المراحل المختلفة ، وكانت كل كلمة تفوهوا بها هى خبرة يجب أن تسجل . ولذلك نقلت عقب عودتى إلى فرع البحوث بالإدارة كل الملاحظات التى استنبطتها من مناقشاتى للقادة وللمصابين لكى تصدر فى كتيب **دليل القادة الأصاغر** .

وكانت هناك لجنة من فرع البحوث بالإدارة قد قامت بتسجيل كل المعارك حتى هذا التاريخ حتى مستوى السرية المدرعة بعد أن استمعت إلى تفاصيلها من القادة أنفسهم ، وكان الأمر يقتضى أحيانًا زيارة المصابين وتسجيل أقوالهم على شرائط كاسيت ، وأصبح لدى الإدارة سجل كامل لكافة الأعمال الحربية التى أجرتها المدرعات فى خلال فترة الحرب . وكانت الدروس المستفادة كثيرة ، وكان أسلوب العدو فى القتال يتكرر مع كل معركة . وعلى سبيل المثال كان العدو يتظاهر بالانسحاب ليجر الوحدات خلفه فتخرج من رءوس الكبارى لمطاردة المنسحبين وبذلك تقع فى كمين من صواريخ مضادة للدبابات تنصب على جانبى طريق تحركها . أما فى الضفة الغربية فكانت الظاهرة المستديمة هى تخلص مدرعات العدو من الاشتباك بعد أن تعطى إشارة من الدخان الملون للطيران الإسرائيلى الذى يسارع للقيام بمهاجمة المدرعات المصرية .

المعــارك غــرب القنـــاة

بدأت المعارك الأرضية تنشط بطريقة غير عادية حول منطقة رأس الشاطئ الإسرائيلى على الضفة الغربية فى الفترة من ١٨ إلى ٢٢ أكتوبر . وكان على القوات المصرية أن تهاجم ملاجئ المدرعات المتسللة فى المنطقة الزراعية والجبلية والتى تحتل مواقع دفاعية ذات سواتر طبيعية تتحكم فى الطرق المؤدية إلى رأس الشاطئ التى كانت بالطبع مدعمة بأعداد كبيرة جدًا من الصواريخ تاو المضادة للدبابات ، التى كانت تعتبر فى الواقع عماد العمل فى الضفة الغربية نظرًا لأن الهجمات المصرية كانت تتم غالبًا بواسطة المدرعات . وبمرور الساعات كان تدمير أى موقع من مواقع الصواريخ سام ٢ ، ٣ على الضفة الغربية يعطى الطيران الإسرائيلى المتفوق فرصة المعاونة الوثيقةللقوات الأرضية . وفى الحقيقة كان تدمير هذه الصواريخ من أهم أهداف العبور الإسرائيلى للغرب . وبذلك بدأت إسرائيل تستعيد إمكانياتها السابقة فى استخدام



عمليات القوات الإسرائيلية فى الثغرة

المدرعات بالتعاون مع الطيران ، ومع ذلك فالمعارك التى تمت فى هذه الفترة كبدت إسرائيل خسائر كبيرة فى المدرعات وفى الأفراد ، حجمت من طموحاتها فى الضفة الغربية ومنعت من انتشارها بالشكل الذى كانت تهدف إليه ، **فقد كانت الأوامر الصادرة للجنرال آدان هى الاستماتة بقدر الإمكان فى محاول وضع اليد على أكبر مساحة من الأرض قبل وقف إطلاق النار المرتقب لاستغلالها فى المفاوضات .**

ولقد حاول الجنرال شارون أن يتقدم تجاه الإسماعيلية ولكن قواته فشلت فى التقدم لأكثر من كيلو مترات قليلة بعد أن تمكنت قوات المظلات المصرية بالتعاون مع القوات الخاصة من إيقاف تقدمها ومنعها من الوصول إلى طريق القاهرة الإسماعيلية عدة مرات .

وعندما تأكد السادات أن الموقف أخذ يسير لصالح إسرائيل بعد تدخل الولايات المتحدة ، بدأ فى حث الاتحاد السوفييتى للضغط لوقف إطلاق النار . ولكن المحادثات التى دارت بين أناتولى دوبرنين وكيسنجر فى واشنطن لوقف إطلاق النار والعودة إلى حدود عام ٦٧ ، لم تصادف قبولا لدى الولايات المتحدة التى فضلت فى هذه اللحظات الحرجة أن تعطى لإسرائيل فرصة أكبر فى الضفة الغربية لتساوم بها .

وفى يوم ٢٠ أكتوبر بدأت ضغوط المملكة العربية السعودية ، فقررت الحظر البترولى على أمريكا ثم على الغرب يوم ٢١ أكتوبر . وكان لهذه الضغوط تأثيرها فى حث الولايات المتحدة لمحاولة إقناع إسرائيل بتنفيذ وقف إطلاق النار خاصة بعد أن وجه الاتحاد السوفييتى إنذارًا للولايات المتحدة بالعمل منفردًا إذا رفضت المشاركة معه ، مما أدى إلى رفع الولايات المتحدة درجة الاستعداد بين قواتها (كما ذكر سابقًا) .

وأخيرًا تم التوصل بين القوتين العظميين إلى حل وسط بوقف إطلاق النار . وبالفعل تقدمتا بمشروع قرار لمجلس الأمن يدعو لإيقاف إطلاق النار خلال ١٢ ساعة من لحظة صدوره ، فصدر القرار ٣٣٨ صباح ٢٢ أكتوبر .

ولقد وافقت عليه مصر والأردن وسوريا مبدئيًا ، **أما العراق فقد رفض الموافقة وأصر على سحب قواته التى سبق أن أرسلها لسوريا برغم اعتراض سوريا . بل إنه رفض حتى أن يترك دباباته ليعمل عليها السوريون ، برغم تدخل السوفييت فى محاولة ليثنى العراق عن موقفه ورغم وعده بتعويضه عن الأسلحة .**

إسرائيل تنتهك وقف إطـلاق النـار

وجاء قرار وقف إطلاق النار مخيبًا لآمال الإسرائيلين الذين لم يتمكنوا بعد من تنفيذ كل

مخططاتهم على الضفة الغربية . ومن هنا عملت إسرائيل على انتهاك وقف إطلاق النار منذ بدايته . وأعطت أوامرها يوم ٢٢ أكتوبر بعبور مزيد من القوات إلى الضفة الغربية (ثلاث لواءات مدرعة) ثم الاندفاع جنوبًا لمحاولة تطويق الجيش الثالث ومنع الإمدادات عنه بقطع طريق السويس .

وتحركت فرقة الجنرال آدان إلى الجنوب فى محاولة للوصول إلى السويس لاحتلالها ، بينما واصلت فرقة أخرى غلق طريق السويس . وفى يوم ٢٢ أكتوبر نجح آدان فى الوصول إلى منطقة جنيفة بعد أن فشل فى احتلال مطار فايد ، وعند جنيفة وعلى الطرف الجنوبى للبحيرة المرة الصغرى اضطر جزء من قوات آدان إلى التوقف وظل يومين يحاول تحسين أوضاعه . ثم اتجه إلى الغرب وقام بعملية التفاف خلال المنطقة الجبلية ، وبذلك استطاع أن يصل إلى مشارف السويس عند الغروب بعد أن تغلب على مقاومات ضعيفة تمثلت فى بعض وحدات الشئون الإدارية وغيرها من وحدات المؤخرة غير المقاتلة ، بينما استطاع الاستيلاء على الكثير من الأسلحة من هذه الوحدات كما استطاع أن يحصل على عدد كبير من الأسرى (**كان أغلبهم من المدنيين والفلاحين**) وأخذ يرسلهم بالأتوبيسات إلى الضفة الشرقية ثم إلى إسرائيل وذلك للمساومة بهم عند تبادل الأسرى ورفعا للروح المعنوية .

وفى الوقت نفسه قامت مدرعات الفرقة الأخرى (فرقة ماجن) باستخدام الممرات الجبلية بين جبل جنيفه وجبل شبراويت للوصول إلى طريق السويس القاهرة . وعند صدور الأمر الثانى لإيقاف إطلاق النار صباح ٢٤ أكتوبر لم تكن هذه القوات قد وصلت بعد إلى النقطة المطلوب الوصول إليها على الطريق وهى نقطة الكيلو ١٠١ ، ولذلك ضربت القوات الإسرائيلية عرض الحائط بهذا الأمر واستمرت فى التقدم حتى وصلت إلى النقطة المنشودة مساء يوم ٢٤ أكتوبر . حيث تم إيقافها أثناء محاولاتها التقدم فى اتجاه الغرب لقطع الطريق عند أقرب ما يمكنها من القاهرة . . بعد إيقاف تقدمها اتجه جزء من القوة للشرق فى محاولة لعزل الجيش الثالث . وكانت عناصر من الفرقة ١٩ المشاة هى التى تتولى الدفاع عن السويس .

لقد استطاع أحد الألوية الإسرائيلية أن يعزل السويس غربا عن طريق القاهرة وأن يتقدم بجزء من قوته بطول خليج السويس حيث تمكن من احتلال معامل الزيتية لتكرير البترول جنوب غرب السويس وبذلك عزل السويس عن الطريق للخليج .

وفى السويس عندما علم أهلها بنية العدو لمهاجمة المدينة أقاموا دفاعات هائلة من الجنود والأهالى ، وتسلحوا بالأسلحة الخفيفة والقنابل اليدوية وقنابل مولوتوف الحارقة وبعض الأسلحة المضادة للدبابات من طراز آر بى جى ، وأصبحت السويس كلها فى انتظار الهجوم الإسرائيلى .

الهجـوم على السـويس

وبعد تمهيد بالطيران الإسرائيلى قصفت فيه المدينة بعنف بالغ للقضاء على أى مقاومة تقرر الهجوم عليها من ثلاث محاور . المحور الغربى من اتجاه طريق القاهرة السويس ، والمحور الشمالى من اتجاه القناة وعلى الطريق القادم من الإسماعيلية ، ثم المحور الجنوبى وهو محور الزيتية عن طريق الأدبية .

وعند المدخل الشمالى استطاعت كتيبة إسرائيلية مدرعة أن تتقدم حتى أحد الكبارى فوق الهويس ، ولكن بعد إصابة الدبابة الأولى على الكوبرى بواسطة كمين من قواتنا المسلحة لجأت إلى منطقة جبلاية أم هاشم . أما على الطريق الجنوبى فقد استطاعت قوة من الدبابات أن تتسلل حتى وصلت قرب محافظة السويس على شارع الكورنيش وكان ذلك فى الثامنة صباحًا حيث تعرضت لمقاومة كبيرة وألحقت بها خسائر ضخمة فاضطرتها إلى التوقف .

وبعد قليل هاجم آدان السويس بكتيبة مدرعة وكتيبة مظلات . وأثناء تقدم قواته على الطريق إلى داخل مدينة السويس انهالت عليها النيران فجأة من المبانى فقتل وجرح معظم قادة الدبابات الذين كانوا يطلون برءوسهم من فتحة البرج العليا غير متصورين المقاومة التى فى انتظارهم . وحاولت الدبابات التقدم بغرض الاحتماء بالمبانى ، بينما قفز جنود المظلات المحملين على عربات نصف جنزير إلى الأرض بعد أن انهمرت عليهم النيران وأحدثت بهم خسائر فادحة ثم لاذوا بالمبانى المحيطة . واضطرت الدبابات إلى الانسحاب بعد أن تدمر منها حوالى ٢٠ دبابة وعدد كبير من العربات المصاحبة لها . . ولجأت قوة من المظلات إلى احتلال مركز شرطة الأربعين معتقدة أنه مبنى عادى ثم اكتشف أنه مبنى الشرطة . ولقد حوصرت هذه المجموعة بواسطة الأهالى والشرطة وبعض جنود القوات المسلحة حتى تمكنت خلال الليل من التسلل من القسم ، ثم ارتدت القوات الإسرائيلية كلها عن السويس بعد أن تكبدت أكثر من ١٢ دبابة على هذا المحور وأكثر من ١٧ ناقلة جنود وشاحنة ، **وذلك باعتراف إسرائيل التى ذكرت أن خسائرها من الأفراد فى محاولة دخول السويس بلغت ٦٨ ضابطًا ، ٢٣ طيارًا ، ٣٧٣ جنديًا** . والحقيقة أن إسرائيل بلغت خسائرها من الدبابات ومن المركبات والأفراد أكثر من هذا العدد بكثير .

وفى اليوم التالى ٢٥ أكتوبر حاولت إسرائيل فى الثامنة صباحًا دخول مدينة السويس للمرة الثانية ، واستمر القتال حتى الثالثة بعد الظهر عند مشارف المدينة دون أن تستطيع هذه القوات الوصول إلى قلب المدينة ، ثم اضطرت للانسحاب بعد أن فقدت ثلثى قوتها من الدبابات وناقلات الجنود . .

وبذلك انتهت كل محاولة أخرى لدخول السويس ، عدا محاولة فاشلة حدثت صباح يوم ٢٨ فى ظل قرار وقف إطلاق النار واستمرت لساعة واحدة فقط .

ولقد ظلت مدينة السويس محاصرة منذ ذلك التاريخ حتى ١٥ نوفمبر حيث بدأت الإمدادات تصلها عن طريق قوة الطوارئ الدولية بعد توقيع اتفاق النقاط الست فى محادثات الكيلو ١٠١ يوم ١١ نوفمبر . وكانت المشكلة الرئيسية للسويس هى المياه إذ وضعت القوات الإسرائيلية يدها على صهاريج المياه التى تمد المدينة عند وصولها الزيتية . كانت هذه الصهاريج موجودة فى شركة الأسمدة وشركة النصر للبترول ، وأصبح على السويس تدبير احتياجاتها ذاتيًا من الآبار التى أمكن استغلالها . ومما يذكر أن عينًا من المياه تفجرت داخل المدينة فيما يشبه المعجزة ، فاستطاعت السويس أن تمد الجيش الثالث باحتياجاته من المياه والتى بلغت ١٠ متر مكعب يوميا ، كما أمكن استخدام مياه الترع بعد تطهيرها باستعمال مضخات الحريق فى تخزينها . كما استخدمت مياه البحر فى عمليات النظافة .

وكانت المشكلة الثانية هى الجرحى الذين اكتظت بهم مستشفيات السويس ذات السعة المحدودة ، ولكن أمكن استيعابهم بصعوبة بالغة .

وفى ذلك الوقت استطاعت عناصر من فرقة الجنرال ماجن أن تقترب من الأدبية على مسافة ٨ أميال من المدينة . بينما تمكنت عناصر من المدرعات الإسرائيلية من الالتفاف خلف الجيش الثالث لتطويقه وإحكام الحصار على نقطة كبريت الحصينة والتى كانت فى أيدى وحدة مصرية فرعية من دبابات اللواء ٢٥ مدرع ، واستطاع الإسرائيليون أن يعزلوها عن الجيش الثالث .

ومع ذلك صمد أفراد هذه القوة واعتمدوا على أنفسهم طوال فترة الحصار حتى أنهم قاموا بتقطير المياه المالحة لجعلها صالحة للشرب بطرق مبتكرة ومع استخدام الزمازم والخوذات .

وبدأت الطائرات الإسرائيلية تلقى آلاف المنشورات على الجيش الثالث تطالبه بالتسليم . وكانت الإمدادات قد قطعت عنه تمامًا بقطع طريق السويس ومنعت القوات الإسرائيلية مرور أى عربات للإسعاف أو لممثلى الصليب الأحمر . .

والواقع أن الجيش الثالث لم يعان أى نقص فى الإمداد طوال هذه الفترة ، فقد كان هناك أكثر من طريق فرعى للإمداد على الأرض أو عبر القناة والبحيرات ، ولقد شهدت هذه الطرق عددًا من ملاحم البطولة النادرة .

وفى الوقت المحدد لإيقاف إطلاق النار الثانى فى السابعة صباح يوم ٢٥ أكتوبر دخلت

الأدبية قوة من الدبابات الإسرائيلية ، وانتهكت وقف إطلاق النار تحت سمع وبصر قوات الأمم المتحدة ، وكان بالأدبية قوة من المصريين ظلت صامدة حتى يوم ٣١ أكتوبر .

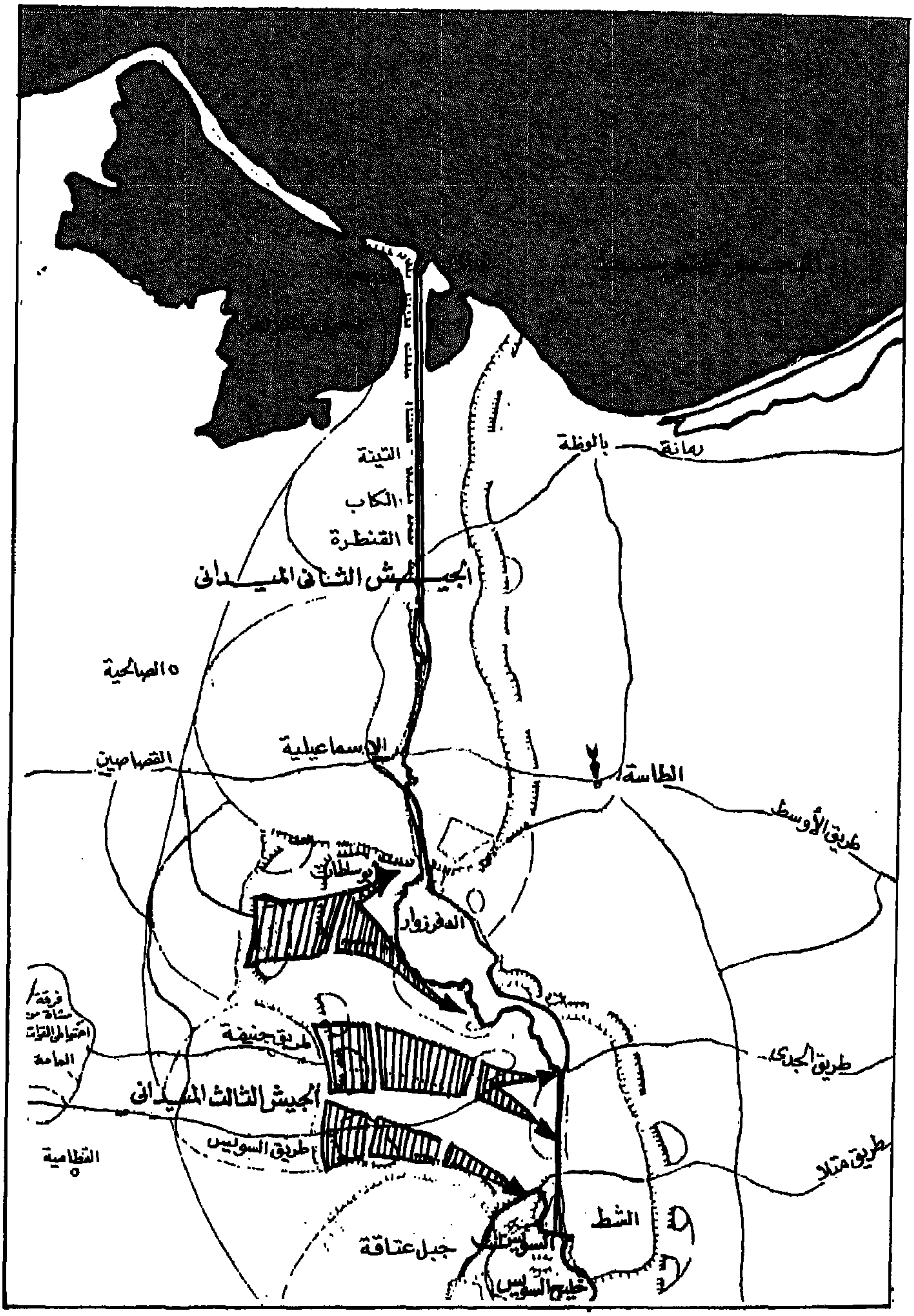
وعلى المستوى الدولى كانت حدة الخلاف بين السوفييت والأمريكيين قد تصاعدت قبل الاتفاق على وقف إطلاق النار مما أدى إلى رفع الولايات المتحدة لدرجة التأهب بين قواتها ، وكذلك فعلت القوات السوفييتية المتمركزة فى أوربا الشرقية ، ونشطت تحركات الأسطول السوفييتى فى البحر الأبيض . وأصبح الموقف فى بعض الأوقات على شفا الانهيار عندما ثبت أن سبع فرق سوفييتية محمولة جوا وقوامها ٤٢,٠٠٠ جندى قد وضعت فى حالة تأهب . كما أشيع فى هذه الفترة أن المخابرات الأمريكية قدمت تقارير تفيد بأن الاتحاد السوفييتى قد نقل رءوسا نووية إلى مصر عن طريق بورسعيد يوم ٢٥ أكتوبر .

ولم يكف الإسرائيليون رغم وقف إطلاق النار عن محاولة السيطرة على بعض الجيوب المصرية فى المناطق التى تحتلها على الضفة الغربية خلال الأيام ٢٥ و ٢٦ وقامت القوات الإسرائيلية ابتداء من يوم ٢٧ ببناء جسر حجرى عبر القناة على مسافة ٢٧ كم تقريبًا جنوب الإسماعيلية ، هدمته فيما بعد القوات المصرية وأقامت نصبًا تذكاريًا من كتله الحجرية فى موقع الجسر على شكل هرم .

وتمت محادثات الكيلو ١٠١ التى انتهت باتفاق مبدئى يوم ١١ نوفمبر ، سمحت بعده إسرائيل بوصول الإمدادات إلى الجيش الثالث وإلى مدينة السويس تحت إشراف الأمم المتحدة ، وتم بعد ذلك توقيع اتفاق فك الاشتباك بين القوات المصرية الإسرائيلية يوم ١٨ يناير عام ١٩٧٤ وفتح الطريق إلى السويس يوم ٢٨ يناير .

محاصرة الثغرة

وفى ٢٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ قمت بزيارة الوحدات التى كانت تحاصر القوات الإسرائيلية فى منطقة الثغرة وعلى رأسها الفرقة الرابعة المدرعة التى تم إمدادها بعدد كبير من الدبابات بعد إصلاحها . كما قمت بزيارة اللواء المدرع الجزائرى الذى بعثت به الجزائر دعما للجبهة المصرية وقد تمركز فوق جبل غرة جنوب الثغرة . . وكان المنظر من هذا الموقع لأرض المعركة يؤكد إمكانية تدمير القوات الإسرائيلية فى الثغرة بسهولة حيث كان طول المنطقة التى عبرت من خلالها القوات الإسرائيلية عبر قناة السويس لا تتجاوز ٧ كيلو مترات . ولقد قامت لجنة من الكونجرس بزيارة هذا الموقع بصحبة اللواء سعد مأمون يوم ٧ نوفمبر وخرجت بانطباع يؤكد ضرورة إجراء تسوية سلمية لهذا الموقف لأن القوات الإسرائيلية الموجودة فى الثغرة أصبحت هى نفسها فى حصار أوشك أن يكتمل .



خطة تدمير العدو فى الثغرة

الجيش الرابع

فى السابع من نوفمبر كنت فى زيارة أخرى للوحدات شرق القناة ، وفى طريقى للجبهة سمعت فى إذاعة إسرائيل تصريحًا لموشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى يقول فيه إن مصر أكملت دفع الجيش الرابع الميدانى حول الثغرة . ولقد سعدت بهذا القول لأنه فى واقع الأمر لم يكن الجيش الرابع سوى الإمداد المستمر بالدبابات للوحدات الأمامية تعويضًا لخسائرها طوال أيام القتال وما بعدها . وكانت إدارة المدرعات قد استقبلت من يوغسلافيا دبابات لواء مدرع (٩٤ دبابة) جاهزة لركوب أطقمها ، كما استقبلت لواء دبابات من ليبيا بدون أطقمه ، تم تجهيزه بالأفراد ضباطا وجنودًا من الاحتياطيات المدربة المشكلة لهذا الغرض ، علاوة على وصول مدافع اقتحام مدرعة من الجزائر . وبعد زيارة بومدين لموسكو تم إمدادنا بنحو ٢٠٠ دبابة ت ٦٢ خصصت لتعويض دبابات الفرقة ٢١ التى كانت دباباتها تدعم رءوس الكبارى. وقد تركت الفرقة ٢١ ما يكفى من دباباتها (من طراز ت ٥٥) لاستكمال دبابات الفرق المشاة تعويضًا لخسائرها . وكذلك تم سحب أفراد الفرقة ٢١ ليلاً إلى القاهرة ، وأعيد تدريبهم على الدبابات الجديدة من طراز ت ٦٢ فى خلال أسبوع واحد ، ثم دفعت هذه الدبابات بأطقمها بعد تجهيزها للقتال سائرة على جنازيرها على محور طريق الإسماعيلية فأثارت غبارًا يزيد طوله عن ٣٠ كيلو متر على مدى ثلاثة أيام كاملة كان آخرها هو يوم ٧ نوفمبر ، الأمر الذى جعل موشى ديان يعلن عن إتمام حشد الجيش الرابع حول الثغرة فى ذلك اليوم .

والواقع أن النظام الذى وضع بحيث يوزع المسئوليات على الوحدات التعليمية للمدرعات، كان أهم عوامل النجاح فى سرعة تجهيز ودفع الدبابات التى وردت من الخارج وتلك التى أعيد إصلاحها ودفعها إلى ميدان المعركة .

وكان نائب رئيس الجمهورية السيد / حسين الشافعى يتصل بى يوميا للسؤال عن أعداد الدبابات التى تدفع كل يوم إلى ميدان القتال . وأذكر أنه عقب على السرعة والدقة التى كانت بها عملية الإمداد قائلا : « إن مثل هذا العمل لا يمكن أن ينسى يومًا لسلاح المدرعات » .

حقيقة موقف الثغرة

وفى كلمة أخيرة عن الثغرة أود أن أقول إن الموقف الإسرائيلى غرب القناة أثناء محادثات الكيلو ١٠١ ، كان موقفًا هشًا ومقلقًا لأى قيادة قد تفكر فى استمراره ، فعلاوة على المنفذ الضيق الذى عبرت منه هذه القوات (٧ كيلو مترات) من الشرق للغرب ، كانت أوضاع هذه القوات وخطوطها الإدارية غاية فى الحرج ، خاصة بعد أن أتمت القوات المصرية تعويض خسائرها وأحاطت بهذا الجيب الإسرائيلى بشكل تهديدى لا يمكن إنكاره . لقد أصبحت القوات المصرية من حوله فى وضع لا يسمح للقوات الإسرائيلية بالتحرك أو بالانتشار

لتحسين أوضاعها ، بل ولا يسمح لها حتى بالانسحاب من مواقعها دون خسائر كبيرة .

أما الانسحاب الذى كان السادات يطالب به هذه القوات للعودة إلى موقع يوم ٢٢ أكتوبر، أى يوم صدور قرار إيقاف النار ، فقد أصبح حلاً مستحيلاً بالنسبة لإسرائيل لأنه يجعلها تفقد كل المميزات التى كسبتها بانتهاك هذا القرار . فإذا أضفنا إلى ذلك أن أوضاع هذه القوات أصبحت معلومة بالتفصيل للقوات المصرية بعد أن ظلت لفترة طويلة غير واضحة المعالم ، فإن مجرد تثبيتها فى أماكنها كان يكلف إسرائيل ما هو فوق طاقتها لإمداد هذه القوات والإبقاء عليها بحجمها الهائل الذى جمعته من مختلف المهن ومن طلبة المدارس الذين كانت امتحاناتهم على الأبواب ، وكان بعضهم يطالبون الجنود المصريين على مدى السمع منادين «سيبونا نذاكر » !! .

ولا يمكن لأحد أن يدعى بأن إسرائيل عندما قبلت وقف إطلاق النار فى ٢٥ أكتوبر ثم قبلت الانسحاب بعد ذلك إلى الممرات ، كانت جانحة إلى السلم أو راغبة فيه ، فالحقيقة أن إسرائيل لم تقدم على ذلك إلا تحت شبح التهديد داخل مصيدة الثغرة .

والحقيقة أن الثغرة والجيب الإسرائيلى غرب القناة لم يحققا أمل القادة العسكريين فى إسرائيل لأسباب عديدة ، منها أن الخسائر التى وقعت فى القوات الإسرائيلية بلغت حسب بيانات إسرائيل ٤٠٠ قتيل ، ١٢٠٠ جريح وإن كانت فى حقيقة الأمر أكبر من ذلك بكثير . ومثل هذا التدمير فى القوة البشرية يكون له مغزى خاص عندما يتعلق الأمر بإسرائيل التى يشكل لها هذا النزيف البشرى تهديدًا خطيرًا فى ظروف تعدادها القليل . ومن هذه الأسباب أيضًا الفرصة التى أتيحت للقوات المصرية خلال فترة وقف إطلاق النار لإعادة تنظيمها وإمدادها بحيث أصبحت تشكل حصارًا كاملاً لقوات الجيب الإسرائيلى يمنعها من الانتشار كما يمنعها أيضًا من الانسحاب أو الهجوم ، خاصة بعد أن دعمت مصر دفاعها الجوى حول الثغرة وبلغ حجم القوات المصرية لتدمير العدو فى الجيب خمس فرق منها ٢ فرقة مدرعة ، ٣ فرق مشاة ميكانيكية بالإضافة إلى فرقة أخرى ميكانيكية من احتياطى القيادة العامة . **وبذلك أصبحت مقارنة القوات المشاة لصالحنا بنسبة ٣ : ١ . أما بالنسبة للمدفعية فكانت ٦ : ١ ، وفى الدبابات كانت ٢,٥ : ١ .**

هذا ولم يكن العدو قادرًا على اتخاذ قرار منفرد بالانسحاب يعرض قواته لخطر تدميرها بالقوات المسلحة المصرية أثناء إجرائها لعملية الانسحاب بظروفها الصعبة والمعروفة ، وعلى ذلك لم يكن أمام إسرائيل إلا أن توافق على قرار الانسحاب للتخلص من المأزق .

ومن أجل ذلك قبلت إسرائيل بنفس أكثر من راضية الانسحاب من الثغرة ، وكان ذلك إيذانا بانسحابها من أرض سيناء كلها فيما بعد .

الفصل الرابع والأربعون

حرب ٧٣ - الدروس والنتائج

لكى يحكم التاريخ على شخصية صانع قرار حرب ٧٣ ، عليه أن يرجع إلى ما قاله له الروس من أن هذه الحرب ستكلفه ثلاثة أرباع قوة الجيش العابرة للقناة . . وكيف أوضح خبراؤهم أن خط بارليف يحتاج إلى قنبلة ذرية لتحطيمه . ولكن الرجل أعطى ثقته مع ذلك لحفنة من قادته المصريين كلفهم بتخطيط عملية اقتحام الخط والحصول على موطئ قدم على الضفة الشرقية . . كان هذا التخطيط الوثيق . . ثم كان هذا التنفيذ الرائع .

لقد كانت حرب أكتوبر أول نصر عربى على إسرائيل ، ولا أتجاوز الحقيقة إذا قلت إنه نصر على إسرائيل ومعها مخابرات أمريكا . ولقد تمخضت الحرب عن تحرير الأرض كما تمخضت عن تحريك القضية الفلسطينية من مرقدها .

وانتزع قرار الحرب المبادأة من إسرائيل بعد ربع قرن من الحرب مع العرب . . وسقطت نظرية الأمن الإسرائيلى . فلا الحدود الآمنة استطاعت أن تحميها . . ولا الردع الذى حاولت تحقيقه فى مواجهة كل الدول العربية استطاع أن يأسوها فى محنتها .

وكان أسلوب اقتحام المانع المائى على بساطته أقوى من كل أجهزة الإنذار الإسرائيلية . . بل والأمريكية . . كما كان أسلوب اقتحام النقط الحصينة على بساطته أيضًا أقوى من كل الدفاعات التى ادعت التميز . . لقد أهملها المهاجمون البسطاء وتجاوزوها إلى العمق . . فسقط بعضها من تلقاء نفسه . . وسقط البعض بقتال ضار . وظل القليل منها صامدًا حتى نهاية الحرب . لذلك لم يكن غريبًا أن يدرس اقتحام هذا الخط فى المعاهد العسكرية فى العالم باعتباره أعظم وأجرأ عبور لمانع مائى فى تاريخ الحرب حطم خطًا دفاعيًا ذائع الصيت .

تأثيرات الحرب

ولاشك أن الحرب كانت تحديا لإرادة القوتين العظميين فى العالم بعد أن قررتا الاسترخاء العسكرى فى كافة الميادين ، لتلطيف العلاقة بينهما ولإبعاد شبح المواجهة النووية عنهما .

ولقد دفع أنور السادات أشقاء المصير فى سوريا إلى خوض هذه الحرب التى استطاعت بجبهتيها أن تكون مفاجأة لإسرائيل . **ودفعت الحرب كل الدولة العربية إلى المشاركة فى الحرب بغير استثناء** . . فعلى الجبهة السورية وصل لواء مشاة مغربى ، وأرسل العراق ثلاثة أسراب طائرات خلال الحرب ثم حوالى فرقة مدرعة وإن جاء توقيت وصولها متأخرًا . كما انضمت للجبهة السورية وحدة مشاة سعودية وبطارية مدفعية كويتية ، كما أرسلت الأردن لواءين مدرعين إلى سوريا استخدما فى حماية جنوب القوات .

وعلى الجبهة المصرية كان هناك لواء مشاة فلسطينى ووحدة مشاة كويتية فى منطقة القناة . كما أرسلت الجزائر ٢٠٠ دبابة فى وقت متأخر من الحرب ولواء مدرعًا حول الثغرة ، وبعثت ليبيا لواء مدرعًا بدون أفراده ، كما أرسل السودان كتيبة مشاة سودانية إلى الأدبية ، وبعد انتهاء الحرب وصل لواء مغربى .

دور البتـــرول

أما البترول العربى فكان له دوره حتى قبل الإعلان عن حظره الجزئى ، فقد ساهم فى كثير مما جعل الدول الأوربية واليابان تتخذ قرارات اتسمت بالحياد وأحيانًا بالتأييد للدول العربية . **وحدث نتيجة ذلك شرخ فى العلاقات بين دول حلف شمال الأطلنطى والولايات المتحدة بعد أن أدركت هذه الدول أن العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل أهم لديها من علاقاتها مع هذه الدول ، ذلك أن أمريكا قامت بسحب أسلحة ومعدات من قواعدها فى دول الحلف دون استئذان هذه الدول .**

وفى القاعدة المؤجرة فى جزر الأزور وافقت البرتغال على مضض على استخدامها لنقل المعدات جوا إلى إسرائيل . أما إنجلترا فرفضت السماح لأمريكا باستخدام قبرص كقاعدة لطائرتى التجسس « إس ـ آر ـ ٧١ » ووافقت إيران بصعوبة على منح التسهيلات للطائرتين ، فى حين سمحت تركيا وهى عضو فى حلف الأطلنطى للاتحاد السوفييتى باستخدام أجوائها لنقل الإمدادات العسكرية للدول العربية . وقد واصلت أمريكا سحب الأسلحة وخاصة الصواريخ « Tow » تاو « والذخائر من مخازن حلف الأطلنطى فى أوربا دون استئذن الدول المعنية ، حتى وصل ما تم سحبه من الصواريخ « تاو » ٩٠٪ **من الاحتياطى الموجود لدى**

الحلف، الأمر الذى أثار استياء الدول الغربية عند اكتشافه . وثارت تساؤلات حول الغرض الأساسى من الحلف إذا كانت الولايات المتحدة تعطى علاقاتها الثنائية أهمية تفوق أهداف الحلف ، خاصة بعد إعلان حظر البترول العربى الذى كانت أوربا الغربية واليابان تعتمد عليه اعتمادًا كليًا حتى فى زمن السلم . . بل إن حلف شمال الأطلنطى نفسه لم يكن ليقدر على مواجهة أى حرب دون هذا البترول ، فى الوقت الذى كان لدى العرب من المخزون النقدى ما يسمح بإطالة أمد هذا الحظر دون تأثر . .

وقد أحدثت حرب أكتوبر تأثيرًا كبيرًا فى العلاقات الدولية السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وأوشكت أن تضع العالم على حافة الهاوية بعد احتمال المواجهة المباشرة بين القوتين العظميين عندما رفعتا درجات التأهب أثناء الحرب ، كما أدت الحرب إلى تضخم عالمى وعوامل أخرى تسببت فى زيادة الكساد والركود بعد زيادة أسعار البترول ومشتقاته . كما أحدثت الحرب تأثيرات إستراتيجية فى العديد من دول العالم لقواتها المسلحة ، حيث بدأت تنظيم جيوشها على ضوء خبرات حرب أكتوبر فى مجال تطوير المعدات وأساليب استخدامها وخاصة فى مجالات الدفاع الجوى والبحرية والحرب الإلكترونية .

وأقنعت الحرب أوربا الغربية واليابان بأن إيجاد تسوية عادلة فى الشرق الأوسط هى القاعدة التى يجب أن تستند إليها مصالحهما فى المنطقة .

وضاعفت الحرب دخول الدول العربية المصدرة للبترول ، ومكنت العرب لأول مرة من التأثير على الإستراتيجية العالمية ، فى الوقت الذى استطاعت فيه الدبلوماسية العربية المكثفة أن تفلح فى دفع الدول الإفريقية لاتخاذ مواقف مؤيدة للعرب وقطع علاقاتها مع إسرائيل مستفيدة من المؤسسات التى أنشأتها الدول العربية لتقديم مساعدات التنمية الاقتصادية للدول الأفريقية .

وعلى المستوى العربى ردت الحرب اعتبار العرب وحطمت ادعاءات إسرائيل وتفوقها الأسطورى . ووثق العرب فى قدراتهم العسكرية والمادية فى مواجهة إسرائيل فلم تعد العدو الذى لا يقهر ، كما تأكد للعرب أمر اتحادهم فى مواجهة الأزمات وكيف أن التعاون بين الدول الغنية (كالسعودية ودول الخليج) وبين الدول ذات الكثافة السكانية العالية (كمصر) استطاع أن يغير ميزان القوى فى الشرق الأوسط .

واستطاعت حرب أكتوبر أن تحدث دمارًا شديدًا فى القوة البشرية الإسرائيلية وهى أكثر العوامل تأثيرًا على قدراتها ، كما استطاعت أيضًا أن تحقق هدفها فى تحريك القضية من حالة اللاحرب واللاسلم وأن تزحزحها فى اتجاهات التسوية .

وكذلك أفادت حرب أكتوبر فى تدعيم القضية الفلسطينية حينما طالب السوفييت فى نوفمبر ٧٣ بضمان الحقوق القومية (وليس الحقوق الشرعية) للفلسطينيين ، كما اعترفت اليابان لأول مرة بالحقوق المشروعة لهم ، واعترفت إيطاليا فى مارس ٧٤ كذلك بالحقوق القومية للشعب الفلسطينى . . وعندما قام السادات بمبادرته كان للفلسطينيين فى مينا هاوس مقاعد شاغرة رفضوا شغلها . . ولا شك أنها كانت أكثر راحة لهم وثقة من مقاعدهم الحالية فى مباحثات مدريد ووشنطن ، ورغم ذلك فإن اتفاقية كامب ديفيد والمعاهدة المصرية الإسرائيلية (وهما من نتاج حرب أكتوبر) قد أعطتا الفلسطينيين فى مباحثات الحكم الذاتى حقوقًا لم يصل إليها المفاوضون حتى لحظة مثول هذا الكتاب للطبع .

دروس الحـــرب

دون إراقة أى دماء من الكتلتين فى حرب ٧٣ حاربت أسلحة الكتلتين ، ولقد وضعت هذه الأسلحة فى مجال الاختبار العملى ، ولكن أثار كل جانب من الكتلتين حجته فى ضعف قدرات المستخدمين لها . ولقد استطاعت الصواريخ السوفييتية المضادة للدبابات التى استخدمها المصريون بعد التدريب عليها لسنوات طويلة، أن تلقن الإسرائيليين درسا لاينسونه فى بداية الحرب وأن تدمر لهم أعدادًا كبيرة جدًا من الدبابات . ثم برزت الولايات المتحدة بصواريخها المضادة للدبابات والتى أثبتت الحرب أنها أكثر كفاءة . فكانت قصة الصواريخ «تاو » التى طال الحديث عنها فى سيرة هذه الحرب لا لشىء إلا لأن التدريب عليها لم يتطلب إلا وقتًا قصيرًا لتصل دقتها إلى ما يقرب من ١٠٠٪ دون اعتماد على مهارة الرامى .

دور الدبـــابة

ورغم دور الصواريخ أثبتت الدبابات فى المعركة أنها سلاح حاسم إذا استخدمت فى تعاون وثيق مع كافة الأسلحة الأخرى ، فبمعاونة المدفعية والهاونات يمكن تدمير الصواريخ المضادة للدبابات على مسافات تزيد عن مداها . كما أن استخدام دانات الدخان يمكن أن يلغى تأثير هذه الصواريخ تمامًا حيث يعتمد تصويبها على الرؤية على امتداد خط بصر الرامى ، فالدبابة لا تستطيع أن تدخل فى مبارزة مع الصاروخ ولكن يمكنها أن تحاربه مشتركة مع غيرها من الأسلحة . وكان لإهمال هذه القاعدة أثر كبير فى زيادة نسبة تدمير الدبابات لدى الطرفين مثلما حدث فى الهجمات الإسرائيلية التى تمت بالدبابات وحدها على رءوس الكبارى المصرية فى الأيام الأولى للحرب ، ومثلما حدث فى هجوم الدبابات المصرية يوم ١٤ أكتوبر على المواقع الإسرائيلية المجهزة أمام الممرات دون دعم كاف من المدفعية والطيران . وكذلك كان القتال فى

الضفة الغربية باستخدام بعض ألوية الدبابات المصرية منفردة (مثل اللواء ٢٣ المدرع) سببًا فى تدمير معظم دبابات هذه الألوية ، **فالتعاون إذن بين الدبابات والمشاة والمدفعية والطيران والقوات الخاصة هو روح المعركة الحديثة ومفتاح النصر فيها .**

وأثبتت حرب أكتوبر من خلال التنافس بين الأقمار الصناعية ووسائل التجسس الإلكترونية الأخرى الأمريكية والروسية ، أن الحرب الحديثة هى **حرب معلومات** وأن تحليل هذه المعلومات هو دليل القدرة والتحكم . وعلى ذلك فالجانب الذى يمتلك نظامًا للاستطلاع الأفضل بالأقمار الصناعية سوف يتمتع بميزة كبرى فى أى حرب فى المستقبل . إذ تستطيع هذه الأقمار الاستطلاعية الحصول على معلومات أدق عن ميدان القتال لأنها قادرة على التقاط وإرسال الصور الفوتوغرافية التى يمكن عند تكبيرها تحديد أماكن وأنواع المركبات والمدافع والمواقع المنفردة بدقة بالغة . وقد تمكنت طائرات الاستطلاع الأمريكية التى أرسلت خلال المعركة أن تعطى إسرائيل المعلومات التى مكنتها من اكتشاف نقط الضعف فى الدفاعات المصرية على جانبى القناة . كما مكنت الصور التى قدمتها روسيا لمصر أن توضح للقيادة المصرية الحجم الحقيقى لقوات الثغرة ، بعد أن كانت هذه القيادة لا تملك التصور الحقيقى لهذه القوات .

على الجـانب الإسـرائيلى

وأثبتت الحرب خطورة الاستعداد لحرب قصيرة خاطفة ، وهو ما كانت إسرائيل تعد له دائما لأنها إن لم تكسب مثل هذه الحرب فى المدة المحددة لها فستكون النتيجة المؤكدة هى الخسارة . فالخطط ومخزون الأسلحة والعتاد والمؤن لم يكن ليغطى الوقت الإضافى ، ولولا الإمداد الذى تدفق على إسرائيل فى هذه الحرب لكانت خسارتها أفدح من ذلك بكثير . لقد بدأ الجسر الجوى الأمريكى حسب المعلومات التى أعلنت يوم ١٣ أكتوبر ونقل أكثر من ٢٢,٣٩٥ طنا من المعدات . وكانت الطائرات س ٥ هى الوحيدة القادرة على نقل الدبابات م ٤٨ ، م ٦٠ والمدافع من عيار ٢٥٥ و ١٧٥ والطائرات الهليوكيبتر وأجسام الطائرات سكاى هوك ، وكلها أسلحة لا تستطيع طائرة أخرى فى العالم أن تحملها . وقد قطعت هذه الرحلات مسافة ١٤,٠٠٠ ميل علاوة على رحلات أخرى من أوربا استخدمت فيها الطائرات س ١٣٠ التى كانت تقوم من قواعد حلف الأطلنطى من ألمانيا وغيرها من الدول الأوربية وهى تحمل الصواريخ والذخائر منذ بداية الحرب وليس بعد ١٣ أكتوبر فحسب كما تصر على ذلك المصادر الغربية. وبذلك بلغ ما حصلت عليه إسرائيل من المخزون الأمريكى ٩٠٪ من الصواريخ ، ٥٠٪ من الذخائر الأخرى ، وهذا بخلاف مانقله الجسر الجوى من وسائل الكترونية مضادة وقنابل سمارت .

ولقد أثرت حرب أكتوبر على نظام التعبئة الإسرائيلية ، إذ نالت المفاجأة من كفاءة هذا النظام . ولم يستطع رغم دقة تنظيمه التى يشهد له العالم بها أن يحقق المعدلات المطلوبة منه . بل ظل فى حالة من الارتباك لمدة ٤٨ ساعة كانت القوات المصرية قد أتمت فيها العبور بالمدرعات بعد إنشاء الكبارى اللازمة لذلك . وكان ظهور الدبابات المصرية على الضفة الشرقية مفاجأة أخرى للإسرائيليين قبل أن يتمكنوا من تجميع احتياطى الدبابات المخطط لصدها . .

أما عن الخسائر التى وقعت بين الطرفين المتحاربين فلم تكن معدلاتها فى حسبان أى الكتلتين . ففى خلال أيام قلائل دمر من الطرفين أكثر من ٥٠٠ طائرة ، ٢٥٠٠ دبابة . بينما كان معدل إنتاج الدبابات فى أى من الكتلتين لا يتجاوز ٣٠٠ ـ ٤٠٠ دبابة سنويًا . (فى أمريكا ٣٦٠ وفى فرنسا ٣٠٠ وفى الاتحاد السوفييتى حوالى ٤٠٠ ـ ٦٠٠ دبابة سنويًا) . هذا فى الوقت الذى كان مصنع طائرات الفانتوم الأمريكية (ماكدونلد) ينتج ثلاث طائرات فقط شهريًا . .

وفاق معدل استهلاك الذخائر كل المعدلات التى تم قياسها فى الحرب العالمية الثانية والتى بناء على معدلاتها كان تصميم الإنتاج فى الكتلتين . ويكفى أن تتصور أن المدفع المضاد للطائرات من عيار ٢٣ مم الرباعى الروسى كان يستهلك ٤٠٠٠ طلقة فى الدقيقة .

وقد أثبتت الحرب ضرورة وجود وسائل ملائمة للإمداد بالدبابات . وعلى سبيل المثال كان الإمداد بالدبابات لإسرائيل يتم عن طريق نقلها بالهليوكيبتر من سفن الأسطول السادس الأمريكى فى البحر المتوسط إلى ميناء العريش ، وكان بعضها مزودًا بمدافع قديمة طراز ٩٠ مم. كما كان بعضها جديدًا لم يقطع حتى بداية استخدامه فى المعركة أكثر من ١٧٥ كيلو مترًا إجمالا ، وقد وصل إسرائيل عن طريق الجسر الجوى الأمريكى ٦٠٠ دبابة أمريكية تقدر قيمتها بنحو ٩٥٠ مليون دولار .

التسـليح

وأثبتت الحرب كذلك ضرورة تسليح الدبابة بوسائل الدفاع ضد الطائرات . لذا كانت الدبابة ت ٥٤ أقدر من الدبابة ت ٥٥ (مع أنها هى الأحدث) فى التعامل مع الطيران المنخفض ، وذلك لوجود رشاش مضاد للطائرات فى البرج . وكان لنوعية الطلقات المحمولة فى الدبابة مثل الدانات شديدة الإنفجار ودانات الدخان ، أثر فى تخفيف حدة تأثير الصواريخ المضادة للدبابات عليها .

وهكذا أحدثت هذه الحرب خللاً فى كل الموازين المعروفة . لذا بدأ مصممو الأسلحة يعيدون النظر فى أسس هذه التصميمات من واقع خبرة الحرب . . وفى إدارة المدرعات أذكر أننا قبل الحرب قمنا بإحداث تطورات عديدة فى الدبابات ربما لم تبلغ القدر الكافى من التوسع . ومع ذلك كانت علامات على الطريق ، مثل استخدام أجهزة الرؤية الليلية المتقدمة وأجهزة تقدير المسافة بالليزر وإنتاج طلقات الدخان وتجهيز الدبابات بقواذف الدخان . . والحصول من السوفييت على أنواع من الطلقات لم تكن فى عقود توريدهم للمدرعات مثل الطلقات «السابو » (S.A.B.O) والحشوة الجوفاء (Hollow Charge) الخارقة للدروع .

وللحقيقة أمكننا فى إدارة المدرعات أن نقوم بتطوير الدبابات الشرقية المتاحة لنا ، لتكون أكثر قوة وأكثر فعالية من الدبابات المستخدمة فى الاتحاد السوفييتى ذاته بعد إضافة أجهزة تكميلية غربية من إنجلترا،وفرنسا وأحيانا من يوغوسلافيا وبولندا ومن الدول الشرقية المتحررة.

وعند اختبار الدبابات الأمريكية والإنجليزية التى تم أسرها من إسرائيل من طراز م ٦٠ أ وسنتوريان أثبتت الاختبارات التى تمت فى مصر وفى الاتحاد السوفييتى أن التطوير الإسرائيلى للدبابات لم يكن على المستوى المطلوب . كما أن طلقات المدفع ١٠٥ الإسرائيلية الصنع لم تتطابق مع قياسات تقدير المسافة على أجهزة التنشين فى هذه الدبابات (تقرير من الاتحاد السوفييتى بعد تسليمه عينات من الطلقات وإجراء تجارب قياسية عليها) .

وأوضحت خبرات الحرب كذلك أنه كلما كانت المعدات المستخدمة أقل تعقيدًا ، كان فى استطاعة المستخدم التعامل معها.كانت الدبابات الشرقية أسهل فى إصلاحها بواسطة أطقمها من الدبابات الأمريكية . كما أن التدريب على المعدات الشرقية كان أسهل من مثيله على المعدات الغربية . وفى الوقت الذى يتطلب فيه تدريب فرد الطاقم على الدبابة الروسية فترة لا تتجاوز ٦ أشهر،كان التدريب على الدبابة الغربية يتطلب ما يقرب من ١٢ ـ ١٨ شهرًا .

أما فى مجال فن الحرب فقد أثبتت حرب أكتوبر أهمية تطبيق الكثير من مبادئ الحرب ، مثل التعاون والحشد الذى بدونه تعرضت الدبابات المهاجمة من الطرفين لخسائر فادحة كالإسرائيليين فى أول الحرب والمصريين فى آخرها وهو نفس المبدأ الذى كان باستطاعته أن يحسم الحرب لو تم تنفيذ الخطة « شامل » لمهاجمة قوات الثغرة .

ومن أهم الدروس المستفادة التى أظهرتها الحرب ، أهمية وجود قيادة اتحادية قوية لقيادة

المعركةعلى الجبهتين المصرية والسورية . . فالقيادة التى كانت مشكلة فى أكتوبر لم تكن تدير المعركة بل أحيانًا كانت تجد نفسها خارج المعركة تماما ، وكان من الأجدى وجود قيادة موحدة تصدر الأوامر إلى الجيش المصرى والسورى على السواء فتقوم بالتنسيق بين عمليات الجيشين . ولقد حدث أن أوقفت إسرائيل جهدها على الجبهة المصرية حتى يتم التصدى للجبهة السورية القريبة منها ، وكان يمكن للقيادة الاتحادية أن تصدر أوامرها فى هذه الآونة لتطوير الهجوم والوصول إلى المضايق ، ولكن لم يبدأ هذا التطوير للهجوم إلا يوم ١٤ أى بعد أن أتمت إسرائيل إيقاف الجيش السورى منذ أيام وبدأت فى التفرغ للجبهة المصرية . . . ومن الطبيعى أن وصول القوات المصرية إلى المضايق كان من الممكن أن يغير مجرى الحرب تمامًا ويقضى على فرصة تفكير إسرائيل فى العبور إلى الغرب على النحو الذى حدث .

كما أظهرت الحرب تدخل بعض الاعتبارات السياسية التى تسببت فى حرمان سوريا من التدعيم العراقى لها بفرقتين مدرعتين ، فقد وصلت القوات العراقية بعد فوات الأوان ، ولو كانت تواجدت منذ السادس أو السابع من أكتوبر لتغير وجه الحرب تمامًا . . وكان باستطاعة القيادة الاتحادية أن تلعب دورًا غاية فى الأهمية فى التنسيق بين قوات الدول الثلاث بالإضافة إلى قوات الأردن التى كلفت بتأمين جانب القوات السورية . . .

الهدف السياسى الإستراتيجى

ومن حيث الدروس العامة الأخرى ثبت قول الجنرال بوفر عن الإستراتيجيةأنها فن استخدام القوة لبلوغ الأهداف السياسية للدولة . وكان السادات يهدف إلى إزالة الجمود العسكرى بكسر إيقاف النار وتكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة فى الأفراد والأسلحة والمعدات ، مع العمل على تحرير الأرض المحتلة على مراحل متتالية وفقًا لنمو وتطوير إمكانات القوات المسلحة . . فالهدف السياسى للسادات إذن لم يكن استرداد الأرض التى احتلتها إسرائيل بالكامل عام ٦٧ . فقد كان يعلم أن حجم القدرات المصرية لا يكفى لإنجاز مثل هذه العملية . ولذلك يمكن القول إن حرب أكتوبر قد حققت الهدف الإستراتيجى منها ، وإنها انتهت فى الواقع بعد فض الاشتباكين الأول والثانى إلى طريق التسوية السلمية الذى لم تستطع إسرائيل الفرار منه مما أدى فى النهاية إلى تحرير سيناء بالكامل .

ومن حرب أكتوبر تبين أن المفاجأة مازالت ممكنة فى الحرب الحديثة رغم استخدام وسائل الإنذار المتقدمة للغاية . وهذا ما جعل حلف شمال الأطلنطى ووارسو يعيدان النظر فى الخطط المبنية على تيسر جزء من الوقت للاستعداد بعد وصول الإنذار بالحرب وهو وقت فى ظل الأسلحة النووية يحسب بالثوانى .

وكانت حرب أكتوبر أول حرب إلكترونية فى التاريخ ، ولكن دون استخدام أسلحة نووية وقد نجح المصريون فى استيعابها واستخدام المعدات الحديثة المعقدة . ومما يذكر فى هذا الشأن أنه بعد خروج الخبراء السوفييت من مصر كان بالمعهد الفنى للقوات المسلحة عدد من صواريخ سام لا زالت فى الصناديق وكان الخبراء يقدرون ستة أشهر لتحميلها وتشغيلها ، ولكن استطاع المصريون انجاز هذه المهمة فى ٥٠ يومًا . ولقد بلغ الخوف بإسرائيل من القدرات العربية فى مجال الحرب الإلكترونية ، أن فكرت فى المرحلة الأولى من الحرب فى استخدام قوتها النووية . ولكن أرجئ استخدامها عندما بدأت الأمور تتحسن تدريجيا على الجبهات السورية ثم المصرية ، وخشوا أن يجر استخدامها العالم إلى حرب نووية حقيقية بين القوى الكبرى .

إن السؤال عن المستقبل ، وهل هو لإسرائيل أم للعرب بدأت كفته تتراجع لصالح العرب من شواهد المستويات التى وصلت إليها الجيوش العربية فى الفترة بين ٦٧ ، ٧٣ فقد كانت مخالفة تمامًا للتقديرات الإسرائيلية ـ فتحسن التكنولوجيا العربية ومستوى التعليم واتجاهات إعداد السكان وتطوير التصنيع وتنويع مصادر السلاح والتصنيع العربى للسلاح علاوة على تحسن العلاقات العربية الأمريكية والغربية ، كلها تقديرات أصبحت فى غير صالح إسرائيل التى يجب أن تصل بها التقديرات السليمة إلى وجوب وضع حد للصراع العربى الإسرائيلى قبل فوات الأوان .

وبالنسبة للطيران والدفاع الجوى أثبتت خبرة حرب أكتوبر أهمية وجود عدد إضافى من الطيارين . وقد زعمت إسرائيل أن لديها ثلاثة طيارين لكل طائرة ، بينما كان عدد الطيارين العرب يقل أحيانًا فى الواقع عن عدد الطائرات المتوافرة . وقد لقى أكثر من ١٥٠ طيارًا إسرائيليًا مصرعهم فى الحرب . كان من بينهم ٥٠ من أمهر الطيارين كانت إسرائيل تسميهم أسراب الصيد . وكان لهذه الكارثة صدى مخيف فى داخل إسرائيل علاوة على وقوع عدد من الطيارين الإسرائيليين فى الأسر . وقد أسر السوريون وحدهم أكثر من ٦٣ طيارًا . ولقد أدى سقوطهم فى أماكن مأهولة إلى مصرع الكثيرين منهم بواسطة الأهالى مما جعل سوريا تناشد الأهالى ضرورة تسليم الطيارين .

دور القـوات الجـوية

ولاشك أن مهارة أطقم إعداد الطائرات للقتال ، يتوقف عليها عدد الطلعات التى تستطيع الطائرة القيام بها . ولقد وصل تجهيز الطائرة المقاتلة مثلاً بالوقود والذخيرة فى إسرائيل إلى ٨ دقائق بينما استطاعت مصر أن تكسر هذا الرقم بتخفيضه إلى ٦ دقائق وإلى دقيقتين فقط

للتزود بالوقود ، وبذلك أصبح من الممكن إقلاع ٨ طائرات فى الوقت نفسه فى خلال دقيقة ونصف الدقيقة . ولقد تمكن الطيارون المصريون من القيام ب ٦ ـ ٧ طلعات يوميا ، ورغم ذلك استطاع بعضهم أن يسقط ٤ ـ ٥ طائرات إسرائيلية فى اشتباك جوى واحد . .

وعن تجهيزات الطائرات ، ثبت بالقطع أن الطائرات الغربية والأمريكية كانت أفضل بكثير من الطائرات الروسية ، وهذا هو الطابع الغالب فى كل معداتها التكتيكية ، حيث تعتمد الكتلة الغربية على أساليب متقدمة فنيًا لخدمة عمليات القتال ، من وسائل إنذار ووسائل التشويش الألكترونية . ونتيجة للتجارب السابقة فى مواجهة الصواريخ الشرقية فى فيتنام طورت الولايات المتحدة وسائلها المضادة للصواريخ السوفييتية سام ٢ و ٣ ، ومن الطبيعى أنها أمدت إسرائيل بكل الوسائل الحديثة فى هذا المجال . ففى يوليو عام ٧٠ أمدتها بـ ٢٠٠ من أحدث الوسائل المضادة للصواريخ التى تتمتع بمدى ترددات واسع ، وأجهزة رصد إضافية لتستطيع إرسال موجات كهرومغناطيسية على نفس ترددات الرصد والتوجيه فى الصواريخ سام ٢ و ٣ . ولقد نقلت الطائرات س ١٣٠ الأمريكية اعتبارًا من ١٣ أكتوبر مع بداية الجسر الجوى الأمريكى كميات إضافية أكثر تقدمًا إلى مطارى العريش وحيفا ، بالإضافة إلى الرقائق المعدنية التى تطلق من الطائرات الفانتوم لتعمية الرادارات ، والبالونات الخداعية التى تعمل على تضليل الصواريخ سام ٦ ، ورغم ذلك فقد ظلت هذه الصواريخ تشكل خطورة كبيرة إذ تتميز بنشاط تردداتها مما يجعل التشويش عليها أمرا بالغ الصعوبة . وكانت محاولات الهروب منها تدخل الطائرات الإسرائيلية فى مدى المدافع المضادة للطائرات من طراز ٢٣ مم ، وكذا صواريخ سام ٧ المحمولة بواسطة المشاة . . وعمومًا أثبتت الحرب أن كل هذه الوسائل لم تكن ذات فاعلية مؤثرة على الصواريخ سام ٢ و ٣ وكذا على الصواريخ سام ٦ .

ولقد استوعبت مصر دروس ٦٧ جيدًا ، فقامت بإنشاء حظائر أسمنتية للطائرات وممرات إضافية فى المطارات علاوة على إنشاء أكثر من ٢٠ مطارًا إضافيًا ، كما طورت أساليب إصلاح الممرات بعد إصابتها ، مما كان له أكبر الأثر فى عدم تفكير إسرائيل فى استخدام الطيران لضرب المطارات مما ساعد مصر على الاحتفاظ بقوتها الجوية بأقل خسائر ممكنة . لقد اعتمدت مصر على الدفاع الجوى فى صد الهجمات المعادية على الجبهة فى القناة ، واستطاعت بذلك أن تستخدم الطائرات المقاتلة فى مواجهة الطيران الإسرائيلى فى الضفة الغربية للقناة وفى ضرب معابره إليها . وكان لإغارات الطيران المصرى فى العمق الإسرائيلى فى سيناء أثر كبير فى تدمير محطات اتصاله ومراكز قيادته بأقل خسائر تذكر فى القاذفات المصرية ، فقد كانت إسرائيل لا تعتمد كثيرًا على الدفاع الجوى لثقتها الزائدة فى قدرة طيرانها الإسرائيلى رغم أنه كان لديها حوالى ٨ بطاريات صواريخ هوك تضم ٤٨ قاذفا . ولم تستطع إسرائيل الحصول على صواريخ سام

سليمة كما كانت تأمل هى والولايات المتحدة سواء على الجبهة المصرية أو السورية ، ولقد اعتبر ذلك فشلاً فى نظر خبراء الحرب إذ كانت الولايات المتحدة وكندا تعوّلان على هذا الأمر .

الدفاع الجوى

وكان التطوير المصرى فى الصواريخ سام ٢ و سام ٣ مفاجأة لإسرائيل ، فلم تستطع طائراتها النجاح فى استخدام الوسائل المضادة التى سبق اختبارها فى فيتنام والتى أمدتها الولايات المتحدة بها . وفى المقابل أعلنت سوريا أنها سلمت للاتحاد السوفييتى طائرة فانتوم سليمة ، كانت ضمن خمس طائرات هبط بها طياروها فى سوريا وسلموا أنفسهم .

ولمجابهة الخسائر الإسرائيلية فى الطيارين، بدأ سد الخسائر اعتبارًا من يوم ٨ أكتوبر بواسطة طيارين أجانب من ذوى جنسيات مزدوجة (أمريكى - إسرائيلى) . وكمؤشر لانخفاض الروح المعنوية بين رجال الطيران الإسرائيلى ، أوردت بعض وكالات الأنباء صورة فوتوغرافية لجثة طيار إسرائيلى ، وقد قيدت يده بقيد حديدى فى جسم الطائرة لمنع الطيارين من الإسراع بالقفز بالمظلات عند أول خطر ، وكان معنى ذلك أنه لن ينجو طيار إلا بنجاة الطائرة .

وربما كان أكبر دليل على فاعلية الصواريخ العربية من طراز سام ما قاله الجنرال هود (الذى كان يشغل منصب قائد الطيران الإسرائيلى سابقًا) « أوقية من الوسائل الإلكترونية المضادة ، خير من رطل من الطائرات الإضافية فى وجود الدفاع الجوى المكثف » .

ومن دواعى الفخر للطيران المصرى ، وكان الرئيس حسنى مبارك يقوده أثناء الحرب، أنه من بين كل خمس طائرات إسرائيلية أسقطت ، كان هناك طائرتان أسقطهما الطيران المصرى . . وبلغ مجموع الطائرات المعادية التى أسقطتها المقاتلات الاعتراضية المصرية خلال الحرب أكثر من ٨٠ طائرة فانتوم وميراج إسرائيلية .

دور البحرية

وبالنسبة للقوات البحرية ، **كانت البحرية المصرية هى الأقدر إستراتيجيًا وتكتيكيا على حد سواء ،** فقد استطاعت أن تفرض حظرًا على الإمدادات المتجهة إلى إسرائيل ولاسيما البترول . كما استطاعت أن تحمى الساحل المصرى على البحرين الأبيض والأحمر . ولاشك أن حظر وصول البترول إلى إسرائيل كان سيؤدى بها إلى كارثة إذا استمرت الحرب أكثر من ذلك . وظهر ذلك جليا من خلال المساومات الإسرائيلية أثناء المحادثات لتوصيل الإمدادات للجيش الثالث نظير توصيل البترول .

وكان إغراق البحرية المصرية للمدمرة إيلات فى يوليو ٦٧ بواسطة زوارق الصواريخ أول عمل من نوعه فى تاريخ البحرية فى العالم ، ولقد تم الاشتباك بواسطة زوارق كومار الروسية التى أطلقت صواريخ ستيكس على مدى أكثر من ١٢ ميلا فأغرقت المدمرة ولقى ٤٧ من أفرادها مصرعهم ، وكانت كلها عملية مصرية بالكامل لا دخل فيها للسوفييت . ولقد لفتت هذه الحادثة أنظار بحريات العالم فبدأت التفكير فى استخدام الصواريخ الموجهة ضد السفن بدلا من المدافع ، علاوة على تطوير مفهوم السفن الصغيرة السريعة المسلحة بصواريخ سطح سطح ، خاصة وأن لهذه الصواريخ مدى يصل إلى ٢٥ ميلاً وتستطيع بعد إطلاق صواريخها أن توجهها نحو الهدف .

ولقد حدا ذلك بإسرائيل للتعاقد على ١٢ زورقا من طراز « سار » الفرنسى زنة ٢٢٠ طن تسلمت منها ٧ ثم هربت الباقى من ميناء شيربورج يوم ٢٤ ديسمبر ٦٩ على نحو القصة المعروفة ، بعد أن حظر ديجول تسليمها لها ،ثم تم تركيب صواريخ جازيل الإسرائيلية عليها .

وقد أثبتت البحرية قدرتها على توفير معاونة أرضية للمدفعية . فقد قامت البحرية المصرية بقصف مراكز السيطرة ومواقع الرادار ليلاً فى سيناء أكثر من مرة فى اليومين السادس والسابع من أكتوبر ، مما دفع إسرائيل إلى قصف مدينة بورسعيد من البحر .

هذا واستطاعت قوات الصاعقة بالبحرية المصرية أن تشن غارات مؤثرة مثل تدمير حقل بترول بلاعيم .

وكان لإسرائيل تجربة مريرة عندما حاولت مهاجمة بورسعيد بواسطة الضفادع البشرية ، وانتهت الغارة بكارثة ومصرع ٢٠ فردًا منهم فى يوم ١٦ أكتوبر .

وكان لسيطرة البحرية المصرية على خليج السويس أثر كبير فى يأس إسرائيل من الاستفادة بهذا المنفذ ، فقد أغرقت البحرية المصرية سفينة إنزال إسرائيلية فى خليج السويس استخدمت لاستكشاف إمكانية جلب البترول من الآبار على الجانب الشرقى من الخليج ، كما أحبطت محاولتين أخريين فى نفس الاتجاه .

وتمكنت البحرية المصرية من إغلاق باب المندب ، وضربت حصارًا محكمًا على البحر الأحمر فلم تنفذ سفينة واحدة إلى ميناء إيلات طوال الحرب . (كان المعدل ١٨ رحلة شهريا) وقام بذلك العمل ثلاث مدمرات مصرية من قاعدة فى ميناء عدن وبمعاونة بعض السفن الصغيرة .

ولم يكن الحصار البحرى لإسرائيل كاملا عن طريق البحر المتوسط ، ورغم ذلك فقد استطاع أن يخفض عدد السفن التى وصلت إلى ميناء حيفا إلى ١٧ سفينة وحسب، فى حين بلغ عددها فى الفترة نفسها من السنة السابقة ١٩٨ سفينة شحن وركاب .

وختامًا ، كانت حرب أكتوبر أول حرب حقيقية ، يشكل فيها التخطيط الجيد وإحراز المبادأة وتحقيق المفاجأة أمورًا جديدة على المفاهيم الإسرائيلية وعلى نظرة إسرائيل تجاه العرب . . ولقد استخدمت مصر فيها الكثير من الأساليب المبتكرة بل والمدهشة ، **فكانت إزالة الحاجز الرملى بواسطة مضخات المياه شيئًا مثيرًا للدهشة فى كل الأوساط ، وكان عبور قناة السويس كمانع يتميز بانحدار الشواطئ وسرعة التيار واتساع المجرى ثم إقامة المعابر عليه بهذه السرعة ، وعبور المعدات الثقيلة من فوقه فى أقل من ٢٤ ساعة ، كانت كلها أمورًا عكفت المعاهد العسكرية فى أرجاء العالم على دراستها والاستفادة منها** . وباختصار أثبتت الحرب أن العقلية المصرية لا تقل عن مثيلاتها فى العالم قدرة على التخطيط والتنفيذ على حد سواء .

أما إسرائيل فقد تيقنت بعد هذه الحرب أن نظرية الأمن لديها كانت تعتمد على أمور اهتزت دعائمها بشدة ، كافتراض التفوق الدائم فى التخطيط وافتراض الإمساك الدائم بزمام المبادأة .

ولقد فهمت إسرائيل أن موازين القوى يمكن أن تتغير ، وأن مصالح العالم لا يمكن أن ترتبط دائمًا بالإرادة الإسرائيلية ، وخاصة فى الشرق الأوسط أكثر مناطق العالم حساسية واحتواء على البترول .

الباب الثانى عشر

مشوار المخابرات العامّة

الفصل الخامس والأربعون : فى قصر الأسرار

الفصل الخامس والأربعون
فى قصر الأسرار

، صباح يوم من أيام صيف عام ١٩٧٥ كنت أقف أمام الرئيس السادات فى مقره بالمعمورة كندرية لحلف اليمين الدستورية فى حضور النائب حسنى مبارك ، وجاء فى قسم اليمين سم بالله العلى العظيم ، وبكتابه هذا ، أن أكون مخلصًا لجمهورية مصر العربية مؤمنا ثها ، وأن أعمل جاهدًا على تحقيق أهدافها وخدمة شعبها . . . محافظًا على أسرار العمل جهاز المخابرات » وخارجه . . .

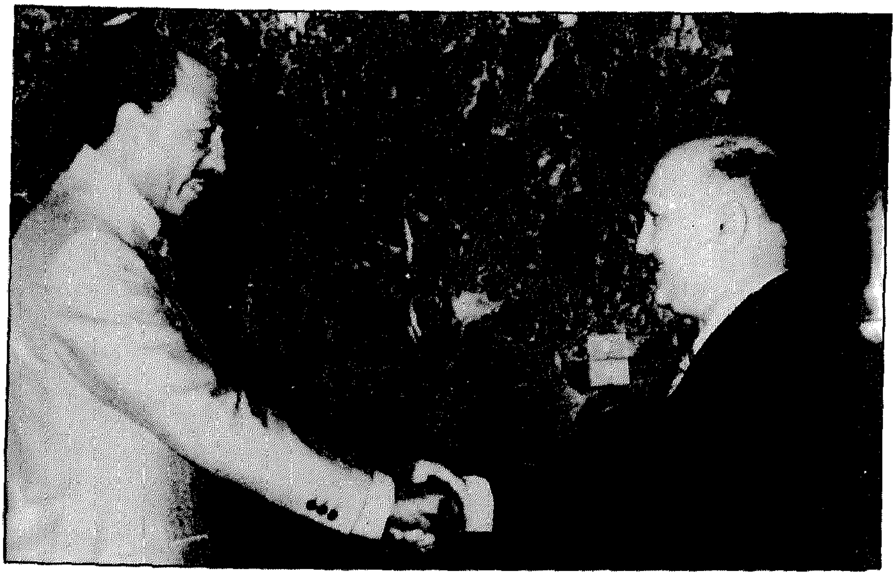
قد حدث قبل ذلك ببضعة أسابيع أنى تركت إدارة المدرعات فى شهر إبريل عام ١٩٧٥ ، صدر أمر نقلى لأتولى وظيفة مساعد وزير الدفاع ، هذه الوظيفة التى مكثت بها هذه بيع القلائل لكى يصدر بعدها قرار تعيينى رئيسًا للمخابرات العامة فى يوم ٨ يونيو عام ١ . .

، ذلك اليوم ، وبعد أن حلفت اليمين طلب الرئيس السادات منا الجلوس فى صدر ة المطلة على البحر الأبيض وجرى الحديث الذى سبق أن ذكرته من قبل فى مكان آخر من لمذكرات وجاء فيه :

أشهدك الله ياحسنى أنى لم أدخل معركة ٧٣ إلا بسبب هذا الرجل بعد أن زرته فى ىفى المعادى وأوضح لى الموقف عام ٦٧» إلى آخر الحديث المذكور (١) .

ان قد مر منذ يوم مقابلتى للرئيس السادات فى مستشفى المعادى وأنا جريح فى يونيو عام

رجع إلى صفحة ٢٤٧ من الفصل الرابع والثلاثين .



بعد حلف اليمين رئيسا للمخابرات العامة يونيو ١٩٧٥

١٩٦٧ ثمانى سنوات بالتمام حتى اليوم الذى حلفت فيه القسم فى المعمورة فى يونيو عام ١٩٧٥ . . . إنها سنوات طوال امتلأت بأحداث حرب الاستنزاف ثم بأحداث العبور . . . .

وأذكر أنه فى ذلك اليوم ، كان الرئيس السادات فى أبهج معنوياته زهوًا وانشراحًا ـ فمنذ أيام ثلاثة فقط احتفل مع العالم كله بحدث من أعظم الأحداث شأنا وجلالاً عندما كان يشهد إعادة افتتاح قناة السويس ، حيث كانت عيون العالم أجمع وآذانه ترقب المشهد المهيب لتدفق الحياة من جديد فى هذا الشريان الحيوى .

وفى طريق عودتى من الإسكندرية إلى القاهرة أذكر أنى سهمت بأفكارى بعيدًا عن كل شىء حتى عن هذه الكلمات التاريخية التى سجلها الرئيس السادات بلسانه عن شخصى عندما ذكر أنه بسببى أنا دخل معركة ٧٣ . . ذلك أن المهمة التى قد كلفت بها منذ اليوم كانت خطورتها أقوى من أن تجعل تفكيرى يتجه فى اتجاه عكسى نحو الماضى وتأملاته . .

كان هذا القسم يعنى بالنسبة لى أنى خلعت مع ثوبى العسكرى أحداث حياة طولها ٣٥ عامًا جمعتنى بزملاء العمر الذين خضت معهم خمسة حروب . . أربعة مع إسرائيل وواحدة فى اليمن ، بل لو أنى أضفت إليها أحداث الحرب العالمية الثانية من قبل ثم حرب الاستنزاف لصارت سبعًا !

* * *

وشعرت والسيارة تقطع بى الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة فى ظلمة الليل والصحارى تمتد من حولى إلى نهاية الأفق كأنى فى رحلة نحو المجهول . . فلم يحدث من قبل أن وطئت قدماى باب مبنى المخابرات . . هذا البناء الذى كان يقف بعيدًا عما حوله وكأنه قصر الأسرار!

وفى الأسابيع القليلة التالية كان على أن أتعرف على خبايا وأسرار هذا العالم المجهول . . .

وفى الحقيقة أشهد أن رئاستى للمخابرات العامة كانت من أكثر المهام التى كلفت بها إجهادًا للذهن وللأعصاب . . وأذكر أنى فى خلال بضعة أيام قليلة كان على أن ألتهم آلاف الصفحات من المذكرات والتقارير والكتب والأبحاث والمقتطفات . . . إلخ . .

كنت أشعر وأنا أقرأ أنى فى سباق مع نفسى للاطلاع والمتابعة والمراقبة لكل ما يجرى من أحداث فى الخارج والداخل ، وخاصة ما يؤثر منها على الأمن القومى ، ومع إجراء تحليل شامل للمواقف ليس فحسب من نواحيها العسكرية وإنما من مختلف الزوايا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأمنية . وكثيرًا ما كانت جلسات تجمعنى بالمتخصصين فى الجهاز وخارجه من أجل هذه التحليلات . كانت تستغرق الليل بطوله فلا نشعر بمرور الوقت إلا مع صوت آذان الفجر . . . فى الحقيقة كان العمل الأساسى لهذا الجهاز ككل جهاز حارس أن يسهر هو لينام الجميع .

مصاعب على الطريق

غير أن أكثر ما عانيت منه فى الأيام الأولى من تولى العمل ، لم يكن شيئًا يخص صعوبات العمل أو تنوع ميادينه أو مشاق طبيعته . فهذه كلها صعاب يمكن التغلب عليها بالجهد والممارسة ـ وإنما كانت أشياء أخرى تخص الآثار النفسية السيئة التى لحقت بالجهاز والعاملين فيه على أثر ما وقع من محاكمات للسيد صلاح نصر وغيره من العاملين بالجهاز .

وبرغم أن جهودًا كبيرة قد بذلت من كل الذين سبقونى [1] فى قيادة الجهاز لمحو الآثار المترتبة عن نكسة ٦٧ ، إلا أن تعيينى فى الجهاز قد تواكبت معه أحداث محاكمات أخرى لبعض أفراد الجهاز تتعلق بقضايا التعذيب ، وبالذات قضية تعذيب مصطفى أمين .

لقد كان لهذه المحاكمات المتتالية أثرها البالغ على عمل الجهاز من زاويتين اثنتين :

الأولى : ما تركته من آثار سلبية على الأفراد العاملين به هم وقياداتهم . فهم أولا وأخيرًا ينفذون

---

(١) كان من بينهم فى هذه الفترة السادة أمين هويدى وأحمد كامل وأحمد حافظ إسماعيل والمشير أحمد إسماعيل ثم اللواء عبد السلام توفيق الذى تسلمت منه العمل .

الأوامر التى تصدر إليهم دون تعقيب من رئاستهم ، حتى ولو افترضت أنه كان من بين هذه الأوامر أوامر خاطئة بالتعذيب .

الثانية : أن ما نشر بالصحف عن الجهاز وما نسب إليه عن حق أحيانًا وعن باطل أحيانًا أكثر ـ قد أبعد عن الجهاز عددًا كبيرًا من العلماء والباحثين المتعاونين مع الجهاز مما ترتب عليه بعض التداعيات فى أعماله .

ولقد حدثت فى هذه الفترة واقعتان صغيرتان ، ولكن رغم بساطتهما فإنهما أبرزا أمام عينى مدى الخطورة التى بلغتها نتائج هذه الآثار .

حدثت الواقعة الأولى عندما حضرت إلى مكتبى سيدة فاضلة من أعضاء مجلس الشعب ترغب فى أخذ رأيى الشخصى فى أحد الضباط العاملين بالجهاز ، لأنه كان متقدمًا للزواج من إحدى بنات عائلتها . وأثناء طلبها لبعض المعلومات الشخصية عنه وجدتها فجأة تتناول سمعة الجهاز السيئة لدى الشعب وكيف أن هذه السمعة جعلت أسرتها تتردد فى الارتباط به . .

لقد وضح لى فى هذه اللحظة كيف امتدت خطورة الأمر إلى سمعة الأفراد ومصالحهم الشخصية والأسرية .

أما الواقعة الأخرى ، فقد علمت بها من تقرير قدمه لى أحد قادة الجهاز أوضح فيه كيف توقف أحد المشروعات العلمية العامة بالجهاز نظرًا لأن الأستاذ الذى كان يشرف على المشروع ـ وهو واحد من العلماء المرموقين ـ اعتذر عن المضى فى التعاون مع الجهاز منذ أن بدأت حملة التشهير التى كان السيد مصطفى أمين يقودها فى جريدة الأخبار والتى بلغ الأمر فيها منتهاه عندما نشر فى أحد مقالاته خبرًا يتهم فيها جهاز المخابرات المصرى بسرقة خزانة إحدى السفارات والاستيلاء على المجوهرات الموجودة بها . .

كان المقال يشير إلى وقوع هذا الحادث فى عهد قديم ، ولكن فى الحقيقة هزنى المقال بشدة واستولى على كل جوارحى . . فانحراف فرد أو بضعة أفراد فى الجهاز أمر وارد محتمل الحدوث وتنتهى آثاره بانتهاء محاكمتهم . . أما أن يتهم جهاز بالكامل بالانحراف عن مهمته ، وهو جهاز له حساسيته الخاصة ويعتبر خط الدفاع الأول عن مصر فى الداخل وفى الخارج ، فإن الأمر يقتضى عند ذلك وقفة حاسمة .

وفى الحال بدأت فى العمل فى أكثر من اتجاه . . ففى بداية الأمر اتصلت بالأستاذ المتغيب الذى كان يقوم بالإشراف على المشروع العلمى ، واستطعت إقناعه بالعودة إلى مهمته بعد

جلسة قصيرة خاصة بعد أن اكتشفنا فى هذه الجلسة أن ثمة قرابة عائلية بعيدة كانت تربطنا معًا . .

ثم بدأت التحقيق على الفور فى التعرف على مدى مسئولية الجهاز فيما نشره الصديق الأستاذ مصطفى أمين تحت عنوان « سنة أولى سجن » وما تبعها من « سنة ثانية سجن » والتى لم يوضح فيها ما إذا كانت هذه الأحداث قد وقعت داخل مقر جهاز المخابرات أم فى مكان آخر كالسجن الحربى .

وعندما استقبلت المتهمين السيد حسن عليش ، ويسرى الجزار وبسطا أمامى صورة كاملة عما كلفا به من مهام تبين أن مهمتهما كانت بعيدة تمامًا عن قضايا التعذيب .

وهكذا كان لزامًا على أن أعمل فى مساندة الأفراد المقدمين للمحاكمة والذين اقتنعت فى نفسى ببراءة ذمتهم من أى اتهام وقمت بتسليمهم كافة المستندات التى تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم بأمانة وحق .

أما السيد مصطفى أمين نفسه ففكرت فى ضرورة الاتصال به لكى أوضح له مدى الآثار المدمرة التى راحت تصيب الجهاز نتيجة لهذه السلسلة من المقالات . ولحسن الحظ كان أحد وكلاء الجهاز يمت بصلة قرابة للسيد مصطفى أمين . ولذلك أرسلت فى استدعاء هذا الوكيل وأخذت أناقشه فيما ينشر عن الجهاز ، وكان هو نفسه يعلم تمام العلم أن ٩٩,٩٪ مما ينشر ليس للجهاز شأن به . . ولقد كلفته بالاتصال بالأستاذ مصطفى أمين ليوضح له حقيقة الأمور .

وبعد أيام جاءنى وأخبرنى أن السيد مصطفى أمين يرحب بزيارتى الشخصية له .

هنا طلبت منه أن ينقل إليه أنى أنا الذى أرحب بزيارته لى فى مكتبى بالجهاز ، وكنت أقصد من هذه الزيارة أن تذيب بعض المشاعر التى ما زال يحملها فى صدره إزاء الجهاز . .

ثم قفز إلى ذهنى خاطر أو فكرة على غرار الأفكار التى ظل مصطفى أمين نفسه ينادى بها طوال سنوات عمره !

ماذا لو دعوت كل الكتّاب ورجال الإعلام من الصحافة والإذاعة والتلفزيون لزيارة جهاز المخابرات العامة ليطلعوا على بعض مهام الجهاز وأعماله الحالية والسابقة ؟!

لقد كان من الضرورى أن يستعيد الشعب إيمانه بمهمة الجهاز ، كما كان من الضرورى أن يستعيد أفراد الجهاز إيمانهم هم أنفسهم برسالتهم . والأهم من ذلك أن نشجع الناس على

الإقبال على الخدمة فى الجهاز ، خاصة بعد أن انخفضت نسبة أعداد الراغبين فى الخدمة فيه مما يهدد بفقد قدراته .

وفى يوم ١٨/ ٥/ ١٩٧٦ اجتمع عندى فى الجهاز ما يقرب من ١٥٠ رجلاً من رجال الإعلام ، ولكن للأسف اعتذر السيد مصطفى أمين عن الحضور ، غير أنى عذرت للرجل مشاعره إذ كان لا يزال يحمل فى ذهنه ذكريات أيام التحقيق معه بالجهاز . أما باقى المدعوين فلم يتخلف واحد منهم عن الحضور فقد داعبتهم مشاعر حب استطلاع هذا المكان المجهول والمرعب فى تخيلهم . ولم يكن لهم ذنب فيما تصوروه بعد السمعة المشينة والانطباعات السيئة التى اتسمت بها كل أجهزة المخابرات فى النظم الدكتاتورية والشمولية بصفة عامة والتى اعتادت أن تكمم الأفواه وتفرض السرية والحجاب على كل شىء .

وبدأت جولة الضيوف فى بعض أقسام الجهاز بعد أن انقسمت مجموعة الزائرين إلى أربعة أفواج اتخذ كل فوج منهم مساره على أن يلتقى الجميع مرة أخرى فى صالة الطعام لتناول طعام الغداء .

واستمرت الجولة من العاشرة والنصف صباحًا حتى الواحدة والنصف ظهرًا ، وشاركت بعض الأفواج فى مرورهم . وكان كثير منهم من أصدقائى ومعارفى وكنت شغوفًا أن أسمع منهم تعليقاتهم . كان الجميع مشدودين بل مشدوهين أن يكون ما رأوه هو عمل الجهاز . هذا برغم أنهم لم يروا سوى النذر اليسير من عمله وفقا لما تقتضيه متطلبات الأمن . . . وكان من أكثر الأقسام التى نالت إعجابهم ، متحف الأمن القومى الذى عرضت فيه معظم قضايا الجاسوسية التى ضبطت ومعها كافة المستندات والصور والوسائل التى استخدمتها الأجهزة المضادة هى وعملاؤها فى إخفاء نشاطهم .

وبعد الغداء ألقيت كلمة قصيرة أوضحت فيها كيف أنهم لم يروا سوى ما يمكن الكشف عنه من أقسام الجهاز فى حدود أمنه ، ثم شرحت لهم كيف أن ما نسب إلى الجهاز لا يدخل بحال من الأحوال فى نطاق عمله ، ثم أبنت للحاضرين الفارق بين أن يدان فرد وأن يدان جهاز بأكمله حيث تصبح الأدانة قضية رأى عام ، خاصة وإذا كان الجهاز بمثل هذه المهمة وهذا الحجم ، فإن إدانته تعنى إدانة الدولة كلها إن لم تعن حرمان مصر من واحد من أسلحتها الدفاعية . ثم انتهى الحفل بكلمة للأستاذ المرحوم موسى صبرى ألقاها عن الحاضرين أشاد فيها بجهود الجهاز التى لمسها فى الدفاع عن الوطن .

وفى اليوم التالى صدرت جميع الصحف تحمل أجمل عناوين للأعمدة والمقالات التى تشيد

بالجهاز ودوره فى خدمة الوطن ، ومن بين التعبيرات النفاذة ما كتبه المرحوم الوردانى وكتّاب آخرون بعنوان « **حديقة الأمان** » « **وخط الدفاع الأول عن مصر** » . وهكذا تعدلت الفكرة والنظرة إلى الجهاز مائة وثمانين درجة ، ومن ثم بدأ التعاون معه يأخذ شكلاً جديدًا أحسست معه بارتياح كبير فى صدرى !

وعندما ناقشنى أحد المسئولين بعد ذلك فى آثار هذه الزيارة وسألنى إذا ما كانت قد أثرت على هيبة الجهاز ، أوضحت له كيف أن عمل أجهزة المخابرات فى العالم كله إنما يتوقف نجاحه على مقدار تعاون المواطنين معها وليس على مقدار الخوف منها . والحقيقة كان إحراق[1] الرئيس السادات لشرائط التنصت على المكالمات التليفونية فى يوم أول يونيو عام ١٩٧١ إيذانًا ببدء مرحلة جديدة من الحرية والديمقراطية ومن الحفاظ على أمن الوطن والمواطنين معًا .

التخفيـف من سيطرة الأجهـزة

وكان لابد للجهاز أن يواكب فكر القيادة السياسية فى تخفيف إجراءات السيطرة التى كان معمولا بها فى الدولة حتى ذلك التاريخ . ولأضرب مثلا على ذلك كيف كان من المحتم أن يحصل الموظف الحكومى أو الذى يعمل بالقطاع العام على إذن رسمى بمغادرة الجمهورية من المخابرات العامة للسفر فى أى مهمة سواء أكان بمفرده ممثلاً للحكومة أو ضمن وفد عام .

وعندما طلبت من القسم المختص أن يوافينى بعدد الموظفين الذين تم اعتراض المخابرات العامة على سفرهم خلال المدة التى طبق فيها هذا النظام (وكانت أكثر من عشر سنوات) جاءت النتيجة مذهلة حقًا ، **فلقد ظهر أن عدد من اعترض عليهم لم يتجاوز سبعة أفراد من بين حوالى سبعين ألف موظف أو أكثر .**

وعلى الفور أصدرت قرارى بإلغاء هذا النظام والاكتفاء بإذن جهة العمل فحسب دون غيرها .

صـلاح نصـر يشكـو

وفى هـذه الأثناء حـدث أن جاءنى السـيد صلاح نصـر وكانت قضـايا التعذيب تقف كالسـيف المسلـط عليه هو والسـيد حسن عليش ويسـرى الجزار وهم من ضـباط الجهاز

(١) تولى السادات بنفسه إحراق أشرطة التنصت على المكالمات التليفونية فى فناء وزارة الداخلية ومع وزير الداخلية ورئيس المخابرات العامة . كما أمر بإغلاق غرف مراقبة التليفونات بالإسكندرية .

السابقين فى عهد عبد الناصر . كانت هذه هى المرة الثانية التى أرى فيها صلاح نصر بعد ٢٦ عامًا منذ أن تقابلنا معا فى لندن فى مكتب الملحق الحربى المصرى عام ١٩٤٩ وكان موفدًا وقتئذ مثلى فى بعثة تعليمية لإنجلترا . لقد أصيب صلاح بجلطة فى القلب فى العام السابق وأفرج عنه صحيًا بعد محاكمات عام ١٩٦٧ التى حكم عليه فيها بالسجن المؤبد لما ارتكبه من تجاوزات أثناء رئاسته للجهاز ، غير أنه قدم للمحاكمة مرة أخرى لقضايا التعذيب . لذا جاء يشكو لى كيف أنه قد حمل وزر عهد بأكمله ، فى حين أنه لم يرتكب أى إثم وأن المحاكمة كانت لأسباب سياسية أكثر منها لشىء آخر . وضرب مثلا على ذلك أنه عندما اتصل به الرئيس عبد الناصر عام ١٩٦٥ وطلب منه اعتقال الإخوان المسلمين اعتذر عن المهمة لأنها كانت تخرج عن قدرات الجهاز وأعماله ، خاصة وأن الإخوان المسلمين كان عددهم يصل إلى أكثر من ثلاثين ألف . ويحكى صلاح نصر أن عبد الناصر أنهى المكالمة عند هذا الحد واعتبر أن صلاح نصر قد خذله إذ لم يطع الأمر . عندئذ لزم صلاح نصر غرفة نومه الملحقة بمكتبه لمدة أسبوع حتى توعكت صحته . وبعد أسبوع سأل عنه الرئيس عبد الناصر لأمر آخر ، فأخبره صلاح نصر بأسفه لعدم استجابته فى موضوع الإخوان المسلمين ، وإذا بالرئيس عبد الناصر يخبره أن الموضوع اعتبر منتهيًا ، إذ إنه كلف السيد شمس بدران بهذه المهمة بما لديه من إمكانات أكبر. ثم طلب منه مزاولة عمله .

وإنى أذكر كيف اختفى أحد أقاربى بالفعل فى هذه الفترة لمدة ثلاثة شهور ، وكان يحمل رتبة المقدم فى القوات المسلحة ، وبسؤاله عن الموضوع بعد ظهوره اتضح أنه كان يقيم بالسجن الحربى لأن اسمه ورد فى بعض الكشوف الخاصة بأحد فروع الإخوان المسلمين . فقد حدث ذات مرة أن تبرع بمبلغ خمسة قروش للإخوان عندما كان طالبًا بمدرسة فؤاد الأول الثانوية ! وعندما تبين من التحقيقات والتحريات أنه لا ينتمى إلى جماعة الإخوان أفرج عنه وأعيد إلى عمله مرة أخرى ، واستمر فى خدمة القوات المسلحة حتى رتبة اللواء ، كما شغل عدة قيادات إلى أن تولى مدير سلاح المشاة بعد ذلك بسنوات .

وكان صلاح نصر يرجونى أن أنقل شعوره وموقفه إلى الرئيس السادات ، غير أن الأمر كان منظورًا أمام القضاء ، لذلك قرر السادات ترك الأمر له ! وبالفعل أصدر القضاء حكمه بإدانة السيد صلاح نصر وبراءة كل من السيدين حسن عليش ويسرى الجزار ، ثم كان أن أفرج عنه بعد ذلك للأسباب الصحية نفسها .

خطة خمسية للجهاز

كان من الضرورى أن يجرى تخطيط شامل لكى يستعيد الجهاز كامل عافيته للقضاء تمامًا

على كل آثار نكسة ٦٧ التى بذل كل من قبلى جهدهم فى معالجتها . . فكان أن قمت بسلسلة من الزيارات الميدانية لأقسام الجهاز ، كما استمعت إلى تقارير قادة وضباط الجهاز فى كل المجالات . وشكلت لهذا الغرض لجانًا مختلفة لوضع خطة خمسية نابعة من فكر وخبرة وطموحات الدرجات كلها . ولما تبلور كل ذلك فى خطة واضحة محددة المعالم قمت باعتمادها من الرئيس السادات الذى وقع عليها يوم ١٩ يناير عام ١٩٧٦ .

كان هدفى من اعتماد الخطة من الرئيس السادات . أن يلتزم بتنفيذها كل من يتولى الجهاز من بعدى نظرًا لأن الجهاز كان يتبع رئيس الجمهورية مباشرة .

وكان قدرى أن أظل على رأس هذا الجهاز بعد ذلك التاريخ لفترة تقرب من السنوات الثلاث توليت أثناءها تنفيذ معظم هذه الخطة خاصة فيما يتعلق بالأفراد بعد أن زاد الأقبال على الالتحاق بالجهاز بعد تحسين صورته ، فإعداد الفرد يعتبر أهم عنصر فى التطوير نظرًا لأن هذا الإعداد يحتاج إلى وقت طويل .

الهجـان والصعـود إلى الهـاوية

وكان من بين ما طرح فى الخطة ، إنتاج فيلم سينمائى لزيادة وعى الجماهير بالنسبة لأمن الوطن والمواطن ، وبحيث يبنى على قصة حقيقية من قصص الجاسوسية التى كشفت عنها المخابرات العامة .

وعندما استعرضنا عددًا من قضايا الجاسوسية لانتقاء إحداها ، وقع الاختيار على قصة «الصعود إلى الهاوية » ، وكلفت الكاتب القصصى « صالح مرسى » بكتابة القصة واشترك السيد فوزى عامر المنتج السينمائى مع الجهاز فى التمويل .

وكان لابد من اشتراك عناصر من الجهاز لمراجعة القصة والسيناريو ، بل فضلت أن يكون المصور نفسه بأجهزته من المخابرات لكى يستغل نظرته ودرايته فى إبراز ملامح عمل المخابرات، وهو الأمر الذى ثبتت صحته عندما حصل على جائزة أحسن مصور سينمائى لذلك العام .

ولقد قمت بنفسى بقراءة السيناريو وتمعنت فى أفكاره على مدى ثلاثة أيام مساء . وفى بادئ الأمر لم يرض إحساسى الذى كنت أرجوه لزيادة الوعى الجماهيرى وهو ما كنت أنشده فى المقام الأول ، فأعدته إلى اللجنة المكلفة بعد أن دونت عليه ملاحظاتى ، ولم تتمكن من الانتهاء منه إلا بعد ستة شهور أخرى من العمل المتواصل إلى أن ظهر بالصورة التى استمتع بها الجمهور فى الفيلم . ولم تكن العلاقات مع ليبيا فى ذلك الوقت على المستوى الذى يمكننا من

طلب معاونتها فى تصوير بعض مناظر الفيلم بداخلها ، وذلك بعد إغارتها على نقط حراسة الحدود الممتدة بين مصر وليبيا ، فى ٢ يوليو ١٩٧٧ .

كانت بعض أحداث الفيلم قد جرت فى الواقع فى ليبيا حيث كان والد « هبة » يعمل ولذلك استبدلت بليبيا تونس ، ولقد قدمت السلطات هناك كل معاونة فى تصوير الفيلم ، بل واشترك فى أحداث الفيلم هناك بعض الممثلين من تونس ، وانتهى إنتاج الفيلم فى سبتمبر عام ١٩٧٨ حيث تقرر افتتاح أول عرض له يوم ٣ أكتوبر فى سينما مترو بالقاهرة .

ولقد حضرت بنفسى عرض الفيلم ، إلا إنه فى منتصف الفيلم جاءنى مدير مكتبى يخطرنى بأن السيد نائب الرئيس يطلب اتصالى به تليفونيًا لأمر هام . وفى الحال تركت السينما وتوجهت إلى سيارتى واتصلت تليفونيًا بالسيد نائب الرئيس ، **وإذا به يخطرنى أنه قد تم تعيينى وزيرًا للدفاع والإنتاج الحربى وقائدًا عامًا للقوات المسلحة ، وعلى أن أتوجه فى صباح اليوم التالى لعمل التجربة النهائية للعرض العسكرى الذى سيتم يوم ٦ أكتوبر فى صحراء السويس . .** وبذا لم يكتب لى أن أرى الفيلم كاملاً إلا بعد ذلك بسنوات .

ولاشك أن عرض مثل هذه الأفلام أو المسلسلات التليفزيونية مثل قصة رفعت الجمال أو (رأفت الهجان) تعمل على زيادة وعى الجماهير بالأمن القومى المصرى ، فكم واحد من أبنائنا على قلتهم قد بدأ تورطه فى أعمال ضد الأمن القومى المصرى بعد استدراجه إلى جمعيات أو منظمات مختلفة تخفى أهدافها وراء أغراض نبيلة كالسلام أو الإنسانية أو غيرها ، ودون ما وعى منه تنفذ المنظمة إليه من إحدى نقاط ضعفه إلى أن يفتح عينيه ذات يوم فإذا هو غارق فى الخيانة حتى أذنيه .

النشــاط المتعــدد لجهاز المخــابرات

ولم تعد أعمال المخابرات فى هذا القرن تقتصر على النشاط الحربى ، بل تعدى ذلك إلى محاولة الحصول على المعلومات السياسية والاقتصادية للاستفادة من الثغرات ونقاط الضعف فى الأمن القومى لأى بلد . وهذا بالتالى يعنى ضرورة تعاون الصفوة من السياسيين والعلماء فى هذا البلد مع جهاز المخابرات فى متابعة التطور السياسى والاقتصادى والعلمى والفنى فى بلد آخر أو عدة بلاد أخرى يرتبط الأمن القومى لبلدنا بها .

وأذكر مثلا على ذلك أنه فى عام ١٩٧٧ انخفض محصول القمح والحبوب فى الاتحاد السوفييتى إلى أدنى مستوياته ، مما ينبئ بلجوئه إلى السوق العالمى لشراء ما يلزمه نظير الدفع

بالذهب ، كان العجز حوالى ١٢ مليون طن ، لذلك كان من المتوقع زيادة الأسعار بقدر كبير حيث يخضع السوق العالمى إلى قاعدة العرض والطلب .

واتصلت بوزير التموين لسرعة التعاقد على الكمية المطلوبة وقتها وكانت مليون طن قمح ، غير أن الاستجابة كانت من البطء بحيث بدأت الأسعار فى الصعود ، فلجأت إلى السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء الذى أوصى بسرعة التعاقد ، إلا أن الوقت كان قد فات واندفعت الأسعار إلى زيادة ما يقرب من ٥٠ دولارًا فى الطن . **وبعبارة بسيطة فقد خسرنا نتيجة لعدم تقدير قيمة هذه المعلومات وهذا التحليل حوالى ٥٠ مليون دولار** . وكاد الأمر يتكرر فى العام التالى لولا تدخل الرئيس السادات بشخصه ، الأمر الذى دعا إلى إصدار نشرة اقتصادية كل ١٥ يوم توزع على كافة الوزارات والجهات المعنية ، تشمل كافة المعلومات الاقتصادية المؤثرة على السوق العالمية وبالتالى على مصر .

لذلك لا يتوقف نجاح أى جهاز مخابرات فى بلد ما على ما يحصل من معلومات وتحليلها بل يتوقف على مدى الاستفادة بهذه المعلومات فى التوقيت المناسب ولا ينطبق ذلك على المعلومات العسكرية فحسب بل على كافة المعلومات كما رأينا فى مثال القمح .

أهميـة موضـوع الأمن القومـى

ونظرًا لأهمية موضوع الأمن القومى بالنسبة للدول فقد اهتمت كثير من الدول المتقدمة بإدخال هذا الموضوع ضمن برامجها التعليمية التى تدرس للطلبة وخاصة فى المراحل الثانوية . وتعطى الدول الديمقراطية أهمية خاصة لعملية التوعية ؛ ففى المجتمع المفتوح تنشر الصحف ما تشاء من معلومات وأخبار قد تكون مصدرًا لمعلومات ثمينة تستفيد منها الأجهزة المعادية دون إجهاد ودون حاجة إلى استخدام عملاء .

وتميل طبيعة الأفراد فى مثل هذه المجتمعات المفتوحة إلى نوع من الثرثرة تكون غالبًا للتباهى أو لإظهار المعرفة أو التفاخر بالإطلاع على بواطن الأمور ، ويتم ذلك أحيانًا خلال المناقشات العامة لإظهار مدى العلم وليس لمجرد إبداء رأى أو عرض فكرة .

أما فى المجتمعات الشمولية المغلقة حيث تكمم الأفواه وتفرض السرية على كل شىء ، فإنه يحظر النشر فى الصحف إلا ما يسمح به النظام ، مع متابعة أقوال الأفراد والتنصت عليهم فى كل وقت وفى كل مكان ، سواء فى اجتماعاتهم أو فى جلساتهم الخاصة فى داخل الأندية الرياضية والاجتماعية وفى داخل النقابات وكافة الأنشطة . ولذا يصبح من المهام الرئيسية للجهاز فى الداخل حماية النظام ومتابعة الأجانب وأنشطتهم المختلفة للتعرف على مدى

مساسها بالأمن القومى ، الأمر الذى يسهل من عمل المخابرات فى مكافحة الجاسوسية وجمع المعلومات والأعمال المضادة للمخابرات الأجنبية .

وفى الحقيقة أن مثل هذه الأعمال أصبحت لا تقتصر على دول النظم الشمولية المغلقة بل أصبحت تتعداها فى الآونة الأخيرة إلى الدول الديمقراطية . ولعل أبرز حادثة صارخة فى هذا الخصوص ما حدث فى الولايات المتحدة فى فترة الخمسينيات عندما حشد السناتور جوزيف مكارثى كل طاقة الأجهزة لمتابعة الأفراد ومصادرة كل رأى حر تحت دعوى مكافحة الشيوعية الأمر الذى هدد الديمقراطية الأمريكية فى الصميم ، وحتى يومنا هذا أصبحت كلمة «مكارثية» مرادفة لكلمة استبدادية فى التاريخ القومى الأمريكى .

وعلى أية حال ، ومهما كان شكل المجتمع الذى تعمل فيه أجهزة المخابرات والأمن القومى فإن نجاح أعمالها سيظل دائمًا مرتهنا بتعاون سائر مؤسسات الدولة الأخرى السياسية والاقتصادية والعلمية والعسكرية ، بل بتعاون المواطنين كافة الذين ترسخ لديهم القناعة بأن أمن الوطن هو مهمة هذا الجهاز الذى هو ملاذهم وسياج وجودهم ، ومن هنا كان حرصى على دعوة رجال الإعلام فى مايو عام ٧٦ ، ثم ما تلا ذلك من دعوات لهم ولغيرهم فى شهر رمضان رغبة فى تحقيق مناخ يسمح بالمزيد من التعاون .

الباب الثالث عشر

مشوار وزارة الحربيّة

الفصل السادس والأربعون : محادثات فى قصر بلير هاوس

الفصل السابع والأربعون : الانسحاب الإسرائيلى من سيناء

الفصل الثامن والأربعون : فى داخل إسرائيل

الفصل السادس والأربعون

محادثات في قصر بلير هاوس

عندما جاءنى مدير مكتبى يهمس فى أذنى وأنا جالس فى صالة العرض أشاهد العرض الافتتاحى لفيلم الصعود إلى الهاوية يوم ٣ أكتوبر ١٩٧٨ ، لم أتوقع عندما توجهت إلى تليفون سيارتى لأحادث السيد النائب حسنى مبارك ، أن يخطرنى من الناحية الأخرى أن عملى قد انتهى هذه الليلة فى إدارة المخابرات العامة ، وأن مشوارًا جديدًا من مشاوير العمر سوف يبدأ من الغد . قال لى حسنى مبارك إن الاختيار قد وقع على لأكون وزيرًا للحربية وقائدًا عامًا للقوات المسلحة . . وعلى أن أتوجه فى اليوم التالى مباشرة لعمل التجربة النهائية للعرض العسكرى الذى سوف يتم بعد ثلاثة أيام (يوم ٦ أكتوبر) فى صحراء السويس .

وكان علىّ يوم ٥ أكتوبر أن أحلف اليمين القانونية للمنصب الجديد فى مكتب رئيس الجمهورية . . وكان على كذلك أن أحل مشكلة شخصية عويصة قبل يوم الاحتفال ، وهى مشكلة الحصول على الزى الرسمى لهذه المناسبة بعد أن اكتشفت أن دولاب ملابسى بالبيت لم يعد يحتوى على أى ثوب عسكرى منذ أن بدأت عملى فى المخابرات العامة منذ ثلاث سنوات . ولكن لحسن الحظ وجدت أن زميلى الفريق الماحى كبير الياوران قد رتب لهذا الأمر ، ولذا فاجأنى فى بيتى ومعه الترزى الذى أعد بدلة التشريفة ، والرجل الذى جهز الحذاء الطويل المخصص لهذا الغرض .

مهمة جديدة

لم أدخل مكتبى فى وزارة الحربية ، ولم أجتمع بقيادة القوات المسلحة للتعرف عليهم



وزيرًا للدفاع

وإبلاغهم بمهام الفترة المقبلة إلا ليوم واحد[1] . وبعده كنت مدعوًا للقاء بالرئيس السادات فى استراحة الهرم التى تطل فى مشهد رائع على وادى النيل حيث تظهر عند الأفق قمم المقطم ومآذن جامع القلعة ، بينما تهجع حجرات الاستراحة فى كنف الحجارة الضخمة التى حملها قدماء المصريين من كهوف المقطم ليشيدوا بها الهرم بطريقة ما زال العلم حتى يومنا هذا يتخبط فى كشف أسرارها .

كان الذى يشغل بال الرئيس السادات فى ذلك اليوم هو كيفية قطع مشوار السلام حتى نهايته ، وكان قد بدأ خطوته الضخمة الأولى بمبادرته التى ظل العالم يحس صدمتها لفترة طويلة من الزمن ، عندما قام بزيارة القدس يوم ١٩ نوفمبر من العام السابق (١٩٧٧) .

وكان ذلك العام قد شهد عدة تحركات مكثفة إلى رومانيا وإيران والسعودية وغيرها من البلاد ، قبل إقدامه على هذه المبادرة التى أدت إلى اتفاقية كامب ديفيد[2] .

وفى هذا الاجتماع الذى ظننت أنه سيبلغنى فيه بتوجيهاته عن مهام العمل فى وزارة الحربية ،

---

(١) يمكن للقارئ أن يرجع إلى كتابى « محاربون ومفاوضون » للمزيد من التفصيلات فيما يخص هذا الفصل والفصل القادم .

(٢) انظر الملحق (أ) الصفحة رقم ٥٣٥ .

فوجئت بأنه يكلفنى بالسفر إلى واشنطن على رأس وفد التفاوض مع إسرائيل فى هذه المباحثات التى انتهت بتوقيع اتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية ، والتى عرفت فيها بعد باسم مباحثات بلير هاوس ، هذا القصر الأحمر الذى يقع خلف البيت الأبيض ، وكان هو المقر الرسمى الذى يشغله بعض رؤساء الولايات المتحدة قبل أن يتم بناء البيت الأبيض فى أواخر القرن الثامن عشر . وفى قصر بلير هاوس كانت المباحثات تتم بين الوفدين أول الأمر ، وكان علينا أن نتتقل إليه يوميًا من فندق ماديسون الذى نزلنا فيه ولم يكن يقع بعيدًا عنه . . ثم اتفق على عقدها فى الفندق نفسه بعد ذلك .

وفى اجتماعى بالرئيس السادات ، تلقيت منه توجيهاته عن المباحثات والتى لم تزد عن عبارتين قصيرتين ، ولكنهما كانتا بمثابة دستور لهذه المباحثات : « **لا تفريط فى الأرض ، ولا تفريط فى السيادة** » ! . . وأذكر أن المقابلة انتهت دون أن يضيف شيئًا إلى هاتين العبارتين .

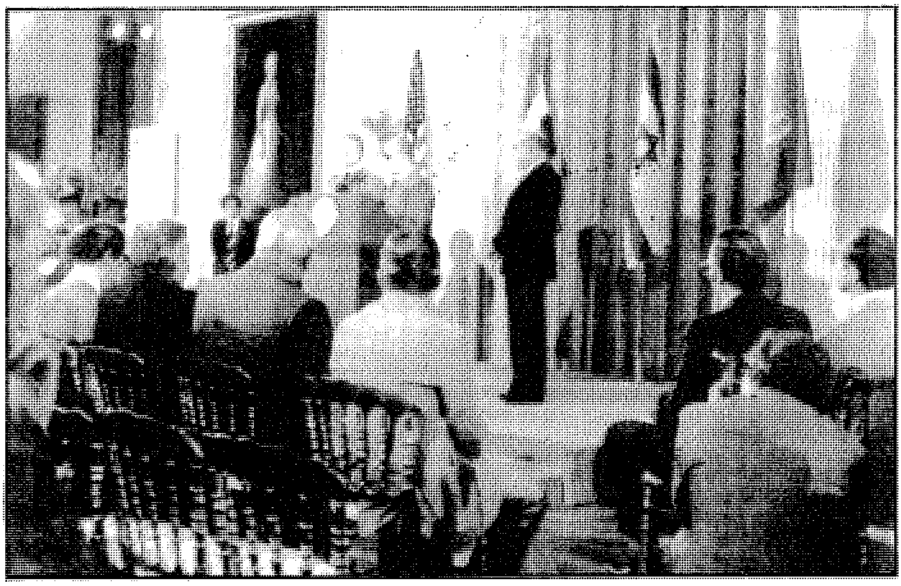
ولقد حضر اللقاء معى فى ذلك اليوم الدكتور بطرس غالى الذى كان وقتها يشغل منصب وزير دولة للشئون الخارجية . ولقد اتفقت معه على عقد جلسة فى مكتبى فى اليوم التالى بوزارة الدفاع يحضرها باقى أفراد الوفد الذى كان مكونا من مجموعتين : مجموعة وزارة الدفاع ، ولقد اخترت أعضاءها من الضباط الذين سبق أن شاركوا فى مفاوضات الكيلو ١٠١ واتفاقيات كامب ديفيد ، وهم اللواء طه المجدوب واللواء لبيب شراب والعميد بحرى محسن حمدى . ثم مجموعة الدبلوماسيين التى كانت تضم الدكتور بطرس غالى والدكتور أسامة الباز وأشرف غربال ومجموعة من الخبراء من وزارة الخارجية والقانونيين وخبراء البترول .

محـادثات بـلير هـاوس

وللحقيقة فإننى رغم شغلى لمنصب رئيس المخابرات العامة لأكثر من السنوات الثلاث وانشغالى بكثير من الأمور السياسية ، إلا أن تكليفى برئاسة وفد المفاوضات دفعنى إلى أن أبدأ مرحلة جديدة من الدراسة المستفيضة لموضوع المفاوضات على ضوء ما تم فى كامب ديفيد ، وأن أجمع أقصى ما أستطيع من المعلومات عن وفد التفاوض الإسرائيلى، لعلمى أن المفاوضات ما هى إلا صراع بين عقليات وإرادات يلعب فيها الجانب الشخصى دورًا هامًا ومؤثرًا .

كان الجو الدبلوماسى بمسمياته واصطلاحاته وبروتوكولاته بعيدًا عن عملى فى القوات المسلحة وفى المخابرات العامة على السواء ، وكان لابد من محاولة استقطاب المعلومات المتيسرة عن هذا الحقل الجديد لنشاطى .

كانت أول رحلة للوفد المصرى إلى واشنطن برئاستى فى أكتوبر عام ١٩٧٨ ، وكان على أن



افتتاح محادثات بلير هاوس فى البيت الأبيض

أصل إلى الولايات المتحدة عبر باريس ، حيث كان مقررًا لقائى بوزير الدفاع الفرنسى « بورج» لاستعراض بعض النواحى العسكرية المشتركة والمتعلقة أساسًا بالتسليح ،بعد أن قرر الرئيس السادات تنويع مصادر السلاح ، **حيث توقف الاتحاد السوفييتى تمامًا عن الإمداد به بعد أكتوبر عام ١٩٧٣** . . . ولم نكن بعد قد اتفقنا مع الولايات المتحدة على توريد السلاح . حيث إن ذلك لم يتم قبل توقيع معاهدة السلام التى أمكن الحصول بعدها على أول قرض أمريكى ومقداره ١٥٠٠ مليون دولار لشراء الأسلحة الأمريكية .

وفى اليوم التالى لزيارة باريس وصلنا إلى واشنطن ونزلنا فى فندق ماديسون الذى كان الوفد الإسرائيلى أيضًا ينزل فيه .

عــيزر فايتســمــان

كان عيزر فايتسمان وزير الدفاع الإسرائيلى عضوًا فى هذه المفاوضات . . وقد بادرنى هو بزيارة جناحى بالفندق ، وكانت الزيارة فى الحقيقة إجابة لسؤال ألح على ذهنى منذ وصولى ، وهو كيف يمكن أن يبدأ التعارف بين الوفدين المصرى والإسرائيلى .

وللحقيقة فإنى وجدت فى عيزر فايتسمان قلبا مفتوحا لفكرة السلام . . ويومها قال لى « إن لقـاءنا هذا سـوف يكرس معنى لدى الشعـبين المصرى والإسرائيلى ، وهو أن الإنسان واحد

فى مـصر وإسرائيل . وأننا لسنا من « ذوى الذيول » ، يقصد أنهـم ليسـوا نوعا مختلفا من البشر .

وكان هناك الكثير من أوجه التشابه بينى وبين عيزر فايتسمان ، فهو قد خاض مثلى أربعة حروب منذ عام ١٩٤٨ بين مصر وإسرائيل ، وآن لنا الأوان أن نجلس متواجهين لنبحث أمر السلام المرتقب بعد هذه العداوة المريرة التى عشناها طوال هذه السنين .

وكما أصبت أنا مرتين فى هذه الحروب الأربعة ، فقد أصيب ابنه الأكبر شاءول فى حرب الاستنزاف برصاص قناص مصرى . . فى الرأس .

واستطاع هذا اللقاء أن يذيب الحاجز النفسى بيننا ، خاصة وقد وجدت فيه ما يوحى بالثقة ، وهذا ما تأكد بعد ذلك أثناء المفاوضات . ورغم أن فايتسمان لم يكن هو رئيس الوفد الإسرائيلى إلا أن صفته كوزير للدفاع أعطته ثقلاً لا يمكن إغفاله .

وقد قص لى فى هذا اللقاء قصة أول لقاء جمعه بالرئيس السادات ، ثم حكى لى عن مشاعره عند وصوله إلى مصر فى أول رحلة يطير فيها إلى القاهرة دون رهبة أو خوف ، فلقد سبق أن طار فوق مصر عام ١٩٤٨ ولكن فى مهمة قتالية ضمن أربع طائرات كانت هى كل القوات الجوية لإسرائيل ، ولقد دمرت إحدى هذه الطائرات وقتل طيارها .

كما أذكر أننى قصصت عليه ظروف إصاباتى فى الحروب الإسرائيلية وإصابتى فى بطنى أثناء حرب ١٩٦٧ .

وقد استطعنا فى هذا اللقاء أن نبعد مشاعرنا الخاصة كعسكريين عن جو التفاوض الذى نحن مقبلون عليه .

وطلبت من د. بطرس غالى أن يقوم بمثل هذه الزيارة لموشى ديان رئيس الوفد ، ثم قمت أنا برد الزيارة فى اليوم نفسه لعيزر فايتسمان فى جناحه وتعرفت على زوجته .

ومن خلال هذه الزيارة المبدئية التقيت أيضًا بموشى ديان الذى كان يشغل وزير خارجية إسرائيل وكان يقود قوات إسرائيل فى حرب ٦٧ عندما ذاق حلاوة النصر ، وفى حرب ٧٣ عندما ذاق مرارة الهزيمة .

والحقيقة أنى شعرت أثناء المفاوضات أن هناك لغة مشتركة بين العسكريين تمكنهم من سهولة التفاهم ، خلاف رجال السياسة والقانون الذين عانينا منهم الأمرين خلال المفاوضات بين الصياغات والكلمات والفواصل ، وإن كانوا فى كل ذلك على حق .

كان التشكيل الأساسى للوفد الإسرائيلى برئاسة ديان وعضوية عيزر فايتسمان ومائير روزين والجنرال إبراهام تامير ، ثم انضم إليهم السفير دينتز والوزير بارون ثم أهارون باراك المستشار القانونى .

وكان الوفد المصرى برئاستى وعضوية كل من د. بطرس غالى ، د. أسامة الباز ، د. عبد الله العريان ، والسفير أشرف غربال .

وللحقيقة كانت هذه المفاوضات شاقة للغاية ، وتطلبت من الوفد المصرى بالذات صبرًا يفوق الاحتمال ، ولعل خير شاهد على ذلك ما ذكره عيزر فايتسمان فى كتابه « المعركة من أجل السلام » من أن أحد الأسباب الرئيسية لنجاح المحادثات كان ما تذرعت به أنا والوفد المصرى من صبر وسعة صدر مكننا من احتواء المواقف الصعبة . . أما ديان فعندما سأله نوح موزيس المعلق فى جريدة يدعوت أحرونوت الإسرائيلية عن رأيه فى المفاوضين قال « كان كمال أكثرنا صبرًا وأهدأنا نفسا ، وهو رجل موضوعى يعرف ما يريد » .

المبادئ المصرية

وكانت المبادئ التى وضعها الوفد المصرى أساسا للتفاوض يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ ـ الهدف هو الوصول إلى تسوية شاملة وليس حلاً جزئيًا أو منفصلاً .

٢ ـ أن التسوية تقوم على أساس قرارى الأمم المتحدة رقمى ٢٤٢ ، ٣٣٨ والإطار الذى تم الاتفاق عليه نصا وروحًا فى كامب ديفيد .

٣ ـ أن كل شىء قابل للتفاوض عدا المساس بالأرض أو السيادة .

٤ ـ أن مصر مستعدة لإقامة سلام وعلاقات عادية مع إسرائيل دون تمييز خاص .

٥ ـ أن مصر تقبل أى إجراءات للأمن طالما تطبق على جانبى الحدود وتكون قابلة لإعادة النظر بعد استتباب الأمن .

٦ ـ أن صيغة الاتفاق يجب أن تكون محددة وقاطعة ولا تقبل التلاعب أو التأويل .

٧ ـ أن أمريكا بتعهدها شريك كامل ومسئول وضامن لكل تعهدات الاتفاق المنتظر .

مقابلة كارتر

وفى مساء يوم ١١/ ١٠ التقيت أنا والوفد المصرى بالرئيس كارتر وأربعة من كبار مساعديه هم برزنسكى . آثرتون . سوندور . وكوانت ، **وقد لخص وجهة النظر الأمريكية فى خطوط كان أبرزها ما يلى :**

١ ـ أن الولايات المتحدة سوف تتصرف كشريك ، وأنه شخصيًا تحت تصرفنا عند الحاجة لتدخله .

٢ ـ أن الولايات المتحدة أعدت مشروعًا للمعاهدة تطرحه على الطرفين للاسترشاد وكنقطة بداية .

٣ ـ أنه يأمل أن تختصر مدة الاتفاق ، وأن يتم الانسحاب الابتدائى فى خلال ستة أشهر والنهائى خلال سنتين بدلا من ثلاث كما فى إطار كامب ديفيد .

٤ ـ أنه لا زال يأمل فى اشتراك الأردن والفلسطينيين فى حل المشكلة طبقًا لاتفاق كامب ديفيد .

٥ ـ أنه أحس بأن الإسرائيليين متفتحون لأهمية اختصار الوقت طمعًا فى سرعة الاعتراف وإقامة العلاقات الطبيعية ، وأنه بعد لقاء الإسرائيليين فى اليوم السابق يرتاح للمناخ القائم ويأمل فى الوصول إلى اتفاق .

وقد طلب كارتر منا ملاحظاتنا على المشروع الأمريكى المقترح للمعاهدة والأسئلة التى تطلب مصر إجابة إسرائيل عنها فيما يتعلق بالمشكلة الفلسطينية .

وقد ارتحت لهذا التلخيص الذى دل على فهمه أن الاتفاق يتم على أساس كامب ديفيد ، وبالتالى فهو يجب أن يشتمل على الربط بين المعاهدة المنتظرة وبين القضية الفلسطينية وهى لب المشكلة فى الشرق الأوسط .

صلاحيات الوفد الإسرائيلى

ومنذ أن بدأت المفاوضات أحسست أن الوفد الإسرائيلى يفتقر إلى الصلاحيات التى تكفل له اتخاذ القرار ، هذه الصلاحيات التى حجبها عنه بيجين الذى كان من الواضح أن تعليماته للوفد الإسرائيلى كانت تتلخص فيما يلى .

١ ـ ليس من حق الوفد الدخول فى القضية الفلسطينية .

٢ ـ أن الوفد يجب أن يرجع إلى حكومته قبل أى موافقة من أى نوع .

٣ ـ أن الوفد يجب أن يلتزم بالمبادئ التى تم تلقينها له فى تل أبيب .

ولم تكن هذه المبادئ بالطبع تتفق مع ما تم الاتفاق عليه مبدئيًا فى كامب ديفيد .

الموقف العربى

عندما دخلت إلى فراشى فى اليوم الأول لوصولى ، وأخذت أتصفح بعض الصحف والمجلات الأمريكية ذكرتنى بعض التحليلات السياسية فيها عن الموقف فى الشرق الأوسط

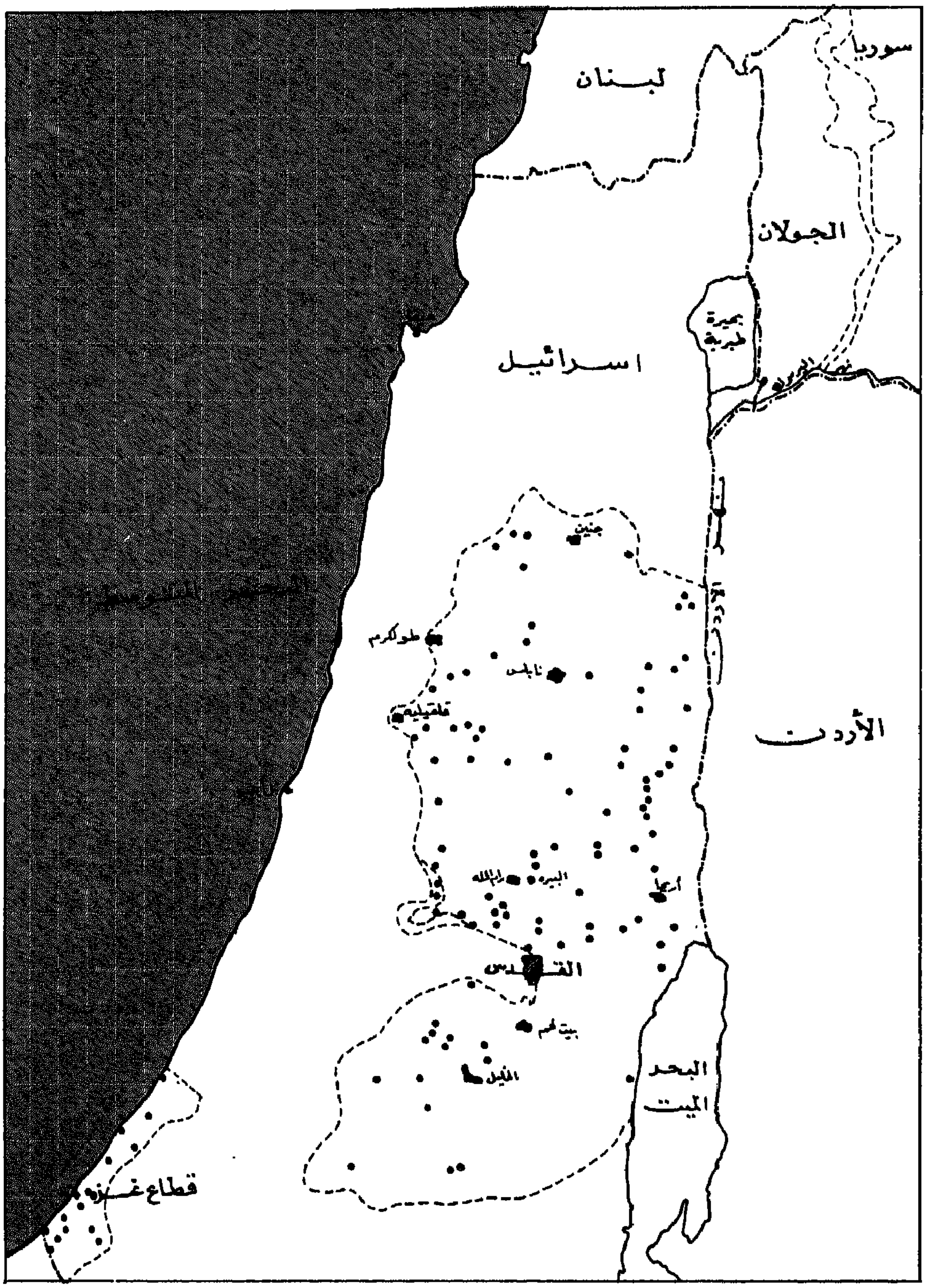
بالموقف العربى الرافض للسلام ، وبالموقف المتشدد الذى اتخذه مؤتمر بغداد من مصر ، من وقف المساعدات ونقل الجامعة العربية ، وتجميد العلاقات الدبلوماسية وإنشاء صندوق لمساعدة دول المواجهة ، وهى القرارات التى لم تقدم أى بدائل لحل المشكلة بل والتى أبعدت اشتراك الأطراف الأصلية فى الصراع فى أى محاولة جادة لإيجاد الحل . وتعجبت من هذا الإصرار الأعمى على الرفض والذى مارسته هذه الدول منذ بداية المشكلة فى عام ١٩٤٨ على مدى ثلاثين عامًا ، دون خطوة إيجابية واحدة . وقفزت إلى ذهنى أهوال الحروب التى كانت مصر وشعبها فى واقع الأمر هى وقودها الحقيقى والتى نزفت فيها دمها ومالها .

لقد كان توقيع وثائق كامب ديفيد يعنى تحريك القضية العربية على كافة الجهات ، ولم يكن مطلوبًا من العرب إلا تقدير هذه الفرصة السانحة للسلام الذى يعنى تحجيم إسرائيل ومنعها من التوسع الإقليمى الذى تحلم به لإيواء عدد أكبر من المهاجرين . مع حرمانها من الذريعة التى تستخدمها لاستجلاب المساعدات عسكرية كانت أم اقتصادية بدعوى الدفاع عن النفس . .

ولم يقدم العرب طبعًا أسبابًا يسوقونها للرفض . فقالوا إن اتفاق كامب ديفيد لم يحقق الانسحاب الكامل من الأراضى العربية وأنه تجاهل موضوع القدس ولم يعترف بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى وأنه مجرد سلام منفرد بين مصر وإسرائيل . وحاولت دول مؤتمر بغداد أن تمنعه برشوة مصر بخمسة مليارات سنويًا ـ ولكن السادات رفض حتى مقابلة الوفد الذى أرسلوه لهذا الغرض .

فلقد كانت الأبواب بعد كامب ديفيد مفتوحة لكافة الحلول ، وهناك ربط محدد بين ما وقعت الأطراف عليه وبين كافة الموضوعات التى يدعى الرفض العربى أنها أهملت . . وهذا واضح . وقد ورد فى الخطاب الذى وقعه كل من السادات وبيجين صراحة أن « **تتفق الحكومتان على أن الغرض من المفاوضات هو إقامة سلطة الحكم الذاتى فى الضفة الغربية وغزة من أجل تحقيق الحكم الذاتى الكامل للسكان** » .

وقد حددت الحكومتان سنة واحدة للانتهاء من المفاوضات بحيث يتم إجراء الانتخابات بأسرع ما يمكن بعد أن يكون الأطراف قد توصلوا إلى اتفاق وتنشأ سلطة الحكم الذاتى ، واعتبارًا من هذا التاريخ تبدأ فترة السنوات الخمس الانتقالية ويتم سحب الحكومة العسكرية الإسرائيلية وإدارتها المدنية لتحل سلطة الحكم الذاتى محلها ، وهذا فى رأيى كان كافيا كبداية . . إذ ما لا يؤخذ كله . . . لا يترك كله .



المستوطنات الإسرائيلية فى الضفة الغربية

عدد المستوطنات فى الضفة الغربية ٩٤

عدد المستوطنات فى قطاع غزة ١٥

الاستيضاحات الأردنية من الولايات المتحدة

ولقد أرسلت الأردن إلى الولايات المتحدة مجموعة من الأسئلة حتى تبنى موقفها على أساس ردود الولايات المتحدة عليها ، وكلها بالطبع مرتبطة بوثائق كامب ديفيد ، فهى إذن أسئلة تفسيرية.

وكان مفهوم كارتر وقتها كما ذكره فيما بعد فى كتابه بالنص :

« أوضحت الرسائل الخاصة أن السعوديين يساندون عملية السلام ، بينما كان الأسد حذرًا. ولكنه ترك الباب مفتوحًا حتى لا يلقى به وحده للسوفييت ، أما الملك حسين فبدا وكأنه مهتم ووافقنا على طلبه فى طرح بعض الأسئلة عن اتفاقية كامب ديفيد حتى يبلغ ردود أمريكا لقادة العرب الآخرين » .

وقد أجابت الولايات المتحدة على الأسئلة المذكورة ، وأرسلت صورة من هذه الإجابة لإسرائيل التى انزعجت واعتبرتها عدوانية المضمون فيما يتعلق باحتياجات إسرائيل الأمنية ، كما وأنها تعتبر تراجعًا من الرئيس كارتر عن بعض تعهداته كما جاء فى كتاب « الاختراق » لموشى ديان والذى صدر بعد ذلك .

ويهمنى هنا أن ألفت النظر إلى الفرصة الثمينة التى أعطاها الرفض العربى لإسرائيل منذ ذلك الوقت، لإقامة مستوطنات جديدة على مدى اثنى عشر عاما أو يزيد ، فنتيجة لعدم اتخاذ أى إجراء تجاه المفاوضات كان طبيعيًا ألا تلتزم إسرائيل قبل أى جبهة بعدم إقامة المستوطنات، ويهمنى أن أرفق هنا خريطة للمستوطنات الإسرائيلية التى كانت قائمة وقت مباحثات السلام فى كامب ديفيد ، والتى لا شك أنها الآن تزايدت بشكل غير محدود . بل وربما تضاعفت خلال هذه السنين الاثنتى عشرة بصفة خاصة ، وقد استمر سيل المهاجرين على إسرائيل من الاتحاد السوفييتى والدول الشرقية علاوة على يهود الفلاشا الذين أقامت لهم جسرًا جويًا لنقلهم من الحبشة فى أيام معدودة بل ساعات معدودة .

المأزق الإسرائيلى

وفى غداء عمل حضره الرئيس كارتر ووفود المباحثات الثلاثة ، فاجأ ديان الحاضرين عندما قال إن مكان هذه المباحثات يجب أن يكون الشرق الأوسط وليس الولايات المتحدة . وقد أثارت هذه العبارة استياء الجميع ، وشعرنا بأن ديان يعلن إحساسه بالعجز نتيجة بعده عن حكومته التى جردته من السلطات الطبيعية للمفاوض المفوض .

كان اتصال ديان بإسرائيل عند إبداء أى موافقة أثناء سير المباحثات باعثًا على الملل ، برغم



غداء عمل للوفدين المصرى والإسرائيلى مع كارتر

حجة ديان بأن هذه هى الطريقة الديمقراطية التى تستوجب عرض الأمر على الكنيست والحكومة قبل اتخاذ أى قرار ، وكانت الآراء فى الكنيست والتشدد المعروف لكثير من الأحزاب كفيلة بتعطيل اتخاذ أى قرار . وحتى الأمور المنصوص عليها فى إطار كامب ديفيد كان ديان يتهرب من الموافقة عليها ، حتى بدا كأننا نجلس من جديد ولأول مرة دون خلفية سابقة لبحث أمور سبق لها أن قتلت بحثًا من قبل . . . .

وقد اتضحت لى على مدى الأيام الأولى من المباحثات ، الأهداف التى يرمى الإسرائيليون إلى تحقيقها فى اجتماع للوفود الثلاثة فى ٢٣/ ١٠ . وبعد أن قدم فانس مشروعه المعدل للمعاهدة على أساس مقترحات الطرفين ، اعترض الجانب الإسرائيلى على ذكر الربط بين المعاهدة والتسوية الشاملة على أساس أنه قد سبق ذكر الربط فى إطار كامب ديفيد ، **وقد وضح صراحة أن إسرائيل تريد عقد اتفاقية مع مصر وحدها دون الربط بأى اتفاقيات أخرى .** وعندما أكدنا أن هذا الربط ضرورى وحيوى ، هرب ديان إلى مقولة إنه مفوض من البرلمان بتوقيع اتفاقية مع مصر فقط ولا يمكنه الاستمرار بعد ذلك .

المشـكلات الرئيسـية

وإذا أردنا تلخيصًا للمشكلات الرئيسية التى واجهت المباحثات يمكننى أن أقول إنها كانت تقع فى موضوعات رئيسية بعينها ، وهى أولوية الالتزامات ، والربط بين المعاهدة والحل الشامل ، وتقدير القوات فى خطوط الأمان المقترحة ، وموضوع المستوطنات فى سيناء ، ثم بترول سيناء .

وبالنسبة للقوات ، فقد طلبنا زيادة القوات الموجودة فى المنطقة المحدودة التسليح مع وضع صواريخ أرض / جو شرق قناة السويس .

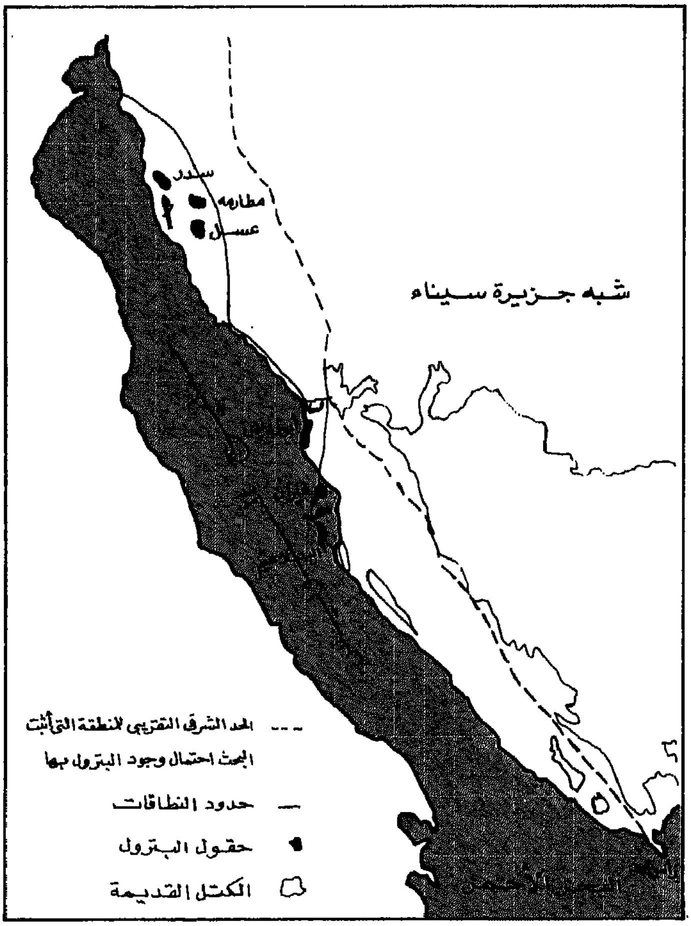
وبوصول المباحثات إلى حد الحرج ، دعا الرئيس كارتر الوفد المصرى لمقابلته ، وكان رأى كارتر أن الزيادة التى نطلبها فى القوات هى نفسها الموجودة فى كامب ديفيد ، وأن ثمة خطأ قد وقع حينئذ ويمكن تصحيحه الآن . وعندما علم أن المطلوب هو وضع صواريخ أرض / جو أى صواريخ دفاعية أبدى ارتياحه لذلك . وبالنسبة للربط بين المعاهدة والتسوية أبدى تفهما لذلك ، ورأى أنه يمكن تضمين الديباجة لهذا الربط أو اللجوء إلى خطابات تفسيرية مكملة للمعاهدة بهذا الشأن .

وبالنسبة للتدرج فى إقامة العلاقات ، كان كارتر تواقًا لأن تستجيب مصر لطلب إقامة العلاقات بعد الانسحاب الابتدائى ، تشجيعًا لإسرائيل على المضى فى طريق السلام ، خاصة وأنها قبلت فى نظير ذلك تنفيذ الانسحاب المبدئى فى ستة أشهر بدلا من تسعة ، وقبلت الانسحاب من العريش فى خلال شهرين بدلاً من أربعة وفتح الطريق بين العريش وغزة . وبالنسبة لأولوية الالتزامات المترتبة على المعاهدة ، فقد أعرب كارتر عن أمله فى الوصول إلى اتفاق ، بعد أن أكد له الوفد المصرى أن قبول هذا النص فى غيبة اتفاق باقى الأطراف قد يعنى تخلى مصر عن العرب ، وهذا ما لن توافق عليه مصر بحال من الأحوال . . بل إنه قد يعرض أمن مصر نفسها للخطر .

بتــرول ســـيناء

على مدى سنوات الاحتلال الطويلة لسيناء ، استغلت إسرائيل كافة ثروات سيناء الطبيعية أسوأ استغلال ، سواء البترول أم المناجم أم حتى أسماك البحيرات . . فحقول البترول المصرية استنزفتها إسرائيل بمعدلات غير طبيعية (٢١ ألف برميل يوميًا) حتى صارت نوعية البترول الذى تستخرجه من حقول « علما » بعيدة عن المواصفات العادية للتكرير ، وزادت نسبة الملوحة إلى ٢٠ فى المائة لدرجة خشى عندها ألا تتقبلها معامل التكرير (إذاعة إسرائيل) ، فاضطرت إسرائيل إلى تخفيض الإنتاج إلى ١٩ ألف برميل يوميًا . وعندما جاء وقت التفاوض لترك هذه الحقول بدأت إسرائيل فى محاولات الإبقاء على ارتباطاتها فيها ، مثل رغبتها فى استمرار شركة « نبتون » فى عملياتها بخليج السويس فى إطار العلاقات الطبيعية ، بل إن إسرائيل طلبت تعهدًا بأن تزودها مصر بكمية سنوية محددة من بترول سيناء .

وقد سلم مستر أثرتون بإقرار الولايات المتحدة بعدم شرعية استكشاف أو استغلال البترول



حقول البترول فى سيناء

فى الأرض المحتلة ، وإن كان قد شكك فى إمكانية التوقف عن تشغيل الآبار بمجرد توقيع المعاهدة خوفًا على هذه الآبار من الناحية الفنية . وعندما استطلعنا رأى الخبراء الذين استدعيناهم من مصر على وجه السرعة ، تطابقت آراؤهم مع رأى الوفد المصرى بضرورة إيقاف التشغيل وليس هناك أى ضرر فى ذلك على الآبار . . .

والحقيقة أن موضوع البترول كان من أكثر الموضوعات مشقة ، حيث إن الإصرار الغريب للجانب الإسرائيلى كان ملفتا للنظر حتى بدا لى فى وقت من الأوقات أن إسرائيل تعلق عليه نتيجة المباحثات كلها . . فبينما كنا نجتمع لبحث أسلوب تسليم حقول البترول كان الجانب الإسرائيلى يحاول الخروج من هذا الموضوع للدخول فى اتفاق مع مصر بشأن البترول .

وقد حشدت إسرائيل فى وفدها الفنى للتفاوض بهذا الخصوص مجموعة من أكبر خبرائها ومسئولى البترول والطاقة فيها ، وكان على رأسهم فى بعض الأحيان وزير الطاقة (إسحاق

موداعى) الذى عقد جلستين معى على مدى ٥ ساعات ، واستخدمت كافة المغريات لإقناعنا بالسماح لشركة « نبتون » بالاستمرار فى العمل ، وكان من هذه المغريات فى نظرهم تسليم سائر المعلومات الجيولوجية والجيوفيزيائية عن حقل « علما » ، وتسليم البيانات الناتجة عن جهود إسرائيل على مدى إحدى عشرة سنة لاستكشاف البترول والغاز الطبيعى ، علاوة على تسليم مسح جيولوجى مفصل عن سيناء يتضمن نتائج أكثر من ٣٠٠ دراسة .

وكان رأى المستر فاردى المدير العام بوزارة الطاقة الإسرائيلية أن استمرار شركة أخرى سوف يستغرق وقتًا حتى تصل للمعدلات الحالية التى يمكن أن يكون لها تأثير إيجابى على ميزان المدفوعات المصرى بما تدره من عشرات الملايين من الدولارات ـ وأن شركة أمكو التى تتعاقد معها مصر قد حصلت على الامتياز قبل اكتشاف حقل « علما » فلماذا تجنى ثمار مجهود الغير .

ولاشك أن مستر فاردى قد لاحظ من قسمات وجهى أننى لا أصدق أنه قلق بشأن ميزان مدفوعاتنا . . أو أنه معجب بخبراء البترول المصريين وشروط التنقيب المصرية التى يقول إنها أفضل شروط فى العالم وإن إسرائيل اتبعتها إعجابا بإحكامها ودقتها .

ورغم كل المحاولات فقد كان الرد المصرى هو رفض السماح لأى شركة بالاستمرار فى الاستغلال غير الشرعى لبترولنا ورفض الالتزام بتوريد كمية معينة من البترول لإسرائيل ، وأن عليها أن تدخل فى المنافسة مع باقى الدول للحصول عليه دون معاملة تفضيلية لا فى البترول ولا فى أى معاملة اقتصادية أخرى . .

كان الملاحظ أثناء هذه المناقشات أن الولايات المتحدة الأمريكية تحبذ فكرة الالتزام المصرى بتوريد البترول لإسرائيل ، خاصة بعد أحداث إيران ، حيث أصبح المورد الوحيد هو الولايات المتحدة نفسها ، وقد عرضت الولايات المتحدة فعلا عند بحث برتوكولات الانسحاب من سيناء أن توافق مصر على إعطاء إسرائيل أسبقية شراء ١,٥ مليون طن سنويًا لمدة خمس سنوات طبقًا لحق الرفض الأول ، وبشروط لا تقل تميزًا عن الشروط الممنوحة للدول الأخرى .

وأوضحنا أن منح إسرائيل حق الرفض الأول هو إخلال بالأسلوب المصرى فى بيع فائض البترول بأعلى سعر ، كما أن معناه أننا نوافق على معاملة خاصة أو متميزة لإسرائيل فى كافة المعاملات الأخرى علاوة على أن فائض البترول المصرى لن يصل إلى هذه الأرقام .

المبادئ والمال

وفى اجتماع عقد فى ٥/١١/١٩٧٨ ، أعلن وزير الطاقة الإسرائيلى أن مجلس الوزراء الإسرائيلى رفض فكرة عدم تضمين المعاهدة نصوصًا خاصة بالبترول ، لأن موضوع البترول من

أهم العناصر التى يتوقف عليها التوصل إلى معاهدة السلام مع مصر وطلب أن نستدعى وزير البترول المصرى إلى واشنطن للمناقشة .

وهنا فرغ صبرى ! وقلت له بطريقة حاسمة إننا لن نقبل تقنين وضع باطل ولن نميز إسرائيل عن غيرها ، وعليها إذا أرادت شراء البترول المصرى أن تتبع وتلتزم كغيرها بالأسس التى يباع بها ، وذلك من واقع الحرص على تطبيع العلاقات معها ، وأن المبادئ عندنا أقيم من المال مهما كثر ، وقد رفض السادات قبول ٥ مليار دولار سنويًا عرضها مؤتمر قمة بغداد على مصر حتى لا تبرم هذه المعاهدة ، فلتعلم إسرائيل أننا شديدو الحساسية لأى لون من الضغط أو الإجبار، ولولا أن إسرائيل محتلة بالفعل لمناطق الآبار لأمكن تسوية مثل هذا الأمر بسهولة أكثر . . ورجوته أن يبلغ مجلس الوزراء الإسرائيلى أننا نرغب فى تطبيع العلاقات ولكن بلا حساسيات أو فرض أوضاع قد تؤدى إلى فشل كل الجهد الذى بذلناه للاتفاق حتى الآن . . . وأحسست أن رسالتى قد وصلت حينما بدأ الوزير فى محاولة المزاح للخروج من هذا الموقف .

مساومة بكل الطرق

كان الموقف الإسرائيلى فى كل مراحل المباحثات يتسم بالمراوغة والمساومة واتخاذ مختلف الطرق لذلك ، وكانت بعض هذه الطرق تصل بالرئيس كارتر إلى حد الغضب أحيانًا مثلما حدث عندما استفتى الوفد الإسرائيلى بعض رجال القانون الأمريكيين ، من خارج نطاق المباحثات ، بشأن الوضع القانونى المترتب على المادة السادسة من مشروع المعاهدة والخاصة بأولوية الالتزامات ، وكانت الفتوى فى صالح إسرائيل . وغضب كارتر وهدد بأنه ما دام لدى إسرائيل من يحل مشاكلها القانونية خارج المباحثات فإنه يفضل الانسحاب من المفاوضات . ولم نترك لإسرائيل الفرصة فقمنا باستفتاء نفس رجال القانون وحصلنا على فتوى ضد الفتوى الأولى ، وكان عذرهم وحجتهم أن الأمر قد عرض بطريقة مضللة فى المرة الأولى .

ولم يستطع الوفد الأمريكى أن يجد حلاً وسطًا نقبل به هذه المادة ، نتيجة إصرارنا الكامل على رفضها . . وكان المستشار القانونى للوفد الإسرائيلى مستر روزين رجلاً قانونيًا يجيد المناقشات العائمة التى تستطيع أن تعرض النصوص التى نحن بصددها لتكون غير واضحة التفسير ، وقد أبديت رأيى فيه وفى حضوره حيث وصفته بأنه بلغ من فرط « شطارته » أن أفقدنى الثقة فى آرائه . كنا ندور فى حلقة مفرغة فى مناقشاتنا مع السيد روزين ، حتى اضطر الوفد الإسرائيلى للاستعانة بمستشار آخر هو المستر باراك وهو قانونى قدير وموضوعى ، استطاع أن يجد لغة مشتركة بينه وبين د. أسامة الباز ود. أشرف غربال وفانس وكلهم مثله رجال قانون من خريجى جامعة هارفارد .

وفى الحقيقة ، لقد أحسست فى خلال الفترة التى بدأت من ١٩٧٨/١٠/٣١ ، أى بعد مضى حوالى ثلاثة أسابيع ، أن الوفد الإسرائيلى يحاول بالتشدد أن يدفع المفاوضات إلى أحد أمرين ! إما عقد صلح منفرد وإما فشل المباحثات .

وسافر كل من د. بطرس غالى ود. أسامة الباز إلى القاهرة يوم ١١/٣ للتشاور مع القيادة المصرية فى هذا الموقف المتشابك الذى قادت إليه المراوغات الإسرائيلية . ولعل أبلغ وصف لهذه الفترة هو ما جاء على لسان الرئيس كارتر نفسه حيث ذكر بعدئذ فى كتابه السابق ما نصه «كان من الصعب التباحث مع الإسرائيليين لأنهم كانوا دائما يركلون الكرة من ديان إلى فايتسمان إلى بيجين ثم العكس» . كما قال فى موضع آخر من نفس الكتاب : « من الواضح أن الإسرائيليين يريدون معاهدة منفصلة مع مصر ، وأنهم يثيرون مسألة المستوطنات فى الضفة الغربية ومسألة القدس لمنع الأردنيين وإبعادهم هم والفلسطينيين عن الاشتراك فى المباحثات» . كما قال فى مكان آخر ما يعتبر شهادة حق للسادات الذى اتهمته أبواق الرفض ظلما ببيع القضية حيث قال « وعرض السادات تأجيل انسحاب إسرائيل من الأراضى المصرية فى سيناء كمقابل لتأكيد انتخابات حرة لممثلى الفلسطينيين داخل الأراضى المحتلة » .

وفى اجتماع عقد فى ٤ نوفمبر عرض الجانب الأمريكى مطالب إسرائيل فى إقامة علاقاتها مع مصر بمجرد توقيع المعاهدة ، وكان الواضح منها أن إسرائيل تريد أن تأخذ بالجملة وتعطى بالقطاعى . فمثلا فى الوقت الذى لا تريد فيه الالتزام بأى توقيتات محددة لتنفيذ التزاماتها بخصوص الحكم الذاتى للفلسطينيين ، فإنها تطالب بأن يتم على وجه السرعة بعد التوقيع مرور السفن والبضائع الإسرائيلية فى قناة السويس ومضيق تيران وخليج العقبة وإنهاء المقاطعة الإسرائيلية ، كما تطلب إقامة وسائل اتصال كاملة بريدية وبرقية وتليفونية عقب الانسحاب المبدئى ، وكذا إقامة علاقات دبلوماسية كاملة على مستوى السفراء ، والتفاوض حول الاتفاقات التجارية والثقافية والطيران المدنى وذلك لإبرامها خلال فترة زمنية محددة ، كما ترمى أيضا إلى وجوب أن تشمل الاتفاقات التجارية والثقافية اتفاقات لصيد الأسماك واتفاقات بترولية واتفاقات ثقافية واتفاقات للطيران المدنى وإنشاء ممر جوى خاص بين مصر وإسرائيل وكذلك إقامة النصب التذكارى لشهداء الحرب واستعادة القطع الأثرية والدينية . .

موقف القيادة المصرية

وجاءنى الرد الصريح الواضح مع د. بطرس غالى ود. أسامة الباز عند عودتهما من القاهرة فى ١٩٧٨/١١/٧ فيما يختص بنقط الخلاف ، وكان على هيئة تعليمات قاطعة بالتمسك

بمبادئ معينة حتى لو أدى الأمر إلى فشل المحادثات وعدم توقيع المعاهدة . ويمكن تلخيص هذه التعليمات فى النقاط الآتية :

١ ـ قبل التوقيع على المعاهدة، يجب الاتفاق كتابة على موعد إجراء الانتخابات فى الضفة وغزة وسلطات ومستويات الحكم الذاتى وموعد انتهاء الحكم العسكرى والإدارة المدنية وقيام الحكم الذاتى وانسحاب القوات الإسرائيلية إلى مواقع محددة مع وجود مصرى فى غزة لحين استقرار الوضع فى خطوات تتوافق زمنيًا مع اكتمال الانسحاب المؤقت من سيناء .

٢ ـ النص بوضوح على ممارسة مصر الفورية للسيادة على كل جزء تنسحب منه إسرائيل دون انتظار استكمال الانسحاب النهائى .

٣ ـ لا تلتزم مصر بأى التزام خارج حدودها .

٤ ـ بالنسبة للنص على ترتيبات الأمن ، يجوز لأى طرف فى المستقبل طلب تعديلها لتخفيف القيود المفروضة ، كما يلتزم الطرف الآخر بالتفاوض فى شأنها .

٥ ـ العبور خلال القناة تحكمه اتفاقية القسطنطينية والقانون الدولى فقط .

٦ ـ جميع الصياغة الأمريكية والإسرائيلية الخاصة بأولوية الالتزامات مرفوضة ، ولا تفضيل أو معاملة خاصة لإسرائيل .

٧ ـ لا تلتزم مصر بإمداد إسرائيل بالبترول أو السماح لها باستغلاله ، ويجرى على ثروات سيناء ما يجرى على سائر الشركات العالمية دون تمييز .

وقد كتب السادات إلى كارتر يعيد تأكيد كافة مبادئ كامب ديفيد ، وأن المشكلة الفلسطينية هى أهم الموضوعات على الإطلاق ، كما يقترح تشجيعًا لباقى الأطراف على الانضمام للمفاوضات أن تقوم إسرائيل بإجراءات تخفيفية فى الضفة وغزة مثل السماح بعقد الاجتماعات السياسية وإطلاق سراح المسجونين السياسيين وإعادة شمل العائلات الفلسطينية . وكان من رأيه أن هذه الإجراءات يجب أن تتزامن مع موعد الانسحاب المبدئى من سيناء .

وفى الاجتماع الذى عقد يوم ١٠/ ١١/ ١٩٧٨ بين الوفدين نقل الوفد المصرى للإسرائيلى رأى القيادة المصرية ، وأشار بإلحاح إلى ضرورة الربط بين المعاهدة والقضية الفلسطينية خاصة بعد مؤتمر بغداد الذى انتهى فى ٥/ ١١/ ١٩٧٨ ، والذى حملت قراراته على مصر حملة شعواء وأدانتها بالانفراد بمحاولة حل القضية ، مع الرفض مقدمًا لأى حلول تتوصل مصر إليها . ـ

وعلى ذلك فقد طلب الوفد المصرى أن تتخذ الخطوات الخاصة بالضفة وغزة فى خطابات متبادلة بين مصر وإسرائيل تشمل التواريخ المحددة الآتية :

١ - يتم التفاوض على طريقة إجراء انتخابات المجلس الفلسطينى خلال شهرين من بدء سريان المعاهدة .

٢ - تتم الانتخابات فى خلال خمسة أشهر .

٣ - تنتقل السلطة من الحكم العسكرى إلى المجلس الفلسطينى المنتخب فى بحر أسبوعين من إجراء الانتخابات وإعادة توزيع القوات الإسرائيلية فى الضفة وغزة .

ولم يستطع ديان أن يعطى إجابة نهائية فى هذا الشأن بغير الرجوع إلى بيجين قبل الموافقة على أى شىء . وكان بيجين فى ذلك الوقت فى كندا . . وكان رأى ديان الشخصى أن هذه الأمور المطلوبة يحددها موعد الانتخابات للمجلس الفلسطينى الذى يتوقف على موافقة الفلسطينين الذين كانوا رافضين للدخول فى أى مباحثات .

أما فيما يتعلق بإعادة توزيع القوات الإسرائيلية فى الضفة وغزة فكان يرى ألا ينص عليها فى المعاهدة ولكن فى خطابات متبادلة بين بيجين وكارتر ، كما يؤكد معارضة إسرائيل لأى وضع خاص لمصر فى غزة أو التعجيل بالانتخابات فى غزة قبل الضفة الغربية . وكنا قد تقدمنا بهذا الاقتراح لما لمصر من تأثير خاص على قطاع غزة ، يستطيع أن يؤدى إلى موافقة الفلسطينين على هذا الإجراء . وكان أغرب ما أثاره ديان فى هذا الاجتماع هو تذكيرنا بأن التعهد الإسرائيلى بعدم بناء المستوطنات قاربت مدته على الانتهاء ، وأنه يحرص على تذكيرنا بذلك حتى لا نفاجأ ببناء مستوطنات جديدة !

وبدا الأمر فى منتهى التناقض ! فبينما نتحدث عن إنهاء الحكم العسكرى فى الضفة وغزة ، تتحدث إسرائيل فى الوقت نفسه عن بناء مستوطنات جديدة ، ولقد انتهزت إسرائيل هذا الوقت بالذات ليصدر فيه وزير الإسكان تصريحات عن النية فى بناء مستوطنة إيلون موريه وشو مرون .

وطالبت إسرائيل أمريكا بالمساعدة فى نقل مستوطنات سيناء التى رفضت مصر وجودها واعتبرتها أمريكا غير شرعية ، واعتبر كارتر أن المطالبة بالمساعدة المادية لنقلها شىء يفوق الحد (كما اعترف بذلك ديان نفسه فى كتابه الاختراق) حيث ذكر أن كارتر قال له أيضًا « إننا قدمنا لكم طوال السنوات الماضية مبالغ كبيرة من المال ، والآن ومع قدوم السلام راودنا أمل الإقلال من هذه المبالغ » .

أمـل صـاحب الفنـدق

وأذكر بهذه المناسبة أن صاحب فندق الماديسون الذى تنزل فيه الوفود فى واشنطن يملكه يهودى أمريكى هو « مارشال كوين » . وقد تعرفت عليه فى منزله فى حفل عشاء ضم مجموعة من أعضاء مجلس الشيوخ والنواب الأمريكى والسفراء الغربيين . وقد أعجبتنى شخصيته وأعجبتنى فيه حاسته الفنية وذوقه الرفيع فى اختيار كلماته بنفس طريقة اختياره التحف التى تزين منزله . . لقد كان فرحا بالسلام المقبل متفائلاً ومستبشرًا برغم أنه لم يحاول أن يقترب من المحادثات بأى شكل . وأحسست أنه شأنه شأن أى يهودى أمريكى آخر تواق إلى تحقيق السلام فى الشرق الأوسط ، أولا كيهودى يريد إبعاد شبح التدمير عن إسرائيل ، ثانيا كأمريكى يريد أن تزاح عن كاهله مسئولية حماية وتمويل إسرائيل . وهذا ما رأيته على وجهه عندما قدم لى هدية بمناسبة سفرى بعد وصول المباحثات إلى طريق مسدود .

لقد كان المواطن الأمريكى يتمنى أن تنتهى هذه المباحثات إلى عقد معاهدة سلام ، وقد اكتشفت هذا التعطش الأمريكى إلى السلام حين نزلت مرة من الفندق خلال المباحثات فى نزهة قصيرة على الأقدام تبعدنى عن الجو المحموم فى الفندق . وقصدت محلاً للأحذية وما إن غادرت الفندق حتى تابعنى عدد من المراسلين ومندوبى التليفزيون فأعادونى إلى نفس الجو الذى كنت أحاول الهروب منه . وسمعت ضمن المتابعين مذيعًا يصور بفرح هذه اللحظات الخالدة لانتهاء المباحثات إلى بر الأمان والسلام وذلك بعد ظن المراسل أننى فى طريقى للبيت الأبيض سيرا على الأقدام لتوقيع المعاهدة . . وأسرعت بالدخول إلى أول محل صادفنى وكان محل قبعات . . فلم أجد مانعًا من شراء غطاء لرأسى العارية ، ومن المحل اتصلت بالفندق وطلبت سيارة وصلت بالفعل لإنقاذى من هذا الموقف فلم أكن أنوى الإدلاء بأى تصريح من أى نوع ، ناهيك عن التصريحات المخيبة لآمالهم التى كان يمكن أن تصدر عنى فى مثل هذه الفترة .

وكان السبب الجوهرى فى رفض إسرائيل هو إصرار مصر على الربط بين المعاهدة ومفاوضات الضفة وغزة ، وكان رأى بيجين الذى أعلنه أنه لا ينبغى الربط أو الخلط بين اتفاقيتى كامب ديفيد ، وأن هدف المحادثات الحالية هو تنفيذ إحدى هاتين الاتفاقيتين أى توقيع المعاهدة مع مصر . . . وهكذا تكون إسرائيل بعد شهر كامل من المفاوضات المضنية قد تراجعت عن مضمون الرسالة الملحقة بمعاهدة السلام والتى ارتضيناها للربط بين المعاهدة ومفاوضات الضفة وغزة . . وبذلك عدنا مجهدين إلى أول الطريق .

لم تكن المباحثات قد توقفت تمامًا ، فقد كانت اللجان العسكرية تضع الترتيبات النهائية



مناحم بيجين

الخاصة بالانسحاب الإسرائيلى مع تعديل حجم القوات المصرية بالزيادة ، وما زالت هناك بعض نقط الخلاف التى لم تبت إسرائيل فيها بعد .

وحاول فانس عبثا فى لقاء عاجل مع بيجين فى مطار نيويورك أن يجد وسيلة لتخفيف حدة الخلاف برغم عرضه بعض الصيغ البديلة بالنسبة للضفة وغزة ، كذلك قام الرئيس كارتر بالاتصال بالسادات وبيجين لإنقاذ المباحثات . وبعد هذا الإعلان المستفز لإسرائيل برفض الربط بين المعاهدة وموضوع الضفة وغزة ، وافق السادات على مضض وكمجاملة للرئيس كارتر أن تستمر المباحثات ولكنه قرر إيفاد نائبه حسنى مبارك برسالة لكارتر .

كانت فكرة ضرورة أن تسبق الانتخابات فى غزة خطوة انتخابات الضفة فكرة مصرية ردًا على ما ادعته إسرائيل من استحالة موافقة الفلسطينين على الانتخابات ، بدليل رفضهم المشاركة للآن . . وبحكم أن غزة كانت أقرب لمصر من الضفة ، وكان لها حاكم عسكرى معين من مصر ، علاوة على أن لمصر معرفة كافية بزعمائها ولها من التأثير عليهم ما يمكن أن يضمن إمكانية إجراء الانتخابات قبل أن تجرى بالضفة ، ولتكن مثلا يحتذى به عند إجرائها فى الضفة ونموذجًا لباقى المناطق ، فلم يعن ذلك أن مصر تفضل أو توافق على الفصل بين المنطقتين المحتلتين من أراضى فلسطين . . وهو ما صرح به حسنى مبارك فى باريس وهو فى طريقه إلى واشنطن ، كما صرح بأن ذلك لا يعنى الخروج عن نطاق اتفاقيات كامب ديفيد . . بل إنه قد يعنى تجديد الدعوة لأية أطراف أخرى تبدى استعدادها للمشاركة فيما يخص الضفة، وكان يقصد الأردن طبعًا .

وفى يوم ١٥/ ١١ ذهبت إلى قاعدة أندروز لاستقبال النائب حسنى مبارك بعد مباحثات لى فى اليوم نفسه مع عيزر فايتسمان شملت استعراض الجزء العسكرى من الاتفاق . وكان لدى شعور بأن هذه المحادثات أصبحت تحتاج إلى دفعة جديدة لتخرجها من هذا الجمود ، وكنت متفائلاً بزيارة حسنى مبارك التى يمكنها أن تخلق مثل هذه الدفعة الجديدة .

وانتظر الجميع (وفى مقدمتهم إسرائيل) نتائج زيارة حسنى مبارك ، فصدرت عنها تصريحات عصبية عكست تخوفها من نتائج هذه الزيارة ، وكانت كلها بالطبع تصريحات متشددة إلى أقصى درجات التشدد بما فى ذلك رفض الربط بين المعاهدة والموضوع الفلسطينى ورفض مقترحات تقديم تطبيق الاتفاق فى غزة على الضفة بعض الوقت .

وقبيل اجتماع كارتر وحسنى مبارك أعلن كارتر فى حديث مع المراسلين أن المفاوضات خييت آماله فى الوصول إلى اتفاق سريع ، وأنه لا يعتزم الدعوة لاجتماع قمة آخر ، ثم انتقد عدم منح المفاوضين صلاحيات كافية من حكوماتهم ، كما انتقد إذاعة الخلافات على صفحات الجرائد . ورغم قلقه من التسويف فى الوصول إلى اتفاق أعلن أن أمريكا ستظل جسرًا للاتصال بين الطرفين إذ إنه يعلم أن كلا الطرفين راغب فى السلام ، وأنه ينبغى الوصول إلى السلام حتى لو اقتضى الأمر بعض التعديلات فى اتفاقيات كامب ديفيد ، كما أعلن أنه يرى أن الخلافات الباقية برغم قلتها لها أهمية سياسية بالغة .

ولكى ينفى ديان أن إسرائيل هى العقبة فى الاتفاق أعلن فى اليوم نفسه أن صيغة المعاهدة جاهزة بما فى ذلك تخطيط إجراءات الانسحاب الإسرائيلى من سيناء ، كما أعلن أن هناك مفاوضات تدور بين سمحا أيرلخ وزير المالية الإسرائيلى ووزير المالية الأمريكى للمطالبة بخمسة مليارات من الدولارات بين قرض ومنحة لتغطية تكاليف الانسحاب ، وأن المشكلة الوحيدة الباقية هى الإصرار المصرى على ربط المعاهدة بالضفة وغزة أو بغزة ثم الضفة .

وبصراحته المعهودة نقل حسنى مبارك إلى الرئيس كارتر وجهة نظر السادات والقيادات السياسية فى مصر من رفض السلام المنفرد وأن توقيع المعاهدة دون ربطها بالسلام الشامل لا يعنى إلا الصلح المنفرد ، كما أن المصاعب التى تتحدث عنها إسرائيل بخصوص الربط يمكن التغلب عليها جزئيًا بتقديم الاتفاق الخاص بقطاع غزة عن الضفة الغربية مدة ستة أشهر ، إذا ما تعذر التنفيذ فى المنطقتين فى الموعد المقترح وهو شهر من توقيع الاتفاقية ، وأن هذا الربط يجب أن يتم بجدول زمنى يحدد موعد الانتخابات وقيام الحكم الذاتى فى تزامن مع ما يتم فى سيناء أو مع تطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل ، كما أكد له أن مصر جادة فى سعيها للسلام الشامل وأنها تنتظر دورًا أكثر تأثيرًا من الولايات المتحدة للوصول إلى الهدف .

وصرح المستر فانس بعد لقاء حسنى مبارك فى غداء بالخارجية الأمريكية يوم ١٧/ ١١ بأن مصر تقدمت بمقترحات جديدة بنّاءة فى موضوع الربط بين الانسحاب من سيناء وإجراء الانتخابات الفلسطينية ، وأنه ينتظر رد إسرائيل بعد اجتماع مجلس وزرائها المرتقب فى يوم الأحد ١٩/ ١١ .

وهكذا نقل السادات الكرة إلى الملعب الإسرائيلى ، وكان من الواضح أن انتظار الرد النهائى لإسرائيل سوف يطول ، ولذلك تلقيت برقية من القاهرة بينما كنت مع الوفد فى طائرة تقلنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع فى أورلاندو حيث توجد مدينة والت ديزنى ، ولكن ظروف الطيران لم تسمح باستيضاح مفاد البرقية لعدم وضوح الصوت ، فاتصلت بالقاهرة بعد هبوط الطائرة من إدارة والت ديزنى حيث تلقيت التعليمات بالعودة للقاهرة .

الفصل السابع والأربعـون
الانسحاب الإسرائيلي من سيناء

طوال فترة المباحثات وخاصة عندما كانت الأمور تتطرق إلى النواحي العسكرية أثناء صياغة ملاحق الاتفاقية المقترحة ، كنت أجد نفسي موزع الخاطر بين اهتمامي بمهمتي في رئاسة وفد المفاوضات وبين مسئولياتي وواجباتي كوزير للدفاع . .

وحتى عودتي من واشنطن إلى القاهرة ، كنت لم أمارس عملي بعد كوزير للدفاع منذ تاريخ تعييني وطوال فترة الاثنين وأربعين يوما التي قضيتها في واشنطن على رأس الوفد .

كنت أقدر تمامًا عبء المسئولية التي أحملها على عاتقي خاصة في هذه الظروف التي نطرق فيها أبواب السلام والتي نتهيأ فيها لاستلام الأرض السليبة في سيناء .

وكان دوري كقائد عام للقوات المسلحة يعني أنني المسئول الأول عن الحفاظ على درجات الاستعداد العسكري من كافة النواحي الفنية والعسكرية والمعنوية . . كما كان من الضروري إعادة التوزيع الإستراتيجي للقوات المسلحة بعد تأمين الحدود الشرقية لمصر ، وذلك مع الاستعداد لكل المواقف والظروف التي ترتبها حالة توقيع معاهدة السلام . . فهو سلام حذر إلى أن تتم كافة إجراءات الانسحاب الإسرائيلي .

وكان من الضروري أن تشمل توجيهاتي بمجرد العودة ، التخطيط لمشروع إستراتيجي يتم من خلاله تطبيق كافة الأفكار والاحتمالات الممكنة ، ثم كان على أيضًا أن أشكل مجموعات العمل التي ستقوم باستلام أجزاء سيناء في التوقيتات التي ستحدد لاستلامها بالتنسيق مع الجانب الإسرائيلي .

وللأسف لم تكن إسرائيل هي مصدر التهديد لمصر . ورغم أنها كانت العدو التقليدي

للعرب على مدى ثلاثين عامًا ، فقد كان هناك الكثير من الأحقاد التى تحيط بمصر منها الواعى ومنها المتهور كالوضع الذى كان على حدودنا الغربية . . وأذكر عندما كنت رئيسًا للمخابرات العامة ، حدث فى يوم ٢ يوليو عام ١٩٧٧ ، ولم تكن المبادرة قد تمت واتفاقيات كامب ديفيد لم تكن قد وقعت ، أن قام العقيد القذافى بحشد قواته على الجبهة الغربية وهاجم نقط الحدود المصرية بدعوى أنها متجاوزة أماكنها داخل الحدود الليبية بمقدار ٢٠٠ متر ، وقام بأسر ٣٨ فردًا من هذه النقط . . ولم يكن مفهومًا يومذاك كيف لم يجد القذافى ، برغم العلاقات المصرية الليبية ووجود القنوات الدبلوماسية ، وسيلة للتفاهم غير شن مثل هذا الهجوم ! . . هل كان الهدف هو إحراج الرئيس السادات بعد فشل الوحدة المزعومة التى حاول القذافى فرضها على مصر ؟!

كان القذافى يريد أن يتولى قيادة القوات المسلحة فى البلدين وأن يترك للسادات رئاسة الدولة المشتركة بهدف أن يقوم باجتياح إسرائيل بأسلوبه الخاص .

كان هذا الأسلوب الخاص فى الواقع أكثر من ساذج ، إذ يقوم على أساس نقل القوات المصرية إلى سوريا ، ليتم الهجوم على إسرائيل من هذا الاتجاه فقط ! . .

هل كان عملاً مدبرًا لصالح إسرائيل حتى تضطر مصر لتوزيع مجهودها العسكرى بين الجبهة الشرقية والجبهة الغربية فى وقت واحد ؟! . . أم أنه إيحاء من السوفييت الذين أعطى لهم القذافى تسهيلات ضخمة بلا حدود بعد أن ضعفت قوة السوفييت فى المنطقة منذ خروج الخبراء السوفييت من مصر عام ١٩٧٢ ؟! .

الحقيقة أنها كانت لحظات مريرة وصفعة من صديق ، وكان لابد أن تلقنه القوات المسلحة المصرية درسا فى آداب الحوار لا ينساه .

وكانت مهمة قيادة القوات المسلحة المصرية فى هذه الفترات العصيبة من تاريخ مصر ومنطقة الشرق الأوسط تحتاج إلى الكثير من الرؤية المستقبلية الصحيحة التى يمكن أن تبنى على أساسها إستراتيجية محكمة لا تغفل الواقع أو الاحتمالات .

وكان من أهم ما تم إنجازه فى هذه الفترة التخطيط لتحديث القوات المسلحة ، وساعد فى تحقيق ذلك أن الولايات المتحدة أصبحت بعد توقيع المعاهدة هى المصدر الرئيسى للسلاح والتكنولوجيا العسكرية لمصر بالإضافة إلى دول غرب أوربا . وتطلب ذلك تأهيل القوات المسلحة المصرية لاستيعاب هذه المعدات والأساليب التكنولوجية المتطورة مع إعادة التنظيم

لضمان تفوق الكيف على الكم . . فى ظل ظروف اقتصادية واجتماعية صعبة حيث تشدنا نسبة الأمية (1) وقصور الإمكانيات المادية فى عكس اتجاه التقدم المنشود . . .

السادات يكسر الجمود

خلال الجمود الذى شمل عملية التفاوض بين مصر وإسرائيل لمدة أسبوعين راحت إسرائيل تعلن عن الكثير من المواقف المتشددة ، مثل إعلان وزارة الطاقة يوم ٢٩/ ١١ ، أن إسرائيل سوف تعيد تشغيل بئر بترولية جديدة على ساحل خليج السويس وترفع الإنتاج فى الآبار السبع هناك إلى ٢٥٠٠٠ برميل يوميًا ، ثم إعلان حضور وزير الدفاع الإسرائيلى لمشروع بالذخيرة الحية فى المنطقة الوسطى وتأكيد إسرائيل لبقاء الحكم العسكرى فى الضفة وغزة حتى بعد قيام الحكم الذاتى . كما أعلن شارون أن سياسة الاستيطان مستمرة بعد تجميدها لمدة ٣ أشهر ، وأن إسرائيل لن تتنازل عن حقها فى الاستيطان ومحاربة الإرهاب .

وفى المقابل أعلن السادات أكثر من مرة ، أن موضوع المعاهدة مع إسرائيل يحتل أسبقية متأخرة فى اهتماماته بعد كامب ديفيد ، وأن توفير الأمن الاقتصادى لمصر يحتاج من الوقت والجهد ما لا يمكن إضاعته فى طرق ملتوية أخرى . . وأن همه الأول هو رفع المعاناة عن الشعب المصرى .

وكان الدكتور مصطفى خليل قد وصل فعلاً إلى واشنطن فى ١١/ ١١/ ١٩٧٨ للاجتماع بالرئيس كارتر بهدف كسر الجمود الذى استمر أكثر من أسبوعين حتى كاد يفقد مفاوضات السلام قوتها الدافعة ، وقد اجتمع بالرئيس كارتر ، ثم بوزير الخارجية « فانس » وأوضح وجهة نظر مصر فى الخلافات المثارة كما أعلن عن استعداد مصر لاستئناف المباحثات إذا كان هناك واقع جديد يضمن لها النجاح .

وقرر الرئيس كارتر لخلق هذا الواقع الجديد أن يوفد وزير خارجيته فانس إلى الشرق الأوسط ، والذى كانت جولة السناتور بيرد تمهيدًا لها فى العديد من دول الشرق الأوسط مثل إسرائيل وسوريا والأردن والضفة الغربية والسعودية ومصر ، وكانت تصريحات بيرد بعد عودته لواشنطن منصفة للموقف المصرى والعربى مما أثار ثائرة إسرائيل .

وفى ١٥/ ١/ ٧٩ قام السفير الأمريكى المتجول آثرتون بجولة فى المنطقة بدأها بزيارة إسرائيل ثم القاهرة فى محاولة لتقريب وجهات النظر . وبعد حوالى عشرة أيام من عودة مستر آثرتون

(١) كان من أولى الموضوعات التى اهتممت بها فى داخل القوات المسلحة هو مشروع لمحو أمية الجنود على النحو الذى أوضحته فى موضع سابق من هذا الكتاب .

إلى أمريكا تلقت إسرائيل ومصر على التوالى دعوات رسمية من الرئيس كارتر لاستئناف المباحثات على المستوى الوزارى فى كامب ديفيد . وقبل الطرفان الدعوة التى تحدد لها يوم ١٩٧٩/٢/٢١ .

وسافر على رأس الوفد المصرى د. مصطفى خليل رئيس الوزراء ووزير الخارجية وعلى رأس الوفد الإسرائيلى موشى ديان ، وممثل فانس الولايات المتحدة الأمريكية ، **وقد تعمد السادات أن يرسل د. مصطفى خليل ، وهو رئيس الوزراء ووزير الخارجية فى الوقت نفسه ، حيث يكون بذلك متمتعا بصلاحيات واسعة فى مواجهة الصلاحيات الضيقة التى يتمتع بها ديان وزير الخارجية الإسرائيلى .**

وبالفعل ضاقت نقاط الخلاف إلى أقصى درجة ، وأعلن د. مصطفى خليل بأنه مفوض تفويضًا كاملاً فى أى قرار ، ولكن ديان قرر أنه لابد له من الرجوع إلى حكومته وبالتالى السفر إلى إسرائيل . ونظرًا لإصرار الوفد الإسرائيلى على السفر قرر د. مصطفى خليل العودة لمصر منعًا لأى مراوغة . وصدر البيان الختامى كطلب أمريكا ليعلن أن الوفدين قد عادا لبلادهما للتشاور . . وأعلن د. مصطفى خليل أثناء عودته أنه قد تم التوصل إلى مشروع اتفاق وأنه لم يتبق إلا موافقة بيجين ومجلس الوزراء الإسرائيلى عليه .

وفى ٢٥ / ٢ أعلن كارتر الدعوة لعقد اجتماع على مستوى رؤساء الوزراء فى نهاية الأسبوع فى كامب ديفيد يحضره هو شخصيًا مع د. مصطفى خليل وبيجين . . . بينما أعلن بيجين بعدها أنه لن يذهب لهذا الاجتماع طالما أن السادات لن يذهب ، واستطاعت مكالمة تليفونية من كارتر لبيجين أن تجعله يتراجع عن موقفه وأن يوافق على السفر للتباحث مع الرئيس الأمريكى. وكانت مباحثات كارتر وبيجين شاقة للغاية وأعلن كارتر لبيجين خلالها بصراحة قاطعة ردًا على محاولات بيجين إضفاء جو من التشاؤم على المباحثات ، **إن أمريكا تختلف مع وجهة النظر الإسرائيلية برغم التزام أمريكا بأمن إسرائيل ، فإنها تقدر أهمية صداقة العالم العربى ومصر على وجه الخصوص** . ولأول مرة يعلن الرئيس كارتر بعد مباحثاته مع بيجين بأنه لم يحرز أى تقدم . وكان من الواضح أن بيجين حاول الاستتار خلف مجلس وزرائه المنقسم على نفسه ، ومع ذلك فقد أعلن فى القدس أن الحكومة الإسرائيلية وافقت بأغلبية بسيطة على المقترحات الأمريكية لكسر الجمود فى المفاوضات .

كارتـر فى القـاهرة

بعث الرئيس كارتر للسادات بتقرير حول المحادثات التى تمت مع بيجين حمله السفير الأمريكى هيرمان أيلتس . . ولم يدل التقرير على أى تقدم يذكر مما دفع السادات لأن يقرر

السفر إلى واشنطن حتى إذا لم توجه له دعوة ، وأن يواجه بيجين على مرأى ومسمع من الشعب الأمريكى والعالم ، وحدد لسفره يوم ٦/ ٣/ ١٩٧٩ .

ولما كان سفر السادات فى ذلك الوقت بالذات وبكل الغضب الذى بداخله نتيجة التسويف الإسرائيلى ، أمرًا غير محمود العواقب فى نظر الرئيس كارتر فقد اتصل كارتر بالسادات عارضًا أن يقوم هو بزيارة المنطقة . ورحب السادات وأصدر البيت الأبيض بيانًا بزيارة كارتر لمصر وإسرائيل .

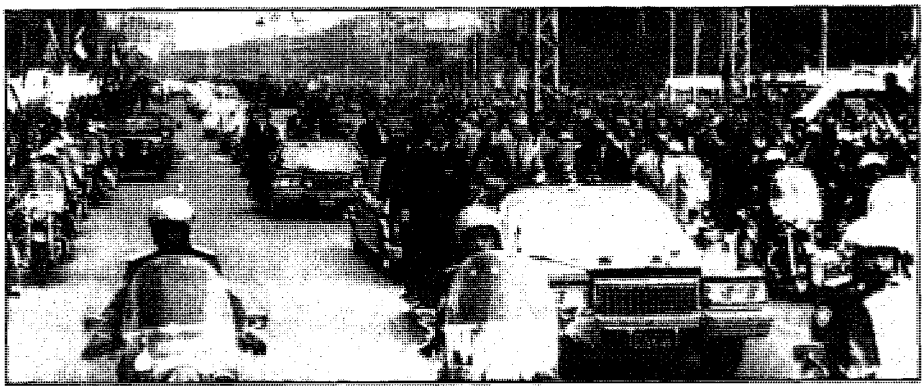
كان الواضح أن كارتر قرر أن يلقى بثقله لإنقاذ المباحثات وأنه يحس بمسئولية شخصية دفعته لهذه المغامرة التى قد تعرضه إذا فشلت رحلته لانتقادات لا أول لها ولا آخر فى الولايات المتحدة وفى دول العالم الأخرى وفى مقدمتها الاتحاد السوفييتى ودول الرفض العربى .

وحضر كارتر إلى القاهرة . ووجد مصر كلها فى استقباله فى مواكب شعبية حاشدة من لحظة وصوله للمطار وحتى قصر القبة حيث نزل . . كان الاستقبال أسطوريًا بكل المعانى . وكانت رحلته إلى الإسكندرية أيضا قمة فى النجاح وقد خرج الشعب المصرى عن بكرة أبيه ليقول لكارتر إنه يرحب بالسلام ، وأنه يقف خلف قيادة السادات بكل العزم والإصرار . . . واستطاع كارتر أن يحس هذه المعانى وأن يتأكد بنفسه أن نظام السادات هو أكثر النظم استقرارًا فى المنطقة .

وعندما سافر كارتر إلى إسرائيل والتقى بمجلس الوزراء الإسرائيلى ، علق بعض الوزراء بعده أن هناك ثلاث مصاعب بقيت دون حل ، وهى الربط بين معاهدة السلام والحكم الذاتى ، وتبادل التمثيل الدبلوماسى ، وتزويد إسرائيل بالبترول .

وكانت قرارات مجلس الوزراء الإسرائيلى تتلخص فى استعداد إسرائيل بعد توقيع المعاهدة أن تبحث مع مصر إمكانية إقامة حكم ذاتى فى غزة يكون منفصلا عن الحكم الذاتى فى الضفة وأن إسرائيل تعارض وجود ضباط اتصال مصريين فى غزة . ورأى المجلس أن على مصر أن تلتزم صراحة بتزويد إسرائيل بالبترول من حقول سيناء ، وأن تبادل السفراء يجب أن يتم بعد استكمال المرحلة الأولى من الانسحاب الإسرائيلى من سيناء . وأضاف بيجين أمام كارتر فى اجتماع للجنة الخارجية والأمن بالكنيست إنه يأمل أن تكون لمعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل أولوية على أى اتفاق يربط أحدًا بطرف ثالث .

وتذرع كارتر بأقصى ما يستطيع من الصبر ، وقرر البقاء ليلة أخرى فى إسرائيل قدم خلالها مقترحات جديدة لتقريب وجهات النظر وافق عليها بيجين مبدئيًا على مائدة الإفطار يوم ١٣/ ٣ وقرر عرضها على مجلس الوزراء .



استقبال كارتر فى القاهرة

وفى القاهرة التى عاد إليها كارتر ، عرض مقترحاته فى جلسة ضمت السادات وفانس ود. مصطفى خليل ، وكانت مقبولة وتغطى المطالب الرئيسية المصرية التى أدركت كل الأطراف أن المعاهدة لن توقع بدونها . .

وفى اتصال من مطار القاهرة أبلغ كارتر بيجين موافقة السادات على معظم ما تمت الموافقة عليه فى إسرائيل . . وعليه تقرر عرض الأمر على مجلس الوزراء الإسرائيلى فى اليوم التالى . وأعلن بيجين أن حكومته سوف تستقيل إذا لم يوافق الكنيست على هذه المقترحات .

بيان مطار القاهرة التاريخى

وقبل أن ينهى الرئيس كارتر رحلته السلمية للمنطقة مغادرًا القاهرة إلى واشنطن أصدر بيانه التاريخى فى مطار القاهرة وكان نصه كما يلى :

« لدى بيان أود أن أتقدم به وأعتبره ذا أهمية خاصة ـ لقد أعطيت الرئيس السادات تقريرًا كاملاً حول محادثاتى فى إسرائيل ، وخلال هذه الزيارة تقدمت الولايات المتحدة ببعض المقترحات لحل المشاكل البارزة ، وهذه المقترحات قد تم قبولها من جانب بيجين ووزرائه . كما أن الرئيس السادات أيضًا قبل هذه المقترحات وهى على أساس المحادثات التى تمت فى القاهرة وإسرائيل . وقد تقدمت الولايات المتحدة بمقترحات للرئيس السادات وبيجين لحل بعض المسائل القليلة المتبقية ، وفى هذا اليوم قبل المستر بيجين أن يتقدم لحكومته بهذه المقترحات لكى تقوم بدراستها وسوف يتم ذلك فى أقرب فرصة ممكنة . وكذلك الرئيس السادات قد راجع نصوص المقترحات وقبلها . وإننى أخبرت المستر بيجين تليفونيا قبول السادات لها . والآن قد حددنا جميع الجوانب المتبقية للمعاهدة الخاصة بين مصر وإسرائيل ، والتى سوف تكون حجر

الزاوية للاتفاق الشامل لحل مشكلة الشرق الأوسط وشكرًا » . وغادر كارتر القاهرة مساء ١٣/ ٣/ ١٩٧٩ . وقد عاد الأمل من جديد إلى كل القلوب المحبة للسلام .

وفد عسكرى للاتفاق حول الانسحاب

كان على أن أسافر على رأس وفد عسكرى يوم ٣/١٦ لإتمام الاتفاق حول إجراءات الانسحاب من سيناء والمراحل الفرعية له ، وهى الإجراءات التى كانت قد توقفت من قبل عندما أرادت إسرائيل استمرار استغلال خيرات سيناء لأطول مدة ممكنة .

وأذكر أنه بمجرد وصولى إلى واشنطن صرح موشى ديان بأن « المعاهدة شىء طيب رغم أن ثمنها المتمثل فى تسليم سيناء بالكامل ثمن باهظ جدا » . !

ثم أتممت مع فايتسمان تسوية النقاط الخاصة بالانسحاب عدا التوقيت الخاص بتسليم حقول البترول التى استمرت المساومة فيه حتى قبيل ساعات من التوقيع على الاتفاق . وانتهت المباحثات العسكرية بالنتائج التى تضمنها ملحق المعاهدة الخاص بالمراحل الفرعية للانسحاب .

* * *

كنت بحكم طبيعة عملى عند توقيع المعاهدة كوزير للدفاع والإنتاج الحربى أحمل مسئولية إعادة التوزيع الإستراتيجى للقوات المسلحة كما ذكرت ، وتنفيذ خطط التطوير والإعداد لاستلام سيناء ، تلك القطعة الغالية من أرض مصر بعد احتلال دام أكثر من ١٢ عامًا ، بعد انسحاب القوات الإسرائيلية إلى خط العريش ـ رأس محمد . كان على أن أرأس اللجنة العليا للتطبيع والتى تم الاتفاق على أن تبدأ عملها بعد الانسحاب الابتدائى .

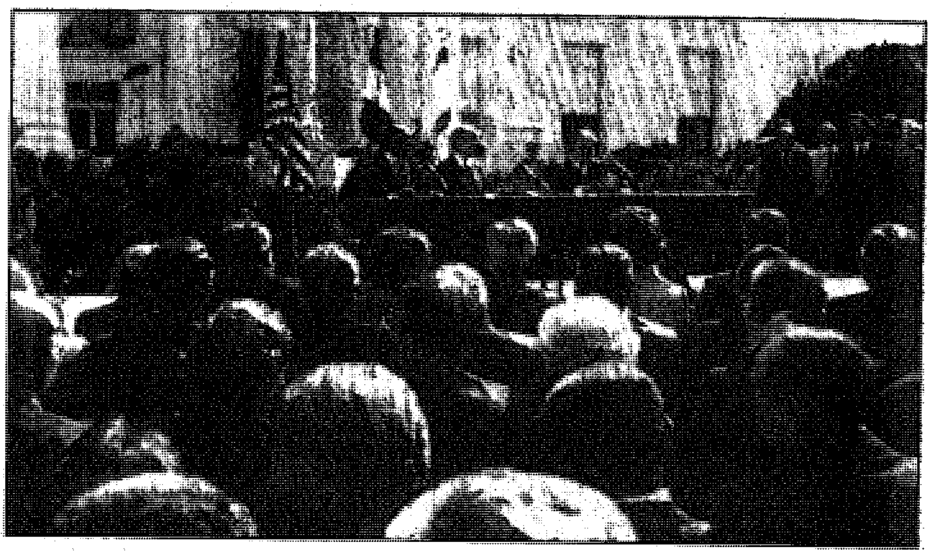
وكان العمل فى هذا الوقت سلسلة متشابكة ومعقدة على الصعيدين العسكرى والسياسى، وكنت بطبيعة الحال قد اشتركت فى صياغة كل كلمة فى الملحق العسكرى للمعاهدة . وكانت هناك مناقشات مطولة وعنيدة من جانبى لزيادة القوة العسكرية المسموح بها فى سيناء طبقا للمعاهدة (وذلك حتى لا يختل التوازن الأمنى فى الجبهة الشرقية لمصر) ولقد وصلنا بالفعل إلى القدر من القوة العسكرية فى سيناء الذى يحقق مثل هذا التوازن . فعلاوة على قوات الحدود والشرطة يصبح بمقتضى المعاهدة فى سيناء فرقة ميكانيكية مستقلة كاملة تتشكل من ٣ ألوية ، ٧ كتائب مدفعية ميدان ، ٧ كتائب مدفعية مضادة للطائرات وهذا يعنى ٢٢ ألف مقاتل ، ٢٣٠ دبابة ، ٤٨٠ مركبة قتال مدرعة ، ١٢٦ قطعة مدفعية ميدان ، ١٢٦ قطعة مدفعية مضادة للطائرات .



المباحثات مع فايتسمان فى الماديسون أكتوبر ١٩٧٨

لقد شغلتنى مهمة تدريب هذه القوات التى ستتمركز فى سيناء فى أوضاع إستراتيجية مختلفة ، كما أصبحت كفاءتها أمرًا بالغ الأهمية . وكان علينا أن نعمل فى ظل السلام ، كما لو كنا فى حالة الحرب ، وفى ظل جو من العداء وعدم التعاون العربى ، بل وفى ظل ضغوط غير عادية من الاتحاد السوفييتى امتنع فيها عن توريد السلاح أو قطع الغيار للمعدات التى تشكل العنصر الرئيسى للقوات المسلحة المصرية ، وكانت كلها من الكتلة الشرقية . . ورغم ذلك فقد فعلنا المستحيل لتظل المعدات بنفس الكفاءة ، بل وأحيانا بكفاءة أفضل بفضل تجهيزها بمعدات وأسلحة غربية أضافت إليها ميزات تفتقدها المعدات المماثلة لها فى القوات المسلحة السوفييتية نفسها ، مثل أجهزة الرؤية الليلية وأجهزة تقدير المسافة بالليزر ومعدات التصوير الجوى المتطورة . ولقد استطعنا أن نحصل على قطع الغيار إما عن طريق تصنيعها محليًا وإما من بعض المصانع الغربية .

ثم بدأت الولايات المتحدة دورها كمصدر رئيسى لتسليح القوات المسلحة المصرية **مما اقتضى إعادة التنظيم والتدريب الفنى والتكتيكى لمسايرة المعدات الجديدة والمتطورة ، والتى لم يقتصر الحصول عليها من الولايات المتحدة فحسب ولكن من الكثير من الدول الأوربية تنفيذًا لقرار تنويع مصادر السلاح** . هذا بالإضافة إلى ما استطاعت المصانع الحربية المصرية والهيئة العربية للتصنيع إنتاجه من الأسلحة رغم مقاطعة الدول العربية المؤسسة للهيئة العربية للتصنيع وانسحابها منها ، وتوقف تمويلها وتجميد أرصدتها .



احتفال توقيع معاهدة السلام ٢٦ مارس ١٩٧٩

الانسحاب

كان من المقرر فى المعاهدة أن تنسحب إسرائيل من العريش بعد شهرين من التوقيع على المعاهدة ، على أن تتم المرحلة الأخيرة للانسحاب من كامل الحدود الدولية فى مدى ثلاث سنوات .

وعندما اقترب موعد تسليم العريش المقرر له يوم ٢٥/ ٥/ ٧٩ ، كانت إسرائيل قد بدت وكأنها تقتطع جزءًا من جسدها . فلم تكف عن طلب استمرار بعض الأوضاع على حالها ، مثل بقاء سكان مستعمرة ينعوه (٢ كم شرق العريش) واستمراهم فى زراعة الأرض ، ومثل طلب إبقاء بعض الإسرائيليين فى العريش بعد موعد الانسحاب أو السماح للصيادين الإسرائيليين بالصيد . . . وكان الرفض هو مصير كل هذه الطلبات غير القانونية طبقًا لبنود المعاهدة ، فدخول الإسرائيليين للعريش لا يمكن أن يتم قبل انتهاء الانسحاب وخلال مرحلة تطبيع العلاقات التى لن تتم قبل ثمانية أشهر ، ولذلك طلبت إسرائيل أن تبدأ مفاوضات التطبيع قبل موعدها ، ولم نوافق على ذلك لمخالفته نصوص المعاهدة .

ولم يكن ذلك تعسفًا منا ولكنه كان ترسيخا لمبادئ أردنا أن تعرف إسرائيل أنه لا سبيل للالتفاف حولها ، إذ لم تكف إسرائيل عن محاولة التنصل من الالتزامات التى أقرتها .

وكانت اللجنة العسكرية المشتركة تضم من الجانب المصرى العميد صفى الدين أبو شناف رئيسًا و ١٦ ضابطا من مختلف أفرع القوات المسلحة . ومن الجانب الإسرائيلى العميد دون زيون و ١٥ ضابطا إسرائيليا . وقد بدأت اجتماعاتها يوم ٢٩/ ٤/ ٧٩ . فى منطقة الطاسة بسيناء . وقام الاستطلاع المصرى بزيارة لمنطقة الانسحاب رقم ١ كما قامت لجنة مبدئية بزيارة المنطقة وتم تحديد الخطط التفصيلية فى اجتماعات مشتركة لتحديد الخط (أ) والخط الساحلى، وإقامة وسائل اتصال تليفونى بين القاهرة والعريش والإعداد لاحتفال تسليم العريش الذى يتم فى ٢٧/ ٥ ويحضره السادات وبيجين .

كانت قرارات اللجنة المشتركة هى إعادة مدينة العريش والمنطقة (أ) والطريق الساحلى لبحيرة البردويل ومطار العريش والطريق الجنوبى إلى مفترق طرق بير لحفن يوم ٢٥/ ٥/ ٧٩ .

وحدث أن طلبت إسرائيل السماح لجماعات إسرائيلية مختلفة من الحاخامات العسكريين بالبحث عن ٣٢ جثة لجنود إسرائيلين وتمت الموافقة على ذلك وعلى إقامة نصب تذكارية .

الاحتفـال بتسـليم العريـش

تم الانسحاب الإسرائيلى من العريش فى موعده وحضر حفل التسليم مساعد وزير الدفاع المصرى وقائد المنطقة الجنوبية الإسرائيلى ، وارتفع العلم المصرى أخيرًا بعد غياب ١٢ سنة . واستعدادًا لهذه المناسبة فى خلال يومين فقط وفيما يشبه المعجزة تم إقامة النصب التذكارى الضخم لشهداء الحرب من المصريين وذلك بناء على اتفاق بينى وبين فايتسمان .

كان يوم الاحتفال بتسليم العريش مشهودًا ! حضره السادات بلباس القائد الأعلى للقوات المسلحة . وأمام حشد كبير من جميع طوائف الشعب المصرى وجرحى الحرب قمت بتقبيل العلم المصرى وسلمته للسادات الذى قبله بدوره وطاف به على المحتشدين فى فيض غامر من المشاعر الجياشة وأمر برفعه على العريش . وبالطبع اغرورقت عيناى وعيون الكثيرين بالدموع لمشهد ارتفاع العلم المصرى وعودة العريش إلى الوطن الأم .

ولقد حدث أن قضينا الليلة فى العريش ، وفى اليوم التالى حضر بيجين وبعض الوزراء الإسرائيلين بناء على دعوة من السادات وجهت لبيجين أثناء وجوده بالقاهرة ثم قام الجميع بجولة بالهليوكوبتر حتى مدينة بير سبع ، حيث كانت الحفاوة بالغة من الشعب الإسرائيلى ، وأذكر أن نافون رئيس إسرائيل وقف يلقى خطابًا للترحيب وبدأه بقوله « هانحن أولاء سلمناكم العريش » وقد أثارت هذه الكلمة السادات فصاح « ماهذا ؟» وعندما جاء دوره فى الخطاب قال فى حدة « **أنا لا أقبل أن يقول أحد سلمناكم العريش ! لقد التقى اليوم على أرض العريش**



رفع العلم على العريش

معوقو حرب أكتوبر من المصريين والإسرائيليين كشاهد على أن أحدًا لم يسلمنا العريش ، ولكنا استعدناها بالقتال المرير وبالدم الغالى الذى أريق فى سيناء » .

وبدأت بانتهاء تسليم العريش إجراءات الإعداد للمرحلة الفرعية التالية للانسحاب وتتضمن مناطق البترول والمعادن فى سيناء على مسافة ٦٠٠٠ كيلو متر مربع على خليج السويس . كما تم تسليم ١١ جثة للجانب الإسرائيلى .

الإشـراف عـلى الانسـحاب

من المعروف أن هيئة الرقابة الدولية تتكون من مدنيين وفنيين وكانت موجودة أصلاً فى سيناء منذ عام ٦٧ ، وقد اشتركت فى فض الاشتباك عام ١٩٧٣ . ولم يكن عدد أفرادها يتجاوز ٢٠٠ ـ ٣٠٠ فرد . . ولما كان الاتحاد السوفييتى معارضًا لتجديد فترة بقاء قوات الطوارئ الدولية فى سيناء ، بل فى نيته استخدام حق الفيتو ضد تجديد مدة بقاء قوات الطوارئ الدولية فى سيناء ، فقد قرر مجلس الأمن بالإجماع فى ٢٤/٧ . إنهاء عمل قوات الطوارئ الدولية حيث لم يتقدم أحد بطلب استمرارها .

وعلى ذلك لم يبق من وسيلة لمراقبة الانسحاب الإسرائيلى غير أفراد الرقابة الدولية ، بعد أن اتفقت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى على سحب الأفراد الأمريكيين والروس المشتركين فى هيئة الرقابة حتى لا يشتركوا فى عملية الإشراف على الانسحاب ، وقد رأت مصر

أن تقوم هيئة الرقابة بدور البديل لقوات الطوارئ حتى يتم تشكيل القوة متعددة الجنسيات فيما بعد لمهمة الإشراف .

سينـاء وإعـادة الحيـاة الطبيعيـة لهـا

كان من الطبيعي التفكير في إعادة الحياة الطبيعية لسيناء بعد تحريرها ، ومن أجل ذلك أمر السادات بتشكيل لجنة وزارية برئاستي كلفت بمهمة إنجاز مشروعات إحياء سيناء ، خاصة وأن القوات المسلحة كان يقع عليها العبء الأكبر حتى ذلك الوقت واشترك في اللجنة محافظ سيناء ووكلاء أول الوزارات المختلفة بهدف تسلم المرافق واستكمال الخدمات والاحتياجات وإعادة المهجرين بعد تدبير أماكن لإيوائهم كذا الخدمات اللازمة لتلك الأماكن بالتعاون مع كافة الوزارات .

وتمهيدًا لعمل هذه اللجنة أصدرت عدة قرارات في ٤/ ٤/ ٧٩ مثل إلغاء تصاريح الدخول لسيناء ، وتولى السلطة المدنية أعمال الأمن وتسليم الفائض من منشآت القوات المسلحة لمحافظتى شمال وجنوب سيناء ، على أن تتولى وزارة البترول مسئولية تسلم آبار البترول في المواعيد المحددة ، كما تتسلم القوات المسلحة خرائط الألغام من الجانب الإسرائيلي وتتولى إزالتها .

وكان أول اجتماع للجنة إعادة الحياة لسيناء هو يوم ٩/ ٤/ ١٩٧٩ ، حيث ناقشنا المطالب العاجلة لسكان سيناء ، كإنشاء شبكة اتصالات مع القاهرة بواسطة القوات المسلحة وإنشاء كوبرى متحرك ومعدية ركاب وسيارات لعبور القناة من وإلى سيناء وكذلك إنشاء خط حديدى مزدوج بين القنطرة والعريش . ذلك بالإضافة إلى الإعانات النقدية والعينية للمهجرين والتعويضات للمتضررين ، وإعادة تخطيط العريش لتستوعب ١٠٠ ألف نسمة مع تعديل قانون تمليك الأراضى الصحراوية والاعتراف بوضع اليد وتطبيق كافة التيسيرات والإعفاءات الضريبية ، وإنشاء شركة لاستغلال الثروة السمكية في بحيرة البردويل وسواحل البحر الأبيض، كذلك استغلال هذه السواحل سياحيا .

وفي يوم ٢٢/ ٤ تم توصيل مياه النيل عبر قناة السويس إلى سيناء ، لأول مرة بواسطة سحارة بها ٦ خطوط طاقة كل خط ٥ , ١ مليون متر مكعب يوميًا .

كما تفقد الرئيس السادات العمل في نفق الشهيد أحمد حمدى تحت القناة والذى تحدد للانتهاء منه إبريل ١٩٨٠ . وكان من أهم الخطوات التى تطلبها تعمير سيناء .

كان تعمير سيناء هدفا إستراتيجيا ملحا ، حيث تشكل سيناء البوابة الشرقية لمصر ،

وينبغى أن تزدهر فيها الحياة حتى تشكل الكثافة البشرية فيها حاجزًا للأمان ، خاصة وأن سيناء غنية بالكثير من الثروات المعدنية والزراعية والسياحية مما يفتح مجالات وفرصا لا حصر لها للعمل لعدد كبير يساعد فى تخفيف الضغط على شريط وادى النيل المكتظ بالسكان .

وكانت فكرة إنشاء قرية ميت أبو الكوم الجديدة فى سيناء فكرة رائعة من أفكار السادات لعمق معناها . وليت كل قرية أو مدينة فى مصر يصبح لها نظير فى سيناء التى تمثل مساحتها ٢٠ فى المائة من مساحة مصر .

كما كان تفكير السادات فى إنشاء مجمع للأديان الثلاثة تفكيرًا فلسفيًا ومتسامحًا ، وقد رأينا إرجاءه حتى يتضح صدق النوايا وحتى لا نخلق فى سيناء ما ينشىء لغيرنا حقوقًا فيها .

وللحقيقة أننى كنت أتصور عند تعيينى لرئاسة لجنة إعادة الحياة لسيناء أننى سأستطيع أن أقدم لها من جهدى بقدر ما يستحقه هذا الهدف الكبير من التخطيط والتعمير ، ولكن فى الواقع لم يتوفر لى الوقت أو الإمكانيات السريعة. وكل ما استطعت توفيره من الوقت كان للاجتماعات والمباحثات العديدة مع أهالى سيناء ومحافظها ومع الوزارات المثقلة بالأعباء والتى لم تستطع تقديم سوى الإجراءات المؤقتة والعاجلة اللازمة لتسليم سيناء وإعادة تمصيرها . .

ومع ذلك لم تأخذ سيناء حقها فى ذلك الوقت برغم تعيين لجنة لإعادة الحياة برئاسة وزير الدفاع ولجنة لتعميرها برئاسة رئيس مجلس الوزراء .

حقيقة المستوطنات

كان من المقرر استمرارًا لعمل اللجنة العسكرية المشتركة أن تجتمع يوم ٧٩/٧/٢٩ فى إسرائيل برئاسة وزيرى الدفاع بقصد بحث الخطوات التالية للانسحاب وكذلك بحث مشكلة الإشراف بعد انسحاب قوات الطوارئ الدولية والتى لم يكن قد تم حلها .

وتوجهت بالفعل فى ذلك التاريخ إلى إسرائيل وبرفقتى من وزارة الدفاع اللواء عبد الحميد حمدى واللواء لبيب شراب والعميد صفى الدين أبو شناف . وكانت أول زيارة لإسرائيل يقوم بها وزير مصرى . والتقيت فى مطار بن جوريون بعيزر فايتسمان الذى بالغ فى الترحيب بى ودعانى فى اليوم التالى لجولة بطائرة هليوكيبتر يقودها بنفسه فوق الضفة الغربية . كنت فعلا تواقا لمثل هذه الجولة التى استمرت أربع ساعات منها ساعتان فى جولة على الأرض زرنا فيها وادى الأردن بدءًا من البحر الميت عند جسر الملك حسين (هذا الجسر الذى كان ديان من الذكاء فى عام ٦٧ بحيث جعله يبقى عليه مفتوحًا بين الضفة والأردن لمرور البضائع والأفراد واستمرار العلاقات على كافة المستويات) .



فى زيارة الضفة الغربية مع فايتسمان

وقد لاحظت أن هناك نوعين من المستوطنات أقيمت فى الضفة الغربية . نوع مبنى وثابت وذو كثافة سكانية عالية كما هو الحال فى المنطقة بين العريش والخليل وبيت لحم . ونوع آخر شمالى هذا الخط ، عبارة عن أكشاك وكرفانات ومبان خشبية أو سابقة التجهيز مقامة على عجل ، ولكنها أقيمت فى النقط الحاكمة على الطرق والوديان ، وكانت حوالى ٣٨ مستوطنة من هذا النوع أعطتنى انطباعًا فى ذلك الوقت بأن المستوطنات كانت أسلوبًا لوضع اليد ليس أكثر.

وقد تعمد فايتسمان أن أقوم بزيارة مصنع الطائرات قرب قلقيلية حتى يطلعنى كيف أن المسافة بين المصنع وأقرب قرية فلسطينية لا تزيد عن ١٨٠٠ متر ، أى فى مرمى البندقية ، مما سبب إزعاجا للسلطات الإسرائيلية فى أعقاب عام ٦٧ ، ولعله قصد أن يعطينى انطباعًا لتبرير احتياطاتهم الأمنية . . . ولكن كان ذلك دافعًا لى لأن أصرح فى المؤتمر الصحفى فى مطار تل أبيب بعد العودة من الجولة بأن إسرائيل يجب أن تغير نظرتها لمسألة الأمن فى ظل السلام . وإن هذه المستوطنات ينبغى إخلاؤها إذا كانت إسرائيل تنوى السلام حقا . كما عليها أن تتخلى عن وجود قوات مسلحة إسرائيلية فى الضفة الغربية تطبيقًا لاتفاقيات كامب ديفيد . فالحل يجب أن يجىء سلميا من كافة الوجوه حتى يعيش سكان الضفة الغربية وغزة فى سلام تام مع إسرائيل .

وكانت تصريحاتى مفاجأة لفايتسمان ومرافقيه ، بعد أن ظنوا أن الجولة برهنت على صدق دعاوى البقاء العسكرى فى الضفة حفاظًا على الأمن ! وعلق فايتسمان بقوله « إننا قد نختلف كجنرالات قدامى ولكن طبيعة ومعالم الأرض لا تختلف ، وإنه يتمنى لو تتغير وجهات النظر لكلا الجانبين » وفى النهاية فإنه لم يخف تقديره لصراحتى فى الحق .

الفصل الثامن والأربعون
في داخل إسرائيل

أثناء زيارتى للضفة الغربية التقيت بإيجال ألون فى إحدى مستوطنات طبرية والتى كان قد تبرع بأرضه لإنشائها (٤٠٠ فدان) ثم أقام فى أحد منازلها ، ومن هذه المنطقة المواجهة لمرتفعات الجولان ألقيت نظرة على المرتفعات التى كنت قد خدمت بها عام ٦١ فى فترة الوحدة المصرية السورية قائدًا للواء ٧٠ مدرع ، حيث كنا نعتبر هذه المرتفعات مانعًا لا يمكن اقتحامه. وتعجبت كيف تسنى لإسرائيل أن تصعد هذه المرتفعات غازية ، بينما أقل مقاومة من هذه المرتفعات يمكن أن توقف جيشًا بأكمله ... وكانت المسافة بين المستوطنة والمرتفعات لا تتجاوز عرض بحيرة طبرية ، ولقد لاحظ المرافقون انشغالى وشرودى . وعلى مائدة الغداء سألنى إيجال ألون عن السبب الذى كان يجعل المقاتل المصرى يبدو بهذه الشراسة فى قتاله فى عام ١٩٧٣ . وأجبته بأنه فاتهم أن الشعب المصرى على مدى التاريخ قد استوعب كافة الغزاوات ثم انتصر عليها ، وكان طرد الهكسوس أول مثل على ذلك ، كما أن محاولة إذلال الأسرى المصريين فى ٦٧ مع تأصل عادة الثأر لدى المصرى جعلت حرب ٧٣ حربًا ثأرية بكل المقاييس . . يدخلها المواطن المصرى كما يقول المثل العامى « إما قاتلاً وإما مقتولاً » . ثم قلت له عليه ألا يقارن بين ٧٣ ، ٦٧ ؛ فحرب ٦٧ كانت خطأ سياسيًا دفعت القوات المسلحة ثمنه . . أما حرب ٧٣ فهى حرب من صنع وتخطيط القوات المسلحة ومبعثها قرار سياسى مدروس . ولقد سألنى ألون عن الحديث الذى دار بينى وبين السادات فى مستشفى المعادى بعد إصابتى فى عام ٦٧ والذى كان السادات دائم الاستشهاد به للتدليل على دوافعه لقرار الحرب . وقصصت عليه ما أراده ، وعندها قال لى « يبدو أننا أخطأنا حينما أنشأنا إسرائيل فى فلسطين على حدود مصر . . وربما من الأفق لو أعاد التاريخ نفسه أن نختار لها مكانا آخر فى إفريقيا أو غيرها من العروض التى قدمت لهرتزل فى مؤتمر بازل » .



مع شارون فى
الضفة الغربية



مع إيجال ألون قبل وفاته بيوم واحد

كانت شهادة حق صدرت عن ألون فى آخر أيامه ، فقد شاءت المصادفة أن يتوفاه الله فى اليوم التالى لهذه الزيارة .

وشملت هذه الزيارة حفل استقبال فى بلدية حيفا ، حيث شاهدت من أعلى جبل الكرمل الميناء والمطار والتحصينات العسكرية حول حيفا . وابتسمت وأنا أقول لفايتسمان : « ها هى ذى الأهداف العسكرية أمامنا . . وكانت تحتاج منا من قبل إلى طلعات استطلاع . . » وأعتقد أن هذا هو الخاطر نفسه الذى انتاب فايتسمان بعدها عندما ذكر فى كتابه أنه أحس بالشعور نفسه وهو يهبط فى مطار القاهرة وشاهد مطار ألماظة الحربى الملاصق له .

وفى جلسة المباحثات التى تمت بمقر وزارة الدفاع الإسرائيلية خلال هذه الزيارة بحثنا خطوات الانسحاب وبعض المشاكل المترتبة عليه ، منها موضوع الإشراف على الانسحاب ، والذى كانت إسرائيل تقترح له إشرافا مصريا إسرائيليا مشتركا ، بينما كان إصرارنا على إشراف دولى . وقد ظل الأمر معلقا حتى انعقاد المحادثات الثلاثية فى واشنطن فى سبتمبر ٧٩ كما سيرد بعد .

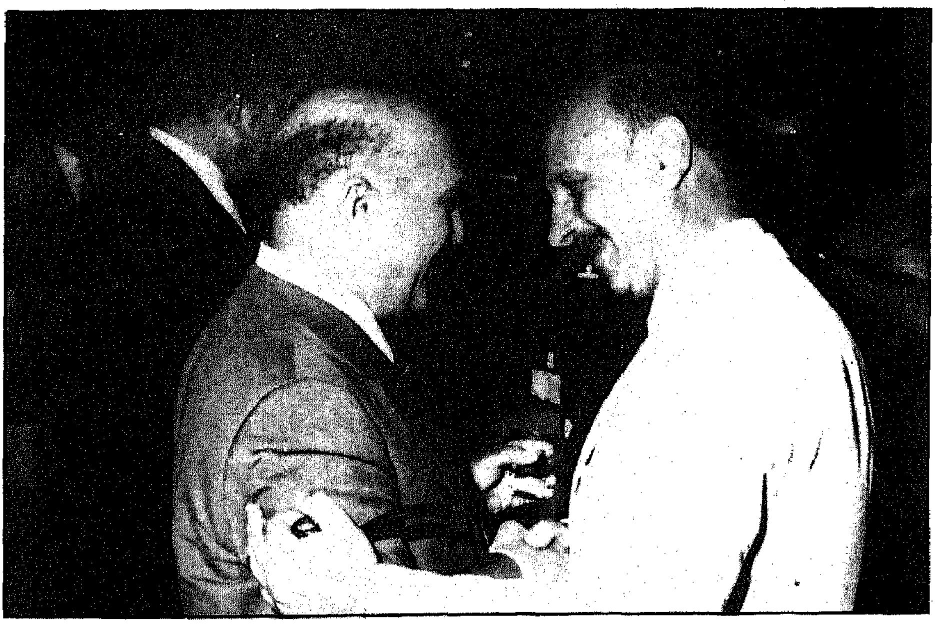
وقد رتب فايتسمان للوفد المصرى فى نهاية الزيارة رحلة لأشدود لزيارة مصنع الألكترونيات . . وقد ذكرتنى أشدود بحرب ٤٨ عندما وصلتها القوات المصرية وتجاوزتها شمالا إلى قرب تل أبيب ـ ولم أجد فى أشدود أى قوات هذه المرة بل وجدت سكانها ومعظمهم من يهود مصر والبلاد العربية ، وقد اختلطت فى عيونهم دموع الفرح مع دموع الأسى . وعندما علت هتافاتهم بالعربية باسم السادات بطل السلام أحسست يومذاك أن السلام كان أملا لكل الشعب الإسرائيلى .

ولم تكن هذه الزيارة هى الوحيدة ، فقد تعددت بيننا الزيارات وكان فايتسمان يعلق على هذه الزيارات أهمية كبيرة لكسر الحاجز النفسى وإذابة الجمود والترسبات الماضية . وقد تعمدت أن أصطحب معى فى هذه الزيارات قادة التشكيلات الذين اشتركوا فى حرب أكتوبر، مثل اللواء إبراهيم العرابى واللواء فؤاد عزيز واللواء عبد رب النبى حافظ وغيرهم وذلك بهدف تعريفهم بعقلية وأسلوب المخطط الإسرائيلى وكذا تعريف الإسرائيليين بالعقليات التى حاربتهم فى ٧٣ وأسوء الظن بها فى ٦٧ .

وفى إحدى هذه الزيارات قابلت إيجال يادين ووجدته كثير الاهتمام بالآثار الإسرائيلية شأنه فى ذلك شأن ديان ، ولقد وجدت فيه شخصًا هادئ الطبع تغلب عليه صفة أستاذ التاريخ بل هو معنى فعلاً بكتابة تاريخ إسرائيل . وقد زرنا يومها « مسعدة » أو الماسادا المشهورة ،



فايتسمان فى القاهرة عام ١٩٧٩



مع إيجال يادين

وهى عبارة عن تل شديد الارتفاع كما أنه شديد الانحدار نحو البحر الميت . حدث أن لجأ إليه ٤٠٠ من اليهود أيام الاضطهاد الرومانى فرارًا من بطش الرومان ، وانتهى الأمر بهم جميعا للانتحار معا وذلك عندما حوصروا وأوشك الرومان على اقتحام قلعتهم . ولقد سألنى صحفى إسرائيلى من مجلة جيش الدفاع بعد الزيارة « هل وضعت الماسادا فى اعتبارك عندما كنت تفاوض فى واشنطن للوصول إلى اتفاق السلام » ؟ .

ولم أتمالك نفسى أن قلت له « الحقيقة أنى لم أجلس للتفاوض بعقلية الماضى وإنما بعقلية المستقبل ، فلم أفكر فى الماسادا . . أو فى الفالوجا التى حاصرتم فيها بعض وحدات الجيش المصرى فى عام ٤٨ وصدت هجماتكم فى بطولات سجلها التاريخ دون أن ينتحر منها أحد كما حدث فى الماسادا . إن الفارق لاشك كبير ومع ذلك فلم أفكر وأنا أفاوض للوصول إلى السلام إلا فى السلام وفى المستقبل الأفضل » .

ولقد كانت الزيارات لإسرائيل دائمًا حافلة بالمفارقات التى كثيرًا ما أيقظت فى نفسى ذكريات الماضى بآلامها المريرة .

حدث مرة أثناء إحدى جولاتى على الأقدام مع عيزر فايتسمان فى شوارع تل أبيب ، وكنا فى شهر رمضان أن اندفعت سيدة فى الستين وعانقتنى وقبلتنى وقالت بارك الله فيك ثم فعلت نفس الشىء مع عيزر فايتسمان . والتقط المصورون هذا المشهد . وأذكر أن الصورة نشرت فى اليوم التالى فى صحف الأردن تحت عنوان « قبلة فى رمضان » . . ولا أشك لحظة فى أن هذه السيدة هى أم فقدت زوجًا أو ابنا أو شقيقا لها فى الحرب ، وأن ابتهاجها بالسلام هو الذى دفعها إلى ذلك ، فقد وجدت فى السلام شأنها شأن معظم الشعب الإسرائيلى خلاصا من حياة أفقدها الكره والعداوة طعم السعادة وقد سألتنى مرة السيدة الصحفية « سميد أربرى » مراسلة يدعوت أحرنوت عن ذكرياتى عن إسرائيلين أو مصريين أفقدتهم الحرب عزيزاً لديهم . . وقفزت إلى ذهنى صورة هذه السيدة العجوز وسيدة أخرى يهودية تقدمت لى بطلب فى إحدى الزيارات للبحث عن جثة زوجها ، وقد استجبت لطلبها على الفور وتم العثور على الجثة وسلمت إليها ، ثم قفزت إلى ذهنى صورًا لا تنسى لأبطال من القادة العسكريين المصريين أصيبوا أو استشهدوا فى حرب ٧٣ مثل العميد أ.ح محمود خليل قائد اللواء الأول المدرع الذى فقد بصره وأصر على الاستمرار فى الخدمة العسكرية حتى رقى إلى رتبة اللواء ونال الدكتوراة فى العلوم السياسية من كلية الدفاع بأكاديمية ناصر ، ثم الشهيد العميد أ.ح السيد توفيق أبو شادى والشهيد العميد أ. ح نور عبد العزيز وكانوا كلهم من أصدقائى البواسل . وكان أكثر ما يميز حرب أكتوبر أن نسبة خسائرنا فيها فى القادة والضباط كانت

أكبر من المعدلات العالمية بكثير ، وهذا يعنى أنهم قد أعطوا المثل والقدوة فى الشجاعة والفداء .

زغاريد فى إسرائيل

فى الرابع من سبتمبر ٧٩ صحبت الرئيس السادات فى رحلة بحرية إلى حيفا على الباخرة المصرية « الحرية » ، وهى أقدم القطع البحرية فى العالم التى لازالت فى الخدمة . وكان فى استقبالنا عند دخول المياه الإسرائيلية عشر قطع بحرية يطير فوقها تشكيل من الطائرات المقاتلة . . كان استقبالا رسميًا وشعبيًا حافلاً احتفى به الشعب الإسرائيلى بالزغاريد من فوق أسطح المنازل ، ولقد سمعنا داخل إسرائيل هتافات بالعربية « بالروح . . . بالدم نفديك ياسادات » . وكانت فرحة الشعب الإسرائيلى بالسلام مشكلة تواجه قادته . . فالسلام الذى تمناه الشعب الإسرائيلى هو السلام الشامل وليس السلام مع مصر فحسب . بينما كان قادتهم يناورون بأقصى جهدهم للهرب من شمولية هذا السلام ويحاولون قصره على اتفاق سلام منفصل مع مصر . . كانت خطوات السادات الجريئة فى طريق السلام سببا فى إيقاظ الوعى عند هذا الشعب . وكانت هتافاته للسادات دعوة علنية موجهة لقادته ليدركوا الحقائق بشكلها الواقعى الجديد بعيدًا عن خيالات التوسع التى تفسد هذا الواقع ، فالاحتفاظ بالسلام مع مصر معناه ضرورة السير فى اتجاه الحل الشامل ، وتحقيق الحكم الذاتى للفلسطينيين ، طبقًا لوثائق كامب ديفيد . . ومن هنا كانت المعادلة الصعبة أمام هؤلاء القادة . .

كان غرض الزيارة أن يتم لقاء بين السادات وبيجين وناڤون ، ثم بينى وبين عيزر فايتسمان . كانت المباحثات تهدف هذه المرة إلى تبكير الانسحاب من سانت كاترين مع إيجاد البديل لقوات الطوارئ الدولية التى ستكون الحاجة ملحة لها فى المراحل الأخيرة من الانسحاب . وكان رأى مصر والولايات المتحدة استخدام قوات متعددة الجنسيات ، بينما كانت إسرائيل تؤكد فكرة إنشاء داوريات مشتركة من ضباط مصريين وإسرائيليين تحت إشراف الولايات المتحدة وحدها ، ولم يصل المجتمعون إلى حل لهذه المشكلة فى تلك الليلة .

وفى صباح اليوم التالى حضر عيزر فايتسمان والجنرال أبراهام تامير إلى غرفتى وقالوا إن السادات وبيجين اتفقا على تشكيل دوريات ضباط مشتركة فى مرحلة الانسحاب المبدئى لمتابعة التنفيذ . . وأدركت أن ذلك يعنى ببساطة مرور ضابط مصرى ومعه آخر إسرائيلى على القوات المصرية للتفتيش على الحد الأمامى . وعندما قدموا لى ورقة بهذا القرار للتوقيع عليها كوزير للدفاع رفضت على التو لأنى كنت على ثقة من أن السادات لم يقبل ذلك حرفيًا .



مع السادات فى زيارة حيفا ـ يونيو ١٩٨١

وبالفعل اتضح أن السادات قال لهم « ليس فى نيتنا أى نوع من الخيانة . وما دمنا قد وقعنا معاهدة السلام فلا مانع عندى من أى إجراء لطمأنتكم بها فى ذلك اتخاذ شكل من التعاون المشترك فى الإشراف على الانسحاب . ولقد حاولوا أن يحولوا هذا الحديث المتسامح من السادات إلى تعليمات رسمية يوقع عليها وزير دفاع مصر . وأصررت على الرفض قائلا لهم بالحرف الواحد « أنا لا يمكن أن أسمح لنفسى كوزير للدفاع أن أوقع مثل هذه الورقة مهما كانت النتائج ، بل وسأقاوم بنفسى تنفيذ مثل هذا الاتجاه » وفعلاً لم أضع توقيعى على الورقة وكذلك لم يحاول أحدهم أن يثنينى عن موقفى . وتحضرنى واقعة شبيهة بهذه المناسبة حدثت عند لقاء السادات وبيجين فى أسوان . وكان السادات سياسيًا بارعًا فى التلويح بالمغريات . **فلوح لبيجين بها معناه أنه فى نظير أن تصبح القدس عربية فربما يمكن إمدادها بمياه النيل . .** وطبيعى أن السادات كان يعلم باستحالة موافقة بيجين على عروبة القدس . . . فقد أجاب بيجين يومها قائلاً « إن استقلال إسرائيل ليس محلا للبيع » . وأنا أقرر هنا للتاريخ أن ذلك الحديث كان شخصيا بين الرجلين ولم يكن أبدًا موضوعًا للمفاوضة فى أى وقت من الأوقات على النحو الذى شاعت الأبواق الرافضة أن تظهره وقتذاك عندما قالت إن السادات ينوى

توصيل مياه النيل لإسرائيل . . . الأمر الذى كان له رد فعل سيئ فى داخل مصر وخارجها . .

مباحثات واشنطن - سبتمبر ٧٩

نظرًا لاختلاف وجهتى النظر المصرية والإسرائيلية حول موضوع قوات حفظ السلام فى سيناء ، فقد تقرر إجراء مباحثات فى ١٧ سبتمبر ٧٩ فى واشنطن على مستوى وزراء الخارجية . وقد رافقنى ضمن الوفد العسكرى اللواء محسن حمدى واللواء لبيب شراب ، وانضم للوفد اللواء عبد الحليم أبو غزالة الذى كان ملحقًا عسكريا فى واشنطن . وكان للزيارة هدف آخر هو بحث احتياجات مصر من السلاح مع وزير الدفاع الأمريكى هارولد براون . وكان مقررًا أيضًا عند عودتى بعد المباحثات المرور على فرنسا لإجراء محادثات يوم ٢٤/ ٩/ ٧٩ مع وزير الدفاع الفرنسى « بورج » حول احتياجات مصر من السلاح الفرنسى تنويعًا لمصادر السلاح .

وكما ذكرت من قبل لقد نجحنا فى الإبقاء على المراقبين الدوليين وتشكيل مجموعة من المراقبين الأمريكين فى الإشراف معهم على الانسحاب لحين الوصول إلى اتفاق بشأن قوة متعددة الجنسيات بعد تاريخ الانسحاب النهائى بعد سنتين .

أما بالنسبة للسلاح فقد كانت المباحثات حوله سهلة ، إذ إن الولايات المتحدة ترحب بأن تكون المورد الرئيسى للسلاح لمصر بعد أن اطمأنت بتوقيع المعاهدة إلى أن هذا السلاح لن يستخدم ضد حليفتها إسرائيل . وكان مساعد وزير الدفاع الأمريكى قد حضر إلى مصر فى ١٩ مايو ٧٩ على رأس وفد عسكرى لتوقيع اتفاق قيمته ١٥٠٠ مليون دولار .

ورغم أن الولايات المتحدة كانت مستعدة منذ طرد الخبراء السوفييت من مصر عام ٧٢ لأن تورد السلاح لمصر إلا أن السادات لم يطلب ذلك ، لأنه شاء أن يكون قرار إخراج الخبراء من مصر قرارًا مصريًا بالدرجة الأولى وألا توجد شبهة اتفاق مع أى جهة أخرى .

كان من السهل على أن أحدد مع لجنة احتياجات القوات المسلحة التى شكلتها لهذا الغرض أنواع الأسلحة المطلوبة لمصر نظرًا لأنى كنت أحد المسئولين عن خطة تطوير القوات المسلحة بعد حرب ٧٣ قبل وأثناء عملى مساعدًا لوزير الدفاع . وقد تقرر أن تشتمل الصفقة على طائرات « ف ٤ - » بدلا من طائرات « ف ٥ » التى كان مزمعا أن تتولى السعودية تمويلها عام ٧٨ واستمر التفاوض بشأنها طويلاً حتى أوائل ٧٩ - وعلاوة على ذلك تشتمل الصفقة على دبابات إم ٦٠أ ٣ وصواريخ متطورة ضد الدبابات من طراز « تاو » وهى التى استخدمتها إسرائيل ضد مصر عام ٧٣ بعد أن ألقت الولايات المتحدة بكامل ثقلها لإنقاذ إسرائيل من الهزيمة المحققة .



اجتماعات تشكيل قوة حفظ السلام



البعثة الأمريكية لسيناء

ونظرًا لأنه كان مقررًا اشتراك هذه الأسلحة فى العرض العسكرى فى أكتوبر ٧٩ ، فقد رأيت أن تتولى الولايات المتحدة نقلها لمصر وسط هذا الخضم من العداء الذى يحيط بمصر والذى يمتد من جبل طارق وحتى حدود مصر مارًا بالمغرب والجزائر وتونس وليبيا مما كان يتطلب أقصى درجات التأمين .

وأثناء عودتى من هذه الرحلة توقفت فى باريس وأجريت المحادثات مع وزير الدفاع الفرنسى حول الأسلحة الفرنسية لمصر . كانت مصر فى الحقيقة منذ قرار السادات بتنويع مصادر السلاح قد أجرت محادثات مع فرنسا وبريطانيا وإيطاليا سواء لشراء الأسلحة أو لتصنيع أنواع من الطائرات والمدافع والصواريخ المضادة للدبابات وكذلك لشراء أجهزة تكميلية متقدمة لتطوير المعدات الشرقية من الشركات الألمانية واليابانية . وبذلك استطعنا زيادة كفاءة هذه المعدات الشرقية بنسبة كبيرة .

فى ٢٦/٩/٧٩ وصلت إلى القاهرة ، وتصادف أن كان ذلك اليوم هو اليوم التالى لعودة منطقة الانسحاب الثالثة إلى مصر (وهى حوالى ٧٠٠٠ كيلومتر مربع جنوب سيناء) وليرتفع العلم المصرى على أكبر تجمع سكانى فيها فى احتفال فى أبو دربة .

كان الاستعداد للعرض العسكرى فى ذلك الوقت يحتل أهمية كبرى لرغبة السادات فى إظهار القوة العسكرية لمصر بعد معاهدة السلام . فاشتركت من القوات الجوية طائرات الفانتوم الأمريكية لأول مرة مع طائرات الجازيل الفرنسية والكوماندو الإنجليزية والميج ١٩ الصينية ، بالإضافة إلى ما سبق ذكره من الأسلحة الأمريكية . كما ظهر فى العرض أول إنتاج للهيئة العربية للتصنيع وهو صواريخ سوينج فاير الإنجليزية المضادة للدبابات . ومن المؤسف طبعًا أن الهيئة العربية للتصنيع كانت تواجه أزمة مالية نتيجة انسحاب الأطراف العربية المؤسسة لها مع مصر (السعودية وقطر والإمارات) فى ٢٤/٤/٧٩ ، بعد توقيع معاهدة السلام وبدون سابق إنذار ، ومع صدور قرار وزير الدفاع السعودى بتصفيتها ، وكان يشغل منصب رئيس اللجنة العليا للهيئة فى هذه الدورة . وبادرت كوزير دفاع بالإعلان فى جميع الصحف عن استمرار عمل الهيئة وأن قرار حلها باطل ومخالف للائحة الأساسية ولقانون الهيئة الذى يوجب إجماع الدول المؤسسة على أى قرار ـ وقد فكر السادات فى تحويلها إلى الهيئة المصرية للتصنيع ، ولكن كان من الممكن أن يضر ذلك بالأموال المودعة باسمها فى البنوك الأجنبية ، وكانت حوالى ٥٠٠ مليون دولار ، وقررت تجميد هذه المبالغ فى البنوك داخليا وخارجيا واستطعنا استعادة ٧٨ مليون دولار كانت مخصصة لذمة وزارة الدفاع المصرية لتصنيع طائرات هليوكيبتر بريطانية . وعندما علمت أن بنكا فى باريس حول ما يخص الهيئة من أموال



العرض العسكرى فى صحراء السويس عا م١٩٧٩

إلى أحد البنوك الخاصة فى كندا استصدرت حكما قضائيا بالحجز على فرع البنك فى مصر . وكان الأساس القانونى فى ذلك أن التصرف فى أموال الهيئة لا يتم إلا بتوقيع رئيس مجلس الإدارة المصرى « أحمد زندو » ومدير عام الهيئة السعودى وأعيد المبلغ فى اليوم التالى مباشرة إلى باريس .

وقمت كوزير للدفاع بدور رئيس اللجنة العليا للهيئة واستمرت الهيئة فى (١) العمل رغم المبالغ الضخمة المتجمدة فى البنوك والتى لم يكن لى حق التوقيع لسحبها . . ومما أذكره فى هذا الشأن أن وكيل وزارة الدفاع البريطانية أكد فى زيارته لى استمرارية مشروع إنتاج الهليوكيبتر الإنجليزية . ولكنه عاد فى اليوم التالى وخضع للضغط السعودى لإنهاء العقد وعدم الاستمرار فى الإنتاج ، فقررت إلغاء تصنيع هذه الطائرات التى كان إنتاجها بناء على إلحاح من الأطراف العربية . وفى الحقيقة لم تكن الطائرة بالكفاءة أو المستوى الفنى المطلوب .

---

(١) قامت الهيئة على أكتاف ٤ مصانع حربية مصرية ، ولم يضف إليها إلا مصنع واحد جديد للعربات الجيب ، ولم تكن تكلفته لتقارن بالمصانع المصرية بل ولا تتجاوز ١ ـ ٢ فى المائة من قيمة المصانع .
واستطاعت الهيئة أن تقف على أقدامها وأن تسد احتياجات القوات المسلحة المصرية ، بل وبعض الدول العربية كالعراق فى حربها مع إيران بعد ذلك .

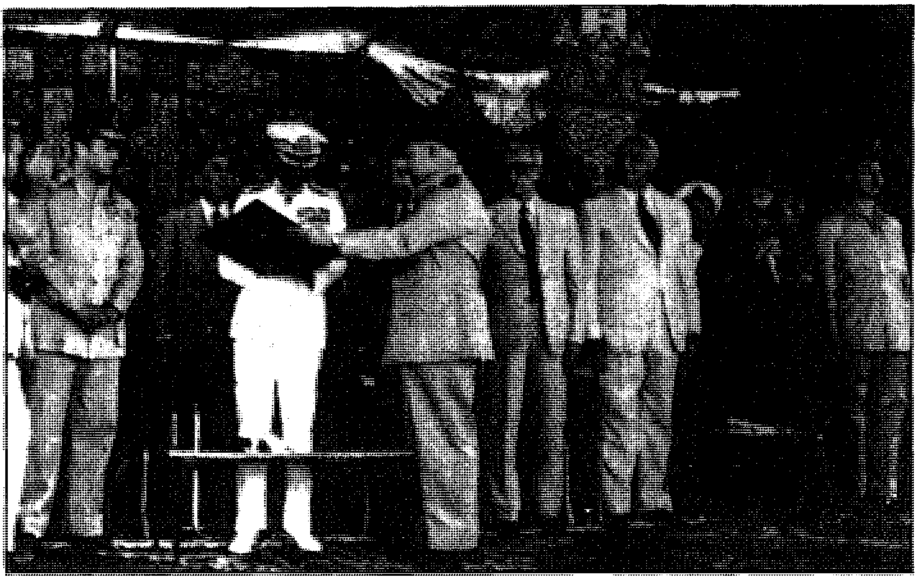
وتم الانسحاب الأولى (المرحلى)

بانتهاء المرحلتين الرابعة والخامسة للانسحاب تكون مصر قد استردت ثلاث أرباع مساحة سيناء (حوالى ٤٥ ألف كيلو متر مربع) بالوصول إلى خط العريش رأى محمد ، إذ شملت المرحلة الرابعة التى انتهت فى نوفمبر ٧٩ ، الطور وجبل موسى ودير سانت كاترين وصفصافة ورأس محمد ، وتم بعدها تعيين محافظ مصرى لجنوب سيناء هو اللواء فريد عزت وهبة . وكان من أهم ما تحتويه منطقة الطور حقول بترول علما ، وطاقتها ٢ مليون طن سنويًا . وأما المرحلة الخامسة التى انتهت فى يوم ٢٥/ يناير ١٩٨٠ ، فقد شملت القطاع الأوسط لخط العريش رأس محمد ، وهو يمتد لمسافة ٢٢٥ كم ويضم منطقة المضايق الإستراتيجية ، علاوة على ثلاث مطارات هى المليز وتمادة والسر ومجموعة من الطرق الإستراتيجية الحيوية . ونتيجة للعلاقة المتميزة التى كانت تربطنى فى ذلك الوقت بعيزر فايتسمان فقد تسلمت مصر المطارات الثلاث فى حالة ممتازة بل أعيد دهانها وترميمها قبل التسليم . وكان ذلك غريبًا على إسرائيل لو قورن بانسحابها فى عام ٥٦ عندما دمرت الأخضر واليابس وتركت سيناء خرابا . وللحق كان تصرف عيزر فايتسمان تصرفا حضاريا إذا قورن بتصرف شارون الذى خلف فايتسمان فى وزارة الدفاع وقد أصر على تدمير مستوطنةياميت فى رفح قبل الانسحاب النهائى كما سيرد فيما بعد . . .

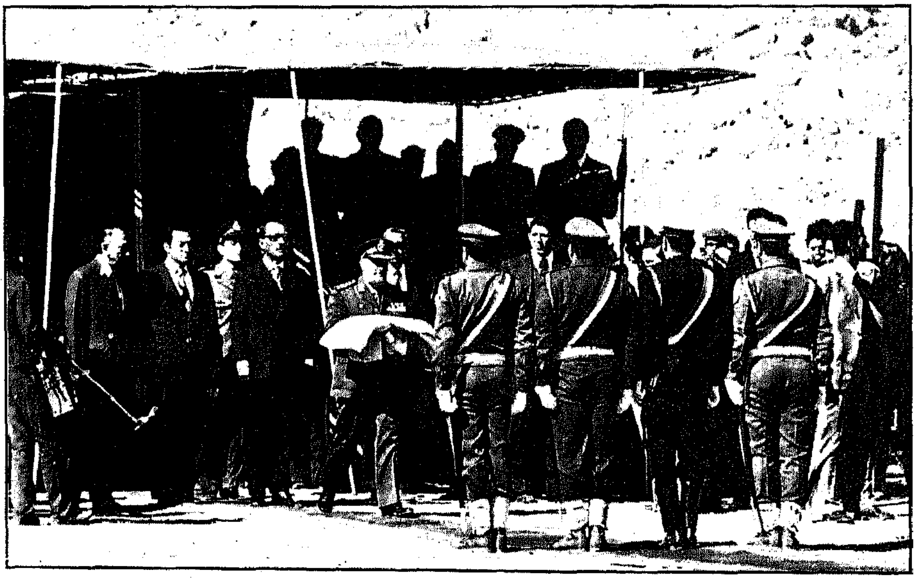
وفى يوم ٣ فبراير ١٩٨٠ صحبت السادات ونائبه حسنى مبارك وبعض القيادات السياسية للحزب الوطنى فى طائرة تفقدنا فيها خط العريش رأس محمد . . . وكان السادات فى قمة سعادته لاستعادة كل هذه المنطقة بطريقة سلمية . وكان يردد باقتناع أن هذا ثمرة الأداء البطولى للقوات المسلحة فى أكتوبر ٧٣ . وعندما شاهد المطارات الثلاثة على الحالة الرائعة التى تسلمناها بها قال فى خطاب له فى قيادات الجيش الثالث وأهالى وشيوخ قبائل سيناء ومندوبى الصحافة من جميع أنحاء العالم جملته الشهيرة « لن تشهد سيناء حربا بعد اليوم » .

العلاقات الطبيعية

طبقا للمعاهدة كان يجب أن تبدأ المفاوضات الخاصة بتطبيع العلاقات فى موعد غايته ٦ أشهر بعد الانسحاب المرحلى . . ولكن إجراءات التطبيع بدأت فى الحقيقة بعد أقل من شهر واحد من توقيع المعاهدة . وكان من مظاهر هذه الإجراءات اجتماع وزيرى البترول فى مصر وإسرائيل فى ١٧/ ٤/ ٧٩ حتى قبل الاحتفال بتبادل وثائق التصديق على المعاهدة لبحث إجراءات تسليم حقول « علما » . . هذا فى الوقت الذى استمرت فيه إجراءات الدول الرافضة



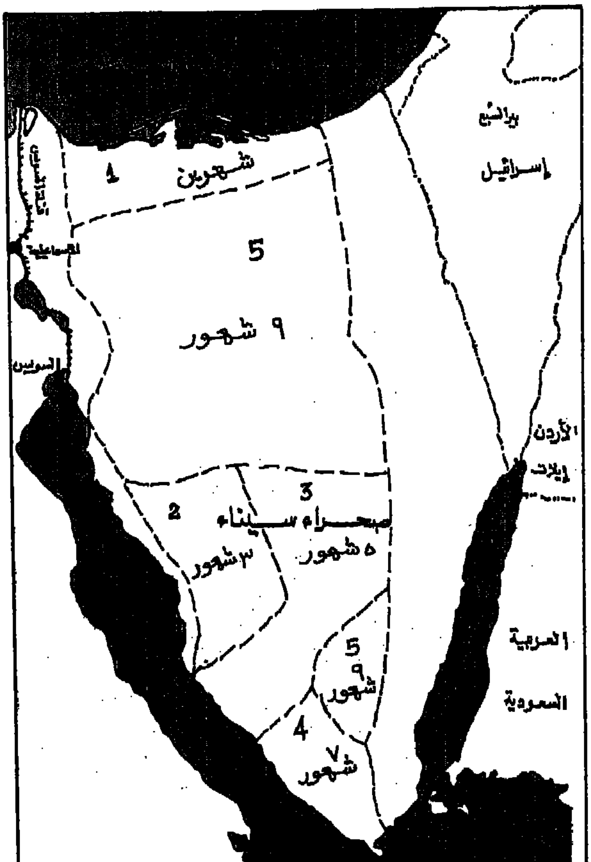
توقيع وثيقة تسليم العريش للسلطة المدنية



السادات بعد تقبيل العلم لرفعه على سانت كاترين

ضد مصر وتزامنت معها قرارات الأوبك بحرمان مصر من البترول بدعوى أن مصر ستورده لإسرائيل. ولكن السادات كان يرى من الضرورى طمأنة إسرائيل إلى جدية عملية السلام وألا يعير الشكليات اهتمامًا دون جوهر العلاقة ، فلم يكن السلام بالنسبة للسادات دعوة مظهرية أو تمثيلية ، بل كان حقيقة واقعة يعلم أنها فى صالح مصر قبل أن تكون فى صالح إسرائيل .

ولقد أحسست فى كل مقابلاتى مع الإسرائيليين تلهفًا وتعجلاً لقيام العلاقات الطبيعية ، كما دأب المسئولون على الشكوى من بطء عمليات التطبيع . كانت الزيارات المصرية لإسرائيل تشعرهم بالراحة والاطمئنان ، فكانت زيارة السادات لحيفا فى سبتمبر ٧٩ وزيارتى لإسرائيل والضفة الغربية فى يوليو ٧٩ نوعا من التطبيع المبكر للعلاقات وكذلك اتفاقى مع فايتسمان



المراحل الفرعية للانسحاب لخط العريش - رأس محمد

على إنشاء اتصالات تليفونية بين رؤساء اللجان العسكرية المشتركة لتسهيل التفاهم والاتصال . .

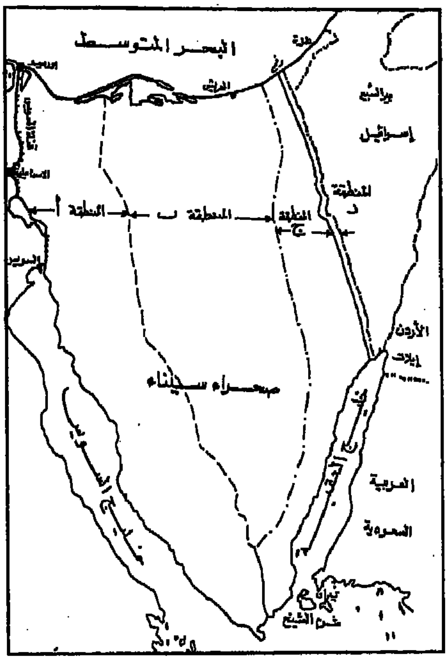
وقد أنشأت الخارجية المصرية فى سبتمبر ٧٩ إدارة باسم لجنة تطبيع العلاقات رأسها السفير طه المجذوب ، وصدر القرار الجمهورى بإلغاء المقاطعة فى ١٨ فبراير ١٩٨٠ كما رشحت مصر فى ٥ يناير ٨٠ ، اسم سعد مرتضى سفيرا لمصر فى إسرائيل .

وقد شاء لى قدرى ألا أنفصل عن خضم الأحداث لحظة . . فصدر قرار رئيس مجلس الوزراء فى ٢ فبراير ٨٠ بأن أرأس اللجنة العامة لتطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل . وتشكلت اللجنة من ممثلين بدرجة لا تقل عن وكيل وزارة من كل الوزارات والهيئات والبنك المركزى ، علاوة على أعضاء لجنة التطبيع بالخارجية . كما تشكلت سبع لجان فى البلدين تختص بالثقافة والتجارة والسياحة والمواصلات والنقل البرى والبحر والطيران والزراعة ، واستبعدت بناء على طلبى لجنة البترول بعد أن قررت مصر أن تبيع لإسرائيل ٢ مليون طن سنويا بدون أى شروط تفضيلية كما سبق ذكره .

واستطاعت اللجنة العليا للتطبيع فى كلا البلدين برئاسة وزيرى الدفاع أن تنجز فى خلال أربعة شهور من يناير إلى مايو ٨٠ ثلاث اتفاقات للنقل الجوى والتجارة والثقافة ، وست مذكرات تفاهم شملت الاتصالات والطيران المدنى والسياحة والزراعة والمواصلات ومرور الفلسطينين ، بالإضافة إلى اجتماع ممثلى وزارات العدل والداخلية لبحث الموضوعات المشتركة . .

وقدم السفيران أوراق اعتمادهما فى مصر وإسرائيل يوم ٢٦ فبراير ٨٠ أى بعد مرور ستة شهور بالضبط على الانسحاب الأولى تنفيذًا لنصوص المعاهدة ، وهما السفير سعد مرتضى عن مصر ، وإلياهو بن أليسار عن إسرائيل . واستقرت السفارة المصرية مؤقتا فى أحد الفنادق فى تل أبيب ، كما استقرت الإسرائيلية فى منطقة الجيزة ، واتفق على إنشاء قنصليتين للبلدين فى شرم الشيخ وإيلات .

وكان طبيعا أن تواجه مصر إجراءات مضادة ومقاطعة عربية من دول الرفض لإلغائها المقاطعة الإسرائيلية . وكان هدفها النيل من الاقتصاد المصرى وتحميل مصر خسائر مادية نتيجة لالتزاماتها الكثيرة مع الدول العربية . وواكب هذه الفترة إجراءات قطع العلاقات الدبلوماسية مع الجزائر وليبيا وسوريا واليمن الجنوبية ، وهى الدول التى اشتركت فى مؤتمر



الحدود الدولية
وخطوط المناطق

طرابلس . . ولكن مصر رغم التضحيات الكبيرة عملت باصرار على وضع إجراءات التطبيع موضع التنفيذ ليس لاقتناعها فحسب بها تفعل ، وإنما أيضا لتفوت على إسرائيل أى ثغرة أو فرصة للتنصل من السلام . وقد تم فى خلال ثلاثة أشهر (من بدء مفاوضات التطبيع فى فبراير ٨٠ وحتى نهايتها رسميًا فى مايو ٨٠) توقيع تسع اتفاقيات ، كما شملت العلاقة الطبيعية مرور السفن التجارية الإسرائيلية فى قناة السويس والمضايق .

ولن أكرر هنا الفرص التى ضاعت على الدول العربية من جراء تخلفها عن ركب السلام .

الباب الرابع عشر

مشوار وزارة الخارجيّة

الفصل التاسع والأربعون : تطوير لا تطهير

الفصل الخمسون : ثلاثون « جولة » حول العالم

الفصل الواحد والخمسون : العرض الأخير - (اغتيال السادات)

الفصل الثاني والخمسون : « وماذا بعد السادات »

الفصل التاسع والأربعون
تطوير التطهير

فى يوم ٣٠ إبريل عام ١٩٨٠ كان الرئيس السادات يستمتع بجو الربيع الدافئ ، ويملأ عينيه بمشهد طابور السفن الضخمة التى تعبر قناة السويس ، وهو يجلس فى الحديقة الخضراء باستراحة جزيرة الفرسان المطلة على بحيرة التمساح على مشارف الإسماعيلية ، عندما اصطحبت معى عيزر فايتسمان وزير الدفاع الإسرائيلى لمقابلته ، ولقد جذبته هو أيضًا هذه المناظر الخلابة والتى أضفى عليها السلام روعة خاصة حرمت منها هذه المنطقة لسنوات طويلة .

وعندما انتهت المقابلة ورحل عيزر فايتسمان طلب منى الرئيس السادات أن أبقى معه لفترة قصيرة من الزمن . لم يدر بخلدى لحظتها أنى سأستمع خلالها إلى كلمات قلائل سينتهى بها مشوارى الطويل مع القوات المسلحة ووزارة الحربية ، لأبدأ مشوارًا جديدًا من حياتى فى مكان آخر .

صمت السادات برهة من الزمن جذب فيها نفسًا طويلاً من البايب ثم نظر إلى وقال :

ياكمال أنا شايف كفاية كده عليك وزارة الدفاع ـ وطبيعى لازم تكمّل تنفيذ المعاهدة . . وقريبًا سيحدث تغيير وزارى وستشغل منصب وزير الخارجية ، ولكن نظرًا لأقدميتك فسوف تكون كذلك نائبًا لرئيس الوزراء .

أحسست فى ذلك الوقت أن الأمر تكليف وتشريف بالنسبة لى . وحدث أنى لم أعلق على ما سمعت إلا بكلمات قلائل معناها أنى أينما أعمل فأنا جندى فى خدمة بلدى .

كان السادات يبدو فى الفترة الأخيرة أنه فقد بعض ثقته فى رجال الخارجية ، بعدما امتنع إسماعيل فهمى وزير خارجيته الأسبق عن مرافقته فى زيارة الرئيس حافظ الأسد قبل سفره إلى كامب ديفيد .

وكان إبراهيم كامل (وزير الخارجية التالى) قد تنحى هو الآخر عن تكملة مفاوضات كامب ديفيد ، كما استقال السفير مراد غالب (سفيرنا السابق فى الاتحاد السوفييتى) بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد (وكان وقتها سفيرنا فى بلجراد) بسبب توقيع المعاهدة .

لذلك رأى السادات أن يستعين بآخرين من غير رجال الخارجية . ولقد تأكد لى ذلك المعنى فيما بعد ، عندما وجه لى خطابًا يوم ٣٠ مايو يطلب منى ألا أتحدث نيابة عن الفلسطينيين فهم أصحاب القضية ، كما تلقى الدكتور بطرس غالى (وزير الدولة للشئون الخارجية) خطابًا آخر فى اليوم نفسه جاء فيه أن وزارة الخارجية إنما هى تعبير عن واقع مصر ، وأنه يجب أن تتخلص الوزارة من أسلوب « أولاد الذوات » .

فى ٢٠ مايو تم تشكيل الحكومة الجديدة وتولى الرئيس السادات رئاستها بنفسه ، وشغل الدكتور فؤاد محيى الدين نائبًا أول لرئيس الحكومة .

وعندما توليت منصب وزير الخارجية فى هذه الوزارة ، وجدت أن قدرى فيها لم يكن بأفضل منه عندما توليت منصب وزير الدفاع فى ظروف استثنائية خاصة ، تطلبت التفاوض من أجل المعاهدة المصرية الإسرائيلية والبدء فى تنفيذ الانسحاب الإسرائيلى من سيناء وإنتقال القوات المسلحة من حالة الحرب إلى حالة السلام مع الإبقاء على استعدادها القتالى علاوة على القيام بالمهام العادية الكثيرة لوزارة الدفاع بما فيها موضوع الهيئة العربية للتصنيع الشائك .

كان العمل كذلك فى الخارجية له ظروفه الاستثنائية الخاصة فى تلك المرحلة المشحونة بالأحداث . فهناك المقاطعة العربية التى كانت ترمى إلى فرض العزلة على مصر ليس عن العرب وحسب ، ولكن عن باقى المجتمع الدولى .

لذلك كان الأمر يقتضى تحركًا دوليا مكثفًا على مستوى العالم ، فى الوقت الذى كان فيه من الضرورى استكمال تطبيق المعاهدة ببنودها المختلفة مع الاستمرار فى مباحثات الحكم الذاتى تمشيًا مع اتفاق كامب ديفيد ، هذا مع إرساء العلاقات المصرية الأمريكية على أسس سليمة ، والحفاظ على علاقتنا بقدر الإمكان بالاتحاد السوفييتى لإيجاد نوع من التوازن بين العملاقين .

وكل ذلك كان مطلوبا أن يتم وسط زحمة الأحداث السيئة الأخرى ، كالحشد الذى قامت به ليبيا بكل قواتها على الحدود الغربية ردًا على قطع مصر للعلاقات الدبلوماسية معها ـ وكان الغرض الواضح هو فتح جبهة جديدة تجبر مصر على إعادة التوزيع الإستراتيجى لقواتها . ولقد ظهر خلف التصرف الليبى شبح المساندة السوفييتية التى أمدتها بأكثر من ٢٧٠٠ دبابة و٤٠٠ طائرة من أحدث ما لدى السوفييت من ميج ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ . كما ظهر تحريض الاتحاد

السوفييتى لأثيوبيا لخلق مشكلة مياه النيل بعد توصيل النيل لسيناء الأمر الذى جعل الرئيس السادات يهدد بالحرب مشيرًا إلى أن تهديد مياه النيل يعد تهديدًا للأمن القومى المصرى .

كما راح القذافى يتحرش بتشاد تمهيدًا لغزوها ، ويقوم بتهديد السودان ليكف عن إجراءات التكامل مع مصر .

التطـوير المقصـود

كانت علاقتى قد توثقت بالفعل بكثير من رجال الخارجية أثناء عملى وزيرًا للدفاع ، وذلك من خلال اشتراكنا فى مفاوضات معاهدة السلام ومفاوضات الحكم الذاتى للفلسطينين التى كنت قد عينت عضوا فى وفدها منذ العام الأسبق فى ٢٤ مايو ١٩٧٩ .

ورغم ذلك كانت نظرة الغالبية العظمى داخل الوزارة لا ترى فى توليتى وزارة الخارجية سوى أن الرجل العسكرى الذى كان يعمل وزيرًا للدفاع قد انتقل إلى الخارجية تمهيدًا لزحف بعض رجال القوات المسلحة عليها ليحلّوا محل رجال الخارجية على غرار ما حدث فى مستهل الثورة .

وفى الحقيقة كان مثل هذا الإجراء بعيدًا عن المنطق لسبب بسيط ، وهو أن رجال القوات المسلحة الذين اكتسبوا خبرات القتال فى عام ١٩٧٣ لم يكن من السهل أن تفرّط فيهم وزارة الدفاع .

كما أن المرحلة الحرجة التى كانت البلاد تمر بها فى ظل المقاطعة العربية ومحاربة مصر فى كل المؤتمرات الدولية كانت تتطلب كذلك خبرة رجال الخارجية والإبقاء عليهم .

لذلك عمدت فى اليوم الأول لتولى أعمالى فى الوزارة إلى عقد مؤتمر خاص داخل الوزارة حضره الدبلوماسيون والإداريون على السواء ، أوضحت فيه طبيعة تلك المرحلة التى تحتاج إلى الاستقرار وإلى المزيد من العمل لمجابهة الظروف الدولية الجديدة وضرورة تنمية العلاقة الثنائية مع كافة الدول . وتصادف أن جاءنى السيد مكرم محمد أحمد رئيس مجلس إدارة المصور ذات الانتشار الواسع فى مصر والعالم العربى ، وأجرى معى حديثًا كان محوره أن الخارجية سوف يشملها التطوير لا التطهير فى الفترة المقبلة .

وكان لهذا الحديث فى الواقع أثره البالغ فى طمأنة نفوس الجميع وإحساسهم بالاستقرار ، وعلى الفور بدءوا معى فترة من العمل الشاق الدءوب جعلت ركائزه تتم داخل محاور مختلفة حصرتها فيما يلى :

١ ـ إعطاء مزيد من العناية بالأفراد وشئونهم ، فالأفراد بطبيعة الأمر هم أساس الإنتاج .

٢ ـ التحرك الدولى المكثف لتلافى نتائج العزلة العربية .

٣ ـ التركيز على الاقتصاد ومراعاته فى مختلف مجالات التعاون الدولى أو الثنائى ، باعتبار أن المشكلة الحادة لمصر فى تلك الآونة كانت مشكلة اقتصادية فى المقام الأول .

٤ ـ التواجد المصرى المكثف فى المؤتمرات والتنظيمات الدولية المختلفة للوقوف أمام محاولات بعض الدول العربية التى كانت تعمل على محاربة هذا التواجد .

٥ ـ تهدئة التصريحات فيما يخص الدولة العربية الرافضة لمسيرة السلام امتصاصًا للمعارك السياسية السلبية الدائرة ، مع تقوية العلاقات مع الدول التى لم تقطع علاقتها بمصر بعد توقيع المعاهدة المصرية الإسرائيلية .

هذا مع التركيز على العلاقات الجديدة بالولايات المتحدة والمعسكر الغربى مع استمرار الحفاظ على علاقتنا بالاتحاد السوفييتى والكتلة الشرقية ، ثم تنمية العلاقات مع الجنوب خاصة فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية .

الاهتمام بالأفراد

كان اهتمامى بموضوع الأفراد ووضعه على رأس القائمة يرجع فى الحقيقة إلى حادث بسيط صادفنى من قبل تولى وزارة الخارجية وأنا مازلت فى وزارة الدفاع . كان الرئيس السادات قد كلفنى بإحدى المهام فى جيبوتى والصومال . ولما أعلنت الصحف عن هذه المهمة جاءنى واحد من أصدقائى الضباط القدامى وطلب منى أن أطمئنه على ابنه عند سفرى إلى جيبوتى . كان هذا الابن يعمل فى سفارتنا بجيبوتى وانقطعت اتصالاته بوالده منذ شهرين فلا يرد على خطاباته ، ولا يفيده بوصول المبالغ التى كان يحولها له شهريا . . !

وعندما ذهبت إلى جيبوتى بعد الصومال سألت عن هذا الابن فتبين لى أنه مريض فى منزله منذ فترة . ولما طلبت من السفير أن أزوره فى منزله لاحظت أنه يراوغنى ثم شرح لى كيف أنه يسكن فى سكن غير لائق وفى منطقة مكتظة شبيهة بالمحلات التجارية على عادة أهل هذه المناطق . ثم استطرد موضحًا كيف أن مرتبه لا يكفيه لأن يشغل سكنًا أكثر ملاءمة رغم ما يرسله إليه والده من مساعدات مالية شهرية .

كانت هذه الحادثة مؤشرًا لى عند تولى الوزارة عن موقف الدبلوماسيين . ولذلك بدأت

بدراسة الرواتب للبعثات الدبلوماسية فى مختلف بلاد العالم ومقارنتها بمعدلات التضخم والغلاء التى حدثت فى هذه البلاد طبقًا لإحصائيات الأمم المتحدة .

كان يقينى أن الدبلوماسى الذى لا يقيم فى مسكن ملائم لن يتمكن من صنع العلاقات الوثيقة مع غيره من الدبلوماسيين المبعوثين من مختلف الدول ، ولن يستطيع الحصول على المعلومات اللازمة لعمله من أهل البلاد ، وذلك لأنه لا يحيا الحياة الاجتماعية المناسبة التى تعتبر جزءًا ضروريا من عمله . .

وتحضرنى هنا دعابة ذكرها لى واحد من الدبلوماسين الأجانب فى معرض لقاء عابر وهو يصف لى الدبلوماسيين بين أصحاب الحظ الحسن وأصحاب الحظ السيئ . . يقول إن الدبلوماسى حسن الحظ هو الذى يتقاضى راتبًا أمريكيًا ويكون متزوجًا من زوجة يابانية ولديه طباخ فرنسى ، أما الدبلوماسى سيئ الحظ فهو الذى يتقاضى راتبًا هنديًا ويكون متزوجًا من أمريكية ويعمل لديه طباخ إنجليزى !

ورغم أن الدعابة تثير التندر على موضوعات أخرى لا تدخل فى اهتمام الخارجية إلا أن موضوع الراتب واضح وأنه يحظى بالمقام الأول .

وعند مراجعتى للموضوع برمته تبينت عدم تطبيق القوانين المالية الخاصة ببدل السكن وتعليم الأبناء ولو حتى فى أدنى الحدود . كما تبينت أن الرواتب قد تعرضت للتجميد لعدد من السنين دون النظر إلى معدلات التضخم التى طرأت على بعض دول العالم وما حدث فيها من ترد لبعض العملات .

وهكذا وضح لى ضرورة تعديل رواتب الفئات لكى تتمشى مع الواقع الجديد .

التطوير فى اتجاهات أخرى وبأساليب جديدة

وكما كانت الرواتب المجمدة فى حاجة إلى تطوير ، فإن هناك أمورًا أخرى لاحظت أنها محتاجة إلى الاهتمام نفسه للنهوض بها .

فقد تصادف عند بحث الخطة الخمسية الأولى فى مجلس الوزراء للفترة من ١٩٨٢ ـ ١٩٨٧ أنى وجدت أن الميزانية لوزارة الخارجية تتطلب أمرين : أحدهما حاجتها إلى مقر جديد يستوعب إداراتها المبعثرة فى أنحاء القاهرة الكبرى ، والثانى ضرورة دعم الشبكة اللاسلكية والشفرة .

ولما تبينت أن الإمكانات المتاحة فى هذه الخطة هى إمكانات هزيلة لن تغطى سوى قدر ضئيل للغاية من المتطلبات ، بحثت مع مساعدى الوزير وسائل أخرى لجمع حصيلة من النقد الأجنبى تمكن الوزارة من استكمال مبنى الوزارة على كورنيش النيل الذى يقوم إلى جوار مبنى الإذاعة والتلفزيون المصرى ، والذى سبق أن وضعت أساساته منذ ستة عشر عامًا دون بناء أى شىء فوقها طيلة هذه المدة .

ولقد توصلنا إلى مشروع قانون لتحصيل رسم على التأشيرات موازيا لما يتم تحصيله فى معظم دول العالم تطبيقًا لمبدأ المعاملة بالمثل ، مع إنشاء صندوق لمبانى وزارة الخارجية يتولى استكمال مبنى الوزارة وتأثيثه بالإضافة إلى شراء أو بناء مقار جديدة لسفاراتنا بالخارج ومكاتبنا الفنية التابعة للوزارات الأخرى فى مختلف بلاد العالم كمرحلة أولى يليها بناء مساكن للدبلوماسيين وغيرهم من العاملين بالمكاتب الفنية كمرحلة ثانية ، وهو أمر يتيح تخفيض المصروفات التى تنفق على إيجارات هذه الأماكن والتى أخذت تتضخم فى الأعوام الأخيرة بشكل جائر فى معظم بلاد العالم !

وبمجرد صدور القانون بدأ على الفور استكمال مبنى الوزارة الجديد كما تم شراء أو بناء أكثر من ٣٤ مقر سفارة لنا بالخارج .

مفاوضات الحكم الذاتى

بالإضافة إلى مختلف المشاكل الخارجية التى صادفت بداية عملى بالوزارة ، كانت هناك مفاوضات الحكم الذاتى التى تعثرت تمامًا بسبب ما أثارته إسرائيل من مشاكل لا تخلق جوًا مناسبًا لاستئنافها على الإطلاق .

فهناك تصريحات بيجين بأن القدس هى العاصمة الأبدية لإسرائيل ، ثم هناك استئناف العمل فى بناء المستوطنات فى الضفة الغربية وغزة ، والمعاملة غير الإنسانية التى يعانيها الفلسطينيون فى الأراضى المحتلة من قبل سلطات الاحتلال الإسرائيلية من هدم بيوتهم وطرد بعضهم وإبعادهم خارج الأرض المحتلة ، كل ذلك أدى إلى توقف هذه المباحثات .

أما داخل الحكومة الإسرائيلية نفسها فكان هناك خلاف حاد حول تعنت هذه الحكومة ووضع العقبات أمام مسيرة السلام والمحاولات المستمرة لتغيير مفهوم اتفاقية كامب ديفيد ، الأمر الذى أدى إلى استقالة عايزر فايتسمان وزير الدفاع ثم تبعه موشى ديان بعده بفترة .

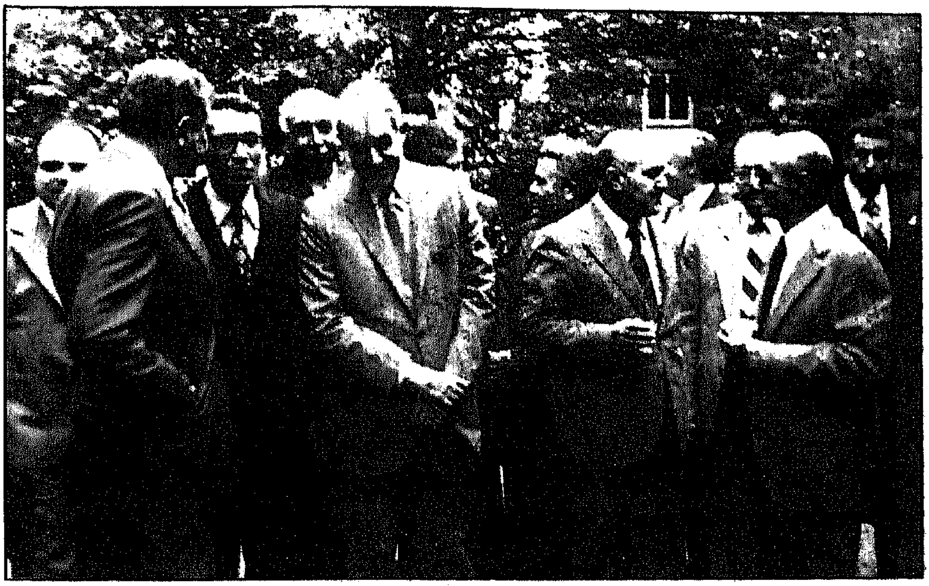
ولقد جرت المحاولات العديدة من الولايات المتحدة وكارتر لاستئناف هذه المباحثات



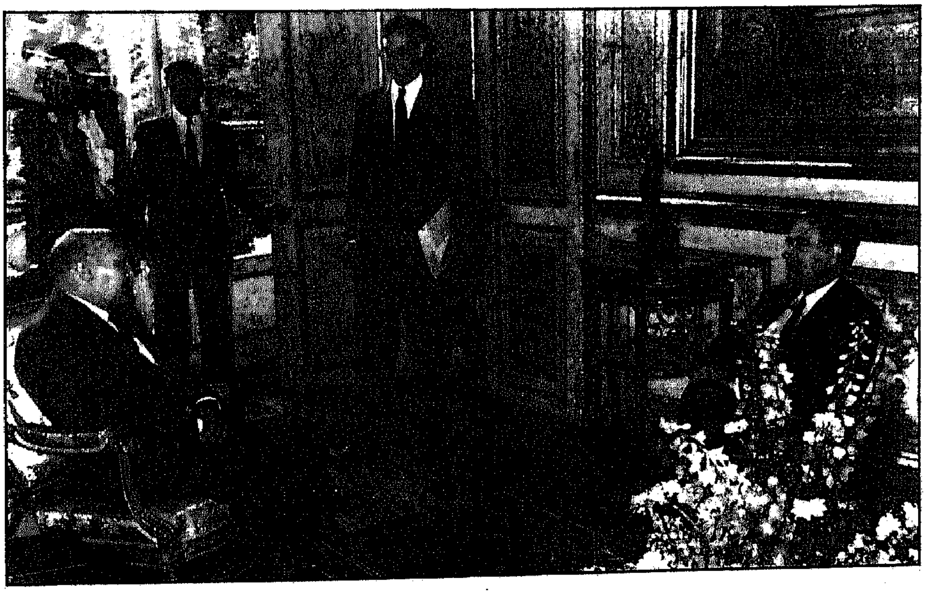
مباحثات استئناف الحكم الذاتى فى واشنطن



مباحثات الحكم الذاتى ـ الإسكندرية



اجتماع الوفود الثلاثة فى بلير هاوس



فى باريس مع الرئيس ميتران

وتبودلت عدة رسائل بين كارتر والسادات وبيجين مما تطلب عقد لقاءات مختلفة مع السفير الأمريكى أثرتون ورجال الخارجية الأمريكية والممثل الأمريكى فى المفاوضات مستر سول لينوفتش . وأخيراً تقرر إجراء محادثات يومى ٢ ، ٣ يوليو ١٩٨٠ بين رؤساء الوفود الثلاثة فى واشنطن بهدف بحث موضوع استئناف المباحثات .

وبالفعل سافرت إلى واشنطن واستقبلنى كارتر فى البيت الأبيض على انفراد فى يوم ٢ يوليو حيث نقلت إليه رسالة موجهة إليه من السادات ، وأبدى بدوره بعض المقترحات التى طلب نقلها إلى الرئيس السادات كما طلب الرد عليها فى اليوم نفسه نظرًا لأنه كان يزمع السفر إلى اليابان فى تلك الليلة . وباتصالى بالسادات وافق على استئناف المباحثات دون شروط مسبقة ، على أن تجتمع اللجان الفنية فى العاشر من يوليو . غير أن الاستئناف الفعلى لهذه المفاوضات كان مرتهنا بمقدار ما تحرزه هذه اللجان الفنية من تقدم ملموس .

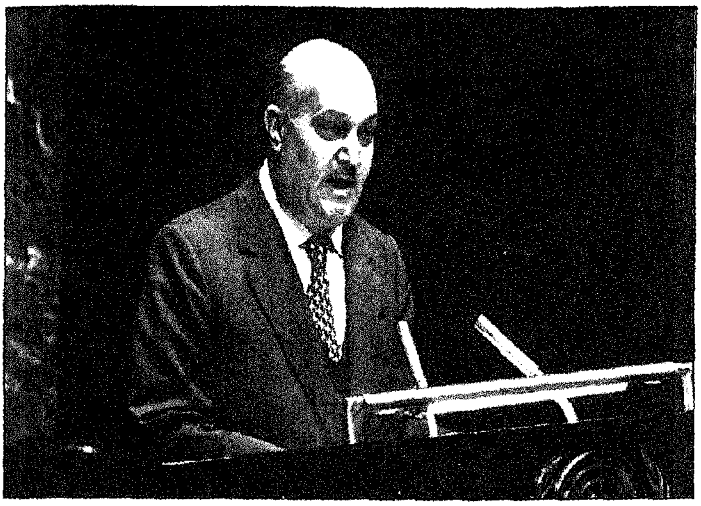
وفى أثناء عودتى من واشنطن توقفت فى لندن حيث قابلت لورد كارنجتون وزير الخارجية البريطانى ومسز تاتشر رئيسة الوزراء ، إذ كان فى الاعتبار أن بريطانيا هى رئيسة المجموعة الأوربية فى ذلك الوقت ، ويمكنها حث الدول الأوربية للقيام بدور فعال فى دفع عملية السلام . وكانت دول أوربا قد أعلنت موقفها المؤيد للقضية الفلسطينية فى فينسيا .

وعندما ظهر مدى التعنت الإسرائيلى بشأن القدس دعا مجلس الأمن فى ٢٠ أغسطس عام ١٩٨٠ إلى الموافقة على مشروع قرار بتوجيه اللوم لإسرائيل لإعلانها القدس عاصمة لها ، ودعا الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة التى لها سفارات فى القدس لسحب هذه السفارات منها .

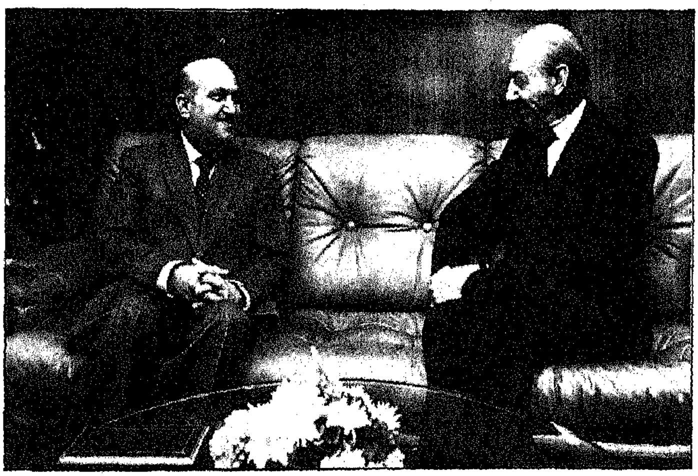
الجـامعـة العربيـة

كانت الدول العربية قد قررت نقل الجامعة العربية إلى تونس عقب توقيع اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل فى مارس عام ٧٩ وبدا الموقف داخل الجامعة على جانب كبير من الصعوبة . فبعض الموظفين من المصريين والعرب آثروا البقاء فى الجامعة بالقاهرة ، أما الأغلبية فقد اختارت الانتقال مع الجامعة إلى تونس .

ولقد صدر قرار رئيس الجمهورية بتعيينى مشرفا على الجامعة العربية بمصر . وكان من الواجب والضرورى الإبقاء على مصالح هؤلاء الذين اختاروا البقاء فى مصر سواء فى أمانة الجامعة أو فى المنظمات التابعة لها ، فى الوقت الذى كانت بعض هذه المنظمات تعانى فيه من ضائقة مالية .



خطاب مصر فى الأمم المتحدة



مع فالدهايم ومناقشة مشكلة الشرق الأوسط

وبدا من المحتم ضرورة مركزية الأموال الخاصة بالجامعة والمودعة فى البنوك المصرية أو فى أفرع البنوك العربية بمصر ، ضماناً للإبقاء على مقار الجامعة العربية ومنظماتها وموظفيها لحين عودة المياه إلى مجاريها عندما تتبين الدول العربية أن السبيل الذى انتهجه السادات ومصر هو الطريق الصحيح للحصول على الحق الفلسطينى والحفاظ على مصالحهم ، الأمر الذى تحقق لهم بالفعل فيما بعد ، ولكن بعد وفاته !

الممارسات العربية ضد مصر فى المنظمات الدولية

كان العراق قد تزعم الدول العربية لتوجيه سياستها ضد مصر بعد مؤتمر بغداد فى نوفمبر عام ٧٩ .

وقد امتدت هذه السياسة لسنوات عديدة بعد ذلك فى كافة المجالات الدولية . وأذكر هنا على سبيل المثال كيف حاولت الدول العربية إقناع دول عدم الانحياز بتجميد عضوية مصر فى هافانا[١] عام ١٩٧٩ ، والإيعاز لكوبا بدعوة مكتب تنسيق دول عدم الانحياز لتعليق عضوية مصر فى المجموعة برغم أنها كانت إحدى الدول الثلاث المؤسسة لها (مصر ـ يوغوسلافيا ـ الهند . فى مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥) . وكان ذلك تنفيذاً لقرار الحركة عام ١٩٧٩ والذى اعتبرته دول عدم الانحياز ضاراً بالمصالح الفلسطينية ؛ غير أن مؤتمر وزراء خارجية عدم الإنحياز فى نيودلهى فى فبراير عام ١٩٨١ رفض مرة أخرى تعليق عضوية مصر فى المجموعة .

كان من الواضح أن مبادرة السادات كانت محل تقدير وإعجاب من معظم دول العالم ولذلك لم تشهد القاهرة من قبل مثل هذا العدد الكبير من الزوار من الملوك والرؤساء ووزراء الخارجية . وهكذا لم تشعر مصر بأى عزلة سوى عن شقيقاتها العربيات ، وكانت موقنة أنها لن تدوم طويلاً .

السادات فى البرلمان الأوربى

ولقد قام السادات فى المقابل بعدد من الزيارات للخارج . كما تلقى دعوة من البرلمان الأوربى فى لكسمبورج حيث ألقى خطاباً فى يوم ١٠ فبراير عام ١٩٨١ .

واستقبل السادات فى ذلك اليوم استقبالا منقطع النظير ، ودعا فيه أوربا لمشاركة مصر فى جهودها لإقناع الفلسطينيين بقبول صيغة الاعتراف المتبادل مع إسرائيل والاشتراك فى تقديم

---

(١) عقد مؤتمر عدم الانحياز فى هافانا فى كوبا (أمريكا اللاتينية) عام ١٩٧٩ .



السادات فى البرلمان الأوربى

ضمانات الأمن فى المنطقة وإزالة آثار الحروب ـ كما أعلن عن تأييد مصر لمبادرة سلام أوربية .

كنت أجلس على يمين السادات على منصة البرلمان ، عندما لاحظ السادات أن هناك من قام برفع لوحات من شاغلى الصفوف الخلفية لأعضاء البرلمان كتب عليها عبارات تأييد للقضية الفلسطينية ـ وعلى الفور علق السادات بعبارته المشهورة « **أنا لم أجئ هنا لأبيع لكم كامب ديفيد أو لأقنعكم بقضية السلام** » . وضجت قاعة البرلمان فى الحال بالتصفيق من كل الحاضرين ولمدة طويلة . . والغريب أن اشترك فى التصفيق هؤلاء الذين رفعوا اللوحات وقد فشلوا فى محاولتهم إحراج السادات .

وأذكر فى رحلة العودة من هذه الزيارة وأنا جالس مع الرئيس السادات فى صالونه الخاص بالطائرة ، كيف أخذ يفضى إلى بمشاعره نحو ضرورة السلام والاستقرار للمنطقة بصفة عامة ولمصر بصفة خاصة ، حتى يمكن أن يترك للأجيال القادمة فرص العيش الآمن ـ ثم راح يذكر لى كيف أنه أصبح يشعر حقًا أنه أدى رسالته وآن له أن يستريح وأن يسلم الراية لمن بعده !

وإنى أتعجب الآن هل كان الرجل يشعر أن هذا العام هو نهايته ؟ ! وأذكر أنى علقت على حديثه يومذاك ببعض العبارات التى أعتقد أنها لم تكن كلها مجاملة ، إذ ذكرت له أن عليه أن يكمل المسيرة التى بدأها ليحقق استقرار المنطقة كلها ، فاستقرار المنطقة فى حد ذاته هو استقرار لمصر .

الفصل الخمسون
ثلاثون "جولة" حول العالم

وفى فترة عملى بوزارة الخارجية قمت بزيارة نحو ثلاثين دولة منها ما اضطررت لزيارته أكثر من مرة ، بل منها ما زرته ست مرات .

ومن الزيارات ما كنت أقوم به بمفردى أو فى صحبة الرئيس السادات ثم الرئيس مبارك من بعده .

وكانت طبيعة المرحلة ونوع الموضوعات فى هذه الفترة الحرجة ، هى التى اقتضت منى هذا التحرك المكثف الذى شمل أنحاء العالم . كنت أستهدف من وراء هذه الزيارات أمرين :

أولهما : تقوية أواصر العلاقات الثنائية فى كافة المجالات السياسية والاقتصادية .

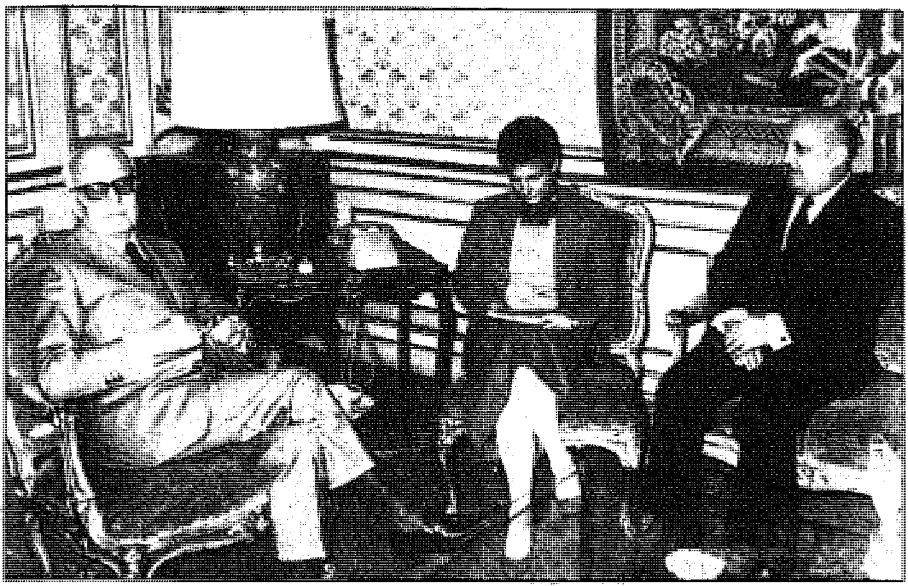
والثانى : ضمان عدم عزل مصر دوليا من خلال الزيارات المتبادلة مع وزراء خارجية الدول وردًا على زيارتهم لمصر .

ولقد شملت هذه الزيارات عددًا من الدول الأخرى بخلاف واشنطن وإسرائيل وعواصم الدول الأوربية التى كانت تهدف أصلاً لدفع جهود السلام .

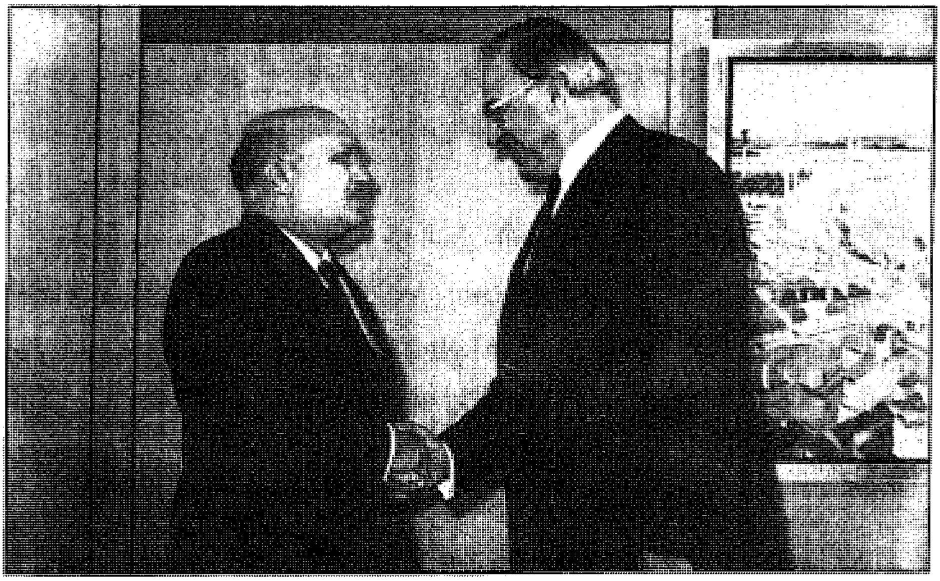
كما تضمنت جولتى الأولى فى مارس عام ١٩٨١ كل دول الشمال الأوربى وبعض دول غرب أوربا ، مثل السويد والنرويج وفنلندا وبلجيكا والدنمارك وبخلاف زيارة غير رسمية لسويسرا !

وأذكر أن عددا من هذه الزيارات كان له الفضل فى توضيح وإزالة عدد من أوجه اللبس وسوء الفهم الذى كان يعترض بعض المواقف التى تحدث عادة بين الدول .

أذكر مثلا أنه قبل قيامى بهذه الجولة بيومين أن أصدر نائب رئيس الوزراء ورئيس المجموعة



فى زيارة إيطاليا مع برتينى رئيس الجمهورية



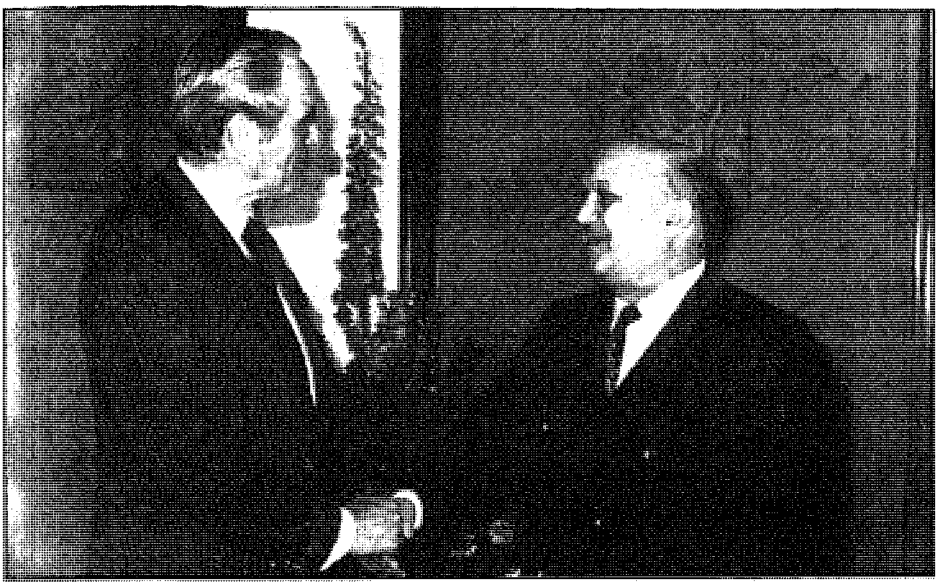
مع مستشار المانيا الغربية هلموت كول

الاقتصادية تصريحًا بأن هناك فائضا فى الموازنة ، ولم يكن يهدف من هذا التصريح إلا الاستهلاك المحلى بقصد طمأنة جماهير شعب مصر بأننا سوف نعبر سريعًا حالة الضائقة الاقتصادية أو عنق الزجاجة كما كان يسميها السادات . وعندما سألت رئيس المجموعة عن هذا التصريح وصحته أجاب أنه بإضافة القروض والمنح التى تحصل عليها مصر سوف يتوفر هذا الفائض . ولم أدرك أثر هذا التصريح إلا عند زيارتى للنرويج بعد يومين . ففى معظم الدول المانحة تختص وزارات الخارجية بتحديد مقدار المنح لكل دولة من الدول ، وغالبًا ما يتقرر ذلك قبل أول إبريل من كل عام . وعندما اجتمعت بوزير الخارجية النرويجى لمناقشة الموضوعات السياسية ، والتى لم تكن محل خلاف بين البلدين ، بادرنى بقوله إنه يعلم أن مصر لديها الآن فائض (وبذلك تكون فى غير حاجة إلى المنح) . وأدركت على الفور مدى نشاط السفراء الأجانب فى نقل المعلومات إلى دولهم . ولحسن الحظ أن هذا الموضوع أثير فى أول دولة أزورها فى مستهل الجولة ، وتكررت إثارته بعد ذلك فى باقى الدول ، وكان ردى على هذه المقولة أنى أوضحت أن ذلك التصريح كان للاستهلاك المحلى ، أما الواقع فغير ذلك تمامًا . فقد خرجت مصر بعد أربع حروب مع إسرائيل وبعد دعمها لثورة اليمن منهكة اقتصاديًا . فالبنية الأساسية من مياه وصرف صحى وكهرباء وتليفونات وطرق وسكة حديد لم يجر لها أى عملية إحلال أو تطوير أو توسيع يتطلبه انتهاء العمر الافتراضى لها أو الزيادة السكانية . كما أن مصر فى ذاك الوقت كانت فى حاجة ماسة لبناء ٢ مليون مسكن فى أسرع وقت مستطاع . وقبل أن تنتهى زيارتى لهذه الدول كانت المنح قد أعيدت لمصر مرة أخرى بل زادت بعد هذا الإيضاح . وبذلك ثبت أنه ما من شيء يفوق الاتصال الشخصى والحوار والمصارحة . ولكن على أن أقرر هنا أن مبادرة السادات للسلام هى التى كان لها الفضل الأول فى هذا الدعم الذى لقيته مصر من دول العالم وعلى الأخص من دول الغرب واليابان .

وأذكر أن الكثير من الدول التى أتيحت لى زيارتها كانت مليئة بمناطق السياحة ومزارات الترفيه الممتعة ، والتى ينفق السائح العادى من أجل مشاهدتها بكل سماحة وبذخ للتجول بين أرجائها للاستمتاع بمسارحها ومشاهدة الأوبرات العالمية وقاعات الموسيقى المبهرة . وهو أمر لم يحدث لى بالطبع .

فمجمل زياراتى لكل دولة من هذه الدول لم يستغرق أكثر من عدد محدود من الساعات التى كانت تمتد - إذا كنت محظوظًا - لتصبح يومًا كاملاً .

ولقد اقتصرت هذه الزيارات بحكم طبيعتها على مقابلة الملوك ورؤساء الدول والوزارات والبرلمانات ووزراء الخارجية ولجان الشئون الخارجية ، مع ما يقام فيها من حفلات استقبال أو



مع رئيس المانيا الغربية كارستنز



مع ملك السويد مارس ١٩٨١

عشاء رسمية يعقبها عادة لقاء مع التليفزيون ورؤساء تحرير الصحف بالإضافة إلى المؤتمرات الصحفية التى تعقد بعد اجتماعاتى بوزراء الخارجية . وفى الحقيقة كانت أمتع أوقاتى بهذه الجولة ، هى لحظات لقائى بالملوك والرؤساء ، والاستماع إلى أحاديثهم الفريدة . أنت مثلا مع ملك النرويج تشعر بتواضع الإنسان العالم الذى يملك بساطة الحديث وسعة الاطلاع ورحابة الأفق . أما ملك بلجيكا فيجعلك تدرك فى الحال مدى ما يحمله فى نفسه من مودة ومجاملة . ولقد أدركت من حديثه أنه قرأ بياناتى الشخصية وعلم منها أنى ضابط دبابات أصلاً وأنى أصبت فى أكثر من معركة ، فراح يستوضحنى عن تاريخ كل إصابة وظروف إصابتى بها . ثم أخذ يسألنى عن تدرجى الوظيفى وسرعان ما تطرق بحديثه إلى الأبناء والأحفاد ومراحل التعليم . وكان من المفروض أن تستغرق الزيارة عشرين دقيقة فقط . وبالفعل فى الدقيقة العشرين فتح أحد رجال المراسم باب الغرفة التى نجلس فيها ، غير أن الملك أومأ برأسه فاستمرت المقابلة لعشرين دقيقة أخرى ، قام بعدها بمصاحبتى حتى الباب الخارجى للبهو الكبير وليس لباب الغرفة كالعادة المتبعة مما أدهش رجال المراسم الملكية فأسرّوا بذلك لسفيرنا فى بروكسل .

وتكرر الموقف نفسه مع ملك السويد والدنمارك ، غير أن شخص السادات كان دائماً المحور الأول للحديث . ومن المصادفات العجيبة فى هذه الجولة فى كل من بلجيكا والسويد أن كانت ضيافتى فى أحد قصور الضيافة ، وفى نفس الغرفة التى ولد فيها كل من ملك بلجيكا وملك السويد بل وفى الفراش نفسه ، غير أن برنامج زيارتى للسويد كان من الازدحام بحيث أنى لم أقض فى هذا الفراش إلا ثلاث ساعات فقط . ففى هذا اليوم وصلت بالطائرة إلى إستوكهلم فى الحادية عشرة صباحًا ، توجهت بعدها مباشرة إلى دار السفير لأتناول الغداء كعادتى فى جميع زياراتى للخارج مع الجالية المصرية . وبعد الغداء توجهت إلى القصر الملكى لنقل رسالة الرئيس السادات إلى ملك السويد فى الموعد المحدد ، تلاها بعد ذلك مقابلة رئيس الوزراء ، ثم رئيس البرلمان ولجنة العلاقات الخارجية ، ثم اجتماع بالخارجية انتهى فى السابعة حيث توجهت إلى الاستراحة لاستبدال ملابسى لحضور حفل استقبال فى السابعة والنصف ، تلاه حفل عشاء انتهى فى التاسعة والنصف لأبدأ لقائى مع التليفزيون السويدى ومقابلة مع رؤساء تحرير الصحف الذى انتهى فى الثانية عشرة مساء وبعدها توجهت إلى الاستراحة . وبعد تداول بعض الأمور مع أعضاء الوفد كان على أن أنام فى الواحدة لأستيقظ فى الرابعة صباحا لأتوجه إلى المطار لأستقل الطائرة فى السادسة إلى فرانكفورت ، وفى اليوم نفسه واصلت الطيران لأستقبل فى صباح اليوم التالى ألكسندر هيج وزير الخارجية الأمريكى فى أول زيارة له لمصر .



مع أولستن وزير خارجية الدانمرك



مع الرئيس ريجان فى البيت الأبيض

مصـر والولايـات المتحـدة

رغم انتقال السلطة فى الولايات المتحدة من الديمقراطيين (كارتر) إلى المحافظين (ريجان)، إلاّ أن مصرظلت فى محور السياسة الأمريكية هى الركيزة التى تمثل عنصر السلام والاستقرار فى المنطقة .

وعندما استقبل الرئيس السادات ألكسندر هيج يوم ٥ أبريل عام ١٩٨١ بحضورى ، أعلن هيج أن مصر القوية هى « ضمان للاستقرار فى المنطقة » .

وكذلك كان الأمر بالنسبة للكونجرس ، فقد وافقت لجنة الشئون الخارجية فى الكونجرس على تقديم منحة اقتصادية قدرها ٧٥٠ مليون دولار بالإضافة إلى مساعدات عسكرية قيمتها ٩٠ مليون دولار . وكان ذلك إيذانا ببدء مرحلة جديدة من التعاون بين البلدين .

قوة حفظ السلام الدولية فى سيناء

كانت المفاوضات تجرى فى ذلك الوقت بين القاهرة وواشنطن وتل أبيب حول تشكيل قوة حفظ السلام الدولية متعددة الجنسيات فى سيناء خلال الفترة الانتقالية إلى أن يتم التنفيذ الكامل للمعاهدة وإتمام الانسحاب الإسرائيلى النهائى من سيناء فى ٢٥ إبريل عام ١٩٨٢ ، وذلك بعد إخفاق مجلس الأمن وعجزه عن تشكيل قوة تابعة للأمم المتحدة .

ولقد وصلنا إلى اتفاق حول هذا الموضوع فى يوليو عام ١٩٨١ ، واستطعنا بمقتضاه أن تشكل القوة من المراقبين الدوليين الموجودين أصلاً فى سيناء دون اشتراك كل من أمريكا والاتحاد السوفييتى . وهو أمر لا يحتاج إلى استصدار قرار جديد من مجلس الأمن - إذ كان من المتوقع أن يستخدم فيه السوفييت حق الفيتو - ولكن يكفى الاشتراك بقرار من سكرتير عام الأمم المتحدة .

آخر رحلة خـارجية للسـادات

فى ٢ أغسطس عام ١٩٨١ كنت مع السادات فى زيارة لبريطانيا ، استمرت حتى ٤ أغسطس جرت فيها مباحثات مع مسز تاتشر رئيسة الوزراء ولورد كارنجتون وزير الخارجية البريطانى .

وبعد الزيارة قمنا بعبور الأطلنطى فى زيارة رسمية للولايات المتحدة . وجرت المباحثات مع الرئيس ريجان وهيج وكاسبر واينبرجر وزير الدفاع ، حيث تمخضت المباحثات عن زيادة فى المساعدات العسكرية والاقتصادية لتبلغ ٢,٣ مليون دولار منها ١,٣ مليار دولار

مساعدات عسكرية و ٨٥٠ مليون دولار مساعدات اقتصادية ، علاوة على ما قيمته ٢٥٠ مليون دولار من فائض الحاصلات الزراعية .

وهكذا حققت الزيارة نجاحها من كافة الوجوه . وكان من الواضح أن السادات يحظى بتقدير الرئيس ريجان كما كان الأمر بالنسبة للرئيس كارتر . لقد أصبح عهد السادات يمثل عصر المصالح المشتركة بالنسبة للولايات المتحدة ، وليس عصر المواجهة التى كان يمثلها سلفه الرئيس عبد الناصر .

وكما هى العادة عند زيارة الرئيس السادات (أو الرئيس حسنى مبارك فيما بعد) أو زيارتى بمفردى للولايات المتحدة ، كان البرنامج اليومى يبدأ من الثامنة صباحًا حتى الحادية عشرة مساء دون توقف وهو برنامج استمر فترة الزيارة التى امتدت من الرابع إلى التاسع من أغسطس عام ١٩٨١ .

جـولة فى الشـرق الأقصـى

وفى نطاق التحرك الدبلوماسى المصرى لمختلف دول العالم ، كان من المقرر أن أقوم بجولة فى خمس دول آسيوية هى تايلاند وسنغافورة والصين وكوريا الشمالية واليابان ، وهى جولة تمهيدية لزيارة يقوم بها السادات لهذه الدول فى نوفمبر من نفس العام ، ولكن شاء القدر أن تكون زيارته للولايات المتحدة هى آخر زيارة خارجية له فى حياته .

ولقد بدأت جولتى يوم أول سبتمبر حيث توقفنا ليلة فى بومباى ـ الميناء الرئيس للهند ـ قضيناها فى أفخم فندق فيها وهو فندق أوبروى بدعوة من شركة أوبروى نفسها .

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى أزور فيها بومباى فقد سبق أن زرتها فى عام ١٩٧٦ أثناء فترة عملى بالمخابرات العامة ، وقد شاهدت بعض معالمها ، وكان من بينها معهد العلوم النووية الذى أنشأه العالم « بابو Bhabha » أبو الطاقة النووية الهندى ، والذى كان زميلا للدكتور مشرفة عالم الذرة المصرى .

والحقيقة كانت الليلة التى قضيتها فى بومباى بمثابة راحة عظيمة افتقدتها أثناء عملى اليومى بالقاهرة ، وكنت فى حاجة ماسة لها بعد أن بدأ مرض الروماتويد يداهمنى بقوة فى الفترة الأخيرة .

وكان على أن أستأنف الرحلة فى اليوم التالى مباشرة إلى تايلاند حيث تم توقيع اتفاقية للتعـاون فى كافة المجالات بين كل من مصر وتايلاند ، وتم ذلك فى الفترة التى قضيتها بين

٣ و ٥ سبتمبر فى بانجوك عاصمة البلاد التى كانت مشهورة باسم مملكة سيام حتى عهد غير بعيد .

سنغافورة

كانت الزيارة التالية لى هى سنغافورة ، هذا البلد الصغير الذى يقع فى أقصى الطرف الجنوبى لشبه جزيرة الملايو ، والذى استحوذ على كل إعجابى بتطوره السريع وبمدى التجانس العظيم بين تركيبته الديموجرافية ذات الأصول المختلفة . فالسكان كلهم لا يزيد تعدادهم كثيراً عن مليونين ونصف مليون نسمة يعيشون فى منطقة لا تزيد مساحتها عن ٢٢٠ ميلا مربعا (بما فيها الجزر الصغيرة المجاورة) وينتمون إلى أرومات صينية وماليزية وهندوصينية وهندية وباكستانية مع بعض أقليات أوربية وآسيو أوربية . أما لغتهم الأساسية فهى الإنجليزية . ويدين معظمهم بالبوذية إلى جوار عدد آخر من الديانات المختلفة كالكنفوشية ومع أقلية إسلامية ومسيحية وهندوسية ! وكل هذا الخليط يجمعه انضباط شعبى موحد جعل من سنغافورة لؤلؤة الشرق الأقصى بأسلوبها الاقتصادى والاجتماعى المتطور ، والذى تضمن إزالة الأحياء السكنية غير الصحية القديمة مع تعويض أصحابها تعويضًا مناسبًا ونقلهم إلى مساكن جديدة نظيفة وعمارات سكنية تتكون كل منها من ١٥ طابقًا تشرف على مساحات خضراء واسعة حولها ، فيها ركن للأطفال والخدمات لكل مجموعة مع وجود نظام دقيق للصيانة والنظافة .

وعندما التقيت بالرئيس « لى كوان يو » أبدى لى إعجابه الشديد بالرئيس السادات ووصفه بأنه « أشجع رجل عرفه فى حياته » !

وقبل توجهى إلى الصين ، اجتمعت فى سنغافورة يوم ٧ سبتمبر مع سفراء مصر فى جنوب شرق آسيا لبحث علاقتنا بالدول التى تمثلنا فيها ولشرح موقف مصر من قضية السلام وسائر علاقاتها الدولية .

حادثة مثيرة من صحفية مصرية فى الصين

وعندما طرت إلى الصين وحطّت الطائرة فى مطار بكين استقبلنى وزير خارجيتها ، ولكن حدث فى الطريق إلى قاعة كبار الزوار فى المطار أنى لاحظت أن إحدى عضوات الوفد الصحفى المصرى المرافق عن وكالة أنباء الشرق الأوسط « السيدة رجاء أبو شهبة » تجرى ورائى مسرعة وظننت أنها ستطلب منى شيئًا ، إلا أنها سارت خلفى بخطوتين وفى صمت وكأنها أحد أفراد الحراسة حتى وصلنا قاعة كبار الزوار .



مع لى كوان يو رئيس سنغافورة

وبعد دخول القاعة سألتها عن سبب إسراعها فى السير خلفى ، ولدهشتى أجابتنى بأنها لاحظت وجود واحد من الفلسطينيين فى الطائرة كان واضحًا من نظراته أنه تعرف على شخصيتى . ولما خشيت منه علىّ هرعت تجرى خلفى لتغطى بنفسها هذا الجانب المكشوف منى ونحن فى طريقنا إلى القاعة ولكن دون إثارة لأى انتباه .

وكان عملا فى ذروة الشجاعة والتضحية بالنفس من مواطنة مصرية خشيت أن يصيب أحد أفراد جبهة الرفض بمكروه واحدًا من المسئولين المصريين .

ولقد استمرت زيارتى للصين الفترة من ٧ ـ ١١ سبتمبر تم فيها تبادل الرأى فى مسيرة السلام فى الشرق الأوسط والعلاقات الثنائية . فقد كانت مصر أول دولة عربية تنشئ علاقات دبلوماسية مع الصين بعد تولى ماوتسى تونج السلطة . ولهذا أمكن التعاون بين البلدين فى كل المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية . ومن الطريف أن معظم المحادثات قد تركزت فى قاعات مبنى الشعب الذى يحتوى على ١٢ قاعة كبرى حيث تجتمع برلمانات المقاطعات المكونة للصين الشعبية .



مترو أنفاق كوريا الشمالية

وفى أثناء هذه اللقاءات ، علمنا أن هناك وفدًا تركيًا كان فى زيارة لقاعة إحدى المقاطعات شرقى الصين ، فوجد أن اللغة بها كلمات تركية كثيرة وبالسؤال تبين تاريخيًا أن القبائل التركية كانت تقطن شرق الصين إلا أنها كانت تغير على بكين فتخرج القوات الصينية لمطاردتها فتنتقل بدورها إلى الشمال ، وما تلبث أن تغير مرة أخرى على العاصمة ، ومن هنا جاءت فكرة بناء السور العظيم شمال بكين والذى أخذ يمتد من الشرق إلى الغرب حتى بلغ طوله ٢٠٠٠ كم ولكنه بنى على عشرات السنين ، كان ذلك درءًا للإغارات(١) .

وفى عهد أحد الأباطرة الصينيين ، طوردت هذه القبائل حتى دخلت غرب آسيا وفى آسيا الصغرى والتى أصبحت فيها بعد « تركيا » .

زيارة كوريا الشمالية

انتقلت من بكين فى طائرة صغيرة إلى بيونج يانج عاصمة كوريا الشمالية . وكان فى استقبالنا السيد فو دام وزير الخارجية الذى اصطحبنا إلى دار الضيافة .

---

(١) يبلغ الطول الحقيقى لسور الصين ٢٤٥٠ كيلو مترًا بالتعرجات المختلفة ، أما طول المسافة المستقيمة بين طرفيه فهى ٢٠٠٠ كيلو متر وهى المسافة التى يمكن أن يقطعها الغراب طائرًا بين طرفين كما يقولون فى الصين .



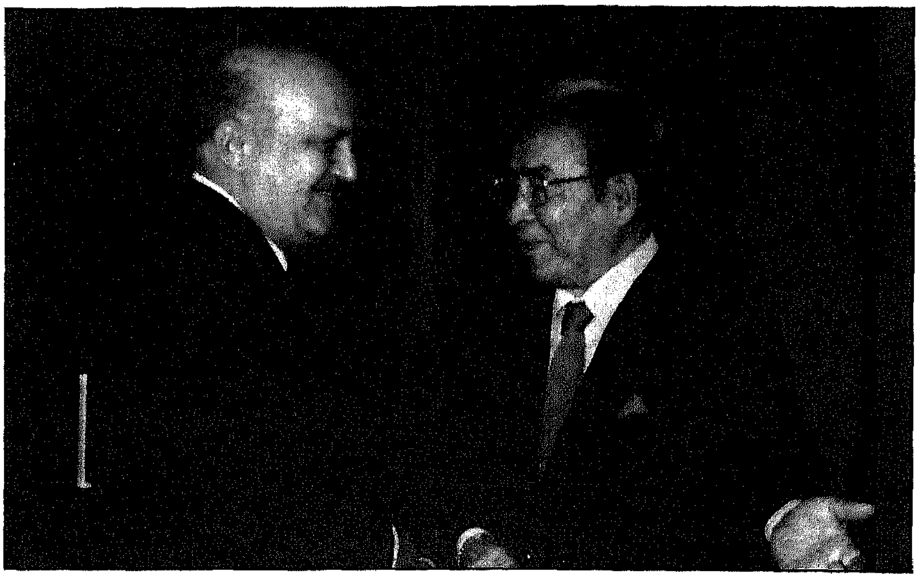
استقبال الوفد فى كوريا الشمالية

كانت علاقتنا بكوريا الشمالية طيبة للغاية . فقد أمدتنا ببعض الذخائر الهامة ، كما ساهمت فى معركة الاستنزاف ومعركة ٧٣ ببعض الطائرات بأطقمها للاشتراك فى حماية سماء مصر على الجانب الأيمن للجيش الثالث الميدانى جنوب السويس ، وعندما بدا أن ليبيا بدأت تحركا مضادًا لنا ، سحبت أسرابها الجوية منها . ومن هنا كان موقفنا من عدم الاعتراف بكوريا الجنوبية طوال هذه السنوات .

ولقد كان استقبالهم للوفد رائعًا رغم تأخر الطائرة عن الوصول حوالى ٤ ساعات بسبب الأحوال الجوية مما اضطرها للهبوط فى شنغهاى . وكان فى تحية الوفد مجموعة لا تقل عن ٤٠٠ فتاة بالملابس والزى الوطنى متعدد الألوان .

وعندما سنحت لى فرصة مرافقة الرئيس حسنى مبارك بعد ذلك بسنتين تقريبًا لكوريا الشمالية، استقبله الشعب الكورى استقبالاً لم يحدث لزائر من قبل . إذ خرجت جموع الشعب فى مجموعات متناسقة على جانبى الطريق فى ملابسها المزدانة ذات الألوان الرائعة وكانت تؤدى رقصاتها الوطنية الجميلة على دقات الطبول على طول الطريق من المطار إلى قصر الضيافة .

كانت المباحثات مع الزعيم كيم إيل سونج ودية وطيبة للغاية واستمرت أكثر من ساعة فى قصره الفاخر . وكان واضحًا أن كوريا الشمالية تحتفظ بتقدير خاص لمصر وخاصة بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، التى وضعوا من أجلها تصميم مبنى البانوراما المقام فى مدينة نصر بالقاهرة ، كما شاركوا فى تطوير المتحف المصرى الحربى .



مع رئيس وزراء اليابان سبتمبر ١٩٨١

وأذكر أنى فى أثناء هذه الزيارة ، أتيحت لى فرصة مشاهدة متحفهم الحربى العظيم كما لفت نظرى روعة وجمال مترو الأنفاق الذى قد يكون أروع وأجمل مترو أنفاق فى العالم وأقلها ركابا (ولا أقول ازدحامًا) وكان من الواضح أن الغرض من إقامة هذا العمل العظيم هو أن يكون بمثابة ملاجئ ضد الضربة الذرية أكثر منه وسيلة مواصلات .

زيـارة هـونج كونـج

بعد ما انتهت زيارتى لكوريا الشمالية اقتضى الأمر أن نقصد هونج كونج - هذا البلد التابع للتاج البريطانى والذى يقع فى جنوب شرق الصين - لكى نستقل منها الطائرة إلى اليابان .

وأثناء طيراننا إلى هونج كونج ، تلقيت خبر قيام السادات باعتقال جميع رجال المعارضة وبعض رجال الدين من المسلمين والأقباط .

وكان الخبر مفاجأة تامة لى ، إلا أن المفاجأة الثانية كانت فى انتظارى فى مطار هونج كونج إذ وجدت هناك ١٥٠ صحفيا يمثلون صحافة العالم يرغبون فى لقائى لتغطية هذا الحدث . ولقد طلب منى القنصل المصرى أن ألتقى بهم فى إحدى قاعات المطار التى أعدت لهذا الغرض . وهنا أسقط فى يدى ، إذ كان على أن أجيب عن الأسئلة الموجهة إلى فى موضوع لا أعلم عن تفاصيله إلا ما استمعت إليه فى الإذاعات الأجنبية .



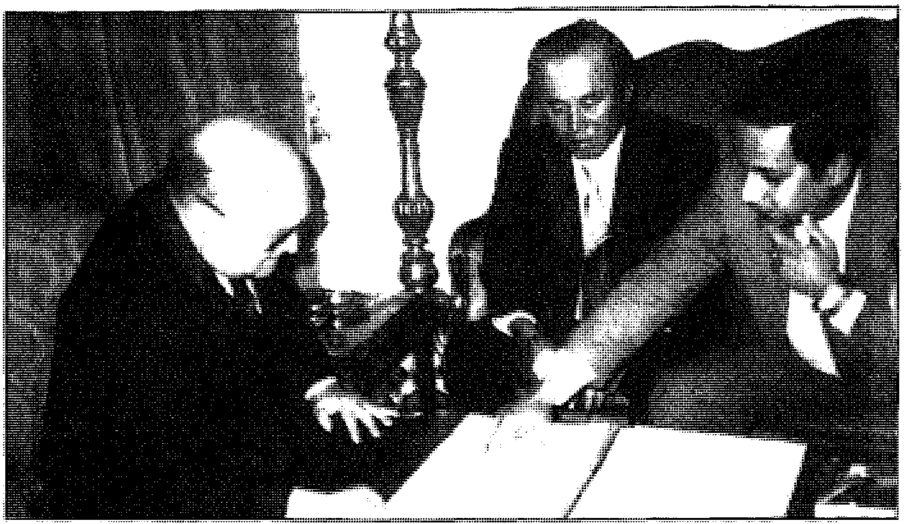
في اليابان بمناسبة بلوغ سن الستين ١٩٨١

وفى الحال بدأ وابل الأسئلة ينهال على وأخذت أرد عليها جميعًا بما أمكننى استنتاجه مما سبق من أحداث ومقدمات ، ومما كنت ألاحظه من ضيق شديد على السادات وأسرته من أسلوب المعارضة وتجاوزاتها التى يمكن القول إنها كانت قد تعدت معايير القيم فى هجومها على الرجل الذى يحارب من أجل قضية بلده وفى الوقت نفسه كان الهجوم يتم بواسطة عدد من الأقلام العربية والأقلام المصرية فى آن واحد فى صحافة الخارج . وكان ذلك يحدث فى الوقت الذى تتعرض فيه البلاد إلى أحداث دامية فى محاولات لإثارة الفتنة الطائفية ، ومع استشراء نطاق الجماعات المتطرفة المحسوبة على الجماعات الإسلامية . وكان السادات قد ترك لها العنان ليحارب بها الشيوعيين ، فانقلبت هى نفسها عليه حتى انتهى الأمر باغتياله .

زيارة اليابان

كانت زيارتى لليابان هى أول زيارة يقوم بها وزير خارجية مصرى بعد ستة عشر عامًا .

ولقد حدث أن توثقت علاقتنا باليابان بعد حرب عام ١٩٧٣ ، وإعادة فتح قناة السويس ،



توقيع عقد الصالة المغطاة لنادى الزهور

كما توطدت علاقتى بوزير خارجيتها « إيتو » بصفة خاصة بعد زيارته لمصر فى العام الأسبق (فى سبتمبر عام ١٩٨٠) عند تدشين الحفار العملاق ميتسوبيشى [١] فى الإسماعيلية .

وفى الزيارة نفسها تم التوقيع على اتفاق إنشاء مستشفى الأطفال فى أبو الريش . **كذلك تم الاتفاق مع جامعة كوكوشيكان على إهداء « صالة مغطاة » للألعاب اليابانية فى نادى الزهور بمدينة نصر بالقاهرة .**

وكان من المزمع فى برنامج الزيارة أن أعبر المحيط بعد ذلك إلى الولايات المتحدة لحضور جلسات الجمعية العامة للأمم المتحدة ، إلا أن الرئيس السادات استدعانى بعد انتهاء زيارة اليابان للعودة إلى مصر . وفى الواقع لو لم يطلب السادات ذلك منى ، لكنت عدت تلقائيًا للقاهرة للظروف الداخلية التى كانت البلاد تمر بها .

كان من المفارقات أن السفير المصرى فى اليابان « عبد الفتاح شبانة » أقام حفل عشاء حضره الكثيرون من المسئولين اليابانيين . وفوجئت فى نهاية العشاء بتورتة كبيرة عليها شمعة ترمز لسن الستين تدخل قاعة الطعام ليذكرنى السفير والسيدة قرينته بأننى بلغت الستين من عمرى فى ذلك اليوم !

---

(١) قدمت اليابان قرضًا قدره ٤٠٠ مليون دولار لهيئة قناة السويس لمشروع تطوير وتعميق وتوسيع القناة (المرحلة الأولى) .

ولما كان أصغر المدعوين لا يقل عمره عن خمس وسبعين عامًا ، فلم أشعر بحقيقة تقدمى فى السن خاصة بعد أن تقابلت مع رؤساء أحزاب وسياسيين فى اليوم السابق بلغوا التسعين . وكان الإمبراطور نفسه سنه ٨٤ عامًا مما جعلنى أشعر بأن اليابان هى أنسب بلد ينطبق عليها قول « ديل كارنيجى » الأمريكى « إن الحياة تبدأ فى الستين » .

وفى نهاية زيارتى لليابان (١) عاد موضوع اعتقال بعض الصحفيين المصريين يفرض نفسه على المؤتمر الصحفى الأخير . ولقد سألنى صحفى يابانى عن رأيى فى هذا الموضوع ، فسألته بدورى قائلاً هل يقبل الصحفى اليابانى أن يسبّ إمبراطور اليابان فى صحيفة خارج اليابان ؟ وجاءنى الرد على سؤالى فى شكل تصفيق شامل من جميع الحاضرين !

---

(١) كانت الزيارة الثانية لى لكل من الصين واليابان ولبعض الدول الأسيوية كأندونيسيا وكوريا الشمالية وباكستان فى جولة الرئيس حسنى مبارك .

وفى هذه الزيارة تم توقيعى مع وزير خارجية اليابان على إنشاء المركز الثقافى (دار الأوبرا) فى أرض المعارض بالجزيرة والتوقيع على إنشاء دار المؤتمرات فى مدينة نصر مع وزير خارجية الصين بحضور الرئيسين .

الفصل الواحد والخمسون

العرض الأخير - (اغتيال السادات)

عندما عدت إلى القاهرة فى ٢٠ سبتمبر لأقدم تقريرى للرئيس السادات عن زيارتى للدول الخمس الآسيوية ، وجدت الجو يخيم عليه سحابة من الوجوم بعد اعتقال كل المعارضة فى مصر .

كانت صدمة للرأى العام أن يلجأ الرئيس السادات الذى نادى بالديمقراطية وحرية الرأى وعودة الأحزاب إلى هذا الإجراء ويعود إلى فتح المعتقلات ـ التى كان قد أغلقها ـ من جديد .

لقد تألبت على السادات منذ تبنيه مسيرة السلام ، العديد من الأطراف الخارجية والداخلية ـ المتضامنة منها والمتنافرة على حد سواء ـ وكأنما قد اتفقوا جميعًا واجتمعوا فيما بينهم على ضرب هذه المسيرة . وهكذا وجدت هذه الأطراف نفسها فى خندق واحد ، بيّت ساسته على التحرش بمصر وإجهاض سياسة السادات الجديدة بعد أن حسبوا حساباتهم فوجدوا باختصار شديد **أن هذه السياسة سوف تؤدى فى النهاية إلى فقدان كل مكاسب حصلوا عليها من السياسات المتجمدة القديمة والتى أوثقت أقدام مصر بقيود ثقيلة داخل وثاق اللاسلم واللاحرب .**

ولذلك فليس من المستغرب أن يكون الاتحاد السوفييتى على قمة الأطراف الرافضة ، وقد أفزعه أن يفقد كل موطئ قدم اكتسبه داخل منطقة الشرق الأوسط بتحول مصر بوجهها الجديد نحو الولايات المتحدة بعد قطيعة دامت لأكثر من عشرين عامًا .

ولذلك كان عليه أن يتحرك داخل محورين : أحدهما خارجى يتمثل فى دفع ليبيا لتحرشات الحدود على الجانب الغربى لمصر ، وكذلك دفع أثيوبيا فى الجنوب لتعلن عن تهديداتها بمنع مياه النيل عن مصر .

أما المحور الداخلى فكان يتمثل فى تحريك القوى الشيوعية فى الداخل لإثارة الاضطرابات والفتن وتصوير مسيرة السلام فى صورة الخضوع للولايات المتحدة ومحاباة إسرائيل على حساب الإخوة العرب .

ومن هنا كان قرار السادات بتلقين درس للجار العربى على الحدود . ثم إعلانه بأن تهديد مصر باستخدام مياه النيل يعنى الحرب . ثم إبعاده للسفير السوفييتى وستة من أعضاء السفارة واثنين من الصحفيين السوفيت فى منتصف سبتمبر مع موظف فى السفارة المجرية . وأخيرًا حلّ جمعية الصداقة السوفييتية المصرية فى نهاية الشهر .

وللأسف أن كتّابا ورجالا كبارًا غير شيوعيين ركبوا نفس الموجة ، إما لعدم تفهمهم لحقيقة الواقع الجديد ، أو لأنهم هم أيضًا كانوا قد ربطوا أفكارهم ومصالحهم بالخط القديم الذى كبل نفسه بمعتقدات ومصالح الفلك السوفييتى . لذا أصابهم الفزع نفسه الذى أصاب الاتحاد السوفييتى لتقارب مصر مع الغرب ومع الولايات المتحدة ، دون أن يدروا أن الاتحاد السوفييتى كان قد بدأ هو نفسه فى التقارب مع الفلك الأمريكى الأمر الذى انتهى به فى نهاية المطاف إلى الوضع الذى أصبح عليه اليوم .

لعبة مناحم بيجين

كان من الطبيعى أن ينضم مناحم بيجين إلى هذه اللعبة ولا يترك الفرصة تفوته . فهو أيضًا ـ رغم اتفاقية السلام ـ إلا أنه بينه وبين نفسه ـ كان فى الواقع ضد هذا التقارب الذى سبق لسلفه بن جوريون أن عمل على ضربه مثل أحداث فضيحة لافون المشهورة التى جاءت تشهد بذلك ، ولذلك كان من صالحه أن يقوى من الشرخ الذى أحدثه . فراح يعمل على تعميقه وإشعال الصراع حتى تظل إسرائيل تنفرد بدور الحليف الوحيد المتميز للولايات المتحدة فى المنطقة . ومن هنا بدأ يشن من الأقوال والأعمال ما يخدم هذا الخط مبتدئًا بتصريحاته عن مدينة القدس ، وعن إعلانه عن بناء مستوطنات جديدة ، وعدم الرجعة إلى حدود عام ١٩٦٧ ، أو التخلى عن الجولان ، مع إساءة معاملة الفلسطينيين وعرقلة مباحثات الحكم الذاتى ، منتهيًا بأحداث لبنان وضرب المفاعل النووى للعراق فى ٧ يونيو عام ١٩٨١ ، بعد مقابلته بثلاثة أيام للسادات فى شرم الشيخ ، حتى يبدو اللقاء وكأنه كان بهدف تلقى الضوء الأخضر منه ! ومن ثم ارتفعت أصوات الدعاية المحمومة للرافضين إلى ذروتها .

وهكذا نجح بيجين فى الحقيقة فى أن يجعل الرافضين يتصورون عدم جدوى سياسة السادات فى الحصول على السلام ، أو حتى فى الحصول على مؤازرة صديقه الجديد الولايات

المتحدة التى تبدو وكأنها عجزت أو تواطأت مع إسرائيل فى استمرار سياستها العدوانية القديمة . وبذلك إما يتراجع السادات عن سياسته الجديدة ويرتد إلى وضع مصر القديم ، وإما تتزايد عليه الضربات والطعنات من الخصوم - حتى يتبين عدم جدوى هذه السياسة .

وبالطبع لم يدرك الكثيرون من العرب أغوار السياسة التى يتبعها كل من الاتحاد السوفييتى وإسرائيل ضد السادات - برغم عدم التنسيق بينهما - وهكذا وضع العرب أنفسهم فى نفس الخندق مع الاثنين معا (الروس وبيجين) . وذهبوا إلى أقصى سياستهم من المقاطعة العربية ونقل مقر الجامعة العربية والانسحاب من الهيئة العربية للتصنيع ، إلى آخر السياسة التى كان صدام حسين يتزعمها فى ذلك الوقت مع الزعماء الفلسطينيين ، فكان تعميق الشرخ بين الدول العربية الذى راحت الحملات الصحفية - عن غير إدراك لحقيقته - تنسبه إلى السادات .

كانت هذه خلفية وأسباب جو الحزن والوجوم الذى خيّم على مصر فى هذه الفترة ، ومن هنا كانت كل عناصر هذا الجو ملائمة لانفجار وتحرك أطراف أخرى ملأها الشجن وحركها التربص داخل مصر منذ عهد بدأ قبل السادات بكثير . وكان منهم الإخوان المسلمون الذين اعتقدت جماعات منهم أن هذا الوقت هو أنسب الأوقام للتحرك للأخذ بثأر قديم لا يعود إلى السبعينيات وإنما مرجعه لأوائل الخمسينيات والستينيات(١) .

ومن هنا كان اعتقال السادات لمجموعة مختلطة من العناصر غير المتجانسة . منهم اليمينيون ومنهم اليساريون ، منهم المتدينون ومنهم الملحدون ، بل منهم المسلمون ومنهم الأقباط المسيحيون (رغم أن أغلبية الأقباط ليسوا من معارضى التقارب الأمريكى) ولكن تصور المسئولون وجود صلة لبعضهم بأحداث الفتنة الطائفية التى تحركت هى الأخرى فى ذلك الوقت لكى تكتمل صورة الموزايكو المعارض ، على حد تشبيه ساد فى هذه الأثناء .

الإسلامبولى والتاريخ

وعندما تم اعتقال كل ذلك الخليط فى (٣ سبتمبر) ، كان من بينهم شاب صغير لا حول له ولا قوة سوى أن اسمه ورد ضمن كشوف الجماعات الإسلامية . وبرغم ضآلة دوره ومركزه إلا أنه كان السبب المباشر وراء اغتيال السادات . كان هذا الشاب يدعى محمد الإسلامبولى ، وهو الذى تحرك من أجله شقيقه خالد الذى تم اختياره بمحض المصادفة ليشترك فى طابور

---

(١) عقب محاولة اغتيال جمال عبد الناصر فى عام ١٩٥٤ حكم بالإعدام على بعض قادة الإخوان المسلمين ، ثم تمت محاكمات أخرى فى عام ١٩٦٥ وحكم الإعدام على سيد قطب الزعيم الجديد للإخوان .

عرض ٦ أكتوبر ، فكان أن خطط ودبر لفكرة اغتيال السادات ، هذه الفكرة التى اختمرت فجأة فى رأسه يوم وقع عليه الاختيار (وإن كان الشحن لها قد سبقها بوقت طويل) .

وهكذا قام الشاب الغرير بحادث الاغتيال الذى لا يدرى ولا يعرف مدى عمق أبعاده وتأثيره على تاريخ مصر وشعبها ، والذى اختار له ـ وبمحض الصدفة أيضًا ـ يومًا له تاريخه ورمزه ومغزاه .

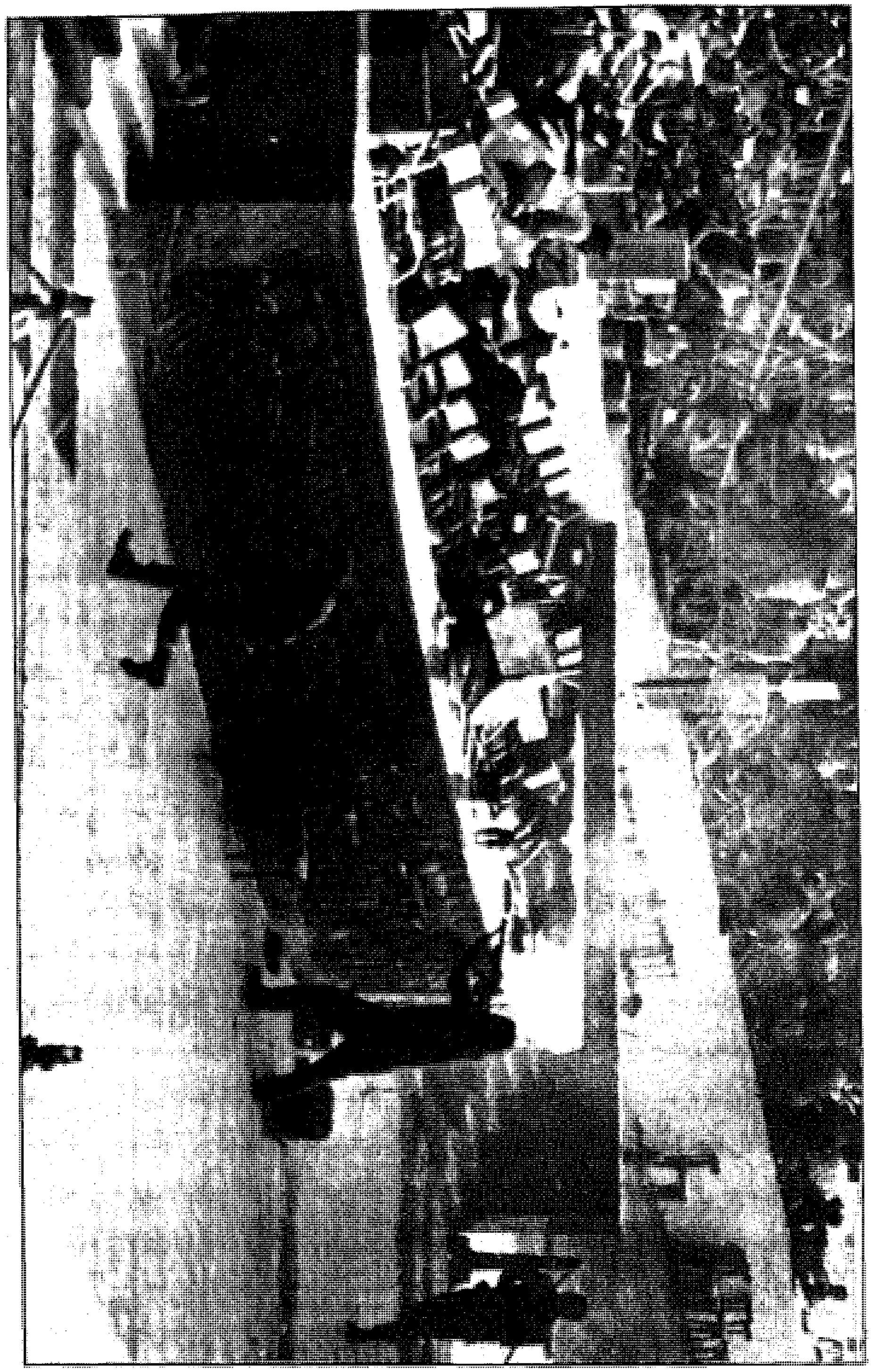
ولو أن جهة معادية أجنبية من الجهات التى كانت ترغب فى التخلص من السادات فى ذلك الوقت وإزاحته من طريقها ، رغبت فى اختيار يوم أو ساعة أو مكان يحقق لها هدفها فى توجيه طعنتها إلى السادات ، لما وجدت أنسب من هذا اليوم والساعة والمكان لتنفذ منه إلى طعن مصر فى قلب أحاسيسها ومشاعرها الوجدانية والتاريخية . ويكفى الآن أن الرجل الذى قلب ذكرى يوم الخامس من يونيو لتصبح هى ذكرى الاحتفال بإعادة فتح قناة السويس ، أصبح ذكرى يوم السادس من أكتوبر يوم انتصار مصر العظيم وهو يوم لا يغفر فيه العالم لقاتليه أنهم قتلوا بطلهم فيه فهو اليوم الذى أعاد إلى مصر مكانتها واعتزازها وسط العالم .

لقد شهد العالم من قبل كثيرًا من مآسى اغتيال بعض من زعماء العالم المخلصين بأيدى قتلة قابلوا الإخلاص بالغدر والخيانة . ولعل أشد الأمثلة التاريخية الصارخة فى هذا المضمار كان **مقتل إبراهام لنكولن الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة** عندما اغتاله جون ويكس بوت عشية انتهائه من الحرب التى أنقذ بها وحدة الولايات الأمريكية فى عام ١٨٦٥ ، وهو لا يدرى فداحة الإثم الذى ارتكبه بتعصبه الجنونى الأعمى . ولكن مع مضى الأيام واستمرار حركة التاريخ أدرك الناس وأدرك شعب الولايات المتحدة كم كان لنكولن عظيمًا . وكم كان جون بوت آثمًا ! وفى رأيى أن السنوات العشر التى مرت حتى الآن على مقتل السادات كانت كافية لأن يدرك معظم الناس صواب سياسته نحو السلام ! نعم . . اليوم بعض الناس، ولكن غدا كل الناس .

العــرض الأخـير

فى يوم ٦ أكتوبر كنت جالسا فى المقعد الرابع فى المنصة على يمين السادات عندما كان يتابع العرض فى ملابسه العسكرية الداكنة وهو فى أفضل حالاته رضا وابتهاجا .

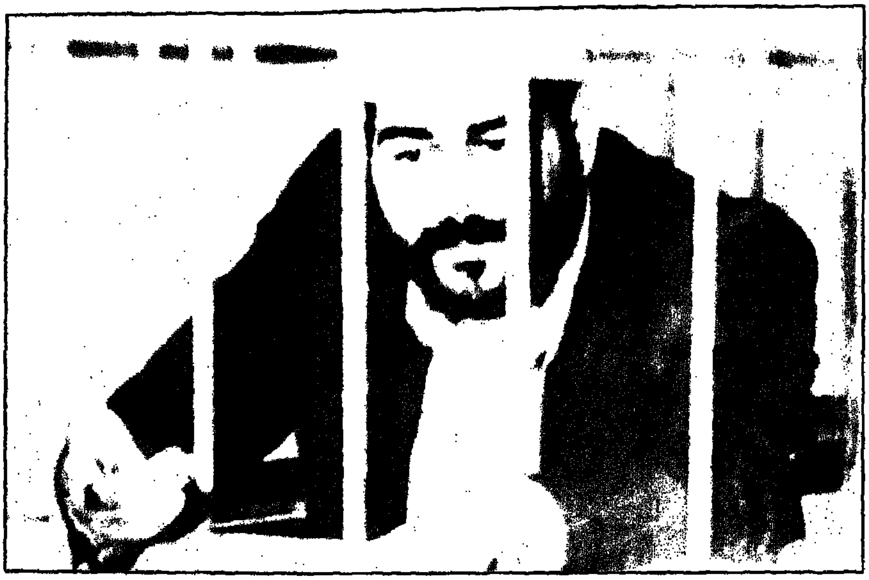
كانت زوجتى وابنتى بصحبتى فى مقصورة السيدات وكان ابنى بين المشاهدين . وكانت ملابـس التشريفة التى يرتديها السادات والضباط داكنة اللون على غير العادة بدت معها المنصـة وكأنها متشحة بالسواد مما بعث فى نفسى شيئًا من الانقباض . وجلس بجوارى أحمد



حادثة اغتيال السادات

عز الدين هلال نائب رئيس الوزراء ووزير البترول . وأثناء متابعتنا للطيران فى سماء العرض ، كانت المركبات الخاصة بالمدفعية تنساب فى نظام على أرض العرض . وفجأة توقفت على مسافة قريبة إحدى المركبات وكانت لورى يجر أحد المدافع وقف بداخله شخص وجه سلاحه تجاه المنصة وبدأ فى إطلاق النار . كما اندفع شخصان آخران من المركبة نفسها إلى اتجاه المنصة وألقى أحدهما قنبلة يدوية لم نتبينها وقتها إذ سقطت بعيدًا عن المنصة دون أن تنفجر . وهبّ **السادات واقفًا وهو يقول « ارجع ياولد » أنا مش حسيبك « مش حسيبك ياولد »** . ولم أشعر إلا وأحمد عز الدين هلال يجذبنى بشدة إلى أسفل فى اللحظة التى بدأ فيها الضرب عن يمينى بمسافة لا تزيد عن مترين فى اتجاه السادات . ولقد سمعت صوت دفعتين أو ثلاثة من طلقات رشاش ، علت بعدها الأصوات تنبه إلى مطاردة المعتدين . وعندما حانت منى التفاتة فى اتجاه سور المنصة شاهدت أحد المهاجمين يطلق بندقيته وماسورتها متجهة لأسفل داخل المنصة فى نفس مكان السادات . فى هذه اللحظة كان أحد الضباط (وهو اللواء نبيه السيد) ممسكا بأحد الكراسى خلف مقعد السادات يحاول ضرب المعتدى بين أصوات الهرج أثناء مطاردة الجناة . ثم وقفت فإذا حولى مذبحة بشعة وجثث منتثرة على الأرض ، وكل ما حولى ملطخ بالدماء ، وعلى مقربة منى رأيت فوزى عبد الحافظ السكرتير الخاص للسادات مضرجا بدمائه ، وكذلك محمود عبد الناصر من رئاسة الجمهورية وهو من دفعتنى فى الكلية الحربية مثخنا أيضًا بالجراح وذراعه مهترئه والدماء تنفجر من جسده . كانت لحظات مفجعة . . أسرعت فيها بطلب بعض السيارات . وحضرت السيارة المخصصة لى والأخرى الخاصة بزوجتى ، فأمرت بنقل محمود عبد الناصر وفوزى عبد الحافظ وبعض الجرحى الآخرين فيها إلى أقرب مستشفى . . وأراد الحرس إخلاء المنصة فألحوا على دفعى خارج المنصة حيث موقف السيارات . فركبت سيارة شرطة عسكرية توجهت بها إلى بيت النائب حسنى مبارك لأنه أقرب مكان لساحة العرض لأتعرف على الموقف وعلى مكانه ومكان السادات ، غير أنى لم أجده . فتوجهت إلى منزلى القريب فى مصر الجديدة لكى أجرى بعض المحادثات التليفونية والتى علمت منها أن السادات قد أصيب ونقل بطائرة هليوكوبتر إلى مستشفى المعادى . وعندما توجهت إلى المستشفى وجدت النائب حسنى مبارك فى حجرة مجاورة لغرفة العمليات، وفى حجرة أخرى كانت السيدة جيهان تجلس . كان الجميع فى حالة من القلق والتوتر الشديد. . وبعد حوالى ربع ساعة خرج الطبيب ليعلن أن السادات قد فارق الحياة. كانت صدمة بالغة للجميع خيّم بعدها عليهم الذهول !

واقتربت من حسنى مبارك . . واقترحت أن نبادر بالتحرك للسيطرة على الموقف فالحادث يبدو أن وراءه مخططا كبيرًا . ونظر حسنى مبارك إلى حيث تقف جيهان السادات واستشعرت



خالد الإسلامبولى

حرجه من أن يتركها فذهبت إليها ، وعندما اقتربت منها لأقدم لها عزائى كانت متماسكة ووجدتها تقول « **إن مصر الآن هى الأهم ، أما السادات ففى ذمة التاريخ . . والحمد لله أنه مات قبل أن يسأل نفسه لماذا ! . . . وفى هذا اليوم بالذات . . ٦ أكتوبر** » !

صافح حسنى مبارك السيدة جيهان السادات ، ثم اتجه إلى مجلس الوزراء ولحقتُ به بعد قليل . وهناك كان الدكتور فؤاد محيى الدين نائب رئيس الوزراء والفريق أبو غزالة وزير الدفاع والدكتور صوفى أبو طالب رئيس مجلس الشعب والنبوى إسماعيل وزير الداخلية والدكتور كامل ليلة وهو أستاذ القانون الدستورى الذى استدعاه حسنى مبارك للتشاور فى الأسلوب القانونى لنقل السلطة . وتم تعيين الدكتور صوفى أبو طالب رئيسًا مؤقتًا للجمهورية . واتفقنا على تشيع الجنازة بعد ثلاثة أيام لإتاحة الوقت لترتيب التشييع اللائق بحضور وفود الدول المختلفة . كما اتفقنا أن يجرى استفتاء طبقًا لنص الدستور بعد ذلك بأربع وعشرين ساعة . وتم جمع أعضاء المكتب السياسى للحزب الوطنى وكانوا جميعًا موجودين بالمبنى . وفى قاعة اجتماعات مجلس الوزراء اتخذ القرار بتسمية النائب حسنى مبارك رئيسًا للجمهورية .

كان المفروض بعد التسمية أن يعرض الأمر على مجلس الشعب حتى يقرّ الترشيح ويجرى الاستفتاء .

واتجهت إلى مكتبى بوزارة الخارجية لاستكمال بعض الإجراءات الضرورية كإرسال برقيات لدول العالم بوفاة السادات مع تحديد موعد تشييع الجنازة . وتم إبلاغ كافة الدول باستقرار الأمن فى مصر والسيطرة الكاملة على الحالة الداخلية . والحقيقة أن وفاة السادات فى مثل هذا اليوم بالذات كان صدمة للشعب بمختلف فئاته .

وكان علىّ كوزير للخارجية أن أستقبل وفود ٩١ دولة بالمطار جاءت للاشتراك فى تشييع الجنازة . وكان الوفد الأمريكى يضم ثلاثة رؤساء سابقين للولايات المتحدة (فورد ، نيكسون ، كارتر) علاوة على وزيرى الخارجية والدفاع . وللحقيقة فقد مثلت دول العالم فى الجنازة على أرفع المستويات ـ رؤساء دول ونوابهم ورؤساء وأعضاء وزارات . . كما وفد عظماء المفكرين وشخصيات عالمية عامة . . كانت أواصر صداقة تربط الكثيرين منهم بالسادات .

وأذكر أنه واجهتنا مشكلة بسيطة ولكن من نوع خاص تتعلق بالوفد الإسرائيلى الذى تمنعه معتقداته الدينية من ركوب العربات فى أيام السبت . لذا تم تجهيز محل لإقامتهم فى نادى السكة الحديد فى مدينة نصر لقربه من مكان الجنازة ليقطعوا المسافة إليه سيرًا على الأقدام . . وكان موكب الجنازة مهيبًا ! ! !

والآن وبعد مضى أكثر من عشر سنوات على اغتيال السادات ، ما كنت أظن أنه فى حاجة إلى أن أمسك بقلمى لأدافع عن هذا الرجل الذى فى اعتقادى أنه ظُلم حيًا وظُلم ميتًا .

ومن المؤسف أن الرجل الذى كان محل تقدير العالم كله والذى أهداه جائزة نوبل للسلام ، بدأت كثير من الأباطيل المزيفة تتناثر بعد وفاته تفنن أعداء البلاد فى اصطناعها عن دهاء ، ثم تفنن الجاهلون فى ترويجها عن جهل وغير إدراك .

وفى رأيى أن الرد على هذه الأباطيل لا يساوى حتى ثمن المداد الذى تكتب به . .

مع ذلك أرى من واقع إخلاصى لمصر قبل إخلاصى للرجل أن أتناول عددًا من هذه الافتراءات وأبين زيفها بحكم أنى كنت واحدًا ممن عاصروا هذا التاريخ وساهموا فى صنع ذرة من أحداثه ، وكذلك بحكم وضع حد لمثل هذه الافتراءات التى أخذت تزحف كالأفاعى السامة على عقول الجيل الجديد لتشتت أفكاره وتجعله يتوه عن حقائق التاريخ .

فرية اغتيال أحمد بدوى ورفقائه فى حادث الطائرة

كنت أعتقد كما يقول المثل السائر « إذا كان المتحدث مجنونًا فليكن المستمع عاقلاً » أن مثل هذه الفرية لا تنطلى على عاقل لأن السادات لو كان يرغب حقا فى التخلص من أحمد بدوى



أحمد بدوى

ورفقائه لكان أمامه أكثر من أسلوب سهل يحقق به هذا الغرض . كان أمامه مثلاً أن ينقلهم إلى مناصب أو أماكن أخرى عديدة خارج القوات المسلحة ـ وهو أمر شائع الحدوث ـ وكان أمامه أن يصدر نشرة عسكرية بإحالتهم كلهم أو بعضهم إلى المعاش . . وهو أمر يخوله له القانون . . **أما أن يلجأ إلى قتلهم قتلاً جماعيًا وبطريقة لا تصلح إلا للأفلام السينمائية فهو أمر لم يكن السادات فى أدنى حاجة إليه .**

لقد تصادف أنى ذهبت مرتين إلى هذا المكان نفسه عندما كنت وزيرًا للدفاع مصطحبًا معى مجموعة القادة أنفسهم تقريبًا للمرور على وحدات سيوة ضمن قوات المنطقة الغربية . إلا أننى بعد هبوط الطائرة الهليوكوبتر فى المرة الأولى وفى المكان نفسه لاحظت صعوبة النزول والصعود بالطائرة فى هذا المكان الضيق المحاط بالأسلاك . **ولذا كان إصرارى فى المرة الثانية على الهبوط خارج بلدة سيوة ، حيث أقلّتنا السيارات إلى داخلها .**

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى رأيت أن أقسم القادة إلى مجموعتين عملاً بمبدأ عدم تعريض مجموعة كبيرة من القادة لاحتمالات مخاطر لا داعى لها .

والواقع أن ما أجرى من تحقيقات لم يكن ليدع مجالا للشك بحيث يتداول هذا الموضوع بعد ذلك ، اللهم إلا أن يكون مجالا للاتجار به .

فرية ادعاء أن خطة حرب أكتوبر لم توضع فى عهده

هناك من يدعى أن خطة حرب أكتوبر كانت جاهزة من قبل أن يتولى السادات الحكم وأنه لم يكن لعهده فضل فى التخطيط للمعركة أو التجهيز والإعداد لها .

وللحق أقول إنه حتى آخر يوم فى حياة عبد الناصر ، لم يكن لدينا سوى خطة دفاعية تتحول إلى الهجوم المضاد ومطاردة العدو فى حالة بدئه هو بالهجوم . هذا بالإضافة إلى خطط الاستنزاف التى كانت توضع وفقًا لمقتضيات الموقف والمتوافر من السلاح ، ويرجع ذلك إلى سبب بسيط هو أن القوات المسلحة لم تستكمل تسليحها وإعدادها إلا بعد عام ١٩٧٠ الذى توفى فيه عبد الناصر .

أما خطة الهجوم التى نفذت يوم ٦ أكتوبر بأعمال الخداع المبدعة والابتكارات الهندسية للعبور وإزاحة الساتر الرملى بمضخات المياه والتخطيط المحكم لمراحل العبور والإعداد الجيد لها ، فالحقيقة أنها تمت كلها وبهذه الروح العالية الوثابة التى بلغت ذروة تأججها فى عهد السادات نتيجة لجو الحماسة الذى غمر الرجال فى هذا العهد ، فكان أن اعتصروا كل ما فى جعبتهم من ذكاء وتعاون وإخلاص وكان أن برزت كفاءات من القادة والرجال يستطيع أن يضعهم التاريخ فى سجل القادة العالميين .

فرية خداع سوريا أثناء المعركة

هناك من يدعى أن السادات خدع الرئيس حافظ الأسد عندما اتفق معه قبل الحرب أنه لن يوقف القتال حتى تصل القوات المصرية إلى خط المضايق (الخطة جرانيت ٢) فإذا به ينقض عهده ويأمر بتوقف القوات بعد عبور القناة مباشرة ، وعدم السماح لها بتطوير الهجوم إلى المضايق (كالخطة جرانيت ١) والتى لم تكن تقضى بهذا التطوير ، الأمر الذى جعل القوات الإسرائيلية تركز هجومها على الجبهة السورية بكل قواتها وتمكنت من هزيمتها . باختصار إن هذا الإدعاء يريد أن يقول إن السادات ضلل الأسد ليشاركه المعركة ثم خذله بعد ذلك .

وقبل أن أفند هذا الادعاء من واقع الأحداث أريد أن أوجه النظر إلى أن مثل هذه الافتراءات لم يقصد مصطنعوها إلى طعن السادات وحده ، وإنما قصدوا أصلا إلى طعن مصر وإفقاد البلاد العربية ثقتهم بها وببعضهم البعض .

ولقد سبق أن بينت فى فصل سابق مدى الحذر الزائد الذى تملّك السادات فى بادئ الأمر من نقل القوات المدرعة إلى شرق القناة نتيجة لنقص الإمكانات فى أسلحة الدفاع الجوى . فلما

بلغته استنجادات الرئيس الأسد لتخفيف الضغط على الجبهة السورية لم يتوان الرجل : بل هو الذى أمر بنفسه بدفع القوات المدرعة وتطوير الهجوم على النحو الذى سبق أن أوضحته مضحيا بالكثير من متطلبات الاتزان الإستراتيجى على الجبهة المصرية ، الأمر الذى أدّى إلى كل هذه الخسائر الفادحة التى أصابت القوّات يوم تطوير الهجوم ثم أدّى إلى حدوث الثغرة بعد ذلك .

ولو كان السادات فى نيته خذل حليفه السورى كما يدعى البعض ، لأبقى الوضع متماسكًا على جبهة القناة دون تطوير للهجوم ، موفرًا كل الجهود والتضحيات حتى لحظة وقف إطلاق النار ـ وهو عكس ما حدث . . أما ما حدث من جدل حول تأخير موعد تطوير الهجوم فلا ينفى أن التطوير قد حدث بالفعل وإن لم يلاق النجاح بسبب تدخل أمريكا بالإمداد والتخطيط والاستطلاع على النحو الذى ذكرته فى حينه : وبعد . . فقد مات الرجل ـ مات وهو واقف على قدميه يستعرض قوات مصر الظافرة فى يوم نصرها .

مـات وهو واقـف على قدميه كأروع مـا يكون المثـل

مات الرجل ولكن لم تتوقف الافتراءات من بعده . .

فكل يوم يخرج أعداء البلاد بالمزيد من الافتراءات يصطنعها الكارهون كما أقول عن خبث ودهاء ، ثم يرددها الجاهلون وهم لا يدركون أبعاد المخطط الذى وراءها ! لقد داعب الأمل أعداء البلاد عندما اعتقدوا يوم مقتل السادات أن اغتياله كان اغتيالا لمصر ، وفاتهم أن مصر أعظم من أن تموت بموت زعيم ، فالزعماء عادة لا تنجب الدول ، ولكن الدول هى التى تنجب الزعماء .

الفصل الثانى والخمسون

وماذا بعد السادات «عهد جديد»

فى يوم ١٢ أكتوبر تم الاستفتاء على رئيس الجمهورية فى الموعد المحدد وبإقبال منقطع النظير ، فقد كان الجميع يتطلعون إلى الاستقرار . .

وانتقلت السلطة فى دستورية كاملة وبالسرعة المطلوبة لهذه الظروف ، واستطاع حسنى مبارك أن يأخذ بيد مصر لتجتاز الأزمة ولتستمر فى رسالتها نحو السلام والتقدم .

كانت مصر ، فى هذا الوقت الذى بلغ قمة التوتر والقلق على المحيطين الداخلى والخارجى ، فى حاجة شديدة إلى رجل يعيد إليها هدوءها واتزانها وأمنها ، فكان أن وجدت ما تنشده فى ذلك الوقت فى حسنى مبارك الذى كان هو نفسه على قمة الهدوء النفسى والاتزان ، ولذلك سرعان ما نجح فى الإمساك بالموقف وإعادة الأمور إلى نصابها فى كلا المحيطين .

ففى المحيط الداخلى أصر على أن تتم محاكمة الجناة والمتطرفين الذين افتعلوا أحداث أسيوط الفاشلة ، بطريقة قانونية كاملة ، فقرر تشكيل محكمة عسكرية عليا لهذا الغرض ، وفى الوقت نفسه بدأ جهوده نحو تنمية حقيقة داخلية وفقًا للخطة الخمسية الأولى ٨٢ ـ ٨٧ التى تم وضع لمساتها الأخيرة ، فشكل لجنة اقتصادية لمناقشة المسار الاقتصادى ووضع أسس واضحة للإصلاح الاقتصادى والتنمية .

أمّا على المحيط الخارجى فكان حسنى مبارك على استعداد لعودة التضامن العربى مع مصر ولكن دون وصاية من أحد عليها ودون تحديد مسار لخطاها . ولقد بدا واضحًا أنه لم يكن متلهفا أو متعجلاً لإعادة العلاقات مع الدول التى قطعت علاقتها مع مصر[1] ، ولذا فإن

---

(١) لم تقطع كل من السودان وسلطنة عمان علاقتها بمصر .



الرئيس حسنى مبارك

عودة السفراء العرب كان أمرًا متروكا للدول العربية نفسها ، وكذا الأمر نفسه بالنسبة للجامعة العربية وإعادتها من تونس إلى مقرها فى القاهرة كما يقضى الميثاق . ولقد ترك توقيت مناقشة هذه الموضوعات للمناسبات التى قد تفتح الطريق للقاءات مباشرة ، مثلما حدث عندما قامت مصر بواجب العزاء فى وفاة الملك خالد بالسعودية ، وقد توجه إليها بنفسه ومعه المشير أبو غزالة وزير الدفاع والدكتور مصطفى كمال حلمى وزير التعليم فى ١٤ يونيو عام ١٩٨٢ ، ومثلما حدث بعد ذلك فى مؤتمر عدم الانحياز الذى انعقد فى مارس عام ١٩٨٣ .

ولقد سبق أن أعلن حسنى مبارك فى الساعات الأولى لتولى منصبه ، أن مصر مرتبطة وملتزمة بكافة المواثيق والمعاهدات والاتفاقيات التى سبق أن عقدتها . وجاء فى كلمته فى مجلس الشعب أن السلام ليس موقفًا تكتيكيا ولكنه التزام إستراتيجى ، وأن مصر دولة عربية وإفريقية لا تنحاز إلى الشرق أو الغرب ، وأنها ملتزمة بكافة التعهدات على طريق السلام وباستمرار مباحثات الحكم الذاتى للفلسطينين وصولاً إلى السلام الشامل فى منطقة الشرق الأوسط . وفى المقابل تعهد بيجين فى نوفمبر عام ١٩٨١ بتمسك إسرائيل بالتزاماتها مع مصر وإتمام الانسحاب النهائى من سيناء فى موعده المحدد . .

وكانت اللجنة المصرية الإسرائيلية قد اجتمعت فى يوم ٢٥ أكتوبر عام ١٩٨١ فى الموعد الذى كان مقررًا لها قبل استشهاد السادات، ولقد قمت برئاسة الوفد المصرى الذى سافر إلى تل أبيب ، وسارت الأمور طبيعية مع اختلاف واحد هو تغيير رئيس الجانب الإسرائيلى الذى أصبح إيريل شارون بدلاً من عيزر فايتسمان ، وهو أمر كان يدعونى للقلق لعلمى بعقليتى الرجلين . فلقد كان فايتسمان أكثر صدقًا وموضوعية . وعلى سبيل المثال فإن عيزر فايتسمان أجلى المستوطنين عن مستوطنة ياميت بجوار رفح بالقوة عندما رفضوا الإذعان لقرار الانسحاب منها واستخدم فى ذلك ٢٠ ألف جندى ، وعلى النقيض من ذلك رفض شارون أن يقبل ٥٠ مليون دولار ثمنًا لمنشآت المستوطنة نفسها وفضّل أن يدمرها بحجة خوفه من عودة المستوطنين إليها بعد الانسحاب . ولم يكن ذلك هو السبب الحقيقى ، بدليل أنه دمر ٢٣ بئرًا للمياه ليحرم مصر من استخدامها فى إيواء سكان جدد فى شمال سيناء فى منطقة العريش ورفح .

أذكر أنه فى نهاية زيارتنا لإسرائيل التف حولنا فى مطار بن جوريون أكثر من خمسين صحفيًا إسرائيليا ومن مختلف الجنسيات ، ولقد تركّزت أسئلتهم فى موضوعين أساسيين .

الأول منهما : « وماذا بعد السادات » ؟!

أما الآخر : فكان حول ما تردد فى الأوساط الصحفية من أن إسرائيل كانت هى السبب فى استشهاد السادات .

وكان من الطبيعى أن أؤكد موقف مصر المبدئى من احترام معاهداتها والعمل على إقرار سلام دائم وشامل وعادل بالمنطقة استمرارًا لسياستها .

أما بالنسبة لاستشهاد السادات ، فقد أوضحت أن هناك فارقًا بين أن تكون إسرائيل وراء اغتيال السادات ، وأن تكون إسرائيل هى السبب فى مقتله والذى جاء نتيجة غير مباشرة لسياسة إسرائيل من القضايا العربية .

فبالنسبة للأمر الأول لم يكن هناك ما يدين إسرائيل أو يثبت تورطها فى الحادث ، أما الأمر الثانى فواضح أن إسرائيل لم تساعد الرجل فى مواجهة النقد الذى واجهه من العرب والمصريين المعارضين على السواء ، بل على العكس كانت التصرفات العنيدة لعدد من قادتها هى التى أعطت الذريعة للمتطرفين أن يبلغ بهم التطرف إلى ذروته باغتياله .

أما عن التساؤل الذى شاع عن ماذا سيكون الأمر بعد السادات ، فالحقيقة أنه كان يتردد فى الأوساط الإسرائيلية حتى من قبل وفاة السادات .



في لقاء الكسندر هيج بالقاهرة

ثم جاءت وفاته لتكون تأكيدًا على أن شعب مصر قد أدرك بفطرته أن قضية السادات لم تكن قضية اختيار بين العرب و إسرائيل ولكنها كانت قضية اختيار بين الحرب والسلام .

ومع ذلك راحت إسرائيل تبدى شكوكها وتخوفها من أن تقوم مصر بنقض معاهدة السلام، وهى الدولة التى عرف عنها التاريخ أنها أول بلد وقع على معاهدة للسلام فى العالم مع جيرانها المعتدين عندما جنحوا للسلم ، وما زالت نصوص هذه المعاهدة التى وقعت منذ ٣٢٠٠ سنة بين رمسيس الثانى وخصمه الحيثى خاتوسيل باقية إلى اليوم !

وفى يوم ٢٨ يناير عام ١٩٨٢ جاء إلى مصر هيج وزير خارجية الولايات المتحدة قادمًا من إسرائيل ليطلب على لسان قادتها تعهدًا كتابيًا من مصر باستمرار المعاهدة ونفاذ مفعولها .

وعندما قابلنى هيج وفهمت منه أنه ينوى عرض ذلك الأمر على الرئيس حسنى مبارك لطمأنة المسئولين فى إسرائيل ، نصحته ألا يفعل ذلك لأنه لن يلاقى منه إلا الرفض ، فليس لهذا الإجراء من داع أو مبرر ولن يكون محل قبول .

وعندما صاحبت هيج فى زيارته للرئيس مبارك وانتهت المناقشات الخاصة بترتيبات الانسحاب النهائى من إسرائيل وما يتعلق بمفاوضات الحكم الذاتى للفلسطينيين ، أثار هيج موضوع شكوك الإسرائيليين وخشيتهم من عدم تطبيق المعاهدة بعد الانسحاب ، وكانت هذه

هى النغمة السائدة فى بعض الصحف الإسرائيلية وأن المعاهدة لن تكون سوى قصاصة ورق بعد إتمام الانسحاب ! .

وكما توقعت رفض الرئيس حسنى مبارك إصدار أو إعطاء أى تأكيد آخر ، فالمعاهدة كانت بين دولتين ولم تكن بين شخص السادات وحده ومناحم بيجين .

شامير يعيد المحاولة

وفى زيارة شامير للقاهرة من ٢٢ ـ ٢٥ فبراير حاول نفس المحاولة التى فشل فيها هيج ، ولم يستطع إقناع الرئيس مبارك بالتوقيع على هذه الورقة ، التى يؤكد فيها التزامات مصر تجاه المعاهدة . وكان هدفه الثانى من الزيارة دعوة مبارك لزيارة إسرائيل . ونظرًا لإصراره أن تكون الزيارة للقدس فقد رفض الرئيس مبارك هذا المطلب رغم المقارنة غير المنطقية التى ساقها شامير عن زيارة السادات للقدس . وقد أوضح لهم مبارك أن زيارة السادات كانت لهدف محدد هو إلقاء خطاب فى الكنيست الإسرائيلى فى مقره بالقدس ، ولم يكررها السادات بعدها . بل كانت زيارته التالية لبير سبع ثم حيفا . . وعندما وصل شامير إلى إسرائيل بعد الزيارة ، أعلن بقدر غير قليل من عدم الكياسة أن زيارة مبارك إن لم تكن للقدس فلا داعى لها . وبذلك لم تتم هذه الزيارة حتى الآن !

ولقد أبلغت مصر يوم ١٦ إبريل كلا من أمريكا وإسرائيل رسميًا بأن اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية اتفاقات سارية المفعول ومصدق عليها من مجلس الشعب المصرى ومن الكينست الإسرائيلى وتحمل توقيع أمريكا وهى تمثل التزامًا لكافة الأطراف .

دعوة للزيارة لنفس السبب

ولكن بعد أيام تلقيت دعوة من مستر بيجين لزيارة إسرائيل يوم ١٩ إبريل ، وكما هو واضح فالدعوة كانت قبل الموعد المحدد للانسحاب النهائى فى ٤/٢٥ بستة أيام . وحاولت تأجيل الزيارة ليوم واحد ولكن بيجين أصر عليها بحجة أن مجلس الوزراء الإسرائيلى سيجتمع يوم الأحد التالى لتقرر إسرائيل ما إذا كانت ستنسحب فى الموعد المحدد أم غير ذلك . ولما كان الأمر غريبًا فى مجمله فقد بادرت بالسفر على طائرة عسكرية خاصة إلى إسرائيل وبرفقتى وفد يضم الدكتور بطرس غالى وعددًا آخر من السفراء .

وعندما اجتمعت مع بيجين فى مكتبه بالقدس وفى حضور شامير وشارون ومجموعة كبيرة

من المساعدين والمسئولين بوزارة الخارجية الإسرائيلية ، بدأ حديثه بديباجته المشهورة عن اضطهاد اليهود على مدى التاريخ ومعاناتهم الطويلة التى تسببت فى التخوف الدائم للشعب الإسرائيلى .وأكد فى حديثه كيف بذلت إسرائيل أقصى الجهد لتوقيع المعاهدة مع مصر والانسحاب من سيناء برغم ما سببه ذلك من انقسام فى المجتمع الإسرائيلى ، ثم انتقل إلى خطاب كان قد ألقاه الدكتور عصمت عبد المجيد مندوب مصر الدائم فى الأمم المتحدة فى اجتماع المكتب الدائم لدول عدم الانحياز الذى انعقد فى الكويت . وأشار كيف كشف هذا الخطاب عن نوايا مصر تجاه السلام الشامل مع إسرائيل بمهاجمته إسرائيل وسياستها فى المنطقة.

ثم تطرق بيجين إلى ما أسماه انتهاكات مصرية لمعاهدة السلام ، مما دفع مجلس الوزراء إلى تقرير الاجتماع للنظر فى تأجيل الانسحاب النهائى لمدة شهر . وادعى أن من هذه الانتهاكات ما يهدد أمن إسرائيل على حدودها مع مصر. مثل اكتشاف تسرب صندوق به ٥٠ قنبلة يدوية، وكيف أن كل قنبلة يمكن أن تنتج ١٠٠ شظية وكل شظية يمكن أن تقتل أو تصيب إسرائيليًا . . . . وقبل أن يسترسل فى اتهاماته طلبت منه أن أرد على كل نقطة على حدة قبل أن ينتقل إلى الموضوع الذى يليه . ورددت على موضوع صندوق الذخيرة موضحًا أن لدى مصر ٢٣ قضية مشابهة ، منها قضية تتعلق بزورق محمل بالأسلحة الإسرائيلية داخل منطقة العريش.

ثم تناولت بالشرح جميع المجهودات والخطوات المشجعة التى اتخذتها مصر تجاه إسرائيل منذ التوقيع على المعاهدة . وحذرته من التفكير فى عدم إتمام الإنسحاب فى موعده لما يمثله ذلك من خطورة بالنسبة لعملية السلام بالكامل . واستمرت المناقشة لمدة ساعتين تلتها مناقشة أخرى على مائدة الغداء بفندق هيلتون القدس بدعوة من شامير ، ردد فيها شارون مخاوف إسرائيل من الانسحاب إلى الحدود الدولية والاعتبارات الأمنية التى تبرر مخاوفهم .

كانت المناقشة كلها تحصيلاً لحاصل وليس فيها من جديد ، سوى أن إسرائيل بدأت تفيق من صدمة المبادرة وتعض بنان الندم على الموافقة على الانسحاب النهائى ، غير مصدقة أنها ستطوى صفحة هذا الاحتلال إلى الأبد .

وفى المساء احتدم النقاش مرة أخرى فى اجتماع بمنزل السيد مناحم بيجين ، حضره الكثير من الوزراء وأعضاء الكنيست ودامت المناقشة لساعات طويلة حذرته فى نهايتها من خطورة التهديد بعدم الانسحاب فى موعده ، ولكنى كنت أشعر كمن ينفخ فى بالون مثقوب . واضطررت آخر الأمر لوضع نهاية لهذا النقاش أن أعدهم بعرض الأمر مرة أخرى على الرئيس مبارك . وفى الحال قدّموا لى خطابًا تحريريًا بهذا الطلب عملت على تعديل صياغته عدة مرات



مباحثات طابا ١٩٨٢

حتى نصل إلى صيغة أكثر ملاءمة . وكنت أعلم سلفًا أن كل ذلك لن يلقى القبول من الرئيس مبارك .

تلميح عن عدوان جديد

وفى طريقنا للمطار فى رحلة العودة رافقنى فى العربة شارون وموشيه ساسون سفير إسرائيل فى مصر ، وفجأة راح شارون يتحدث عن تهديد منظمة التحرير للجليل الأعلى فى الحدود مع لبنان وذكر أن إسرائيل لن تقف مكتوفة الأيدى .

وفهمت قصده فى التو ، فحذرته من أى أعمال عسكرية توجه إلى لبنان ، وذكرته أن الفلسطينيين لم يطلقوا طلقة واحدة منذ تسعة شهور وأن أى محاولة لتصعيد العمليات العسكرية سوف يكون لها تأثيرها السلبى على عملية السلام مع مصر كزعيمة للعالم العربى . علاوة على أنها لن تكون سوى مغامرة فاشلة قد تقضى على مستقبله السياسى . ولكن شارون لم يستمع للنصيحة وقام بعد ذلك بشهرين بغزو لبنان !

وفى القاهرة اجتمع مجلس الوزراء المصرى لاستعراض الإجراءات التى يجب أن تتخذها مصر فى حالة إصرار إسرائيل على عدم تنفيذ الإنسحاب . وأثناء الاجتماع شرعت كوزير للخارجية فى استعراض الموقف . ولكن وقبل أن أبدأ فى استعراض بنود الإجراءات المضادة فى حالة إحجام إسرائيل عن الانسحاب وصلتنى رسالة من بيجين دخل بها مندوب إلى حجرة الاجتماع ، مؤداها أن مجلس الوزراء الإسرائيلى اتخذ قرارا بالإجماع بالموافقة على إتمام الانسحاب النهائى فى موعده ، مع طلب الاتفاق على أسلوب لحل مشكلة طابا وهو ما أدى كما ذكرت إلى توقيع ما عرف بورقة ٢٥ إبريل . . وهكذا انتهت جلسة مجلس الوزراء المصرى بزوال السبب فى عقدها وتنفس المجتمعون الصعداء بانتهاء الأزمة .

غــزو لبنــان

تم الانسحاب النهائى من سيناء فى الموعد المحدد فى يوم ٢٥ إبريل ١٩٨٥ ، ولكن لم يمض أربعون يومًا حتى قامت إسرائيل بعملية غزو شاملة برية وبحرية وجوية اجتاحت بها الجنوب اللبنانى فى ٥ يونيو عام ١٩٨٢ . وهكذا ثبتت نوايا شارون التى سبق أن ألمح عنها وهو يصحبنى إلى مطار بن جوريون فى يوم ١٩ إبريل .

وعلى الفور أرسل الرئيس مبارك رسالته الأولى يوم ٦ يونيو للرئيس ريجان وقادة دول العالم لوقف القتال وانسحاب إسرائيل الفورى ، وأتبع ذلك برسالة ثانية يوم ٨ يونيو وثالثة يوم ١٠ يونيو ، وكان الرئيس ريجان فى زيارة لأوربا فى ذلك الوقت .

وفى يوم ١٢ يونيو كلفنى الرئيس مبارك بالتوجه إلى واشنطن لتسليم رسالة رابعة للرئيس ريجان ومناقشة المسئولين هناك .

وفى الطريق إلى واشنطن توقفت فى لندن لألتقى « بفرانسيس تيم » وزير الخارجية البريطانى ، وعقب المقابلة أصدر بيانًا بإدانة الغزو الإسرائيلى للبنان .

وفى واشنطن التقيت برئيس لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس « كليمنت زبلوكى » وهيج وزير الخارجية .

ثم التقيت بالرئيس ريجان فى مقابلة كان مقررًا لها خمس عشرة دقيقة فقط ، ولكنها امتدت لتستغرق ساعة وربع الساعة لجسامة الموضوع . . خاصة بعد أن حاصرت القوات الإسرائيلية بيروت وضواحيها ، وكانت مقرًا لمنظمة التحرير الفلسطينية .

ولقد قدمت طلبات محددة ، منها ضرورة المحافظة على الأرواح والممتلكات والمنشآت فى



مباحثات أزمة لبنان مع الرئيس الأمريكى يونيو ١٩٨٢

العاصمة اللبنانية وضرورة التعامل مع الحكومة اللبنانية القائمة لحل الأزمة ، مع ضرورة رفع الحصار عن بيروت لكى يكون قرار الحكومة اللبنانية نابعًا منها وليس نتيجة التأثر بضغط الحصار الإسرائيلى .

كما طالبت باتخاذ الترتيبات الفورية لوقف إراقة المزيد من الدماء ونقل المصابين ودفن الجثث وتوصيل المؤن للمناطق المحاصرة ، ومعاملة الأسرى معاملة إنسانية طبقًا لاتفاقيات جنيف وكذا تحقيق الانسحاب الفورى من لبنان تنفيذًا لقرار مجلس الأمن .

وبعد مقابلة الرئيس ريجان ، عقدت جلسة مباحثات مع هيج استمرت ثلاث ساعات لمناقشة الإجراءات التنفيذية ، وتقرر على الفور صرف ٥ ملايين دولار كمعونة فورية ، مع طلب مائة مليون دولار أخرى من الكونجرس بصفة عاجلة ، وتقديم المساعدات للفلسطينين واللبنانيين عن طريق هيئة الصليب الأحمر والهيئات الكاثوليكية مع قيام الأمم المتحدة وقواتها بدور فى هذا الصدد .

ورغم هذا الموقف إلا أن أمريكا استخدمت حق الفيتو فى مجلس الأمن ضد كل المشروعات المقدمة عن إدانة الغزو الإسرائيلى .

وفى يوم ٢٦ يوليو حضر فيليب حبيب المبعوث الأمريكى اللبنانى الأصل إلى مصر للتشاور مع الرئيس حسنى مبارك حول الإطار العام لحل الأزمة اللبنانية ، وفى هذا الاجتماع تقرر

سفرى مرة أخرى إلى واشنطن لأحمل رسالة إلى الرئيس ريجان لوقف نزيف الدم فى لبنان وضمان سلامة أفراد منظمة التحرير الفلسطينية ومحاولة إقناع الولايات المتحدة بإجراء حوار مع المنظمة خاصة بعد أن حصل أحد أعضاء الكونجرس الأمريكى على وثيقة موقعة من عرفات بالاعتراف بإسرائيل وبجميع قرارات الأمم المتحدة . ولقد اعتبرها الرأى العام الدولى أنها تطور مفاجئ فى الموقف الفلسطينى بينما وصفها متحدث باسم الخارجية الإسرائيلية بأنها خدعة وحيلة دعائية ذكية .

ولقد طالبت بحق تقرير المصير للفلسطينيين وضرورة أن تتدخل الولايات المتحدة فى التفسير الحقيقى فيما يتعلق بالحكم الذاتى الكامل للفلسطينيين لكامب ديفيد .

وفى ١٥ سبتمبر اجتاحت قوات سعد حداد [1] الموالية لإسرائيل تحت سمع وبصر إسرائيل معسكرى صبر وشاتيلا حيث قتل وذبح ١٤٠٠ فلسطينى معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ .

وفى أوائل مايو عام ١٩٨٣ وقعت كل من لبنان وإسرائيل اتفاقًا أمنيًا يقضى بانسحاب الأخيرة من لبنان مع اتخاذ خطوات أمنية فى الجنوب اللبنانى ، وقد رحبت مصر بهذا الاتفاق إلا أن سوريا ومنظمة التحرير قابلتاه بالإدانة والرفض .

وهكذا أوضحت الأزمة اللبنانية أن مصر هى الدولة العربية الوحيدة تقريبًا التى كانت تتحرك فى جميع الاتجاهات ومع جميع أطراف الأزمة كافة فى سبيل حل المشكلة منذ بدئها .

عـودة مصر للمـؤتمر الإسـلامى

كان المؤتمر الإسلامى من بين الاتجاهات التى حاولت دول الرفض بزعامة العراق أن تعمل على عزل مصر عنها فى أعقاب توقيع المعاهدة المصرية الإسرائيلية . ولقد تزعم العراق هذه الدول محاولا تجميد عضوية مصر فى المؤتمر الإسلامى عند اجتماعه التالى . والحقيقة أن الرئيس « مبارك » كان بعيد النظر فى سياسته الخارجية التى توخى فيها التحرك بشخصه لتدعيم العلاقات الثنائية مع كثير من دول العالم [2] ومن بينها الدول الإسلامية .

---

(١) مما يذكر عن سعد حداد أنه كان قائدًا لقوات حزب الكتائب المارونى المتحالف مع إسرائيل ويحتل جنوب لبنان .

(٢) اعتبارًا من فبراير ٨٢ بدأ الرئيس حسنى مبارك عددًا من الزيارات للدول الأوربية والولايات المتحدة بقصد توثيق الصلات معها ـ كما حضر اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة بنيويورك فى يونيو ٨٢ ومؤتمر عدم الانحياز فى نيودلهى بالهند فى مارس ٨٣ وبعض دول جنوب شرق آسيا . كما قام بزيارة المغرب فى =

وكذلك الدول العربية التى لم تقطع علاقتها بمصر تاركا الباب مفتوحا لباقى الدول العربية لكى تتقدم هى بالخطوة الأولى على طريق إعادة العلاقات .

ولقد أتاح له حضوره لمؤتمر عدم الانحياز التقاءه بالملك حسين فى مارس عام ٨٣ بنيودلهى ثم مع الملك الحسن ورؤساء وفود الأردن والعراق وعمان فى ٨ أكتوبر مما كان سببا فى خلق جو جديد يمهد لعودة مصر إلى شقيقاتها العربيات بالإضافة إلى الموقف الذى تبنته مصر من مساندة العراق فى صراعها الذى دام طويلاً مع إيران .

ولقد حدث عقب عودة الرئيس مبارك من الأمم المتحدة فى أكتوبر عام ١٩٨٣ أن كلفنى بزيارة كل من عمان (الأردن) وبغداد فى ٢٦ أكتوبر عام ١٩٨٣ حيث قابلت كلا من الملك حسين والرئيس صدام حسين (١) وأوضحت فى هاتين المقابلتين موقف مصر من مختلف القضايا العربية .

والحقيقة أن موقف مصر من عدوان إسرائيل على لبنان وحصار بيروت كان محل تقدير من كل الدول العربية ، وخاصة الجهود الدبلوماسية المضنية التى بذلتها مصر تجاه حصار بيروت وخروج منظمة التحرير الفلسطينية منها سالمة .

وفى أعقاب الاتصال الذى تم بين الرئيس مبارك والملك الحسن كلفنى الرئيس (فى ١٣ نوفمبر عام ١٩٨٣) بالسفر إلى المغرب لمناقشة موضوع « الصحراء » الذى كان سببًا دائمًا فى إثارة القلق بين المغرب والجزائر والبوليساريو .

= نوفمبر ٨٣ ، ثم أتبع ذلك بزيارة بعض الدول الإفريقية فى عام ٨٤ - ولقد نجحت هذه الزيارات فى تحقيق أهدافها وانعكس هذا النجاح داخليًا فى تحقيق نجاح الخطتين الخمسيتين فى أهدافها (٨٢ - ٨٧ ، ٨٧ - ٩٢) والتى أنقذت مصر من انهيار اقتصادى محقق فى مواجهة الانفجار السكانى ومتطلبات الإسكان والتعليم والصحة وفرص العمل وكذا متطلبات تجديد وتوسيع مشروعات المرافق العامة من مياه وصرف صحى وكهرباء وتليفونات ومواصلات لاسلكية وسكك حديد وطرق ، وعم الاستقرار والأمن داخل البلاد مما ضاعف عدد السياح .

(١) مما أذكره فى هذه الزيارة أن الرئيس صدام حسين صحبنى عند انتهائها فى الردهة الطويلة للقصر وراح يتابع حديثه عن الموضوع الذى يشغله دائمًا وهو حزب البعث فى سوريا حيث قال لى « سوف تثبت الأيام لسوريا أننا البعث الحقيقى » وبدت لى العبارة وقتها غريبة على سمعى خاصة وكنت أعلم أن ميشيل عفلق كان يقيم فى تلك الفترة فى بغداد . وفى زيارة أخرى للعراق بناء على دعوة من طارق عزيز وزير خارجيتها أثير موضوع تمويل الدول العربية للعراق فى حربه مع إيران وكان تعليق صدام حسين « أن جيراننا لا يقومون بواجبهم نحونا ، وبمجرد أن تنتهى حربنا مع إيران سأتفرغ لهم » . ولم أدرك فى ذلك الوقت أن يصل به الفكر إلى حد الاعتداء على دولة عربية مجاورة ! .



مع الملك الحسن الثانى ملك المغرب



مع الرئيس صدام حسين

وفى هذا اللقاء أثار الملك الحسن موضوع تحسن العلاقات العربية المصرية التدريجى وعودة مصر إلى الساحة العربية ، وفى حديثى معه قلت له «إن مصر لم ولن تطلب ذلك فى أى وقت» .

والحقيقة كان رد الملك كريمًا للغاية إذ قال لى : « إن مصر لا تطلب وإنما تُطلب » . (الأولى بفتح التاء والثانية بضمها) . ثم أضاف : « والله إن لم نحافظ على كرامة مصر فما حافظنا على كرامتنا . . وفى الشهر القادم سوف ينعقد المؤتمر الإسلامى فى المغرب ، وسوف أعمل على إعادة مصر إليه » . .

ثم أدلى بتصريح للصحافة فى نهاية المقابلة عن الأهمية البالغة لعودة مصر للساحة العربية .

والواقع أن الملك الحسن بذل جهدًا كبيرًا فى إعادة مصر للمؤتمر . وكعادة الدبلوماسية المصرية وتحركاتها لمتابعة دبلوماسيات القمة ، أوفدت خمسة وكلاء من وزارة الخارجية لزيارات عاجلة للدول الإسلامية فى آسيا وإفريقيا ، ولقد عادوا جميعًا بوعود لمساندة هذا الاتجاه وبترحيب كافة الدول به فى مؤتمر الرباط .

وعندما انعقد المؤتمر كان أشبه بمهرجان لعودة مصر . . .

فلقد تحدث الرؤساء أحمد سيكوتورى وضياء الحق والملوك والرؤساء العرب وطارق عزيز (ممثلاً لصدام) فى جلسات استغرقت سبع ساعات لمناقشة هذا الموضوع وحده . وفى النهاية قرر المؤتمر عودة مصر بالإجماع إليه .

. . . كان من غير المعقول ولا المقبول أن تقف الدولة التى حملت لواء الدعوة الإسلامية وحافظت على الإسلام بقيمه ومعانيه قرابة ألف سنة هى عمر أزهرها ، بعيدة عن باقى زميلاتها . . خاصة وأن احتفال مصر بالعيد الألفى للأزهر كان على الأبواب .

وقبل الاهتمام بعودة مصر إلى المؤتمر الإسلامى رأى البعض أن يكون التركيز فى الأسبقية الأولى على عودة العلاقات العربية وعضوية مجلس الأمن ، إلا أنى وجدت من الأفضل أن ترمى مصر بثقلها أولا حضاريًا وإسلاميًا بالعودة إلى المؤتمر الإسلامى مما يمهد لها الطريق فى نجاحها للترشيح فى مجلس الأمن . وهذا هو ما حدث بالفعل .

العـودة لعضـوية مجلس الأمـن

شجعت عودة مصر للمؤتمر الإسلامى على ترشيح نفسها لعضوية المجلس مرة أخرى .

وكانت مصر قد شغلت مقعدًا فى المجلس ثلاث مرات منذ إنشائه بحكم انتمائها العربى والإفريقى .



مع الرئيس مبارك والملك الحسن وحديث هامس

وظلت مصر بعيدة عن هذا المقعد ٢١ عامًا منذ عام ١٩٦٢ ، عندما دخلت مصر فى سلسلة من المتاعب منذ حرب اليمن ، ثم حرب عام ١٩٦٧ وحرب الاستنزاف إلى حرب عام ١٩٧٣ ومعركة السلام .

وعندما رشحت مصر نفسها مرة أخرى فى عام ١٩٨٤ لعضوية المجلس كان قليلون جدًا يؤمنون باحتمال النجاح فى هذا الترشيح . .

ولكن جاءت النتيجة مذهلة !

فقد حصلت مصر على ١٢٦ صوتًا ، بينما حصلت الجزائر على ٣٨ صوتًا . . أما ليبيا فقد حصلت على صوت واحد هو صوتها .

وبتحليل هذه الأرقام فى ذلك الوقت ، كان من الممكن أن نستنتج أن خمس عشرة دولة عربية على الأقل قد أعطت أصواتها لمصر من بين هذا العدد .

وهكذا أصبح واضحًا أن الخطوة القادمة هى عودة العلاقات المصرية العربية تلقائيًا .



مع العاهل الأردنى الملك حسين

العـرب يعـودون

لقد ثبت إذن للعرب أن المعاهدة المصرية الإسرائيلية لم تكن قيدًا على إرادة مصر . بل على النقيض لقد وضح للجميع أن مصر كانت هى الدولة الوحيدة التى تحركت فى أزمة لبنان فى سبيل الانسحاب الإسرائيلى منها . كما أنها وفرت الخروج الآمن لمنظمة التحرير الفلسطينية من بيروت تحملهم سفن مصر ، وتحت حماية الطيران المصرى حتى موانى وصولها ، وهو أمر أشادت به السعودية ودول عربية أخرى فى ذلك الوقت .

وكان نتيجة لذلك أن قام عرفات بزيارة مصر فى ٢٢ ديسمبر عام ١٩٨٣ لأول مرة بعد القطيعة ، وكان ذلك بقرار من المجلس الوطنى الفلسطينى . كما تشكلت لجنة برئاسة عرفات لتطوير العلاقات مع مصر . . وفى الوقت نفسه تلقى مبارك دعوات لزيارة كل من الأردن والعراق . ولم تنقطع زيارات الوزراء العرب لمصر طوال هذه الفترة .

وبرغم المقاطعة الاقتصادية استمر الاستثمار الكويتى ، وكذا بعض الاستثمارات السعودية وغيرها دون انقطاع ، فيما عدا صناديق الدعم العربية التى استمرت مقاطعتها حتى كانت عودة العلاقات الكاملة دولة وراء الأخرى .

وهكذا تم جمع الشمل العربى من جديد .

العلاقات المصرية السودانية والتكامل

لايمكن أن تطوى صفحة مشوار الخارجية دون أن يتطرق حديثنا عن العلاقات المصرية / السودانية وهى علاقات تتميز بالخصوصية والأزلية بين شعب وادى النيل فى الشمال والجنوب . وكلما استقلت إرادة أى من البلدين تطلع إلى شقيقه لتجاوز أى خلافات أو عداءات مفتعلة وسرعان ما يسعى كل منهما للآخر لعودة العلاقات الطبيعية بينهما .

منهــاج العمــل الســياسى

والتاريخ الحديث خير شاهد على ذلك ، ففى أعقاب نصر أكتوبر ٧٣ أعلن فى الإسكندرية فى ٢٢ فبراير ٧٤ عن منهاج العمل السياسى والتكاملى الاقتصادى لتحويل العلاقات من المستوى النظرى إلى مستوى عملى .

وشكلت ثمانى لجان فنية مشتركة فى مجالات الزراعة والرى ، النقل والمواصلات ، التجارة والاقتصاد ، الصناعة ، الشئون الاجتماعية والتأمينات والشئون السياسية .

كان لهذه اللجان العديد من الإنجازات خلال مرحلة المنهاج ، فشملت اتفاقية الدفاع المشترك (يوليو ١٩٧٦) ، اتفاقية تشجيع وحماية الاستثمار (مايو ٧٧) وعدة بروتوكولات للتجارة والتفضيلات الجمركية وتشغيل وتنظيم العمالة (مايو ٧٧) . وقد ساهمت هذه الاتفاقيات فى تشجيع عدد من الشركات المصرية والمشتركة والهيئات فى تنشيط أعمالها فى السودان ، إلا أن نقص التمويل العربى كان من أهم العوامل التى أوقفت التنفيذ خاصة بعد توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل . كما كان غياب العمل الشعبى ونشاط القطاع الخاص فى البلدين من العوامل المؤثرة .

ميثــاق التكامــل

وفى إطار تطوير العلاقات المصرية السودانية إلى ما هو أفضل ، واستيعابا للدروس المستفادة من تطبيق المنهاج خلال ثمانى سنوات ، وقعت كل من مصر والسودان فى ١٢ أكتوبر ١٩٨٢ ميثاق التكامل بين البلدين باعتباره طرحا سياسيا حضاريا جديدا أساسه التكامل بين مصر والسودان وهدفه الأسمى التكامل العربى تمهيدًا للوحدة . فقد كان التكامل عملا استراتيجيا شاملا يغطى مجالات قوى الدولة الخمس السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدبلوماسية والعسكرية ، بمعنى أن العمل التكاملى ينفذ من خلال تلك القنوات الخمس إما كلها فى وقت واحد كما حدث بين مصر والسودان وإما باستخدام قناة أو أكثر مع أى دولة عربية أو إفريقية وبخاصة دول حوض النيل علما بأن التكامل لم يكن محورًا موجهًا ضد أحد بعينه .



في السودان بعد إعلان ميثاق التكامل

وقد اقتضى ذلك عدة لقاءات بين الرئيسين مبارك ونميرى فى كل من مصر والسودان كنت وغيرى من المسئولين فى مصر والسودان نستشعر رضى الشعبين لهذه الخطوات .

وأثناء مناقشة موضوع التكامل فى الخرطوم وفى لقاء الرئيس النميرى ومعهما الوفد المصرى والسودانى ، طلب محافظ المديرية الشمالية بالسودان فى ضوء هذا التكامل بناء مبنى جديد للمديرية .

وبادر الرئيس نميرى بالرد الآتى : أنه سعيد أن طرح مثل هذا الطلب الآن ، لأنه إذا كان مفهوم التكامل أن تقوم مصر بتقديم دعم مالى للسودان فسيكون ذلك أبعد ما يكون عن التكامل المنشود بين البلدين .

فالمطلوب هو تكامل العمل السياسى وتكامل الموارد الطبيعية والخدمات فى كلا البلدين وحق المواطنة للسودانى فى مصر والمصرى فى السودان .

وفى الواقع كان الرئيس نميرى على حق فلم يكن هذا التكامل أمرًا يستهدف منه تقارب الشعبين ، فإن هذا التقارب أمر واقع فى امتزاج دماء الشعبين والتصاهر بينهما ، **فعدد السودانيين المقيمين بمصر يزيد على مليونين** . كما أن عدد السودانيين الذين يفدون إلى مصر فى بداية الصيف سنويًا يصل إلى ما يزيد على نصف مليون مواطن سودانى **يدخلون مصر دون**

تأشيرات . كما أن عدد الطلبة السودانيين فى الجامعات المصرية يربو على خمسة عشر ألف طالب علاوة على ما يقرب من ثلاثين ألف شاب فى جامعة القاهرة فرع الخرطوم .

وقد شمل الميثاق المبادئ والأهداف العامة التى يهدف إليها التكامل ، فنص على أن الهدف هو توطيد العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية بين البلدين على أسس تتفق والصلات والروابط الطبيعية والتاريخية لشعب وادى النيل ، وبناء على ذلك يعامل مواطن أى من البلدين المنتفع بحق الإقامة فى البلد الآخر معاملة مواطنيه فى كل الحقوق والواجبات فى المجالات المنصوص عليها فى الميثاق وفقًا لقوانين البلد الذى يقيم فيه . وأنشأ لها المؤسسات والأحكام المنظمة لها والتى من أهمها المجلس الأعلى للتكامل والذى يرأسه رئيس الدولتين بالتناوب وخمسة أعضاء يعينهم رئيس كل دولة وهو يعتبر السلطة العليا فى توجيه التكامل والتغلب على المصاعب البيروقراطية التى عوقت العمل خلال فترة المنهاج . ويعاون المجلس خمس لجان فنية متخصصة فى الإنتاج ، والخدمات ، والشئون الدستورية والتشريعية ، والتخطيط والشئون المالية والاقتصادية ، والتنظيمات الشعبية بالإضافة إلى الأمانة العامة المشتركة والتى تتولى القيام بجميع المهام الإجرائية .

برلمان وادى النيل

وقد حرص الميثاق على استمرارية التكامل واستقراره من خلال المؤسسات ، فنص الميثاق على تكوين برلمان وادى النيل [1] والذى يتكون من ١٢٢ عضوا مناصفة بين البلدين والرئاسة بالتناوب وله سلطات رقابية . وتركت السلطة التشريعية لبرلمانى البلدين وذلك للتأكد على المشاركة الشعبية التى كانت نقطة ضعف خلال المنهاج . كما أنشأ الميثاق صندوق التكامل وهو مؤسسة استشارية تخدم مشروعات التكامل برأس مال ٥٠٠ مليون وحدة سحب (١,١ دولار) بحيث يتم تمويله من خلال ما تودعه الدولتان والقروض والهبات من الخارج ، وللصندوق أن ينشئ الشركات أو المصارف ويطرح أسهمها محليا وعربيا ودوليًا لتمويل المشروعات وبذلك يمكن التغلب على مشكلة التمويل التى واجهت مشروعات المنهاج . كذلك وضع تصور شامل للعمل خلال السنوات العشر على هيئة مراحل إستراتيجية بحيث ينفذ على ثلاثة محاور تسير فى آن واحد : تنمية المصالح المشتركة بين البلدين ، إزالة القيود ورفع المعوقات والحواجز لزيادة التفاعل بين الشعبين وإذابة الاختلافات بين الشعبين وحصرها فى أضيق حدود .

(١) عقدت الجلسة الأولى لبرلمان وادى النيل فى الخرطوم . كما عقدت جلسة أخرى بالقاهرة .

ولتحقيق هذه المحاور حدد المجلس الأعلى للتكامل ٣ مراحل تخطيطية :

(أ) المرحلة التمهيدية لمدة عامين ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ .
(ب) مرحلة بناء التكامل لمدة أربع سنوات ١٩٨٥ ـ ١٩٨٨ .
(جـ) مرحلة توحيد السياسات وتهيئة المناخ المناسب للوحدة لمدة أربع سنوات ١٩٨٩ ـ ١٩٩٢ .

- وقد كان من المنتظر ، بعد انتهاء المرحلة التمهيدية ، التى أرست القواعد والأسس القانونية والتنفيذية التى تقرب حلم التكامل من الواقع الفعلى والملموس، الانتقال إلى المراحل التكاملية التالية فى سهولة ويسر ، إلا أن التطورات فى السودان قد حالت دون تحقيق ذلك .

- لقد حدثت تحولات داخلية فى السودان فى إبريل ١٩٨٥ نتيجة مظاهرات شعبية ، وتولى السلطة مجلس عسكرى انتقالى من قادة القوات المسلحة برئاسة وزير الدفاع الذى رفض قمع المظاهرات وانضمت القوات المسلحة للشعب وتم تشكيل مجلس وزراء انتقالى بهدف الإعداد لإجراء انتخابات حرة ديمقراطية خلال عام .

- وفى ظل هذه الأوضاع غير المستقرة بدأت العناصر المعادية لمصر سواء داخلية أو خارجية تتعاون للإساءة إلى مصر بهدف عزلها عن السودان لينفردوا بالسيطرة على السودان تمهيدا لتهديد مصر ذاتها . وقد طالبت هذه القوى فى اجتماعاتها الشعبية وندواتها الفكرية بإلغاء اتفاقية الدفاع المشترك مع مصر وطالبت بإلغاء التكامل باعتباره عملا فوقيا فرضه النميرى على الشعب السودانى كما طالبوا بإعادة النظر فى اتفاقية المياه مع مصر لأنها جائرة وتعطى مصر حقا فى مياه السودان وأيضًا طالبوا بالنظر فى مشكلة الحدود المصرية السودانية فى منطقة حلايب . وقد قادوا المظاهرات التى توجهت لسفارة جمهورية مصر العربية للمطالبة بالنميرى والتوعد لمصر . . وفى ٢٠/ ٧/ ١٩٨٥ أبلغ المجلس العسكرى الانتقالى القاهرة بأنه تحفظ على السيد الأمين العام للتكامل وأعفى الأمين العام المساعد السودانى من منصبه للتحقيق معهما فى جرائم ارتكبت قبل توليهما مناصب التكامل وكمسئولين فى عهد النميرى، وأن السودان ترشح الأمين العام المساعد المصرى ليتولى أعمال الأمين العام لحين النظر فى أسلوب عمل التكامل .

وقد اعتبرت مصر كل هذ الإجراءات منافية لروح التكامل باعتبار أن الأمين ملك لوادى النيل وليس السودان ، وهنا أعلنت مصر تجميد التكامل فى ٢٤/ ٧/ ١٩٨٥ م تجنبًا لأية تداعيات فى الموقف .

ميثاق الإخاء

وفى ٢٢ فبراير ١٩٨٧ زار السيد الصادق المهدى رئيس وزراء السودان فى ذلك الوقت مصر وطرح خلالها ميثاق الإخاء والذى لم تعارضه السلطات المصرية باعتباره نقطة بداية وصفحة جديدة نحو التآخى والترابط بين البلدين عقب توتر العلاقات فى الفترة السابقة على الزيارة . ومع هذه التطورات ظل التكامل مجمدًا . أما ميثاق الإخاء فقد لخص الأهداف والمبادئ فى خصوصية العلاقة بين البلدين والتى تتجسد فى عدد من المصالح الإستراتيجية المشتركة والمتبادلة مما يحتم استثمار الطاقات المتاحة للبلدين والتى تستغل فى صورة كاملة فى دعم اقتصادهما وخططهما للتنمية وذلك عن طريق التنسيق بين خطط التنمية فى البلدين بما يخدم المصالح العليا للشعبين وإعطاء الأولوية للوفاء باحتياجاتها فى الإنتاج الزراعى والصناعى واعتبار المصالح الاقتصادية ومؤسساتها من المصالح العليا للبلدين بما يحقق انطلاق الطاقات وتوفير مناخ الاستمرار والاستقرار لهما . ولم ينص الميثاق على قيام أجهزة أو مؤسسات تنفيذية واكتفى بتشكيل اللجنة العليا المشتركة برئاسة رئيسى وزراء البلدين وعدد من الوزراء المختصين وفقًا لما يتفق عليه رئيسا اللجنة والتى تقرر أن تجتمع مرة كل ستة شهور على الأقل ولكن هذه اللجنة لم تنعقد (ولو مرة حتى الآن) .

الباب الخامس عشر

مشوار مجلس الوزراء

الفصل الثالث والخمسون

فى مجلس الوزراء (١) (القضايا والمشاكل)

ظلت الأيام تتتابع وأنا فى منصبى فى الخارجية حتى كان يوم من أيام شهر رمضان فى أوائل مايو ١٩٨٤ ، عندما دق جرس التليفون فى بيتى حيث تلقيت دعوة من الرئيس حسنى مبارك لتناول طعام الإفطار فى بيته بمصر الجديدة .

وعندما ذهبت لألبى الدعوة ، لم أجد أحدًا غيرى مدعوًا على ذلك الإفطار سوى الدكتور فؤاد محيى الدين (رئيس الوزراء) ، فأدركت أن حديثًا على جانب كبير من الأهمية سوف يدور بيننا فى هذه الليلة . لم يخطر على بالى أن مشوارًا جديدًا فى انتظارى سأتوج به باقى مشاوير العمر السابقة .

ظل الحديث يدور على مائدة الإفطار المؤلفة من أصناف شهر رمضان العادية ، عن مواضيع عامة استهلها الرئيس مبارك بالاستفسار عن صحة الدكتور فؤاد الذى كان قد تعرض فى الأسابيع الأخيرة لأزمة قلبية حادة ألزمته الفراش ، وقد آثر أن يخفيها عن أعز معارفه حتى لا يرهقه الزائرون من أصدقائه الكثيرين .

وبعدما انتهى الإفطار اصطحبنا الرئيس مبارك إلى الحديقة لتناول الشاى على مائدة صغيرة فى ركن بين الأشجار . . فلقد كان الجو من أمسيات الصيف الرقيقة .

بدأ الرئيس مبارك الحديث هذه المرة بمفاتحة الدكتور فؤاد محيى الدين بأنه يرى له من الأنسب فى الفترة القادمة أن يتوجه بنشاطاته لمجلس الشعب مرشحًا لرئاسته ، وأن يترك مجلس الوزراء بكل همومه ومهامه ليتولاه واحد غيره . وعندما استدار الرئيس مبارك ليوجه لى الحديث فهمت أنى أنا المقصود بتولى مهام هذا المجلس خلفا للدكتور فؤاد محيى الدين . .

وبالفعل نطق الرئيس مبارك بالكلمات التى ستجعلنى أتولى مسئولية رئاسة مجلس الوزراء عن الفترة المقبلة .

اســـأل مجـــربًا

كان الإرهاق لا يزال واضحًا بعد ذلك على وجه فؤاد محيى الدين عندما زرته بعد يومين فى مكتبه بمجلس الوزراء ، فنصحته أن يخلد للراحة وأنا أداعبه قائلاً :

(اسمع يافؤاد . . أنا أعلم أنك طبيب . . بل وطبيب ماهر . . لكن عليك أن تستمع إلى نصيحتى فالمثل يقول اسأل مجربا) ! وابتسم الرجل وأصر على أنه لا يشكو من أى شىء وأنه فى خير وعافية .

وعندما غادرت مكتبه فى ذلك اليوم ، لم أدر أنها ستكون المرة الأخيرة التى أرى فيها هذا الرجل المحنك والذى كان على أفضل ما يكون عليه الرجال خلقًا وعلمًا وتهذيبًا .

الذى حدث بعد ذلك أن ضرب فؤاد عرض الحائط بنصيحتى البسيطة ، بل وبكل نصائح أطبائه وأخصائيه ، وراح يعكف على دراسة ترشيحات الحزب الوطنى ويفتح بابه لمقابلة أعضائه ومناقشة كل الموضوعات المتعلقة بالانتخابات النيابية لذلك الوقت من دوائر وقوائم للحزب ، وغير ذلك من الأمور التى تفتك بالسليم فما بالك بالمريض ؟!

أول وفــاة فى مجـلس الـوزراء

وفى صباح يوم ٥ مايو ١٩٨٤ ـ أى بعد أيام قلائل من زيارتى له ـ دخل الرجل مكتبه كالعادة فى مجلس الوزراء ـ وإن حضر متأخرًا بعض الوقت عن موعده اليومى . وبعد دقائق قلائل انطلقت صرخة من الحارس الخاص به بعد أن فتح الباب ليقدم إليه الأوراق اليومية ، فإذا بالرجل ملقى على وجهه وسط الحجرة الواسعة وقد تحطم مقعده بعد أن اتكفأ عليه بكل جسده لحظة أن انتابته الأزمة الأخيرة التى أودت بروحه وقد فشلت معها كل المحاولات والإسعافات السريعة . . وبعد أقل من ساعة كان الرجل يخرج محمولاً فى سيارة إسعاف من مبنى المجلس وقد لفته ملاءة بيضاء .

الـوزارة الأولـى والـوزارة الثـانية

ولقد ظللت بعد وفاة المرحوم فؤاد أشرف على أعمال رئاسة المجلس حتى أصدر الرئيس مبارك فى ٥ يونيو ١٩٨٤ قراره الرسمى بأن أتولى رئاسة المجلس بالنيابة علاوة على عملى نائبًا لرئيس الوزراء ووزيرا للخارجية .

ولقد استمر العمل بنفس التشكيل الوزارى السابق حتى ١٦ يوليو ١٩٨٤ حينما أصدر مبارك قراره بتكليفى بتشكيل الوزارة الجديدة لتكون الوزارة رقم ١٠٦ منذ إنشاء أول مجلس «للنظار» فى عهد الخديوى إسماعيل حيث تولاه نوبار باشا فى ٢ سبتمبر ١٩٧٨ على أثر مطالبة لجنة التحقيق الأوروبية التى أوصت فى ذلك الوقت بضرورة تشكيل هذا المجلس للحد من سلطة الخديو على أثر مراجعة ميزانية مصر (١).

وعندما توليت عملى بالمجلس لم أكن بعيدًا عن العمل الوزارى .. فعلاوة على السنوات الحافلة الماضية التى انشغلت فيها بالدفاع وبالعمل الخارجى كنت أعمل عضوًا فى معظم اللجان الوزارية التى ترسم سياسة العمل التنفيذى، مثل لجنة السياسات والشئون الاقتصادية وكذلك عضوية اللجنة التى تشكل بصفة وقتية لبحث موضوعات خاصة كلجنة تعمير سيناء واللجان الخاصة بضغط الإنفاق الحكومى - وغيرهما.

ولقد أتاحت لى هذه الفرص متابعة مسيرة العام الثالث من خطة التنمية الخمسية الأولى (٨٢ - ١٩٨٧) وكذا وضع الإطار العام لخطة السنة الرابعة من نفس خطة التنمية (٢) فضلاً عن متابعة أعمال المؤتمر الاقتصادى (٣) الذى أمر الرئيس مبارك بعقده لمناقشة الأوضاع الاقتصادية فى البلاد فانعقد فى فبراير من عام ١٩٨٢ أى فى صدر الشهور الأولى من حكمة لإدراكه بأن المسألة الاقتصادية تترأس كافة المشكلات الأخرى.

(١) كان من بين النظار (الوزراء) ناظر إنجليزى للمالية وناظر فرنسى للأشغال العمومية.

(٢) (الخطة ٨٢ - ١٩٨٧) ولقد وضعت أول فكرة لخطط التنمية الخمسية عام ١٩٦١ أيام جمال عبد الناصر بعد قرارات التأميم. وكانت الدولة باعتبارها صاحبة رأس المال تضع مخططًا شاملاً يغطى فترة خمس سنوات لكافة النواحى الخدمية مثل الصحة والتعليم وطرق المواصلات .. إلخ وللنواحى الإنتاجية مثل الصناعة والزراعة واستصلاح الأراضى لتوزيع دخلها بنسب عادلة على كافة المجالات والمناطق وفقًا للموارد العامة المتيسرة ومصادرها (مثل قناة السويس والخامات كالبترول والمعادن وعوائد الضرائب والجمارك والسياحة) وذلك بهدف تنمية موارد الدولة من جهة، ورفع الدخل القومى وبالتالى دخل الفرد من جهة أخرى وتحسين مستواه المعيشى .. غير أن هذه الخطة لم تتم بسبب حربى اليمن و ٦٧.

(٣) فى هذا المؤتمر تحددت سياسة مصر الاقتصادية على النحو التالى:

(أ) الانفتاح الاقتصادى الإنتاجى سياسة مصرية لا رجعة فيها.

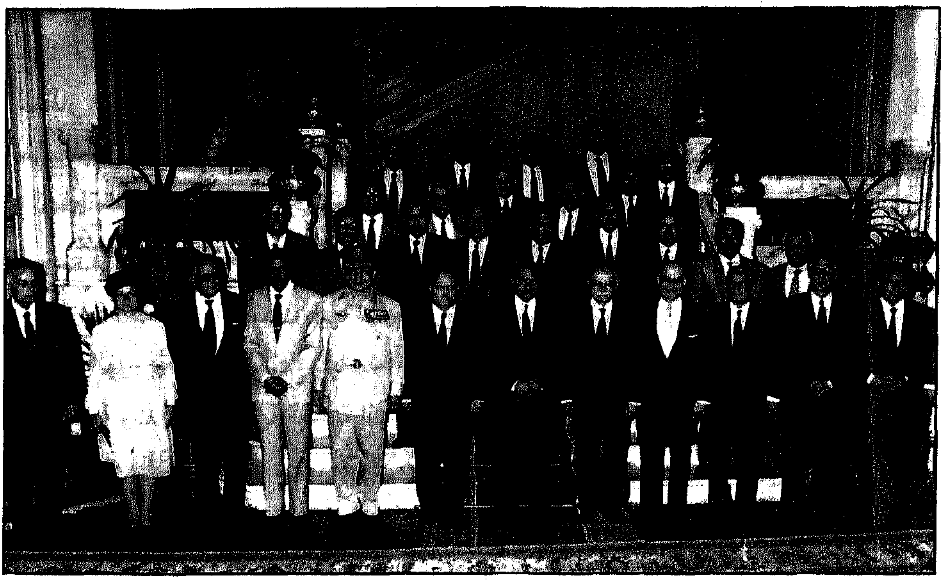
(ب) العمل على زيادة الإنتاج فى القطاعات الحيوية مع تطوير الزراعة.

(جـ) الدعوة لتطوير الصناعة الوطنية مع رفع شعار «صنع فى مصر» باعتباره مظهرا رئيسيا للاستقلال السياسى والاقتصادى.

(د) ترشيد الاستهلاك وتوجيه المدخرات المحلية نحو النشاط الإنتاجى.

(هـ) يكون للسياسة الاقتصادية مضمون اجتماعى مع مراعاة الطبقة الكادحة والعدالة الاجتماعية.

(و) دعم القطاع العام مع تشجيع القطاع الخاص وتقديم كل التسهيلات التى تدفعه للنمو ..



التشكيل الوزارى بعد حلف اليمين



فى اجتماع مع الرئيس مبارك

السرطان السكانى على قمة المشكلات

كان واضحا أمامى من الوهلة الأولى أن هناك قضايا ومشكلات كثيرة متراكمة من عهود الحروب المتلاحقة الماضية ، إلا أن المشكلة الاقتصادية بالفعل تعتبر على قمة هذه المشاكل . . ولم يكن الإنفاق على هذه الحروب التى فرض معظمها علينا فرضا هو السبب الأوحد وراء هذه المشكلة ، بل كان هناك وحش رهيب يقف بكيانه العملاق متوثبًا خلف هذه المشكلة ! وكان هذا الوحش الذى يتصدى لابتلاع كل نتاج ومجهودات التنمية الاقتصادية هو الانفجار السكانى والذى أوثر أن أسميه « بالسرطان السكانى » .

لقد كان عدد سكان مصر فى عهد محمد على لا يتجاوز ثلاثة ملايين نسمة ، ووصل إلى نحو عشرة ملايين فى أواخر القرن التاسع عشر . . وفجأة قفز إلى نحو ٢٠ مليونا عند بداية الثورة ـ وبعد ذلك بدأ يزيد زيادة مطردة وبمعدلات مخيفة حتى وصل إلى ٣٤ مليونًا ونصف المليون فى أوائل السبعينيات ، أما فى أوائل الثمانينيات فقد قارب العدد الخمسين مليونًا وظل فى اطراده المتزايد من بعد ذلك بشكل دائم ومستمر . أما سبب هذه الزيادة السكانية المطردة التى لم يتعرض لها شعبنا وحده ـ بل سبقته فى ذلك شعوب أوربا ـ فترجع إلى اكتشافات باستير [١] للأجسام الميكروبية فى نهاية القرن التاسع عشر والتى كانت تتسبب فى وفاة العديد من أطفال الأسرة الواحدة بانتشار الأوبئة والحميات مما كان سببا فى إيقاف النمو السكانى . ولكن مع توصل باستير إلى تجربة التطعيم بالأمصال الوقائية ثم نجاح غيره من العلماء بعد ذلك فى اكتشاف المضادات الحيوية كالبنسلين ، بدأت البلاد الأوربية تعانى من ازدحام المدن ، بل ومن زحفها على الأراضى الزراعية الأمر الذى هددها بالمجاعات . فكان أن تصدى رجال السياسة والعلماء والباحثون الاجتماعيون بسرعة فى أوائل القرن إلى وقف هذا السرطان ـ ثم تكاتف معهم فى النهاية رجال الكنيسة الكاثوليكية التى لم تقبل فى بادئ الأمر هذا التدخل الدنيوى فيما اعتبرته شأنا من شئون السماء ، وكانت النتيجة أن نجحت بلاد أوربية كثيرة فى تحديد نسلها وأوقفته عند حد معين لم يتزايد إلا بنسبة طفيفة جدًا منذ الثلاثينيات حتى الآن ـ بل منها من عانت بعد ذلك من المشكلة بطريقة عكسية ـ أى من التناقص السكانى ـ مثل ألمانيا (فى أعقاب الحربين) وأستراليا وكندا وبلاد شمال أوربا .

أما فى مصر فكان أخطر ما فى الأمر أنه علاوة على ما تعانيه البلاد من الزيادة السكانية

---

(١) لويس باستير (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥) العالم الفرنسى المشهور الذى اكتشف البكتريا التى تسبب الأمراض بين بنى الإنسان والحيوان . وتوصل إلى طريقة التحصين من هذه البكتريا بالتطعيم بالأمصال الواقية .

المطردة فإن الأمر أخذ يتفاقم نتيجة عاملين أساسيين خطرين . أولهما جغرافى وهو أن شعب مصر يتكدس ويتزاحم أصلا فى الشريط الزراعى الضيق لوادى النيل (والذى لا تزيد مساحته عن $\frac{1}{30}$ من مساحة مصر) ، ثانيهما أن الشريط نفسه أخذت رقعته تتناقص كل عام نتيجة لزحف المبانى على الأرض الزراعية من ناحية ومن ناحية أخرى نتيجة لبوار الأرض وتعمد بعض ذوى المصلحة تجريفها للاستفادة من طميها الخصب فى صناعة الطوب الأحمر بعد بناء السد العالى ، مما أفقد البلاد حوالى ٧٠ ألف فدان من الأراضى الزراعية الخصبة .

وهكذا تفاقمت المشكلة مرتين . . وكان من نتيجتها ما نراه كل يوم فى حياتنا اليومية من ازدحام المواصلات ونقص المقاعد والمحلات بالمدارس والجامعات والمستشفيات . . ثم نقص الغلة الزراعية وعدم كفايتها [١] للسكان بعد ما طرأ عليهم من زيادة غير متوقعة !

وفى الحقيقة أستطيع القول إن الدولة التى كان حجمها عشرين مليونا وجدت نفسها فجأة فى حجم دولتين تعيشان معا على أرض واحدة . وكان من الطبيعى أن تعجز مواردها ومرافقها عن سد حاجة أفراد الدولة الدخيلة الجديدة والتى هبطت علينا فى غارة اجتاحت كياننا لا من خارجنا كما يحدث عادة ، ولكنها جاءت من داخلنا . واليوم وقد مر نحو عقد على تركى الوزارة تزايد عددنا ليقترب من حجم ثلاث دول متزاحمة (٦٠ مليونا) لا دولة واحدة ولا اثنتين ، وأصبح الأمر يقتضى فى رأيى تضامن كل الجهات العلمية والدينية والسياسية لإصدار تشريعات وإجراءات حاسمة تحد من النسل وتشجع على ذلك

الانعكاس المتوقع

ولقد وصل معدل الزيادة السكانية أثناء رئاستى للوزارة فى منتصف الثمانينيات نحو ٢,٨٪ بينما كان معدل التنمية المستهدف نحو (٧٪) وهكذا وضح لى انعكاس آثار السرطان السكانى على عملية التنمية بصفة عامة ، ثم على مشكلات خاصة بعينها مثل الإسكان والتعليم والصحة والبنية الأساسية ، بل وعلى قيم المجتمع نفسه نتيجة للبطالة والتهافت على السلع وظهور بيروقراطية القطاع العام . . إلخ .

وإذا أضفنا إلى ذلك تمسك الدولة فى ذلك الوقت بسياسة الدعم الذى كان يكلف الدولة أكثر من أربعة مليار جنيه [٢] بغرض فرض سعر منخفض على وحدات القطاع العام (عرف

---

(١) أصبحنا نستورد ٧٠٪ من المواد الغذائية من الخارج .

(٢) كان الجنيه المصرى يساوى دولارًا واحدًا فى ذلك الوقت .

بالسعر الاجتماعي) دون النظر إلى السعر الحقيقى للتكلفة ، كانت النتيجة أن القطاع العام الذى بلغت استثماراته فى التصنيع نحو ٧٠٪ من الحجم الكلى للاستثمارات (أى ما يوازى ٤٠ مليار جنيه فى ذلك الوقت) أصبح لا يدر من العوائد للحكومة أكثر من ٣٠٠ مليون جنيه فقط فى العام (هذا دون حساب الاستهلاكات) وهو أمر يوضح مدى فداحة خسارة الدولة فى هذا المجال من الاستثمار خاصة بعد الضربة التى سددت إلى قلب القطاع العام وأقصد بها ضربة البطالة المقنعة !

ومن ذلك أنه بعد حرب ٧٣ سرحت القوات المسلحة ما يقرب من ٧٠٠ ألف مجند ممن قضوا بها بين سنتين إلى سبع سنوات بانتهاء هذه الحرب .

ولقد تمت عملية التسريح فى خلال سنتين فقط . وكان من الضرورى إيجاد فرص عمل لهم بعد أن أدوا واجبهم نحو وطنهم ، ولم يكن أمام الدولة من علاج سريع إلا حشو إدارات الحكومة ووحدات القطاع العام بهم مما أدى إلى تضخم العمالة فى الجهازين إلى الحد الذى أصبح يشيع معه إطلاق لفظة البطالة المقنعة عليهم . وكانت النتيجة أن الدولة أو القطاع العام أصبح لا يتكلف فقط ميزانية أجورهم الزائدة بل أيضا يعانى من انخفاض الإنتاج المتوقع نتيجة تزاحم العمال غير العاملين ، كالقاعدة الشائعة بين الاقتصاديين والتى تقول إن العمل الذى يؤديه أربعة أفراد يمكن أن يؤديه ثلاثة بنفس الكفاءة الإنتاجية . أما إذا زاد هذا العدد إلى خمسة فإن الإنتاج لا يزيد بل ينخفض ربما إلى النصف . فماذا يكون الحال لو عرفنا أن التكدس العمالى وصل فى بعض المصانع إلى أربعة أو خمسة أضعاف العمالة المطلوبة (أى أن الأربعة العمال أصبحوا ١٦ أو ٢٠ عاملاً فى المثال السابق) ! لاشك أن المتوقع هو انخفاض الإنتاج إلى الحضيض مع حدوث مضاعفات جانبية خطيرة كعدم الانضباط والتهاون وعجز الإدارة عن الإشراف خاصة إذا وضعنا إلى جانب ذلك عدم قدرة هذه الإدارة على فصل أى عامل معوق للآخرين وفقًا للقوانين الاشتراكية التى هى فى حد ذاتها سبب آخر يزيد من تفاقم العلة الاقتصادية الأمر الذى سأعرض له فى حينه .

الوصمة الخاطئة

كان نتيجة لذلك كله أن وصم العامل المصرى أخيرًا بصفة هو منها براء . وقيل عنه فى وقت من الأوقات إن مجمل إنتاجه فى اليوم لا يزيد عن ٢٧ دقيقة ، فى حين أن هذا العامل هو الذى كان وراء نهضة وثراء القسطنطينية بعد النزح العمالى الذى تعرضت له مصر عقب الغزو

العثمانى فى أوائل القرن السادس عشر بعد معركة الريدانية ١٥١٨ ،[1] كما أنه الآن وراء نهضة وثراء كثير من الدول العربية التى هاجر إليها ليعمل بها مما يثبت أن هذا العامل إذا أحسن تدريبه ووضع وسط نظام دقيق أصبح من أفضل عمال العالم .

وأوضح مثالين أسوقهما للتدليل على صدق مقولتى حادثتان شهدتهما بنفسى .

شهادة بكتل (جونير)

تتلخص الأولى فى أن مستر « بكتل جونير » وهو ابن صاحب شركة أمريكية كبرى كانت تقوم بإنشاء محطة كهرباء جنوب القاهرة (٦٠٠ ميجاوات) وقد زار مصر عام ١٩٨٢ وقابلنى فى الخارجية ليقول إنه لم يكن يتصور أن مصر تضم هذه القاعدة الفنية العريضة من مهندسين على قدر كبير من العلم وعمال على نفس القدر من المهارة والسرعة .

ثم استكمل حديثه قائلاً لى إنه يفكر جديا بعد الانتهاء من إقامة هذه المحطة أن ينقل معه نفس الطاقم من الأفراد لبناء محطات أخرى مماثلة فى العديد من الدول !

ولقد أسعدتنى هذه الشهادة كثيرًا ، وأذكر أنى أجبته فى هذه الجلسة موضحًا أن تلك المحطة لن تكون الأخيرة ، بل إن هناك عددًا من المحطات ستظل فى حاجة إلى مجهوداته ومجهودات هؤلاء الأفراد نظرًا لأننا مقبلون على بناء المزيد منها فى عملية التنمية .

شهادة خبراء التصنيع الحربى الأمريكيين

وتتلخص الحادثة الثانية فيما شهد به مجموعة من خبراء التصنيع الحربى الأمريكيين كانوا قد جاءوا إلى مصر للقيام بجولة فى بعض المصانع الحربية بقصد دراسة مدى استعدادها لتصنيع بعض أجزاء الأسلحة الأمريكية .

وفى نهاية الجولة زارنى اثنان منهم فى مكتبى بينما كنت وزيرًا للدفاع وقدما لى تقريرًا لو قدر لى أن أجعل كل المصريين يطلعون عليه لشاركونى فخرى واعتزازى بكفاءة مهندسينا ومهارة عمالنا فى هذه المصانع ومقدرتهم الهائلة على الإنتاج ، والآن تقوم مصانعنا الحربية بإنتاج الكثير من المعدات والأسلحة التى تحتاج إلى مستوى فنى عال .

---

(١) المعركة التى انتصر فيها السلطان سليم الأول على طومانباى زعيم المماليك فى مصر .

العــلاج

كان واضحا من نوعية وحجم المشكلات المطروحة أمامى عندما جمعنى مجلس الوزراء الذى يعمل كأعلى مجموعة تخطيط للدولة أو بمثابة العقل المفكر للدولة أن أولى مسئوليات المجلس وتبعاته هو وضع أسبقية خاصة للمشكلات الملحة العاجلة التى تضغط بكل قواها على أرزاق المواطنين وأعصابهم وسير حياتهم العادية مع العمل على فتح مجالات جديدة تكون بمثابة روافد اقتصادية تصب فى المجرى الأساسى للاقتصاد المصرى . وأستطيع أن أقول بكل اعتزاز وبكل تواضع أيضًا إن الوزارة التى قمت برئاستها فى فترة لا تزيد على خمسة عشر شهرًا تقريبًا أمكنها أن تضع البذور الأولى لمعالجات حازمة لكثير من المشكلات التى أعرض بعضها عرضًا موجزًا على الصفحات القلائل القادمة .

الفصل الرابع والخمسون

فى مجلس الوزراء (٢) (بذور الإنجاز)

مشكلة الدعم

كانت أولى المشكلات التى تصدت لها الوزارة بشكل حازم هى مشكلة الدعم التى كانت تكلف الحكومة عبئًا ترزح تحت ثقله ليس فحسب فيما يكلفها من بلايين الجنيهات التى كان ممكنا الاستفادة منها فى عملية التنمية ، وإنما أيضًا لأن الدعم كانت له آثاره الاجتماعية والسياسية الضارة التى أثرت تأثيرًا غير مباشر فى الأخلاقيات العامة وقيم المجتمع .

وإذا وضعنا فى حسابنا أن الدعم لم يكن يذهب كله إلى مستحقيه بل كان يتحول بطرق غير مشروعة إلى تجارة سوداء يستفيد منها عدد محدود من المستغلين لذا بدأت الوزارة بالتصدى لخفضه مستفيدة فى ذلك من توصيات وقرارات المؤتمر الاقتصادى الذى عقد فى عام ١٩٨٢ .

ولقد أمكن للوزارة فى مدتها القصيرة المحددة أن توفر لميزانية الدولة مبلغًا وصل إلى ١,٨ بليون جنيه فى عام واحد عن طريق مضاعفة سعر الرغيف مع تحسين نوعيته . والواقع أن الحكومة لم تتكلف شيئًا فى عملية التحسين سوى أنها قصرت استخدام القمح والدقيق المستورد من أستراليا على المدن الكبرى ، بدلا من محافظات الصعيد التى لها طرقها فى صنع الرغيف الأسمر .

ولقد لاقى هذاالنظام قبولا حسنا من المواطنين خاصة أنه لم يطبق دفعة واحدة فى جميع المناطق ، بل تركت المناطق الشعبية بالرغيف غير المحسن إلى أن أصبح هذا الرغيف مطلبًا شعبيًا يرغبه الجمهور ويرضاه .

وأمكن بذلك توفير ما يقرب من ٣٥٠ مليون جنيه من فروق أسعار استيراد القمح والدقيق وبيع الرغيف الذى كانت تكلفته الحقيقية تصل ٥ , ٤ قرش وليباع بقرش واحد أو قرشين .

ولقد أمكن كذلك تطبيق مبدأ خفض الدعم على السجاير ومجموعة أخرى من السلع بغرض رفع الكثير من الأعباء عن كاهل الحكومة مع حث الفرد إلى الاجتهاد وزيادة دخله بجهده .

كما تم توحيد أسعار بعض السلع فى كل من القطاعين العام والخاص حتى تتساوى الفرص بينهما فى الإنتاج وفى التكلفة والأرباح وفى مبدأ العرض والطلب . وكان ذلك إنجازًا كبيرًا فى تحسين دخل الدولة وتحولا هامًا نحو تطبيق آليات السوق فى حرية مطلوبة للإصلاح الاقتصادى فى بعض الأنشطة .

روافد اقتصادية جديدة

كان القطاع العام قد وصل إلى درجة من التشبع لا تسمح له بالمزيد من الاستثمارات والأنشطة الاقتصادية ـ بل راحت مجهوداته تتشعب إلى نشاطات فرعية بعيدة كل البعد عن الغرض الإستراتيجى الذى أنشئ من أجله . فراح يدير المخابز ويشوى السمك ويعمل فى تجارة التجزئة . . إلخ .

لذلك كان من الضرورى أن نتجه إلى تشجيع القطاع الخاص لخلق روافد جديدة تضخ دمًا اقتصاديًا فى عروق الدولة .

وكان القطاع الخاص لا يمثل أكثر من ٣٠٪ من حجم الاستثمارات . وبرغم أن حكومة فؤاد محيى الدين قد طورت من قانون الاستثمار إلا أن إقبال رأس المال الأجنبى والعربى ظل حتى عام ١٩٨٤ دون القدر المطلوب ، إذ بلغ حجم الاستثمار المصرى ٦٤٪ (منها ٢٤٪ تخص الأفراد والباقى يخص القطاع العام) أما العربى فبلغ ١٨٪ فقط بينما لم يتجاوز الاستثمار الأوربى نسبة ١٢٪ والأمريكى ٦٪ . وكان من الملاحظ أن الاستثمار العربى كان يقبل أساسًا على مجال السياحة .

المؤتمر الاقتصادى الموسع لرجال الأعمال المصريين

وكان من الطبيعى أن يتجه تفكيرنا إلى اجتذاب وتشجيع المصريين أولا حيث تردد فى ذلك الوقت أن أرصدتهم بالخارج لا تقل عن ٦٠ مليار دولار . . إما مستثمرة مباشرة فى مشروعات أجنبية خارجية وإما مودعة فى بنوك بالخارج لتستفيد بها كل جنسيات العالم فى التنمية عدا

الإنسان المصرى ! ولذلك قمت بعقد مؤتمر اقتصادى موسع لاتحاد رجال الأعمال المصريين فى ديسمبر ٨٤ حضره ما يقرب من ٥٠٠ رجل من رجال الأعمال .

ولقد اشتركت بنفسى فى المؤتمر مع تسعة وزراء آخرين بخلاف عدد كبير من الوزراء والمسئولين السابقين بقصد الانتفاع بآرائهم وخبراتهم ومقترحاتهم .

ولقد حرصت الحكومة على مشاركة الجميع فى الرأى والمشورة . فلقد كانت كل الاتجاهات داخلها وداخل جميع المؤسسات تتطلع إلى زيادة الإنتاج وتحديد أنسب السبل لاستغلال أقصى طاقة للموارد الاقتصادية المتاحة فوق أرض مصر سواء عن طريق القطاع العام أو الخاص .

١١٣ مشـــكلة

ونجح المؤتمر نجاحًا فائقًا فى التعرف على المشاكل والعقبات التى تعترض القطاع الخاص والعمل على حلها . وكان من المفاجئ لنا أن عدد المشكلات المطروحة وصلت إلى ١١٣ مشكلة ، تم رصدها فى تسع مذكرات ضخمة . وقبل نهاية المؤتمر الذى استمر ٣ أيام أمكن اتخاذ قرارات فورية لوضع الحلول لمعظمها ، أما المشكلات الباقية فقد أحيلت إلى لجان وزارية لدراستها وإعداد القرارات والتوصيات اللازمة لها .

غير أن أهم نتائج هذا المؤتمر كانت زيادة الثقة وتعميق المشاركة بين الحكومة والقطاع الخاص ، الأمر الذى رفع فيما بعد من الإنتاج ومن التصدير فى مجالى الصناعة والزراعة ، وخاصة بعد وضع خرائط استثمارية للمشروعات الزراعية والصناعية والسياحية .

الاستثمار العـربى والأجنبـى

برغم سياسة الانفتاح وقوانين الاستثمار الجديدة ، كان العرب والأجانب يبدون بعض القلق غير المعلن من ظاهرة عدم استقرار القوانين بالرغم من ضمانات الاستثمار الجديدة وحماية رءوس الأموال وما أقدم عليه الرئيس السادات من إلغاء التأميمات والحراسات وإعادة الممتلكات لأصحابها . إذ بدا كل ذلك غير كاف لإزالة القلق من صدور المستثمرين مما أكد المقولة التى تصف رأس المال دائمًا بالجبن والحذر .

ولقد عملت الحكومات المتعاقبة كل ما فى وسعها لإزالة هذا القلق بالعمل الملح على إزالة تعقيدات الروتين وتوفير جميع مستلزمات الإنتاج وإقامة المعارض وإجراء الزيارات الميدانية

للمشروعات الصناعية فى المدن الصناعية المختلفة مما كان عاملاً ملحوظًا فى دفع المسيرة الاقتصادية .

الصـراع بين الشـعارات والتحـرر الاقتصـادى

غير أن سياسة التحرر الاقتصادى والانفتاح على القطاع الخاص لم تقابل فى بادئ الأمر بترحيب كبير من بعض العقليات التى اعتنقت سياسة اقتصادية منغلقة استمرت لربع قرن وترسخ فى ذهنها أن أى خروج أو تعديل فى القرارات الاشتراكية التى أصدرتها الثورة فى مستهل عهدها إنما هو نوع من المروق عن الدين !

إنى أذكر مثلا أننا كنا نناقش بعض أخطاء التطبيق الاشتراكى فى اجتماع بالنادى السياسى للحزب الوطنى وكنت أرأس الاجتماع الذى حضره معى بعض كبار الأعضاء المسئولين فى الحزب من بينهم المرحوم الدكتور رفعت المحجوب .

وفى الاجتماع أثار الدكتور حمدى السيد (نقيب الأطباء وعميد طب القاهرة) نقطة تتعلق بالتناقض الذى يلحظه فى هذا التطبيق لمجانية التعليم . وضرب مثلا بالطالب الجامعى الذى يدفع وفقًا لهذه المجانية رسومًا سنوية قدرها ستة جنيهات فقط . . بينما تصرف له الكلية خلال العام الدراسى مبلغ ١١ جنيها دعمًا لمصاريف الكتب .

ويحدث ذلك فى الوقت الذى لا تجد فيه الكلية مكانا لوقوف خمسة آلاف سيارة فارهة يملكها الطلبة فى كلية الطب !

وتساءل الدكتور حمدى عن مثل هذا التناقض الذى يمكن ضرب أمثلة عديدة له فى كثير من المجالات المختلفة الأخرى !

وهنا طلب المرحوم الدكتور رفعت المحجوب الرد على كلمة الدكتور حمدى فوقف وقال :

« إن مجانية التعليم حق دستورى مقدس ، وإن الرجوع عن المجانية يعتبر « ردة » . ثم نظر إلى الدكتور حمدى السيد وطلب منه الجلوس !

وبالطبع لم يعجبنى مثل هذا الحوار وإنهاؤه على هذا النحو . فطلب الجلوس ليس من حق عضو على عضو آخر . وإنما هو حق مقصور على من يرأس الجلسة فحسب !

ولذلك فإنى عقبت عليه بأن أسلوب الحوار الطبيعى فى النادى يقضى بأن يعبر كل عضو عما فى نفسه من آراء وأفكار ، خاصة وأن نادى الحزب يعتبر هو بيت الحزب . فإن لم يجد فيه العضو المجال للتعبير عن رأيه فأين ياترى يجد المجال أو المكان الذى يجرى فيه التعبير ؟!

كان ذلك من ناحية الشكل ! أما من ناحية الموضوع ، فقد تساءلت بدورى منذ متى كانت الدساتير لا تقبل التعديل أو التبديل فى موادها ؟! إنها ليست قرآنا كريمًا منزلا من عند الله ، بل هى مجموعة من القوانين والمواد وضعت وفقًا لحاجات المجتمع فى مرحلة معينة ، يدخل عليها التغيير والتبديل بعد ذلك وفقًا لما يطرأ على هذه المرحلة من ظروف جديدة لم تكن فى حسبان مشرعى المرحلة السابقة !

مجانية التعليم على الورق

ثم تطرقت إلى المثل المتناقض الذى ضربه الدكتور حمدى ، فأمنت على رأيه قائلاً إنه من الواضح أن المجانية موجودة فقط على الورق فى أروقة الحكومة . أما فى المدارس فقد زالت هذه المجانية فى الواقع اليومى العملى . وأصبح أولياء الأمور يدفعون فى الدروس الخصوصية ـ حيث استبدلت بالمدارس المنازل ـ أضعاف ما كانوا يدفعونه فى التعليم غير المجانى !

ثم ضربت أنا مثلاً شخصيًا عما أدفعه لابنتى التى كانت فى ذلك الوقت طالبة جامعية فى درس خصوصى ينعقد فى منزل ما ، تحضره مع عدد من صديقاتها الطالبات ، وتساءلت ألم يكن الأجدى أن توجه نفقات هذه الدروس إلى ميزانية الكلية مباشرة فترفع من مستوى أداء التعليم بها كما ترفع من مستوى مدرسيها ومعيديها ، فلا تفضى بهم الحاجة إلى الالتجاء إلى مثل هذه الأساليب غير القانونية ، ويترفعون عنها ؟!

إنى أذكر أن مجانية التعليم شرعت فى عهد من العهود كان تعداد الدولة فيه محدودًا ، وكان العديد من الناس لا يشجعون أبناءهم على استكمال المرحلة الجامعية والاكتفاء بالمرحلة الثانوية العادية أو الفنية . أما الآن فقد اختلفت الظروف حيث أصبح التدافع على الكليات (وبالأخص النظرية) بأكثر مما تستوعبه طاقتها أو طاقة احتياجات الدولة منها ، مما كان سببا فى خلق مشكلتين إحداهما تصادف الطالب عند التحاقه بالجامعة والثانية تصادفه عند تخرجه منها . . ومن الأولى نشأت ظاهرة ازدحام الجامعة وانخفاض مستوى التعليم بها . . ومن الثانية نشأت البطالة بنوعيها الظاهر والمقنع !

الوثنية التى صنعناها بأيدينا

مما لا يمكن إنكاره أن القرارات التى أصدرتها الدولة فى مستهل الستينيات كان تستهدف فى المقام الأول إيجاد نوع من العدل الاجتماعى على ضوء الخلل أو التفاوت الزائد فى دخول

المصريين فى ذلك الوقت . وكان ذلك نتيجة لسوء توزيع الثروة الزراعية التى كانت هى النشاط الإنتاجى الرئيسى (١) .

وشاءت الثورة أن يكون لها مضمونها الاجتماعى إضافة إلى مضمونها السياسى . ولكن ما إن بدأ السادات عصر الانفتاح حتى بدأت عملية التجربة والممارسة التى ظهرت معها مشكلات كثيرة تتطلب سن تشريعات وقوانين جديدة مع تقديم سلسلة واسعة من الضمانات للمستثمرين . الأمر الذى بدا لهم فى بادئ الأمر وكأنه عدم استقرار فى القوانين ، ولكن كان القصد فى الحقيقة هو الرغبة فى التبسيط والتسهيل أمام المستثمر وإشاعة الثقة ومنح الضمانات لرأس المال وإيقاف النغمة التى كانت تدمغ الرأسمالية بصفة الاستغلال .

كان من الضرورى إعادة النظر فى دور القطاع العام وفى مجانية التعليم وقصرها على مراحل دون الأخرى مع تشجيع المنح التعليمية للمتفوقين كما تفعل كل الدول المتقدمة . ثم النظر فى قضايا عديدة كالعلاقة بين المالك والمستأجر فى قطاعى الزراعة والعقارات وكثير من الموضوعات الأخرى التى اتخذت شكل أوثان صنعناها بأيدينا ثم وقفنا أمامها غير قادرين على تحطيمها بعد ذلك على حد قول تعبير جرىء أعجبنى فى ذلك الوقت من أحد الكتّاب المتحررين . والحقيقة أننى أستطيع أن أقول إنه رغم قصر الفترة التى أمضتها هذه الوزارة فى الحكم إلا أنها وضعت جذور تحول عملى نحو التحرر الاقتصادى ، ولقد حدث ذلك قبل انهيار النظام الاشتراكى فى الاتحاد السوفييتى وظهور فكر جورباتشوف فى البيروسترويكا والجلاسنوست بسنين طويلة !

هيبـة الدولـة

وكما شرعت الحكومة فى إجراء تحول عملى نحو التحرر الاقتصادى وفك أسره من قوالب جامدة فإنها أيضًا عملت على ترسيخ هيبة الدولة ليس لمجرد أن تكون لها اليد الأولى فى حفظ أمنها ومصالحها العامة ، وإنما أيضا لكى يشعر كل مواطن أنه يعيش آمنا مترابطًا مع مجتمعه

---

(١) بلغ عدد السكان فى ذلك الوقت (عام ١٩٥٢) نحو ٢١,٤ مليون نسمة ، بينما عدد ملاك الأراضى الزراعية حوالى ٢,٨ مليون نسمة يملكون مساحة لا تقل عن ٦ مليون فدان . منهم ٩٤٪ يملكون ٢,٣ مليون فدان فقط حيث لا تصل ملكية كل واحد منهم إلى فدانين . بينما كان هناك ١٩٩ مالكًا يمتلكون ٢٠٪ من مساحة الأراضى الزراعية ويضمون ملاكًا تزيد ملكيتهم عن ١٠٠٠ فدان . ولقد انعكس هذا التباين الشديد فى توزيع الملكية الزراعية على حجم الدخل . فمن كان يملك أكثر من ٢٠٠ فدان كان دخله السنوى ١٥٠٢٦ جنيها بينما دخل من يملك أقل من فدان ٨ جنيهات فى السنة .

فى ظل نظام حضارى متقدم . ولكى تحافظ الدولة على هيبتها وفى الوقت نفسه تظل تتمتع بثقة المواطن وتقديره ومشاركته لها فى الإحساس بالمسئولية والانتماء ، ليمارس ماله من حقوق ويؤدى ما عليه من واجبات ، حرصت الوزارة على ضرورة دراسة القرارات ثم طرحها على كل من الحزب والمعارضة قبل البدء فى تنفيذها . ولما كنت أومن تمامًا بدور المعارضة فى العمل الديمقراطى لذا كنت أردد دائمًا أنه ليست هناك ديمقراطية بلا معارضة .

كذلك كنت أومن بأن الحرص على تنفيذ القوانين ومتابعتها هو قمة العمل الديمقراطى ، فلو أن الدولة تعرضت للتسيب وسمحت بخروج جماعات معينة من الشعب عن خط الصالح العام لتمارس مصالحها الخاصة المتعارضة فإن الديمقراطية فى هذه الحالة لن تكون إلا ضربًا من الفوضى وعودة إلى نوع من استغلال الأقلية لباقى الجماهير الكادحة .

ولذلك حرصت على أن تتعامل الدولة بحزم فى القضايا التى تعرض الصالح العام لخطر الاعتداء عليه من أى جماعات ذات مصالح مهما كان لها من نفوذ .

ولعل أفضل مثل أسوقه فى هذا الصدد هو الكيفية التى تصدت بها الدولة فى حزم فى مشكلتى الحفاظ على الأراضى الزراعية والمحافظة على البيئة .

الحفـاظ على الأراضـى الـزراعيـة

كانت حكومة الدكتور فؤاد محيى الدين أول من تنبه إلى خطر تبوير الأراضى الزراعية وتجريفها بقصد نهب التربة الزراعية الصالحة للزراعة وتحويلها إلى أرض بور بقصد إنتاج الطوب الأحمر اللازم للبناء ، ولذا أصدرت وزارته القانون رقم ١١٦ لسنة ٨٣ الذى يجرّم هذا العمل محافظة على الأرض الزراعية .

غير أن القانون الذى تصدره الدولة دون متابعة أو تقص لأسباب عدم تنفيذه للعمل على معالجتها سرعان ما يصبح حبرًا على ورق ويفقد قدرته على التنفيذ . ولذلك عند دراسة مشكلة التبوير رأينا أن أفضل ما نبدأ به فى معالجة هذه المشكلة هو أن نوفر أولا بدائل الطوب الأحمر وبالكمية المناسبة قبل أن نحاسب المخالفين ونصادر أرزاقهم وأعمالهم .

ولقد تبين أن عملية البناء فى ذلك الوقت تستلزم ٦,٥ مليار طوبة سنويًا . لذلك قمنا بتوفير عدد كبير من المصانع التى تنتج نوعيات بديلة من الطوب كالطفلى والرملى والأسمنتى إلى أن وصل الإنتاج ٧,٥ مليار طوبة أى بزيادة مليار طوبة عن المطلوب قبل اليوم الذى حدده القانون ، (١١ أغسطس ٨٥) كفرصة أخيرة لتشغيل القمائن فى مختلف أنحاء

الجمهورية . لذلك تكاتفت وزارة الداخلية مع شرطة المسطحات المائية على إطفاء القمائن ومنع انتقال الطوب الأحمر بين المحافظات وبالأخص فى الوجه البحرى ـ الذى يعد أكبر منتج لهذا الطوب ـ وبالفعل صودر ١٩٦ جرارا و ١٩٤ مقطورة مخالفة للقانون لحساب الدولة .

وبالإضافة إلى ما سبق ، قمت بتشكيل مجموعة عمل لتدرس كيفية منع البناء فوق الأراضى الزراعية الأمر الذى حدث نتيجة للانفجار السكانى والتوسع الأفقى فى البناء الذى زحف على الأراضى الخصبة .

وفى إحدى جلسات مجموعة العمل أشرت بضرورة عمل مسح جوى لكل الأراضى الزراعية بالجمهورية بمقياس رسم $\frac{١}{٥٠٠٠}$ وذلك لمراقبة أى تغير يحدث فى شكل الأرض . ولقد كان هذا العمل من أفضل الحلول العملية ، لأننا لو كنا أوكلنا مسح الأراضى الزراعية إلى نظام المسح الهندسى العادى لاقتضى تنفيذ هذا العمل عشر سنوات يكون قد ضاع فيها نصف مليون فدان زراعى على الأقل .

ولقد تم توزيع الصور الجوية على وكلاء وزارة الزراعة فى المحافظات كمسئولين عن متابعة القانون أمام الوزارة . ومنذ ذلك التاريخ امتنع البناء المخالف وأغلق ملف هذه المشكلة . وإن كان أعيد فتحه بعد تركى الوزارة بإجراء بعض التصالح تحت ضغوط اجتماعية خاصة .

الحفاظ على البيئة

اهتمت حكومة المرحوم فؤاد محيى الدين بالحفاظ على البيئة قدر اهتمامها بالمحافظة على الأرض الزراعية لذا أصدرت القوانين الخاصة به .

ولم تكن مشكلة تلوث البيئة إلا إحدى النتائج الفرعية لمشكلة السرطان السكانى ، فكان هناك التلوث فى مياه النيل ، ثم تلوث الهواء فى الشوارع وفى الأحياء السكنية المكتظة ، ثم تكاثر القمامة فى شوارع القاهرة وعلى شواطئ النيل وفى الأحياء المزدحمة والقرى وغيرها . ولقد لجأت الوزارة إلى فرض ١٠٪ إضافة على تذاكر السفر بالطائرات مع إنشاء صندوق خاص للصرف على مشكلات البيئة تحت إشراف مجلس الوزراء مباشرة .

وأمكن فى سنة واحدة تحصيل ٧٠ مليون جنيه خصص منها مبلغ ٤٠ مليونا للحفاظ على النيل . ثم منعت مصانع حلوان من إلقاء أكاسيد الحديد فى النيل وبدأت دراسة وضع منقيات هواء لمصانع أسمنت طرة . كما ألزمت العوامات الراسية والسفن المتحركة بضرورة تنقية مياه الصرف الخارجة منها للنيل عن طريق تركيب أجهزة تنقية خاصة .

المنـاطـق السـياحيـة

أما المناطق السياحية فقد أعطيت لها أهمية خاصة . حيث وجهت بقية حصيلة صندوق البيئة إليها ، نظرًا لأن السياحة تعتبر مصدرًا رئيسيًا من مصادر الدخل . كما تشكلت لجنة عليا للسياحة برئاسة رئيس الوزراء . وفى الجلسة الوحيدة التى عقدت فى عهدى صدر ٢٧ قرارًا كانت أساس العمل السياحى للسنوات التالية أو بمثابة بذور الإنجاز للأعمال اللاحقة . ولقد تكونت اللجنة من كل الأجهزة التى تعمل فى مجال السياحة كشرطة الجوازات وشرطة السياحة وشركات السياحة ووزارة الثقافة ومصلحة الآثار .

القـانون والشـارع المصـرى

ولاشك أن الشارع هو المرآة الحقيقية لمدى تحضر الدولة وسيادة القانون بين أهلها . والشارع هو أول ما تقع عليه أعين الزائر لأى بلد غريب فيحكم منه على مدى تمدن شعب هذاالبلد ونظافته وثقافته . وإذا كنا نحس بالفارق بين البلاد الأوربية وغيرها من البلاد فإن أول انطباع يجىء إلينا بهذا الإحساس إنما يصل إلينا من أول خطوة نخطوها فى شوارعها .

والمدهش أن التاريخ القديم لمصر كان يطالعنا دائمًا كيف سبقت الحضارة الفرعونية كل حضارات العالم فى كل مظاهر الحياة اليومية وعلى رأسها الشارع المصرى الذى كان يتميز بنظافته وأشجاره وحدائقه وجمال تنسيقه خاصة الشوارع التى تمتد على شواطئ النيل .

وعندما وجهت الوزارة اهتمامها إلى انضباط الشارع المصرى وأحكام نظافته ونظام المرور فيه لكل من المشاة والعربات ، رأت أن تبدأ الحكومة من جانبها بإمداد هذا الشارع أولا بكل الإمكانات والخدمات الفورية كرصف الطرق وتوفير وسائل النظافة ونقل القمامة والعمل على تشجيره وتحديد أماكن عبور المشاة مع استكمال إشارات المرور ثم مراقبة الأسواق ، وبعد ذلك يكون الجميع مطالبين باحترام استخدام هذا الشارع من منع للإشغالات إلى اتباع قواعد المرور والالتزام بالأماكن المخصصة للوقوف . . إلخ .

المجـلس القـومى للسـكان

لقد سبق أن أوضحت أن التزايد السكانى هو الذى يتربع على قمة مشاكلنا وهو الذى ضاعف بقية المشكلات الأخرى المتولدة عنه . وفى سبيل وجود التنسيق الكافى بين مختلف الجهات التى تتعامل مع هذه القضية تم وضع المجلس القومى للسكان تحت إشرافى المباشر .

وكان على الحكومة أن تطبق مبدأ التنسيق فى كافة المجالات الأخرى منعا لأى تضارب أو تناقض بين الجهات التنفيذية مع العمل على إزالة أى ثغرات بينها .

وكما أن هيبة الدولة هدف مطلوب فى حد ذاته لكل ما سبق من أسباب ، فإن تحسين صورة الحكومة فى ذهن المواطنين كان أيضا أحد الأهداف التى كنت أحرص دائمًا على تحقيقها ، موضحًا دائمًا أن هناك فارقًا كبيرًا بين الحكم والتحكم . فالحكم هو الإدارة من أجل الصالح العام ، أما التحكم فهو السيطرة والاستغلال من أجل الصالح الخاص . وشتان ما بين المعنيين الذى يعتمد أحدهما على الصدق والتعاطف والعمل الجاد بينما يعتمد الآخر على الاستعلاء والتكبر والمظهرية .

ومن هنا أفسحت صدرى لكل نقد يوجه نحو شخصى سواء بالصورة أو بالكلمة ولكل حوار أو سؤال يجيئنى من الصحافة أو وسائل الإعلام دونما أى سخط أو تبرم .

ختـــام
مشـاويـر العـمـر

فى ١٠ يوليو ١٩٨٥ كانت الموضوعات المدرجة بجدول أعمال مجلس الوزراء تتناول عددًا من البرامج الرئيسية التى لم تكن ثمرة للدراسات والأبحاث المستفيضة التى انشغلت بها الوزارة طوال أشهر العام الماضى فحسب ، وإنما كانت فى الحقيقة استمرارًا للأعمال والدراسات التى بذلتها الحكومات التى سبقتنى فى جهد وعناء .

وأذكر أن الصحف ركزت فى هذه الأيام على إبراز أهم البرامج التى وضعتها الحكومة وهو برنامج إصلاح المسار الاقتصادى والذى اشتمل بدوره على برامج لتخفيض العجز فى الموازنة العامة للدولة ، وتخفيض العجز فى ميزان المدفوعات ، وترشيد استخدامات القروض وخفض حجم الدين العام ، وترشيد الدعم وضمان وصوله إلى مستحقيه ، والسيطرة على الزيادة السكانية وتطوير إنتاجية العمالة ـ وكذا تطوير أداء الوحدات الاقتصادية التى تملكها الدولة أو تساهم فيها .

وقد اشتمـل أيضا على رعاية القطاع الخاص وتنمية دوره فى توسيع قاعدة الإنتاج فى مصر وكذا حصر الثروات والطاقات والموارد المحلية ، والمحافظة على الطاقة التى تنفد وتنمية الطاقة المتجددة ، وأخيرًا تطوير قدرات الأفراد على الإنتاج والإبداع من خلال التطوير فى التعليم .

ويبدو أن كثيرًا من الدول الغربية كانت تتابع أخبار هذه البرامج باهتمام خاص لأكثر من سبب وعلى رأسها الولايات المتحدة . فعندما أقلتنى الطائرة فى ١٨ يوليو ١٩٨٥ إلى واشنطن (أى بعد نشر هذه البرامج بأسبوع تقريبًا) لمقابلة نائب الرئيس بوش لبحث عدد من

الموضوعات الاقتصادية العاجلة (كان الرئيس ريجان يجرى جراحة بالمستشفى فى ذلك الوقت) بادرنى بوش عندما استقبلنى فى مكتبه بتهنئتى على البرنامج الجديد للحكومة قبل أن أفتح فمى معه بأى كلمة عن الموضوع الذى جئت من أجله !

واستطرد معقبًا على أهمية هذا البرنامج قائلاً :

« إنى أعتقد أن هذا البرنامج يمثل نقطة تحول هامة لتصحيح المسار الاقتصادى لمصر ، وأن الولايات المتحدة ستقدم من جانبها كل دعم لمصر فى هذا المجال » .

إذن لقد مس الرجل تلقائيًا كبد الموضوع الذى جئت من أجله ! وفى اليوم التالى مباشرة زارنى شولتز (وزير الخارجية الأمريكى) بفندق الماديسون (والذى أهاج فى نفسى ذكريات المفاوضات المصرية الإسرائيلية التى مضى عليها نحو ستة أعوام وقتذاك) ووجدته يخطرنى فى انشراح ـ وهو يثنى أيضا على البرنامج ـ **أنه تم تدبير ٥٠٠ مليون دولار نقدًا لمصر من المعونة الأمريكية** . ولقد ألقى على بهذا الخبر وهو يضغط بنبرة خاصة على كلمة نقدًا ، **فكان يدرك تمامًا أنها ستعطينا مرونة كبيرة فى عقد الصفقات لأى متطلّب نحدده باختيارنا بل ومن أى بلد نريده وليس من الضرورى أن يكون هذا البلد هو الولايات المتحدة مانحة المعونة !**

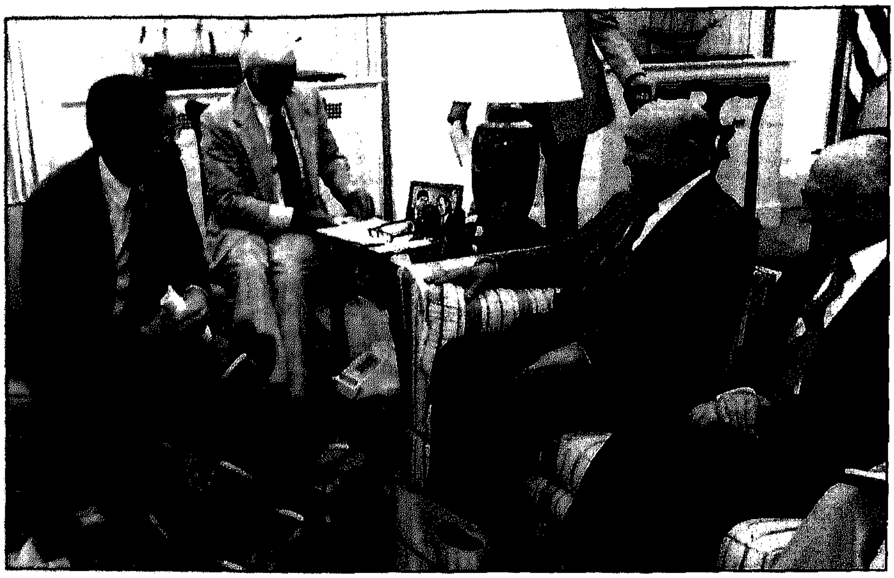
ولقد أسعدنى كثيرًا هذا الخبر الذى رأيت أن أطير به عائدًا إلى القاهرة فى اليوم نفسه !

كان فى نيتى أن أصطحب معى عند العودة زوجتى آمال التى تصادف أنها كانت فى زيارة طويلة لابنتى الثانية الدكتورة منى (طبيبة مناعة الأطفال التى تقيم مع زوجها فى جورج تاون) ولكن ما كدت أتصل بها تليفونيًا حتى علمت أن آمال قد داهمتها آلام المرارة ودخلت لإجراء جراحة عاجلة فى مستشفى جورج واشنطن .

وفى الحال توجهت إلى المستشفى لأطمئن عليها وكانت مازالت فى الإفاقة .

وعندما سألتها كيف حالك قالت لى بهدوئها المعتاد أنا بخير ! أما أنت فعليك أن تحافظ على نفسك .

وفى اليوم نفسه غادرت واشنطن إلى القاهرة وتركت زوجتى فى رعاية منى والدكتور وجدى زوجها . ويبدو أن آمال كانت تشعر بما أنا مقدم عليه إذ لم يكد شهر أغسطس يهل على برطوبة جو الإسكندرية (العدو الأول للروماتويد) مع أعباء تنفيذ البرنامج الجديد حتى بدأت آلام المرض تصحو جميعها لتهاجمنى بعد نوبات خمولها المتربصة ، فأخذت أشعر أن مفاصل قدمى قد بدأت تعجز عن حملى فوقها . وكان التفكير فى الاستقالة من الوزارة قد بدأ



مع بوش نائب الرئيس الأمريكى يوليو ١٩٨٥



مع وزير الخارجية الأمريكى
شولتز

يراودنى قبل ذلك بأسابيع ـ لولا رغبتى الجارفة فى أن أتم المشوار الذى كنت قد انتهيت من وضع خطوطه الأساسية .

وهكذا وجدتنى فى الأسبوع الأخير من أغسطس أقابل الرئيس مبارك لأقدم له استقالتى[1] مؤثرًا أن ينظر فى أمر تشكيل حكومة جديدة لتواجه المشاكل الاقتصادية سواء بنفس برنامجى أو بصورة أفضل داعيًا بالتوفيق لمن يخلفنى فى مهمته التى أعلم يقينا مدى صعوبتها !

توجهت بعد ذلك بأيام إلى سويسرا للعلاج وحدث ما توقعته عندما قال لى الطبيب السويسرى « أيكمان » إن قدمى اليسرى محتاجة إلى جراحة إن عاجلاً أو آجلاً . قالها وهو ينظر إلى طويلاً ليعلم رأيى . . كنت فى الحقيقة أشعر بأنى منهوك القوى فابتسمت وقلت له : حسنًا ! لندعها آجلا . .

* * *

وعندما عدت إلى القاهرة وجدت مجموعتين من الأصدقاء فى انتظارى لتعرض كل مجموعة منهما أن أشغل منصب رئيس مجلس الإدارة لبنكين كبيرين !

ولم يكن عرضهما جديدًا . . فقد سبق أن فاتحانى فيه فى نفس اليوم الذى استقلت فيه من منصبى !

ولقد اعتذرت يومها وطلبت منهما مهلة للراحة والتفكير . وبعد أيام من عودتى إلى القاهرة جاءنى صديقى المرحوم أحمد عنان وعاود طلبه بقبول شغلى لمنصب رئيس مجلس إدارة البنك المصرى الخليجى ووافقت على أن يكون ذلك بدءًا من يناير ١٩٨٦ حتى أعطى لنفسى قدرًا من الهدوء والراحة . .

ولكن يبدو أنى لم أخلق للراحة . ففى خلال هذه الفترة وجدتنى أسحب من أدراج مكتبى أوراق كتابى « محاربون ومفاوضون » لأعيد مراجعته وتنقيحه وأبعث به إلى الأهرام الذى كان قد اتفق معى على نشره فى أكتوبر ١٩٨٦ .

فى البنـك المصـرى الخـليجى

إن رئيس مجلس إدارة أى بنك لا يتدخل كثيرًا فى تفاصيل العمل التنفيذى التخصصى ،

---

(١) خطاب الاستقالة والرد عليها مذكور فى ملحق (ب) المرفق صفحة رقم .

بل يكتفى منه بالتخطيط ورسم السياسة العامة مع التعرف أساسًا على سياسة الدولة وتوجهاتها ومطالب التنمية فيها ليشارك بخبرته فى توظيف إمكانات البنك فى المشروعات التى تساند فى عمليات التنمية الحقيقية . وهذا بالفعل ما فعلته وركزت عليه فشجعت البنك على المساهمة فى الكثير من هذه المشروعات خاصة تلك التى تقتضى إدخال تكنولوجيا حديثة فى الصناعة ـ مثل صناعة الكباسات والمستخلصات الطبية وكثير من المشروعات التى اتخذت المدن الصناعية مقرًا لها .

غير أن العمل البنكى هو أيضًا العمل الذى يطلق عليه « فن المخاطرة » . ومن خلال السنوات القليلة التى عملت فيها بالبنك أدركت تمامًا ما يعنيه هذا الاصطلاح وما فيه من ضغط عصبى وانفعالى على المسئولين فيه ! فأنت كرئيس مجلس إدارة لا تغامر بأموالك فحسب وإنما أنت تخاطر بأموال المودعين معك .. ومن هنا يكون الضغط النفسى كبيرًا ، ويزداد حجمه بحجم المشروع الذى تغامر فيه وكذا بعدد هذه المشروعات . . وتظل تحبس الأنفاس حتى لحظة نجاح المشروع وإتمام سداده .

كان الدكتور إيكهان قد سره كثيرا أنى استقلت من عملى فى الوزارة . . وأخذ يشرح لى فى محاضرة طويلة كيف أن الروماتويد يعتبر على قمة الأمراض التى يسميها الطب بالأمراض السيكوسوماتية (أو الأمراض النفسية الجسدية) أى الأمراض التى تلعب فيها الانفعالات والغدد الصماء دورًا هامًا فى الإصابة بها ـ (كقرحة المعدة والسكر والربو والضغط العالى . . . إلخ) .

ولقد بدأت أفهم الكثير من معانى محاضرته المعقدة عندما بدأت الآلام تتربص بى من جديد ويزداد معها التآكل والنخر فى عظام المفاصل .

وعندما عدت إلى الدكتور إيكهان لكى أقدم على الجراحة الأولى رشح لى أحد الأطباء المتخصصين فى ميونخ فأجريتها فى مارس ٩١ ، ويومها قال لى لا تتوقع أن تكون هذه هى الجراحة الأخيرة !

وبالفعل ذهبت بقدمى مرة ثانية فى العام التالى لأجرى الجراحة الثانية . فى قدمى اليمنى فى نوفمبر ١٩٨٨ .

أما الثالثة فكانت هذه المرة فى الحنجرة والأحبال الصوتية وأجريتها فى العام التالى مباشرة فى مستشفى لندن بريدج ، حتى كانت آخر جراحة لى وكانت أكبرها وأخطرها إذ استمرت ثمانى ساعات ونصف الساعة ، وكانت فى فقرات الرقبة فى مارس ٩١ وفى مستشفى جورج واشنطن



فى آخر اجتماع لمجلس إدارة البنك المصرى الخليجى

بأمريكا . نفس المستشفى الذى سبق أن قالت لى فيه آمال يوما حافظ على نفسك ! ولم أكن بعد ذلك محتاجًا إلى مجادلة الأطباء فى ضرورة التخفف من كافة الأعباء والمسئوليات فقدمت استقالتى من البنك عند عودتى متوقعًا أن يكون ذلك ختام مشاوير العمر وكان ذلك فى ٣٠ يونيو ١٩٩١ !

* * *

ولكن عزيزى القارئ هل كان البنك الخليجى حقًا هو ختام المشاوير ؟ هل الإنسان الذى كتب عليه أن يخوض كل هذه الحروب ويتنقل بين أعباء كل هذه المناصب والمهام يستطيع أن يخلد للراحة لعدة أيام فى رتابة فوق حشوات الفراش ورأسه ممدد لأقصى الخلف يحملق بذهنه وعينيه فى الفراغ !

* * *



مع فان آخت رئيس وزراء هولندا السابق

إنى أذكر أن زوجتى آمال دخلت على بعد بضعة أسابيع لتحمل إلى رسالتين فى يوم واحد . . الأولى تخطرنى بموعد الاجتماع السنوى **لمجلس العمل الدولى المشترك**[١] Interaction Council **الذى يتكون من ثلاثين عضوا من رؤساء الدول ورؤساء الحكومات السابقين والذين يجتمعون مرة كل عام** ليناقشوا بعض الموضوعات التى تقدم فى تقرير للمجلس ليضع عليها توصياته اللازمة لإرسالها للأمم المتحدة والدول المعنية . وكنت قد رُشحت عضوًا فى هذا المجلس منذ بضع سنوات .

أما الخطاب الثانى فكان يخطرنى بأنى أصبحت عضوًا فى **مجلس أمناء الجمعية القومية للتنمية التكنولوجية والاقتصادية بمصر**[٢] .

وفى الوقت نفسه كنت قد انضممت منذ عهد قريب إلى عضوية **الباجواش** وهى جمعية تبحث أساسًا فى موضوعات السلام .

وهنا قالت زوجتى :

ـ هل ستسافر حقا إلى المكسيك لتحضر اجتماع ذلك المجلس العالمى ؟ وفى الحال أجبتها نعم ، وأطلب منك تحضير الحقيبة ، لأنى قد أجدها فرصة للبقاء عند ابنتى منى لبضعة أيام للراحة ولزيارة طبيبى الأخير فى واشنطن ! وعندما سمعتنى أذكر لفظ الراحة صرخت فى

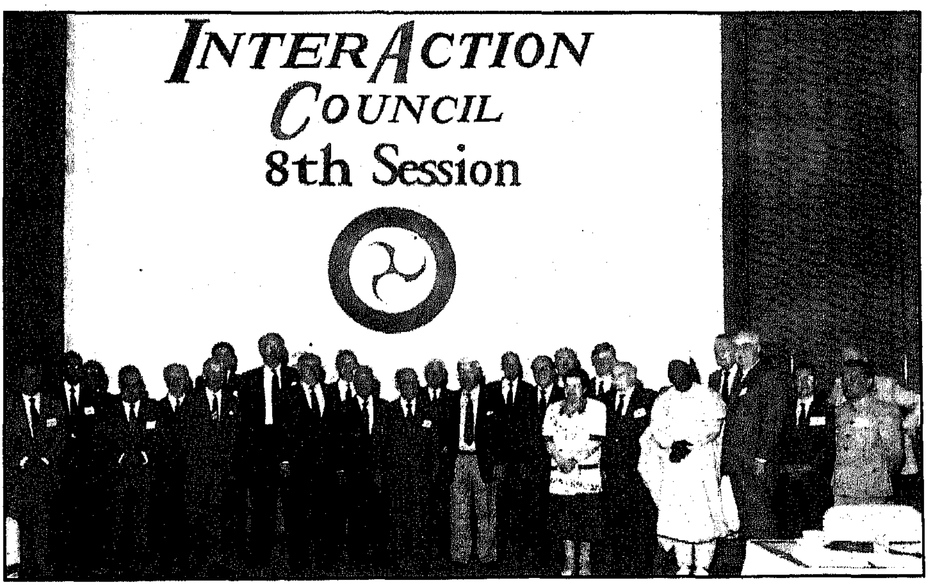
---

(١) انظر تشكيل وأعضاء هذا المجلس بالملحق « جـ » المرفق ـ صفحة ٥٤٥ .

(٢) أهداف الجمعية وتشكيلها ـ انظر الملحق « د » المرفق صفحة ٥٤٧ .



مع رئيس فرنسا السابق جيسكار ديستان



اجتماع مجلس العمل الدولى المشترك

وجهى قائلة : أنت ! أنت تتكلم عن الراحة ! ولكن سرعان ما عاد إليها هدوءها الذى اعتدته منها طيلة حياتنا منذ الأيام الأولى لخطوبتنا .

وأثناء جلوسى فى الطائرة فى طريقى إلى الولايات المتحدة ثم إلى المسيك ، مددت يدى لأفتح حقيبة اليد لأتناول منها بعض الأوراق الخاصة بالمجلس لإعادة قراءتها . عندئذ لاحظت أن آمال لم تنس أن تضع المصحف الصغير الذى أهدته لى قبل حرب ٤٨ فى موضعه فى أعلى الحقيبة وإلى جواره علب الأدوية التى تزايد عددها مع تزايد المشاوير والسنين .

كانت آمال تجلس فى المقعد المجاور لى فشددت على يدها وخرجت من بين شفتى كلمات صامتة أحسبها كانت دعاء إلى الله لها ، فلقد لهثت ورائى هى وأبناؤها الثلاثة كل هذه المشاوير المتلاحقة ! ثم أغمضت عينى وتمتمت فى نفسى قائلا لها ولهم الله !

ثم أنت أيها القارئ الذى أحسبك أيضًا فى حاجة الآن إلى أن تخلد للراحة بعد أن لهثت معى قدرًا طويلاً وأنت تطوى كل هذه الصفحات العديدة مع هذه المشاوير . . . .

فلك الله أنت أيضًا !

ولى !

ولمصر !

آمين !

مــلاحــق

الملحق (أ)

إطـار كامـب ديفيـد (١)

إطار عمل للسلام فى الشرق الأوسط
جرت الموافقة عليه فى كامب ديفيد

اجتمع محمد أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربية ومناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل بجيمى كارتر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية فى كامب ديفيد من الخامس من سبتمبر (أيلول) حتى السابع عشر من سبتمبر (أيلول) عام ١٩٧٨ ، واتفقا على إطار العمل التالى للسلام فى الشرق الأوسط ، وهم يدعون الأطراف الأخرى فى النزاع العربى الإسرائيلى للتقيد به :

☐☐ مقــدمـة

إن السعى نحو السلام فى الشرق الأوسط يجب أن يسترشد بما يلى :

إن الأساس المتفق عليه لتسوية سلمية للنزاع بين إسرائيل وجيرانها ، هو قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ٢٤٢ بجميع أجزائه .

بعد أربع حروب وقعت خلال ثلاثين عامًا، وبالرغم من الجهود البشرية المكثفة فإن الشرق الأوسط مهد الحضارة ومكان ولادة ثلاث ديانات عظيمة لم يستمتع حتى الآن ببركات السلام .

إن شعوب الشرق الأوسط تتوق إلى السلام، حتى يمكن تحويل موارد المنطقة البشرية والطبيعية الهائلة إلى نشدان السلام، ومن أجل أن تتمكن هذه المنطقة من أن تصبح نموذجًا للتعايش والتعاون بين الأمم .

* * *

إن مبادرة الرئيس السادات التاريخية ، المتمثلة فى زيارته للقدس ، والاستقبال الذى قابله به برلمان وحكومة وشعب إسرائيل ، والزيارة المقابلة التى قام بها رئيس الوزراء بيجـين إلى الإسمـاعيلية ،

---

(١) نشره مكتب السكرتير الصحفى للبيت الأبيض .

وعروض السلام التى قدمها الزعيمان بالإضافة إلى الترحيب الحار الذى قابل به شعب الدولتين « هاتين المهمتين» ، قد أوجدت فرصة للسلام لا سابق لها ، يجب ألا تضيع ، إذا كان هذا الجيل والأجيال المقبلة أن يتجنب مآسى الحرب .

إن نصوص ميثاق الأمم المتحدة والقواعد الأخرى المقبولة فى القانون الدولى والشرعية الدولية توفر الآن مقاييس مقبولة لسير العلاقات بين جميع الدول من أجل تحقيق إقامة علاقة سلام بموجب روح المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة ، فإن إجراء مفاوضات بين إسرائيل وأى جار لها على استعداد للتفاوض معها بشأن السلام والأمن، هو أمر ضرورى لهدف تنفيذ جميع نصوص ومبادئ القرارين رقمى ٢٤٢ و ٣٣٨ .

إن السلام يتطلب احترامًا للسيادة ، وسلامة إقليمية واستقلالا سياسيًا لكل دولة فى المنطقة ، وحقها فى العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها ، خالية من التهديدات أو أعمال العنف ، وأن التقدم نحو ذلك الهدف يمكنه أن يسرع التحرك نحو عهد جديد من المصالحة فى الشرق الأوسط يتسم بالتعاون فى تعزيز النمو الاقتصادى وفى المحافظة على الاستقرار وفى ضمان الأمن .

إن الأمن يتعزز بعلاقات سلمية وبتعاون بين الدول التى تتمتع بعلاقات طبيعية ، وبالإضافة إلى ذلك بموجب شروط معاهدات السلام تستطيع الأطراف على أساس التبادل أن تتفق على ترتيبات أمنية خاصة مثل مناطق منزوعة السلاح ومناطق محدودة التسليح ، ومحطات إنذار مبكر ، ووجود قوات دولية ، وإقامة اتصال متبادل ، وتدابير مراقبة متفق عليها ، وترتيبات أخرى يوافقون على أنها مفيدة .

☐☐ إطار العمل

مع أخذ هذه العوامل فى الاعتبار فإن الطرفين مصممان على التوصل إلى تسوية عادلة شاملة ودائمة لنزاع الشرق الأوسط . . ومن خلال عقد معاهدات سلام تستند إلى قرارى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقمى ٢٤٢ ، ٣٣٨ بجميع أجزائهما .

إن هدف الطرفين هو تحقيق سلام وعلاقات جوار حسنة . . وهما يعترفان بأنه إذا كان للسلام أن يدوم فإنه يجب أن يتناول جميع الذين تأثروا بصورة عميقة بالنزاع ، ولهذا فإنهما يتفقان على أن إطار العمل هذا باعتباره ملائمًا قد قصدا به أن يشكل أساسًا للسلام ليس فقط بين مصر وإسرائيل ، بل أيضًا بين إسرائيل وكل من جيرانها الذين هم على استعداد للتفاوض بشأن السلام مع إسرائيل . .

على هذا الأساس ومع وجود هذا الهدف ماثلاً فى الذهن ، فقد اتفقا على المتابعة كما يلى :

☐ الضفة الغربية وغزة

١ ـ على مصر وإسرائيل والأردن وممثلى الشعب الفلسطينى أن يشتركوا فى مفاوضات لحل المشكلة الفلسطينية بجميع وجوهها ، ولتحقيق ذلك الهدف يجب أن تتم المفاوضات المتعلقة بالضفة الغربية

وغزة على ثلاث مراحل :

(أ) إن مصر وإسرائيل تتفقان على أنه من أجل ضمان انتقال سلمى ومنظم للسلطة، ومع الأخذ فى الحسبان بالاهتمامات الأمنية لجميع الأطراف ، يجب أن تكون هناك ترتيبات انتقالية للضفة الغربية وغزة لمدة لا تتجاوز السنوات الخمس ، ومن أجل توفير حكم ذاتى تام للسكان فإن الحكومة العسكرية الإسرائيلية وإدارتها المدنية سوف تنسحب حالما يجرى انتخاب سلطة حكم ذاتى انتخابا حرًا من قبل سكان هذه المناطق لتحل محل الحكومة العسكرية القائمة ومن أجل التفاوض حول تفاصيل الترتيبات الانتقالية ستدعى حكومة الأردن إلى الاشتراك فى المفاوضات على أساس إطار العمل هذا . ويجب أن تولى هذه الترتيبات الجديدة اعتبارًا مناسبًا لبدء الحكم الذاتى من قبل سكان هاتين المنطقتين وللاهتمامات الأمنية الشرعية للأطراف المعنية فى آن معا .

(ب) ستتفق مصر وإسرائيل والأردن على كيفية إنشاء سلطة الحكم الذاتى المنتخبة فى الضفة الغربية وغزة ، وقد يتضمن وفد مصر والأردن فلسطينيين من الضفة الغربية وغزة أو فلسطينيين آخرين ، كما يتفق على هذا الأمر بصورة متبادلة .

وستتفاوض الأطراف بشأن اتفاقية تحدد سلطات ومسئوليات سلطة الحكم الذاتى التى تمارس فى الضفة الغربية وغزة ، وسيجرى سحب القوات الإسرائيلية المتبقية فى مواقع أمنية معينة .

وستتضمن الاتفاقية أيضًا ترتيبات لضمان الأمن الداخلى والخارجى والنظام العام وسيتم إنشاء قوة بوليس محلية قوية . . قد تشتمل على مواطنين أردنيين ، إضافة إلى ذلك ستشترك القوات الإسرائيلية والقوات الأردنية فى دوريات مشتركة وفى تزويد مراكز المراقبة بالرجال من أجل ضمان أمن الحدود .

(جـ) وعندما يتم إنشاء سلطة الحكم الذاتى (وهى المجلس الإدارى) فى الضفة الغربية وغزة . . وتباشر هذه السلطة أعمالها ستبدأ فترة السنوات الخمس الانتقالية وفى أسرع وقت ممكن . . ولكن فى وقت لا يتجاوز السنة الثالثة من بداية الفترة الانتقالية ، ستجرى مفاوضات لتحديد الوضع النهائى للضفة الغربية وغزة وعلاقتهما بجيرانهما ، ولعقد معاهدة سلام بين إسرائيل والأردن فى نهاية الفترة الانتقالية ، وستجرى هذه المفاوضات بين مصر وإسرائيل والأردن وممثلى سكان الضفة الغربية وغزة المنتخبين ، وسيعقد اجتماع اللجنتين مستقلين ولكن مرتبطان . إحداهما تتألف من ممثلين للأطراف الأربعة التى ستتفاوض وتتفق بشأن الوضع النهائى للضفة الغربية وغزة وعلاقتهما مع جيرانهما ، وتتألف اللجنة الثانية من ممثلين عن إسرائيل وممثلين عن الأردن يشترك معهم ممثلون منتخبون من قبل سكان الضفة الغربية وغزة للتفاوض بشأن معاهدة سلام بين إسرائيل والأردن ، آخذين فى الاعتبار الاتفاقية التى يتم التوصل إليها بشأن الوضع النهائى للضفة الغربية وغزة .

إن المفاوضات سترتكز على جميع نصوص مبادئ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ، وستسوى المفاوضات بين أمور أخرى موقع الحدود وطبيعة ترتيبات الأمن ويجب أيضا أن يعترف الحل الناتج عن المفاوضات بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى ومتطلباته العادلة . . وبهذه الطريقة سيشترك الفلسطينيون فى تقرير مستقبلهم عن طريق .

١ ـ المفاوضات بين مصر وإسرائيل والأردن وممثلى سكان الضفة الغربية وغزة وغير ذلك من القضايا المعلقة فى موعد أقصاه نهاية الفترة الانتقالية .

٢ ـ عرض اتفاقهم للتصويت من قبل الممثلين المنتخبين لسكان الضفة الغربية وغزة .

٣ ـ تمكين الممثلين المنتخبين لسكان الضفة الغربية وغزة من أن يقرروا كيف سيحكمون أنفسهم فى صورة تتمشى مع بنود اتفاقهم .

٤ ـ المشاركة حسبما ذكر أعلاه فى عمل اللجنة التى تجرى المفاوضة حول معاهدة السلام بين إسرائيل والأردن .

(د) جميع الإجراءات اللازمة ستتخذ وجميع النصوص ستوضع لضمان أمن إسرائيل وجيرانها فى أثناء الفترة الانتقالية وما وراءها .

وللمساعدة فى توفير هذا الأمن سيجرى تشكيل قوة بوليس محلية قوية من قبل سلطة الحكم الذاتى وستتألف هذه القوة من سكان الضفة الغربية وغزة ، وسيبقى البوليس على اتصال متواصل حول شئون الأمن الداخلى مع الضباط الإسرائيليين والأردنيين والمصريين المعتمدين .

(هـ) فى أثناء الفترة الانتقالية سيشكل ممثلو مصر وإسرائيل والأردن وسلطة الحكم الذاتى لجنة مستمرة لتبت بالاتفاق فى كيفية معالجة إدخال أشخاص شردوا من الضفة الغربية وغزة عام ١٩٦٧ مع الإجراءات اللازمة لمنع الفوضى والاضطراب ، كذلك يمكن لهذه اللجنة معالجة مسائل أخرى ذات اهتمام مشترك . .

(و) ستعمل مصر وإسرائيل مع بعضهما ومع الأطراف الأخرى المعنية على وضع إجراءات متفق عليها لتنفيذ فورى وعادل ودائم لحل مشكلة اللاجئين .

□ مصـر وإسـرائيل

١ ـ تتعهد مصر وإسرائيل بألا تلجأ إلى التهديد بالقوة أو استعمالها لتسوية النزاعات ، وأن أية نزاعات ستسوى بوسائل سلمية وفق نصـوص المادة ٣٣ من ميثاق الأمم المتحدة . ٢ ـ لكى يتم تحقيق السلام بينهما يوافق الفريقان على التفاوض بنية حسنة بهدف عقد معاهدة سلام بينهما فى غضون ثلاثة أشهر من توقيع إطار العمل هذا ، بينما تدعى أطراف النزاع الأخرى للمضى فى نفس الوقت فى التفاوض وعقد معاهدات سلام مماثلة بقصد تحقيق سلام شامل فى المنطقة ، وسيحكم إطار العمل لعقد معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل مفاوضات السلام بينهما ، وسيوافق الفريقان على كيفية المعالجة وجدول زمنى لتنفيذ تعهدهما بموجب المعاهدة .

□ مبادئ مرافقـة

١ ـ تعلن مصر وإسرائيل أن المبادئ والنصوص المشروحة أدناه يجب أن تنطبق على معاهدات السلام بين إسرائيل وكل واحدة من جاراتها مصر والأردن وسوريا ولبنان .

٢ ـ إن الموقعين أدناه سينشئان فيما بينهما علاقات طبيعية كتلك القائمة بين دول فى سلام مع بعضها

ومن أجل هذه الغاية يجب أن يتعهدا بالالتزام بجميع نصوص ميثاق الأمم المتحدة . وتشمل الخطوات التى ستتخذ فى هذا الصدد :

(أ) الاعتراف الكامل .

(ب) إزالة المقاطعة الاقتصادية .

(جـ) الضمان بأن مواطنى الأطراف الذين تحت سلطتهما القضائية سيتمتعون بحماية عملية القانون المناسبة .

٣ ـ يجب أن يتقصى الموقعان الإمكانات من أجل تطور اقتصادى فى إطار معاهدات سلام نهائية بهدف المساهمة فى جو السلام والتعاون والصداقة الذى هو هدفهما المشترك .

٤ ـ يمكن إنشاء لجان مطالبة من أجل التسوية المتبادلة لجميع المطالب المالية .

٥ ـ ستدعى الولايات المتحدة للاشتراك فى المحادثات حول مسائل تتصل بكيفية معالجة تنفيذ الاتفاقيات ووضع جدول زمنى لتطبيق تعهدات الطرفين .

٦ ـ سيطلب من مجلس الأمن الدولى بأن يصادق على معاهدات السلام ويضمن بألا تخرق نصوصها وسيطلب من أعضاء مجلس الأمن الدائمين بأن يكفلوا معاهدات السلام ويضمنوا الاحترام لنصوصها . . وسيطلب منهم أيضًا أن يجعلوا سياستهم وتصرفاتهم متمشية مع التعهدات الواردة فى إطار العمل هذا .

عن حكومة جمهورية مصر العربية

عن حكومة إسرائيل

شاهد التوقيع

جيمى كارتر

رئيس الولايات المتحدة الأمريكية

إطار عمل لعقد معاهدة سلام
بين مصر وإسرائيل

لكى يتحقق سلام بين مصر وإسرائيل توافق الدولتان على التفاوض بنية حسنة بهدف عقد معاهدة سلام بينهما فى غضون ثلاثة أشهر من توقيع إطار العمل هذا . ولقد اتفق على :

ـ أن مكان المفاوضات سيكون تحت علم هيئة الأمم المتحدة (فى موقع أو مواقع) يتفق عليها فى صورة متبادلة .

ـ جميع مبادئ قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ ستطبق فى هذا الحل للنزاع بين مصر وإسرائيل .

ـ ما لم يتفق على غير ذلك فى صورة متبادلة ستنفذ شروط ومعاهدة السلام خلال مدة تتراوح بين سنتين وثلاث سنوات بعد التوقيع على معاهدة السلام .

لقد اتفق على الأمور التالية بين الفريقين

(أ) الممارسة الكاملة للسيادة المصرية على الحدود المعترف بها دوليا بين مصر وفلسطين فى عهد الانتداب .

(ب) انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من سيناء .

(جـ) استعمال المطارات التى يتركها الإسرائيليون قرب العريش ورفح ورأس النقب وشرم الشيخ للأغراض السلمية فقط بما فى ذلك الاستعمال التجارى الممكن من قبل جميع الدول .

(د) حق المرور الحر لسفن إسرائيل عبر خليج السويس وقناة السويس على أساس انطباق ميثاق القسطنطينية لعام ١٨٨٨ على جميع الدول . وأن مضيق تيران وخليج العقبة هما ممران مائيان دوليان يجب أن يكونا مفتوحين لجميع الدول من أجل حرية ملاحة غير معرقلة وغير متوقفة وتحليق جوى .

(هـ) بناء طريق برى عريض بين سيناء والأردن قرب إيلات مع مرور حر وسلمى مضمون لمصر والأردن .

(و) مرابطة قوات عسكرية كما هو مبين أدناه .

□ مرابطة القوات

١ ـ لا يسمح بمرابطة أكثر من فرقة واحدة مدرعة أو مشاة من القوات المصرية المسلحة داخل منطقة تقع على مسافة ٥٠ كيلو مترا تقريبًا إلى الشرق من خليج السويس وقناة السويس .

٢ ـ إن قوات الأمم المتحدة وقوات البوليس المدنى المزودة بأسلحة خفيفة لإنجاز المهام البوليسية العادية ، هى فقط سترابط ضمن منطقة تقع غربى الحدود الدولية وخليج العقبة ويتراوح عرضها بين ٢٠ كم ، ٤٠ كم.

٣ ـ داخل المنطقة الواقعة على مسافة من ٢ ـ ٣ كم إلى الشرق من الحدود الدولية ستكون هناك قوات إسرائيلية عسكرية محدودة لا تتجاوز أربع كتائب مشاة ومراقبين دوليين .

٤ ـ وحدات من دوريات الحدود لا تتجاوز ثلاث كتائب ، تقوم بمعاونة البوليس المدنى فى المحافظة على النظام فى المنطقة غير المشمولة أعلاه .

سيتقرر التخطيط الدقيق للمناطق أعلاه خلال مفاوضات السلام .

يمكن إقامة محطات للإنذار المبكر لضمان الامتثال لنصوص الاتفاق .

□ سترابط قوات الأمم المتحدة

(أ) فى جزء من منطقة سيناء الواقعة ضمن حوالى ٢٠ كيلو مترا من البحر الأبيض المتوسط ومتاخمة للحدود الدولية .

(ب) فى منطقة شرم الشيخ لضمان حرية المرور عبر مضيق تيران وهذه القوات لن تنسحب ما لم يوافق على هذا الانسحاب مجلس الأمن الدولى بتصويت إجماعى للأعضاء الدائمين الخمسة .

بعدما توقع معاهدة سلام وبعدما يكتمل الانسحاب المرحلى ستقام علاقات طبيعية بين مصر وإسرائيل بما فى ذلك الاعتراف الكامل ويشمل العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية وإنهاء المقاطعة الاقتصادية والعوائق التى تعترض التنقل الحر للسادة الأشخاص ، والحماية المتبادلة للمواطنين بعملية القانون المناسبة .

□ الانسحاب المرحلى

خلال فترة تتراوح بين ثلاثة أشهر وتسعة أشهر بعد توقيع معاهدة السلام ستنسحب جميع القوات الإسرائيلية إلى الشرق من خط يمتد من نقطة شرقى العريش إلى رأس محمد وسيتحدد الموقع الدقيق لهذا الخط باتفاق متبادل .

عن حكومة جمهورية مصر العربية

عن حكومة إسرائيل

شاهد التوقيع

جيمى كارتر

رئيس الولايات المتحدة الأمريكية

الملحق (ب)

خطاب استقالة السيد كمال حسن على

السيد الرئيس محمد حسنى مبارك . .

تحية طيبة واحترامًا وبعد ،

فمنذ عهدتم إلى سيادتكم بتشكيل الوزارة فى ١٧ يوليو ١٩٨٤ آليت على نفسى أنا وزملائى نواب رئيس الوزراء والوزراء أن نعمل بكل طاقتنا من أجل تحقيق الأهداف القومية العليا والسهر على مصالح الشعب الأساسية ووضع رؤية شاملة لكيفية مواجهة المشاكل القائمة بأسلوب علمى يعتمد على التخطيط للمدى القصير والطويل على السواء وإعادة ترتيب أولويات العمل الوطنى بما يتفق مع التحديات المتجددة والظروف المتغيرة .

وقد وصلنا فى عملنا إلى نقطة رأينا أنها تقتضى إتاحة الفرصة أمام جيل جديد من أبناء مصر لمواصلة المسيرة القومية تحقيقًا لمبدأ استمرار العمل الوطنى وتتابع حلقاته ، بحيث تتمكن الأجيال المتعاقبة من المشاركة المتكافئة فى حمل الأمانة ودفع ضريبة العمل العام وتوظيف كل طاقاتها لخدمة الوطن الحبيب ، فى إطار نظرة مستقبلية شاملة تتطلع دائمًا إلى ما وراء الحاضر .

ولذلك قرر مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة اليوم « الأربعاء » تقديم استقالته إلى سيادتكم متمنيًا لمصر مزيدًا من الرفعة والتقدم وسنظل جميعًا جنودًا مخلصين للوطن بغض النظر عن مواقعنا فى مسيرة النضال الوطنى معتزين بثقتكم الغالية وتأييد شعبنا العظيم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

كمال حسن على

خطاب الرئيس بقبول استقالة الوزارة

السيد كمال حسن على

تحية طيبة وبعد

فقد تلقيت كتابكم المؤرخ ٤ سبتمبر ١٩٨٥ الذى قدمتم فيه استقالة مجلس الوزراء الذى توليتم رياسته فى مرحلة دقيقة تزايدت فيها متطلبات العمل الوطنى وتضاعفت الحاجة إلى تعبئة طاقات كل مصرى ومصرية لمواجهة المشاكل التى تراكمت خلال حقبة طويلة مررنا فيها بظروف بالغة الصعوبة فأصبح من المتعين توسيع دائرة العمل الوطنى ، بما يمكننا من وضع مصر على مشارف عصر جديد له تحدياته وأخطاره المختلفة كما أن له آماله وأحلامه وأمانيه .

وأود بهذه المناسبة أن أنوه بالجهد الطيب الذى بذلتموه أنتم وزملاؤكم فى المجلس فى الفترة التى توليتم فيها المسئولية والأسلوب الموضوعى الذى اتبعتموه فى أداء تلك الفريضة الوطنية وهو ما عهدناه فيكم فى شتى المواقع التى شغلتموها فى خدمة الوطن والدفاع عن مصالحه بحيث كانت مسيرتكم سجلاً متصلا للبذل والعطاء ووضع المصالح العليا للوطن فوق كل اعتبار .

ويهمنى أن أعبر لكم ولزملائكم فى مجلس الوزراء عن خالص شكرى وتقديرى للدور الإيجابى الذى قمتم به أثناء توليكم هذه المسئوليات الجسام متمنيًا لكم جميعًا كل توفيق وسعادة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمد حسنى مبارك

الملحق (جـ)

أسماء أعضاء مجلس العمل الداخلى الدولى

ورؤساء الدول والحكومات بعد :

مسلسل	الاسم	البلد	ملاحظات
١	هيلموت شميت	ألمانيا	رئيسًا
٢	تاكيو فوكودا	اليابان	رئيسا فخريا
٣	ماريا دى لورد بنتلسنجو	البرتغال	نائبا للرئيس
٤	أندريه فان أكت	هولندا	
٥	كمال حسن على	مصر	
٦	جوليو أندريوتى	إيطاليا	
٧	أوسكار أرياس سنشيز	كوستاريكا	
٨	كيرتى ندهى بيستا	نيبال	
٩	لورد كالاهان أف كارديف	المملكة المتحدة	
١٠	جاك شابان دلماس	فرنسا	
١١	كريا نجساك شومانانا	تايلاند	
١٢	ميجل ديلا مدريد هورتادو	المكسيك	
١٣	جينو فوك	هنغاريا	
١٤	جيرالد فورد	الولايات المتحدة الأمريكية	
١٥	مالكولم فريزر	أستراليا	

تابع الملحق (جـ)

مسلسل	الاســــــم	البــلد	ملاحظـات
١٦	كورت فور جلر	سويسرا	
١٧	إدوارد جيرك	بولندا	
١٨	فاليرى جسكار ديستان	فرنسا	
١٩	ميخائيل جورباتشوف	الاتحاد السوفييتى	
٢٠	سليم حص	لبنـان	
٢١	لى كوان يو	سنغـافورة	
٢٢	دانيل ليسولو	زامبيـا	
٢٣	لوبو فورتونا تود وناسيمنتو	إنجـولا	
٢٤	الو سيجن أوبا سنجو	نيجيريا	
٢٥	أحمد عثمان	المغـرب	
٢٦	ميسل باسترانا بوريرا	كولومبيـا	
٢٧	شيمون بيريز	إسرائيـل	
٢٨	ميتجا رابيتشش	يوجوسلافيـا	
٢٩	شن هيون هواك	كوريا الجنوبية	
٣٠	بيير إليوت ترودو	كنـــدا	
٣١	أدلفو سواريز	إسبانيـا	
٣٢	أولا أولستين	السـويد	
٣٣	براد فورد موريس	الولايات المتحدة	عضو شرف

الملحق (د)

الجمعية القومية للتنمية التكنولوجية والاقتصادية

أهـداف الجمعيـة

هذه الدعوة هى وقفة موضوعية ونظرة متأنية آملة لمستقبل تدعيم استمرار نشاط الجمعية المتميز بما تهدف إليه من تعبئة وتنسيق جهود الخبراء والمختصين فى مجالات التطبيقات المتنوعة للعلم والتكنولوجيا لخدمة أغراض التنمية الشاملة .

وتحقيقًا لهذا الهدف تعمل الجمعية على تكامل وتضاعف جهود الخبراء فى المجالات المختلفة لاهتمامات الجمعية ، وهى مجالات التنمية العلمية والتكنولوجية والاقتصادية والتشريعية والتخطيطية والإدارية والإعلامية والتعاون الدولى . ولذلك تقوم الجمعية بحشد جهود الخبراء المتمرسين فى هذه المجالات على مستوى المؤسسات العامة والخاصة والأفراد بغرض تحفيز الجهود وتدعيمها للقيام بما يأتى :

١ ـ إعداد البرامج والمؤتمرات والندوات والبحوث .

٢ ـ تقديم دراسات الخبرة والمشورة والمعاونة .

٣ ـ الدراسات والاستقصاءات القومية والقطاعية والمؤسسية فى المجالات المذكورة بعاليه .

٤ ـ دراسات الإشراف على وتقييم الخطط والبرامج القطاعية والمؤسسية .

٥ ـ التنسيق بين شبكات المعلومات وإيجاد قنوات اتصال بين الخبراء والمؤسسات المعنية والمستفيدين .

٦ ـ إصدار التقارير الدورية التى تتضمن تقييماً للواقع ، والتنبيه إلى التطورات المستقبلية وانعكاساتها المحلية والعالمية المتوقعة .

٧ ـ إقامة روابط التعاون مع الجهات المعنية فى مجال تخصصها على المستويات القومية والإقليمية والدولية .

* د. عصمت عبد الحميد عز
* أ. د. على الدين هلال
* أ. د. على صادق
* أ. د. محمود محفوظ
* د. محمد رءوف حامد
* د. مختار عوض هلودة
* أ. د. مصطفى الرفاعى
* د. مصطفى أحمد مصطفى
* أ. د. نعمت هاشم
* د. وهبى غبريال وهبة

المراجـع

١ ـ مذكرات سعد زغـلول . . . . سعد زغلول

٢ ـ كلمات ومواقف . . . . منى مكرم عبيد

٣ ـ مذكراتـــى . . . . إسماعيل صدقى

٤ ـ مذكرات فخرى عبد النور . . . . فخرى عبد النور

٥ ـ تاريخ الحركة القومية . . . . عبد الرحمن الرافعى

٦ ـ حـكايات سبتمبر ٤٢ . . . . مصطفى بهجت بدوى

٧ ـ تطور الحركة الوطنية فى مصر ١٩١٨ ـ ١٩٣٦ . . . . د. عبد العظيم رمضان

٨ ـ ثورة ٢٣ يوليو ـ تاريخنا القومى فى ٧ سنوات . . . . عبد الرحمن الرافعى

٩ ـ حرب العدوان الثلاثى على مصر . . . . هيئة البحوث العسكرية

١٠ ـ الطريق إلى السويس . . . . هنرى أوزو

١١ ـ حرب السويس . . . . جنرال بوفر

١٢ ـ الجولة الأولى العربية الإسرائيلية . . . . هيئة البحوث العسكرية

١٣ ـ العسـكرية الصهيونيـة . . . . مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية

١٤ ـ قصة السويس : آخر المعارك فى عصر العمالقة . . . . أحمد حسنين هيكل

١٥ ـ أزمة الأمة العربية وثورة اليمن . . . . د. عبد الرحمن البيضانى

١٦ ـ الدور المصرى فى اليمن . . . . أحمد يوسف أحمد

١٧ ـ اليمن ـ الثورة والحرب حتى عام ١٩٧٠ . . . . ادجار أوبالانس

١٨ ـ حرب الأيام الستة . . . . ادجار أوبالانس

١٩ ـ من سينـاء إلى الجـولان . . . . جمال حماد

٢٠ ـ الجـولة الثـالثـة . . . . هيئة البحوث

٢١ ـ الانفجـار ١٩٦٧ . . . . محمد حسنين هيكل

٢ ـ مذكرات كيسينجر . . . . د. هنرى كيسينجر
٢ ـ مذكـرات بن أليعـازر . . . . بن اليعازر (رئيس الأركان الإسرائيلى ٧٣)
٢ ـ يوميات حرب أكتوبر . . . . المشير محمد عبد الغنى الجمسى
٢ ـ قصة حياتى من جزأين (٤٨ ـ ٥٦ ـ ٦٧ ـ ٧٣) . . . . . موشى ديان The Story of My Life
٢ ـ أمن مصر القومى . . . . محمد حافظ إسماعيل
٢ ـ مذبحة الأبريـاء . . . . وجيه أبو ذكرى
٢ ـ لعبة الأمم . . . . مايلز كوبلاند
٢ ـ السـادات . . . . دافيد هيرست وايرين بيسون
٣ ـ خريف الغضب . . . . محمد حسنين هيكل
٣ ـ الفرص الضائعة . . . . أمين هويدى
٣ ـ إستراتيجية المصالحة . . . . من مذكرات فريق أول محمد فوزى
٣ ـ البحث عن الذات (قصة حياتى) . . . . أنور السادات
٣ ـ السادات الحقيقة والأسطورة . . . . موسى صبرى
٣ ـ المخابرات والعالم الجزء = ٢ ، ٣ . . . . سعيد الجزائرى
٣ ـ (آلن دالاس) كنت رئيسا للـ سى . آى . إيه . . . . ترجمة علاء الأعسر
٣ ـ (آلن غيران) رجالات سى . آى . إيه . . . . ترجمة علاء الأعسر
٣ ـ من أوراق رئيس المخابرات الأسبق : أحمد كامل يتذكر . . . . بقلم أحمد عز الدين
٤ ـ من يجرؤ على الكـلام . . . . بول فندلى
٤ ـ أوراق سـياسية . . . . سيد مرعى (٣ أجزاء)
٤ ـ السلام الصعب . . . .
٤ ـ الصـراع من أجـل السـلام . . . . عيزر فايتسمان
٤ ـ مذكـرات عبد اللطيـف البغـدادى (من جزأين) . . . . عبد اللطيف البغدادى

رقم الإيداع ٢٤٤٢ / ٩٤
I. S.B.N : 977 - 09 - 0198 - 9

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



مشاوير العمر

